٢٨

التنزيل

من اول النحل الى الكهف

ورق سطر ۲۱

الحمد لله الذي اظهر من آثار سلطانه وجلال كبريائه
ما خيّر مُقل العقول من عجائب قدرته • وردع خطرات
هماهم النفوس عن عرفان كنه صفته يعلم عجيج الوحوش
في الفلوات • ومعاصي العباد في الخلوات • واختلاف النينان
في البحار الغامرات • وتلاطم الماء بالرياح العاصفات الذي
عظم حلمه فعفا • وعدل في كل ما قضى وعلم ما يمضي وما
مضى له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحت
الثرى • وان تجهر بالقول فانه يعلم السرّ واخفى • الله لا اله
الا هو له الاسماء الحسنى • كان ولا مكان ولا حين ولا اوان
ولا وقت ولا زمان ولا ظل ولا غمام ولا هواء ولا هوام ولا خلق
ولا انام ولا خامد ولا جامد ولا راكد ولا هامد ولا متحرك ولا ساكن
ولا ظاهر ولا باطن ولا قلم ولا لوح ولا جسم ولا روح ولا عرش
ولا كرسي ولا جني ولا انسي ولا خفض ولا رفع ولا ضر ولا نفع

ولا طول ولا عرض ولا سماء ولا ارض ولا ليل ولا نهار ولا جنة
ولا نار واحد وحداني ليس معه آله ثاني باق لا يبلى دائم لا يفنى عالم
لا يلهو حافظ لا يسهو جبار لا يضام عزيز لا يرام حي لا يموت
ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت احمده حمدا يليق بعلو
شانه وباهر برهانه وقديم احسانه وعظيم امتنانه •
واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له شهادة مقرونة
بالصدق والصواب مبرّاة عن الشك والشبهة والارتياب
واشهد ان محمدا عبده ورسوله ارسله بالهدى ودين الحق
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون صلى الله عليه وعلى آله
واصحابه وسلم تسليما • اما بعد فهذا كتاب نرجو من فضل
الله العميم واحسانه القديم ان يوفقنا لنظمه وتنقيحه وتهذيبه
وتلويحه ورتبناه على اربعة اقسام القسم الاول ما يتعلق
بعلم الاصول والثاني ما يتعلق بعلم الفروع والثالث ما يتعلق
بعلم الاخلاق وتصفية الباطن والرابع ما يتعلق بالمناجات والدعوات
ونسال الله العظيم ان يوفقنا لاتمامه انه خير مأمول واتم
مسئول القسم الاول من هذا الكتاب ما يتعلق بعلم الاصول
واعلم ان القران العظيم قد دل على ان مقاصد الايمان مبنية
على امور اربعة كما قال تعالى والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته
وكتبه ورسله فنحن رتبنا علم الاصول على هذه القواعد
الاربعة القاعدة الاولى في معرفة الله تعالى • واعلم ان معرفة
الله تعالى لا تحصل الا بمعرفة امور خمسة معرفة الذات والصفات

والافعال والاحكام والاسماء فنحن جعلنا معرفة الله تعالى مبنية
على هذه الاصول الخمسة **الباب الاول** في معرفة الذات وفيه فصول
الفصل الاول في اسرار كلمة لا اله الا الله قال سبحانه لرسوله عم
فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات
واعلم انه تعالى قدم الامر بمعرفة التوحيد على الامر بالاستغفار
والسبب فيه ان معرفة التوحيد اشارة الى علم الاصول والاشتغال
بالاستغفار اشارة الى علم الفروع والاصل يجب تقديمه على الفرع
فانه ما لم يعلم وجود الصانع امتنع الاشتغال بطاعته وخدمته
وهذه الدقيقة معتبرة في ايات كثيرة اولها ان ابرهيم عليه السلام
لما اشتغل بالدعاء قدم المعرفة على الطاعة فقال رب هب لي حكما
والحقني بالصالحين فقوله هب لي حكما اشارة الى استكمال القوة
النظرية بمعرفة حقايق الاشياء وقوله والحقني بالصالحين اشارة
الى استكمال القوة العملية بالاجتناب عن طرفي الافراط والتفريط
فقدم العلم على العمل والله اعلم وثانيها انه تعالى لما اوحى الى موسى عم
راعى هذا الترتيب فقال وانا اخترتك فاستمع لما يوحى انني انا الله
لا اله الا انا فاعبدني الاية فقوله لا اله الا انا اشارة الى علم
الاصول وقوله فاعبدني اشارة الى علم الفروع وثالثها ان عيسى عليه
لما انطقه الله تعالى في المهد في وقت الطفولية قال اني عبد الله
اتاني الكتاب وجعلني نبيا فقوله اني عبد الله اشارة الى علم الاصول
وقوله اتاني الكتاب اشارة الى علم الفروع فان الاحتياج الى الكتاب
انما يكون في معرفة الاحكام والشرايع لا معرفة ذات الله تعالى وصفاته

ورابعها الاية التي نحن فيها على ما قررناه ولا نزاع ان افضل الانبياء
والرسل عليهم السلام هؤلاء الاربعة فلما ثبت ان الله تعالى قدم
الامر بمعرفة الاصول على معرفة الفروع في حق هؤلاء الانبيا المكرمين
ثبت ان الحق الصحيح الصريح ليس الا ذلك ومما يؤيد ذلك وجوه اخرى
احدها ان اكثر المفسرين على ان اول ما انزل الله تعالى على محمد عليه
هو قوله اقرا باسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك
الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم فهذه الايات مشتملة
على دلايل التوحيد وذلك لان اظهر الدلايل الدالة على وجود
الصانع الحكيم تولد الانسان من تلك النطفة ثم انه تعالى نبه
في هذه الاية على لطيفة عجيبة ولا يتاتى شرحها الا في معرض السؤال
والجواب فان قال قايل لا بد من رعاية النظم بين اجزاء الكلام وههنا
ذكر الله تعالى تولد الانسان من النطفة ثم قال الذي خلق خلق الانسان
من علق ثم ذكر بعده انه تعالى علم الانسان ما لم يعلم فاي مناسبة
بين هذين الامرين والجواب ان اخس المراتب وادناها العلقة وذلك
لانه يستقذرها كل احد واعلى المراتب واشرفها كون الانسان
عالما محيطا بحقايق الاشياء كانه قال عبدي تأمل الى اول حالك
حين كنت علقه وهي اخس الاشياء والى اخر حالك حين صرت ناطقا عالما
بحقايق الاشياء وهو اشرف المراتب حتى يظهر لك انه لا يمكن الانتقال
من تلك الحالة الخسيسة الى هذه الدرجة الشريفة الا بتقدير اقدر
القادرين واحكم الحاكمين سبحانه وتعالى عن قول الظالمين وثانيها
انه تعالى مدح في اول سورة البقرة المؤمنين من اول السورة الى قوله

اولئك هم المفلحون ثم ذم الكافرين في ايتين اولهما قوله ان الذين كفروا
الى قوله ولهم عذاب عظيم ثم ذم المنافقين في ثلث عشرة اية اولها
قوله ومن الناس من يقول امنا بالله الى قوله يا ايها الناس اعبدوا
ربكم ثم لما مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين كانه قيل هذا
المدح والذم لا يستقيمان الا بتقديم الدلايل على اثبات التوحيد
والنبوة والمعاد فان اصول الاسلام هي هذه الثلثة فلهذا السبب
بين تعالى صحة هذه الاصول الثلثة بالدلايل القاطعة فبدا اولا
باثبات الصانع وتوحيده وبين ذلك بخمسة انواع من الدلايل
اولها انه تعالى استدل على التوحيد بانفسهم واليه الاشارة بقوله
ربكم الذي خلقكم وثانيها باحوال ابائهم واجدادهم واليه الاشارة
بقوله والذين من قبلكم وثالثها باحوال الارض واليه الاشارة
بقوله الذي جعل لكم الارض فراشا ورابعها باحوال السما واليه
الاشارة بقوله والسماء بناء وخامسها باحوال الحادثة المتعلقة
بالسماء والارض واليه الاشارة بقوله وانزل من السماء ما فاخرج به
من الثمرات رزقا لكم فان السماء كالاب والارض كالام تنزل قطرة
المطر من صلب السماء الى رحم الارض فيتولد منه انواع النبات فلما ذكر
هذه الدلايل الخمسة رتب المطلوب عليها فقال فلا تجعلوا لله اندادا
وانتم تعلمون وذلك لان هذه الدلايل تدل على وجود الصانع القادر
من وجه وعلى كونه تعالى واحدا من وجه آخر فانها من حيث انها
حدثت مع جواز ان لا تحدث ومع جواز ان تحدث على خلاف ما حدثت
تدل على وجود الصانع القادر ومن حيث انها حدثت لا على وجه

الخلل

الخلل والفساد دلت على وحدة الصانع كما قال تعالى لو كان فيهما الهة
الا الله لفسدتا فلهذا السبب ذكر بعد تلك الدلايل الخمسة ذينك
المطلوبين احدهما اثبات الصانع والثاني اثبات انه واحد
لان قوله تعالى فلا تجعلوا لله اندادا مشتمل على اثبات الاله وعلى
اثبات كونه واحدا ثم ههنا لطيفة اخرى مرعية في هذه الاية
وهي الترتيب الحسن المفيد في التعليم ان يقع الابتداء في التعليم من الاظهر
فالاظهر مترقيا من الاخفى فالاخفى وهذه الدقيقة مرعيه في هذه
الاية وذلك لانه سبحانه وتعالى قال اعبدوا ربكم الذي خلقكم فجعل
استدلال كل عاقل بنفسه مقدما على جميع الاستدلالات لان اطلاع كل
احد على نفسه اتم على اطلاعه على احوال غيره فيجد من نفسه ضرورة انه
تارة يكون مريضا وتارة صحيحا وتارة ملتذا وتارة متالما وتارة
وليدا وتارة شابا وتارة شيخا والانتقال من بعض هذه الصفات
الى غيرها ليس باختياره ولا باختيار احد وايضا كثيرا ما يجتهد
في طلب شيء فلا يجد وكثيرا ما يكون عنه غافلا فيحصل وعند ذلك
يعلم كل احد عند نقض العزايم وفسخ الهمم انه لا بد من مدبر يكون
تدبيره فوق تدبير البشر وربما يجتهد العاقل الزكي في الطلب
فلا يجد والغر الغبي يتيسر له ذلك المطلوب فعند هذه الاعتبارات
يلوح له صدق قول الامام الشافعي رضي الله عنه ۝ شعر
ومن الدليل على القضاء وكونه ۝ بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق ۝
ويظهر له ان هذه المطالب انما تحصل وتتيسر لنا على قسمة قسام
لا يمكن منازعته ومغالبته كما قال تعالى نحن قسمنا بينهم معيشتهم

في الحيوة الدنيا ثم ان مراتب هذه الاعتبارات غير محصورة فتارة
كما في قوله امن يجيب المضطر اذا دعاه واخرى كما في قوله تعالى
قل من يكلؤكم بالليل والنهار وبالجملة فلما كان اطلاع كل احد
على احوال نفسه ايسر من اطلاعه على احوال غيره لا جرم قدم هذا
الدليل على ساير الدلايل ثم هذه المرتبة يتلوها مرتبة اخرى
وهي علم كل احد باحوال ابائه واجداده واهل بلدته ثم هذه المرتبة
الثانية يتلوها مرتبة ثالثة وهي علم الانسان باحوال
الارض التي هي مسكن الخلايق فانها مختلفة الاجزاء كما قال تعالى
وفي الارض قطع متجاورات وقال ايضا ومن الجبال جدد بيض
وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ثم هذه المرتبة الثالثة يتلوها
مرتبة رابعة وهي العلم باحوال الافلاك فان بعضها يخالف البعض
في العلو والسفل والصغر والكبر والبطؤ والسرعة واختلاف
احوال الكواكب المركوزة فيها كما قال تعالى وكل في فلك يسبحون وقال
رب المشرق والمغرب وقال رب المشرقين ورب المغربين وقال
رب المشارق والمغارب وقال والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره
وقال تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا
منيرا وقال في سورة نوح الم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا
وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا وقال في يس لا الشمس
ينبغي لها ان تدرك القمر ولا الليل سابق النهار الاية وقال فلا اقسم
بالخنس الجوار الكنس والليل اذا عسعس ثم بعد هذه المرتبة الرابعة
مرتبة خامسة وهي الاحوال المتولدة من السماء والارض وهي نزول المطر

القطر من

القطر من صلب السحاب ووقوعه في رحم الارض ثم بعد ذلك في الارض
الواحدة انواع من النبات بحيث يخالف كل واحد منها صاحبه في اللون
والشكل والطعم والطبع والخاصية فمنه ما يكون قوتا ومنه ما يكون
اداما ومنه ما يكون فاكهة ومنه ما يكون دواء ومنه ما يكون
سما ومنه ما يكون علفا لساير الحيوانات فذكر تعالى في تفصيل
المطعومات قوله انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا
الى آخر الاية وقال ان الله فالق الحب والنوى بل اذا نظرت الى ورقة
واحدة من اوراق الورد وجدت احد وجهيها في غاية الحمرة والوجه
الاخر في غاية الصفرة مع انها تكون في غاية الرقة وقلة الثخانة ونحن
نعلم بالضرورة ان نسبة تاثير الكواكب وحركات الافلاك والطبايع
الى كل واحد من وجهي تلك الورقة الرقيقة جدا من الورد نسبة واحدة
فاختصاص احد وجهي تلك الورقة بالحمرة والاخرى بالصفرة لا بد
وان تكون لاجل القادر المختار الذي يفعل بالعلم والقدرة لا بالعلة
والطبيعة واذا عرفت ذلك ظهر لك ان الله تعالى في ترتيب هذه
الدلايل الخمسة وتقديم بعضها على بعض حكما بالغة واسرارا عجيبة
فسبحان من لا نهاية لعلمه ولا غاية لحكمته ثم انه تعالى لما بين دلايل
اثبات الصانع ووحدانيته اردف هذه المسئلة بمسئلة اقامة
الدلالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهي قوله وان كنتم في ريب
مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وذلك لان التحدي وقع
بكل القران في قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان ياتوا بمثل
هذا القران لا ياتون بمثله الاية فلما عجزوا عن معارضة كل القران

اتبعه بالتحدي بعشر سور من القران فقال فاتوا بعشر سور مثله
مفتريات فلما عجزوا عنه اتبعه بالتحدي بسورة واحدة فقال
فاتوا بسورة من مثله فلما عجزوا عنه اتبعه بالتحدي باية واحدة
فقال فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين فلما عجزوا عنه
مع توفر الدواعي ظهر كونه معجزا باهرا وبرهانا قاهرا ثم انه تعالى
اتبع هذه المسئلة بمسئلة المعاد وهي قوله وبشر الذين امنوا وعملوا
الصالحات ان لهم جنات تجري من تحتها الانهار كانه قيل انا قدمنا
مدح المؤمنين وذم الكافرين والمنافقين فلو لم يكن معاد يجد المحسن
ثمرة احسانه ويجد المسيء عاقبة اساءته لم يكن ذلك لايقا بحكمتي
وهذا هو المراد من قوله في يونس للذين احسنوا الحسنى وزيادة وبقوله
في النجم ليجزي الذين اساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى
وقال في طه واقم الصلوة لذكري ان الساعة اتية اكاد اخفيها
لتجزى كل نفس بما تسعى وقال في ص ام نجعل الذين امنوا وعملوا
الصالحات كالمفسدين في الارض ام نجعل المتقين كالفجار فظهر
بما ذكرنا انه تعالى لم يذكر في اول كتابه الا دلايل التوحيد والنبوة
والمعاد واثباته لا بد من تقديم الاصول على الفروع فلهذا السبب
قدم الله تعالى الامر بالتوحيد على الامر بالاستغفار فقال فاعلم
انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك الوجه الثالث في تقرير هذا
الاصل انه تعالى قال في اول سورة النحل ينزل الملائكة بالروح
من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون
فقوله لا اله الا انا اشارة الى علم الاصول وقوله فاتقون اشارة

الى علم الفروع الوجه الرابع ان موسى عليه السلام لما ادعى الرسالة
عند فرعون قال له فرعون وما رب العالمين يعني ان رسالتك
متفرعة على اثبات ان للعالم الها فما الدليل عليه ثم ان موسى عليه السلام
لم ينكر عليه هذا السؤال بل اشتغل بذكر الدلايل الدالة على وجود
الصانع فقال ربكم ورب ابائكم الاولين فاستدل على وجود الصانع
اولا باحوال نفسه وثانيا باحوال ابائه وهو نظير قوله تعالى في سورة
البقرة يا ايها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم
فظهر بما ذكرنا وجوه الفائدة في انه تعالى ذكر اولا قوله فاعلم انه
لا اله الا الله وذكر ثانيا قوله واستغفر لذنبك والله اعلم بحقايق
كتابه فهذا ما يتعلق بالدلايل القرانية الدالة على تقديم علم الاصول
على علم الفروع ولنؤكد هذه الوجوه بخمسة عشر وجها اخرى الحجة
الاولى هو ان شرف العلم بشرف المعلوم فمهما كان المعلوم اشرف
كان العلم الحاصل به اشرف فلما كان اشرف المعلومات ذات الله سبحانه
وتعالى وصفاته وجب ان تكون معرفته وتوحيده اشرف العلوم الحجة
الثانية ان العلم اما ان يكون دينيا او غير ديني ولا شك ان العلم
الديني اشرف من غير الديني واما العلم الديني فاما ان يكون علم الاصول
او ما عداه اما ما عدا علم الاصول فان صحته موقوفة على صحة علم
الاصول لان المفسر انما يبحث عن معاني كلام الله وذلك فرع على معرفة
الصانع المختار المتكلم واما المحدث فانما يبحث عن كلام رسول الله
صلى الله عليه وسلم وذلك فرع على ثبوت نبوته والفقيه انما يبحث عن احكام
الله تعالى وذلك فرع على ثبوت التوحيد والنبوة فثبت ان هذه العلوم

باسرها مفتقرة الى علم الاصول وظاهر ان علم الاصول غنى عنها
باسرها فوجب ان يكون علم الاصول اشرف الحجة الثالثة ان شرف
الشيء قد يظهر بواسطة خساسة ضده فكلما كان ضد الشيء احس
كان هو اشرف ولا شك ان ضد علم الاصول هو الكفر والبدعة وهما
من اخس الاشياء فوجب ان يكون علم الاصول اشرف العلوم الحجة
الرابعة ان شرف العلم تارة تكون لشرف موضوعه وتارة لشدة الحاجة
اليه وتارة لقوة براهينه ودلائله وذلك لان علم الهيئة اشرف
من علم الطب نظرا الى ان موضوع علم الهيئة اشرف من موضوع علم
الطب اشرف من حيث ان الحاجة الى الطب اشد وعلم الحساب اشرف
منهما من حيث ان براهين هذا العلم اقوى وعلم الاصول مستجمع لهذه
الخصال اما شرف الموضوع وذلك لان المبحوث عنه معرفة ذات الله
تعالى وصفاته وقدسه وعظمته وعزته ولا شك انه اشرف
الاشياء واما شدة الحاجة اليه فظاهرة لان الحاجة اما في الدين
واما في الدنيا اما في الدين فلان من عرف هذه المطالب استحق الثواب
العظيم وتخلص عن العقاب الاليم وصار من زمرة الملائكة المقربين
في جوار رب العالمين ومن جهلها صار محروما عن الثواب العظيم
مستوجبا للعقاب الاليم وصار من زمرة الابالسة والشياطين
وبقي في دركات الضلالات ابد الابدين ودهر الداهرين واما في الدنيا
فلان معظم مصالح العالم انما ينتظم بسبب الرغبة في الثواب والرهبة
من العقاب ولولا لوقع الهرج والمرج في العالم واما قوة براهين هذا العلم
فلان براهينها مركبة من المقدمات البديهية الضرورية وهي اقوى العلوم

والمعارف فثبت ان علم الاصول مستجمع لجميع خصال الشرف
فوجب ان يكون اشرف العلوم الحجة الخامسة ان هذا العلم
لا يتطرق اليه النسخ والتغيير ولا يختلف باختلاف النواحي والامم
بخلاف ساير العلوم فوجب ان يكون هذا العلم اشرف العلوم
الحجة السادسة ان الانسان لا يكون من اهل النجاة والدرجات
الا مع هذا العلم وقد يكون من اهل النجاة وان لم يتعلم من الفقه
شيئا اصلا والبتة اما انه لا بد من النجاة من علم الاصول لان الجاهل
بالله وصفاته البتة لا يكون من اهل النجاة بالاجماع واما انه
قد يحصل النجاة بدون الفقه فلان الانسان قبل البلوغ لا يكون
مكلفا بشيء من الاعمال فاذا بلغ وقت الضحى ففي هذه الساعة
لم يجب عليه شيء من الصلوات والزكوات والصيامات وساير
العبادات فلو مات في هذه الساعة مع المعرفة والتوحيد لقي الله
تعالى مؤمنا حقا ولو قدرنا ان هذا الذي بلغ كان امرأة ثم لما
بلغت حاضت وبقيت مدة اخرى في البلوغ فهي غير مكلفة لا بالصلوة
ولا بالصيام ولا بالقران فاذا انقضى زمان حيضها ماتت فقد لقيت
حضرة الله مؤمنة حقا فعلمنا ان النجاة واستيجاب الدرجات
لا يتوقف على الفقه وهي موقوفة على معرفة علم الاصول الحجة
السابعة ان الايات المشتملة على دلايل علم الاصول اشرف من الايات
المشتملة على دلايل علم الفروع بدليل انه قد جاء في فضيلة قل هو الله
احد وآمن الرسول وآية الكرسي وشهد الله ما لم يجئ مثله في فضيلة
قوله تعالى ويسئلونك عن المحيض وقوله احل الله البيع وحرم الربوا

ويا ايها الذين امنوا اذا تداينتم بدين ولذلك فان الزهاد والعباد
مواظبون فى شرايف الاوقات على قراة هذه الايات المشتملة
على الالهيات دون الايات المشتملة على هذه الاحكام الحجة
الثامنة ان الايات الواردة فى الاحكام الشرعية اقل من ستمائة
اية واما البواقى فهى فى بيان التوحيد والرد على عبدة الاوثان
واصناف المشركين وفى اثبات النبوة والمعاد ومسئلة القضاء
والقدر واما الايات الواردة فى القصص فالمراد منها اما التوحيد
واما النبوة فاما التوحيد فهى ان يستدل بها على قدرة الله تعالى
وحكمته كما قال لقد كان فى قصصهم عبرة لاولى الالباب واما على
النبوة فمن وجهين الاول كما قال تعالى فى سورة الشعراء بعد ذكر
القصص وانه لتنزيل رب العالمين نزل به الروح الامين على قلبك ووجه
الاستدلال به انه عليه السلام لما لم يتعلم علما ولم يقرا كتابا ولم
يتلمذ لاستاد استحال منه رواية هذه القصص الا عن وحى الله تعالى
وتنزيله والثانى انه يذكر القصة الواحدة مرارا مختلفة بالالفاظ
مختلفة وكل ذلك متشابهة فى الفصاحة مع ان الفصيح اذا ذكر
قصة واحدة مرة واحدة بالالفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها
مرة اخرى بالالفاظ الفصيحة فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله
لا من البشر فدل هذا على ان معظم القران فى علم الاصول فلنشر الى معاقد
الدلايل اما دلايل التوحيد فتارة بدليل خلق الانسان من النطفة
والله تعالى ذكر هذا الدليل فى القران اكثر من ثمانين مرة وتارة بدلايل
الافاق وهى احوال السماء والارض والهواء والنبات والحيوان

وهى اظهر من ان نحتاج فيه الى الشرح واما الدلايل على الصفات
فنقول اما الذى يدل على العلم فكقوله ان الله لا يخفى عليه شىء
فى الارض ولا فى السماء ثم اردفه بقوله هو الذى يصوركم فى
الارحام كيف يشاء وهذا هو دليل المتكلمين فانهم يستدلون
باحكام الافعال واتقانها على علم الفاعل وهاهنا استدل
سبحنه بتصوير الصور فى ظلمات الارحام على كون الفاعل عالما وقال
ايضا الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وهو عين تلك الدلالة وقال
وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وهذا تنبيه على كونه تعالى عالما
بكل المعلومات لانه تعالى يخبر عن المغيبات فيقع تلك الاشياء
على وفق ذلك الخبر وذلك يدل على كونه تعالى عالما بكل المغيبات بخلاف
الانسان واما صفة القدرة فكل ما ذكر الله فى القران من الثمار
المختلفة والحيوانات المختلفة مع استواء تاثير الطبايع والافلاك
فانه يدل على صفة القدرة وسيجىء الاستقصاء فى هذا بدلايل
القرانية الحجة التاسعة انه تعالى حكى عن اكثر الانبياء عليهم السلام
انهم كانوا طول عمرهم مشتغلين بهذه الدلايل ولنذكر ما ينبه
على المقصود اما الملائكة عليهم السلام فانهم لما قالوا اتجعل فيها
من يفسد فيها الاية كان المراد ان خلق امثال هؤلاء سبب الشر والفتنة
وذلك قبيح والحكيم لا يفعل القبيح فاجابهم الله تعالى بقوله انى اعلم
ما لا تعلمون والمعنى والله اعلم انى لما كنت عالما بكل المخلوقات
كنت قد علمت فى خلقهم وايجادهم حكمة لا تعلمونها انتم فلما سمعوا
ذلك سكتوا واما مناظرة الله تعالى مع ابليس فالقران ناطق بها

واما الانبياء عليهم السلام فاولهم ادم وقد اظهر الله الحجة
على فضله بان اظهر علمه على الملائكة وذلك محض الاستدلال
واما نوح عليه السلام فقد حكى الله تعالى عن الكفار بانهم قالوا
يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا ومعلوم ان مجادلة الرسول
مع الكفار لا يكون في تفاصيل الاحكام الشرعية فلم يبق الا انها
كانت في التوحيد والنبوة وايضا انه عليه السلام لما امرهم
بالاستغفار في قوله فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا في الحال
ذكر ما يدل على التوحيد فقال الم تروا كيف خلق الله سبع سموات
طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا واما ابرهيم
عليه السلام فالاستقصاء في شرح احواله في هذا الباب يطول
وله مقامات احدها حاله مع نفسه وهو قوله فلما جن عليه
الليل راى كوكبا قال هذا ربي فلما افل الى اخر الايات وهذا هو طريقة
المتكلمين فانه استدل بافولها وتغيرها على حدوثها ثم استدل
بحدوثها على وجود محدثها كما اخبر الله تعالى عنه في قوله قال يا قوم
انى بريء مما تشركون انى وجهت وجهي الاية ثم انه تعالى عظم شانه
بسبب ذلك فقال وتلك حجتنا اتيناها ابرهيم على قومه نرفع
درجات من نشاء وايضا قال في وقت دعايه ما هو محض الاستدلال
وهو قوله الذي خلقني فهو يهديني والذي هو يطعمني ويسقين الاية
وثانيها حاله عليه السلام مع ابيه وهو قوله يا ابت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر الى اخر الايات وثالثها حاله مع قومه تارة بالقول واخرى
بالفعل اما بالقول فهو قوله ما هذه التماثيل التي انتم لها عاكفون

واما

واما بالفعل فقوله تعالى فجعلهم جذاذا الا كبيرا الاية ورابعها
حاله مع ملك زمانه حيث قال ربي الذي يحيي ويميت الاية فهذه
كله مباحث ابرهيم عليه السلام في معرفة المبدا، واما بحثه في معرفة المعاد
فهو قوله رب ارني كيف تحيي الموتى الى اخره واما موسى عليه السلام
فانظر الى مباحثه مع فرعون واعلم ان موسى عليه ما كان يعول
في الاستدلال الا على دلايل ابرهيم عليه السلام وذلك لانه تعالى
حكى في سورة طه ان فرعون قال له ولهرون فمن ربكما يا موسى
قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى وهذا هو الدليل الذي
ذكره ابرهيم عليه السلام حيث قال خلقني فهو يهدين ثم حكى تعالى
عن موسى في سورة الشعراء انه قال لفرعون ربكم ورب ابائكم الاولين
وهذا هو الدليل الذي عول عليه ابرهيم ع م في قوله ربي الذي يحيي
ويميت فلما لم يكتف فرعون بذلك وطالبه بدليل اخر قال موسى ع م
رب المشرق والمغرب وهذا هو الدليل الذي عول عليه ابرهيم عليه السلام
في قوله فان الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب وهذا
ينبهك على التمسك بهذه الدلايل حرفة هولاء الانبياء عليهم السلام
ثم ان موسى عليه السلام لما فرغ من تقرير دلايل التوحيد ذكر بعده
دلايل النبوة فقال اولو جئتك بشيء مبين وهذا يدل على انه عليه السلام
فرع بيان النبوة على بيان التوحيد والمعرفة واما سليمن عليه السلام
فله مقامان احدهما في اثبات التوحيد والاخر في اثبات النبوة
اما المقام الاول في اثبات التوحيد فهو قوله سبحانه حكاية عنه
الا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ويعلم ما تخفون

وما يعلنون الله لا اله الا هو رب العرش العظيم وهذه الاية
دالة على وصف الله تعالى بالقدرة وبالعلم اما القدرة فقوله
يخرج الخبء فى السموات والارض وسمى الخبء بالمصدر وهو يتناول
جميع انواع الارزاق والاموال واخراجه من السماء بالغيث
ومن الارض بالنبات وتقريره ما قدمنا واما العلم فيدل
على ثبوته قوله ويعلم ما تخفون وما تعلنون واعلم ان المقصود
من هذا الكلام الرد على ان يعبد الشمس وتلخيص الدلالة على قانون
الجدل من وجهين الاول ان الاله يجب ان يكون قادرا على اخراج
الخبء ويكون عالما بالخفيات والشمس ليست كذلك فهى لا تكون
الها اما انه سبحانه يجب ان يكون قادرا عالما على الوجه المذكور
لانه واجب الوجود لذاته فلا يختص علمه وقدرته ببعض المقدورات
وبعض المعلومات دون البعض واما ان الشمس ليست كذلك فانها
جسم متناه وكل ما كان متناهيا فى الذات كان متناهيا فى الصفات
واذا كان كذلك امتنع ان تكون الشمس قادرة على اخراج الخبء وعالمة
بالخفيات واذا لم نعلم من حالها ذلك لم نعلم من حالها كونها قادرة
على جلب المنافع ودفع المضار فيرجع حاصل هذا الدليل الى ما ذكره
ابرهيم عليه السلام فى قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى
عنك شيئا الوجه الثانى ان هذا اشارة الى دليل ابرهيم عليه السلام
فى قوله ربى الذى يحيى ويميت الى اخر الاية وبيانه ان سبحانه هو الذى
يخرج الشمس من المشرق بعد افولها وهذا هو المراد باخراج الخبء
فى السموات وهو المراد من قول ابرهيم لا احب الافلين ومن قوله

ان الله يأتى بالشمس من المشرق ومن قول موسى عليه السلام رب
المشرق والمغرب وحاصل الكلام يرجع الى ان افول الشمس فطلوعها
يدلان على كونها تحت تدبير مدبر قاهر فكانت العبادة لقاهرها
ومدبرها والمتصرف فيها اولى واما اخراج الخبء من الارض
فالمراد منه اخراج النطفة من بين الصلب والترايب وهو المراد
من قول ابرهيم ربى الذى يحيى ويميت ومن قول موسى عليه السلام
ربكم ورب ابائكم الاولين فان قيل ان ابرهيم وموسى عليهما السلام
قدما دلايل النفس على دلايل الافلاك فان ابرهيم قال اولا ربى
الذى يحيى ويميت ثم قال ان الله يأتى بالشمس من المشرق وموسى
عليه السلام قال اولا ربكم ورب ابائكم الاولين ثم قال رب
المشرق والمغرب فلم عكس سليمان عليه السلام هذا الترتيب فقدم
دلايل السموات على دلايل الانفس فقال الذى يخرج الخبء فى السموات
والارض قلنا ان ابرهيم وموسى عليهما السلام كان مناظرتهما
مع من ادعى الهية البشر فان نمرود وفرعون كل واحد منهما كان
يدعى الالهية فلا جرم ابتدأ ابرهيم وموسى بابطال الهية البشر
ثم انتقلا الى ابطال الهية الافلاك والكواكب واما سليمان
فانه كانت مناظرته مع من يدعى الهية الشمس فان الهدهد قال
رايتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله فلا جرم ابتداء بذكر
السماويات ثم بذكر الارضيات ثم ان سليمان عليه السلام لما تمم
دلايل التوحيد قال بعده لا اله الا هو رب العرش العظيم والمراد
انه لما بين افتقار السموات والشمس وساير الكواكب الى مدبر خالق

ذكر بعد ذلك ان كل ما كان جسما فهو مخلوق ومربوب سواء كان
عظيما او صغيرا فقال الا اله الا هو رب العرش العظيم فهذا مقام
سليمان عليه السلام فى تقرير دلايل التوحيد واما المقام الثانى
له عليه السلام فى تقرير دلايل النبوة فهو قوله تعالى حكاية عنه
قال يا ايها الملؤا ايكم ياتينى بعرشها قبل ان ياتونى مسلمين قال
عفريت من الجن انا اتيك به قبل ان تقوم من مقامك وانى عليه
لقوى امين قال الذى عنده علم من الكتاب انا اتيك به قبل ان
يرتد اليك طرفك الاية واعلم ان كثيرا من الناس قالوا ذلك
الشخص الذى قال انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك هو غير
سليمان وظنوا ان الكاف فى قوله انا اتيك به خطاب مع سليمان
وعلى هذا التقدير لابد وان يكون ذلك القايل غير سليمان الا ان
هذا ضعيف بل الصحيح عندنا ان الاتى بذلك العرش العظيم هو سليمان
وذلك لانه عليه السلام انما قال ايكم ياتينى بعرشها على سبيل
التحدى فقال العفريت انا اتيك به قبل ان تقوم من مقامك
فقال سليمان للعفريت انا اتيك به قبل ان يرتد اليك طرفك
فهذا الكلام قاله سليمان عليه السلام للعفريت تقريرا
لتحديه الذى ذكره اولا وكسرا للعفريت واظهارا للمعجزة والذى
يدل عليه وجوه الاول ان سليمان عليه السلام كان قد ذكر
دلايل التوحيد اولا فافتقر بعد ذلك الى تقرير دلايل النبوة
مع بلقيس فان سليمان عليه السلام كان قد كلفها الاقرار
بالتوحيد والنبوة فلما ذكر دلايل التوحيد وجب عليه ان يذكر

بعد ذلك دلايل النبوة وهذا معجز دال على النبوة فوجب جعله معجزا
لسليمن حتى يتم الدليل الوجه الثانى ان لفظة الذى موضوعة فى اللغة
للاشارة الى شخص معين عند محاولة تعريفه بقصة معلومة والشخص
المعروف بان عنده علم الكتاب هو سليمان قال تعالى ففهمناها سليمن
وقال وورث سليمان داود فوجب انصرافه اليه واقصى ما فى الباب
ان اصف ايضا كان عالما بالكتاب الا ان سليمان كان اعرف به منه
لان الرسول كان اعرف بكلام الله من غيره فكان صرف هذا اللفظ
الى سليمان اولى الثالث ان احضار العرش فى تلك الساعة اللطيفة
درجة عالية فلو حصلت لاصف دون سليمان لاقتضى ذلك تفضيل
اصف على سليمان وانه غير جايز الرابع ان سليمان لو افتقر فى هذا
الغرض الى اصف لاقتضى ذلك الى قصور حال سليمان فى اعين الخلق
الخامس ان سليمان قال هذا من فضل ربى الاية وظاهره يقتضى ان
يكون ذلك المعجز قد اظهره الله بدعا سليمان فهذا ما يتعلق باشغال
سليمان عليه السلام بتقرير التوحيد والنبوة واما عيسى عليه السلام
فانه اول ما تكلم شرح امر التوحيد فقال انى عبد الله وشهادته حاله
كانت دالة على صدق مقالته وهذه الكلمة الواحدة كانت جامعة
لكل المقاصد اما دلالتها على التوحيد فلان انطاق الطفل فى
اول زمان الطفولية لا يتاتى الا من الاله القادر على كل المقدورات
واما دلالتها على النبوة فلان اختصاصه بهذا الفعل الخارق
للعادة دال على النبوة واما دلالتها على براءة امه من طعن اليهود
فلانه لا يليق بحكمة الحكيم تخصيص ولد الزنا بهذه الرتبة العالية

والدرجة الشريفة ثم انه عليه السلام بعد هذه الكلمة الوافية
بتقرير كل الاغراض ينتقل الى بيان الشرايع فقال آتاني الكتاب وجعلني نبيا
واما محمد عليه السلام فاعلم ان اشتغاله بتقرير دلايل التوحيد
والنبوة والمعاد اظهر من ان يحتاج فيه الى مزيد تقرير وذلك لانه
عليه السلام كان مبتلى بالرد على جميع فرق الكفار فالاول الدهرية
الذين كانوا يقولون وما يهلكنا الا الدهر فالله تعالى ابطل قولهم
بانه خلق الدهر والزمان والثاني الذين ينكرون القادر المختار
والله تعالى ابطل قولهم بحدوث انواع النبات واصناف الحيوانات
مع اشتراك الكل في تاثير الطبايع والافلاك والثالث الذين
اثبتوا شريكا مع الله وذلك الشريك اما ان يكون علويا او سفليا
والشريك العلوي فمنهم من اثبت ان ذلك الشريك هو الكواكب والشمس والقمر
والله تعالى ابطله بدليل الخليل وهو قوله لا احب الآفلين ومنهم
من قال انه هو النور والظلمة والله تعالى ابطله بقوله الحمد لله
الذي خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور ومنهم
من قال انه يزدان واهرمن والله تعالى ابطله بقوله لو كان فيهما
الهة الا الله لفسدتا وبقوله اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا
وبقوله ولعلا بعضهم على بعض واما الشريك السفلي فمنهم من
قال بالهية المسيح والله تعالى ابطله بقوله لن يستنكف المسيح
ان يكون عبدا لله ومنهم من قال انه هو الوثن والله تعالى ابطله
بقوله افمن يخلق كمن لا يخلق والرابع الذين طعنوا في اهل النبوة
وحكى الله عنهم قولهم ابعث الله بشرا رسولا ثم انه تعالى رد عليهم

بقوله اهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا الخامس الذين طعنوا في
التكليف تارة بانه لا فايدة فيه والله رد عليهم بقوله ان احسنتم
احسنتم لانفسكم وان اسأتم فلها واخرى بان الحق هو الجبر وانه
ما في صحة التكليف والله تعالى اجاب عنه بقوله لا يسئل
عما يفعل وهم يسئلون والسادس الذين سلموا اصل النبوة
وطعنوا في نبوة محمد عليه السلام والقران مملو من الرد عليهم
ثم ان طعنهم كان من وجوه تارة بالطعن في القران من حيث انه
يشتمل على ذكر خسايس الحيوانات من البعوضة والنملة والذبابة
فاجابهم الله تعالى بقوله ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة
فما فوقها وتارة بان القران سحر وشعر فاجاب الله عنه بقوله
فاتوا بسورة من مثله وتارة بالتماس ساير المعجزات وهو قوله
وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعا فاجاب الله تعالى
عنه بان الدليل لما تم لم يبق للاقتراح في الزيادات فايدة وهو
قوله قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا وتارة بان هذا
القران نزل نجما نجما وذلك يطرق التهمة فاجاب الله تعالى عنه بقوله
كذلك لنثبت به فوادك وتارة بانه يحتمل ان يكون هذا القران
من القاء الجن والشياطين كما في حق الشعراء فاجاب الله تعالى عنه
بقوله هل انبئكم على من تنزل الشياطين الاية والسابع الذين
انكروا الحشر والنشر والقران مملو من الرد عليهم فثبت بمجموع
ما ذكرنا ان الاشتغال بدليل التوحيد والنبوة حرفة جميع الانبياء
عليهم السلام الحجة العاشرة الدالة على نهاية شرف هذا العلم

قوله تعالى ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم
بالتي هي احسن وليس المراد منه المجادلة في فروع الشرايع لان من
انكر نبوته فلا فايدة في الخوض معه في تفاريع الاحكام ومن اثبت
نبوته فلا يخالفه فلا يحتاج الى الجدل فعلمنا ان هذا الجدال
المامور به كان في تقرير مسايل الاصول واذا ثبت هنا في حق الرسول
عليه السلام ثبت في حق امته لقوله تعالى حكاية عنه وان هذا صراطي
مستقيما فاتبعوه ولقوله تعالى قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم
الله ولقوله عليه السلام عليكم بسنتي وسنة الخلفاء بعدي
الحجة الحادية عشر قوله تعالى ومن الناس من يجادل في الله بغير علم
ولا هدى ولا كتاب منير وذلك يقتضي ان الجدال مع العلم لا يكون
مذموما وايضا حكى الله تعالى عن قوم نوح انهم قالوا يا نوح قد
جادلتنا فاكثرت جدالنا ومن المعلوم ان ذلك الجدال ما كان الا في تقرير
دلايل الاصول واذا ثبت بهذه الايات ان الجدال في تقرير الدلايل
مستحسن ثبت ان المراد من قوله تعالى ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم
خصمون محمول على ذم الجدل في تقرير الباطل الحجة الثانية عشر انه تعالى
امر بالنظر فقال افلا يتدبرون القران الاية افلا ينظرون الى الابل الاية
سنريهم اياتنا في الافاق وفي انفسهم اولم يروا انا ناتي الارض ننقصها
من اطرافها اولم ينظروا في ملكوت السموات والارض الحجة الثالثة عشر
انه تعالى ذكر المتفكرين في معرض المدح فقال ان في ذلك لايات لاولي
الالباب ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار وذم المعرض فقال وكاين
من اية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وقال لهم

قلوب لا يفقهون بها الحجة الرابعة عشر انه تعالى ذم التقليد فقال
حكاية عن الكفار انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مقتدون
وقال بل نتبع ما الفينا عليه اباءنا وقال بل وجدنا اباءنا كذلك يفعلون
وقال انا وجدنا اباءنا على امة وانا على اثارهم مهتدون وقال ان كاد
ليضلنا عن الهتنا لولا ان صبرنا عليها وقال في والد ابرهيم لئن لم
تنته لارجمنك واهجرني مليا وكل ذلك يدل على وجوب النظر وفساد
التقليد الحجة الخامسة عشر انه تعالى حكى عنهم انهم سالوا محمدا
صلى الله عليه وآله عن امور كقوله ويسئلونك عن المحيض يسئلونك
عن الانفال فذكر في كل هذه المواضع قل كذا وكذا الا في اية واحدة
وهي انهم سالوا عن مسئلة اصولية وهي قوله ويسئلونك عن الجبال
فقل ينسفها الاية فههنا ذكر حرف التعقيب يعني يا محمد اذكر هذا الجواب
في الحال لان هذه المسئلة مسئلة اصولية ولا يجوز تاخير الجواب عنها
لان ذلك يقدح في الايمان اما ساير المسايل فهي فروعية فلا يكون
تاخير الجواب عنها الى وقت الحاجة ضارا فثبت بمجموع هذه الدلايل
وجوب تقديم علم الاصول على الفروع فلا جرم قال تعالى فاعلم انه
لا اله الا الله واستغفر لذنبك الاية قدم الامر بمعرفة التوحيد
على الامر بالاستغفار

الفصل الثاني في فوايد لا اله الا الله

الفايدة الاولى ان هذا الذكر لما كان افضل الاذكار فالعدو لما جاءته
المحنة فزع اليه والولي لما جاءته المحنة فزع اليه اما العدو فلان
فرعون لما قرب من الغرق قال آمنت انه لا اله الا الذي آمنت به بنو
اسرايل والمعنى انه لا اله يقدر على ان يجعل النار راحة كما في حق ابرهيم

والماعذابا كما في حق الا الذي امنت به بنوا اسرايل واما الولي فكما
في حق يونس عليه السلام قال تعالى فنادى في الظلمات ان لا اله الا انت
سبحانك والمعنى لا اله الا انت فانك انت الذي تقدر على حفظ
الانسان حيا في بطن الحوت ولا قدرة لغيرك على هذه الحالة فان قيل
كل واحد منهما نادى فلم قبل نداء احدهما ولم يقبل نداء الثاني قلنا
الفرق ظاهر من وجوه الاول ان يونس عليه السلام كان قد سبقت
له المعرفة مع هذه الكلمة فسبق المعرفة اعانه على قبولها منه واما
فرعون فقد تقدمت له سبق الكفر وذلك لان الذي تقدم له الثناء
على نفسه كما قال تعالى فحشر فنادى فقال انا ربكم الاعلى واما يونس
فقد كان ينادي الله كما قال ولا تكن كصاحب الحوت اذ نادى وهو
مكظوم وايضا قال فلولا انه كان من المسبحين للبث في بطنه وهذا
ينبهك على ان من حفظ الله في الخلوات حفظه في الفلوات الثاني
ان يونس عليه السلام انما ذكر هذه الكلمة مع الحضور فقال لا اله
الا انت فكان في الحضور والشهود واما فرعون فانه قالها عن الغيبة
فقال آمنت انه لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل فاحال العلم بحقيقة
هذه الكلمة على الغير الثالث ان فرعون ذكر هذه الكلمة على سبيل
التقليد لبني اسرائيل فقال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنوا اسرائيل
واما يونس عليه السلام فانه انما ذكرها على سبيل الاستدلال مع العجز
والانكسار وذلك لانه قال فنادى في الظلمات فحصل له العجز
وانكسار القلب بسبب تلك الظلمات ثم قال بعده سبحانك اني كنت
من الظالمين فحصل له العجز والانكسار بسبب الزلة فلما كانت هذه

الكلمة مسبوقة بالعجز والانكسار وملحوقة بهما لاجرم صارت مقبولة
لقوله امن يجيب المضطر اذا دعاه الرابع ان فرعون انما ذكر هذه الكلمة
لا للعبودية بل لطلب الخلاص من الغرق بدليل قوله تعالى فلما ادركه
الغرق قال آمنت الاية واما يونس عليه السلام فهو انما قالها لما حصل له
من الانكسار بسبب التقصير في الطاعة والعبودية بدليل قوله تعالى بعده
سبحانك اني كنت من الظالمين فظهر الفرق من هذه الوجوه الفائدة
الثانية لهذه الكلمة انه تعالى امرك بطاعات كثيرة مثل الصلوة والزكوة
والصيام والحج ويستحيل ان يكون موافقا لك في شيء منها ثم امرك بان
تقول لا اله الا الله ثم ان الله تعالى يوافقك فيها فقال شهد الله انه
لا اله الا هو اي قوله لا اله الا هو العزيز الحكيم والمقصود من التكرير
وجهان الاول ان يكون العبد مواظبا على تكريرها طول عمره الثاني
كانه قال عبدي جعلت هذه الكلمة اول الاية واخرها فاجعلها انت
ايضا اول عمرك وآخره حتى تفوز بالنجاة والسلامة وههنا نكتة الاولى
انه تعالى جعلك ثالث نفسه في هذه الاية فقال شهد الله انه لا اله الا هو
والملائكة واولوا العلم قائما بالقسط وكفاك هذا فخرا الثانية روي
ان يوسف عليه السلام اراد ان يتخذ وزيرا فجاء جبريل عليه السلام
وقال ان الله يامرك ان تتخذ فلانا وزيرا لك فنظر اليه يوسف عليه السلام
فكان في غاية الدناءة فسال جبرئيل عليه السلام عن السبب فقال ان له عليك
حق الشهادة لانه هو الذي شهد ان كان قميصه قد من قبل الاية الا انه
ان من شهد لمخلوق وجد وزارته في الدنيا فمن شهد لله بالتوحيد والجلال
كيف لا يجد معرفته ورحمته في العقبى الثالثة في الحديث ان لله ملائكة

يؤمنون عندنا مين الامام فمن وافق تامينه تامين الملايكة غفر له
ما تقدم من ذنبه وما تاخر والاشارة فيه ان من وافق تامينه
تامين الملايكة مرة واحدة صار مغفورا فمن وافقت شهادته بوحدانية
الله شهادة الله الا فمرة الا يصير مغفورا الرابعة انه تعالى سماك
وقت التخليق مختارا فقال وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم
الخيرة وفي موضع الذنب جاهلا قال انه كان ظلوما جهولا وفي موضع
الرزق دابة قال وما من دابة في الارض الا على الله رزقها وفي وقت
الطاعة اجيرا قال ويوفيهم اجورهم وعند الشهادة عالما قال والملايكة
واولوا العلم ثم ان العلم افضل الدرجات وعلمك ما لم تكن تعلم
وكان فضل الله عليك عظيما والغرض منه التنبيه على الدرجات
يقول فانت من حيث اني خلقتك مختاري فلك درجة موسى حيث قلت
وانا اخترتك فاسمع لما يوحى وحين اذنبت فانت جاهل لان الجهل
عذر من بعض الوجوه وحين تشتغل بطلب الرزق فكالبهيمة لانه لما تكفل
برزقك فما هو مقدر لك يصل اليك وما ليس بمقدر لك لا يصل
اليك فكان الطلب عديم الفايدة فكان يشبه افعال البهايم وحين
تشتغل بالعمل كنت كالاجير وكل ذلك درجات نازلة اما حين تشتغل
بالشهادة والتوحيد فانت من العلماء الغايصين في لجة بحر التحقيق
والتوحيد وبلغت الغاية القصوى في المنقبة والشرف كما قال تعالى
يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات الخامسة
قال تعالى وما تلك بيمينك يا موسى وقعت هذه الاشارة على العصا
وعلى اليد اما العصا فقوله وما تلك واما اليد فقوله بيمينك فصارت

العصا من قوة هذه الاشارة تلقف حبال السحرة وعصيهم وصارت اليد
يدا بيضاء لاجل قوله وادخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء
فكلمة لا اله الا الله وهي صفة وحدانيته وفردانيته وجلاله
وعزته الا يستقل بافناء اثار العصيان عن قلب العبد وانارة روحه
بنور المعرفة والهداية السادسة عصى موسى عليه السلام اخرج من الجنة
فبطلت عصي السحرة عندها فهذه الكلمة انما ظهرت من شجرة العزة والربوبية
والعظمة فنرجوا ان تبطل الذنوب عندنا السابعة حكي عن الحجاج
انه امر بقتل رجل فقال لا تقتلني حتى تاخذ بيدي وتمشي معي في دارك
فاجابه اليه فقال الرجل بحرمة صحبتي معك في هذه الساعة ان لا تقتلني
فعفى عنه فهنا وقعت للمومن صحبة مع الله الكريم في هذه الشهادة
فنرجوا ان يغفر الله له الثامنة وجد المومن بهذه الشهادة ابوة ابرهيم
قوله تعالى ملة ابيكم ابرهيم وامومة ازواج النبي عليه السلام بقوله
وازواجه امهاتكم واخوة المؤمنين بقوله انما المؤمنون اخوة
واستغفار الانبياء بقوله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمومنات
واستغفار الملايكة بقوله ويستغفرون للذين امنوا وشفيعا مثل
محمد عليه السلام لقوله شفاعتي لاهل الكباير من امتي ومشاركة الله
تعالى في اسمه المومن فذنبه ما ازال عنه هذه التشريفات افترى انه
تخرجه عن رحمة ارحم الراحمين وكرم اكرم الاكرمين التاسعة يحكى انه
عرض عسكر نصر بن احمد الساماني غلبه وكان يسال عن اسماء الرجال
فيجيبونه فسال واحدا عن اسمه فسكت لانه سميه ففطن لذلك واعطاه
خلعة جسيمة فاذا كان حال سمي الملك ذلك فكيف من كان سمي ربه تعالى

وفي الخبر يؤتى برجل يوم القيمة اسمه محمد فيقول الله عز وجل اما استحييت
ان عصيتني وانت سمي حبيبي فانا استحيي ان اعذبك وانت سمي حبيبي
فاذا كان لا يعذب سمي الرسول عليه السلام فنرجوا من فضله ان لا يعذب
سمي نفسه وهو المؤمن الفضيلة الثالثة لهذه الكلمة ان كل طاعة
فانه يصعد بها الملك اما قول لا اله الا الله يصعد بنفسه دليله
قوله تعالى اليه يصعد الكلم الطيب ثم قال والعمل الصالح يرفعه
اي العمل الصالح يرفعه الملك الى الله هكذا قال بعضهم الفضيلة الرابعة
لهذه الكلمة قال بعضهم الحكمة في قوله اذا الشمس كورت واذا النجوم
انكدرت ان يوم القيمة يتجلى نور كلمة لا اله الا الله فينمحق في ذلك
النور نور الشمس والقمر لان تلك الانوار انوار مجازية عرضية ونور
لا اله الا الله نور ذاتي حقيقي واجب الوجود لذاته والمجاز يبطل في
مقابلة الحقيقة فلا جرم يبطل كل نور في مقابلة هذا النور بل
يبطل كل وجود في مقابلة هذا الوجود كما قال كل شيء هالك الا وجهه
الفضيلة الخامسة ان جميع الطاعات تزول يوم القيامة مثل الصلوة
والصيام والحج والجهاد فان التكليف الظاهر تزول يوم القيامة
اما طاعة التهليل والتحميد فلا تزول عنهم وكيف يمكن زوالها عنهم
والقران يدل على انهم مواظبون على الحمد والمواظبة على الحمد توجب
المواظبة على الذكر والتوحيد وانما قلنا انهم مواظبون على الحمد
لقوله تعالى حكاية عنهم وقالوا الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن
وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده دعويهم فيها سبحانك اللهم
وتحيتهم فيها سلام واخر دعويهم ان الحمد لله رب العالمين وقوله

لا اله الا هو له الحمد في الاولى والاخرة فثبت انهم مواظبون على الحمد
والمواظب على الحمد مواظب على الذكر والتوحيد والتحميد لا محالة فعلمنا
ان جميع العبادات زايلة عن اهل الجنة الا طاعة الذكر والتوحيد
والتحميد فوجب المواظبة على الذكر والتوحيد والتحميد والفضيلة
السادسة ما روي في الآثار انه اذا قال العبد لا اله الا الله
فانه سبحانه يعطيه من الثواب بعدد كل كافر وكافرة على وجه الارض
قال المحققون السبب في ذلك انه لما قال هذه الكلمة فكانه قد
رد على كل كافر وكافرة يثبت لله ضدا وندا وشريكا فلا جرم
يستحق الثواب بعددهم الفضيلة السابعة قال السدي في قوله
تعالى حم عسق الحاء حلمه وحكمه وحجته والميم ملكه ومجده والعين
عظمته وعدله وعزته وعلمه والسين سناؤه وستره والقاف
قهره وقدرته يقول الله تعالى بحلمي وحكمي وحجتي ومجدي وملكي
وعظمتي وعلمي وعدلي وعزتي وسناي وستري وقهري وقدرتي
لا اعذب بالنار ابدا من قال لا اله الا الله الفضيلة الثامنة
قيل اذا كان اخر الزمان فليس لشيء من الطاعات فضل كفضل كلمة
لا اله الا الله لان صلوتهم وصيامهم يشوبها الرياء والسمعة
وصدقاتهم يشوبها الحرام والاخلاص في شيء منها اما كلمة
لا اله الا الله فهي ذكر الله والمؤمن لا يذكرها الا عن صميم القلب
الفضيلة التاسعة الاحاديث الواردة في فضل هذه الكلمة
فالاول قوله عليه السلام افضل الذكر لا اله الا الله وافضل
الدعاء الحمد لله والثاني عن ابن عمر انه عليه السلام قال ليس على اهل

لا اله الا الله وحشة في الموت ولا عند النشور وكاني انظر الى اهل
لا اله الا الله عند الصيحة ينفضون شعورهم عن التراب وهم يقولون
الحمد لله الذي اذهب عنا الحزن والثالث يروى ان المامون لما انصرف
الى المرو يريد العراق واجتاز بنيسابور وكان على مقدمته علي بن موسى
الرضا رضي الله عنهما فقام اليه قوم من المشايخ وقالوا نسألك بحق
قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان تحدثنا بحديث ينفعنا
فروى عن ابيه عن آبائه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبرئيل عليه السلام
عن الله تعالى انه قال لا اله الا الله حصني فمن دخل حصني امن عذابي
والرابع روى ابن عباس عن النبي عليه السلام انه قال يفتح الله ابواب
الجنة وينادي مناد من تحت العرش ايتها الجنة وكل ما فيك من النعم
لمن انت فتنادي الجنة وكل ما فيها نحن لاهل لا اله الا الله ونشتاق
الى اهل لا اله الا الله ولا نطلب الا اهل لا اله الا الله ولا يدخل علينا
الا اهل لا اله الا الله ونحن محرمون على من لم يقل لا اله الا الله ولم
يؤمن بلا اله الا الله وعند هذا يقول النار وكل ما فيها من العذاب
لا يدخلني الا من انكر لا اله الا الله ولا اطلب الا من كذب بلا اله
الا الله وانا حرام على من قال لا اله الا الله ولا امتلي الا من جحد
لا اله الا الله وليس غيظي الا على من انكر لا اله الا الله قال فتجيء معرفة
الله ورحمته ومغفرة ويقولون انا لاهل لا اله الا الله وناصر لمن قال
لا اله الا الله ومحب لمن قال لا اله الا الله ومتفضل على من قال لا اله
الا الله وابحت الجنة لمن قال لا اله الا الله وحرمت النار على من قال
لا اله الا الله واغفر كل ذنب لمن قال لا اله الا الله ولا احجب رحمة ومغفرة

عمن قال لا اله الا الله وما خلقت الرحمة الا لاهل لا اله الا الله فلا تخلطوا
قول لا اله الا الله الا بما يوافق لا اله الا الله والخامس قال عليه السلام
امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا
مني دماءهم واموالهم الا بحقها وحسابهم على الله قال بعض العلماء
انه تعالى جعل العذاب عذابين احدهما السيف من يد المسلمين والثاني
عذاب الاخرة فالسيف في غلاف يرى والنار في غلاف لا يرى وقال
تعالى لرسوله من اخرج لسانه من الغلاف المرئي وهو الفم فقال
لا اله الا الله ادخلنا السيف في الغمد الذي يرى ومن اخرج لسان
القلب من الغلاف الذي لا يرى وهو السر فقال لا اله الا الله ادخلنا
سيف عذاب الاخرة في غمد الرحمة حتى يكون واحد بواحد ولا ظلم ولا جور
والسادس عن انس قال عليه السلام من قرأ عند منامه شهد الله الى
قوله الاسلام خلق الله تعالى سبعين الف خلق يستغفرون له الى يوم القيمة
ثم قال وانا على ذلك من الشاهدين والسابع عن علي بن ابي طالب
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال ان فاتحة الكتاب وآية الكرسي
وشهد الله الى قوله ان الدين عند الله الاسلام وقل اللهم مالك الملك
الى قوله بغير حساب معلقات بينها وبين الله حجاب يقول الله تعالى
بي حلفت لا يقرأكن احد من عبادي الا جعلت الجنة مثواه على ما كان فيه
ولاسكنته حظيرة القدس ولانظرت اليه بعين الرحمة كل يوم سبعين
مرة لاقضيت له كل يوم سبعين حاجة ادناها المغفرة واعذته
من كل عدو وحاسد والثامن عن ابي سعيد الخدري انه قال عليه السلام
ما من عبد يقول اربع مرات اللهم اني اشهدك وكفى بك شهيدا واشهد

حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك انى اشهد ان لا اله الا انت
وحدك لا شريك لك واشهد ان محمدًا عبدك ورسولك الا كتب الله
له به صكا بالعتق من النار والتاسع عن ابن عمر قال عليه السلام
يجاء برجل من امتى يوم القيمة على رؤس الخلايق فينشر عليه تسعة
وتسعون سجلا كل سجل مثل مد البصر فيقال له اتنكر من هذا شيئا
اظلمك الحافظون فيقول لا يا رب فيقال له الك عذر فيقول لا يا رب
فيقول الله تعالى ان لك عندي وديعة وانه لا ظلم عليك اليوم
فيخرج له بطاقة فيها مكتوب اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا
عبده ورسوله فيقولون يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات
فيقول الله تعالى لا ظلم اليوم فتوضع السجلات فى كفة والبطاقة
فى كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا تثقل مع اسم الله تعالى
شئ والعاشر عن انس قال النبى عليه السلام ما زلت اشفع الى ربى
فيشفعنى حتى اقول يا رب شفعنى فيمن قال لا اله الا الله فيقول الله
هذه ليست لك يا محمد انما هذه لى وعزتى وحلمى وجلالى ورحمتى
لا ادع فى النار احدًا قال لا اله الا الله واعلم ان اهل العرفان ذكروا
فى تفسير لا اله الا الله وجوها الاول قال ابن عباس لا اله الا الله
لا نافع ولا ضار ولا معز ولا مذل ولا معطى ولا مانع الا الله الثانى
لا اله يرجى فضله ويخاف عدله ويؤمن جوره ويوكل رزقه ويترك
امره وينال عفوه ويركب نهيه ولا يحرم فضله الا الله الذى
هو رب المؤمنين وغفار المذنبين وملجاء التائبين وستار المعيوبين
وغاية رجاء الراجين ومنتهى مقصد العارفين الثالث قول العبد

لا اله

لا اله الا الله اشارة الى المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد
الى الملك المجيد فاذا قال العبد لا اله الا الله فالمعنى لا اله الا الا و
النعما والقدرة والبقا والعظمة والسناء والعز والثناء
والسخط والرضا الا الله الذى هو رب العالمين وخالق الاولين
والاخرين وديان يوم الدين الرابع لا اله للرغبة ولا اله للرهبة
الا الله الذى هو كاشف الكربة عن عمران بن حصين قال النبى عليه السلام
لابى حصين كم تعبد اليوم من اله فقال اعبد ستا او سبعا فى الارض
وواحدًا فى السماء فقال عليه السلام وايهم تعد لرغبتك ورهبتك
فقال الذى فى السماء فقال عليه السلام فيكفيك اله السماء ثم قال
يا حصين لو سلمت علمتك كلمتين ينفعانك فاسلم حصين ثم قال
يا رسول الله علمنى هاتين الكلمتين فقال عليه السلام قل اللهم
الهمنى رشدى واعذنى ذنبى من شر نفسى الخامس قيل فى قوله تعالى
شهد الله انه لا اله الا هو شهد فى حظاير القدس وعالم الجلال
وسرادقات الصمدية والملائكة يشهدون بهذه الشهادة فى
السموات واولوا العلم يشهدون بهذه الشهادة فى الارضين
وقال جعفر الصادق رضى الله عنه وقد سالوه عن هذه الاية
ان الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والاحدية والازلية
والابدية ثم خلق الخلق فشغلهم بعبارة هذه الكلمة وذلك لان
شهادة الحق لنفسه حق وشهادتهم له رسم فكيف يستوى الرسم
مع الحق ومن ابن التراب طاقة تجلى نور رب الارباب وقال سعيد
بن جبير كان حول الكعبة ثلثمائة وستون صنما فلما نزل شهد الله الاية

خرت الاصنام سجدًا حول الكعبة وامّا حاتمة المجلس ففيها وجوه
الاول اسلم نصرانى ببغداد ايام الشبلى فقال الشبلى ما سبب اسلامك
قال كنت فى حال النصرانية اكرم دين النصرانية فرزقت دين الاسلام
من بركة اكرام ذلك الدين فصاح الشبلى وقال اذا كان من يكرم الدين
الباطل فالله يكرمه ويرزقه الدين الحق فمن يكرم الدين الحق الا يرزقه
الله الرحمة والمغفرة والثانى يحكى ان رجلا كان واقفا بعرفات
وكانت فى يديه سبعة احجار فقال ايها الاحجار السبعة اشهدكم
انى اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله فنام فرأى
فى المنام كان القيمة قد قامت وحوسب ذلك الرجل ووجبت له النار
فلما ساقوه الى باب من ابواب جهنم جاء حجر من تلك الاحجار السبعة
والقت نفسها على ذلك الباب فاجتمعت ملائكة العذاب على رفعها
فما قدروا ثم سيق الى الباب الثانية فكان الامر كما فى الاول وهكذا
الباب السبعة فسيق به الى العرش فقال الله سبحانه عبدى اشهدت
الاحجار فلم تضع حقك وانا شاهد على شهادتك على توحيدي
ادخل الجنّة فلما قرب من باب الجنان فاذا ابوابها مغلقة فجاءت
شهادة ان لا اله الا الله وفتحت الابواب فدخلها الرجل الثالث
رءى يزيد بن هرون فى المنام بعد موته فقالوا ما فعل الله بك قال
غفر لى ربى قالوا بالحديث قال لا قالوا بالعلم قال لا قالوا بالزهد
قال لا قالوا فبماذا قال اتانى ملكان مهيبان فقالا لى من ربك وما
دينك ومن نبيك قلت امثلى يسال عن هذا وقد كنت ادعو الخلق اليه
منذ سبعين سنة فانصرفا عنى الرابع زاد الماء فى بغداد حتى اشرفت

على الغرق قال بعض الصالحين رايت فى بعض تلك الليالى كانى واقف
على طرف واقول لا حول ولا قوة الا بالله غرقت بغداد فجاء انسان
حسن الصورة وكنت اعلم انه ملك وجاء آخر من ناحية اخرى فقال
احدهما للاخر ما الذي امرت به فقال امرت بتغريق بغداد ثم نهيت عنه
فقال ولم قال رفعت ملائكة الليل ان البارحة اقتضن ببغداد سبع
مائة فرج حرام فغضب الله وامرنى بتغريقها ثم رفعت ملائكة النهار
فى صبح هذا اليوم سبع مائة اذان واقامة فغفر الله لهؤلاء بهؤلاء
قال صاحب الرؤيا فانتبهت وجئت الى الدجلة فاذا الماء قد نقص
الخامس قال بعضهم لا اله الا الله محمد رسول الله اربعة وعشرون
حرفا وساعات الليل والنهار كذلك فكانه قيل كل ذنب اذنبته من الصغيرة
والكبيرة والسر والجهر والخطاء والعمد والقول والفعل فى هذه
الساعات فهى مغفورة بهذه الحروف والكلمات وايضا قول لا اله
الا الله محمد رسول الله سبع كلمات وللعبد سبعة اعضاء وللنار
سبعة ابواب كما قال تعالى لها سبعة ابواب لكل باب منهم جزء مقسوم
فكل كلمة من هذه الكلمات السبع تغلق بابا من الابواب السبعة على عضو
من الاعضاء السبعة وقيل ايضا ان كلمة لا اله الا الله اثنا عشر حرفا
فلاجرم وجب بها اثنا عشر فريضة ستة ظاهرة وستة باطنة
اما الظاهرة فالطهارة والصلوة والزكوة والصوم والحج والجهاد
واما الباطنة فالتوكل والتفويض والصبر والرضا والزهد والتوبة
السادس سال الشبلى رجل وقال لم تقول الله ولا تقول لا اله الا الله
فقال لان الصديق اعطى ماله كله فلم يبق له شئ فتخلل بكساء بين يدي

النبي عليه السلام فقال النبي عليه السلام ما خلفت لعيالك فقال الله
فكذا انا اقول الله فقال السايل اريد اعلى من هذا فقال الشبلي انا
استحيي من ذكر كلمة النفي في حضرته والكل نوره فقال السايل اريد
اعلى من هذا فقال الشبلي اخشى ان اموت عند الانكار فلا يصل
الى الاقرار فقال السايل اريد اعلى من هذا فقال الشبلي قال الله
لرسوله قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون فقام شاب فزعق
زعقة فقال الشبلي الله فزعق ثانيا فقال الشبلي الله فزعق ثالثا
ومات فاجتمع اقربا الفتى وتعلقوا بالشبلي وادعوا الدم عليه
وحملوه الى الخليفة فاذن لهم فدخلوا وادعوا الدم فقال الخليفة
للشبلي وما جوابك فقال روح حنت فرنت فسمت فصاحت فدعيت
فسمعت فعلمت فاجابت فما ذنبي فصاح الخليفة وقال خلوا سبيله
السابع سئل بعض العلماء عن قوله تعالى وبئر معطلة وقصر مشيد
فقال البئر المعطلة قلب الكافر معطل من قول لا اله الا الله والقصر
المشيد قلب المؤمن المعمور بقول لا اله الا الله الثامن جاءت امراة
الى بعض اكابر الصوفية بقارورة من زيت وقالت يا شيخ احب ان تصلح
قناديل المسجد من هذا الزيت فقال الشيخ ايما احب اليك نور يصعد
الى السقف او نور يصعد الى العرش فقالت المراة بل نور يصعد الى العرش
فقال الشيخ اذا صببت هذا الدهن في القناديل صعد النور الى السقف
واذا صببته في طعام الفقراء صعد النور الى العرش ثم اصطلح طعاما
بذلك الدهن للفقراء فلما اكلوا قال قولوا لا اله الا الله من صدق واخلاص
وجعلوا ثوابها لتلك المراة التاسع روي ان امية بن خلف الجمحي كان

ذا مال

ذا مال واولاد وكان له صنم يعبد من دون الله وكان له اثنا عشر
مملوكا ولم يكن احب اليه من بلال وكان موكلا ببيت الصنم وكان بلال
يسجد لله في بيت الصنم بستر وكان يقول احد احد فبلغ ذلك الى النبي
صلى الله عليه وسلم فسر بذلك وبلغ هذا الخبر الى امية فقال يا بلال
اتسجد لرب محمد فقال نعم اسجد لله رب العالمين الكبير المتعال
فوثب اليه امية يضربه ويعذبه فلما كان نصف النهار جعله عريانا
وطلى عليه الزيت واقامه على الرمضاء الصبيان فكان اذا اصابته
الشمس وحر الرمل يقول احد احد فمر عليه ابو بكر فقال يا امية الى كم
تعذب هذا الغلام فقال اشتريته بمالي فانا احق بعذابه فقال
لا كرامة لك تعذب عبدا قال لا اله الا الله فاختصما فقال ابو بكر
لي غلام ابيض على دينك فانا اشتريته بذلك العبد وعشرة اواق
من الذهب وفي رواية اخرى باوقيتين فقال امية لو طلبت مني هذا
الغلام بدرهم بعته فقال ابو بكر ولو سامتني بكل ما املكه لاشتريته
فاخذ بيد بلال وستره بردائه ومسح وجهه من التراب وجاء الى النبي
صلى الله عليه وسلم وقال يا معشر قريش اشهدوا انه حر لوجه الله تعالى
فانزل الله تعالى في شانه والليل اذا يغشى العاشر قال بعضهم
ان الحكمة في سؤال الملكين ان الملائكة طعنت في بني آدم بقولهم
اتجعل فيها من يفسد فيها الاية فقال الله تعالى اني اعلم ما لا تعلمون
فاذا مات المؤمن بعث الله الى قبره ملكين فيقولان له من ربك وما
دينك فيقول ربي الله وديني الاسلام فيامرهما الله تعالى ويقول
اشهدا بين الملائكة بما سمعتما لانه قيل الشهود اثنان ثم يقول الله تعالى

يضربه بجرح

ملائكتي انظروا الى عبدي قد اخذت روحه وماله وزوجته
فماله لعدوه وزوجته في حجر غيره وضيعته في يد غيره ثم ان الملائكة
يسالونه في بطن الارض فلم يذكر شيئا عن شيء الا عن توحيدي وتنزيهي
لتعلموا اني اعلم ما لا تعلمون وايضا قالوا الحكمة في هذا السوال
ان الله تعالى قال في الابتداء الست بربكم قالوا بلى فشهد الله عليهم
فلما اخرجهم الى الدنيا شهدوا بالتوحيد وشهد عليهم الانبياء والمؤمنون
بذلك فاذا مات ودخلوه القبر ساله الملكان عن هذه الشهادة فشهد بها
في قبره فسمع الملائكة تلك الشهادة فاذا جاء يوم القيمة جاء ابليس يريد
ان ياخذه ويقول هذا من شيعتي لانه تبعني في المعاصي فيقول الله تعالى
لا سلطان لك عليه لاني سمعت منه التوحيد في الابتداء والانبياء
والرسل سمعوا منه ذلك في الوسط والملائكة سمعوا منه ذلك في الانتهاء
فكيف يكون من شيعتك وكيف يكون لك عليه سلطان اذهبوا به الى
الجنة الحادي عشر قال بعضهم حضرت مجلس يحيى بن معاذ الرازي فقرا
رجل قوله تعالى فقولا له قولا لينا فبكى يحيى وقال هذا رفقك بمن
يقول انا الاله فكيف رحمتك لمن يقول انت الاله وهذا رفقك
بمن يعاديك فكيف رفقك بمن يتولاك ويناديك هذا رفقك
بمن يقول انا الرب فكيف رفقك بمن يقول انا العبد وانت الرب
الهي قول لا اله الا الله يهدم كفر سبعين سنة فما يصنع بذنوب ساعة
الثاني عشر قال بعضهم في تفسير قوله فقولا له قولا لينا يعني ذلك
القول اللين ان يقول موسى وهرون لفرعون يا فرعون وجدت عمرك
اربعمائة سنة تقول انا ربكم الاعلى فانت بقول لنكر ما ذكره احد

من الكفار قبلك فقل مرة واحدة انت الرب الاعلى ليغفر لك كفر
اربعمائة سنة ويطهرك عن نجاسة الكفر والشرك الثالث عشر سئل
الشبلي عن ارجى آية في القران فقال قوله تعالى قل للذين كفروا ان
ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف فالله تعالى اطلق للكافر دخول الجنة
بذكر الكلمة مرة واحدة اترى ان من واظب على هذه الكلمة طول عمره
يمنعه من الجنة **الفصل الثالث** في اسماء كلمة التوحيد
الاسم الاول كلمة التوحيد وذلك لانها تدل على نفي الشرك على الاطلاق
وفايدة قولنا على الاطلاق انه تعالى لما قال والهكم اله واحد امكن
ان يخطر ببال احد ان يقول هب ان الهنا واحد فلعل اله غيرنا مغاير
لالهنا فالله تعالى ازال هذا الوهم ببيان التوحيد المطلق فقال
لا اله الا هو وذلك لان قولنا لا رجل يقتضي نفي هذه الماهية
ومتى انتفت الماهية انتفت جميع افرادها اذ لو حصل فرد من افراد
تلك الماهية لحصلت تلك الماهية لان كل فرد من افراد الماهية مشتمل
على تلك الماهية واذا وجدت الماهية فذلك يناقض نفي الماهية
فثبت ان قولنا لا رجل يفيد نفي العام الشامل فاذا قيل بعد ذلك
الا زيدا افاد التوحيد التام الكامل ثم اعلم ان لهذه الكلمة ثمرتان
احديهما ان جوهر الانسان خلق في الاصل مشرفا مكرما قال الله تعالى
ولقد كرمنا بني آدم واذا كان الاصل فيه كونه مكرما كان كونه
مطهرا على وفق الاصل وكونه منجسا على خلاف الاصل ثم اذا راينا
ان الانسان متى اشرك صار نجسا بدليل قوله تعالى انما المشركون نجس
فاذا كان المشرك يقتضي كونه نجسا مع ان ذلك على خلاف الاصل فكونه

موحد بان يقتضى كونه طاهرا اولى لانه كان على وفق الاصل واذا ثبت
ان الموحد كامل فى كونه طاهرا وجب ان يكون من خواص الله لقوله
الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات والثانى ان الشرك سبب
لخراب العالم بدليل قوله تعالى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا واذا كان الشرك سببا
لخراب العالم وجب ان يكون التوحيد سببا لعمارة العالم ضرورة كون
الضدين مختلفين فى الحكم واذا ثبت ان كلمة التوحيد سبب لعمارة العالم
فالاولى ان يكون سببا لعمارة القلب الذى هو محل معرفة الوحدانية
ولعمارة اللسان الذى هو محل ذكر الوحدانية وذلك يناسب عفو الله
عن اهل التوحيد الاسم الثانى ان هذه الكلمة تسمى كلمة الاخلاص
وكان معروف الكرخى يقول يا نفس اخلصى تتخلصى ثم التحقيق فيه ان
بيان ان كل شئ يتصور ان يشوبه غيره فاذا صفا عن شوبه وخلص يسمى
خالصا وسمى الفعل المصفى اخلاصا ولا شك ان كل من اتى بفعل اختيارى
فلا بد له فى ذلك الفعل من غرض فمهما كان الغرض فى الفعل واحدا يسمى ذلك
اخلاصا فمن تصدق وكان غرضه محض الريا فهو مخلص ومن كان غرضه
محض التقرب الى الله تعالى فهو مخلص لكن العادة جارية بتخصيص اسم
الاخلاص بتجريد قصد التقرب الى الله تعالى عن جميع الشوائب كما ان
الالحاد عبارة عن الميل ولكن خصصه العرف بالميل عن الحق واذا عرفت
هذا فنقول الباعث على الفعل اما ان يكون رحمانيا فقط وهو
الاخلاص ونفسانيا وهو الريا او مركبا منهما وهو على ثلثة اقسام
لان الطرفين اما ان يكونا على السوية او يكون الرحمانى اقوى ويكون

النفسانى

النفسانى اقوى اما القسم الاول وهو ان يكون الباعث رحمانيا
فقط فهذا لا يتصور الا من محب لله تعالى مستغرق الهم به بحيث
لم يبق لحب الدنيا فى قلبه مقر حتى لا يحب الاكل والشرب بل يكون رغبته
فيه كرغبته فى قضاء الحاجة من حيث انه ضرورة الجبلة فكذلك لا يشتهى
الطعام لانه طعام بل لانه يقويه على عبادة الله فمثل هذا الشخص
لو اكل او شرب وقضى حاجته كان خالص العمل فى جميع حركاته وسكناته
ولو نام مثلا ليريح نفسه فيقوى على العبادة كان نومه ايضا عبادة
واما القسم الثانى وهو ان يكون الباعث نفسانيا فهذا لا يتصور
الا من محب للنفس وللدنيا مستغرق الهم بهما بحيث لم يبق لحب الله
فى قلبه مقر وكما ان فى القسم الاول لما غلب حب الله وحب الآخرة
على قلبه اكتسبت جميع حركاته الاختيارية هذه الصفة كذلك من
غلب حب النفس والدنيا على قلبه اكتسبت جميع حركاته وافعاله تلك
الصفة ولا يسلم له شئ من عباداته وهذان القسمان لا يخفى حكمهما
فى الثواب والعقاب واما الاقسام الثلاثة الباقية فنقول
اما الذى يستوى الباعثان فيه فالاظهر انهما عارضان ويتساقطان
فيصير ذلك العمل لا له ولا عليه واما الذى يكون احد الطرفين فيه اغلب
فينحط منه ما يساوى الطرف الاخر ويبقى الزيادة موجبة اثرها
اللائق وذلك هو المراد بقوله فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره وقوله
ان الله لا يظلم مثقال ذرة وتمام التحقيق فيه ان الاعمال لها تاثيرات
فى القلب فان خلا المؤثر عن المعارض خلا الاثر عن الضعف وان كان
المؤثر مقرونا بالمعارض فان تساويا تساقطا وان احدهما اغلب

فلابد وان يحصل فى الزايد بمقدار الناقص فيحصل التساوى بينهما
ويحصل التساقط ويبقى القدر الزايد خاليا عن المعارض فيوثر لامحالة
اثرا ما وكما لا يضيع مثقال ذرة من الطعام والشراب والدواء عن اثر
فى الجسد فكذلك لا يضيع مثقال ذرة من الخير والشر عن اثر فى التقريب
من باب الله والتبعيد منه فاذا جاء بما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا
فقد عاد الى ما كان لا عليه ولا له وان كان احد الفعلين مما يقربه
شبرين والفعل الثانى مما يبعده شبرا واحدا فضل له لامحالة شبر
واحتج من زعم ان المشوب لا ثواب عليه بوجهين الحجة الاولى ما روى
ان رجلا سال النبى عليه السلام عمن يصطنع المعروف ثم يحب ان يحمد عليه
ويوجر فلم يدر ما يقول حتى نزل قوله تعالى فمن كان يرجوا لقاء ربه
فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا والحجة الثانية
ما روى ابو هريرة انه عليه السلام قال يقول الله لمن اشرك فى عمله
خذ اجرك ممن عملت له وعن النبى عليه السلام ان الله تعالى يقول
انا اغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملا اشرك فيه غيرى تركت نصيبى
لشريكى والجواب عن الحجة الاولى انها محمولة على ما اذا اتى بالعمل لغرض
الدنيا فقط والجواب عن الحجة الثانية ان لفظ الشرك محمول
على تساوى الداعيين وقد بينا ان عند التساوى يحبط كل واحد
منهما بالاخر واذا عرفت هذه المقدمة فنقول كلمة لا اله الا الله
مسماة بكلمة الاخلاص وذلك لان الاصل فى هذه الكلمة عمل القلب
وهو كون الانسان عارفا بقلبه وحدانية الله تعالى وهذه المعرفة
الحاصلة بالقلب يستحيل ان يوتى بها لغرض آخر سوى طاعة الله ومحبته

وعبوديته

وعبوديته فهذه المعرفة ان طلبت لوجه الله لا لغرض آخر البتة
بخلاف ساير الطاعات البدنية فانه كما يوتى بها لتعظيم الله تعالى
فقد يوتى بها لساير الاغراض العاجلة من الرياء والمدح والثناء
فلهذا السبب سميت هذه الكلمة كلمة الاخلاص والاسم الثالث
لهذه الكلمة كلمة الاحسان ويدل على صحة هذه التسمية القرآن
والخبر والمعقول اما القران فايات احدها قوله هل جزاء
الاحسان الا الاحسان قال المفسرون المراد من قوله هل جزاء الاحسان
اى هل جزاء الايمان والتحقيق فيه ان عليك عهد العبودية وعلى
كرمه عهد الربوبية كما قال تعالى اوفوا بعهدى اوف بعهدكم
وعهد عبوديتك ان تكون عبدا له لا لغيره ثم كمال هذه الدرجة
ان تعرف ان كل ما سوى الله فهو عبد لله كما قال ان كل من فى السموات
والارض الا آت الرحمن عبدا ومن اتى بالفعل على احسن الوجوه كان
محسنا فيه وقول لا اله الا الله يدل على الاعتراف بان كل من سواه
فهو عبده ومربوبه فثبت ان قول لا اله الا الله احسان من العبد
فقوله هل جزاء الاحسان الا الاحسان اى هل جزاء من اتى بقوله
لا اله الا الله الا ان اجعله فى حماية لا اله الا الله وثانيها قوله
للذين احسنوا الحسنى وزيادة المراد من قوله احسنوا هو قول
لا اله الا الله باتفاق ايمة التفسير وبدليل انه لو قال ذلك ومات
ولم يتفرغ لعمل آخر دخل الجنة وثالثها قوله تعالى ومن احسن قولا ممن
دعا الى الله وعمل صالحا اتفقوا على هذه الاية نزلت فى فضيلة الاذان وما
ذاك الا لاشتمال الاذان على كلمة لا اله الا الله وايضا فلانه تعالى

قال في صفة الكافرين ومن اظلم ممن افترى على الله كذبا فكما انه
لا قبيح اقبح من كلمة الكفر فكذلك لا حسن احسن من كلمة التوحيد
ولهذا قال في اول سورة المؤمنين قد افلح المؤمنون وقال في آخر
هذه السورة انه لا يفلح الكافرون ثم انه لما كان قول الموحد
حسنا كان مقيله ايضا حسنا كما قال اصحاب الجنة يومئذ خير
مستقرا واحسن مقيلا ولما كان قول الكافر قبيحا مظلما كان مقيله
ايضا مظلما قال تعالى والذين كفروا اولياؤهم الطاغوت يخرجونهم
من النور الى الظلمات ورابعها قوله الذين يستمعون القول
فيتبعون احسنه ولا شك ان احسن الاقوال هو قول لا اله الا الله
وخامسها قوله ان الله يامر بالعدل والاحسان قيل العدل
الاعراض عما سوى الله والاحسان الاقبال على الله وسادسها
قوله ان احسنتم احسنتم لانفسكم ولا شك ان اول هذا الاحسان
هو قول لا اله الا الله واما الخبر ما روى ابو موسى الاشعري
عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال للذين احسنوا الحسنى وزيادة
اي الذين قالوا لا اله الا الله الحسنى وهي الجنة وزيادة هي النظر
الى وجهه الكريم واما المعقول وهو ان الفعل كلما كان اشد
حسنا كان فاعله اكثر احسانا ولا شك ان احسن الاذكار ذكر
لا اله الا الله واحسن المعارف معرفة لا اله الا الله واذا كان
كذلك كانت هذه المعرفة وهذا الذكر احسانا الاسم الرابع
دعوة الحق قال الله تعالى في سورة الرعد له دعوة الحق قال ابن عباس
هو قول لا اله الا الله واعلم ان قوله له دعوة الحق يفيد الحصر

معناه له هذه الدعوة لا لغيره كما ان قوله لكم دينكم ولي دين
معناه لكم دينكم لا لغيركم وتحقيق الكلام في اثبات هذا الحصر ان الحق
نقيض الباطل والحق هو الموجود والباطل هو المعدوم فلما كان الحق
سبحانه حقا في ذاته ولذاته وكان ممتنع التغير في ذاته وحقيقته كانت
معرفته هي المعرفة الحقة وذكره هو الذكر الحق والدعوة اليه هي الدعوة
الحقيقية واما كل ما سواه فهو ممكن لذاته والممكن لذاته لا يكون حقا
لذاته فلا يكون معرفته واجبة التحقيق ولا ذكره ولا الدعوة اليه
واذا ثبت هذا ظهر تحقيق قوله تعالى له دعوة الحق واعلم ان دعوة
الحق تارة تكون من الحق للخلق الى الحق وتارة تكون من الخلق للخلق الى الحق
اما الاول فنقول ان دعوة الحق تكون من الحق فلانه تعالى هو الذي
دعا القلوب الى حضرته فلولا دعوته الى تلك الحضرة وتوفيقه لها
في ذلك الوصول والا فمن اين يتمكن العقل البشري من الوصول الى
جلال حضرة الله وايضا فلان مبادي الحركات واوايل المحدثات
ينتهي الى قدرة الله وقضايه وقدره ولهذا المعنى قال تعالى لله الامر
من قبل ومن بعد واما تلك الدعوة للحق فلقوله تعالى لمن الملك اليوم
لله الواحد القهار واما انها الى الحق فلقوله تعالى وان الى ربك
المنتهى واما ان دعوة الحق تارة تكون من الخلق فلقوله تعالى
ومن احسن قولا ممن دعا الى الله ولقوله ربنا اننا سمعنا مناديا
ينادي للايمان ان آمنوا بربكم فآمنا الاسم الخامس كلمة العدل
قال الله تعالى ان الله يامر بالعدل والاحسان قال عثمن بن مطعون
الجمحي ما اسلمت يوم اسلمت الا حيا من محمد عليه السلام وذلك لانه

كان كثيرا يعرض علي الاسلام فاستحييت منه واسلمت ولكن الاسلام
ما كان مستقرا في قلبي ثم انه عليه السلام دعاني يوما فجلست اليه
فبينا هو يحدثني اذ رايت بصره يشخص الى السماء فنزل جبرئيل عليه السلام
وقال يا محمد ان الله يامر بالعدل والاحسان شهادة ان لا اله الا الله
والاحسان القيام بالعبودية قال عثمن فوقع الايمان في قلبي وقال
ابن عباس العدل شهادة ان لا اله الا الله والاحسان الاخلاص فيه
وقال الاخرون العدل مع الناس والاحسان مع نفسك بالطاعة
كما قال ان احسنتم احسنتم لانفسكم وقال آخرون يامر بالعدل مع الاعضا
وبالاحسان مع القلب بان تربيه بغذاء التوحيد وشراب المحبة وقال
آخرون العدل روية الافتقار الى الحق والاحسان مشاهدة احسان
الحق على كل شئ في الخلق واعلم ان السبب في تسمية هذه الكلمة بكلمة
العدل وجوه الاول ان العدل في كل شئ تحصيل ما هو سبب اعتداله
وكمال حاله ومن المعلوم ان كمال حال القوى الجسمانية في ادراك المحسوسات
وكمال حال القوة الشهوانية في جلب الاشياء النافعة الجسمانية وكمال
حال القوة الغضبية في دفع الاشياء الضارة المنافية الجسمانية
واما القوة العقلية فكمال حالها وغاية سعادتها ان يرتسم فيها
صور الحقايق واشباح المعقولات كما هي حتى يصير القوة العقلية كالمرآة
التي تجلت فيها صورة الوجود بتمامها ولا شك ان اشرف المعقولات
واعلاها معرفة جلال الله تعالى وقدسه وعظمته وعزته فكان
غاية العدل والاعتدال للارواح البشرية والقوى العقلية كونها
مقبلة على هذه الحالة مستغرقة فيها فلهذا السبب سميت كلمة لا اله الا الله

بكلمة

بكلمة العدل السبب الثاني ان هذه الكلمة انما سميت بكلمة العدل لان
معرفة الله تعالى متوسطة بين الافراط الذي هو التشبيه وبين التفريط
الذي هو التعطيل فمن بالغ في الاثبات وقع في التشبيه ومن بالغ في
النفي وقع في التعطيل والحق هو طريق الاعتدال بين هذين الطرفين
المتباينين السبب الثالث ان من ترك النظر والاستدلال في معرفة الله
وعول على الطريقة التي الفها بحسه وخياله وقع في الضلالات
واما من توغل في البحث واراد الوصول الى كنه العظمة وهوية الجلال
تحير وتردد بل عمي فان نور الجلال الالهية عز وجل مما يعمي احداق العقول
البشرية فصار هذان الطرفان مذمومين والطريق المستقيم هو ان
يخوض الانسان في البحث المعتدل ويترك التعمق والى هذا الاشارة بقوله
عليه السلام تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فهذه هي الوجوه
التي لاجلها سميت كلمة لا اله الا الله بكلمة العدل فان قيل كيف امر الله
تعالى بالعدل في بحر التوحيد وقد قال تعالى ولن تستطيعوا ان تعدلوا
بين النساء فمن عجز عن العدل في حق النساء كيف يقدر على العدل في معرفة
الاحد الصمد والجواب اظهر عجزك في الضعيف واقدرك على الشريف
لتعرف ان الكل منه الاسم السادس الطيب من القول قال الله تعالى وهدوا
الى الطيب من القول وهدوا الى صراط الحميد اي كلمة توجد اطيب واطهر
من هذه الكلمة وقد قال تعالى انما المشركون نجس ثم ان النجاسة الحاصلة
بسبب كفر سبعين سنة تزول بسبب ذكر هذه الكلمة مرة واحدة وتحقيق
القول فيه ان الطيب هو اللذيذ واللذيذ هو ادراك الملايم وقد بينا
ان الملايم للقوى الحساسة ادراك المحسوسات والملايم للقوى الشهوانية

جلب المنافع الجسمانية وللقوى الغضبية دفع المنافي الجسماني
اما الملايم للقوى العقلية فهي ادراك جلال الله وقدسه وعزته
واذا عرفت هذا فيقول ادراك القوة العاقلة اقوى من ادراك
القوة الحساسة وسياتي شرح هذا فيما بعد ذلك ان شاء الله تعالى
واما مدركات القوى الحساسة فهي الاعراض القايمة بالاجسام
الكائنة الفاسدة ومدرك القوة العاقلة فهو ذات الله وجلاله
وعظمته فظاهر انه كلما كان الادراك اقوى والمدرك اشرف
فكانت اللذة الحاصلة بسبب ذلك الادراك اشرف واعلى فعلى هذا
نسبة اللذة العقلية الى اللذة الحسية في الشرف والقوة كنسبة الادراك
العقلي الى الادراك الحسي وكنسبة ذات الله وصفاته في الشرف والتعالي
الى الاعراض القايمة وكما انه لا نهاية للنسبة الحاصلة بين هذين
الادراكين وبين هذين المدركين فكذلك لا نهاية للنسبة الحاصلة
بين اللذات العقلية الحاصلة بسبب ادراك جلال الله وبين اللذات
الحاصلة بسبب ادراك الطعوم والروايح وساير الحواس واذا عرفت
هذا ظهر ان الطيب المطلق هو معرفة لا اله الا الله وذكر لا اله الا الله
والاستغراق في انوار جلال لا اله الا الله فلهذا السبب قال الله
تعالى وهدوا الى الطيب من القول والمراد منه كلمة لا اله الا الله
والالف واللام في لفظة الطيب للاستغراق كانه تعالى نبه
على انه لا لذيذ ولا طيب الا هذا وذلك هو الحق لانا بينا ان طيب
المحسوسات بالنسبة الى طيب هذه الحالة عدم محض فلذلك بين بحرف
الاستغراق ان كل الطيب ليس الا ذلك الاسم السابع الكلمة الطيبة

قال الله تعالى ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة اصلها ثابت وفرعها
في السماء واختلفوا في انه تعالى لم سماها كلمة طيبة على وجوه الاول
انها طيبة بمعنى انها طاهرة عن التشبيه والتعطيل ولكنها طريقة
متوسطة بينهما مباينة لكل واحد منهما كما ان اللبن خارج من بين الفرث
والدم وهو مبرا عنهما مصفى عن شايبة كل واحد منهما الثاني انها طيبة
بمعنى ان صاحبها يكون طيب الاسم في الدنيا طيب المسكن في العقبى اما طيب
الاسم فلقوله تعالى الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات واراد به
المؤمنين والمؤمنات واما طيب المسكن فلقوله تعالى ومساكن طيبة
في جنات عدن والثالث انها طيبة بمعنى انها مقبولة تقبلها الله تعالى
ويصعد اليه كما قال اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه
قال اهل الاشارة والسبب في ان هذه الكلمة يصعد الى الله تعالى بذاتها
لان هذه الكلمة طيبة وقال عليه السلام ان الله تعالى لا يقبل الا الطيب
وتمام التحقيق فيه ان العقل والروح عاشقان على التجلي والمعرفة
والمكاشفة على ما سبق تقريره بالبرهان والمعرفة منجذبة الى المعروف
فاذا تصاعد العرفان الى المعروف والعارف ملازم العرفان انجذب
العارف الى المعروف وصعد اليه فذلك هو المراد من قوله اليه يصعد
الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه السؤال قال المفسرون الشجرة
الطيبة هي النخلة فما السبب في تشبيه كلمة التوحيد بالنخلة والجواب عنه
من وجوه الاول ان شجرة النخلة لا تنبت في جميع البلدان بل في بعض
دون البعض فكذلك كلمة التوحيد لا تجري على كل لسان ومعرفة
التوحيد لا يحصل في كل قلب والثاني ان النخلة اطول الاشجار فكذا

كلمة التوحيد على الكلمات والثالث ان شجرة النخلة ثابتة فى الارض
وفرعها فى السماء فكذا اصل الكلمة الطيبة ثابتة فى القلب
وهو المعرفة وفرعها ثابت فى السماء اليه يصعد الكلم الطيب
الرابع ان شجرة النخلة تحمل كل سنة مرتين كذا الايمان يحمل فى الدنيا
مرة فيثاب لاجل ايمانه وهو اهلية الشهادة والولاية والامامة
ومرة اخرى فى الاخرة وهى الجنة الباقية والنعمة الدايمة الخامس
ان النخلة وان حصلت فى وسط ثمرتها نواة لاخير فيها ولا
منفعة فان قيمة تلك الثمرة لا ينتقص بسبب تلك النواة فكذا
كلمة التوحيد وان كان يحصل معها شيء من المعاصى الا ان قيمتها
لا ينتقص بسبب ذلك قل يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم الآية
السادس ان النخلة اسفلها الذى يقرب من الناس كله شوك والثمرة
والمنفعة تحصل فى اعلاها فكذا الذين اوله التكاليف الشاقة
التى هى كالشوك وفى اعلاها الثمرة الحلوة اللذيذة وهى المعرفة
والمحبة الاسم الثامن الكلمة الثابته قال الله تعالى يثبت الله
الذين امنوا بالقول الثابت فى الحيوة الدنيا وفى الاخرة وفى علة
هذه التسمية وجوه الاول اعلم ان المذكور والمعلوم ثابت واجب
الثبوت لذاته ممتنع العدم لذاته والقول والاعتقاد يتبعان
المقول والمعتقد فلما كان المقول والمعتقد واجب الثبوت لذاته
كان القول والاعتقاد كذلك فلهذا سماه الله تعالى بالقول الثابت
والثانى ان هذا القول ثابت لا تؤثر فيه الاعمال وذلك اشارة
الى ان الايمان لا يزداد بالطاعة ولا ينتقص بالمعصية الثالث

ان هذا القول ثابت لا يؤثر فيه الذنب بل هو يؤثر فى ازالة الذنب لان
الموحد وان عظم ذنبه الا انه يرجى له المغفرة وقال الله تعالى ان الله
لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء والكافر وان عظم
كفره فاذا رجع عن الكفر الى التوحيد هدم التوحيد كفره الرابع ان هذه
الكلمة ثابته فى الآخرة لا يرتفع عن العبد وذلك لان اهل الجنة
مشتغلون فى الجنة بذكر التوحيد الا ترى ان الله تعالى اخبر عنهم
انهم قالوا وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن وقالوا الحمد لله
الذى صدقنا وعن الحمد لله الذى هدانا لهذا والخامس انها ثابتة
لان لها اصلا محكما وذلك لان اول من شهد بهذه الشهادة هو الله تعالى
بدليل قوله تعالى شهد الله فشهادة جميع الشاهدين بتوحيد الله فرع على
شهادة الله وشهادته هى الاصل وكل شهادة اصلها شهادة الله
فهى ثابتة فى الدنيا والاخرة والسادس ان الانسان بدون هذه
الكلمة يعمل فيه الماء والنار ان فرعون اغرق فى الماء اولا ثم نقل
من الماء الى النار لقوله اغرقوا فادخلوا نارا وعجل السامرى احرق
بالنار اولا ثم نقل من النار الى الماء لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم
نسفا اما ابرهيم وموسى فقد كانا مع حقيقة هذه الكلمة فلم
فلم تعمل النار فى ابرهيم قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابرهيم
ولم يعمل الماء فى موسى فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى
ولا تحزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين الاسم التاسع
كلمة التقوى قال الله تعالى والزمهم كلمة التقوى وفى سبب هذه
التسمية وجوه الاول انه لما اتقى صاحب هذه الكلمة ان يصف ربه

بما وصفه به المشركون وصف هذه الكلمة بانها كلمة التقوى
وراس التقوى اتقاء الشرك ثم فى هذه الاية اشارة وبشارة اما
الاشارة فهى انه تعالى سمى نفسه اهل التقوى فقال هو اهل التقوى
وسمى الموحدين اهل كلمة التقوى فقال والزمهم كلمة التقوى فكانه
تعالى يقول انا اهل ان اكون مذكورا بهذه الكلمة وانتم اهل ان تكون
ذاكرا بهذه الكلمة فما اعظم هذا الشرف واما البشارة فهى انه تعالى
قال والزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها واهلها فاثبت ان الموحدين
احق الخلق بهذه الكلمة وهم اهل هذه الكلمة وانه كريم لا ينزع الحق
عن مستحقه فهذا يدل على انه لا ينزع الايمان عن المؤمن الوجه الثانى
فى بيان انه لم سميت هذه الكلمة بكلمة التقوى هو ان هذه الكلمة
واقية لبدنك عن السيف ولمالك عن الاستغنام ولذمتك عن
الجزية ولاولادك عن السبى فان نضاف القلب الى اللسان صارت
واقية لقلبك عن الكفر فان نضم التوفيق اليه صارت واقية
لجوارحك عن المعاصى ثم قال تعالى والزمهم كلمة التقوى اى نحن
الزمناهم هذه الكلمة التى هى المفتاح لباب الجنة فنحن اردناهم اولا
وهم ما ارادونا قلنا المنة عليهم فى فتح هذا الباب وتقريره قوله تعالى
يمنون عليك ان اسلموا قل لا تمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم
ان هديكم للايمان الاسم العاشر الكلمة الباقية روى عن كثير
من المفسرين انهم قالوا فى تفسير قوله وجعلها كلمة باقية فى عقبه
انه قول لا اله الا الله ويدل عليه وجوه الاول مقدمة هذه الاية
وهى قوله تعالى واذ قال ابرهيم لابيه وقومه اننى براء مما تعبدون

الا الذى فطرنى فانه سيهدين فكان معنى قوله اننى براء مما تعبدون
نفى الالهية عن الاشياء التى كانوا يعبدونها ثم قال الا الذى فطرنى
فكان فيه اثبات الالهية لله الذى فطره فاذا حصل بهذان المعنيان
كان مجموعهما هو قول لا اله الا الله ثم قال وجعلها كلمة باقية فى عقبه
فثبت ان المراد من الكلمة الباقية هو قول لا اله الا الله والثانى
انه تعالى قال فى اخر القصص ولا تدع مع الله الها آخر لا اله الا هو كل
شئ هالك الا وجهه فبين ان كل شئ هالك الا هو فانه واجب الدوام
والبقاء والسرمدية لذاته وقد عرفت ان القول يتبع المعقول والاعتقاد
يتبع المعتقد فكان نصدق لا اله الا الله وحقيقة لا اله الا الله واجب
الثبوت والدوام والبقاء وذلك هو المراد بكونها كلمة باقية الثالث
انا بينا ان التوحيد لا يزول بسبب المعصية البتة والمعصية تزول
بسبب التوحيد وايضا التوحيد يبقى مع اهل الجنة وساير الطاعات
لا تبقى روى جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم عن جبريل عم
يقول الله تعالى يوم القيمة ما لى ارى فلان بن فلان فى صفوف اهل النار
فاقول يا رب انا لم نجد له حسنة فيقول الله تعالى انى سمعته فى الدنيا
يقول يا حنان يا منان فاذهب اليه فساله فياتيه فيجده فى زاوية
من زوايا جهنم يقول يا حنان يا منان فيساله جبريل عن هذه الكلمة
فيقول وهل حنان ومنان غير الله قال جبرئيل عليه السلام فاخذ
بيده من صفوف اهل النار وادخله فى صفوف اهل الجنة الاسم
الحادى عشر كلمة الله العليا قال الله تعالى وجعل كلمة الذين كفروا
السفلى وكلمة الله هى العليا واعلم ان السبب فى علو هذه الكلمة وجوه

الاول وهو ان القلب اذا تجلى فيه نور هذه الكلمة كان ذلك
التجلى نور الربوبية ونور الربوبية اذا تجلى فى القلب استعقب حصول
قوة الهيبة ربانية ولهذا السبب فان العارفين المستغرقين فى انوار
جلال الله يستحقرون الاحوال الدنياوية فيستحقرون عظماء الملوك
ولا يبالون بالقتل ولا يعتنون لشىء من طيبات الدنيا وزخارفها
البتة وكل ذلك يدل على استعلاء قوة هذه الكلمة وان اردت
ان تعرف ذلك فانظر الى استغراق سحرة فرعون لما تجلى لهم نور هذه
الكلمة كيف لم يلتفتوا الى قطع الايدى والارجل وان محمدا عليه السلام
لما استغرق فى هذه النور لم يلتفت الى الملكوت كما قال ما زاغ البصر
وما طغى روى ان ابرهيم الخواص كان فى البادية فظهر عليه شىء من
هذه الاحوال فاضطجع فجائه السباع واحاطوا به وما كان يبالى بها
فخاف صاحبه الذى كان معه وصعد بعض تلك الاشجار وبقى هناك
خايفا ثم لما كان فى الليلة الثانية زال ذلك الوجد فوقعت بعوضة
على يده فتالم واظهر الجزع والانين فقال له صاحبه ما اظهرت
الجزع فى البارحة من ظهور السباع واظهرت الجزع فى هذه الليلة
من البعوضة فقال ابرهيم كان فى البارحة نزل فى القلب سلطان
فبقوة ذلك السلطان ما كنت ابالى بجميع الملكوت واما الان فقد
غاب ذلك السلطان فظهر الجزع كما ترى السبب الثانى فى كون هذه
الكلمة عالية استعلاؤها فى الدنيا على ساير الاديان كما قال تعالى
ليظهره على الدين كله السبب الثالث فى استعلائها كونها مستعلية
على جميع الذنوب فانها تزيل جميع الذنوب وشىء من الذنوب لا يزيل وزن

هذه

هذه الكلمة الاسم الثانى عشر الاعلى فان قتادة فى قوله تعالى
ولله المثل الاعلى قال معناه قول لا اله الا الله واعلم ان معنى المثل
ههنا الصفة كذا قال اهل اللغة نظيره قوله مثل الجنة التى
وعد المتقون اى صفتها فصار المراد من قوله ولله المثل الاعلى
عين المراد من قوله وكلمة الله هى العليا الاسم الثالث عشر
كلمة السواء قال الله تعالى تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم قال
ابو العالية الرياحى هى كلمة لا اله الا الله والدليل عليه انه قال بعده
الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا الاية ولا معنى لهذه الايات
الا ما هو المراد من قولنا لا اله الا الله فثبت ان المراد من كلمة سواء
هى كلمة لا اله الا الله ومما يقرر ذلك ان جميع العقول معترفة بصحة
لا اله الا الله وجميع الالسنة ناطقة بها وجميع الرقاب متخضعة
متضرعة لها قال الله تعالى ولئن سالتهم من خلق السموات والارض
ليقولن الله وايضا يحتمل انها انما سميت بكلمة سواء لانها تفيد
الاستواء فى الدين والعقل والروح وتوجب الاستقامة و
ترك الاعوجاج فى كل الامور الاسم الرابع عشر انها كلمة النجاة
والذى يدل عليه القران والحديث اما القران فمن وجوه الاول
فقوله ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء
فهذه الاية صريحة فى ان النجاة لا تحصل بدون الايمان بلا اله
الا الله وتحصل مع الايمان بلا اله الا الله الثانى قوله تعالى
ويا قوم ما لى ادعوكم الى النجاة اى الى قول لا اله الا الله الى قوله
العزيز الغفار واما الخبر فيدل عليه الاخبار التى ذكرناها

في الفصل الثاني ونزيد ههنا اخبار آخر احدها ما روي عن جابر
قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم الموجبتين عن الموحدين
فقال عليه السلام من لقي الله ولا يشرك به شيئا دخل الجنة ومن لقي الله
يشرك به شيئا دخل النار وثانيها عن ابي سعيد الخدري رض انه قال
قال عليه السلام لقنوا موتاكم شهادة ان لا اله الا الله وثالثها
روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه طلحة بن عبد الله ثقيلا مغموما
بعد موت رسول الله صلعم فقال له عمر ما لك فقال طلحة سمعت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثا ما منعني ان اساله الا
القدرة عليه حتى مات سمعته يقول اني لاعلم كلمة لا يقولها عبد
عند موته الا انها اشرق لها لونه ونفس الله بسببها كربته فقال
عمر اني لاعلم ما هي قال وما هي قال هي الكلمة التي امر بها عمه عند الموت
وهي لا اله الا الله قال طلحة صدقت هي والله هي ورابعها روي
ابو امامة قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا بكر ينادي
في الناس من شهد ان لا اله الا الله دخل الجنة وخامسها قال
معاذ بن جبل حين حضرته الوفاة اكشفوا عني سجف القبة حتى
احدثكم بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمنعني
ان احدثكموه الا ان تتكلوا وتتركوا العمل سمعت رسول الله صلعم
يقول من قال اشهد ان لا اله الا الله مخلصا من قلبه دخل الجنة
وسادسها عن عبد الله بن ابي قتادة عن ابيه قال قال رسول الله صلعم
من قال اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله يجري بها
لسانه واطمان بها قلبه حرمت النار عليه وسابعها روي ابو هريرة

قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابي الدرداء ناد في الناس
من شهد ان لا اله الا الله وجبت له الجنة قال ابو الدرداء وان زنى وان
سرق قال وان زنى وان سرق حتى قالها ثلث مرات وقال في الثالثة
وان رغم انف ابي الدرداء وثامنها روى معاذ بن جبل عن رسول الله صلعم
انه قال من كان آخر كلامه لا اله الا الله وفاضت نفسه بعد دخل الجنة
الخامس عشر كلمة العهد قال ابن عباس في قوله لا يملكون الشفاعة الا من
اتخذ عند الرحمن عهدا قال ابن عباس العهد هو قول لا اله الا الله واقول
الذي يدل على صحة قول ابن عباس وجوه الاول ان قوله الا من اتخذ
عند الرحمن عهدا نكرة في طرف الثبوت وذلك لا يفيد الا عهدا واحدا
فهذه الاية تدل على ان ملك الشفاعة تحصل بسبب عهد واحد ثم
اجمعنا على ان ما سوى الايمان فان الواحد منه بل مجموعه لا يفيد
تلك الشفاعة البتة فوجب ان يكون ذلك العهد الواحد الذي يفيد
تلك الشفاعة هو الايمان وهو قول لا اله الا الله والثاني ان جماعة
من المفسرين قالوا في تفسير قوله تعالى واوفوا بعهدي اوف بعهدكم
انه هو عهد الايمان بدليل ان لفظ العهد مجمل فلما اعقبه بقوله
وامنوا بما انزلت مصدقا لما معكم علمنا ان المراد من ذلك العهد
هو الايمان وهو قول لا اله الا الله محمد رسول الله والثالث
قوله تعالى قل اتخذتم عند الله عهدا اي قلتم لا اله الا الله الرابع
ان اول ما وقع من العهود قوله الست بربكم قالوا بلى وذلك في الحقيقة
قول لا اله الا الله فكان لفظ العهد محمولا عليه الخامس انه قال
ان الله اشترى من المومنين انفسهم واموالهم الى قوله ومن اوفى بعهده

من الله فكان العهد من جانبك عهد الاقرار بالعبودية ومن جانبه
سبحانه عهد الكرم والربوبية فثبت بهذه الوجوه ان المراد من قوله الا من
اتخذ عند الرحمن عهدًا هو عهد قول لا اله الا الله الاسم السادس عشر
كلمة الاستقامة قال الله تعالى ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
قال ابن مسعود المراد من قوله استقاموا هو قول لا اله الا الله وذلك
لان قولهم ربنا الله اقرار بوجود الرب ثم ان من المقرين بذلك من اثبت
الله ندا وشريكا فالذين نفوا الشركاء والاضداد هم الذين استقاموا
على النهج القويم والصراط المستقيم واعلم ان القيمة في القيامة
بقدر الاستقامة في نفي الشركاء فمن الناس من اثبت الشريك ظاهرا
وهو الشرك الظاهر واستقامته في الدين لا يحصل الا بقدر نفي الشركاء
كما قال تعالى فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون ومنهم من اقر
بالوحدانية في الظاهر الا انه يقول قولا يهدم ذلك التوحيد مثل ان
يضيف السعادة والنحوسة الى الكواكب ويضيف الصحة والمرض الى الدواء
والغذاء او يضيف الفعل الى العبد على سبيل الاستقلال وكل ذلك
يبطل الاستقامة في معرفة الحق سبحانه وتعالى ومنهم من ترك كل ذلك
ولكنه قد يطيع النفس والشهوة في بعض الافعال واليه الاشارة بقوله
افرايت من اتخذ الهه هواه وهذا النوع من الشرك هو المسمى بالشرك الخفي
وهو المراد من قوله تعالى حكاية عن ابرهيم واسمعيل عليهما السلام
ربنا واجعلنا مسلمين لك وقول يوسف توفني مسلما فان الانبياء
عليهم السلام مبرؤون من الشرك الجلي والخفي اما الحالة المسماة بالشرك
الخفي وهو الالتفات الى غير الله فالبشر لا ينفك عنه في جميع الاوقات

فلهذا

فلهذا السبب تضرع الانبياء والرسل عليهم السلام الى الله في ان يصونهم عنه
الاسم السابع عشر مقاليد السموات والارض قال ابن عباس هو قول
لا اله الا الله واقول هذا هو الحق ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى
بين انه لو كان في الوجود الهان لحصل الفساد في العالم ولاختلف المصالح
قال الله تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا فثبت ان الشرك سبب
لفساد العالم وان التوحيد سبب لانتظام العالم فثبت ان مقاليد
السموات والارض هو قول لا اله الا الله الثاني انا بينا ان الشرك
سبب لاختلال العالم بدليل قوله تعالى تكاد السموات يتفطرن منه
وتنشق الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا واذا كان كذلك
كان التوحيد سببا لعمارة العالم الثالث ان ابواب السموات لا تنفتح
عند الدعاء الا بقول لا اله الا الله وابواب الجنان لا تنفتح الا
بهذا القول وابواب النيران لا تنغلق الا بهذا القول وباب القلب
لا ينفتح الا بهذه الكلمات وانواع الوساوس لا تندفع الا بهذا القول
فكانت هذه الكلمة اشرف مقاليد السموات والارض واعز مفاتيح
الارواح والنفوس والاجسام والعقول الاسم الثامن عشر
القول السديد قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا اتقوا الله وقولوا قولا
سديدا قيل في تفسيره الفعيل قد يكون بمعنى الفاعل كالسميع بمعنى
السامع وقد يكون بمعنى المفعول كالقتيل بمعنى المقتول والجريح بمعنى
المجروح واذا حملته على معنى الفاعل كان معناه انه يسد على صاحبه
ابواب جهنم واذا حملته على معنى المفعول كان معناه انه قد سد عن
ان يضره شيء من الذنوب وايضا ان ذا القرنين بنى السد دفعا الضرر

ياجوج وماجوج والله تعالى جعل الايمان سدا الضرر الشياطين
من الجن والانس الاسم التاسع عشر البر قال الله تعالى ليس البر
ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله
والاشارة في الاية ان من كان مشتغلا بجميع الجوانب والجهات
لم يكن صاحب البر وانما صاحب البر هو الذي يتوجه الى الكعبة وجهت
وجهى للذى فطر السموات والارض فقوله ليس البر ان تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب اشارة الى الكثرة والقول بالشركاء وقوله
ولكن البر من آمن بالله اشارة الى التوحيد فصار معناه هو المفهوم من
قول لا اله الا الله الاسم العشرون الدين الخالص قال الله تعالى
الا لله الدين الخالص واعلم ان الدين هو الانقياد والخضوع قال
عليه السلام في دعواته يا من دانت له الرقاب اى خضعت فقوله الا لله
الدين الخالص اى له الخضوع والخشوع لا لغيره وانما كان كذلك اذا
كان واحدا في الهيته اذ لو وجد الهان لكان كما ان الخضوع حاصل
لاحدهما كان ايضا حاصل للثاني فحينئذ لا يمكن حصر ثبوت الخضوع
لله فقط فالحصر دل على انه لا اله سواه ولا معبود الا اياه الاسم
الحادى والعشرين الصراط المستقيم قال الله تعالى حكاية عن رسوله
وان هذا صراطي مستقيما فاتبعوه وانك لتهدي الى صراط مستقيم
صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض واعلم ان هذا
الصراط المستقيم قال المفسرون هو قول لا اله الا الله وذلك
باعتبار ان حدوث كل محدث وامكان كل ممكن يحوجه الى المؤثر
الذي يوجده وينقله من العدم الى الوجود فاذا كان الموجد والمؤثر

والمد

والمدبر واحدا فمتى ينسبت حدوث المحدثات ووجود الممكنات
الى قدرته كان ذلك صراطي مستقيما وطريقا قويما ومتى ينسبت
حدوث المحدثات ووجود الممكنات الى غير قدرته كان ذلك طريقا
معوجا وسبيلا منحرفا فثبت ان الصراط المستقيم لا يحصل الا
باسناد كل الحوادث والممكنات الى تخليق الله وتكوينه واسناد
الكل اليه هو التوحيد فثبت ان الصراط المستقيم هو قولنا لا اله الا
الله الاسم الثاني والعشرون كلمة الحق لقوله تعالى ولا يملك
الذين يدعون من دونه الشفاعة الا من شهد بالحق يعني قول لا اله
الا الله الاسم الثالث والعشرون العروة الوثقى قال تعالى فمن
يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى يعني
بلا اله الا الله الاسم الرابع والعشرون كلمة الصدق قال تعالى
والذى جاء بالصدق وصدق به يعني قول لا اله الا الله فهذه جملة
الكلام في اسماء كلمة لا اله الا الله اللهم بحق اسمائك الطاهرة
المطهرة المقدسة احفظ بفضلك في قلوبنا معرفة لا اله الا الله
وعلى السنتنا ذكر لا اله الا الله وذكرها على السنتنا يا ارحم الراحمين

الفصل الرابع في الاشياء التي شبه الله تعالى بها كلمة التوحيد

فالاول ان الله تعالى شبه الايمان بالنار فقال مثلهم كمثل الذي
استوقد نارا وقال في آية اخرى ومما توقدون عليه في النار وفيه
اشارات ثلثة الاولى كما ان النار اذا عرض عليها الذهب المغشوش
احرقت كل ما فيه من الغش وبقي جوهر الذهب سليما عن الاحتراق فكذا يوم
القيامة اذا عرض المذنب على نار جهنم احترقت ذنوبه ومعاصيه وبقي

ايمانه سليما عن الاحتراق والثاني ان النار تحرق كل شئ فكذا الايمان
اذا قوي نوره احرق ما سوى الله عن القلب قال الله تعالى قل الله ثم
ذرهم في خوضهم يلعبون الثالث انه تعالى شبه الايمان بنوره فقال
مثل نوره والسبب في انه اضاف المعرفة الى نفسه وجوه الاول انه
اضاف المعرفة الى نفسه قطعا للاطماع عنها وذلك لانها جوهرة
نفيسة وقيمتها رفيعة وصاحبها غافل والشيطان محتال مكار
وجل مقصوده ان ياخذ المعرفة من العارف ويحول بينها وبينه
فالحق سبحانه برحمته جعل المعرفة في حمايته حتى ينقطع طمع ابليس
عنها وتحقيقه انه لما قال ان عبادي ليس لك عليهم سلطان الا من
اتبعك فلما اضاف العباد الى نفسه انقطع طمع ابليس عنهم فقال
فبعزتك لاغوينهم اجمعين الا عبادك منهم المخلصين فههنا لما اضاف
الايمان الى نفسه بقوله مثل نوره لا جرم كان طمع ابليس منقطعا عنه
الثاني ان كل ما للعبد فهو للحق لانه حصل بتخليقه وايجاده فاذا بلغ
العبد في درجات المكاشفات الى ان شاهد هذه الحالة فقد كملت
حالته وعظمت درجته فعند ذلك قيل كل ما له فهو لنا وكل ما لنا
فهو له فالمعرفة التي هي له فهي لنا فلا جرم اضافها الى نفسه فقال مثل نوره
ليكون طمع ابليس منقطعا عنه الثالث ان تخصيص الشئ باضافته الى الله
سبب للتشريف كما في قوله ان طهرا بيتي وطهر بيتي وكما في قوله هذه ناقة الله
وقوله وانه لما قام عبد الله فكذا ههنا اضاف المعرفة الى نفسه تدل
على انها اشرف الخلع والتشريفات ثم ههنا سوالات الاول ما الحكمة
في ان الله تعالى شبه نور المعرفة بنور السراج حيث قال مثل نوره كمشكوة

فيها

فيها مصباح الجواب من وجوه الاول ان البيت اذا كان فيه سراج لا يجاسر
اللص على دخوله مخافة ان يفتضح والثاني ان البيت اذا كان فيه سراج
اهتدى صاحبه الى طلب الامتعة فكذا القلب اذا كان فيه سراج المعرفة
اهتدى صاحبه الى الشروع في الطاعات الثالث السراج اذا كان في
البيت انتفع بضيائه كل احد من غير ان ينقص من استضاءة صاحبه بنوره
شئ فكذا كل قلب فيه سراج المعرفة انتفع بنوره غير صاحبه من غير ان
ينتقص من نور صاحبه شئ الرابع ان السراج اذا كان في البيت وكان
موضوعا في كوة مسدودة بزجاجة اضاء داخل البيت وخارجه
فكذا سراج المعرفة في القلب يضئ داخل القلب وخارج القلب حتى
يظهر نوره على الاذنين والعينين واللسان فيظهر نور الطاعات
في بين هذه الاعضاء واليه الاشارة بقوله اللهم اجعل في قلبي
نورا وفي سمعي نورا وفي بصري نورا وفي عظمي نورا وفي مخي نورا ٥
الخامس ان البيت اذا كان فيه سراج كان صاحبه مستانسا مسرورا
فاذا طفي السراج صار مستوحشا فكذا القول في القلب ما دام فيه
سراج المعرفة كان صاحبه مستانسا مسرورا فان فارقه والعياذ
بالله صار مغموما قال تعالى فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره
للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا الاية
السادس ان جرم السراج صغير وضوءه ينتشر من كل جانب فكذا ضوء
المعرفة ينتشر من القلب الى جميع الجوانب كما قال تعالى ولله المشرق والمغرب
فاينما تولوا فثم وجه الله وخصوصا من جانب العلو قال تعالى اليه
يصعد الكلم الطيب السؤال الثاني ما الفرق بين سراج الدنيا التي

هى الشمس وبين سراج المعرفة فالجواب الفرق من وجوه الاول ان الشمس
يحجبها غمامة والمعرفة لا تحجبها سبع سموات الثانى ان الشمس تغيب
بالليل والمعرفة لا تغيب ليلا ولا نهارا بل هى فى الليل اكثر قال تعالى
ان ناشئة الليل هى اشد وطأ واقوم قيلا وقال سبحان الذى
اسرى بعبده ليلا وقال ليلة القدر خير من الف شهر الثالث ان
الشمس تفنى قال تعالى اذا الشمس كورت واما المعرفة لا تفنى قال تعالى
كل شئ هالك الا وجهه اى الا ما حصل برضاه الرابع الشمس تنكسف
والمعرفة لا تنكسف الخامس الشمس تسود الاشياء والمعرفة تبيضها
السادس الشمس تحرق والمعرفة تنجى من الحرق السابع الشمس تارة
تضر وتارة تنفع والمعرفة تنفع ولا تضر البتة الثامن الشمس منفعتها
فى الدنيا والمعرفة منفعتها فى الدنيا وفى العقبى التاسع الشمس
فى السماء زينة لاهل الارض والمعرفة فى الارض زينة لاهل السماء
العاشر الشمس فى الفوق وهى تضئ كل ما تحتها والمعرفة فى قلب المومن
وهى فى التحت وتضئ ما فوقها اليه يصعد الكلم الطيب الحادى عشر
بالشمس تنكشف وجوه الخلق وبالمعرفة تنكشف وجود الخالق والدليل
عليه قول امير المومنين رضى الله عنه حين قيل له هل رايت ربك فقال
لا اعبد ربا لم اره الثانى عشر الشمس تقع على الولى والعدو والمعرفة
ليست الا للولى الثالث عشر ولاية الشمس فى الدنيا دون الاخرة
واما المعرفة فانها فى الدنيا ذات ولاية وفى الاخرة ذات ولاية
وايضا فان الكواكب مصابيح الخلق والمعرفة مصابيح الحق وايضا فان شعاع
الكواكب ينزل الى الاسفل وشعاع المعرفة يصعد الى العلو وايضا

فان

فان الكواكب تطلع من خزانة الفلك والمعرفة تطلع من خزانة الملك
وايضا فان الكواكب علامة والمعرفة كرامة وايضا فان الكواكب
موضع نظر المخلوقين والمعرفة نظر رب العالمين قال عليه السلام
ان الله لا ينظر الى صوركم والى اعمالكم ولكن ينظر الى قلوبكم ونياتكم
السؤال الثالث ما الفرق بين السراج وبين المعرفة الجواب من وجوه الاول
ان سراج الدنيا نوره مشوب بالظلمة وهى الدخان الذى يعلوه وسراج
المعرفة نور صاف لا ظلمة معه والثانى ان سراج الدنيا يحرق نفسه
لينتفع به غيره وسراج المعرفة والتوحيد يحرق الذنب ويروح القلب
وينور الصدر والثالث ان سراج الدنيا يضمحل من نور الشمس واما
سراج المعرفة والتوحيد فانه لا يضمحل من نور الشمس والرابع ان سراج
الدنيا لا وفاء معه يحرق من اوقده ومن امده بالفتيلة كما يحرق من لم
يوقده ولم يمده بشئ وسراج المعرفة ذو وفا لا يحرق صاحبه البتة
بل ينجيه من الحرق فشتان ما بين السراجين السؤال الرابع ما الحكمة فى
تشبيه المعرفة بالمصباح الجواب من وجوه الاول ان المصباح تضره
الرياح والمعرفة تضره الوساوس والشبهات والثانى ان المصباح
لا يبقى بغير الدهن والمعرفة لا يبقى بغير التوفيق الثالث لا بد للمصباح
من حافظ يتعهده ولا بد لمصباح المعرفة من متعهد وهو فضل الله
ورحمته السؤال الخامس ما الحكمة فى تشبيه القلب بالزجاجة
وهلا شبهه بالذهب والفضة فانهما اعز من الزجاجة الجواب
من وجوه الاول ان الذهب والفضة وان كانا نفيسين رفيعين لانهما
كثيفان يوقعان الحجاب وان زجاجة وان كانت قليل القيمة الا انها

لطيفة صافية لا توقع الحجاب فانه يرى باطنها من ظاهرها وبالضد
والله تعالى ذكرهذا المثل لرفع الحجاب لا لوضعه والثانى انه ليس
لانية الزجاجة خطر انما الخطر لما فى الانية فكذا ليس لقلبك
خطر انما الخطر للايمان والثالث اذا انكسرت الزجاجة لم تصلح
الا بادخال النار والاذابة كذلك القلب اذا فسد لا يصلح لم يخلص
من شوايب الذنوب والوساوس الا بادخال النار والاذابة وان
منكم الا واردها الاية الرابع ان صاحب الذهب والفضة لا يخاف
كسرهما لعلمه ان قيمتها لا يبطل بسبب الانكسار اما صاحب الزجاجة
فانه يكون على حذر ووجل لعلمه بانها اذا انكسرت بطلت قيمتها
فكذلك ينبغى للمؤمن ان يكون على حذر ووجل كصاحب الزجاجة
ولا يكون على امن وسكون كصاحب الذهب والفضة والخامس شبهه
بالزجاجة لان النور فى الزجاجة احسن واتم ضياء منه فى الذهب والفضة
فالزجاجة لقلة قيمتها واستعدادها للانكسار والبطلان صار
النور فيها احسن وهو الاشارة الى قوله تعالى انا عند المنكسرة قلوبهم
من اجلى السؤال السادس ما الحكمة فى تشبيه تلك الزجاجة بالكوكب
الدرى الجواب من وجوه الاول ان الكوكب الدرى فيه زينة وهداية
لاهل الارض كما قال وعلامات وبالنجم هم يهتدون وفيه زينة
لاهل السماء ايضا انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب فكذا قلب
المؤمن سبب لهداية صاحب القلب الى الخيرات وهو ايضا زينة لاهل السماء
فانه روى ان معرفة العارف يضئ لاهل السماء كما يضئ الكوكب الدرى
لاهل الارض والثانى ان الكواكب لا قدرة الشيطان عليه بل الكوكب

تحرق الشياطين قال تعالى وجعلناها رجوما للشياطين فكذا ايمان
قلب المؤمن لا سبيل للشيطان عليه بل نور قلبه وايمانه تحرق الشيطان
ولذلك قال ان عبادى ليس لك عليهم سلطان وقال يوسوس فى صدور
الناس ولم يقل يوسوس فى قلوب الناس وقال تعالى ان الذين اتقوا
اذا مسهم طايف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون فذلك التذكر
هو ظهور نور الايمان وقوله فاذا هم مبصرون اشارة الى احتراق
وساوس الشيطان السؤال السابع ما الحكمة فى انه شبه القلب
بالكواكب لا بالشمس والقمر الجواب من وجوه الاول ان الكواكب تستتر
بالنهار وتظهر بالليل والعارف مستور بالنهار فاذا اظلم الليل
ظهر بالخدمة والتضرع والثانى ان الكواكب زينة السماء والقلب
زينة العارف والثالث ان الكواكب مصابيح السماء ولقد زينا السماء
الدنيا بمصابيح والقلب مصباح العارف قال تعالى مثل نوره كمشكوة
فيها مصباح السؤال الثامن هل فى تشبيه الايمان بالسراج بشارة
لاهل الايمان الجواب نعم من خمسة اوجه الاول ان الشمس سراج
استوقده الله للفناء ثم لا يقدر احد على اطفايه والمعرفة سراج
استوقده الله للبقاء كيف يقدر ابليس على اطفايه الثانى استوقد الله
سراج الشمس فى السماء فهى تزيل الظلمة عن بيتك مع غاية البعد عنك
فاذا استوقد شمس المعرفة فى قلبك كيف لا تزيل ظلمة المعصية عن قلبك
مع شدة القرب الثالث من استوقد سراجا فعليه تعهده والله هو الموقد
لسراج المعرفة فى قلبك قال تعالى كتب فى قلوبهم الايمان فلا جرم جعل
الرحمة امداده وتعهده انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون الرابع

اللص اذا راى السراج فى البيت مستوقدا لا يقصد ذلك البيت بالسرقة
والله اوقد سراج المعرفة فى قلبك وكيف يقدر لص الشيطان من القرب
منك الخامس المجوس اوقدوا نارا فلا يريدون اطفاها فالملك
القدوس اوقد نار المحبة والمعرفة فكيف يرضى باطفائها والسادس
من اراد ان يستوقد سراجا احتاج الى سبعة اشياء زند وحجر
وحراق وكبريت ومسرجة وفتيله ودهن فالعبد اذا طلب سراج المعرفة
فلا بد له من زند الجهد والذين جاهدوا فينا وحجر التضرع ادعوا
ربكم تضرعا واما الحراق فهو احراق النفس بمنعها من الشهوات قال تعالى
ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوى والرابع كبريت الانابة
وانيبوا الى ربكم والخامس مسرجة الصبر واصبر فان الله مع الصابرين
والسادس فتيلة الشكر واشكروا نعمة الله عليكم والسابع
دهن الرضاء بقضاء الله تعالى قال تعالى واصبر لحكم ربك وقال عليه السلام
الرضاء بقضاء الله باب الله الاعظم فهذه الامور السبعة يتعلق بك
فى حفظ عهد العبودية فاذا وفيت بعهد العبودية فهو اولى ان يفى
بعهد الربوبية كما قال اوفوا بعهدى اوف بعهدكم فتحفظ هذه النكت
من الامور التى شبه الله المعرفة فى قلبك به والذكر فى لسانك ويجعلها
نورا باقيا معك فى القبر وظلمات القيامة النوع الثالث من الامور
التى شبه الله تعالى الايمان بها التراب قال والبلد الطيب يخرج نباته
باذن ربه ووجه المشابهة من وجوه الاول ان التراب ذو امانة من اودع
اليه شيئا سلم اليه اضعافه قال تعالى فى كل سنبلة مائة حبة فكذا
المؤمن اذا عمل عملا سلم الله اضعافه فى ذلك العمل اليه يوم القيامة قال تعالى

انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب الثانى من خاصية الارض
انه يطرح عليها كل قبيح ويخرج منها كل مليح فكذا ارض الايمان يطرح
عليها قبائح الكفر والذنوب ثم يخرج منها كل مليح ثمرات المغفرة والرحمة
والرضوان فاولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات الثالث من خاصة
الارض انها كالام الحاضنة فهى لك كالمهد قال تعالى الذى جعل
لكم الارض مهادا فراشا وكالخزانة لك خلق لكم ما فى الارض جميعا
وكالام المشفقة عليك منها خلقناكم وفيها نعيدكم الاية فكذا
الايمان لحصل منه جميع منافعك فى الدنيا والاخرة وبه تندفع
عنك جميع المضار فى الدنيا والعقبى النوع الرابع من الاشياء التى
شبه الله الايمان والقران بها الماء قال الله تعالى انزل من السماء
ماء فسالت اودية بقدرها الى قوله كذلك يضرب الله الحق والباطل
اى الايمان والكفر فالزبد هو الكفر والماء هو الايمان وفى تقرير
وجه المشابهة وجوه الاول ان الماء يزيل الانجاس عن البدن
والثياب وانزلنا من السماء ماء طهورا وثيابك فطهر وكذا
الايمان يزيل نجاسة الكفر والمعاصى عن القلب قال عليه السلام
الاسلام يجب ما قبله الثانى ان الله تعالى سمى الماء المنزل
من السماء رحمة قال هو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته
وسمى القران رحمة فقال وهدى ورحمة للمؤمنين وجعل الايمان
رحمة وسببا للرحمة فقال وكتب فى قلوبهم الايمان وقال كتب
ربكم على نفسه الرحمة فلاجرم شبه الايمان والقران بالماء
لهذا السبب الثالث انه تعالى سمى القران مباركا فقال وهذا ذكر مبارك

وقال كتاب انزلناه اليك مبارك وقال في الماء وانزلنا من السماء ماء
مباركا فلاجرم شبه القران بالماء لكون كل واحد منهما مباركا الرابع
ان الماء شفاء للنفوس والقران شفاء للقلوب قال تعالى وننزل من القران
ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين فهو شفاء لقلوبهم ورحمة لذنوبهم
والخامس كما انه تعالى هو الذي تولى انزال الماء من السماء ولا يقدر
عليه احد سواه فكذلك هو الذي تولى انزال القران ولا يقدر عليه
احد غيره السادس كما انه تعالى اذا انزل المطر من السماء لم يقدر
احد على دفعه فكذلك لما انزل القران من السماء لم يقدر احد
على دفعه وادخال الباطل عليه وانه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل
من بين يديه الاية السابع ان المطر لا يقدر مخلوق على احصايه وعدد
قطراته فكذلك القران لا يحيط احد بكمال اسراره ولطايف حقايقه
الثامن كما ان المطر ينزل من السماء قطرة قطرة ثم يسيل في الارض
نهرا نهرا وبحرا بحرا فكذا نزل القران من السماء اية اية ونجما نجما ثم صار
المجموع انهارا وبحارا وفي الخبر ان القران بحر عميق لا يدرك قعره
التاسع كما ان المطر لو نزل من السماء دفعة واحدة لقلع الاشجار
وخرب الديار وكان الفساد فيه اكثر من الصلاح فكذلك القران
لو نزل جملة واحدة لضلت فيه الافهام وتاهت فيه الاوهام قال تعالى
لو انزلنا هذا القران على جبل الاية العاشر كما ان الله تعالى يحيي الارض
بعد موتها بالمطر فكذلك احيا القلوب الميتة بالقران قال او من
كان ميتا فاحييناه الحادي عشر كما ان المطر واحد ثم انه يقع على ارض
فيخرج منه الورد والريحان وعلى ارض اخرى فيخرج منه الشوك والسمى

فكذلك

فكذلك القران يقع على قلب المطيعين فيخرج منه ورد العبودية وريحان
الطاعة ويقع على قلب الكافر فيخرج منه سم الكفر وشوك المعصية
قال تعالى يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا الثاني عشر ان في الماء النازل
من السماء غنية عن جميع المياه فكذلك في القران غنية عن جميع الكتب
والعلوم الثالث عشر ان الماء الكثير اذا انغمس فيه من لا يحسن السباحة
هلك فيه فكذا القران اذا تكلم فيه احد بغير العلم هلك قال عليه السلام
من فسر القران برايه فليتبوأ مقعده من النار الرابع عشر كما ان الشرب
فوق الكفاية يضر ولا ينفع فكذلك الكلام في القران فوق الفهم
والفطنة يضر ولا ينفع قال عليه السلام امرت ان اكلم الناس على
قدر عقولهم الخامس عشر اذا انزل المطر زال القحط وظهر النبات
والغذاء والفاكهة فكذلك كان قبل نزول القران ظهر قحط الدين
فلما نزل القران زال القحط في الدين وظهر انواع الغذاء والفاكهة
للروح وهو بيان التوحيد والنبوة والشرايع السادس عشر كما ان الماء
يطفي النار كذلك الايمان والقران يطفي على المؤمن الذي هو حامل القران
نار جهنم النوع الخامس من الاشياء التي شبه الله تعالى القران
والايمان بها الحبل قال تعالى واعتصموا بحبل الله ووجه المشابهة
من وجوه الاول ان من اراد ان يصعد من السفل الى العلو لما امن
وخاف من الانزلاق فاذا تمسك بالحبل امن من ذلك الخوف فالعبد
يريد ان يصعد من سفل البشرية الى علو عالم الجلال والكبرياء ويخاف
من ان ينزلق قدم عقله فاذا تمسك بالقران امن منه الثاني ان الاعمى
اذا اراد الذهاب الى موضع فان كان بين مكانه وبين ذلك الموضع حبل

مشدود تمسك بذلك الحبل وذهب فارغا من غير خوف فكذلك
العقول البشرية كالعمى في سلوك سبيل التوحيد والمعرفة فاذا
تمسكوا بالقران امنوا من الخوف والثالث ان من سقط في البير
فطريق تخليصه ان يرسل اليه حبل حتى يتعلق به ويصعد وينجو
من الهلاك فالارواح البشرية وقعت في هاوية عالم الاجسام
والملك الرحيم ارسل اليه حبل القران فمن تعلق به وصعد نجا ومن
لم يتعلق به بقي في بين الظلمات وكان من اهلها لكن النوع السادس من
الاشياء التي شبه الله تعالى الايمان بها شجرة الزيتون فقال
وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين وذكروا
في وجه التشبيه امورا الاول انه تعالى انما شبه الايمان بهذه الشجرة
لان هذه الشجرة في اكثر الامر انما تنبت في الامكنة المطهرة فكذلك
المعرفة لا تستقر في كل قلب بل في القلوب المطهرة الثاني ان شجرة الزيتون
يتولد من ثمرها ذلك الدهن الذي هو في غاية الصفاء فكذلك قلب
المؤمن يتولد منه الايمان والمعرفة وهما اصفى الانوار واشرفها واعلم
ان الله تعالى وعد المؤمنين بعشر كرامات احدها المغفرة قال تعالى
قل للذين كفروا ان ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف والمعنى ان قبل الايمان
وتركوا الكفر وثانيها الامن قال الله تعالى الذين آمنوا ولم يلبسوا
ايمانهم بظلم اولئك لهم الامن الثالث الهداية قال الله تعالى ان
الذين امنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بايمانهم الآية والرابع
الزيادة قال الله تعالى للذين احسنوا الحسنى وزيادة والخامس الفلاح
قال الله تعالى اولئك على هدى من ربهم واولئك هم المفلحون وقال

قد افلح المؤمنون والسادس التثبيت قال الله تعالى يثبت الله الذين
امنوا بالقول الثابت السابع الشفاعة قال الله تعالى يومئذ لا ينفع
الشفاعة الا من اذن له الرحمن ورضي له قولا يعني قول لا اله الا الله
الثامن اصلاح الاعمال قال الله تعالى يا ايها الذين امنوا اتقوا الله
وقولوا قولا سديدا يصلح لكم اعمالكم والتاسع البشارة قال
الله تعالى وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون والعاشر سماع كلام تعالى
ورؤيته قال الله تعالى سلام قولا من رب رحيم وجوه يومئذ ناضرة
الى ربها ناظرة اما الخاتمة فمن وجوه الاول قال بعضهم عجبا لمن
عرفك كيف يخلو قلبه من ذكرك وكيف يكون همه نفسه ولم اكثر
من همه مناجاتك وكيف يفرح بغير احسانك وكيف لم يطلب الغنى
بالتعزز بك وكيف لم يطلب الكفاية في صدق التوكل عليك وكيف
لم يعد البلاء في طاعتك اعظم انواع السعادات وكيف لم تشغله
معرفتك عن معرفة غيرك وكيف لم يهن على قلبه مصايب الدنيا
وكيف لم يطلب راحته وروحه بتفويض اموره اليك وكيف يطلب
لذة العيش في غير وقت المعرفة وكيف يستلذ بمن يشغله عنك
وكيف يوثر شهوة الدنيا مع سرعة فنائها على محبتك وكيف يغفل
عنك وهو يعلم انك لا تغفل عنه الثاني قال بندار بن الحسين
من اقبل على الدنيا احرقته نيرانها يعني نار الحرص فصار رمادا ومن
اقبل على الاخرة احرقته نيرانها يعني نار الخوف فصار سبيكة ذهب
ينتفع بها ومن اقبل على الله احرقت نار التوحيد والمحبة فصار جوهرة
نفيسة لا قيمة لها الثالث قيل لا تستكمل للعبد حقيقة الايمان

حتى يكون خيره مأمولا وشره مأمونا وحتى يكون الضعة احب اليه
من الرفعة والفقر احب اليه من الغنى والذل في الله احب اليه من العز
فيما سواه ويستكثر القليل من عمل غيره ويستقل الكثير من عمل نفسه
ولا يرى احدا الا ظن انه خير منه الرابع قال لقمان لابنه يا بني الايمان
سبع حقايق ولكل حقيقة منها حق فالحقايق السبعة اليقين والخوف
والمعرفة والهدى والعمل والتفكر والورع فحقيقة اليقين الصبر
وحقيقة الخوف الطاعة وحقيقة المعرفة الايمان وحقيقة الهدى
البصيرة وحقيقة العمل النية وحقيقة التفكر الفطنة وحقيقة
الورع الفرار الخامس قيل اركان الايمان اربعة توحيد بلا حد
وذكر بلا لبث وحال بلا نعت ووجد بلا وقت ومعنى قولنا حال بلا
نعت ان نصير بحيث لا يصفها لامن الاحوال الرفيعة الا ويكون حاصلا
لانه لو لم يكن حاصلا له لكان غايبا وقيل ذكر الغايب غيبة السادس
قال علي رضي الله عنه اربع خصال من كن فيه فهو مومن اذا قال صدق
واذا قال وعد وفى واذا ايتمن ادى واذا عاهد لم يغدر السابع
قال الجنيد المومن كالارض تطيق حمل كل شيء وكالقطر اذا سقط سقى كل شيء
والتحقيق في ذلك انه في جميع احواله ناظر الى الله فهو لا ينظر مع من يعامل
ولكنه ينظر لاجل من يعامل فلا جرم يستوي الكل عنده الثامن
قال يحيى بن معاذ الرازي الايمان نقي فلا تدنسه باثامك والليالي
طويلة فلا تقصرها بمنامك والايام قصيرة فلا تجعلها في غير صيامك
وقال ايضا اذا لم يكن الايمان هادما للسيئات كما كان الكفر هادما للحسنات
فما فضل الايمان والتاسع قال سهيل بن عبد الله المومن بين خمسة اعداء

نفس منازعة ومنافق يبغضه وشيطان يغويه ومومن يحسده وكافر
يقاتله العاشر قال ابو بكر الوراق للمومن اربع علامات كلامه ذكر
وصمته فكر ونظره عبرة وعمله طاعة الحادي عشر قال ابو بكر الواسطي
في معنى قول معاذ تعالوا نومن ساعة اي حتى نخرج من الارادات المنازعات
لان كل ارادة ارادها الانسان على خلاف ارادة الحق فهي منازعة مع
الربوبية الثاني عشر قال ابو يزيد الهي انك خلقت هذا الخلق بغير علمهم
وقلدتهم امانة بغير ارادتهم وقدرتهم فاعنهم بغير علمهم فان لم تعنهم
فمن يعينهم الثالث عشر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المومن
من يكون نفسه منه في عناء والناس منه في راحة **الفصل الخامس**
في شرح المباحث المتعلقة بكلمة لا اله الا الله وهي من وجوه البحث
الاول زعم جماعة من النحويين ان هذا الكلام فيه حذف واضمار ثم ذكروا
فيه وجهين احدهما التقدير لا اله لنا الا الله والثاني لا اله في الوجود
الا الله واعلم ان هذا الكلام غير سديد اما الاول فلانه لو كان
التقدير لا اله لنا الا الله لم يكن هذا الكلام مفيد التوحيد الحق
اذ يحتمل ان يقال هب انه لا اله لنا الا الله فلم قلتم انه لا اله لجميع المحدثات
والممكنات الا الله ولهذا السبب انه تعالى لما قال والهكم اله واحد
قال بعده لا اله الا هو الرحمن الرحيم لانه لما قال والهكم اله واحد
بقي للسائل ان يسال ويقول هب ان الهنا واحد فلم قلتم ان اله الكل
واحد فلاجل ازالة هذا السوال قال بعده لا اله الا هو الرحمن الرحيم
ولو كان المراد من قوله لا اله الا هو انه لا اله لنا الا هو كان هذا تكرارا
محضا واما الثاني وهو قولهم التقدير لا اله في الوجود الا الله فنقول

واى حاصل يحملكم على التزام هذا الاضمار بل نقول حمل الكلام على
ظاهره اولى من هذا الاضمار الذى ذكرتم وذلك لانا لو ارسلنا
الزمنا ذلك الاضمار كان معناه لا اله في الوجود الا هو وكان
هذا نفيا لوجود لا اله الثانى فاما لو اجرينا الكلام على ظاهره
كان هذا نفيا لماهية الاله الثانى ومعلوم ان نفى الماهية اقوى
فى اثبات التوحيد من نفى الوجود فيثبت ان اجراء الكلام هذا
على ظاهره اولى فان قيل نفى الماهية غير معقول فانك اذا قلت
السواد ليس بسواد كنت قد حكمت بان السواد انقلب الى نقيضه
وصيرورة الشئ عن نقيضه غير معقوله اما اذا قلت السواد ليس
بموجود كان هذا كلاما معقولا فلهذا السبب اضمرنا فيه هذا
الاضمار الجواب قولكم نفى الماهية غير معقول قلنا هذا باطل
فانك اذا قلت السواد ليس بموجود فقد نفيت الوجود لكن الوجود
من حيث هو هو وجود ماهية فاذا نفيت الماهية المطلقة فقد
نفيت الماهية المسماة بالوجود واذا كان كذلك صار نفى الماهية
امرا معقولا واذا عقل ذلك فلم لا يجوز اجراء هذه الكلمة على
ظاهرها فان قلت انا اذا قلنا السواد ليس بموجود فانا ما نفينا
الماهية وما نفينا الوجود ايضا وانما نفينا موصوفية الماهية
بالوجود فنقول موصوفية الماهية بالوجود هل هى امر مغاير
للماهية وللوجود ام لا فان كانت مغايرة لهما كان ذلك المغاير
ماهية فكان قولنا السواد ليس بموجود نفيا لتلك الماهية المسماة
بالموصوفية وحينئذ يعود الكلام المذكور واما ان قلنا ان الموصوفية

الماهية بالوجود ليست امرا مغايرا للماهية وللوجود امتنع توجيه
النفى اليها واذا امتنع ذلك بقى النفى متوجها اما الى الماهية واما
الى الوجود وحينئذ يحصل غرضنا من ان الماهية يمكن نفيها واذا
كان الامر كذلك ظهر ان قولنا لا اله الا الله حق وصدق من غير حاجة
الى الاضمار البحث الثانى قال النحويون قولنا لا اله الا الله ارتفع
الله لانه بدل من موضوع لا مع الاسم وبيانه انك اذا قلت
ما جاءنى رجل الا زيد فقوله الا زيد مرفوع بالبدلية لان
البدل هو الاعراض عن الاول والاخذ بالثانى فصار التقدير
ما جاءنى الا زيد وهذا معقول واما قولهم ما جاءنى القوم
الا زيد يفيد نفى المجئ عن الكل الا عن زيد واما قولهم جاءنى القوم
الا زيد فههنا البدلية غير ممكنة لانه يصير التقدير جاءنى الا زيد
وذلك يقتضى انه جاءه كل احد الا زيدا وذلك محال فظهر الفرق
البحث الثالث اتفق النحويون على ان محل الا فى هذه الكلمة محل غير
والتقدير لا اله غير الله كقول الشاعر وكل اخ مفارقه اخوه
لعمر ابيك الا الفرقدان والمعنى كل اخ غير الفرقدان فانه يفارقه
اخوه وقال تعالى لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا والتقدير
لو كان فيهما الهة غير الله لفسدتا والذى يدل على صحة ما قلناه
انا لو حملنا الا على الاستثناء لم يكن قولنا لا اله الا الله توحيدا
محضا لانه يصير تقدير الكلام لا الهة يستثنى عنهم الله فيكون
هذا نفيا لالهة يستثنى عنهم الله ولا يكون نفيا لالهة لا يستثنى
عنهم الله بل عند من يقول بدليل الخطاب يكون اثباتا لذلك وهو

كفر فثبت انه لوكانت كلمة الا محمولة على الاستثناء لم يكن قولنا
لا اله الا الله توحيدا محضا ولما اجمعت العقلاء على انه يفيد
التوحيد المحض فوجب حمل الا على معنى غير حتى يكون معنى الكلام
لا اله غير الله البحث الرابع قال جماعة من الاصوليين الاستثناء
من النفي لا يكون اثباتا واحتجوا عليه بوجهين الاول ان الاستثناء
ماخوذ من قولك ثنيت الشيء عن جهته اذا صرفته عنها فاذا قلت
لا عالم فهنا امران احدهما الحكم بهذا العدم والثاني نفس هذا
العدم ثم اذا قلت عقيبه الا زيد فهذا الاستثناء يحتمل ان يكون
عايدا الى حكمك بذلك العدم ويحتمل ان يكون عايدا الى نفس ذلك
العدم فان كان عايدا الى الحكم بالعدم لم يلزم تحقق الثبوت لان
سبب الاستثناء يزول الحكم بالعدم وعند زوال الحكم بالعدم
يبقى المستثنى مسكوتا عنه غير محكوم عليه لا بالنفي ولا بالاثبات
وحينئذ لا يلزم الثبوت اما ان كان تاثير الاستثناء في صرف العدم
ومنعه فحينئذ يلزم تحقق الثبوت لانه لما ارتفع العدم وجب حصول
الوجود ضرورة لانه لا واسطة بين النقيضين واذا ثبت هذا فنقول
عود الاستثناء الى الحكم بالعدم اولى من عوده الى نفس العدم ويدل عليه
وجوه الاول ان الالفاظ وضعت دالة على الاحكام الذهنية
لا على موجودات الخارجية فانك اذا قلت ان العالم قديم فهذا
لا يدل على كون العالم قديما في نفسه والا لكنا اذا قلنا العالم قديم
العالم محدث لزم كون العالم قديما وحادثا معا وذلك محال بل هذا
الكلام يدل على حكمك بقدم العالم واذا كانت الالفاظ وضعت دالة

على الاحكام الذهنية لا على موجودات الخارجية كان صرف ذلك
الاستثناء الى الحكم بالعدم اولى من صرفه الى نفس ذلك العدم
والوجه الثاني في بيان ان عود الاستثناء الى الحكم بالعدم اولى
من عوده الى نفس ذلك العدم وذلك لان عدم الشيء في نفسه ووجوده
لا يقبل تصرف هذا القابل بل القابل لتصرفه هو حكمه بذلك الوجود
والعدم واذا كان كذلك كان عود الاستثناء الى الحكم اولى من عوده
الى المحكوم به الحجة الثانية في بيان الاستثناء من النفي ليس باثبات
هو انه جاء في الحديث والعرف صور كثيرة في الاستثناء في النفي
مع انه لا يقتضي الثبوت قال عليه السلام لا نكاح الا بولي ولا صلوة
الا بطهور ويقال في العرف لا عز الا بالمال ولا مال الا بالرجال
ومرادهم من الكل مجرد الاشتراط اقصى ما في الباب ان يقال وقد
ورد هذا اللفظ في صور اخرى وكان المراد ان يكون المستثنى من النفي
اثباتا الا انا نقول انه لابد وان يكون مجازا في احدى الصورتين
الا انا نقول ان قلنا لا يقتضي ان يكون الخارج من النفي اثباتا فحيث
افاد ذلك احتمل ان تكون تلك الزيادة مستفادة من دليل آخر ولا يكون
ذلك تركا لما دل اللفظ عليه وان قلنا انه يقتضي ان يكون الخارج
من النفي اثباتا فحيث لا يفيد ذلك لزمنا ترك العمل بما يكون اللفظ
دليلا عليه ومعلوم ان الاول اولى لان اثبات الامر الزايد
بدليل زايد ليس فيه مخالفة للدليل اما ترك ما دل الدليل عليه
يكون مخالفا للدليل فثبت بما ذكرنا ان الاستثناء من النفي لا يكون
اثباتا واذا ثبت هذا كان قولنا لا اله الا الله تصريحا بنفي ساير

الالهة ولا يكون اعترافا بوجود الله واذا كان كذلك لم يكن مجرد
هذا القول كافيا في صحة الايمان وههنا اشكال آخر وهو انا قد
دللنا على ان كلمة الا بمعنى غير في هذا الموضع واذا كان كذلك
كان قولنا لا اله الا الله معناه لا اله غير الله فيصير المعنى نفي اله
مغاير لله ولا يلزم من نفي ما مغاير الشيء اثبات ذلك الشيء وحينئذ
يعود الاشكال الجواب من وجهين الاول ان اثبات الاله سبحانه
كان متفقا عليه بين كل العقلاء بدليل قوله تعالى ولئن سألتهم
من خلق السموات والارض ليقولن الله فكان ذلك مفروغا عنه
متفقا عليه الا انهم كانوا يثبتون الشركاء والاضداد والانداد
فكان المقصود من هذه الكلمة نفي الاضداد والانداد فاما القول
باثبات الاله للعالم فذلك من لوازم العقول الثاني ان سلمنا
ان هذه الكلمة كما دلت على نفي ساير الالهة دلت على اثبات الهية
الله تعالى الا انا نقول هذه الدلالة تكون حاصلة بموضع الشرع
لا بمفهوم اصل اللغة فهذا تمام القول في هذا المقام البحث
الخامس اعلم انه يجوز ان يقال لا رجل في الدار وان يقال لا رجل
في الدار اما على الوجه الاول فانه يوجب النفي الرجال بالكلية و
الدليل عليه ان قولنا لا رجل تقتضي نفي ماهية الرجل ونفي الماهية
يقتضي انتفاء افراد كل الماهية لانه لو ثبت فرد من افراد الماهية
لثبت الماهية ضرورة انه متى ثبت فرد من افراد الماهية فقد ثبت
الماهية لا محالة واما قولنا لا رجل في الدار فهو نقيض قولنا رجل
في الدار لكن قولنا رجل في الدار يفيد ثبوت رجل واحد فقولنا

لا رجل في الدار وجب ان يفيد عموم النفي حتى يحقق التناقض بين
القولين فالحاصل ان قولنا لا رجل قوي في الدلالة على عموم النفي
من قولنا لا رجل مع ان كل واحد منهما يفيد عموم النفي ولاجل كون كل واحد
منهما يفيد العموم قرئ قوله تعالى لا ريب فيه بالقرائتين وكذا قوله
فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ولاجل ان البناء على الفتح اقوى
في الدلالة على العموم اتفقوا عليه في قولنا لا اله الا الله البحث
السادس من الناس من قال ان تصور الاثبات متقدم على تصور النفي
بدليل ان الواحد منا يمكنه ان يتصور الاثبات وان يخطر بباله
معنى النفي والعدم ويمتنع عليه ان يتصور العدم والنفي الا وقد تصور
الاثبات اولا وذلك لان العدم المطلق غير معقول بل العدم لا يعقل
الا اذا اضيف الى امر معين فيقال عدم الدار وعدم الغلام فثبت ان
تصور الاثبات متقدم واصل وتصور النفي متاخر وفرع واذا
ثبت هذا فما السبب في ان جعل النفي الذي هو الفرع متقدما والاثبات
الذي هو الاصل متاخرا والجواب ان في تقديم النفي على الاثبات
ههنا اغراض الاول ان نفي الربوبية عن غيره ثم اثباتها له آكد في
الاثبات من اثباتها له من غير نفيها عن غيره كما ان قول القائل
ليس في البلد عالم غير فلان آكد في باب المدح من قولنا فلان عالم
البلد والثاني ان لكل انسان قلبا واحدا والقلب الواحد لا يسع
الاشتغال بشيئين دفعة واحدة فبقدر ما يبقى مشغولا باحد الشيئين
يبقى محروما عن الشيء الثاني فقوله لا اله اخراج لكل ما سوى الله عن
القلب حتى اذا صار القلب خاليا عن كل ما سوى الله ثم خطر فيه الا الله

اشرق نوره اشراقا تاماً وكمل استيلاؤه عليه كما لا قويًا
الثالث ان النفي الحاصل بلا يجري مجرى الطهارة والاثبات
الحاصل بالا يجري مجرى الصلوة فكما ان الطهارة مقدمة
على الصلوة فكذا وجب تقديم لا اله على قولنا الا الله ويجري
مجرى تقديم الاستعاذة على قراة القرآن فكما انا نقدم الاستعاذة
على قراة القران فكذا ههنا وايضا ان من اراد ان يحضر الملك
في بيته وجب عليه ان يقدم تطهير البيت عن الاقذار فكذا
ههنا وعن هذا قال المحققون النصف الاول من هذه الكلمة
تنظيف الاسرار والنصف الثاني جلاء الانوار عن حضرة
الملك الجبار والنصف الاول فناء والثاني بقاء والنصف الاول
انفصال والثاني اتصال والنصف الاول اشارة الى قوله
ففروا الى الله والثاني اشارة الى قوله قل الله ثم ذرهم في خوضهم
يلعبون البحث السابع لقائل ان يقول ان من عرف ان للعالم
صانعا قادرا عالما موصوفا بجميع الصفات المعتبرة في الالهية
من الصفات السلبية والصفات الثبوتية فقد عرف الله
معرفة تامة ثم ان علمه بعدم الاله الثاني لا يزيد علما بحقيقة
ذات الاله الاول وصفاته لان عدم الاله الثاني ليس عبارة
عن وجود الاله الاول ولا صفة من صفاته ثم انا اجمعنا
على ان علمه بذات الاله وصفاته لا يكفي في تحقيق النجاة بل
ما لم يعتقد عدم الاله الثاني لا يحصل العلم المعتبر في النجاة
فما السبب ان كانت معرفة ذاته وصفاته غير كافية في تحقيق النجاة

بل كان العلم بعدم الاله الثاني معتبرا في تحقيق النجاة الجواب
ان بتقدير ان يكون للعالم الهان فالعبد لا يعلم انه عبد لهذا الاله
او عبد لذلك الاله او عبد لهما معا فحينئذ لا يكون جازما بكونه
مشتغلا بشكر مولاه وخالقه بل يجوز ان يكون عبادته لغير
خالقه ومتى كان الامر كذلك لم يكن جازما في تلك العبودية
وتلك الطاعة اما اذا عرف انه لا اله للعالم الا الله واحد فحينئذ
يكون جازما بكونه مشتغلا بعبودية مولاه وخالقه فلهذا
السبب لم تحصل النجاة والفوز بالدرجات الا بمعرفة التوحيد
البحث الثامن ان المكلف اذا تمم النظر والاستدلال في معرفة
الله تعالى ثم كما تمم مات ولم يجد من الوقت ما امكنه ان يقول
لا اله الا الله فههنا لا شك انه يموت مؤمنا لانه ادى ما
وجب عليه ولم يجد مهلة التلفظ بهذه الكلمة فاما اذا تمم
النظر والاستدلال في معرفة الله تعالى ووجد من الوقت ما يمكنه
ان يقول لا اله الا الله ثم انه لم يقل ومات فهذا الشخص هل
مات مؤمنا ام لا من الناس من قال انه مات كافرا لان صحة
الايمان متوقفة على التلفظ بهذه الكلمة عند القدرة عليه
ومن الناس من قال انه مؤمن لاجل انه حصل له العرفان التام
فيما سبق وفاسق لاجل انه كان مامورا بذكر هذه الكلمة وما
ذكرها والدليل على انه مؤمن قوله عليه السلام يخرج من النار
من كان في قلبه مثقال ذرة من الايمان وهذا الشخص قلبه
مملو من الايمان فكيف لا يخرج من النار البحث التاسع من الناس

من قال تطويل المدّ في كلمة لا من قولنا لا اله الا الله مندوب اليه
مستحسن لان المكلف في زمان التمديد مستحضر في ذهنه جميع
الاضداد والانداد وينفيها ثم بعد ذلك يعقب هذه الكلمة
بقوله الا الله فيكون ذلك اقرب الى الاخلاص والكمال ومنهم من
قال بل ترك التمديد اولى لانه ربما مات في زمان التلفظ بلا قبل
الانتقال الى كلمة الا والذي عندي ان المتلفظ بهذه الكلمة ان كان
يتلفظ بها من الكفر الى الايمان فترك التمديد اولى حتى يحصل الانتقال
من الكفر الى الايمان على اسرع الوجوه وان كان المتلفظ بها مؤمنا
وانما يذكرها لتجديد هذه الكلمة فالتمديد اولى حتى يحصل في
زمان التمديد تصور الانداد والاضداد على التفصيل في الخاطر
وينفيها ثم يعقبها بقوله الا الله فيكون الاقرار بالالهية اصفى
واكمل البحث العاشر اعلم ان الناس في قول لا اله الا الله على مراتب
وطبقات فادناها طبقة من قالها لحقن دمه واحراز ماله على ما
اقتضاه موجب قوله عليه السلام امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا
لا اله الا الله فاذا قالوها عصموا مني دماءهم واموالهم الا بحقها
وهذه درجة يشترك فيها المخلصون والمنافقون فكل من تعلق
بهذه الكلمة نال من بركتها واحرز حظا من فائدتها ان طلب بها
الدنيا نال الامن فيها والسلامة من آفاتها وان قصد بها الآخرة
جمع بين الحظين واحرز بها السعادة في الدارين والطبقة الثانية
الذين ضموا الى القول باللسان الاعتقاد بالقلب على سبيل التقليد
واعلم ان الاعتقاد التقليدي لا يكون علما وذلك لان العقد

ضد الانحلال والانشراح والعلم عبارة عن انشراح الصدر
قال الله تعالى افمن شرح الله صدره للاسلام فثبت ان صاحب
التقليد لا يكون عارفا ولا عالما وهل يكون مسلما فيه خلاف
المشهور بين الائمة الطبقة الثالثة الذين ضموا الى الاعتقاد
بالقلب معرفة الدلائل الاقناعية المقوية لذلك الاعتقاد الا
ان تلك الدلائل لا يكون براهينه يقينية بل اقناعية ظنية
الطبقة الرابعة الذين اكدوا تلك العقايد بالدلائل القطعية
والبراهين اليقينية الا انهم لا يكونون من ارباب المشاهدات
والمكاشفات ولا من اصحاب التجلي وارباب مطالعة الانوار الالهية
ثم اعلم ان الاقرار باللسان له درجة واحدة اما الاعتقاد
بالقلب فله درجات مختلفة بحسب قوة الاعتقاد وضعفه
ودوامه وعدم دوامه وكثرة تلك الاعتقادات وقلتها فان
المقلد ربما كان مقلدا في مجرد ان الله تعالى واحد وربما زاد عليه
فكان مقلدا في ذلك وفي ان الصانع عالم قادر واعلم انه كلما
كان وقوف الانسان على هذه المطالب اكثر كان تشويش امر التقليد
عليه اكثر وذلك لان الطالب اذا حصل له شعور بهذه المطالب
وحصل له وقوف على هذه المباحث مال الى العلم وكره التقليد فتغير
عليه التقليد واما المرتبة الثالثة وهي تقوية الاعتقاد بالدلائل
الاقناعية فمراتب الخلق فيه متفاوتة غير مضبوطة واما المرتبة
الرابعة وهي الترقي من الدلائل الاقناعية الى البرهانية القطعية
فالاشخاص الذين يكونون واصلين الى هذه الدرجة يكونون في غاية

القلة ونهاية الندرة لان ذلك يتوقف على معرفة شرايط البراهين
واستعمالها فى المطالب وذلك فى غاية العزة واما المرتبة الخامسة
وهم اصحاب المكاشفات والمشاهدات فنسبتهم فى القلة الى اصحاب
البراهين القطيعية كنسبة اصحاب البراهين القطيعية الى عوام الناس
واعلم ان عالم المكاشفات لا نهاية له لان ذلك عبارة عن سفر
العقل فى مقامات جلال الله تعالى ومدارج عظمته ومنازل
كبريائه وقدسه ولما كان لا نهاية لذلك المقامات فكذلك لا نهاية
للسفر فى تلك المقامات واعلم ان الانسان لما انكشفت له
اسرار لا اله الا الله اقبل على الله واخلص فى عبادته ولم يلتفت
الى احد سواه فلا يرجو غيره ولا يخاف غيره ولا يرى الضر والنفع
الا منه فانقطع بالكلية عما دونه وتبرا من شرك الباطن كما قد
تبرا من شرك الظاهر وذلك كله هو موجب لكلمة التوحيد ولهذا
السبب لما قال لمحمد عليه السلام فاعلم انه لا اله الا الله ثم قال بعده
واستغفر لذنبك والمعنى والله اعلم الامر بالاستغفار فى تقصير
وقع فى موجب كلمة لا اله الا الله اما لغفلة تحول دونه او لعارض
شغل يعوق عنه وهو معنى قوله عليه السلام انه ليغان على قلبى
فاستغفر الله فى اليوم سبعين مرة وقد روى مائة مرة وفى
هذا الحديث وجوه الاول ان المراد ما يغشى على قلبه من غفلة
او يعرضه من فترة بحكم الطبع البشرى وكان عند ذلك يفرغ
الى الاستغفار والثانى انه عليه السلام كان ابدا فى الترقى
فاذا انتقل الى درجة نظر الى الدرجة المنتقل عنها فكان يستحقرها

فى العبودية فكان يستغفر الله على ذلك والثالث انه ربما لاح
له شئ من تجلى عالم الغيب فيستعظم تلك الدرجة ويبتهج بها ثم
كان يصير استعظامه لها وابتهاجه بها شاغلا له عن الاستغراق
فى المبتهج فكان يستغفر الله عن ذلك الرابع انه كلما لاح له شئ من
عالم الغيب كان يعلم ان الذى لاح له انما لاح بقدر قوته وطاقته
وكان يعلم ان قدر عقله وطاقته بالنسبة الى جلال الله وعلو
كبريائه كالعدم فحينئذ يعلم ان الذى لاح له من كمال عالم الغيب
بالنسبة الى ما لم يلح له كالعدم بالنسبة الى الوجود فكان يستغفر
الله عن ان يصفه بما يصل اليه قلبه وعقله وفكره وذكره وخاطره

الفصل السادس فى فضل المؤمنين اعلم ان الله تعالى سمى
المؤمنين ثالث نفسه فى عشرة اشياء فى المراقبة والولاية والموالاة
والصلوة والعزة والطاعة والمشاقة والاذى والالتجاء والشهادة
المقام الاول فى المراقبة ويدل عليه قوله تعالى وقل اعملوا
فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون هدد المذنبين والجاحدين
برؤية المؤمن كما هددهم برؤية نفسه وفيه لطايف الاولى
روى ان عمر رضى الله عنه خرج ليلة فسمع امرأة يقول لابنتها
قومى وامزجى الماء باللبن فقالت ابنتها اليس قد نهانا عن ذلك
امير المؤمنين قالت لا يرانا امير المؤمنين قالت بلى ولكن يرانا
رب العالمين فلما سمع ذلك عمر خطبها فى الغد لابنه وكان عمر
بن عبد العزيز من حفدتها الثانية امرأة شاطرة كانت بمكة
قالت لا ابرح حتى لى فتن طاوس اليمانى وكان رجلا جميلا فعرضت

نفسها عليه مرارا حتى ظننت انهما تتجه فقال طاوس احضري الليلة
فجاء بها الى المقام فقال اضطجعي ههنا فقالت سبحان الله الا يرى
الناس فقال طاوس وليس يرانا الله في كل موضع فتابت الثالثة
قال ابو عبد الرحمن العتبي خرجت ليلة فاذا انا بجارية مليحة فاردتها
فقالت ويلك مالك زاجر من عقلك ان لم يكن ناه من الدين
فقلت لا يرانا الا الكواكب قالت فاين مكوكبها الرابعة قال حاتم
الاصم راع نفسك في ثلث اوقات اذا عملت بالجوارح فاذكر نظر الله
اليك واذا قلت بلسانك فاذكر سمع الله اليك واذا كنت ساكنا
فاذكر علم الله فيك لانه تعالى قال انني معكما اسمع وارى الخامسة
ثلثة نفر حضروا عند بعض الزهاد فقالوا اوجزنا فقال للواحد
الست تقول انه عالم قال بلى فقال اياك وان يعلم منك شيئا
يفضحك به غدا وقال للثاني اليس هو بصيرا قال بلى قال اياك ان يراك
في عمل يستحيي منه يوم القيامة وقال للثالث اليس هو سميعا قال
بلى قال اياك وان يسمع منك شيئا يردك عن باب رحمته بسببه
السادس قال سفيان من وجد في نفسه ثلثة اشياء فليحكم
عليها بالسعادة الهيبة للعزيز الجبار والحرمة للنبي المختار
والحياء من الابرار والاخيار المقدمة الثاني الولاية وانه
تعالى جعل المؤمنين ثالث نفسه فيها فقال انما وليكم الله و
رسوله والذين امنوا قيل نزلت في عبد الله بن سلام حين
شكا من عداوة اليهود له بعد اسلامه فنزلت وقال محمد بن
اسحق نزلت في عبادة بن الصامت قال يا رسول الله تبرأت

من

من حلف اليهود وتوليت الله ورسوله والمسلمين عامة وفيه
نكت الاولى ان يوسف عليه السلام قال انت وليي في الدنيا
والاخرة فوجد الملك والعز بسبب ذلك القول الذي هو قايله
وههنا قال الله للمؤمنين انما وليكم الله ورسوله فاولى ان
يرجوا المؤمن ملك الجنة والمغفرة الثانية قوله انما وليكم الله
يعني حافظكم وناصركم الله ورسوله والمؤمنون ثم قال عليه
المرء مع من احب ثم ان كل مسلم يحب الله فوجب بحكم ذلك الخبر
ان يكون المسلم ابدا مع حفظ الله فاذا كان حفظ الله لا يفارقه
بسبب انه يحب الله فكيف يفارقه حفظ الله مع ان الله وليه
وحافظه وناصره الثالثة هذه الاية دلت على ان الصحابة
يحبوننا لان الله جعل المؤمنين اولياءنا وهو قوله والذين امنوا
الذين يقيمون الصلوة ثم اكد ذلك بقوله والمؤمنون والمؤمنات
بعضهم اولياء بعض ثم امرنا ان نحب الصحابة بدليل قوله والسابقون
الاولون من المهاجرين والانصار وبقوله ربنا اغفر لنا
ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان الاية فثبت بمجموع هاتين
الايتين حصول المحبة بيننا وبين الصحابة والحبيب لا يرضى
بعذاب الحبيب فدل ذلك على ان جمهور الصحابة والتابعين وسلف
المؤمنين كلهم يكونون شفعاء للمذنبين المقام الثالث الموالاة
قوله تعالى فان الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين فحكم
ان مولى المؤمنين هو الله وجبريل وصالح المؤمنين ثم اسقط
شركة جبريل والمؤمنين فقال واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم

المولى ونعم النصير وقال في حق الكافرين مأويكم النار هي مولاكم
وقال لبئس المولى ولبئس العشير فمن كان الله مولاه فلا يذل ولا
يخزى ومن كان المومنون مواليه فلا يضيع ولا يشقى وقال عمر
بن الخطاب رضي الله عنه يوم احد للكفار حيث قالوا لنا العزى
ولا عزى لكم فقال لنا المولى ولا مولى لكم فنزل على وفق قوله
ذلك بان الله مولى الذين امنوا وان الكافرين لا مولى لهم
الثانية ان الله تعالى سمى النار مولى الكفار فقال النار هي
موليكم وانما سمى النار موليهم لانها لا تتركهم فلما سمى نفسه
مولى المومنين فنرجوا ان لا يترك اعانتهم الثالثة قال بعضهم
من كان مولاه ربه لا يعاب ومن كان ناصره ربه لا يغلب ومن كان
هاديه ربه لا يضل ومن كان معينه ربه لا يشقى ومن كان مولاه
ربه لا يضيع ولا يحتاج الى احد المقام الرابع الصلوات قال
الله تعالى ان الله وملائكته يصلون على النبي يا ايها الذين
امنوا صلوا عليه فجعل المومنين ثالث نفسه في الصلوات على
الرسول عليه السلام وههنا نكت الاولى في الخزانة لما نزلت
هذه الاية قال عليه السلام هنيؤني هنيؤني قالوا هنيا لك
يا رسول الله فما حظنا فنزل قوله هو الذي يصلي عليكم وملائكته
والاشارة ان الله تعالى لما صلى على الرسول في الدنيا فما ترك
المومنين حتى صلى عليهم فيوم القيامة كيف يترك المذنبين محرومين
عن المغفرة الثانية الصلوة من الله تعالى على ثلثة اوجه عام
وخاص وخاص الخاص فالعام هو قوله هو الذي يصلي عليكم

والخاص

والخاص قوله اولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وخاص
الخاص ان الله وملائكته يصلون على النبي الاية والثالث
فالحديث ان لله ملائكة بايديهم قراطيس من فضة واقلام
من ذهب لا يكتبون شيئا الا الصلوة علي وعلى اهل بيتي والسبب
في الامر بهذه الصلوات ان روح الانسان لضعفه لا يستعد
لقبول الانوار الالهية فاذا استحكمت العلاقة بين روحه وارواح
الانبياء عليهم السلام فالانوار الفائضة من عالم الغيب على ارواح
الانبياء تنعكس على ارواح هولاء المصلين بسبب الانعكاس ومثاله
الشمس والطست المملو من الماء والسقف معلوم الرابعة جعل
الله اهل بيته مساويا له في خمسة اشياء الاول في المحبة
قال تعالى فاتبعوني يحببكم الله وقال لاهل بيته قل لا اسألكم
عليه اجرا الا المودة في القربى والثاني في تحريم الصدقة قال
عليه السلام حرمت الصدقة علي وعلى اهل بيتي والثالث
في الطهارة قال تعالى طه ما انزلنا عليك القران لتشقى الا تذكرة
لمن يخشى وقال لاهل بيته ويطهركم تطهيرا والرابع في السلام
قال تعالى السلام عليك ايها النبي وقال في اهل بيته سلام
على ال يس الخامس في الصلوات على الرسول وعلى الآل كما في التشهد
المقام الخامس العزة قال تعالى ولله العزة ولرسوله وللمومنين
وههنا نكت الاولى ان عزة الله عز الربوبية وعز الرسول عز النبوة
وعز المومن عز التلفظ بكلمة لا اله الا الله ثم كما ان عز الله وعز
رسوله لا يقبلان الذل فكذا عز المومن لا يقبل الذل الثانية

لله عز الانشاء والتكوين قال تعالى كن فيكون وللرسول عز
الدعاء حيث اشار الى القمر فانشق القمر ببركة دعاء الرسول
وللمؤمنين عز الايمان والشهادة ثم ان الاشياء تكونت عند
قوله كن فيكون وانشق القمر عند دعاء الرسول فنرجوا ان يحصل
الغفران والرحمة للمؤمن من عز كلمة الشهادة الثالثة عز المؤمن
فى ان قيده المعرفه وصيده الجنة وعيده الرؤية عن فى ان له ربا
كافيا وكتابا شافيا ورسولا وافيا اسمه اسم الله ولسانه
شاهد الله ونفسه طالبة لمرضاة الله وقلبه محل نظر الله
ومزاجه معرفة الله وشهادته محبة الله وروحه نور الله يصير
مشتاقا الى رؤية الله فحقيق به ان يكون عزه متصلا بعز الله
الرابعة لله العزة سواء اعدم او اوجد وللرسول العزة سواء
بلغ او سكت فكذا المؤمن سواء اطاع او عصى الخامسة لله
العزة بالولاية لقوله ان وليي الله الذي نزل الكتاب وللرسول العزة
ايضا بالولاية لقوله ايضا النبي اولى بالمؤمنين من انفسهم وللمؤمن
ايضا العزة بالولاية لقوله والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء
بعض السادسة لله العزة بالعلو والعظمة لقوله وهو العلي
العظيم وللرسول بالرفعة لقوله ورفعنا لك ذكرك وللمؤمنين
بالقبول والرحمة ان الله يغفر الذنوب جميعا السابعة لله عز
المعبودية لقوله واياى فاعبدون وللرسول عز المتبوعية
لقوله واتبعوه لعلكم تهتدون وللمؤمنين عز العبودية لقوله
يا عبادى الذين اسرفوا على انفسهم الثامنة لله عز الاستغناء

والله

والله الغنى وانتم الفقراء وللرسول ايضا عز الاستغناء لقوله
ووجدك عايلا فاغنى وللمؤمن ايضا عز الاستغناء لقوله وان
يتفرقا يغن الله كلا من سعته التاسعة قال امير المؤمنين علي رض
من اراد عزا بغير عشيرة وهيبة بغير سلطان وغنى بلا مال
وحسبا بلا نسب فليخرج نفسه من ذل المعصية الى عز الطاعة
العاشرة قال هرون الرشيد لمنصور بن عمار من اعقل الناس
واجهلهم واغناهم واعزهم فقال اعقلهم محسن خايف واجهلهم
مسى امن واغناهم القانع واعزهم الاتقى المقام السادس
الطاعة قال الله تعالى اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الامر
منكم وههنا نكت الاولى فى الخبر انى ملك لا ازول فاطعنى حتى
اجعلك ملكا لا تزول وانى حى لا اموت فاطعنى حتى اجعلك حيا
لا تموت وانى اذا اردت شيئا قلت له كن فيكون فاطعنى حتى
انزلك منزلا اذا قلت لشيء كن فيكون الثانية فى الخبر ما راه
المسلمون حسنا فهو عند الله حسن وما راه المسلمون قبيحا فهو
عند الله قبيح وقال لا يجتمع امتى على الضلالة وقال عليكم بسنتى
وسنة الخلفاء الراشدين بعدى عضوا عليها بالنواجذ وقال
اقتدوا بالذين من بعدى ابو بكر وعمر وكل ذلك يدل على انه كما يجب
طاعة الله وطاعة الرسول فكذلك يجب طاعة اولى الامر من المؤمنين
الثالثة قيل بقاء الدنيا بسيوف الامراء ولسان العلماء
فعليك بطاعتهما الا فى معصية الله المقام السابع المشاقة
قال ومن يشاقق الله ورسوله فان الله شديد العقاب وقال

في المؤمنين ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع
غير سبيل المؤمنين وفيه نكت النكتة الاولى لله تعالى ثلثة
بحور عظيمة يهلك العبد فيها ان لم يكن له معتصم يتمسك به
فجعل حبل التوحيد سببا للنجاة من الكفر قال تعالى فقد استمسك
بالعروة الوثقى وجعل القران سببا للنجاة من البدعة لقوله
واعتصموا بحبل الله جعل الاجماع سببا للنجاة من الفتن لقوله
ويتبع غير سبيل المؤمنين الاية ثم قال واعتصموا بحبل الله جميعا
ولا تفرقوا والثانية قال عليه السلام سبع من الهدى وفيهن
الجماعة من خرج منهن فقد خرج من الجماعة لا يشهدوا على اهل
قبلتكم بكفر ولا بشرك واتركوا سرايرهم الى الله وصلوا على من
مات من اهل القبلة وصلوا الصلوات الخمس في الجماعة خلف
كل بر وفاجر وجاهدوا مع كل خليفة ولا تخرجوا على ائمتكم
بالسيف وادعوا لهم بالصلاح ولا تدعوا عليهم وجانبوا الاهواء
كلها فان آخرها واولها باطل الثالثة سئل واحد عن القلب السليم
فقال هو الذي دينه بلا شك ومذهبه بلا هوى وعمله بلا رياء
وبدنه بلا خصم المقام الثامن في الاذى يدل عليه قوله تعالى
ان الذين يؤذون الله ورسوله الى قوله والذين يؤذون المؤمنين
والمؤمنات واعلم انه تعالى نهى عن ايذاء المؤمنين كما نهى عن ايذاء
نفسه وايذاء رسوله ثم اكد ذلك بقوله وقولوا للناس حسنا
وبقوله واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما وقال عليه السلام
المؤمنون قوم بررة وهم المتحابون المتباذلون والمنافقون قوم

فجرة وهم المتقاطعون المتدابرون وقال عليه السلام ان الله يبغض
الفاحش والمتفحش وفيه نكت الاولى قال تعالى في الملائكة ويستغفرون
للذين امنوا ولم يقل يلعنونهم ويؤذونهم الثانية قوله عليه السلام
ان الله رفيق يحب الرفق الثالثة عاتب الله نوحا حين دعا على قومه
بالهلاك وقال والمؤمنون والمؤمنات بعضهم اولياء بعض ولم
يقل بعضهم اعداء بعض وقال عليه السلام من اذى مؤمنا بغير حق
فكانما هدم مكة والبيت المعمور عشر مرار وكانما قتل الف الف
ملك من المقربين وقال ابن عمر اذا لعن العبد دابته يقول الدابة
لعن الله اعصانا لربه الرابعة قال الله تعالى لرسوله فبما رحمة
من الله لنت لهم الاية وقال خذ العفو وامر بالعرف ونهى عن الهمز
واللمز فقال ويل لكل همزة لمزة وقال ولا تطع كل حلاف مهين الاية
وقال لموسى وهرون فقولا له قولا لينا وقال فقل هل لك الى ان
تزكى اما المقام التاسع الالتجاء قوله تعالى ولم يتخذوا من دون الله
ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة مدح المؤمنين على الجهاد وعلى التولي
في ذلك بالمؤمنين لان المنافقين كانوا يتولون اليهود واتخذوهم
وليجة وبطانة فعليك ان يتولى الله ورسوله والمؤمنين وليجة
وبطانة وفيه نكت النكتة الاولى انه تعالى مدح ابرهيم حيث
تبرا من ابيه وشكا عن حاطب بن ابي بلتعه حيث كاتب الكفار
فقال لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة
وقال لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الاخر يوادون من حاد
الله ورسوله وقال ومن يتول الله ورسوله والذين امنوا فان

حزب الله هم الغالبون فسمى من يتولى الله ورسوله حزب الله وقال
الا ان اولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون النكتة الثانية
قال الواسطي علامة الولي اربعة لا يشكوا من المصايب ولا يتخذ
عمله رياء ويحتمل اذى خلقه ولا يكافيهم ويداري عباده على تفاوت
اخلاقهم وقال الشبلي احوال الاولياء ثلث ترك الاختيار وترك
الشكوي عند الاضطرار والافتقار الى الملك الجبار المقام العاشر
في الشهادة على التوحيد قال الله تعالى شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة
واولوا العلم وفي الاية سؤالات الاول ان الله تعالى شهد لنفسه
بالوحدانية ومن شهد لنفسه في الشاهد فان تلك الشهادة لا تقبل
الجواب من وجوه الاول ان هذا في الظاهر شهادة وفي المعنى اقرار
واقرار المقر على نفسه مقبول وانما قلنا ان هذا اقرار وذلك
لانه لما ادعى الوحدانية في الالهية فقد اقر بان الخلق كلهم عبيده
ورزق العبد على المولى لازم فكانه تعالى اقر بان الخلق كلهم عبيده
واقر لهم على نفسه بالرزق والتربية والحفظ والنصرة الا ترى
انه تعالى وما من دابة في الارض الا على الله رزقها الثاني ان
الشهادة عبارة عن قول يدل على شيء دلالة ظاهرة ثم ان ذلك
القول لا يراد لكونه قولا بل لكونه دالا على ذلك المطلوب فلا جرم
كل فعل قام مقام القول في ذلك التعريف كان شهادة ثم ان القول
الدال لو كانت دلالته قطعية غير محتملة كان اولى بان تكون شهادة
فاذا ثبت ذلك فجميع مخلوقات الله تعالى دالة على وحدانيته
والهيته دلالة يقينية قطعية فكانت اولى ان تكون شهادة

فاذا شهادة الله على التوحيد لاجل انه خلق الدلايل الدالة على
الوحدانية قطعا واما شهادة الملائكة واولي العلم فمعناها شهادة
الاقرار والاعتراف فكانت شهادة الله على ذلك اقوي واتم الثالث
وهو ان كل مسئلة لا يتوقف العلم بصدق الرسول على العلم بصحتها فانه
يمكن اثباتها بالدلايل السمعية ومسئلة الوحدانية كذلك فلا جرم
ذكر العلماء انه يمكن اثبات ان الله واحد بالدلايل السمعية واذا
كان الامر كذلك كان المقصود من هذه الشهادة ان يستدل بها على
وحدانية الله تعالى السؤال الثاني انه تعالى نهى العباد عن ان يمدحوا
انفسهم بقوله فلا تزكوا انفسكم ثم انه مدح نفسه واثنى عليه
فما السبب فيه فالجواب من وجوه الاول انه اذا حصل لواحد منا
نوع فضيلة فذلك من فضل الله وكرمه فالمستحق للثناء هو الله
حيث اعطى تلك الفضيلة فلا جرم قبيح من الواحد منا ان يثني على نفسه
اما الحق سبحانه فانه قد حصلت له صفات الكمال ونعوت الجلال
على وجه يمتنع زواله وتغيره فظهر الفرق الوجه الثاني في الفرق
ان ما فينا من الخصال الممدوحة لا تنفك عن اضدادها فان علمنا
مشوب بالجهل وقدرتنا مشوبة بالعجز والضعف وملكنا بعرض
الهلاك وبقانا بعرض الفناء وحيوتنا بعرض الموت واما صفات
الله تعالى فانها خالية عن اضدادها فانه عالم بلا جهل قادر قوي
بلا عجز ملكه بلا زوال وبقاوه بلا فناء وحيوته بلا موت وعزه
بلا ذل فظهر الفرق الوجه الثالث ان الله تعالى انما نهى عبده عن
تزكية نفسه لان العبد يقوم الدعوى على ظاهرها والمعنى فاما الحق سبحانه

فانه كان قد اظهر المعنى قبل الدعوى لانه خلقك واعطاك الحيوة
والعقل وانواع المنافع واظهار الدعوى بعد اقامة البرهان
على المعنى يكون مستحسنا بخلاف حال العبد فان اكثر احواله يكون
اظهار الدعوى متقدما على اظهار المعنى الوجه الرابع من اوله
نطفة قذرة وآخره جيفة مذرة وهو فيما بين ذلك حمال بول
وعذرة لا يليق به ان يمدح نفسه انما الحق مدح النفس من هو الاول
والاخر والظاهر والباطن الوجه الخامس ان حب الانسان لنفسه
غالب فاذا شرع في مدح النفس استولى عليه حب ذلك ثم ان ذلك
يعميه ويصمه عن التنبه لما فيه من المعايب فيصير ذلك سببا
الى بقايه في ظلمات الحماقات والجهالات بخلاف الحق سبحانه فانه
منزه عن النقايص والافات فلا يصير مدحه لنفسه سببا لشيء
من المعايب والنقصانات السؤال الثالث لما شهد لنفسه بالوحدانية
فاي حاجة مع حصول شهادته الى شهادة الملائكة واولي العلم
فما الحكمة في انه تعالى ذكر بعد شهادة نفسه شهادة الملائكة
والمؤمنين الجواب من وجوه الاول روي انه عليه السلام
كان يمشي خلف جنازة فقال واحد هذا الميت كان رجلا صالحا
فقال عليه السلام واحد وقال الثاني والثالث كذلك فقال
عليه السلام اثنان ثلثة فلما قال الرابع مثل ذلك قال عليه السلام
وجبت فقيل له يا رسول الله وما الذي وجبت قال وجبت مغفرته
في كرم الله وذلك لان المؤمنين شهود على وحدانية الله فلو لم يقبل
شهادتهم ههنا لصارت شهادتهم في الوحدانية غير مقبولة

وهو حكيم لا يفعل ذلك واذا عرفت هذا فنقول انه تعالى لما جعل
المؤمنين شهودا لوحدانيته فلو ظهر ذنبهم ومعصيتهم يوم القيامة
لصارت شهاداتهم مردودة وذلك لا يليق بالحكمة الحكيم فلما جعلهم
في هذه الاية شهودا على الوحدانية دل ذلك على انه تعالى لا يظهر
ذنبهم وقبح فعلهم يوم القيامة اللهم حقق رجانا بكرمك وفضلك
الثاني انه ليس المقصود من ذكر شهادة الملائكة والمؤمنين توقيف هذا
المطلوب على شهادتهم بل المقصود منه شهادة الله لهم بانهم وافقوا الله
في كل ما وصل اليهم من امره ونهيه وخبره فالمقصود اظهار شرفهم
في كونهم موافقين لله في هذه الشهادة لا توقيف المطلوب على شهادتهم
السؤال الرابع ما الحكمة في تكرير كلمة لا اله الا هو في قوله شهد الله
الجواب من وجوه الاول ان المقصود من التكرار التنبيه على ان الانسان
يجب ان يكون مواظبا على ذكر هذه الكلمة في اكثر اوقات عمره وثانيها
انه لما جعل هذه الكلمة اول هذه الاية وآخرها فصار ذلك تنبيها
على انه يجب على العاقل ان يجعل هذه الكلمة مذكورة في اول عمره
وفي اخر عمره حتى يكون في الدنيا سعيدا وفي الاخرة حميدا الثالث
ان احدى الشهادتين كانت قبل خلق الخلايق والثاني بعد خلقهم
والرابع انه تعالى ذكر احدى الشهادتين عن نفسه والاخرى عن خلقه

الفصل السابع في اقامة الدليل على ان الله تعالى واحد

لا شريك له قد بينا ان هذا المطلوب يمكن اثباته بالدلايل العقلية
وبالدلايل النقلية فلنذكر الكل اما الدلايل العقلية فمن وجوه
الاول القول بوجود الالهين يفضي الى المحال فيكون القول به محالا اما

قلنا انه يفضي الى المحال لانا لو فرضنا وجود الهين فلا بد وان يكون
كل واحد قادرا على كل المقدورات ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما
قادرا على تحريك زيد وتسكينه فاذا فرضنا ان احدهما اراد تحريكه
والاخر تسكينه فاما ان يقع المرادان وهو محال لاستحالة الجمع بين
الضدين او لا يقع واحد منهما وهو ايضا محال لان المانع من وجود مراد
كل واحد منهما حصول مراد الاخر فلا يمتنع وجود هذا المراد الا عند
وجود مراد ذلك وبالعكس فلو امتنعا معا لوجدا معا وذلك محال
واما ان يقع مراد احدهما دون الاخر وهو محال لوجهين احدهما
انه لما كان كل واحد منهما قادرا على ما لا نهاية له امتنع كون احدهما
اقدر من الاخر بل لا بد وان يستويا في القدرة واذا استويا في القدرة
استحال ان يصير مراد احدهما اولى بالوقوع من الاخر والا لزم ترجيح
احد المتساويين على الاخر من غير مرجح وهو محال والثاني انه ان وقع
مراد احدهما دون الثاني فالذي يحصل مراده يكون الها قادرا والذي
لا يقع مراده يكون عاجزا والعاجز لا يكون له الخلق فان قيل لا نسلم
صحة اختلافهما في الارادة ويدل عليه وجهان الاول انه لا بد وان
يكون كل واحد منهما عالما بجميع المعلومات واذا كان كل واحد منهما
عالما بان اي احد الضدين يقع وايهما لا يقع وما علم الله انه لا يقع
كان ممتنع الوقوع وما كان ممتنع الوقوع فان العالم بامتناعه لا يريده
فاذا كل واحد منهما لا يريد الا ايقاع شيء واحد والثاني ان كل واحد
كان كذلك منهما لا بد وان يكون حكيما فيكون كل واحد منهما عالما
بان ايهما هو الاصلح وايهما ليس هو الاصلح فيكونا متوافقين في ارادة

ما علما انه هو الاصلح وبهذه الطريقة يمتنع وقوع المخالفة سلمنا
انه يصح المخالفة لكن المحال انما لزم من وقوع المخالفة لا من جواز
المخالفة فلا جرم نقول المخالفة لا تقع وان كانت ممكنة الوقوع
الجواب انه لو كان العلم بان ايهما يقع وايهما لا يقع يوجب ارادة
ما علم وقوعه ويمتنع ارادة ما علم عدم وقوعه لزم ان يكون
الله موجبا لافعاله لا موجدا لها على سبيل الاختيار والكلام
في الوحدانية فرع على الكلام في اثبات القادر المختار الحجة
الثانية لو فرضنا الهين لكان كل واحد منهما قادرا على جميع
المقدورات وذلك يفضي الى وقوع مقدور واحد بين قادرين
مستقلين وذلك محال فالقول بوجود الالهين محال بيان
الملازمة انه اذا كان كل واحد منهما قادرا على جميع المقدورات
كان مقدور كل واحد منهما مقدورا للآخر ثم اذا اتفقا على انه
لا بد من دخول احد المقدورين في الوجود فحينئذ لا يكون وقوع
ذلك المقدور باحدهما اولى من وقوعه بالثاني لان كل واحد منهما
مستقل بايجاده وكل واحد منهما مريد وجوده ولا رجحان لاحدهما
على الاخر في ذلك فيلزم وقوع المقدور الواحد بالقادرين
المستقلين وانما قلنا ان ذلك محال لان ذلك الفعل يستغني بكل
واحد منهما عن كل واحد منهما فيكون محتاجا اليهما معا وغنيا
عنهما معا وذلك جمع بين النقيضين وهو محال الحجة الثالثة
اذا قدرنا الالهين فاما ان يصح عليهما التخالف او لا يصح فان صح
الاختلاف افضى ذلك الى عجز احدهما على ما بيناه في الحجة الاولى وان لم

يصح عليهما الاختلاف كان كل واحد منهما عاجزا عن اظهار مخالفه
صاحبه فيعود الامر الى كون كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون
الها واعلم انك متى وقفت على تقرير هذه الوجوه الثلثة عرفت ان
جميع ما فى العالم العلوى والسفلى من المحدثات والمخلوقات فهو دليل
وحدانية الله لانه لو اراد احدهما ان يكون صيفا والآخر ان يكون شتاء
وصحيحا او مريضا وسعدا ونحسا فحينئذ يعود التقسيم المذكور
الحجة الرابعة لو فرضنا موجودين واجبى الوجود لذاتيهما فلابد
وان يكون كل واحد منهما مشاركا للآخر فى الوجود ومباينا له فى
تعينه وما به المشاركة غير ما به المباينة فكل واحد منهما مركب عن الوجود
الذى به يشارك الآخر وعن التعين الذى به يباين الاخر وكل مركب
فانه يحتاج الى كل واحد من اجزاء وكل واحد من اجزاء غيره وكل ما
كان محتاجا الى غيره فهو ممكن الوجود لذاته فلو وجد شيئان كل واحد
منهما واجب الوجود لذاته لكان كل واحد منهما ممكن الوجود لذاته
وذلك محال فالقول بان واجب الوجود اكثر من واحد محال الحجة
الخامسة لو فرضنا موجودين كل واحد منهما واجب الوجود لذاته
فلابد وان يتميز كل واحد منهما عن الاخر بامر ما والا لما حصل
التعدد ثم نقول ما به الممايزة اما ان يكون صفة كمال ولا يكون
فان كان صفة كمال فالخالى عنهما يكون خاليا عن صفة الكمال فيكون
ناقصا والناقص لا يكون الها وان لم يكن صفة كمال فالموصوف به
يكون موصوفا بما لا يكون صفة كمال وما لا يكون صفة كمال
كان صفة نقصان فالموصوف به ناقص والناقص لا يكون الها

الحجة السادسة ان يقال ما به امتياز احدهما عن الاخر اما
ان يكون معتبرا فى تحقق الالهية واما ان لا يكون معتبرا فيه فان
كان معتبرا فيه كان الخالى عنه لا يكون الها وان لم يكن معتبرا فى الالهية
لم يكن الاتصاف به واجبا فيفتقر الى المخصص فالموصوف به
مفتقر ومحتاج فلا يكون الها الحجة السابعة لو فرضنا الهين
لكان لابد وان يكون كل واحد منهما بحيث يتمكن العبد عن التمييز
بينهما لكن الامتياز فى عقولنا لا يحصل الا بالتباين فى المكان
او بالزمان او فى الوجوب والامكان وكل ذلك على الاله تعالى
محال فيمتنع حصول الامتياز الحجة الثامنة احد الالهين اما ان
يكون كافيا فى تدبير العالم وتخليقه او لا يكون فان كان كافيا
كان الثانى ضايعا غير محتاج اليه وذلك نقص والناقص لا يكون
الها وان لم يكن كافيا فهو ناقص والناقص لا يكون الها الحجة
التاسعة العقل يقتضى ان احتاج الفعل الى الفاعل والفاعل
الواحد كاف وما وراء الواحد فليس عدد اولى من عدد فيفضى
كل الى وجود اعداد ما لا نهاية لها وذلك محال فالقول بوجود الالهين
محال الحجة العاشرة احد الالهين اما ان يقدر على ان يخص تحقق
نفسه بدليل يدل عليه على التعيين ولا يقدر والاول محال لان
دليل اثبات الصانع ليس الا حدوث المحدثات وامكانها وليس فى
الحدوث والامكان ما يدل على تعيين احدهما والثانى ايضا باطل
لانه يفضى الى كون كل واحد منهما عاجزا عن تعريف نفسه على التعيين
والعاجز لا يكون الها الحجة الحادية عشر احد الالهين اما ان يقدر

على ان يستر شيئا من افعاله عن الاخر ولا يقدر فان قدر لزم كون
المستور عنه جاهلا وان لم يقدر لزم كونه عاجزا الحجة الثانية عشر
لو قدرنا الالهين لكان مجموع قدرتهما اقوى من قدرة كل واحد منهما
والاقل من الغير الذي يوجد متناهيا فقدرة كل واحد منهما متناهية
فكل واحد منهما عاجزا الحجة الثالثة عشر العدد ناقص لاحتياجه
الى الواحد وايضا الواحد الذي يوجد من جنسه ونوعه وغيره ايضا
ناقص لان مجموع العدد ازيد منه والناقص لا يكون الها الحجة الرابعة
عشر لو فرضنا معدوما ممكن الوجود ثم قدرنا الهين فان لم يقدر واحد
منهما على ايجاده كان كل واحد منهما عاجزا والعاجز لا يكون الها وان
قدر احدهما دون الاخر فهذا الاخر لا يكون الها وان قدرا جميعا فاما
ان يوجداه بالتعاون فيكون كل واحد منهما محتاجا الى اعانة الاخر
فيكون كل واحد منهما عاجزا وان قدر كل واحد منهما على ايجاده بلا
بالاستقلال فاذا اوجده احدهما فاما ان يبقى الثاني قادرا عليه
وهو محال لان ايجاد الموجود محال وان لم يبق فحينئذ يكون الاول
قد ازال قدرة الثاني وعجزه فيكون مقهورا تحت تصرفه فلا يكون
الها فان قيل فالواحد اذا اوجد مقدوره قدرته فقد زالت
قدرته فيلزمك ان يكون هذا الواحد قد جعل نفسه عاجزا قلنا
الواحد اذا اوجد مقدوره نفسه فقد نفذت قدرته نفاذ القدرة
لا يكون عجزا اما الشريك فانه ما نفذت قدرته البته بل زالت قدرته
بسبب قدرة الاول فيكون ذلك تعجيزا الحجة الخامسة عشر انا نعين
جسما ونقول هل يقدر كل واحد منهما على الحركة فيه بدلا عن السكون

وبالعكس او لا يقدر فان لم يقدر كان عاجزا وان قدر فيسوق
الدلالة المتقدمة الى ان نقول اذا خلق احدهما فيه حركة امتنع
على الثاني خلق السكون فالاول ازال قدرة الثاني وجعله
عاجزا فلا يكون الها الحجة السادسة عشر انا لو قدرنا الهين
لكان كل واحد منهما عالما بجميع المعلومات فكان علم كل واحد
منهما متعلقا بعين معلوم الاخر فوجب تماثل علميهما والذات القابلة
لاحد المثلين قابلة للمثل الاخر فاختصاص هذه الذات بهذا العلم
مع جواز اتصافهما بذلك العلم الثاني بدلا عن هذا العلم يكون امرا
جائزا فيستدعي مخصصا يخصص كل واحد منهما بعلمه وقدرته
فيكون كل واحد منهما عبدا ناقصا مفتقرا الى الاله وانه محال
الحجة السابعة عشر ان الشركة في الملك عيب في الشاهد والفردانية
والتوحد بالملك والاستقلال به صفة كمال ويرى الملوك يكرهون
الشركة في الملك الحقير المختصر جدا اشد الكراهية ويرى انه كلما
كانت المملكة اعظم كانت النفرة عن الشركة اشد فما ظنك بملك
الله وملكوته فاذا اراد احدهما استخلاص الملك لنفسه فان قدر
عليه كان المغلوب فقيرا عاجزا فلا يكون الها وان لم يقدر عليه
كان في اشد الغم والحسرة فلا يكون الها الحجة الثامنة عشر انا لو
قدرنا الهين لكان كل واحد منهما اما ان يحتاج الى الاخر او يستغني
كل واحد منهما عن الاخر او يحتاج احدهما الى الاخر ويستغني الاول
عن الاخر فان كان الاول كان كل واحد منهما محتاجا وكل محتاج ناقص
والناقص لا يكون الها وان كان الثاني كان كل واحد منهما مستغنيا عنه

والمستغني عنه ناقص والناقص لا يكون الها وان كان الثالث كان
كل واحد منهما مستغنيا عن الاخر والمستغني عنه ناقص الا ترى
ان البلد اذا كان له ريس والناس يحصلون مصالح البلد من غير
رجوع منهم اليه ومن غير التفات منهم اليه عد ذلك الريس في غاية
الذلة والمهانة فالاله هو الذي يستغنى به ولا يستغنى عنه وان احتاج
احدهما الى الاخر من غير عكس كان المحتاج ناقصا والمستغني هو الاله
واعلم ان هذه الوجوه بعضها قطعية وبعضها اقناعية واما
الدلايل السمعية فالحجة الاولى قوله تعالى والهكم اله واحد
لا اله الا هو وقال تعالى قل هو الله احد وقال لا تتخذوا الهين
اثنين انما هو اله واحد الحجة الثانية قوله تعالى هو الاول
والاخر فالاول هو الفرد السابق ولذلك لو قال اول عبد
اشتريته فهو حر فلو اشترى اولا عبدين لم يحنث لان الاول
يجب ان يكون فردا وهذا ليس بفرد ثم لو اشترى بعد ذلك واحدا
لم يحنث ايضا لان الاول يجب ان يكون سابقا وهذا ليس بسابق
فثبت ان الاول هو الفرد السابق فلما وصف الله نفسه بكونه اولا
لزم ان يكون فردا سابقا وذلك يقتضي ان لا يكون له شريك الحجة
الثالثة قوله تعالى وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو فالنص
يقتضي ان لا يعلم احد سواه تلك المغيبات ولو كان له شريك كان
عالما بالغيب وهو على خلاف هذا النص الحجة الرابعة ان الله تعالى
صرح بكلمة لا اله الا الله في سبعة وثلثين موضعا من كتابه وكل
ذلك يدل على المقصود الحجة الخامسة قوله كل شيء هالك الا وجهه

حكم بان كل ما سواه فهو هالك وكل ما جاز عليه العدم بعد وجوده
لا يكون قديما لان ما ثبت قدمه امتنع عدمه وما لا يكون قديما
لا يكون الها الحجة السادسة قوله وان يمسسك الله بضر فلا
كاشف له الا هو وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير ولو كان له
شريك لكان ذلك الشريك قادرا على النفع والضر وذلك بخلاف
قوله تعالى وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو الحجة السابعة
انه تعالى استدل في كتابه على صحة التوحيد بثلثة اوجه احدها
قوله لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا والثاني ولعلى بعضهم
على بعض والثالث قوله اذا لابتغوا الى ذي العرش سبيلا
واعلم انه تعالى لما ذكر قوله لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا قال
بعده فسبحان الله رب العرش عما يصفون وفيه لطايف اولها
انه تعالى لما اقام الدلالة القاطعة على صحة التوحيد قال بعده
فسبحان الله رب العرش عما يصفون وذلك تنبيه على ان الاشتغال
بالتسبيح انما ينفع بعد اقامة الدلايل على كونه تعالى منزها وثانيها
انه لم يقل فسبحان الله عما يصفون بل قال فسبحان الله رب العرش
عما يصفون والسبب فيه ان هذه المناظرة انما وقعت مع عبدة
الاصنام لان الدليل الذي ذكره تعالى وهو قوله لو كان فيهما الهة
الا الله لفسدتا يفيد الرد على كل من اثبت لله شريكا ثم انه تعالى
بعد ان ذكر هذا الدليل العام نبه على نكتة خاصة لعبدة الاصنام
وهي انه كيف يجوز للعاقل ان يجعل الجماد الذي لا يحس ولا يعقل
شريكا في الالهية لخالق العرش العظيم وموجد السموات والارضين

واما قوله لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون فاعلم انه تعالى علق
هذه الآية بما قبلها ان عمدة من اثبت لله شريكا ليست الا طلب
اللمية فى افعاله تعالى وذلك لان الثنوية والمجوس وهم الذين يثبتون
لله شريكا عولوا فى تقرير مذهبهم على نكتة واحدة وهى انا نرى
فى العالم خيرا وشرا ولذة والما وصحة وسقما وحيوة وموتا
وغنى وفقرا وقد ثبت فى العقول ان فاعل الخير خير وفاعل الشر
شرير ويستحيل ان يكون الفاعل الواحد خيرا وشريرا معا فلابد
من فاعلين ليكون احدهما فاعلا للخير والاخر فاعلا للشر ويرجع
حاصل هذه الشبهة الى ان الفاعل الحكيم لا يجوز ان يخصص بعض
عبيده بالفقر والالم والموت دون الاخر فيرجع حاصل الكلام
الى طلب اللمية فى افعال الله تعالى والجواب الاصلى لهذه الشبهة
ان افعال الله تعالى لا يعلل وله ان يفعل كل ما يشاء . فلما كان
مدار كلام المثبتين لشريك الله على طلب اللمية فى افعال الله تعالى
لا جرم انه سبحانه بعد ان ذكر الدليل الدال على التوحيد ذكر ما
هو النكتة الاصلية فى الجواب عن شبهة القايلين بالشريك لان
الترتيب الحسن فى المناظرة ان يقع الابتدا بذكر الدليل المثبت
للمطلوب ثم يذكر بعده ما هو الجواب المعتمد عن شبهة الخصم
فان قال قايل فما الدلايل العقلية على انه تعالى لا يسال عما يفعل
وانه لا يجوز تعليل افعاله واحكامه برعاية المصالح قلنا
اما اصحابنا اهل السنة فقد استدلوا عليه من وجوه الحجة
الاولى انه لو كان كل شيء معللا بعلة لكانت علية تلك العلة

معللة

معللة بعلة اخرى ولزم اما الدور واما التسلسل وهما محالان
فلا بد فى قطع العلة من الانتهاء الى ما يكون غنيا عن العلة واولى
الاشياء بذلك ذات الله تعالى وصفاته فكما ان ذاته تعالى منزهة
عن الافتقار الى المؤثر والعلة وصفاته مبراة عن الافتقار الى المبدع
والمخصص فكذلك فاعليته وجب ان تكون مقدسة عن الافتقار
الى الموجب والمؤثر الحجة الثانية فاعليته لو كانت معللة بعلة
لكانت تلك العلة اما ان تكون واجبة او ممكنة فان كانت واجبة
لزم من وجوبها وجوب كونه تعالى فاعلا وحينئذ يكون موجبا بالذات
لا فاعلا باختيار وان كانت ممكنة كانت تلك العلة ايضا من فعل
الله تعالى فيفتقر كونه تعالى فاعلا لها الى علة اخرى ولزم التسلسل
الحجة الثالثة تلك الفاعلية ان كانت قديمة لزم كون الفاعلية
قديمة فيلزم كون المفعول قديما فهذا خلف وان كانت محدثة افتقرت
الى علة اخرى ولزم التسلسل الحجة الرابعة ان من فعل فعلا لغرض
فاما ان يكون قادرا على تحصيل ذلك الغرض بدون تلك الواسطة
او لا يكون قادرا عليه فان كان الاول كان توسط تلك الواسطة
عبثا وان لم يكن قادرا عليه كان عاجزا وذلك على الله محال بخلاف
الواحد منا فان العجز علينا جايز فلا جرم كانت افعالنا معللة
بالاغراض الحجة الخامسة لو كان فعله تعالى معللا بغرض لكان
ذلك الغرض اما ان يكون عايدا الى الله او الى العباد والاول محال
لانه منزه عن النفع والضر واذا بطل هذا تعين ان الغرض لا بد وان
يكون عايدا الى العباد ولا غرض للعباد الى حصول اللذات وعدم حصول

الا الم والله قادر على تحصيلها ابتداء من غير شيء من الوسايط
واذا كان كذلك استحال ان يفعل شيئا لاجل شيء الحجة السادسة
لو فعل فعلا لغرض لكان وجود ذلك الغرض وعدمه بالنسبة
اليه اما ان يكون على السوية او لا يكون فان كان على السوية استحال
ان يكون غرضا وان لم يكن على السوية لزم كونه سبحانه ناقصا لذاته
مستكملا لغيره وهو محال فان قلت وجود ذلك الغرض وعدمه
بالنسبة اليه على السواء اما بالنسبة الى العباد فالوجود اولى
من العدم فنقول تحصيل تلك الاولوية للعبد وعدم تحصيلها له اما
ان يكون بالنسبة الى الله على السوية او لا على السوية وحينئذ يعود
التقسيم الاول الحجة السابعة ان الموجودات باسرها مملوكة له
ومن تصرف في ملك نفسه لا يقال له لم فعلت الحجة الثامنة من قال
لغيره لم فعلت ذلك فهذا السؤال انما يحتمل حيث يقدر السائل
على منع المسئول عنه عن فعله وذلك من العبد في حق الله تعالى محال
فانه لو فعل اي فعل شيئا فالعبد كيف يمنعه عن ذلك الفعل لان
منعه بان يهدده بالعقاب والايلام وذلك على الله محال او بان
يهدده باستحقاق الذم والخروج عن الحكمة والاتصاف بالسفه
على ما تقوله المعتزلة وذلك ايضا محال لان استحقاق المدح والاتصاف
بصفات الحكمة والجلال امور ذاتية له وما يثبت للشيء لذاته يستحيل
ان يتبدل لاجل تبدل الصفات العرضية فثبت بهذه الوجوه انه
لا يجوز ان يقال لله في افعاله لم فعلت فظهر صدق قول مشايخنا
ان علة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه واما المعتزلة فانهم سلموا

انه لا يجوز ان يقال لله تعالى لم فعلت لكنهم بنوا الجواب عن شبهة
الثنوية على اصل آخر وهو انه تعالى يقبح القبايح وعالم بكونه غنيا
عنها ومن كان كذلك فانه يستحيل ان يفعل القبيح واذا عرفنا ذلك
عرفنا اجمالا ان كل ما يفعل الله فهو حكمة وصواب واذا كان كذلك
لم يجئ للعبد ان يقول لله لم فعلت هذا فظهر بما ذكرنا على اختلاف
المذهبين صدق قوله تعالى لا يسئل عما يفعل واذا ظهر ذلك سقطت
شبهة الثنوية في اثبات الشريك وبالله التوحيد **الفصل الثامن**
في الاحكام الفقهية المتفرعة على قولنا لا اله الا الله اعلم ان الايمان
لا بد له من الامرين احدهما وهو الاصل حصول المعرفة في القلب واليه
الاشارة بقوله تعالى فاعلم انه لا اله الا الله وثانيهما الاقرار باللسان
بالتوحيد واشارة بقوله تعالى قل هو الله احد وذلك لان قوله
قل امر للمكلف بان يقول بلسانه ما يدل على التوحيد ثم تاكدت هذه
الآية الدالة بالسنة الغراء وهي قوله عليه السلام امرت ان اقاتل
الناس حتى يقولوا لا اله الا الله والسبب في انه لا بد من هذا القول
هو ان للايمان احكاما بعضها يتعلق بالباطن وبعضها بالظاهر
فما يتعلق بالباطن فهو احكام الاخرة وذلك متفرع على العلم الذي
هو باطن عن الخلق وما يتعلق بالظاهر فهو احكام الدنيا ولا يمكن
اقامتها الا بعد معرفتنا كونه مسلما ولا معرفة الا بالقول باللسان
فصارت المعرفة ركنا اصليا في حق الله تعالى والقول ركنا شرعيا
في حق الخلق واليه الاشارة بقوله تعالى ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن
وقال عليه من قال لا اله الا الله خالصا مخلصا دخل الجنة وقال النبي

ابو علي الدقاق من قالها مخلصًا قلبه في قالبه دخل الجنة في حالته
وقال تعالى ولمن خاف مقام ربه جنتان جنة في الوقت وهي جنة المعرفة
وجنة غدا وهي جنة الاخرة اختلف المحققون فقال الاكثرون الاولى
ان يكون الذكر في الابتداء قول لا اله الا الله وفي الانتهاء الاقتصار
على ذكر كلمة الله ومنهم من واظب في الابتداء والانتهاء على ذكر لا اله
الا الله وحجة هؤلاء ان عالم القلب مشحون بغير الله ولا بد من كلمة
النفي لنفي الاغيار فاذا صار خاليًا فحينئذ يوضع سرير التوحيد ويجلس
عليه سلطان المعرفة واما الذين اكتفوا في النهايات بكلمة الله فلهم
فيه وجوه الحجة الاولى ان نفي العيب عمن يستحيل عليه العيب عيب الحجة
الثانية انه من قال لا اله الا الله فلعله حين ذكر كلمة النفي لا يجد
من المهلة ما يصل فيه الى الاثبات فحينئذ يبقى في النفي غير منتقل الى
الاثبات وفي الجحود الى الاقرار والحجة الثالثة ان المواظبة على
هذه الكلمة مشعر بتعظيم الحق بنفي الاغيار الا ان نفي الاغيار
من باب الاشتغال بالاغيار فالاشتغال بنفي الاغيار يرجع في الحقيقة
الى شغل القلب بالاغيار وذلك يمنع من الاستغراق في نور التوحيد
فمن قال لا اله الا الله فهو مشتغل بغير الحق ومن قال الله فهو مشتغل
بالحق فاين احد هذين المقامين من الاخر الحجة الرابعة ان نفي الشيء
انما يحتاج اليه عند خطران ذلك الشيء بالبال وخطران شريك الله
بالبال لا يكون الا عند نقصان الحالة فاما الكاملون الذين لا يخطر
ببالهم وجود الشريك امتنع ان يكلفوا بنفي الشريك بل هؤلاء لا يخطر
ببالهم ولا يحضر في خيالهم الا ذكر الله فلا جرم يكفيهم ان يقولوا الله

الحجة

الحجة الخامسة قال تعالى قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون فامر
بذكر الله ومنعه من الخوض معهم في اباطيلهم ولعبهم والقول بالشريك
من الاباطيل ففيه خوض في ذلك الكلام فكان الاولى الاقتصار
على قولنا الله فهذا ما في هذا المقام ههنا انواع من التضرعات
احدها ان نقول الهنا ان موسى سال اجل الاشياء فقال رب ارني انظر
اليك وسال اقل الاشياء فقال ربّ اني لما انزلت الي من خير فقير
فنحن ايضًا نسالك اجل الاشياء وهو خيرات الاخرة واقل الاشياء
وهو خيرات الدنيا فنقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الاخرة
حسنة الهنا يحكى ان رجلا باع جاريًا ثم ندم واستحيى ان يظهر
تلك هذه الحالة للمشتري ولساير الناس فكتب في كفه حاجته ورفعها
الى السماء ولم يقل بلسانه شيئا فراى المشتري في المنام ان فلانا من اولياء
وقلبه مشتغل بهذه الجارية فردها عليه واجرك علي فلما اصبح الرجل
حمل الجارية اليه وردها اليه فاراد البايع ان يرد الذهب فقال
المشتري ان لذلك الثمن ضامنا هو خير منك الهنا ان كان ذلك البايع
ندم على بيع تلك الجارية فنحن ندمنا على بيع علي ان بعنا الاخرة فان كان
ذلك البايع قد استحيى من العود فنحن من كثرة ذنوبنا نستحيي منك وان
كان ذلك البايع قد كتب على كفه شيئا من حاجته ورفعها الى السما فجميع
اعضائنا مكتوب عليه احتياجنا الى رحمتك وذلنا بين يديك فههنا
كما ضمنت دين الغرماء فاضمن ديننا واسقط عنا تبعات اعمالنا وافعل
بنا ما انت اهله ولا تفعل بنا ما نحن اهله يا من لا يشغله شان عن شان
الهنا يروى ان علي بن ابي طالب رضي الله عنه كان له مودن وكانت له

جارية فقالت له الجارية يا مولاي ان هذا الموذن يقول اني احبك
فقال علي رضي الله عنه فقولي له وانا ايضا احبك فماذا فلما قالت
الجارية ذلك قال الموذن فصبر الى ان يحكم الله بيننا فحكى ذلك لعلي
بن ابي طالب رضي الله عنه فقال اما سكت ولم ير نفسه اهلا للطلب
فنحن نسلمها اليه فدعاه وزوجها منه الخا الموذن لما استحقر نفسه
ولم يرها اهلا لذلك الطلب اكرمه علي رضي الله عنه فانت العلي الاعلى
وانت اكرم الاكرمين وارحم الراحمين ونحن لا نرى انفسنا اهلا لطلب
رحمتك لحقارة انفسنا في اعيننا فلا تحرمنا فيض رحمتك وآثار
جودك يا من لا يبرمه الحاح الملحين لهذا يروى ان الصديق رضي الله عنه
كان يخافت في صلوته بالليل ولا يرفع صوته بالقراءة وكان عمر رضي الله عنه
يجهر في صلوته بالليل فسال الرسول عليه السلام ابا بكر عن فعله
فقال من اناجيه يسمع كلامي وسال عمر فقال اوقظ الوسنان واطرد
الشيطان وارضي الرحمن فامر رسول الله صلى الله عليه وسلم ابا بكر
حتى يرفع الصوت قليلا وامر عمر حتى يخفضه قليلا الخا الايمان فينا
كالرسول والقلب مثل ابي بكر واللسان مثل عمر فالقلب يخافت بالذكر
كابي بكر واللسان يظهر الذكر مثل عمر والايمان يامر القلب بالزيادة في الذكر
ويامر اللسان بالاخفاء الذكر فوفقنا لما تحب وترضى بفضلك يا ارحم
الراحمين **فصل** ومن العارفين من اختار السكوت عن الكلام في نهاية
قال عليه السلام من عرف الله كل لسانه ويروى ان الجنيد كان في الكلام
فزعق الشبلي وقال الله فقال الجنيد الغيبة حرام ومعناه انك ان كنت
غايبا فذكر الغايب غيبة وان كنت حاضرا فذكر الاسم في الحضرة سوء ادب

وتمام التحقيق في هذا المقام سياتي ان شاء الله **فصل** روي
الامام محمد بن علي الحكيم الترمذي عن معاذ بن جبل قال قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم ما من نفس تموت تشهد ان لا اله الا الله واني
رسول الله يرجع ذلك الى قلب موقن الا غفر الله له قال الشيخ فهذه
شهادة شهدها عند الموت وقد ماتت منه الشهوات فلانت
نفسه المتمردة من هول الموت وذهب حرصه والقى نفسه بين يدي
قدرة ربه فاستوى منه الظاهر والباطن فلقي الله مخلصا بتلك الشهادة
فغفر الله له بتلك الشهادة الصادقة التي وافق ظاهرها باطنها واما
الذي يقوله ايام الصحة فيقول مع التخليط لانه يشهد بهذه الشهادة
وقلبه مشحون بالشهوات فلا يستوجب بذلك القول المغفرة ونفسه
اشرة بطرة فلا يستوجب ايضا بذلك المغفرة فهذا هو التفاوت
بين ذكر الشهادة حالة الصحة وذكرها في آخر زمان الحياة وتمام
القول فيه ان الانسان الذي يكون قلبه مفتونا بدنياه ماسورا
في الشهوات سكران عن الاخرة حيران عن الله لم يحصل فيه اليقين
البتة لان قلبه مملو بالميل الى غير الله فلا يحصل الميل فيه الى الله
اما اذا حصل في القلب اليقين بالله كان الامر بخلاف ذلك وذلك
لان اليقين سمي يقينا لاستقراره في القلب وهو النور يقال يقن الماء
في الحفرة اذا استقر فاذا استقر النور دام واذا دام صارت النفس
ذات بصيرة فاطمان القلب بجلال الله ثم انقطع عن غير الله فوقف
هنالك عاجزا فاستغاث بالله صارخا مضطرا فاجابه الحق فانه
يجيب دعوة المضطرين فيقد في ذلك النور المتلالي في القلب غير معلق

ظلمات الاشتغال بغير الله فيصير امر الملكوت مشاهدا له وهو قول
حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال كاني انظر الى عرش
ربي بارزا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد نور الله
الايمان في قلبه وقد جاء في الاخبار ان ادريس وموسى ومحمدا
صلوات الله عليهم كان كل واحد منهم في زمانه مواظبا على هذا
الدعاء يا نور كل شيء وهداه انت الذي فلق الظلماء نوره ومما
يحقق ما قلناه قوله صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله وحده
لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير
مخلصا بها روحه مصدقا بها قلبه ولسانه فتقت له السموات فتقا
حتى ينظر الرب الى قائلها من اهل الدنيا وعن زيد بن ارقم قال قال
النبي صلى الله عليه وسلم من قال لا اله الا الله مخلصا دخل الجنة
قال يا رسول الله وما اخلاصها قال ان يحجزه عن المحارم وقال عليه السلام
اخلص يكفك القليل وعن زيد بن ارقم قال قال صلوات عليه ان الله
عهد الي ان لا ياتيني احد من امتي بلا اله الا الله لا يخلط بها شيئا الا
وجبت له الجنة قالوا يا رسول الله وما الذي يخلط بها قال حرصا
على الدنيا وجمعا لها ومنعا لها يقول بقول الانبياء ويعمل بعمل
الجبابرة فالحاصل انه لا بد من اليقين عند التكلم بهذه الكلمة حتى تكون
نافعة ولا يحصل اليقين بها الا بموت الشهوات ولا يحصل موت
الشهوات الا باحد طريقين احدهما ان يروض نفسه حتى تموت
شهواتها حال حيوته والثاني ماتت شهواته عند وفاته وعظم رجاؤه
وخوفه عن ربه وانقطع نظره عن غير الله بالكلية اضطرارا فاذا نطق

بهذه الكلمة في تلك الحالة استوجب المغفرة ولهذا السبب استحب
السلف بلقنوا المحتضر هذه الكلمة وقال عليه السلام لقنوها موتاكم
فالانسان عند القرب من الموت فيت شهواته فحصل له نور اليقين
فصارت هذه الكلمة مقبولة منه واما الاول وهو الذي يروض نفسه
فقد فتح له روزنة الى الغيب فركبته اهوال سلطان الجلال فينطق
بها عن القلب الصافي فهو بالمغفرة اولى واحق وعن عبد الله بن ابي جعفر
عن ابيه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لقنوا موتاكم
لا اله الا الله الحكيم الكريم سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم
والحمد لله رب العالمين قالوا يا رسول الله فكيف هي للحي قال هي اجود
واجود وكان اهل البيت رضي الله عنهم يسمون هذه الكلمات كلمات
الفرج فيتكلمون بها في النوايب والشدايد فيجيئهم الفرج وفيه زيادة
كلمة لا اله الا الله العلي العظيم وعن مكحول ان كلمات الفرج لا اله الا الله
العلي العظيم لا اله الا الله الحليم الكريم سبحان الله رب السموات ورب
العرش العظيم والحمد لله رب العالمين وقال علي رضي الله عنه قال رسول الله
صلى الله عليه وسلم الا اعلمك كلمات اذا قلتها غفرت لك ذنوبك
وان كان مثل عدد الذر من الخطايا لا اله الا الله الحكيم الكريم لا اله الا الله
العلي العظيم سبحان الله رب السموات ورب العرش العظيم والحمد لله
رب العالمين **فصل** يروى انه كان صفان يتقاتلان من المسلمين والكفار
والكفار كانوا من النصارى فقال الكافر من يقاتل فقال المسلم عن الواحد
وقال النصراني بل انا اقاتل عن ثالث ثلثة فلما تقاتلا صرع المسلم
الكافر وجلس على صدره قال النصراني الواحد وضعيك لثلثة قال

جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه عجبت لمن بلي باربع كيف يغفل عن اربع
عجبت لمن اعجب بامر كيف لا يقول ما شاء الله لا قوة الا بالله وانه تعالى يقول
ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله وعجبت لمن خاف
قوما كيف لا يقول حسبي الله ونعم الوكيل والله تعالى يقول الذين قال لهم الناس
ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله
ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء الايات وعجبت
لمن مكر به فكيف لا يقول حسبي الله وافوض امري الى الله ان الله بصير
بالعباد والله تعالى يقول فوقاه الله سيئات ما مكروا وعجبت لمن
اصابه غم او كرب كيف لا يقول لا اله الا انت سبحانك اني كنت من
الظالمين الى قوله فنجيناه من الغم وقال سفين بن عيينه انه تعالى قال
وكذلك ننجي المؤمنين فقد وعد كل مؤمن يقول لا اله الا انت سبحانك
اني كنت من الظالمين ان ينجيه من كل غم ومن المعلوم بالضرورة ان الله
لا يخلف الميعاد **فصل** اعلم انه تعالى ذكر كلمة لا اله الا الله في
القران العظيم في سبعة وثلثين موضعا اثنان في البقرة والهكم اله
واحد لا اله الا هو الرحمن الرحيم ب الله لا اله الا هو الحي القيوم واربعة
في ال عمران ج الم الله لا اله الا هو الحي القيوم د هو الذي يصوركم في
الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم شهد الله انه لا اله الا
هو والملائكة وقائما بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم وواحد في النسا
ز الله لا اله الا هو ليجمعنكم الى يوم القيامة لا ريب فيه الاية واثنان
في الانعام ح ذلكم الله ربكم لا اله الا هو خالق كل شيء فاعبدوه وهو
على كل شيء وكيل ط اتبع ما يوحي اليك من ربك لا اله الا هو واعرض عن المشركين

ووحد في الاعراف ى قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم جميعا
الذي له ملك السموات والارض لا اله الا هو يحيي ويميت فامنوا بالله
ورسوله النبي الامي الذي يومن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون
واثنان في التوبة اتخذوا احبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله والمسيح
بن مريم وما امروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما
يشركون يب فان تولوا فقل حسبي الله لا اله الا هو وواحد في يونس
يح حتى اذا ادركه الغرق قال امنت انه لا اله الا الذي امنت به بنو اسرائيل
وواحد في هود يد فان لم يستجيبوا لكم فاعلموا انما انزل بعلم الله
وان لا اله الا هو وواحد في الرعد يه قل هو ربي لا اله الا هو عليه
توكلت واليه متاب وواحد في النحل يو ان انذروا انه لا اله الا انا
فاتقون وثلثة في طه يز الله لا اله الا هو له الاسماء الحسنى يح انني
انا الله لا اله الا انا فاعبدني يط انما الهكم الله الذي لا اله الا هو
وسع كل شيء علما واثنان في الانبياء ك وما ارسلنا من قبلك
من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا انا فاعبدون كا وذا النون
اذ ذهب مغاضبا فظن ان لن نقدر عليه فنادى في الظلمات ان لا اله
الا هو سبحانك وواحد في المؤمنين كب فتعالى الله الملك الحق لا اله
الا هو رب العرش الكريم وواحد في النمل كج الله لا اله الا هو رب
العرش العظيم واثنان في القصص كد وهو الله لا اله الا هو له
الحمد في الاولى والاخرة كه ولا تدع مع الله الها اخر لا اله الا هو
كل شيء هالك الا وجهه وواحد في فاطر هل من خالق غير الله يرزقكم
من السماء والارض لا اله الا هو وواحد في الصافات كز انهم كانوا

اذا قيل لهم لا اله الا الله يستكبرون وواحد في الزمر ٢ يخلقكم
في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلث ذلكم الله
ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون وثلثة في المومن كط ذي
الطول لا اله الا هو اليه المصير ـ ذلكم الله ربكم خالق كل شئ لا اله
الا هو فانى توفكون لا هو الحي لا اله الا هو فادعوه مخلصين له
الدين الحمد لله رب العالمين وواحد في الدخان لب لا اله الا هو
يحيى ويميت ربكم ورب ابائكم الاولين وواحد في سورة محمد لج
فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك واثنان في الحشر لد هو الله
الذي لا اله الا هو عالم الغيب والشهادة له هو الله الذي لا اله الا هو
الملك القدوس وواحد في التغابن لو الله لا اله الا هو وعلى الله فليتوكل
المومنون وواحد في المزمل لز رب المشرق والمغرب لا اله الا هو
فاتخذه وكيلا فهذا مجموع كلمات سبعة وثلثين من كلمات لا اله
الا الله وردت في القران العظيم ربنا اتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا
من امرنا رشدا **فصل** في ان عقول الخلق قاصرة عن معرفة الله تعالى
اتفق مشايخ الطريقه رضي الله عنهم على هذا نقل الاستاد ابو القسم
القشيري في كتاب الرسالة في باب التوحيد عن يوسف بن الحسين انه قال
سمعت ذا النون المصري وقد سئل عن التوحيد فقال ان تعلم ان قدرة
الله تعالى في الاشيا بلا امزاج وصنعة في الاشياء بلا علاج وعلة كل شئ
صنعة ولا علة لصنعة ومهما تصور في نفسك شئ فالله بخلافه وقول
لما كان كل ما تصوره النفس فالله بخلافه لم يتمكن العقل والنفس من الاشارة
الى حقيقه معلومة بان حقيقة الاله هي هذه الحقيقة وقال ايضا اعرف

الناس بالله اشدهم تحيرا فيه ويروي عن سهل بن عبد الله انه سئل
عن ذات الله تعالى فقال ذات الله موصوفة بالعلم غير مدركة بالاحاطة
فقد حجب الخلق عن معرفة كنه ذاته ودلهم عليه باياته فالقلوب
تعرفه والعقول لا تدركه ينظر المؤمنون اليه بالابصار من غير
احاطة ولا ادراك نهاية وروي عنه ايضا انه قال غاية المعرفة
الدهشة والحيرة وقال يوسف بن الحسين من وقع في بحار التوحيد
لا يزداد على ممر الايام الا ظماء ووقف رجل على الحسين بن منصور
وقال من الحق الذي يشيرون اليه فقال نعل الايام ولا يغفل وقيل
للشبلي خبرنا عن توحيد مجرد بلسان حق مفرد فقال من اشار اليه
فهو ثنوي ومن كيفه فهو وثني ومن نطق به فهو غافل ومن سكت عنه
فهو جاهل ومن وهم انه واصل فليس له حاصل ومن ظن انه قريب
فهو بعيد ومن توهم انه واجد فهو فاقد وكل ما ميزتموه باوهامكم
وادركتموه بعقولكم في اتم معانيكم فهو مصروف مردود اليكم
محدث مصنوع مثلكم وقال الشبلي ايضا ما شم روايح التوحيد
من تصور ان عنده التوحيد وقال ابن عطاء العقل خلق آلة للعبودية
لا للاشراف على الربوبية وقال غيره العقل يحول حول الكون فاذا نظر
الى المكون ذاب واعلم ان من الناس من احتج في هذه المسئلة بايات
منها قوله وما قدروا الله حق قدره قال اهل التفسير اي وما عرفوه
حق معرفته من قدر الثواب ذا احزره واراد معرفة مقداره واعلم
ان هذا الاستدلال ضعيف لان هذه الاية وردت في كتاب الله تعالى
في ثلثة مواضع اولها في سورة الانعام قال تعالى وما قدروا الله

حق قدره عايد الى هؤلاء وثانيها قال في سورة الحج يا ايها الناس
ضرب مثل فاستمعوا له الى قوله ما قدروا الله حق قدره ولما كان الكلام
الاول مع عبدة الاوثان كان هذا الكلام عايدا اليهم وثالثها قوله
تعالى في سورة الزمر قل افغير الله تامروني اعبد ايها الجاهلون
ولقد اوحي اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك
ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين ثم قال
بعد هذا وما قدروا الله حق قدره فيكون هذا الكلام عايدا
الى الذين اشار اليهم قبل هذه الكلمة بقوله افغير الله تامروني
اعبد ايها الجاهلون واذا ثبت هذا فنقول قوله ما قدروا الله
حق قدره عايد في الاية الاولى الى من انكر نبوة كل الانبياء وفي الاية
الثانية والثالثة الى عبدة الاوثان فهذه الاية في المواضع الثلثة
عايدة الى الكفار فلا يلزم من وصف الكفار بهذا الوصف وصف المؤمنين
وهذا سؤال حسن لمن يدعي كمال المعرفة ان يتمسك بهذه الايات
لانه تعالى لما جعل قوله وما قدروا الله حق قدره عيبا على الكفار
وطعنا فيهم فوجب ان يكون حال المؤمنين بخلاف ذلك ومما اشتهر
التمسك به في هذه المسئلة قوله تعالى في سورة طه يعلم ما بين ايديهم
وما خلفهم ولا يحيطون به علما واجيب عنه بان قيل لم لا يجوز ان
يكون المراد من الاية انه تعالى يعلم ما بين ايديهم وما خلفهم ولا يحيطون
به علما بما بين ايديهم وما خلفهم فالضمير في قوله به غير عايد الى الله تعالى
بل الى ما بين ايديهم وما خلفهم لان عود الضمير الى اقرب المذكورين
هو الاولى واعلم ان العمدة في هذه المسئالة ان الله سبحانه وتعالى

غير

غير متناه في الذات والصفات والعقل متناه في الذات والصفات
والمتناهي لا سبيل له الى ادراك غير المتناهي وهذا هو النكتة ونحن
نشرحها ليظهر قوتها فنقول العقل عاجز عن معرفة كونه تعالى قديما
ازليا وذلك لان كل ما يستحضر العقل استحضارا على سبيل التفصيل
من مقادير الازمنة فذاك متناه مثلا لانه يفرض قبل هذا الوقت
الف الف سنه ويفرض كل لمحة من هذه المدة الف الف سنه وهكذا
الى اقصى ما يقدر الوهم والخيال على استحضاره ثم اذا تامل العقل
عرف ان كل ذلك متناهي الاول وهو انه تعالى انما كان قديما ازليا
لانه كان موجودا قبل هذه المدة التي احاط العقل والخيال بها فثبت
ان كل مقدار يصل العقل والخيال اليه فهو متناه والحق سبحانه ليس قديما
باعتبار انه كان موجودا في ذلك الوقت بل باعتبار انه كان موجودا فيما
وراء ذلك الوقت فاذا لا سبيل للعقل البته الى معرفة القدم والازلية
واذا عرفت هذا في كونه تعالى قديما ازليا فاعرف مثله في كونه دايما
ابديا فاذا للعقل لا سبيل له البته الى معرفة كونه قديما ازليا ولا الى
معرفة كونه دايما ابديا على سبيل التفصيل فان كل ما يشير العقل اليه
فازليته وابديته خارجتان عن ذلك المتصور وايضا اذا قلنا انه
موجود ليس بجوهر ولا عرض ولا حال ولا محل فههنا قبل معرفة ذات
الحق لانا لو اردنا بقولنا موجود ما ينا قض المعدوم فهذا المفهوم
المنا قض للعدم امر يصدق على جميع الموجودات وحقيقة الحق لا يوجد
في شيء سواه فالعلم بكونه موجودا ليس علما بحقيقته المخصوصة
واما العلم بانه ليس بجوهر ولا عرض فهذا يعلم بعدم هذه الاشياء

وليس علماً بحقيقته لان حقيقته ثابته متحققه والسلب لايكون
نفس الثبوت فيمتنع ان يكون حقيقته هى نفس انها ليست بجوهر ولا بعرض
فثبت بمجموع ما ذكرنا انه لا سبيل للعقول الى معرفة حقيقته ومما يحقق
ما ذكرنا ان العلماء اتفقوا على ان كل صفة شاهدها الحس وادركها
العقل فى المكونات فلو وصف الحق بها صار جاهلا فاذا لا طريق له
الى معرفة الحق الا بنفى كل ما عداه ولهذا اتفقوا على ان احسن كلمة قيل
فى التوحيد ما قاله على بن ابى طالب رضى الله عنه وهو ان المعرفة
ان تعرف ان كل ما تصور فى وهمك فالله بخلافه ثم قال المحققون
لما كان كل ما تصور فى وهمك وفهمك فالله بخلافه فلو تصور فى
وهمك من ذلك الخلاف شىء فالله تعالى ايضا بخلافه ثم لو تصور فى هذه
المرتبة الثانية امر اخر لزمه نفيه فلم يبق للعقل فى طريقة معرفة الحق
الا ان ينفى كل ما وقع فى خاطره ثم اذا وقع من هذا النفى فى ذهنه اشتغل
بنفيه ايضا وهكذا فى النفى الثالث والرابع الى غاية النهاية فلو بقى العبد
ابد الاباد ودهر الداهرين لكان مشغولا بنفى شغل القلب عن هذه الواردات
وازاله هذه التصورات واذا كان الامر كذلك بقى الحق سبحانه منزهًا
عن لواحق فكره واشارات عقله وعلايق ضميره وفكره وذكره الحجة
الثانية وهى ان الانسان عاجز عن معرفة نفسه فانه ان قيل ان نفسه
هو هذا الهيكل المشاهد وهو باطل من وجهين الاول ان الانسان
قد يعرف ذاته حال ما يكون غافلا عن جميع اعضائه الظاهرة والباطنة
والمعلوم مغاير لما ليس بمعلوم والثانى ان ذاته من اول عمره الى آخر عمره
شىء واحد واجزاء بدنه غير باقية والباقى مغاير لغير الباقى فثبت انه

ليس

ليس عبارة عن هذا الهيكل المحسوس ثم بعد هذا يحتمل ان يقال انه
جسم فى داخل هذا الهيكل اما فى القلب فقط او فى الدماغ فقط
او يكون سايرًا فى كل ذلك البدن ثم ذلك الجسم اهو من جنس الاجسام
التى تولد البدن عنها او هو جسم مخالف لهذه الاجسام فى الماهية
والحقيقة ويحتمل ايضا ان يقال انه ليس بمتحيز ولا حال فى المتحيز
بل هو مدبر لهذه البدن على ما يقوله الفلاسفة واعلم ان هذه
الاحتمالات بقيت من الزمان الاقدم الى الان وما بعد ما زالت
الشكوك والشبهات ولا شك ان اعرف المعارف لى فى الشىء المشار
اليه لى بقولى انا فاذا كان فى حالى فى معرفة اظهر الاشياء كذلك
فكيف يكون حالى فى معرفة اشد الاشيا مناسبة عن علايق العقول
وروابط الخيالات وتحقيق الكلام فيه ان العقل كالشمع ولا شك
ان كل ما كان اقرب الى الشمع كان ضوءه اكثر مما بعد عنه واقرب الاشياء
الى العقل نفسه فاذا كان نور العقل انطفا الى حيث لم يبصر به ذاته
مضيئًا لحضرة الجلال سبحانه مع انه ابعد عنه بغير نهاية كيف يصير
مضيئا به ولهذا قال السنايى الشاعر رحمه الله بالفارسية شعر
اى شده در شناس خود عاجز • كى شناسى خدا براهر كز •
جون تو در علم خود زبون باشى • عارف كردكار جون باشى •
واعلم انه كما وقعت الشبهات المذكورة فى معرفة النفس فقد وقعت
ايضا فى معرفة حقيقة الزمان وحقيقة المكان وتحير الخلق فى
ان القوة الباصرة كيف تبصر ابخروج الشعاع وحصول الشبح وكذا
القول فى البحث عن القوة السامعة والذايقة وتحيروا ايضا فى البحث

عن كيفية التخيلات فان هذه الصورة المتخيلة ان لم يكن لها وجود
اصلا فكيف حصل فيها التميز والتعيين وان كان لها وجود فهي
قايمة بانفسها او محلها شئ مجرد او محلها جسم والكل محال ممتنع
ولما كانت معرفة الخلق بهذه الامور الظاهرة الجلية بلغت في الضعف
الى هذا الحد فما ظنك بمعرفتهم من تقدس عن مناسبات العقول
والافكار وتنزه عن مشابهات الخيالات والانظار الحجة الثالثة
قد ثبت في العلوم الحقيقية انه سبحانه تعالى هو النور المطلق فهو نور
الانوار وكما ان من وضع السراج في مقابلة قرص الشمس انطفى ولم يظهر له
نور البتة فكذا اذا وضع ضوء العقل في مقابلة نور جلال الله فنى
واضمحل وتلاشى ولذلك قالوا بان العقل يدور على المكونات فاذا
وصل الى حضرة المكون للاكوان ذاب واعلم ان القطرة اذا وقعت في البحر
اضمحلت والشعلة اذا وقعت في مقابلة قرص الشمس فنيت وبطلت
ونسبة القطرة الى البحر والشعلة الى الشمس اعظم من نسبة نور العقل
الى نور الجلال بل لا نسبة لاحد البابين الى الاخرى لان القطرة متناهية
والبحر متناه وللمتناهي الى المتناهي نسبة وكذلك الشعلة والشمس
اما نور العقل فهو في غاية القلة والقصور ونور جلال الله في غاية
العظمة وعدم التناهي فلما اضمحلت القطرة في البحر والشعلة في الشمس
فكيف يعقل بقاء ضوء العقل في حضور نور جلال الله وشروق اعلام
كبريائه الحجة الرابعة ان نسبة نور العقل الى اعظم الانوار الروحانية
كنسبة نور البصر الى منبع الانوار الجسمانية وكما ان الشمس اظهر الاشياء
من وجه واخفاها من وجه آخر فكذلك منبع الانوار الروحانية بالنسبة

الى عين البصيرة يكون اظهر الاشياء من وجه واخفاها من وجه آخر
الحجة الخامسة العقل اضعف من العاقل لان العقل صفة والعاقل
موصوف والصفة اضعف من الموصوف فاذا عجز العاقل عن المعرفة
فلان يعجز العقل مع غاية ضعفه كان اولى الحجة السادسة من امكنه
ادراك شئ بتمامه وكماله فله قدرة بوجه ما عليه وقدرة المحدث
ممزوجة بالعجز ومتناهية والحق سبحانه واجب الوجود غالب لا يغلب
قاهر لا يقهر فالمحدث الموصوف بالقصور والتناهي كيف (يمكنه) معرفة القديم
الذي لا نهاية له الحجة السابعة العقل لا يتصرف الا فيما يكون في
زمان ومكان لان كل ما ادركه فانه يدركه اما في الماضي او في
المستقبل او في الحال وكل ذلك بحسب الزمان وكل ما يتصور فانه
انما يتصوره اما ههنا او هناك وكل ذلك بحسب المكان واذا قلت
الحق بخلاف هذه الاشيا فمعرفتك في هذه المعرفة ليس الا نفي ما عرفته
وتصورته فالحاصل فيه نفي غير الحق لا يكون هو غير وجدان الحق الحجة
الثامنة اشتهر في اقوال الخلق قولهم انما يعرف ذا الفضل من الناس (ونفي غير الحق)
ذووه فما لم يكن الانسان اعلم من غيره لا يمكنه ان يعرف مقداره الا
ترى ان الناس يقولون لا يقدر على التمييز بين فلان وفلان الا من كان
اعلم منهما لانه لا بد وان يعرف مقدار معلومات ذاك ومعلومات
هذا ومقدار ما به ازداد احدهما على الاخر وانتقص منه وهذا
لا يتيسر الا لمن كان اعلم من كل واحد منهما واذا كان لا يتيسر للناقص
ان يحيط بمن هو اكمل منه في العرف والشاهد فكيف يتيسر للعقول
الناقصة الاحاطة بجلال من جلاله غير متناه الحجة التاسعة العقل

كالانثى والفكر كالذكر فاذا حصل الازدواج بينهما تولدت المعرفة
ولا شك ان الولد يكون على قدر قوة الابوين والعقل ناقص فكيف
وهو عاجز عن معرفة نفسه والفكر ناقص فكيف ولا يمكنه ان يصون
نفسه عن الغلط واذا كان الابوان في غاية النقصان كيف يعقل
ان يكون الولد في غاية الكمال فامتنع تولد مثل هذه المعرفة على غاية شرفها
من هذين الابوين الحجة العاشرة اذا ادرك العقل وقف عند مدركه
وانتهى اليه وكل مدرك هذا شانه فهو متناه والحق لا نهاية له وهذا
يوجب ان ذلك المدرك ليس هو الحق بل كان شيئا غير الحق الحجة الحادية عشر
قال عليه السلام قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن وهذا عبارة
عن كونه محدودا مقهورا مغلوبا متناهيا وما كان كذلك امتنع ان يكون
له احاطة بما لا نهاية له ومن النكتة في هذا الباب وجوه احدها انه
اخبر سبحانه عن ضعف البشر فقال وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه
منه ضعف الطالب والمطلوب فمن بلغ عجزه الى حيث لا يقوى على مقاومة
الذباب كيف يمكنه الوصول الى كنه صمدية رب الارباب الثانية قالوا
الرجل اذا كان في مفازة عظيمة واشتد الحر ولم يكن هناك ماء اصلا
والبتة واشتد عطشه وغلبه خوف الفقدان فالى اي جهة نظر
ظنه ماء وراء سرابا فاذا وصل اليه لم يجده شيئا كما قال تعالى
حتى اذا جاءه لم يجده شيئا فكذا العقول البشرية والارواح الانسانية
وقعت في بيداء كبرياء الله تعالى فعظمت الانوار وتعاكست الاشعة
وغلبت حرارات الاشتياق الى الوصول الى حضرة الله فكلما نظر الى
جانب ظنه هناك ماء فالاشعرية نظروا الى جانب التنزيه فظنوا ان الماء

هناك والمشبهة نظروا الى جانب الاثبات فظنوا ان ماء العرفان هناك
وكذلك الجبر والقدر والرفض والخوارج ثم ان كل واحد يوجه الى
مقصده وسار الى مطلبه فوصلوا الى مطالبهم يوم القيامة فلم يجدوا
هناك من هذا الحديث شيئا كما قال تعالى وقدمنا الى ما عملوا من عمل
فجعلناه هباء منثورا ثم الاقوياء لما عرفوا عظمة المفازة وعجز البشرية
وحيرة العقل فروا عن انفسهم واستغاثوا بارشاده وهدايته فقال
الخليل عليه السلام رب هب لي حكما والحقني بالصالحين وقال يوسف
الصديق توفني مسلما والحقني بالصالحين وقال الكليم رب اشرح لي
صدري ويسر لي امري وقال سليمان وادخلني برحمتك في عبادك
الصالحين وقال عيسى ان كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا
اعلم ما في نفسك وقال الحبيب ارنا الاشياء كما هي الثالثة قالوا الصبي
ينظر في المراة فراى فيها صورة فيشتاق الى ان يقرب من تلك الصورة فيقرب
من تلك الصورة فيرى تلك الصورة ايضا يقرب منه فاذا راى قرب الصورة
منه حال قربه منها يشتد طمعه في اخذها فيمد يده اليها لياخذها
فاذا مد يده راى حجابا من الحديد وراى الصورة محتفة بحجب العزة
وسرادقات القدرة فهكذا قوة العقلية ينظر في مراة من عرف نفسه
فيلوح له تجلي انوار عرف ربه فكلما كان نظر العين الى هذه المراة اشد
كان ذلك التجلي اعظم فيشتاق العقل الى الوصول الى كنه الصمدية فيمد
يد الطلب فيرى بين نفسه وبين المطلوب سدا من الازلية والقدم
والاستغناء فيبقى وراء هذه السد عاجزا مسكينا وبسبب مزيد
التصرف يزول ذلك التجلي محتجبا بسرادقات الكبرياء والعظمة والجبروت

الرابعة كان سوادي يحمل حملاً من القوادير وكان مذهب به لاجل التجارة
الى بلد آخر فلما وصل الى باب البلد وضع ذلك الحمل ثم قال انى اذا
دخلت هذه البلدة ابيع هذه القوادير واشترى باثمانها الغنم
ثم يحصل من نتاجها واولادها مال عظيم فاشترى به الخيل والجمال
ثم يحصل من نتاجها مال عظيم استوى به الالات المملكة فاذا حصل
الملك تزوج بابنة الملك الفلانى ويحصل لى منها اولاد ثم احضر الادباء
والعلماء لتعليمهم وتاديبهم ايضا وفى اثناء ذلك ضرب بين ساهيا
على الحمل فسقط الحمل وانكسر الكل فهذا مثال لاكثر توهمات الخلق
فان كل احد يظن ان ما معه من العلوم والاعمال يكون وسيلة الى
وجدان ملك الجنة والوصول الى عتبه حضرة الله فاذا جاء وقت
الموت بطلت تلك الاوهام وزالت تلك الافكار وبقى المسكين على تراب
الحرمان وموضع الذلة والعجز الخامسة من اسمايه سبحانه وتعالى
الجبار وهو ماخود من قولهم نخلة جبارة اذا لم يصل اليها الايدي
فكذا ههنا الافهام لا تصل الى صمديته فالعبد له اليوم طلب عرفان
وجوده وغدا طلب جوده وحقيقته الصمدية منزهة عن الاحاطة
والادراك السادسة للسايرين الى الله ثلث مقامات الحكم والحق
والامر ثم كل ما دخل فى الوجود ان عرضته على نقاد الحكم كان الكل
حسنا لان الكل بتقديره وحكمته حصل وان عرضته على نقاد الحق
كان الكل قبيحا لان المعارف بالنسبة الى حضرة جلاله جهل والعبادات
بالنسبة الى عتبة عزته تقصير وان عرضته على نقاد الامر كان البعض
حسنا والبعض قبيحا فالحكم فضل محض والحق عدل محض والامر تارة

مع الفضل وتارة مع العدل فان عرضت على الحكم اعمال كل الخلق
لم يكن شئ منها مردودا وان عرضت على الحق اعمال الانبياء والملائكة
لم يصر منها شئ مقبولا واما الامر فعلى ما عرفت بالفارسية
هر بار كه در آينهٔ امر نكرى سودايى درست بديد آيد كه من كيبم
ام ليكن هم بر عقب آن يا نه حق در نكر تا خود را از عدم كم بينى ام روز
انبيا نبوت ورسالت مى نكرند ملايكه بطاعت وعصمت مى نكرند
موحدان باخلاص وايمان مى نكرند فردا جون سرادقات جلال باز
كشند وسرا بردهٔ عزت بزنند واعلام جلال حقيقت ظاهر كنند همه
فرياد عجز فرا پيش كيرند يكى كويد ما عبدناك حق عبادتك ديكرى
كويد ما عرفناك حق معرفتك السابعة در راه الوهيت وعقل خواست
كه فرا پيش رود فرو ماند نور عقل خواست كه بر امن جلال او كردد
هباء منثورا كشت سر خواست كه قدر كمال او بداند خيره شد معرفة
دلايل خواست كه بحضرة قدس او محيط شود عاجز اند اكر هزار
هزار دلايل وحدانيت بر خوانى وآنچ بنقل آمده است نقل كنى
ودر بحار معقول ومنقول غوص كنى ودرر وغرر وجواهر زواهر
در سلك تحصيل كشى جون نيك نظر كنى خود را در بلهٔ زيرين ولا
يحيطون بشئ من علمه بينى ودون الغيب استار وفى الاستار
اسرار محجوبة عن الاغيار فسبحان من عزيز ضلت العقول فى بحار
عظمته وحارت الالباب دون ادراك عزته وكلت الالسن
عن وصف جلاله ومدح جماله وكل من اغرق فى نعمته اصبح منسوبا
الى الغنى ديده عقول در ادراك جلال او خيره احداق عقول

در مقابله نور شروق عزت او نیره افکار ارباب حکمت در تیار
بحار عظمت او غرق شده نتایج و نتایج ارباب فطنت در انوار
اسرار جلال او محترق کننده زبانها اهل فصاحت از شرح مدح
جمال و وصف جلال او کلیل و در هر گوشه هزار طریح و جریح
و شهید و قتیل المناجات ای که ترا جستن محال و از تو عبارت
کردن وبال چون باشی ترا چگونه جویم چون بهیچ خبر نمانی از تو
عبارت چون کنم نه بی تو امان یابم نه با تو امان توان لا منك
فرار ولا معك قرار المستغاث منك اليك ای عز تو همه عزها را
نعت دل بر کشیده ای جلال تو همه جلالها را داغ اختلال بر نهاده
ای کمال تو همه کمالها را رقم نقصان بر زده ای الهیت تو همه عالم را
طراز عبودیت لازم کردانیده ای ذات تو نه این و ای صفات
تو بی کیف ای بطش تو بی جارحه و ای بصر تو بی حدقه ای صفات
تو عقول را متحیر کرده ای صمدیت تو جانها را سراسیمه کردانیده
ای ارادت و مشیت و احکام الهیت تو از الایش و هم خلق پاك
ای عیب و ازال ازل تو از هواجس خواطر و ضمایر آب و گل
منزه ای همه جانها را بر من یزید عشق تو نهاده و جز حسرت سود
نکرده ای همه عشاق قصد رواق اسواق اشواق تو کرده و جز
نومیدی بدست نیاورده ای همه احباب با دلها کباب قدم
در راه تو نهاده و مال و عیال و جاه و مهتری و سروری بر باد
داده بستستان تا امید بفضل نه علت تو که ما را از شر نفس خلاص ده
برحمتك یا ارحم الراحمین تقریر آخر فی انه لا سبیل الی معرفته

لاشك ان كل من كان انقطاع نظره عما سوى الحق اكمل وكان استغراق
قلبه في معرفة الله اتم كان معرفته اكمل ولا شك ان محمدا عليه السلام
ليلة المعراج بلغ الغاية القصوى في هذا الباب فكانت معرفته اكمل
المعارف ثم انه مع ذلك عرف بعدم المعرفة لانه قال لا احصي ثناء
عليك فاذا كان مع كمال القرب لم يعرف فمن كان في غاية البعد كيف
يمكنه المعرفة النوع الثاني من علوم هذا الكتاب في تقرير الدلايل
الدالة على اثبات الصانع سبحانه وهذا النوع مشتمل على مقدمة
وابواب اما المقدمة فاعلم انه سبحانه رتب دلايل اثبات الصانع
في القران العظيم على وجهين الوجه الاول انه تعالى ابتداء من الاعرف
فالاعرف نازلا الى الاخفى فالاخفى في الدلايل وهذا هو الترتيب
الذي اختاره في سورة البقرة وذلك بانه ابتدا بالاستدلال لكل واحد
على وجود الصانع بنفسه وذاته فقال اعبدوا ربكم الذي خلقكم
ثم ذكر عقبيه استدلالهم باباءهم واجدادهم ثم ذكر عقبيه
استدلالهم باحوال الارض فقال الذي جعل لكم الارض فراشا
ثم ذكر عقبيه الاستدلال باحوال السماء ثم قال والسماء بناء
ثم ذكر عقبيه الاستدلال بالاحوال المتولدة فيما بين السماء والارض
والسبب في هذا الترتيب ان اظهر الاشياء لكل احد نفسه ثم اباؤه
واجداده ثم الارض التي هي مسكنه ثم السماء التي هي في غاية البعد
عنه ثم الاحوال التي لا يتولد الا بمجموع الارض والسماء وهو
المراد بقوله وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات الاية
والوجه الثاني في ترتيب الدلايل ما ذكره تعالى في اول سورة النحل

فانه تعالى ابتدأ من الاشرف فالاشرف نازلا الى الادون فالادون
وذلك لانه تعالى ذكر المطلوب اولا فقال تعالى تنزل الملائكة بالروح
من امره على من يشاء من عباده ان انذروا انه لا اله الا انا فاتقون
ثم انه تعالى ابتدأ في ذكر دلائل الصانع بالسموات فقال خلق السموات
والارض بالحق تعالى عما يشركون ثم ذكر عقيبه الاستدلال بالانسان
فقال خلق الانسان من نطفة فاذا هو خصيم مبين ثم ذكر بعده
احوال الحيوانات فقال والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع
ثم ذكر بعده احوال النبات فقال هو الذي انزل من السماء ماء لكم
منه شراب ومنه شجر ثم ذكر احوال العناصر فذكر الماء فقال وهو
الذي سخر البحر لتاكلوا منه لحما طريا ثم ذكر الارض فقال والقى في
الارض رواسي ان تميد بكم ثم لما تمم ذكر هذه الدلائل عاد المطلوب
الذي ذكره اولا فقال افمن يخلق كمن لا يخلق افلا تذكرون والمطلوب منه
اثبات التوحيد ونفي الشركاء والانداد ثم قال بعده وان تعدوا
نعمة الله لا تحصوها يعني ان هذه الاشياء التي ذكرناها استدللنا بها
على اثبات الصانع ووحدانيته فهي ايضا نعم جليلة ومنافع عظيمة
في خلقكم والانسان لو استقصى في تعديد نعم الله عليه فانه يعجز
بالاخرة واكثر دلائل القران هكذا فانها تكون دلائل من وجه ونعما
من وجه آخر ومثل هذه الدلائل الخفية يكون انجع في القلب واشد
تاثيرا في الروح لانها من حيث انها دلائل تفيد المعرفة ومن حيث انها
نعم تفيد الانقياد للمنعم والاشتغال بشكره والخضوع لعز جلاله فاذا
تعاون هذان الوجهان كمل حصول المقصود من الاعتراف بالخالق

المنعم والانقياد لعز وجهه وكمال صمديته واذا عرفت هذين
النوعين من الترتيب في الدلائل فنحن في هذا الكتاب نرتب الدلائل
على الوجه الثاني فنبدأ بشرح دلائل السموات ثم نذكر دلائل الشمس
والقمر ثم نذكر دلائل الانسان ثم نذكر دلائل الحيوانات ثم نذكر
دلائل النبات ثم نذكر دلائل الاثار العلوية من البرق والرعد
والصاعقة والسحاب ثم نذكر دلائل احوال البحار ثم نذكر دلائل
الجبال وذلك هو تمام المقصود من هذا النوع والله الموفق للخيرات

الباب الاول في تقرير كيفية دلائل السموات على
اثبات الصانع سبحانه اعلم انه تعالى ذكر في الكتاب الكريم مبدأ
تكون السموات واحوال وسطها واحوال معادها وفيه فصول
الفصل الاول في شرح مبدأ تكون السموات اعلم انه تعالى ذكر في
هذا المعنى آيتين الاية الاولى قوله في سورة الانبياء اولم ير الذين
كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وفي الاية
سؤالات احدهما ان المراد من قوله اولم ير اما الرؤية واما العلم
ولا يجوز ان يكون المراد هو الرؤية لان القوم ما راوا كيفية تخليق
السموات ولانه تعالى قال ما اشهدتهم خلق السموات والارض
ولا يجوز ان يكون المراد هو العلم لان الرتق والفتق عبارتان عن الاجتماع
والافتراق ولا شك ان الاجسام قابلة لكل واحد منهما بدلا عن
الاخر واذا كان ذلك فلا سبيل الى تقدم الرتق على الفتق الا بقول
الرسول وهذه المناظرة كانت مع الكفار المنكرين للرسالة فكيف
يجوز مثل هذا الاستدلال فهذا احد السؤالين في الاية والسؤال الثاني

ما معنى الرتق والفتق في الآية واعلم انا نخوض في معنى الرتق والفتق
وفي اثناء الكلام يظهر الجواب عن السؤال الاول فنقول لفظ الرتق
والفتق يحتمل وجوهاً الاول ان الرتق اشارة الى العدم والفتق
اشارة الى الوجود وتقريره بحسب اللفظ ان الاجسام اذا كانت
مرتقة لا يكون لبعضها تميز عن البعض واذا كانت منفتقة كان
بعضها يتميز عن البعض واذا عرفت هذا فنقول ان العدم نفي
محض وليس فيه ذوات متميزة واعيان متباينة فصح تسمية
المعدوم بالرتق من حيث انه ليس فيه امتياز وتباين بوجه فاذا
وجد فقد تميز كل واحد من الجواهر عن غيره وكل واحد من الصفات
عن غيرها فصح تسمية الوجود بالفتق من هذا الوجه وبهذا التاويل
سمى تعالى خلق النور في وسط الظلمة بالفلق قال فالق الاصباح
بل سمى نفس الايجاد والتكوين بالفلق فقال قل اعوذ برب الفلق
فكذا لا يبعد ان يريد بالفتق بعد الرتق الوجود بعد العدم واذا
عرفت هذا فنقول المراد من قوله من هذه الاية هو المراد من قوله الحمد
لله الذي خلق السموات والارض ومن قوله الحمد لله فاطر السموات
والارض ومن قوله في سورة النحل خلق السموات والارض بالحق
وتمام وجه الاستدلال ان كل واحد من السموات والارضين مختص
بحيز معين وبصفة معينة وبخاصية معينة وبمقدار معين
مع انه لا يمتنع في العقل وقوعه على خلاف تلك الخاصية والصفة
والحيز واذا كان كذلك كان اختصاص كل واحد منهما بصفته
وحيزه وشكله لا بد وان يكون لتخصيص وتدبير مدبر وتقدير مقدر

فدل وجود السموات من هذه الجهة ومن وجودها بعد ان لم يكن
على افتقارها الى القادر المختار واذا حملنا الرتق والفتق على هذا
الوجه كان المراد من قوله اولم ير الذين كفروا ولم يعلم وذلك لان
دلايل الحدوث ذوات في السموات وفي صفاتها جلية قوية ظاهرة
والعلم اذا قوي وابعد عن مواقع الشكوك والشبهات جاز ان
يسمى بالرؤية لقوته وجلايه وكثرة شواهده ودلايله الوجه
الثاني في تفسير الرتق والفتق ان الظلمة سابقة على النور ويدل
عليه النقل والعقل اما النقل فمن وجوه الاول قوله تعالى
وجعل الظلمات والنور فقدم الظلمات في الذكر على النور
الثاني قوله هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً فظاهر اللفظ
يدل على انه جعلها ضياء بعد ان لم يكن كذلك والثالث قوله تعالى
وآية لهم الليل نسلخ منه النهار والرابع قوله الله نور السموات
والارض اي منور السموات والارض وهذا مشعر بان النور متاخر
عن الظلمة فان قيل هذا يشكل بقوله ولا الليل سابق النهار
وهذا يدل على ان السابق هو النهار قلنا لا بد من التلفيق بين هذه
الايات التي قدمناها وكان المعنى ولا الليل المتاخر يسبق النهار
المتقدم واما المعقول فهو ان الليل ظلمة والظلمة عدم والنور
وجود وعدم المحدثات متقدم على وجودها فدل ذلك على ان
ظلمة العدم كانت سابقة على نور وجود هذه المحدثات واذا عرفت
هذه القاعدة فنقول كانت السموات والارضين مظلمة اولا ثم
اظهر الله الانوار فيها فعبر عن الظلمة السابقة بالرتق وعن الانوار

اللاحقة بالفتق فلهذا قال سبحانه كانتا رتقًا ففتقناهما ويتأكد
هذا القول بما روى عنه عليه السلام انه قال حاكيا عن رب العزة
جل جلاله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره وعلى هذا
التفسير تكون الرؤية المذكورة في الاية بمعنى العلم الوجه الثالث
في تفسير الرتق والفتق ان السموات والارض كانتا شيئا واحدًا ملتزقًا
بعضها بالبعض ثم فصل الله بينهما واقر الارض حيث هي ورفع
السموات الى العلو وهذا القول يدل عليه وجوه الاول قوله الله الذي
رفع السموات بغير عمد ترونها فوصف السموات بانها مرفوعة وذلك
يطابق ما قلنا ان السموات والارضين كانتا ملتصقا بعضها
ببعض ثم انه سبحانه اقر الارض في مكانها واصعد اجزاء السموات
ورفعها الى الجو العالى والثاني قوله تعالى ثم استوى الى السماء و
هي دخان يروى انه تعالى خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فذابت
الجوهرة ثم سلط عليها الحرارة فارتفع على وجه الماء زبد وعلاه
دخان فخلق الارض من الزبد وخلق السموات من ذلك الدخان وهذا
يدل على ان اجزاء الارض والسموات كان بعضها مختلطا بالبعض
وملتصقا به ثم انه سبحانه ميز البعض عن البعض فصير البعض زبدا
واسكنه حيث هو واصعد الباقي الى الجو العالى وخلق منه السموات
والثالث قوله تعالى في صفة السموات رفع سمكها فسويها وذلك
يدل على انه تعالى اصعد الاجزاء التي منها خلق السموات عن السفل
الى العلو وذلك هو المراد من الرتق والفتق اعلم ان وجه الاستدلال
بالرتق والفتق على وجود الصانع بناء على هذا القول ان نقول لا شك

ان كرة الارض محفوفة بالماء والماء بالهواء والهواء بالنار والنار
بالافلاك وكل فلك بفلك اخر الى آخر الافلاك فنقول هذه العناصر
والافلاك متساوية في الجسمية لانه لا معنى للجسم الا الطويل العريض
العميق والكل مشاركة في هذا المعنى ثم ان كل واحد من هذه
الاجسام يخالف الاخر في الصفات والاعراض وهي كون بعضها
عالية والبعض سافلة والبعض لطيفا والبعض كثيفا والبعض
حارًا والبعض باردًا فنقول اختصاص كل واحد من هذه الاجرام
الفلكية والعنصرية بصفته المعينة وحيزه المعين اما ان يكون
لذاته واما ان يكون من لوازم ذاته او لا من غير لازم لذاته والاول
والثاني يوجبان استواء الاجسام في كل الصفات وهو محال والثالث
يقتضي ان يكون اتصاف كل واحد من هذه الاجسام بما اتصف به
امرا جائزًا واذا كان الامر كذلك استحال اختصاصه بتلك الصفة
الا لمرجح ومخصص ثم ذلك المخصص اما ان يكون جسما واما ان لا
يكون جسما فان كان جسمًا كان ذلك الجسم متميزًا عن ساير الاجسام بتلك
المؤثرية فيفتقر ذلك الاختصاص الى مخصص ومرجح فيلزم التسلسل
وهو محال وان لم يكن جسمًا فاما ان يكون موجبًا واما ان يكون
مختارًا لا جائز ان يكون موجبًا لان نسبته الى الكل على السوية فوجب
ان يكون المؤثر قادرا مختارا فثبت افتقار جميع الاجسام من العرش
الى ما تحت الثرى الى مؤثر فاعل بالاختيار قادر على جميع الممكنات
ليس بجسم ولا جسماني وذلك هو الله سبحانه واذا عرفت هذا فنقول
ان المراد من الرتق كون تلك الذوات متشابهة في الماهية والحقيقة

والمراد من الفتق اختصاص كل واحد منهما بطبع معين وشكل معين
وصفة معينة وحيز معين وعلى هذا التقدير يكون الرؤية بمعنى
العلم الوجه الرابع فی تفسير الرتق والفتق ان السموات كلها كانت
سماء واحدة ثم انه سبحانه جعلها سبع سموات والذی يدل عليه
قوله فی اول سورة البقرة ثم استوى الى السماء فسويهن سبع سموات
وهذه الاية دالة على ما قلناه من وجهين احدهما انه قال ثم استوى
الى السماء ولفظ السماء دالة على الواحدة والثانی انه قال فسويهن
سبع سموات والفاء يدل على التعقيب فهذا يدل على ان السماء كانت
واحدة ثم انه تعالى جعلها واحدة سبعة بعد ان كانت واحدة فان
قيل فعلى هذا القول ما معنى فتق الارضين بعد رتقها قلنا انه تعالى
قال فی آخر سورة الطلاق الله الذی خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن
فلهذا السبب اختلفوا فی تفسير الارضين السبعة فقال بعضهم هی طباق
سبعة بعضها اسفل من بعض كالسموات وقال آخرون هذه الارضون
اشارة الى الاقاليم السبعة فانه تعالى جعل لكل واحد من هذه الاقاليم
خاصية ومنفعة القول الخامس فی تفسير الرتق والفتق قال الغزالی
رحمة الله عليه فی كتابه المسمى بالمضنون به على غير اهله الرتق والفتق قال الغزالی
عبارة عن انطباق دايرة البروج على دايرة معدل النهار وفی ذلك
الوقت ما كانت الارض معمورة على ما عرف تحقيق ذلك فی علم الهيئة
والفتق عبارة عن انفراج احدى هاتين الدايرتين عن الاخرى وحدوث
ميل فلك البروج من معدل النهار ولما حدث هذا الانفراج حدثت
الفصول الاربعة فی الارض وحصل من ذلك اختلاف الاهوية والبلدان

والمساكن

والمساكن وهذا هو المراد من حدوث الفتق فی الارض فاعلم ان
وجه الاستدلال على اثبات الصانع سبحانه بناء على هذين القولين
ظاهر ايضا وذلك لان على القول الاول انه سبحانه فضل بعض هذه
الافلاك على بعض وخص كل واحد منهما بقدر معين وسير معين
وجهة معينة لحكمة ظاهرة فی علم الغيب مستورة عن عقول الخلق
فلابد وان يكون ذلك لقدرة غالبة ومشية نافذة على ما حققنا
القول فيه واما على القول الذی ذكره الغزالی فاعلم ان منافع الرتق
والفتق بهذا المعنى كثيرة ونحن نذكر منها شمة فنقول لو لم تكن للكواكب
حركة فی هذا الميل لكان التاثير مخصوصا بقعة واحدة فكان ساير
الجوانب يخلوا عن المنافع الحاصلة منه وكان الذی يقرب منه متشابه
الاحوال وكانت القوة هناك لكيفية واحدة فان كانت حارة افنت
الرطوبات فاحالتها كلها الى النارية ولم يتكون المتولدات فيكون
الموضع المحاذی لممر الكواكب على كيفية وحظا لا يحاذيه على كيفية
اخرى وحظ المتوسط بينهما على كيفية متوسطة فيكون فی موضع
شتاء دايما يكون فيه النهوة والفجاجة وفی موضع اخر صيف دايم
يوجب الاحتراق وفی موضع آخر ربيع او خريف لا يتم فيه النضج
ولو لم يكن عودات متوالية متبالية وكانت الكواكب تتحرك بطيا
لكان الميل دليل المنفعة وكانت التاثير شديد الافراط وكان يعرض
قريبا مما لو لم يكن سيارة ولو كانت الكواكب اسرع حركة من هذه
لما كملت المنافع وما تمت فاما اذا كان هناك ميل لحفظ الحركة
فی جهة ثم ينتقل الى جهة اخرى بمقدار الحاجة ويبقى فی كل جهة

برهة من الدهر ثم بذلك تاثيره وكثرت منفعته فسبحان الله الخالق
المدبر بالحكمة البالغة والقدرة الغير المتناهية القول السادس
في معنى الرتق والفتق ان السموات والارضين كانتا رتقا بالاستواء
والصلابة ففتق الله السماء بالمطر والارض بالنبات والشجر ونظيره
قوله والسماء ذات الرجع والارض ذات الصدع واكثر المفسرين
اختاروا هذا القول واحتجوا بترجيحه على ساير الاقوال بقوله تعالى
وجعلنا من الماء كل شيء حي وهذا الكلام لا يليق ذكره بهذا الموضع
والمراد ما ذكرناه فان قيل هذا الوجه ضعيف لوجهين احدهما ان
المطر لا ينزل من السماء بل من السحاب والثاني ان بتقدير ان يكون
المطر نازلا من السماء لكنه ينزل من السماء الدنيا لا من كل السموات
والجواب عن الاول ان السماء مشتق من السمو وكل ما سماك فهو سماء
وعن الثاني انما اطلق عليه لفظ الجمع لان كل قطعة منها بتمامه سماء
كما يقال ثوب اخلاق وبرمة اعشار واعلم ان على هذا التاويل يجوز
حمل قوله اولم ير الذين كفروا على الابصار فان الناس يشاهدون
انفتاق السحاب بالمطر والارض بالشجر ثم وجه الاستدلال على
وجود الصانع بناء على هذا القول انك ترى الهواء في غاية الصحو
ثم انه ينعقد الغيم دفعة وينزل من المطر ماء يمتلي منه الاودية
العظيمة ويقلع الجبال العظيمة من شدة سيلانها ثم ان نزول
ذلك المطر يصير سببا لخروج الانواع المختلفة من النبات من الارض
وكل ذلك يدل على تقدير الصانع المختار الحكيم جل جلاله فهذه الاقوال
الستة المذكورة وان كنا قد بالغنا في تقريرها هنا وجوه اخرى يمكن

حمل الاية عليها فالاول ان السموات لو كانت رتقا فما كان احد ينزل
من السماء الى الارض ولا احد يصعد من الارض الى السماء ثم انه
تعالى فتقها فصارت الملائكة ينزلون من السماء الى الارض وصار
البشر يصعدون من الارض الى السموات اما نزول الملائكة فقال
تعالى وما نتنزل الا بامر ربك وقال تنزل الملائكة بالروح من امره
وقال تنزل الملائكة والروح فيها وقال نزل به الروح الامين على قلبك
واما صعود البشر الى السموات فقوله في ادريس ورفعناه مكانا عليا
وقال في عيسى اني متوفيك ورافعك الي وقال في محمد فكان قاب قوسين
او ادنى الثاني كانتا رتقا ففتقناهما بانزال انوار الكواكب من
السموات العالية الى الارضين المستفلة كما قال والنجم الثاقب قيل
هو انه زحل يثقب بنوره سمك سبع سموات وتارة بصعود الدعوات
والتضرعات من الارضين الى على السموات كما قال اليه يصعد الكلم
الطيب والعمل الصالح يرفعه والثالث ان يحمل هذا الفتق على نزول
القضاء والقدر من معاقد عز على اركان عرشه ومن اركان عرشه
الى عالم السموات ثم الى بقاع الارضين فقال تعرج الملائكة والروح
اليه في يوم كان مقداره خمسين الف سنة وتمام الكلام في تحقيق
نزول القضاء والقدر وعروجه سياتي ان شاء الله تعالى في باب
تحقيق القضاء والقدر **الفصل الثاني** في تفسير آية اخرى
دالة على مبدا حدوث السموات قال تعالى ثم استوى الى السماء
وهي دخان فقال لها وللارض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا
طائعين فقضيهن سبع سموات في يومين واوحى في كل سماء امرها ونظير

هذه الاية قوله تعالى في اول سورة البقرة هو الذي خلق لكم ما في
الارض جميعا وفي هذه الايات ابحاث السماء البحث الاول في قوله
ثم استوى الى السماء وهي دخان اعلم ان قوله ثم استوى يدل على
امرين الاول انه يدل على انه حين استوى الحق سبحانه اليها كانت سماء
واحدة ثم قوله فقضيهن سبع سموات يدل على انها صارت سموات
سبعة بعد ذلك لان الفاء للتعقيب فصار قوله ثم استوى الى السماء
وهي دخان نظير قوله في سورة البقرة ثم استوى الى السماء وصار الفاء
في قوله فقضيهن سبع سموات في دلالته على ان هذا العدد انما حصل
بعد ان كان الكل واحدا وهو الرتق والفتق الذي شرحناه في الفصل
الاول والوجه الثاني ان الاية دالة على ان السموات مخلوقة من الدخان
واعلم ان تخليق السماء من الدخان دال على كمال القدرة ونهاية الحكمة
وذلك من وجوه الاول ان الدخان في غاية الكدورة والظلمة
والسموات في غاية الصفاء والشفافية فاظهار اعظم الاشياء صفاء
ولطافة من اشد الاشياء كدورة وظلمة من ادل الدلايل على كمال
القدرة ونهاية الحكمة ثم الذي يزيد هذا الكلام تفسيرا وايضاحا
ما روي في الخبر انه سبحانه خلق جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة فصارت
ماء سلط الحرارة على ذلك الماء فارتفع منه زبد وعلاه دخان
فخلق الارض من الزبد والسموات من الدخان ثم ان الزبد يكون في
غاية البياض والصفاء والدخان يكون في غاية الظلمة والكدورة
فخلق الارض الكدرة المظلمة من الزبد الابيض الشفاف وخلق السموات
الشفافة الصافية من الدخان الكدر المظلم ليستدل باخراج الضد

من

من الضد على كمال القدرة ونهاية الحكمة ونظيره قوله جعل لكم
من الشجر الاخضر نارا الآية والنظير الثاني لهذا المعنى ان النار نورانية
صافية والتراب ظلماني كدر ثم خلق ابليس من النار واغواه في ظلمات
الكفر والضلال وخلق آدم من التراب ورباه بانوار الهداية والارشاد
حتى يعرف الانسان ان الكل من الله وبتقدير الله الوجه الثاني
ان الدخان مما يعمي العين ويبطل البصر ثم انه تعالى زين السماء
الدنيا بزينة الكواكب وجعلها بحيث ان النظر الى السماء والى
الكواكب يزيد البصر قوة وكمالا وجعل لون السماء لون زرقة
انفع الالوان للعين ليعلم الانسان انه هو الذي يقلب الشيء من
صفة الى ضدها فيعرف به كمال قدرته وحكمته الوجه الثالث
الدخان يكون سريع التفرق والتلاشي ثم انه تعالى وصف السموات
باضداد هذه الصفات فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا
وقال وبنينا فوقكم سبعا شدادا وقال ولم يروا الى السماء
فوقهم كيف بنيناها الوجه الرابع ان الدخان اذا توسط
بين الناظر والمنظور اليه صار حجابا ثم انه تعالى خلق الكواكب
النيرة في اجرام الافلاك وعمق ثخنها مع انه لا يصير شيئا من اجرام
الافلاك حاجبا بين تلك الانوار وبيننا وكل هذه الاحوال
تدل على انه سبحانه هو القادر الذي يقلب الشيء من الضد الى الضد
فلما قدر ان يخلق من الدخان الكثيف هذه الاجسام النورانية
الربانية الباقية المحفوظة فاي عجب لو اعاد الحيوة الى اجزاء
البدن بعد صيرورتها ترابا رميما واليه الاشارة بقوله سبحانه

اوليس الذي خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم بلى وهو
الخلاق العليم فالخلاق اشارة الى كمال القدرة وهي القدرة النافذة
في جميع اجزاء الممكنات والمبدعات المستولية على كل احوال المحدثات
والكاينات وقوله اشارة الى كمال علمه المتعلق بجميع الجزويات والكليات
والحاضرات والغايبات والذوات والصفات والموجودات
والمعدومات ولاشك ان مدبر العالم متى كان موصوفا بهاتين
الصفتين كان كل عسير بالنسبة الى كمال قدرته يسيرا وكل صعب بالنسبة
الى عظمة قهاريته وجلالته هينا فتبارك الله رب العالمين
وخالق الخلايق اجمعين والموضع الثاني من المواضع التي اشتملت
هذه الاية عليها في ابتداء تخليق العالم قوله تعالى وللارض ايتيا
طوعا او كرها قالتا اتينا طايعين وللناس في هذه الاية قولان
واعلم ان هذا الامر والاجابة محمولان على لسان الحال لا على ظاهر
المقال ويدل عليه وجوه الاول ان السموات والارض جمادات وامر
الجماد لا يليق بالحكمة والثاني ان بتقدير ان تكونا حيا عاقلة فاهمة
لكنها لا يقدر على التصرف في نفسها وذواتها لان المتصرف في الشيء
متقدم بذاته وصفاته على ذلك التصرف وتقدم الشيء على نفسه
محال فثبت انه يمتنع كونها قادرة على التصرف في انفسها الثالث انه
سبحانه نص في محكم كتابه على انه سبحانه هو الخالق لذوات السموات فقال
الحمد لله الذي خلق السموات والارض ثم بين في اية اخرى انه سبحانه
خلقها من العدم المحض والنفي الصرف فقال الحمد لله فاطر السموات والارض
ثم بين انه سبحانه خلقها سبعا شدادا فقال وبنينا فوقكم سبعا شدادا

وبين انه خلقها سقفا محفوظا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا
ثم بين انه سبحانه هو الذي رفعها بغير علاقة ولا دعامة فقال
الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم وصف جميع اجرام السموات
بجميع صفاتها واحوالها فقال رفع سمكها فسويها واغطش ليلها
واخرج ضحيها واذا ثبت بهذه الايات المتاكدة والبراهين القاطعة
ان المدبر والمقدر والمتصرف والخالق والموجد لذوات هذه السموات
ولصفاتها هو الله سبحانه لم يكن في امرها فايدة ثم قالوا الامر
والاجابة ههنا عبارتان عن سرعة نفوذ قدرته ومشيته بلا مانع
ولا معارض ولا منازع ونظيره قول العرب قال الجدار للوتد
لم تشقني فقال سل من يدقني فان الذي ورايي ما خلاني وقال سبحا[نه]
انما امرنا لشيء اذا اردناه ان نقول له كن فيكون فالمراد من هذه الامور
هو سرعة التكوين وذلك لانه ان امره وهو معدوم فذلك محال وان
امره بعد الوجود فلا يمكن ان يقال للموجود كن موجودا وايضا
قال سبحانه وان من شيء الا يسبح بحمده والمراد منه التسبيح بلسان
الحال لا التسبيح بلسان المقال فان الجمادات لا قدرة لها على النطق
وايضا قال سبحانه ولله يسجد من في السموات والشمس والقمر
والنجوم والجبال والشجر والدواب وقال والنجم والشجر يسجدان
ومعلوم ان سجود الدواب والشجر لا يكون الا بلسان الحال فكذا
ههنا فهذا تمام الكلام في تقرير هذا القول الوجه الثاني انه لا يبعد
في قدرة الله ان يخلق فيها الفهم والعقل ثم يامرها ويخاطبها
فقال للسموات والارض ايتيا طوعا او كرها والذي يدل عليه وجوه

الاول الدلايل التى نذكرها من القران والمعقول على الحيوانات
عارفة بربها واذا لم يبعد خلق العقل ومعرفة الله فى الحيوانات
فاى بعد فى خلق الحيوة والفهم فى اجرام الفلك الثانى قوله تعالى
فلما تجلى ربه للجبل والتجلى لا يمكن الا بعد خلق الفهم والادراك له الثالث
قوله تعالى يا جبال اوبى معه والطير والرابع قوله اليوم نختم
على افواههم وتكلمنا ايديهم والخامس قوله تعالى انا عرضنا
الامانة على السموات والارض والجبال وبالجملة فهذا الاستبعاد
زايل عند الاعتراف بكونه سبحانه قادرا على كل الممكنات عالما بكل
المعلومات ومما يدل على صحة هذا الوجه قوله تعالى قالتا آتينا
طايعين ولو كانت السموات جمادات لكان حق اللغة ان يقال طايعات
فذلك قوله تعالى آتينا طايعين على انه خلق فيها الفهم والعقل
فى ذلك الوقت واعلم انا سواء حملنا هذا الامر والاجابة على لسان
الحال وعلى لسان المقال فذلك يدل على كمال عظمة الله ونهاية كبريايه
وقدسه وعزه وعظمته وذلك لان كل ما كان غايبا عن الحس
والخيال والعقل فانه لا سبيل الى معرفة جلاله وعظمته الا بمعرفة
آثاره ومخلوقاته ولا شك ان السموات والارضين اجسام فى غاية
العظم والشدة والاتساع ثم انها مع ذلك منقادة لامر الله سبحانه
وتسخيره وقهره وقدرته وتكوينه وتخليقه وذلك يدل على قدرة
لا نهاية لكمالها وحكمة لا غاية لجلالها ودليل اجابة السموات
والارضين على كمال عظمة الله قوله فى قصة نوح قيل يا ارض ابلعى
ماءك ويا سماء اقلعى فان هذه الندا يدل على كون السموات والارضين

مسخرة فى قبضة قدرته وتصريف حكمته الا له الخلق والامر تبارك الله
رب العالمين الموضع الثالث فى هذه الاية قوله فقضيهن سبع سموات
وفيه سوالات السوال الاول القضاء هو الالزام وذلك مشعر
بسبق منازعة وقد دلت الاية على انه ما كان فيهما منازعة ومدافعة
حيث قال تعالى مخبرا عنهما قالتا آتينا طايعين الجواب لا نزاع ان
القضاء عبارة عن الالزام لكن يجب ان نعلم ما سوى الله ممكن الوجود
لذاته والممكن لذاته هو الذي نسبة وجوده وعدمه اليه على
السوية واذا استوى الطرفان لم يكن فى ذاته اقتضاء ولا استلزام
لا للوجود ولا للعدم ثم ان الممكن لذاته ما لم يجب وجوده لاجل
ترجيح موثر لم يوجد فقوله سبحانه فقضيهن اشارة الى ذلك
الترجيح والتاثير الحاصل بسبب تخليقه وتكوينه وذلك الترجيح
هو الالزام لاحد الطرفين لا محالة وعند هذه الدقيقة يظهر ان
كل ما سوى الله فهو من حيث هو هو غير موجود بل وجوده من ايجاد
الحق وبقاوه من ابقاء الحق وعدمه من اعدام الحق فاذا تاملت انه
علمت انه لا موجود بالحق الا الحق كما قال ولا تدع مع الله الها اخر
لا اله الا هو كل شىء هالك الا وجهه السوال الثانى قال تعالى فقضيهن
سبع سموات فى يومين واليوم عبارة عن مدة حركة الشمس بحسب الطلوع
والغروب وقبل خلق الفلك يمتنع حصول اليوم الجواب المدة امر وراء
ادوار الفلك وذلك لان الحق سبحانه قديم والعالم حادث فتقدم
البارى على العالم ليس بسبب دور الفلك وحركة الشمس والقمر وايضا
فالزمان اما ان يكون قديما او حادثا فان كان قديما كان مستمرا

من الازل الى الابد فذلك الاستمرار لا يكون لاجل الزمان والا لزم
افتقار كل زمان الى زمان آخر لا الى نهاية وذلك محال فثبت ان نقول
الاستمرار والدوام لا يتوقف على وجود الزمان فان كان الزمان
محدثا كان عدمه مستمرا من الازل الى الابد فلا يكون ذلك الاستمرار
موقوفا على وجود الفلك وحركة الشمس والقمر واذا ثبت هذا فنقول
هذا الاستمرار هو الذي تسميه المتكلمون بالزمان المقدر والمدة
المفروضة فتلك المدة المفروضة المقدرة هي المشار اليه بقوله
سبحانه فقضيهن سبع سموات في يومين وهذا كلام دقيق لا يتم
المقصود الا بالكشف عن حقيقة الدهر والزمان وذلك من مجازات
العقول السؤال الثالث قال تعالى انما اردنا لشيء اذا اردناه ان
نقول له كن فيكون فبين ان تخليقه وتكوينه لا يحصل الا على هذا
الوجه وهذا يناقض قوله فقضيهن سبع سموات في يومين الجواب
انه سبحانه قادر على الايجاد دفعة واحدة وهو المراد بقوله كن فيكون
وقادر ايضا على الايجاد حينا فحينا على سبيل التدريج وانه سبحانه
فاعل مختار وفي كل واحد من الوجهين حكمة واسرار اما الحكمة
في الايجاد على سبيل التدريج هو انه لو حصلت مخلوقاته كلها دفعة
واحدة بحيث لا يخلق شيئا اصلا لاشبه ذلك تأثير ما يكون بالطبع
وبالعلية لا بالقدرة والاختيار فان الشمس اذا طلعت حصلت
الاضاءة دفعة والنار اذا حضرت حصلت التسخين والاحراق
دفعة فلو حصلت افعاله سبحانه دفعة واحدة لما تميزت فاعليته
في عقولنا وافكارنا عن تأثيرات العلل والموجدات بالطبايع

اما الحكمة

اما الحكمة في الايجاد دفعة واحدة هي ان افعاله سبحانه لو حصلت
ابدا على سبيل التدريج ولم يحصل منها شيء دفعة واحدة لكان
ذلك يوهم العجز والاحتياج في الخالقية الى مدة واله ولما كان
الامر كذلك فلا جرم تارة يفعل ويخلق دفعة لئلا تبقى شبهة العجز
والاحتياج وتارة على سبيل التدريج لئلا تبقى شبهة انه موجب
بالذات ومؤثر بالطبع فهذا ما وصل اليه العقل المختصر وله سبحانه
تحت كل فعل حكم واسرار لا يعلمها الا هو السؤال الرابع لا شك ان
العالم الاكبر هو هذا العالم بما فيه من السموات والارضين والعالم
الاصغر هو الانسان ولا شك ان العالم الاكبر اعلى واعظم من العالم
الاصغر فان العقل يدل عليه وكذا القران قال تعالى لخلق السموات
والارض اكبر من خلق الناس ثم انه تعالى خلق العالم الاكبر في ستة
ايام وخلق العالم الاصغر في ستة اشهر فان اقل مدة الحمل ستة اشهر
بدليل انه تعالى قال وحمله وفصاله ثلثون شهرا ثم قال والوالدات
يرضعن اولادهن حولين كاملين فاذا اسقطنا مدة الرضاع وهي
اربعة وعشرون شهرا عن ثلثين شهرا بقي الباقي لمدة الحمل ستة اشهر
فما الحكمة في ان مدة تخليق عالم الاكبر ستة ايام ومدة تخليق عالم
الاصغر ستة اشهر الجواب من وجوه الاول انا بينا ان الحكمة تقتضي
تخليق بعض الاشياء على سبيل التدريج يوهم العجز والاحتياج الى
المادة والمدة والحق سبحانه ازال هذا الاشكال بان خلق العالم الاكبر
في ستة ايام وخلق العالم الاصغر في ستة اشهر ليعلم الخلق ان التخليق
على سبيل التدريج ليس لاجل الحاجة والعجز اذ لو كان الامر كذلك لكان

تخليق العالم الاكبر في مدة اطول اولى فسبحان من له تحت كل شيء حكمة
قدسية الهيئة الثاني قال بعضهم انه تعالى لما اراد تخليق السماء
والارض كان جبرئيل وميكائيل وساير اكابر الملائكة عقلاء مكلفين
فخلق الله العالم على مهل حتى يمكنهم الوقوف على دقايق الحكمة في ذلك التخليق
الثالث لا يبعد ان يقال انه تعالى خلق العالم على التدريج واخبر عن ذلك
حتى لا يصير ذلك شبهة في تخيل العجز والحاجة في قدرة الله تعالى وهو
نوع ابتلاء وامتحان كما قال ليبلوكم ايكم احسن عملا حتى ان الموقن
يعلم ان ذلك التدريج ليس للعجز والحاجة بل للعبرة والحكمة فكان هذا
الابتلاء سببا لمزيد الثواب في حق الموقنين ويظهر بسبب هذا المعنى
ان هذه الدار دار الابتلاء والامتحان والرابع انه سبحانه بين في
هذه الاية انه خلق الارض في يومين وكل ما في الارض من الجبال
والبحار والمعادن والنبات والحيوانات في يومين اخرين وثم خلق
السموات السبع بما فيه من الشمس والقمر والنجوم والعجايب والايات
في يومين اخرين والحكمة فيه انه لا نسبة للارض وما فيها الى السموات
وما فيها فان الارضين في جنب السموات كالقطرة في جنب البحر فلما
خلق الارض على صغرها في يومين وخلق السموات على كبرها ونهاية
عظمها في يوم عرف ان ذلك التدريج ما كان لاجل العجز والحاجة
بل لحكمة بالغة واسرار خفية يعجز عقول الخلق على الوقوف عليها
السؤال الخامس ان قوله تعالى ثم استوى الى السماء يدل على ان تخليق
السموات متاخر وقوله في سورة النازعات والارض بعد ذلك
دحاها يقتضي ان تخليق الارض وقع بعد تخليق السماء وحينئذ

يحصل

يحصل التناقض بين الايتين الجواب فيه قولان احدهما ان الله تعالى
خلق الارض اولا ثم خلق السماء ثانيا ثم دحى الارض بعد تخليق السماء
لان التدحية عبارة عن البسط وحينئذ يزول التناقض واعلم
ان على هذا القول اشكالين الاول ان الارض جسم عظيم فيمتنع انفكاك
تخليقها عن التدحية فاذا كانت التدحية من لوازم تخليق ذات الارض
ثم ثبت بالنص ان التدحية متاخرة عن تخليق السماء لزم ان يكون تخليق
الارض متاخرا عن تخليق السماء وحينئذ يعود الاشكال الثاني
الدلايل الاعتبارية دلت على ان الارض متاخرة لانها كرة وايضا
انه تعالى قال في سورة البقرة هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا
ثم استوى الى السماء وهذا يدل على ان خلق الارض وخلق كل ما فيها
متقدم على خلق السماء لكن من المعلوم ان خلق الاشيا في الارض لا يمكن
الا اذا كانت مدحوة فهذه الاية يقتضي تقديم كون الارض مدحوة
على خلق السماء وحينئذ يعود السؤال ومما يوكد هذا قوله تعالى
قل ائنكم لتكفرون بالذي خلق الارض في يومين وتجعلون له اندادا
ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر
فيها اقواتها الاية فهذه الاية تقتضي انه جعل في الارض رواسي من فوقها
وبارك فيها بخلق البحار والاشجار والثمار وقدر فيها اقواتها بخلق
الزرع فيها وكل ذلك حصل قبل خلق السموات ومعلوم ان خلق الرواسي
والاشجار والزروع لا يمكن الا بعد تدحية الارض فصارت هذه
الاية مع الاية المذكورة في سورة البقرة تدلان على ان تدحية
الارض حصلت قبل تخليق السماء وحينئذ يعود الاشكال وايضا

فان قوله تعالى والارض بعد ذلك دحيها اخرج منها ماءها
ومرعاها والجبال ارسيها يدل على ان اخراج الماء وارساء الجبال
وتخليق المرعى كل ذلك وقع متاخرا عن تخليق السماء والاية الواردة
فى السجدة صريحة فى ان كل ذلك قبل تخليق السماء وحينئذ يعود الاشكال
القول الثانى فى هذه المسئلة قول من قال السماء مخلوقة قبل الارض
واحتجوا عليه بالنقل والعقل اما النقل فالحجة الاولى قوله
والارض بعد ذلك دحيها وقد بينا فيما تقدم ان كون الارض
مدحوة من لوازم وجود الارض لانها جسم عظيم والجسم العظيم
وان كان كرة الا ان كان قوس منها يكون فى المنظر على شكل المستقيم
فيكون مدحوة لا محالة الحجة الثانية قوله تعالى ثم استوى الى
السماء وهى دخان سماها سماء عند الاستواء اليها ثم انه تعالى جعلها
بعد ذلك سبعة وهى المراد من قوله فقضيهن سبع سموات وهذا صريح
فى انها كانت سماء واحدة قبل ذلك ثم صيرها الله تعالى سبعة بعد
ذلك الحجة الثالثة فى قوله تعالى الحمد لله الذى خلق السموات والارض
قدم السماء فى الذكر على الارض واما المعقول فمن وجوه الحجة الاولى
ان السماء والارض كالزوج والزوجة والسماء كالغنى والارض كالفقير
فكان تخليق السماء قبل تخليق الارض اليق الحجة الثالثة ان السماء مسكن
الملائكة والارض مسكن البشر وخلق الملائكة قبل خلق البشر فكان
تخليق مسكنهم قبل تخليق مسكن البشر اولى بقى ان يقال فما معنى قوله
ثم استوى الى السماء فى سورة البقرة وفى سورة السجدة فنقول فيه
وجهان الاول ان لا يكون المراد من كلمة ثم الترتيب فى الوجود بل المراد

الترتيب

الترتيب فى الذكر كقولك للرجل انت كذا وكذا ثم انت تعودها
ويكون المراد الترتيب فى الذكر قال تعالى فك رقبة او اطعام فى
يوم ذى مسغبة الى قوله ثم كان من الذين امنوا والمراد منه الترتيب
فى الذكر والثانى لعل السبب فى تقديم ذكر الارض على السماء هو ان
الارض اقرب الينا من السماء او لاجل ان السماء اعظم من الارض
وآياتها اعظم من ايات الارض والانتقال من الحجة الى الحجة
انما يحسن من الادنى الى الاعلى كما انتقل ابرهيم عليه السلام من
قوله يحيى ويميت الى قوله فان الله ياتى بالشمس من المشرق فات بها
من المغرب السؤال السادس انه تعالى قال قل ائنكم لتكفرون
بالذى خلق الارض فى يومين ثم قال وبارك فيها وقدر فيها اقواتها
فى اربعة ايام فيكون المجموع ستة ثم قال فقضيهن سبع سموات
فى يومين فيكون المجموع ثمانية فظاهر هذه الاية تقتضى انه تعالى
خلق السموات والارض فى ثمانية ايام فيكون مناقضا لقوله خلق
السموات والارض فى ستة ايام الجواب ان تخليق الارض حصل فى
يومين وتخليق الجبال وغيرها حصل فى يومين اخرين فكان المجموع اربعة
وهو المراد بقوله فى اربعة ايام سواء للسائلين ثم حصل تخليق
السموات فى يومين آخرين فقد كان المجموع الايام ستة فقد زال
والاشكال فى هذه الاية قوله سبحانه واوحى فى كل سماء امرها و
سنذكره ان شاء الله تعالى فى باب الملائكة الفصل الثالث فى الاستدلال
بصفات السموات واحوالها الموجودة فى هذه الوقت على ان لها
صانعا ومدبرا قال سبحانه ان فى خلق السموات والارض واختلاف

الليل والنهار الى قوله الايات لقوم يعقلون وقال في ال عمران
ان في خلق السموات والارض الى اخرها وقال في اول الانعام
الحمد لله الذي خلق السموات والارض وقال في هذه السورة حكاية
عن الخليل عليه السلام وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض
وقال في الاعراف ان ربكم الذي خلق السموات والارض وقال في
اول النحل خلق السموات والارض بالحق وقال في اول السبا
الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الارض وقال في سورة الملايكة
الحمد لله فاطر السموات وفي القران من هذا الجنس ايات كثيرة فاقول
هذا البحث لا يتلخص الا بذكر مسايل المسلة الاولى في تفسير لفظ الخلق
بحسب اللغة فنقول المشهور في اللغة ان الخلق عبارة عن التقدير واحتجوا
عليه بالقران والشعر والاستعمال اما القران فايات احدها قوله
احسن الخالقين اى المقدرين الثانية قوله لعيسى واذ تخلق من الطين
كهيئة الطير اى تقدر الثالثة ان يسمى الكذب خلقا واختلاقا
يقال هذا حديث مخلوق ومختلق اى كذب لا اصل له قال تعالى
وتخلقون افكا اى يقدرون كذبا وقال حكاية عن الكفار ان هذا
الا خلق الاولين وان هذا الا اختلاق اى كذب والسبب في تسمية الكذب
بالخلق لان الكاذب يضمر ذلك الكذب في ذهنه ويقدره في خاطره
الرابعة قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل ادم خلقه من تراب
ثم قال له كن فيكون قدم التخليق على التكوين فدل على ان التخليق ليس
عبارة عن التكوين لان الشي لا يتقدم على نفسه بل التخليق عبارة
عن التقدير وهو متقدم على التكوين واما الشعر فقول زهير

ولانت تفري ما خلقت وبعض القوم يخلق ثم لا يفري وقال اخر
ولا يقط بايدي الخالقين ولا ايدي الخوالق الا جيد الادم واما
الاستعمال فيقال خلق النعل اذا قدره وسواه بالقياس ومنه
قول العرب للمقدار المعين من الخلق الخلايق ويقولون هو خليق
بكذا اى جدير به اى هذا الشي على قدر استحقاقه والصخرة الخلقاء
الملساء لان الملاسة عبارة من صيرورة جميع اجزاء الشي بقدر
واحد ومنه اخلق الثوب اذا بلى وصار املس واستوى جميع اجزائه
فثبت بهذه الوجوه ان الخلق عبارة عن التقدير وهذا الذي قلنا
هو قول جمهور المعتزلة ثم القايلون بهذا القول اختلفوا فقال
ابو عبد الله البصري منهم اطلاق اسم الخالق على الله تعالى محال في
الحقيقة لان التقدير عبارة عن الفكر والظن والحسبان وذلك
في حق الله محال قال تلميذه القاضي عبد الجبار بن احمد التقدير
عبارة عن العلم بعواقب الشي وهذا المعنى حاصل في حق العبد
وفي حق الله اما في حق العبد فانه قد يحصل له هذا العلم بناء على
الامارات اللايحة الواضحة وبسبب الفكر والروية اما في حق الله
فلا شك في حصوله واذا كان الامر كذلك كان اطلاق لفظ الخالق
على الله وعلى العباد على سبيل الحقيقة واما اصحابنا من اهل
السنة والجماعة فقد قالوا الخلق حقيقة في الايجاد والابداع
والاختراع والذي يدل على ذلك وجوه الاولى قوله تعالى في اول
سورة الفرقان وخلق كل شيء فقدره تقديرا ولو كان الخلق
عبارة عن التقدير لصار تقديرا الاية وقدر كل شيء فقدره تقديرا

ومعلوم انه تكرير من غير فايدة اما اذا حملنا الخلق على الايجاد
لم يحصل التكرير وانتظم الكلام الحجة الثانية قوله انا كل شيء
خلقناه بقدر فلو كان الخلق هو التقدير لكان قوله خلقنا بقدر
تكريرا بغير فايدة الحجة الثالثة اجماع السلف من الامة على انه
لا خالق الا الله وايضا قوله هو الله الخالق البارئ المصور تقتضي
ان لا تحصل هذه الصفات لا لله سبحانه كما اذا قلت زيد هو العالم
فانه يقتضي حصر هذا الوصف فاذا ثبت انه لا خالق الا الله وثبت
ان غير الله مصورة ومقدرة علمنا ان اصل الخلق ليس عبارة عن
التقدير فاما الجواب عن الوجوه التي تمسكوا بها فنقول الوجوه
التي ذكرتم تدل على استعمال لفظ الخلق في معنى التقدير وما ذكرنا
يدل في غير معنى التقدير بل في معنى الايجاد والابداع فنقول
لا بد من جعله حقيقة في احدهما مجازا في الاخر فنقول من فرض
شيئا وقدره مع ان ذلك الشيء معدوم فكانه يريد ان يجريه مجرى
الموجود فكان هذا شبيها بالايجاد والابداع ولاجل المشابهة
اطلق لفظ الخلق على التقدير المسئلة الثانية اختلفوا في ان
الخلق نفس المخلوق او غيره قال جمع من المتكلمين الخلق غير المخلوق
ويدل عليه وجوه الحجة الاولى اجمعت الامة على انه سبحانه خالق
والخالق من كان موصوفا بالخلق فالله سبحانه موصوف بالخلق
وغير موصوف بالمخلوق باتفاق العقلاء فعلمنا ان الخلق غير المخلوق
الحجة الثانية اذا خطر ببال احد ان هذا الشيء يمكن ان يوجد ويمكن
ان يبقى على العدم قضى العقل بانه لا يمكن دخوله في الوجود الا بايجاد موجد

وتخليق خالق مختار فقد علمنا وجود المخلوق بالتخليق وحصول
المكون بالتكوين والايجاد فلو كان الخلق والايجاد والتكوين
عبارات عن وجود المخلوق لكان قولنا المخلوق انما وجد لان
الخالق خلقه عايدا الى ان الموجود انما وجد وحدث لذاته ولانه
مخلوق وذلك يوجب استغناه عن الخالق ووقوعه بذاته وكل ذلك
محال الحجة الثالثة انا قد نعقل وجود هذا المخلوق وذاته
ونعقل وجود ذلك الخلق وذاته مع الشك في كون الشيء
خالقا لهذا الشيء وكون هذا الشيء مخلوقا لذلك الشيء والمشكوك
فيه مغاير للمعلوم وكون هذا الشيء خالقا لذلك الشيء لا بد
وان يكون امرا زايدا على ذات الخالق وذات المخلوق وهذا يفيد
القطع بان الخلق غير المخلوق وقال جمهور المتكلمين الخلق يمتنع
ان يكون مغايرا للمخلوق ويدل عليه وجوه الحجة الاولى ان الخلق
ان كان قديما لزم من قدمه قدم المخلوق وان كان حادثا افتقر
الى خلق آخر ولزم التسلسل الحجة الثانية ان الخلق ان كان محدثا
افتقر الى خلق آخر وان كان قديما كان من لوازم ذات الباري سبحانه
فلا يكون ثبوته واقعا بقدرة الباري واختياره ثم ان
الخلق مستلزم لوجود المخلوق لانه لا يتصور في العقل حصول
الخلق مع انه لا يترتب عليه وجود المخلوق اصلا واذا ثبت هذا
فنقول ذاته تعالى مستلزمة للخلق والخلق مستلزم للمخلوق
ومستلزم المستلزم مستلزم فذات الله تعالى مستلزمة لوجود
المخلوق فلا يكون وقوع المخلوق باختيار الله ومشيته بل يكون

ذاته تعالى موجبة لوقوع المخلوقات وحينئذ تكون ذاته موجبة
بالذات لا فاعلة بالاختيار وهو باطل والحجة الثالثة ان المراد
من القدرة الصفة الموثرة والمراد من الارادة الصفة المرجحة
فاذا حصل مجموع الارادة والقدرة فقد حصل تمام الموثر واما
وقوع المخلوق وهو الاثر فيمتنع ان يحصل بين موثر المستقل التام
وبين الاثر واسطة فهاهنا مجموع الارادة والقدرة وهاهنا
الاثر الحاصل بينهما واذا كان الامر كذلك بطل القول بان الخلق
صفة زايدة على القدرة والارادة وهو المطلوب الحجة الرابعة
قوله تعالى ان في خلق السموات والارض الى قوله لايات لاولى
الالباب والذى يمكن جعله ايات ودلايل على الله سبحانه هو هذه
المخلوقات لا الصفة القايمة بذات الله تعالى فعلمنا ان المراد
من قوله ان في خلق السموات والارض هو هذه المخلوقات وكيفية
تقدرها بالصفة المخصوصة والافعال المخصوصة المسئلة
الثالثة اعلم ان الاستدلال بالسموات على وجود الصانع يقع على
وجوه الاول الاستدلال بمقادير هذه الافلاك فانها مع اشتراكها
في الطبيعة الفلكية اختص كل واحد منها بثخن معين وضخامة
معينة مع انه لا يمتنع في العقل وقوعه على ازيد من ذلك المقدار
او انقص منه بذرة فلما اختص كل واحد منها بمقداره الخاص
مع ان المقادير باسرها على السوية قضى العقل بافتقار هذا
المقدار المعين الى مخصص ومرجح وذلك هو الله سبحانه واعلم
ان الثاني الوجوه بقوله تعالى ان في خلق السموات والارض هذا الوجه

لانا ذكرنا ان اطلاق لفظ الخلق على المقدار اطلاق مشهور
متعارف واعلم انا لو ساعدنا على ان لفظ الخلق في اللغة عبارة
عن التقدير لكنا نقول انما صار لفظ الخلق مخصوصا بفعل الله
لان افعاله تعالى واقعة على وفق علمه ومشيته من غير زيادة ولا
نقصان فلما كان هذا المعنى لا يحصل في غير فعل الله لاجرم لا يصح
استعمال لفظ الخلق الا في فعل الله تعالى النوع الثاني من الاستدلال
كون بعض الافلاك اعلى وبعضها اسفل وهذا في الجملة معلوم
الا ان اهل الهيئة قالوا اقرب الكواكب الينا القمر ثم عطارد ثم الزهرة
ثم الشمس ثم المريخ ثم المشترى ثم زحل ثم الكواكب الثابتة وذكروا
في معرفة هذا الترتيب ثلثة اوجه الاول السير وذلك لان الكوكب
الاسفل اذا مر بين ابصارنا وبين الكوكب الاعلى فانهما يصيران
مثل كوكب واحد في الروية ويتميز الساتر عن المستور بلونه الغالب
عليه كصفرة عطارد وبياض الزهرة وحمرة المريخ ودرية المشترى
وكمودة زحل ثم ان القدماء وجدوا القمر يكسف الكواكب الثابتة
وكثيرا من الثوابت التي في طرفيه في ممر البروج وكوكب عطارد يكسف
الزهرة والزهرة يكسف المريخ والمريخ يكسف المشترى والمشترى
يكسف زحل وزحل يكسف الكواكب الثابتة التي تكون في ممره
فعرفوا هذا الترتيب بهذا الطريق الا انه بقي الاشكال من وجوه
الاول ان الشمس محتجب في نورها ما هو اعلى منها وما هو اسفل منها
وحينئذ لا يمكن ان يعلم بهذا الطريق موضع الشمس والثاني هب
ان هذه السيارات يكسف الثوابت التي في ممرها لكنها لا يكسف

الثوابت التي لا تكون في جانبي القطبين فلم لا يجوز وجود كرة اخرى
تحت كرة القمر تكون هذه الثوابت مركوزة فيها وتكون حركة هذه الكرة
مشابهة لحركة كرة الثوابت وعلى هذا الطريق لا يختلف وضاع
الثوابت البتة فبهذه الاعتراضات ظهر ضعف عقولهم في معرفة
هذا الترتيب الا ان وجه الاستدلال بها على الصانع المختار
لا يختلف على جميع الاحتمالات وذلك لان كل فلك فانه يماس بمحدبه
فلكا اخر فوقه وبمقعره فلكا اخر تحته وذلك الفلك متشابه الاجزاء
متشابه الجوانب فكلما يصح على احد جانبيه وجب ان يصح على الجانب
الاخر منه فالفلك الفوقاني الذي لقبه بمحدبه يصح ان يلاقيه
بمقعره والفلك التحتاني الذي لقبه بمقعره صح يلاقيه بمحدبه ومتى
كان الامر كذلك ثبت انه يصح ان يحصل الفلك الاعلى في الاسفل والفلك
الاسفل في الاعلى ومتى كان كل هذه الاحتمالات جائزة امتنع اختصاص
كل واحد من الافلاك بحيزه الذي هو فيه وبموضعه الذي هو فيه
الا بتخصيص مخصص وتقدير مقدر وتكوين قادر عليم حكيم وهو الله
سبحانه النوع الثالث من الاستدلال باحوال الافلاك ان كل كوكب
حصل في فلك فانه حصل في نقرة معينة وحصلت في جانب معين من ذلك
الفلك ثم ان القوم اتفقوا على ان الفلك بسيط غير مركب والجسم البسيط
هو الذي يكون له طبيعة واحدة متشابهة فكما امكن حصول تلك النقرة
في ذلك الجانب من الفلك امكن حصولها في ساير جوانب ذلك الفلك
وكما امكن حصول الاتصال في ساير جوانب الفلك امكن حصوله
في ذلك الموضع الذي حصلت النقرة فيه واذا ثبت هذا ظهر ان الاجتماع

والافتراق

والافتراق والاتصال والانفصال جايز على جميع اجزاء الفلك
كل واحد منهما بدلا عن الآخر واذا كان الامر كذلك كان حصول النقرة
في احد جوانب الفلك وحصول الاتصال في ساير جوانب ذلك الفلك
امرا جايزا ولا يمكن حصوله الا بمرجح ومخصص ومدبر قادر مختار
وذلك هو المطلوب النوع الرابع من الاستدلال باحوال الافلاك
هو ان كل كرة من كرات الافلاك فانها تدور على قطبين معينين واذا
كان الفلك متشابه الاجزاء كان جميع نقطة المفروضة عليها
متساوية وجميع الدواير المفترضة عليها ايضا متساوية فاختصاص
بقطبين معينين بالقطب دون ساير النقط مع استوايها في جميع
الماهية والحقيقة يكون امرا جايزا فيقضي العقل الى افتقاره الى
المرجح المريد القادر المختار النوع الخامس من الاستدلالات
الاجرام الفلكية مع تشابهها في الجسمية وقبول الاعراض اختص
كل واحد منها بنوع معين من الحركة من البطوء والسرعة فانظر الى الفلك
الاعظم مع نهاية اتساعه وعظمته يدور في كل يوم وليلة
دورة تامة والفلك الثامن الذي هو اصغر منه لا يدور دورة
تامة الا في ستة وثلثين الف سنة على قول القدماء وفي اربعة
وفي اربعة وعشرين الف سنة على قول المتاخرين ثم الفلك السابع
الذي تحته يدور في ثلثين سنة دورة تامة فاختصاص الفلك
الاعظم بتلك السرعة الشديدة والفلك الثامن بذلك البطوء
العظيم امر على خلاف العقل فانه كان ينبغي ان يكون الاوسع
ابطا حركة والاصغر اسرع حركة فوقوعه على هذا الوجه يدل على ان

بسبب تقدير العزيز العليم القادر الحكيم سبحانه وتعالى النوع
السادس من الاستدلال ان الفلك الذي يسمونه بالممثل اذا
انفصل عنه الفلك الخارج المركز بقي على مذهبهم منه متممان احدهما
من الخارج والآخر من الداخل وانه جرم متشابه الطبيعة ثم اخص
احد جوانب هذا الجسم بغاية الثخن والاخر بغاية الدقة واذا كان
كذلك ان يكون ذلك الثخن والدقة بالنسبة الى طبيعة ذلك الجسم
على السوية فاختصاص احد الجانبين بالدقة والاخر بالثخن يدل
على القادر المختار النوع السابع من الاستدلال انها مختلفة
في جهات الحركات فبعضها من المشرق وبعضها من المغرب وبعضها
شمالية وبعضها جنوبية مع ان جميع الجهات بالنسبة اليها على
السوية فاختصاص كل واحد منها بجهته المعينة لا بد وان يكون
بتخصيص القادر المختار واليه الاشارة بقوله وكل في فلك يسبحون
النوع الثامن من الاستدلال انا نشاهد هذه الافلاك متحركة فاما
ان يقال انها كانت متحركة في الازل وما كانت متحركة في الازل وانها
كانت موجودة في الازل وما كانت موجودة في الازل وان كانت
موجودة في الازل الا انها ما كانت متحركة في الازل والقسم الاول
محال لان ماهية الحركة عبارة عن الانتقال من حالة الى حالة اخرى
فهذا الانتقال لا محالة يكون مسبوقا بالمنتقل عنه فحقيقة الحركة
يقتضي بماهيتها ان يكون مسبوقة بالغير وحقيقة الازل ينافي
المسبوقية بالغير فالجمع بين الحركة والازل محال ولما بطل القسم
الاول ثبت انه لا حركة في الازل سواء قلنا ذوات الافلاك كانت

موجودة في الازل ساكنة او قلنا بانها كانت معدومة
في الازل وعلى القولين لا بد من الاعتراف بالقادر المختار الحكيم
لانا ان قلنا انها كانت موجودة وكانت ساكنة ثم تحركت فيما
لا يزال فلا بد من قادر حكيم مختار حركها بعد ان كانت ساكنا وان
قلنا بانها كانت معدومة في الازل فلا بد ايضا من قادر حكيم
مختار يوجدها فيما لا يزال بعد ان كان معدوما في الازل فعلى كلا
القسمين لا بد من الاعتراف باثبات اله قادر مختار وهذا الماخذ
احسن الماخذ واقواها واجلاها النوع التاسع ان حركات
هذه الافلاك اما ان يكون من لوازم جسميتها او لا يكون كذلك
والاول باطل لان كل ما كان من لوازم الشيء امتنع زواله مع بقاء
ذلك الشيء لامتناع انفكاك الملزوم عن اللازم لكنا نرى ان جسمية
كل واحد من الافلاك قد ينفك عن كل واحد من الاجزاء المفترضة
في الحركات فاذا كل واحد من اجزاء تلك الحركات ليس من لوازم جسميته
وليس ايضا من لوازم صورته المعينة وطبيعته المعينة والا عاد
المحال المذكور لان تلك الطبيعة والصورة باقية في كل واحد
من اجزاء تلك الحركة غير باق فاذا لكل واحد من الاجزاء المفترضة
في تلك الحركات مدبر ومقدر ومحرك الافلاك والسيارات
والثوابت هو الله سبحانه النوع العاشر ان هذا الترتيب العجيب
في تركيب هذه الافلاك وايتلاف اجزائها واتساق الى نظم
موافق لمصلحة هذا العالم لا يتاتى بالعبث والاتفاق ولا يتاتى
من الطبيعة الجاهلة بل لصرايح الاذهان وبداية الافكار ناطقة

بان ذلك لا يتاتى الا من القادر الحكيم انما انه لا يعقل اسنادها
الى العبث والجزاف فلان من جوز في بناء رفيع وقصر مشيد ان التراب
والماء انضم احدهما الى الاخر ثم تولدت منها اللبنات ثم تركيب
تلك اللبنات وتولد من تركيبها قصر مشيد وبناء عالى وكل ذلك
حصل من غير تدبير مدبر وتقدير مقدر فانه يقضى على مجوز
هذا بالجنون ونحن نعلم ان تركيب هذه الافلاك وما فيها من
الكواكب النيرات والحركات المختلفة وما حصل لها من البقاء
والنقاء والصفاء ليس اقل من ذلك البناء فثبت ان القول بوقوع
هذه السموات والكواكب على وجه العبث والجزاف محال ثم عند هذا
لا يخلو اما ان يقال انها يتحرك بانفسها على سبيل الطبيعة
او على سبيل الاختيار او لاجل ان محركا يحركها والاول باطل لان
كل جسم متحرك بالطبع عن شئ فانه لا يتحرك بعين تلك الطبيعة
الى عين ذلك الشئ لان المهروب بالطبع لا يكون مطلوبا بالطبع والحركة
المستديرة وكل حركة وقعت هربا عن نقطته فان عين ذلك الهرب
يكون عين طلب تلك النقطة فعلمنا ان حركات الافلاك ليست
طبيعية وهي ايضا ليست ارادية وذلك لان حركاتها اما ان يكون
لغرض ممكن الحصول او ليس كذلك فان كان الاول لزم وقوف هذه
الحركات وانتهاؤها الى السكون لان كل حركة كانت لطلب مقصود
فعند حصول ذلك المقصود وجب انقطاع تلك الحركة وان كانت
تلك الحركة لاجل غرض غير ممكن الحصول كانت تلك الحركة عبثا
والعبث لا يكون دائما ولا اكثريا ولما بطل القسمان علمنا ان حركاتها

ليست

ليست الا لاجل ان المدبر المقدر القاهر القادر العالم بالاسرار
والخفيات المطلع على الكليات والجزئيات يحركها على وفق مشيته
ومقتضى قدرته وليس لنا الا الايمان بها على سبيل الاجمال على
ما قال ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت
هذا باطلا النوع الحادى عشر من الاستدلال باحوال السموات انا
نراها مختلفة في الالوان مثل محو القمر وصفرة عطارد وبياض
الزهرة وضوء الشمس وحمرة المريخ ودرية المشترى وكمودة زحل
ولمعان الثوابت وايضا فكل واحد من الكواكب الثابتة يختص
بعظم خاص وضوء خاص وجانب من الفلك خاص وايضا فهى
عند المنجمين مختلفة بالسعادة والنحوسة والذكورة والانوثة
والنهارية والليلية فترى زحل الذى هو ارفع السيارات نحسا
والمشترى هو ادون منه سعدا والشمس وهو سلطان الكواكب
سعدا وفي بعض الاتصالات نحسا ونراها مختلفة في البيوت
والحدود والوجوه والمثلثات والرجوع والاستقامة والصعود
والهبوط مع كونها باسرها مشتركة في كونها اجساما مصونة
عن الكون والفساد والتغير والانحلال قضى صريح العقل بانه
بافتقارها الى مدبر يدبرها وقادر يخصص كل واحد بصفته
المعينة وخاصته المعينة النوع الثانى عشر ان هذه الكواكب
لو كان منها تاثير في هذا العالم فهى اما ان تكون متدافعة او متعاونة
او لا متدافعة ولا معاونة فان كانت متدافعة فاما ان يكون
بعضها اقوى من البعض كان القوى غالبا والضعيف يكون مغلوبا

ابدا فوجب ان يستمر احوال العالم على طبيعة ذلك الكواكب
ومعلوم انه ليس الامر كذلك فان قيل لم لا يجوز ان يختلف
اثار الكواكب بسبب اختلاف طبايع البروج قلنا لو كان طبايع
البروج مختلفة لكان الفلك جسما مركبا لا بسيطا وقد ثبت
عندهم فساد ذلك واما ان كانت متساوية فى القوة مع انها
متدافعة فحينئذ لا يحصل الفعل عن شئ منها اصلا فتكون
الافعال الظاهرة فى هذا العالم مستندة الى شئ غيرها فيكون
مدبر هذا العالم ذلك الغير لا هذه الكواكب اما ان قيل هذه الكواكب
متعاونة لزم ايضا بقاء احوال هذا العالم على نسق واحد من غير
تغير اصلا واما ان قيل انها تارة متعاونة وتارة متدافعة
كان انتقالها من الحب الى البغض ومن المعاونة الى اللامعاونة
تغيرا يحصل لها فى صفاتها ولا بد لذلك التغير من مغير ومدبر
فيكون الكواكب باسرها مفتقرة فى حصول صفاتها وحدوث
افعالها واحوالها الى مدبر قاهر ذلك هو الله سبحانه النوع الثالث عشر
ان هذه السموات والكواكب اجسام وكل جسم مركب من الاجزاء لان
كل جسم فهو قابل للقسمة الوهمية كانت ذاته مركبة من تلك الاجزاء
التى كل واحد منها متميز عن الاخر فى الاشارة الحسية وكل ما كان
مركبا فانه مفتقر فى تحققه الى كل واحد من اجزائه وكل واحد من اجزاء
الشئ غيره فكل مركب فهو مفتقر الى غيره وكل مفتقر الى غيره ممكن
لذاته وكل ممكن لذاته فهو محتاج الى الموثر وكل ما يحتاج فى وجوده
الى الموثر فاحتياجه اليه اما ان يكون حال بقايه او حال حدوثه

اوحال

اوحال عدمه ويمتنع ان يحتاج الى الموجد حال بقايه لان ذلك
يقتضى ايجاد الموجود وتحصيل الحاصل وهو محال فلم يبق الا
ان يكون الحاجة اما زمان الحدوث او زمان العدم وعلى كلا
التقديرين كان كل محتاج الى الموثر محدثا فثبت ان هذه الكواكب
والسموات باسرها ممكنة الوجود لذواتها محتاجة فى وجودها
الى الموثر محدثة مسبوقة بالعدم النوع الرابع عشر فى الاستدلال
بسرعة حركة هذه الكواكب مع غاية عظمها وذلك لان اصغر كوكب
يرى هو مثل الارض ثمانى مرات واكثرها ينتهى الى قريب من مائة
وعشرين مرة مثل الارض واما الشمس فهى مثل الارض مائة واربعة
وستين مرة ثم انك ترى الكواكب تطلع فى لحظة يسيرة وذلك
لان الزمان من طلوع اول جزء من الكواكب الى تمامه يسير وذلك
الكواكب هو مثل الارض مائة وعشرين مرة فقد دار الفلك فى
تلك اللحظة اللطيفة مثل الارض مائة وعشرين مرة وانظر كيف
عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته اذ قال له النبى صلى الله
عليه وسلم هل زالت الشمس فقال لا نعم فقال الرسول عليه السلام
كيف تقول لا نعم فقال من حيث قلت لا الى ان قلت نعم سارت الشمس
مسيرة خمسماية عام فانظر الى عظم جسمها ثم الى خفة حركتها ثم انتقل
منها الى قدرة فاطرها وباريها كيف خلقها على عظم جسمها ثم حركها
هذه الحركة الخفيفة السريعة ثم امسكها فى الهواء بغير عمد ترونها
النوع الخامس عشر فى الاستدلال بهذه الاجسام ان الاجسام
متساوية فى الجسمية بدليل انه يصح تقسيم الجسم الى الفلكى والى

العنصرى والى الكثيف والى اللطيف والى الحار والى البارد
والى الرطب والى اليابس ومورد التقسيم مشترك بين كل هذه
الاجسام والامور المتماثلة فى تمام الماهية تكون متساوية
فى قبول الصفات والاعراض فاذا ثبت ان كل ما صح على جسم فهو
صحيح على ساير الاجسام فاذا اختصاص كل جسم بما هو مخصص
فى المقدار والوضع والشكل والطبع لا بد وان تكون من الجايزات
وذلك يقضى عليها بالافتقار الى الصانع القديم الحكيم المختار
جل جلاله وتقدست اسماؤه ولا اله غيره فهذه هى الوجوه التى
وصلت عقولنا الضعيفة اليها وهى باسرها داخلة تحت قوله
تعالى ان فى خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار
لايات لاولى الالباب **الفصل الرابع** فى تقرير صفات
السموات والاستدلال بكل واحد من تلك الصفات على وجود
الاله القادر الحكيم الصفة الاولى بقاؤها فى جو الهواء معلقة
قال الله سبحانه وتعالى ان الله يمسك السموات والارض ان تزولا
ولئن زالتا ان امسكهما من احد من بعده الاية اخبر الله فى هذه الاية
انه سبحانه هو الذى يمسك السموات والارض عن الزوال والانتقال
فيحتاج اولا الى بيان ان السموات والارض غير زايلة عن مواضعها
ومقارها ثم الى بيان ان ذلك الممسك هو الله سبحانه فلنبين ذلك
فى الارض ثم فى السماء اما الارض فمن الناس من قال انها هاوية
بطبعها ابدا فى الخلاء الذى لا نهاية له من جهة السفل ومنهم من قال
الفلك واقف والارض هى التى تتحرك كل يوم وليلة دورة تامة

وسبب

وسبب طلوع الشمس والقمر والكواكب هو استدارة الارض والذى
يدل على انها غير هابطة انها لو كانت كذلك لكان من هبط من موضع
عال الى الارض وجب ان لا يصل اليها لان كل شيئين ينزلان من الاعلى
الى الاسفل واحدهما اخف من الاخر فان الاخف لا يدرك الاثقل
والدليل على انها غير مستديرة انها لو كانت كذلك لكانت حركتها فى
غاية السرعة وكان تموج الهواء المحيط بها تموجا شديدا وكان يجب
ان يكون تموج ذلك الهواء مانعا للانسان من ان يتحرك الى خلاف
تلك الجهة ومعلوم ان ذلك باطل ولما بطل هذان القسمان ثبت ان
الارض واقفة اما السموات فهى ايضا مستقرة فى احيازها وغير
خارجة منها والدليل عليه انها لو خرجت عن موضعها فاما ان
تنزل او تصعد فان نزلت مع ان الارض واقفة صار السماء اقرب
الينا وكان يجب ان نرى كل يوم تلك الكواكب اعظم وان نرى من السماء
اقل ما رايناه بالامس وان قلنا بان السماء تصعد لزم ضد ما
ذكرناه ولما كان كل ذلك باطلا علمنا ان السموات والارضين مستقرة
فى مواضعها مستمرة فى احيازها واذا ثبت هذا فنقول ممسكها
هو الله سبحانه واما الارض فنقول للناس فى سكونها سبعة
اقوال الاول ان الارض لا نهاية لها من جهة السفل واذا كان
كذلك لم يكن لها مهبط فلا جرم لم ينزل وهذا فاسد من وجهين
الاول انه ثبت بالدليل ان الاجسام متناهية والثانى ان الارض
طبيعتها واحدة فاختصاص احد وجهيها بالتناهى والوجه الاخر
بعدم التناهى لا بد وان يكون لتخصيص مخصص وتقدير قادر القول

مستقرة

الثاني قول من سلم ان الارض متناهية من جميع الجوانب والقايلون
بهذا القول ذكروا في سبب سكون الارض وجوهًا الاول قالوا الارض
كنصف كرة وحدبتها هي الجانب الذي يلينا واما سطحها الاسفل
فهو سطح مستقيم موضوع على الماء والهواء ومن شان الثقل المنبسط
لا يغوص في الماء بل يبقى واقفا عليه وهذا باطل من وجهين الاول
ان البحث يعود في علة وقوف الماء والهواء تحت الارض والثاني
لم صار احد وجهي الارض محدبا والثاني مستقيما مع تساوي الماهية
بل لا يعقل هذا الا بسبب الفاعل المختار القول الثالث الذين قالوا
ان سبب وقوف الارض جذب الفلك لها من كل الجوانب فبقيت في الوسط
وهو ايضا باطل من وجهين الاول ان المدرة التي على وجه الارض
اقرب الى هذا الجانب من الفلك فوجب ان ينجذب الى هذا الجانب من الفلك
الثاني ان المدرة المقذوفة الى فوق وجب ان ينجذب الى الفلك وان
لا يعود القول الرابع سبب وقوف الارض دفع الفلك لها من كل الجوانب
كما اذا جعل كف من التراب في قنينه ثم ادبرت القنينه على قطبها
ادارة سريعة وقف التراب في وسط القاروره يتساوي الدفع
من كل الجوانب وهذا باطل من خمسة وجوه الاول لو بلغ قوة الدفع
الى هذا الحد فلم لا يحس بها الواحد منا الثاني ما بال هذا الدفع
لم يجعل حركة السحب والرياح الى جهة بعينها الثالث ما بال هذا
هذا الدفع لم يجعل انتقالنا الى الجهة الموافقة بحركة الفلك اسهل
وضد تلك الحركة اصعب الرابع يجب ان يكون الثقيل كلما كان اعظم
ان يكون حركته ابطا لان اندفاع المدفوع اعظم من اندفاع فاسر

الخامس يجب ان يكون حركة الثقيل النازل عند الابتداء اسرع منها عند
الانتهاء لانها عند الابتداء ابعد من الفلك وابعد من تاثير القول
الخامس الارض يطلب الوسط من الفلك بالطبع وهو قول ارسطاطاليس
وهو ضعيف لان الاجسام متساوية فاختصاص بعضها بالصفة
التي لاجلها يطلب وسط العالم انما يكون امرا جايزا فيحتاج الى
المخصص الفاعل المختار القول السادس الفلك كرة فاذا استدار
على ما حشوه عرض لما هو في غاية القرب من الفلك ان يسخن فيصير
نارا ولما هو في غاية البعد من الفلك ان يبقى على البرد والكثافة
واليبس فيكون ارضا ثم الذي يقرب من النار يكون لا محالة الطف
مما يقرب من الارض فصار الملاصق للنار هواء والملاصق للارض
ماء فلهذا السبب حصلت العناصر على هذا الترتيب وهذا ايضا
ضعيف لان الكلام يعود في انه لم حصل بعض الاجسام ملاصقًا
للفلك وبعضها في غاية البعد عن الفلك حتى صار القريب نارا والبعيد
ارضًا القول السابع قال بعض المعتزلة النصف الاسفل من الارض
فيه اعتمادات صاعدة والنصف الاعلى فيه اعتمادات هابطة
فحصل التدافع من الاعتمادين المتضادين فلزم الوقوف وهذا
ايضا ضعيف لانا نقول ولم اختص ذلك الوجه بالاعتماد
النازل ولا يمكن ان يذكر فيه سبب الا الفاعل المختار ولما بطلت
هذه الاقاويل لم يبق الا ان يقال بقاء الارض والسموات في مواضعها
ومقارها واحيازها ليس الا بالاله سبحانه فثبت ان ممسك
السموات والارض هو الله سبحانه وتقرير الكلام على الوجه البرهاني

يعود الى ما تقدم من ان الاجسام متساوية فى الجسمية فاختصاص
كل واحد منها بحيز مخصوص لا يمكن ان يكون لذواتها ولا شئ من
لوازم ذواتها والا لزم التشابه بل لابد ان يكون امرا جايزا فيكون
بتخصيص المخصص وهو القادر المختار فصار قوله تعالى ان الله
يمسك السموات والارض ان تزولا مؤكدا بهذه البراهين العقلية
القطعية واذا عرفت هذا البرهان فلنرجع الى البيان الاقناعى
الذى يصل اليه كل فهم فنقول لا شك ان السماء فوق الهواء وهو
محسوس ولا شك ان الارض فوق الماء بدليل انه لا يحفر موضعا
الا خرج عنه الماء والطف الاجسام المشاهدة هو الهواء وبعده
الماء ثم ان الارض مع ما فيها من الاجسام الثقيلة كالبحار والجبال
موضوعة على الماء ولا شك ان كل واحد من النجوم اعظم من الارض
مع ما فيها واثقل منها بكثير فاذا شاهدنا ان اصغر جزء من الارض
استقر على وجه الماء علمنا ان كل الارض يستقر على وجه الماء وعلمنا
ان ذلك لا يكون الا بامساك الله سبحانه ثم ان الهواء الطف من الماء
ولا يستقر فيه اصغر الاجزاء الثقيلة ثم ان السموات والكواكب
مع ما فيها من الثقل العظيمة استقرت فى الهواء علمنا ان ذلك
لا يكون الا بامساك الله سبحانه فظهر انه ليس استقرار الارض فى حيزها
ولا استقرار السموات فى مواضعها الا بقدرة قادر عالم وحكمة
حكيم هو اقدر الحاكمين تنزهت عظمته عن علايق العقول البشرية
وتقدست جلاله وكبريائه عن حوادث الافكار الانسانية بقى
ههنا سؤالات السؤال الاول ما معنى قوله ولئن زالتا ان امسكهما

من

من احد من بعد الله وهو كقوله ان انت الا نذير ما انت الا نذير
السؤال الثانى ما الفائدة فى قوله ان زالتا وهما لا يزولان الى يوم
القيامة من وجوه الاول عدم الوقوع لا ينافى صدق قولنا لو
وقع كيف يكون كقوله لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا الثانى
المعنى لو زالتا حين امرت بالزوال يوم القيامة فمن ذا الذى يمسكها
عن هذا الزوال الثالث لو زالتا بسبب كفركم وقولكم اتخذ
الرحمن ولدا على ما قال تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا السؤال الثالث
ما الحكمة فى ختم هذه الاية انه كان حليما غفورا والجواب يحتمل
ان يكون تقدير الاية وان زالتا وحل العذاب باستعجالكم
فمن المانع لولا ان الله حليم غفور الصفة الثانية للسموات
الرفعة قال الله تعالى الذى رفع السموات بغير عمد ترونها
وتقريره هذا المعنى ان جميع العالمين عاجزون عن رفع شئ ثقيل
فى الهواء الا باحد طريقين اما بان يكون تحته شئ يستقر عليه
او بان يكون فوقه شئ معلق هو عليه ولا شك ان العالم متناه
من فوقه ومن تحته فليس لجميع الاجسام جسم حتى يستقر هو عليه
فاذا عجز كل الخلايق عن رفع شئ ثقيل الا باحد هذين الطريقين
وثبت ان كل العالم بما فيه من العرش والكرسى والسموات
والكواكب والبحار والجبال معلقة من غير علاقة فوقها ولا
قرار تحتها لم يكن بد من الاقرار بقادر ممسك اقوى من جميع هذه
الاجسام واقدر منها حتى يمسكها بقدرته ويحفظها بالهيئة

له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين وفي الآية سؤالات
السؤال الاول انه تعالى قال بغير عمد ترونها وهذا يوهم ان هناك
عمدا لا نراها الجواب من وجوه الاول انه لو قال بغير عمد ترونها
لكن خطابك لذلك عمد وهو امساك الله سبحانه كما قال ان الله يمسك
السموات والارض ان تزولا الا ان امساك الله وحفظه عماد
لا يرى فلهذا السبب قال بغير عمد ترونها الثاني قال الحسن وقتادة
معنى الآية الله الذي رفع السموات بغير عمد وانتم ترونه رفعها
بغير عمد الثالث قال في صفة العرش ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية فهنا يحتمل ان يكون للسموات ملائكة يحملونها فاذا كان هذا
محتملا لا جرم ما نفى العمد مطلقا بل نفى عمدا يشاهد ويرى الا انا
نسبنا حمل العرش والسموات الى الملائكة فمن الذي يحمل الملائكة
هذا الحمل العظيم الا قدرة الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد
السؤال الثاني الدفع مشعر بانها كانت موضوعة في السفل فنقلها
الله من السفل الى العلو فهذا الامر كذلك والجواب في لفظ الدفع
في هذه الآية قولان احدهما انه عبارة عن الانشاء على صفة الارتفاع
لا انها كانت موضوعة فرفعها نظيرها قوله والارض وضعها
للانام اي خلقها موضوعة للانام لا انها كانت مرفوعة فوضعها
والقول الثاني ان السموات والارض كانتا رتقا شيئا واحدا ففتق
الله بينهما ورفع السموات على ما شرحناه الصفة الثالثة للسموات
قوله سبحانه والسموات مطويات بيمينه ولما آل الامر الى آدم عليه السلام
قال لابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي فالسموات في آخر الامر

تكون في يمين الله سبحانه وآدم عليه السلام في اول الامر كان مخلوقا
بيديه وهذا يشير الى ان ما هو نهاية احوال السموات والارض
فهو بداية حال البشر الصفة الرابعة كون هذه السموات مخلوقة
بالحق لا بالباطل قال سبحانه ربنا ما خلقت هذا باطلا وقال
ايضا وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ذلك ظن
الذين كفروا وقال في حق البشر افحسبتم انما خلقناكم عبثا ثم بين
ان الحكمة في خلق السماء والارض اكبر واعظم من الحكمة في خلق
الناس فقال لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس واعلم انه
ليس المراد من هذه الكبر الكبر في الجثة لان ذلك معلوم لكل احد
بالحس والضرورة بل المراد من ذلك الكبر في الاسرار الالهية والحكم
الربانية التي لا يعرفها احد الا هو ولا يطلع عليها احد الا هو الصفة
الخامسة قوله تعالى أانتم اشد خلقا ام السماء بناها رفع سمكها
فسوّيها واغطش ليلها واخرج ضحيها واعلم انه سبحانه وصف
السماء في هذه الآية بصفات كثيرة احدها شدة الخلق ونظيره قوله
في عم وبنينا فوقكم سبعا شدادا والشداد جمع شديدة يعني محكمة
قوية الخلق لا يؤثر فيها مرور الزمان ولا يحصل فيها فطور ولا
فروج فان قيل فالملائكة كيف ينزلون عن السموات مع شدة خلقها
وكيف يعرجون فيها قلنا كما تنزل الانوار عنها مع شدتها بل نزول
الملائكة اولى لان ذوات الملائكة بالنسبة الى هذه الانوار المحسوسة
تجري مجرى هذه الانوار المحسوسة بالنسبة الى هذه الاجرام وفي لفظ
الآية اشكال قال الكسائي والفراء والزجاج الكلام تم عند قوله

يعني انتم اشد خلقا ام السماء ثم قوله بنيها ابتداء الكلام وعند
غيرهما الوقف على قوله بنيها لانه من صلة السماء والتقدير السماء
التي بنيها فحذف التي ومثل هذا الحذف جايز يقال الرجل جاءك عاقل
اي الرجل الذي جاءك عاقل واذا ثبت ان هذا جايز في اللغة فنقول
الدليل على ان قوله بناها صلة لما قبله انه لو لم يكن صلة لكان
صفة ثم قوله رفع سمكها فسويها صفة ايضا فقد توالت
صفات لا تعلق لاحديهما بالاخرى وكان يجب ادخال العاطف
فيما بينهما كما في قوله تعالى واغطش ليلها فلما لم يكن كذلك علمنا
ان قوله بناها صلة للسماء ثم قوله رفع سمكها ابتداء بذكر الصفة
واعلم ان قوله ام السماء بناها نظير قوله اولم يروا الى السماء فوقهم
كيف بنيناها وقوله في اول سورة البقرة الذي جعل لكم الارض
فراشا فان قيل انما سمي الشيء بناء اذا كان مستقرا على الارض
والسماء قد امسكها الله معلقة في الجو فكيف سماه بناء قلنا هذا
مذكور على سبيل التشبيه وذلك لان اعظم الاجسام احكاما في
البنية والتركيب هو الذي يكون موضوعا على الارض فكانه تعالى
قال هذا الذي امسكه في الهواء اكثر احكاما وشدة مما تبنيه
على الارض ولشدة احكامه سماه بناء واعلم انه سبحانه لما بين
في السماء انه بناها بين بعد ذلك انه تعالى جعل السماء علة للمكان
وعلة للزمان اما ان السماء سبب المكان فهو قوله رفع سمكها
فسويها واعلم ان امتداد الشيء اذا اخذ من علاه الى سفله سمي
عمقا وان اخذ من اسفل الشيء الى علاه سمي سمكا فالمراد برفع سمكها

شدة علوها حتى ذكروا ان ما بين السماء والارض مسيرة خمسماية
عام واما فسويها فقيل المراد به تسوية تاليفها وقيل المراد نفي
التفاوت على ما قال ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت واعلم ان كل
هذه الوجوه يدل على كمال العلم والقدرة لمدبرها وخالقها لان
وقوع التفاوت تارة يكون لجهل المدبر وتارة يكون لعجزه فمن كان
عالما بالكل قادرا على الكل امتنع وقوع التفاوت في مخلوقاته
وبهذا الطريق عرفنا انه صادق في وعده حكيم لا يقع السفه في فعله
لان صدور الكذب والسفه اما للعجز او للجهل والكل محال عليه فامتنع
الكذب في وعده والسفه في فعله واما ان تخليق السموات سبب
لحدوث الزمان فهو المراد من قوله واغطش ليلها واخرج ضحيها واعلم
ان اغطش قد يجيء لازما ومتعديا يقال اغطش الليل اذا صار
مظلما ويجيء ايضا متعديا يقال اغطشه الله اذا جعله مظلما
والغطش الظلمة والاغطش شبه الاعمش وههنا سوالات وهو ان
الليل اسم لزمان الظلمة الحاصلة بسبب غروب الشمس فقوله اغطش
ليلها يرجع معناه الى انه سبحانه جعل المظلم مظلما وهذا الكلام بعيد
الجواب معناه ان الظلمة الحاصلة في ذلك الزمان انما حصلت بتدبير
الله وتقديره واما قوله واخرج ضحيها فالمراد به هو النهار ونظير
هذه الاية قوله والضحى والليل اذا سجى وذلك لان اضوا اوقات
النهار الضحى وذلك ضوء التام بعد ظلمة التامة مما لم يقدر
عليه الا الله واعلم ان في الاية فوايد احدها انه سبحانه قدم
ذكر الظلمة على ذكر النور وهذا يدل على تقدم الظلمة على النور

وهو نظير قوله تعالى وجعل الظلمات والنور والثانية انه اضاف
الليل والنهار الى السماء لانهما انما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها
والغروب والطلوع لا يحصلان الا بسبب حركة الفلك فلهذا السبب
اضاف الليل والنهار الى السماء والفائدة من هذه الآية ان المقصود
منها الاستدلال على وجود الخالق سبحانه والتقدير ان السماء
اشد خلقا من الادمي وقد اقررتم ان خالق السماء هو الله فكيف
انكرتم ان مدبر احوالكم هو الله والفائدة الثالثة اثبات المعاد
ايضا مقصود من هذه الآية وسياق الآية يدل عليه قال فيما قبل
هذه الآية يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة الى قوله انتم اشد
خلقا ام السماء والمعنى انتم انكرتم البعث واستبعدتم اعادة خلقكم
بعد موتكم والاعادة ايسر من الابتداء وابتداء خلقكم ايسر من ابتداء
خلق السماء فلما اقررتم انه تعالى هو الذي خلق السماء فبان تعترفوا
بكونه قادرا على اعادة الخلق والبعث كان اولى الفائدة الرابعة
كانه قيل السماء مع شدة خلقها وعظمها وكذلك الارض بجبالها
وبحارها مطيعة لحكمي وامري فكيف عصيتم في حكمي وامري مع انكم
في غاية الضعف بل نقول انتم والسماء مشتركة في كون كل واحد
منكم حاصلا بايجادي وابداعي وانتم انما فارقتم الارض بالمعرفة
والتمييز والاقرار بحصول الثواب والعقاب فانتم بسبب هذه
المعرفة اولى بالانقياد لطاعتي الفائدة الخامسة اني لما رفعت السماء
من الارض خلقت المكان لان المكان هو الفرجة الحاصلة بين السماء
والارض واليه الاشارة بقوله رفع سمكها فسويها ولما حركت

جرم السموات اظهرت الزمان واليه الاشارة بقوله واغطش
ليلها واخرج ضحيها فالمكان والمكانيات والزمان والزمانيات
ملكي ونظيره قوله قل لمن ما في السموات والارض قل لله وهو اشارة
الى ان المكان والمكانيات ملكه وملكه فهو سبحانه خالق المكان
والمكانيات ومدبر الزمان والزمانيات وذلك يدل على كونه
منزها عن المكان والزمان وعلائق الحدوث والامكان الصفة
السادسة للسموات قوله وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم
عن اياتها معرضون سماه الله تعالى بالسقف المحفوظ وسماه
بالسقف المرفوع قال والبيت المعمور والسقف المرفوع واعلم
ان من تامل في هذا العالم وجده كالبيت الذي عد فيه كل ما يحتاج
اليه فالسماء مرفوعة كالسقف والارض ممدودة كالبساط
والنجوم منضودة كالمصابيح والانسان كمالك البيت المتصرف
فيه وضروب النبات مهياة لمنافعه وضروب الحيوان متصرفة
بتقدير شامل وحكمة بالغة وقدرة غير متناهية ومما يشبه
هذا الوصف انه سبحانه سماها سبعا طباقا وسبعا شدادا الصفة
السابعة للسموات انه تعالى جعلها قبلة الدعاء قال تعالى قد نرى
تقلب وجهك في السماء فقوله قد نرى اشارة الى تضرعه حال
اشتغاله بالدعاء والمجسمة تمسكوا على انه سبحانه في جهة فوق
وهذا باطل على ما سيجيء برهانه بل السبب لذلك وجوه الاول
انه تعالى جعل احوال الافلاك اسبابا لمصالح احوال هذا العالم
قال الله تعالى حكاية عن فرعون لعلي ابلغ الاسباب اسباب

السموات وقال ايضا فليمدد بسبب الى السماء ومن الدعوات
المشهورة يا مسبب الاسباب ومما يوكد ذلك قوله تعالى في صفة
الملائكة فالمدبرات امرا وفي اية اخرى فالمقسمات امرا ولا شك
ان مسكن الملائكة هو السموات فلهذا الوجوه صارت احوال السموات
اسبابا لمصالح هذا العالم والثاني ان الارزاق انما تنزل من السماء
قال تعالى وفي السماء رزقكم وما توعدون الثالث ان الملائكة الذين
ينزلون بالسلام والرحمة من الله انما ينزلون من السموات قال
تعالى تنزل الملائكة والروح فيها باذن ربهم والرابع ان الانوار
انما ينزل من السموات قال تعالى هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر
نورا فلما كان كل مصالح العالم لا يتم الا من السموات لاجرم كانت
الاعين ممدودة اليها والايدي مرفوعة اليها والقلوب متعلقة بها

الفصل الخامس في تفسير قوله فاطر السموات والارض

حكى سبحانه عن ابرهيم انه قال وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض
انت وليي وقال سبحانه الحمد لله فاطر السموات والارض وقال
في حق البشر فطرة الله التي فطر الناس عليها واعلم ان الفاطر هو الذي
يحدث الشيء ابتداء وتحقيقه ان الفطور هو الشق فمن احدث الشيء
ابتداء فهو الذي شق ظلمة العدم واعلم ان فعل الله سبحانه وتكوينه
يغاير فعل غيره من وجوه الاول ان الانسان لا يمكنه ان يفعل الا
في محل مخصوص ومادة معينة فالحداد لا بد له من حديد والصانع
لا بد له من ذهب والحايك لا بد له من غزل والحق سبحانه غني في فعله
عن المادة وذلك لان تلك المادة لما كانت قابلة للاحوال المتغيرة

والحوادث

والحوادث المتعاقبة كانت محدثة فلا بد لها من محدث فلو افتقر
احداث الله وايجاده الى سبق مادة لزم افتقار الى مادة اخرى الى نهاية
وهو محال فلما كان سبحانه هو الفاعل للمراد والموجد لها دل ذلك على ان
فاعليته غنية عن سبق المراد الثاني ان العباد اذا تصرفوا في مادة
فهم لا يتصرفون في ذات تلك المادة فالنجار يتصرف في الخشب
لكن الخشب باق في حال ذلك التصرف والصايغ يتصرف في الذهب
ولكن الذهب باق في تلك الحالة اما الحق سبحانه فانه يتصرف في المواد
يغيرها في انفسها الا ترى ان الله سبحانه يقلب الطين غذاء ثم يقلب
الغذاء نطفة ويقلب النطفة علقة والعلقة مضغة والمضغة
عظاما وايضا يخلق البشر من التراب كما قال ان مثل عيسى عند الله
كمثل آدم خلقه من تراب وركب من التراب لحما ودما وصورة الترابية
غير باقية في شيء منها ويخلق الحيوان من الماء كما قال والله خلق كل دابة
من ماء ثم ان صورة المائية غير باقية فيها وخلق عيسى من نفخ جبريل
وكذلك كان عيسى عليه السلام يصور الحيوانات وينفخ فيها فتصير
حية وصورة الهوائية ما كانت باقية فيها وخلق الجان من النار
وصورة النارية غير باقية فيها وخلق ناقة صالح من الحجارة وصورة
الحجرية ما كانت باقية وخلق الثعبان من عصا موسى وصورة الخشبية
ما كانت باقية وخلق حوا من ضلع آدم عليهما السلام وما كانت
صورة العظمية باقية فثبت انه سبحانه يقلب المواد في ذواتها من
حالة الى حالة وساير الفاعلين ليسوا كذلك فظهر الفرق الثالث
ان كل الفاعلين يفتقرون في فاعليتهم الى توسط الآلات والادوات

فالنجار لابد له من منشار والقدوم والخياط لابد له من الابرة
والمقراض والحق سبحانه غني في فعله عن الآلات والادوات لانه
فاعل الالات والادوات فلو افتقرت فاعليته لزم التسلسل
الفرق الرابع ان ساير الفاعلين لا يمكنهم ان يفعلوا فعلا الا بمماسة
وملاقاة بين الفاعل وبين محل الفعل فان لم يحصل المماسة اصلا
عجز عن الفعل فيه والحق سبحانه هو المتصرف من العرش الى ما تحت الثرى
من غير مماسة ولا مجاورة ولا مقارنة الفرق الخامس ان كل من فعل
فعلا فانه لا يفعل الا بمهلة وتدريج وزمان بعد زمان والحق سبحانه
غني عن المهلة والزمان كما قال انما قولنا لشيء اردناه ان نقول له كن فيكون
وقال ايضا وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر وقال وما امر الساعة
الا كلمح البصر او هو اقرب والمعنى ان اماتتهم عند النفخة الاولى في اقل
من لمح البصر واحياهم عند النفخة الثانية في اقل من لمح البصر وارد
في هذه اللمحة اللطيفة جميع الارواح الى اشباحها الاصلية من غير
غلط ولا خلل وانما امكن ذلك لكونه سبحانه قادرا على جميع الممكنات
عالما بجميع المعلومات الفرق السادس ان كل من فعل فعلا فانه معب
بسبب ذلك وشق عليه ذلك والحق سبحانه يدبر من العرش الى ما تحت
الثرى في تخليق ذواتها وايجاد صفاتها من غير تعب ولا نصب قال
ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا
من لغوب وقال افعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد فان
قيل اليس تعالى قال في الاعادة وهو اهون عليه وهذا يقتضي حصول
نوع من التعب في الخلق الاول قلنا هذا انما ذكره على حسب المعتاد فان في

العادة والابتداء اصعب من الاعادة فلما سلموا انه لا تعب في الابتداء
فلان لا يمتنع عليه الاعادة كان اولى الفرق السابع ان كل فاعل يفعل
فعلا فانه يتغير اولا في نفسه ثم بسبب تغيره يحصل الفعل خارجا
عن ذاته كالكاتب مثلا فانه ما لم يحرك اصابعه لا يمكن ان يكتب والحق
سبحانه منزه عن ذلك لانه لو توقفت فاعليته على حدوث تغير في ذاته
لكان المحدث لتلك الحالة المتغيرة هو الله سبحانه فكان يفتقر احداث
تلك الحالة الى حدوث حالة اخرى ولزم التسلسل فهو سبحانه يفقر
ويغني ويمرض ويبرئ ويميت ويحيي ويطعم ويسقي ويدبر السموات
والارض والبحار والجبال والذرات والذوات والصفات
مع انه منزه في ذاته وصفاته عن انواع التغير والزوال والتحول
والانتقال ثم من عجايب هذا الموضع ان كل من سواه من العالمين
فانه يتغير علمه بتغير المعلومات ويكثر علمه بتكثر المعلومات
وهو سبحانه يعلم بعلم واحد ما لا نهاية له من المعلومات وعلمه دايم
باق يعلم جميع التغيرات الفرق الثامن ان كل من سواه من الفاعلين
فانه لا يمكنه ان يجمع بين الافعال الكثيرة فالكاتب لا يمكنه ان يكتب
الكلمات الكثيرة على الجمع بل على التعاقب وبالجملة فما لم يفرغ عن احد
الفعلين لا يمكنه الاشتغال بالفعل الآخر واما الحق سبحانه فهو القادر
الذي لا يشغله شان عن شان فهو يدبر العرش والكرسي واللوح
والقلم والانوار والظلم والسموات والارضين والبحار والجبال
والحيوان والنبات دفعة واحدة يخلق ذواتها ويدبر صفاتها
ويرى حاجتها ويسمع نداءها ويجيب دعاءها فسبحان من لا يشغله شان

عن شان الفرق التاسع ان كل من فعل فعلا انما يفعله لجر نفع او دفع
ضرر والحق منزه عن جر المنافع ودفع المضار وكل شيء صنعه ولا علة
لصنعه وقد بينا دلائل هذا الفصل في بابه دلائل التوحيد في تفسير
قوله لا يسئل عما يفعل الفرق العاشر ان كل من فعل فعلا فانه
يحصل بعضه على وفق مراده وبعضه لا على وفق مراده فالكافر يجتهد
ليجد الحجة والمعرفة فلا يحصل له مراده بل يقع في الشبهة والضلالة
وكل احد فانما يتحرك ويسعى لطلب الخيرات ثم قد يحصل وقد لا يحصل
وقيل كل احد يخرج بكرة يومه من داره قدريا ويعود اليها بالمساء
جبريا يقول بالبكرة افعل ليحصل كذا وبالمسا يقول اجتهدت
فما كان التقدير مطابقا للتدبير والحق لا يقع فعله الا على وفق مراده
ومشيته فان كل الممكنات في قبضة قدرته وربقة ارادته لا دافع
لما قضى ولا مانع لما ابدع ابدي قال سبحانه ولو اننا نزلنا اليهم
الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا
الا ان يشاء الله الفرق الحادي عشر كل من سواه من الفاعلين فانه
يبقى المفعول بعد فناء الفاعل وموته والحق سبحانه هو الباقي بعد فناء
مخلوقاته كما قال لمن الملك اليوم لله الواحد القهار الفرق الثاني
عشر ان كل من سواه من الفاعلين لا ينفك فعله عن الخلل والنقصان
اما الحق سبحانه ففعله غني عن الخلل والنقصان قال تعالى ما ترى
في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم
ارجع البصر كرتين ولو انه جعل جميع عقول العقلاء عقلا
واحدا ثم بذلك العقل تفكروا في جناح بعوضة حتى يجد تركيبا

احسن

احسن منه واكمل منه لفنيت تلك العقول وانقطعت تلك الافكار
ولا يصير ذرة من ذرات حكمة الله تعالى في خلقه تلك البعوضة
معلومة على سبيل الكمال والتمام فهذا مجموع الفروق بين فاعلية
العبد وفاعلية الحق سبحانه ولما كانت فاعليته غنية عن المادة
والمدة والآلة والعدة والزمان والمكان وجلب الاغراض وتغير
الاحوال والاعراض كان الحق سبحانه هو الفاطر للاشياء فلهذا قال
الحمد لله فاطر السموات والارض والله اعلم بحقايق الاشياء

الفصل السادس في شرح كون السموات خالية عن العيب

والنقصان والتفاوت قال تعالى في سورة الملك ما ترى في خلق
الرحمن من تفاوت واعلم ان المقصود من هذه الاية لا يظهر الا بعد
تفسير هذه السورة من اولها قال تعالى تبارك الذي بيده الملك
واعلم انه تعالى جعل لفظ تبارك مطلقا السورتين احدهما سورة
الفرقان وهي قوله تبارك الذي نزل الفرقان والثاني في هذه السورة
فنقول اما لفظ تبارك قال الزجاج تبارك تفاعل من البركة والبركة
كثرة الخير وزيادته وفيه معنيان احدهما تزايد خيره وتكاثره وهو
المراد من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها والثاني معناه تزايد
عن كل موجود تعالى عنه في ذاته وصفاته وفي افعاله وهو المراد
من قوله ليس كمثله شيء اما تعاليه عن كل شيء في ذاته فيحتمل ان يكون
جل بوجوب وجوده ودوام قدمه عن جواز التغير والفناء ويحتمل
ان يكون المعنى جل بفردانيته عن مشابهة الاضداد ومشاكلة الانداد
ومنازعة الاكفاء واما تعاليه عن كل شيء في صفاته فيحتمل ان يكون

المعنى جل في قدرته وفي علمه عن ان يخرج عنهما شيء من المعلومات
والمقدورات ويحتمل ان يكون المعنى جل علمه عن ان يكون ضروريًا
واستدلاليًا او تصوريًا او تصديقيًا وجلت قدرته عن ان يحتاج
في فاعليته الى مدة ومادة ومثال وآلة وجر نفع ودفع ضرر
واما تعاليه في فعاله وهو الملك الحق مطلقًا اي هو الغني عن كل شيء
ما سواه في ذاته وصفاته وفي احواله وكل ما سواه محتاج اليه
في ذواتها وفي صفاتها وفي احوالها حالتي حدوثها وبقائها وتجددها
واستمرارها لا ينقطع الحاجات اليه ولا يزول الافتقارات اليه
فكل موجود فبايجاده موجود وكل باق فبابقائه باق شهدت
الحاجات في غيره على تقدسه عن الحاجات ودلت التغيرات في غيره
على كونه منزهًا عن التغيرات وقال آخرون اصل الكلمة يدل على
البقاء وهو ماخوذ من بروك البعير ومن بروك الطاير على الماء
وسميت البركة بركة لثبوت الماء فيه والمعنى انه سبحانه باق في ذاته
ازلًا وابدًا ممتنع التغير باق في صفات كماله ونعوت جلاله ممتنع
التبدل ولما كان الحق سبحانه هو المعطي لجميع جهات المنافع والمصالح
والميسر لكل المطالب والمناجح لاجرم وجب وصفه بانه تبارك
واذا عرفت هذا فنقول انه تعالى ذكر في سورة الفرقان تبارك
الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرًا وقال في سورة
الملك تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ونحن نفسر
كل واحد منهما بقدر عقولنا القاصرة وافهامنا الناقصة
ونكل اسرارها الى علمه الكامل وحكمته المحيط فنقول في قوله

تبارك الذي نزل الفرقان فوايد الفائدة الاولى ان الفرقان
هو القران وصف بذلك من حيث انه سبحانه فرق به بين الحق
والباطل والحجة والشبهة في دلايل التوحيد والعدل والنبوة
والمعاد ولانه فرق في النزول كما قال وقرانا فرقناه لتقراه على
الناس على مكث وهذا التاويل اقرب لانه قال تعالى نزل الفرقان
ولفظ نزل يدل على التفريق ولانه فرق بين الشرايع والاحكام
والحلال والحرام فخص بعضها بالايجاب وبعضها بالاستحباب
وبعضها بالتنزيه وبعضها بالتحريم وبعضها بالاباحة والاحلال
فقال ما اتيكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فانتهوا فهذه
وجوه ثلثة في بيان ان القران لم سماه الله بالفرقان الفائدة
الثانية انه سبحانه لما قال في اول السورة تبارك ومعناه
كثرة الخير والبركة ثم ذكر عقيبه امر الفرقان دل ذلك على ان القران
منشأ اعظم الخيرات واكمل البركات لكن المستفاد من الفرقان هو
العلم والمعرفة والحكمة فدل هذا على ان العلم اشرف المخلوقات
وانفع المحدثات واكثرها خيرًا وبركة الفائدة الثالثة لا نزاع
بالاجماع ان المراد من العبد ههنا محمد عليه السلام وسمعت بعض المشايخ
انه قال لما اسرى بمحمد صلى الله عليه وسلم الى قاب قوسين اوحى الله
سبحانه اليه بم تريد ان اشرفك به فقال الهي اريد ان تشرفني بان تذكرني
بكوني عبدًا لك فاوحى الله سبحانه اليه سبحان الذي اسرى بعبده ليلًا
فانظر الى هذه الدقيقة وصف نفسه في هذه الآية بالتسبيح والتنزيه
حين سماه عبدًا وفي سورة الفرقان وصف نفسه بكونه متعاليًا

مبارکا حین سماه عبدًا وهذا یدل علی ان کل نبی اشتد عرفانا
بعبودیته وذلته وخضوعه وافتقاره کان تجلی انوار قدس
جلال الله فی عقله وظهور نور کبریائه فی روحه اجل واعظم
الفائدة الرابعة اختلفوا فی المراد بقوله لیکون للعالمین نذیرا
منهم من قال المعنی لیکون هذا القران نذیرًا واضاف الانذار الیه
کما اضاف الهدایة الیه فی قوله ان هذا القران یهدی للتی هی اقوم
الا ان هذا وان کان محتملا لکن جعل النذیر صفة لمحمد علیه السلام
اولی من جعله صفة للقران ویدل علیه وجهان الاول نص القران
دل علی ان النذیر صفة لمحمد علیه السلام قال تعالی انا ارسلناك
شاهدًا ومبشرًا ونذیرًا والثانی ان جعل النذیر صفة لمحمد علیه السلام
حقیقه وجعله صفة للقران مجاز وحمل الکلام علی الحقیقة اولی
من حمله علی المجاز الفائدة الخامسة قوله لیکون للعالمین نذیرًا
یدل علی ان محمدًا علیه السلام مبعوث الی کل العالمین وذلك لان
لفظ العالم عبارة عن کل موجود سوی الله فیدخل فیه جمیع المکلفین
من الجن والانس والملائکة لکنا اجمعنا علی انه علیه السلام ماکان
رسولا الی الملائکة فبقی کونه رسولا الی الجن والانس ویتاکد هذه
الایة بآیات اخری احدها قوله وما ارسلناك الا کافة للناس
وثانیها قوله قل لئن اجتمعت الانس والجن علی ان یاتوا بمثل هذا
القران وهذا یدل علی کونه مبعوثا الی کل الجن والانس وثالثها
سورة الجن وهو قوله تعالی قل اوحی الی الایة الفائدة السادسة
ان لفظ العالمین یتناول جمیع المخلوقات فهذه الایة تدل علی انه علیه السلام

رسول الی الخلق الی یوم القیامة وهذه الایة متاکدة بقوله تعالی
ولکن رسول الله وخاتم النبیین واعلم انه تعالی وصف ذاته
بعد هذه الایة باربعة انواع من الصفات الکبریاء والجلال والقدس
والعظمة اولها الذی له ملك السموات والارض واعلم ان تعلق هذه
الایة بما قبلها من وجهین الاول ان لله علی العباد نوعین من الملك
احدهما ملك التکلیف وذلك لانه سبحانه ملك مطاع فی المخلوقات
لانه مالکهم وخالقهم ومدبرهم والمتصرف فیهم والمستولی علیهم
فکان ملکا مطاعًا والملك المطاع من له الامر والنهی والثانی ملك
التخلیق فقوله تبارك الذی نزل الفرقان علی عبده لیکون للعالمین
نذیرًا اشارة الی تقریر ملك التکلیف ثم قال بعده الذی له ملك السموات
والارض وهو اشارة الی ملك التخلیق فان ملك التخلیق معلل بملك
التکلیف فلما قال نزل الفرقان علی عبده لیکون للعالمین نذیرًا اثبت
بهذه الایة ملك التکلیف لنفسه کانه قیل ولم یحسن منك التکلیف
والامر والنهی مع انه غنی عن النفع والضر والمکلف لا ینتفع بهذا التکلیف
فاجاب الحق سبحانه انما حسن منی ملك التکلیف لانه حصل لی ملك التخلیق
فالخلق عبیدی وللمالك ان یتصرف فی ملکه کیف یشاء ولا اعتراض
للعبد علی المالك البته فلهذا قال بعد تلك الایة الذی له ملك
السموات والارض الوجه الثانی فی بیان النظم انه تعالی لما
وصف نفسه بکونه مرسلا للرسل وذلك یتوقف علی ثبوت ذاته
وثبوت صفاته لاجرم اردفه بما یدل علی ذلك فقال الذی له ملك
السموات والارض فاستدل علی وجوده وعلی کمال قدرته وکبریائه

والهيته بملك السموات والارض ووجه الاستدلال على وجود
الصانع وصفات جلاله قدشرحناه فيما قبل ثم في هذه الآية
فايدتان الفائدة الاولى ان الملك اشارة الى القدرة والمتكلمون
بينوا ان اول العلم بالله هو العلم بكونه قادرًا فلهذا السبب قدم
ذكر هذه الصفة الفائدة الثانية ان قوله له ملك السموات اشارة
الى احتياج جميع المخلوقات اليه حالتي حدوثها وبقائها وذلك
لان علة الحاجة هي الامكان والامكان من لوازم هذه الماهيات
فهي ممكنة حالتي حدوثها وبقائها فهي محتاجة الى المؤثر والمدبر
حالتي حدوثها وبقائها في ماهياتها وفي وجود ذواتها وفي
صفاتها فلاجرم كان الحق سبحانه مالك الملك لجميع الممكنات على الاطلاق
ازلا ابدًا وهو المتصرف فيها كيف شاء واراد لاراد لما حكم لاناقض
لما ابرم له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين الصفة الثانية
قوله ولم يكن له ولد واعلم ان صفات الله تعالى على قسمين صفات
الجلال وصفات الاكرام اما صفات الجلال فهي عبارة عن تنزيه الله
سبحانه عما لايليق به في ذاته وصفاته وافعاله واما صفات الاكرام
فهي عبارة عن وصف الله تعالى بالصفات التي منها ويمكن كونه خالقًا
للعالم على نعت الاحكام والاتقان فقوله تعالى له ملك السموات
والارض من قسم صفات الاكرام وقوله ولم يكن له ولد من قسم صفات
الجلال وهو اشارة الى انه هو المدبر للعالم والمعبود للخلق ابدًا
ولا يصح ان يصير غيره وارثا للملك فيكون نفي الولد لقوله تبارك
الذي بيده الملك ولقوله الذي له ملك السموات والارض كانه قيل

المفتقر الى الولد هو الذي ينقضي وليموت حتى يقوم ولده مقامه
فامامن كان تبارك دايم الوجود ممتنع التغير فكيف يليق به الولد الصفة
الثالثة قوله ولم يكن له شريك في الملك والمراد انه سبحانه هو
المتفرد بهذه الصفات فانه هو الواجب لذاته وما سواه ممكن لذاته
وهو الموجد للممكنات وما سواه فعن صفة الموجدية والخلاقية
معزول واذا عرفت ذلك انقطع رجاؤك وخوفك عن الخلق ولا
تبقى مشغول القلب ملتفت الخاطر الا به وبفضله ورحمته وهذه
الآية رد على الثنوية والقايلين بالهية النجوم وعبدة الاوثان
الصفة الرابعة قوله تعالى وخلق كل شئ فقدره تقديرا وفي
هذه الاية فوايد الفايدة الاولى ان قوله له ملك السموات والارض
اشارة الى صفة من صفات الاكرام ثم قوله الذي لم يتخذ ولدا ولم
يكن له شريك في الملك اشارة الى ذكر صفتين من صفات الجلال ثم
قوله وخلق كل شئ اشارة الى ما تركب من صفات الجلال والاكرام
لانه اشارة الى انه هو الخالق وان غيره ليس بخالق فان قيل صفات
الجلال اولى بالتقدم من صفات الاكرام ويدل عليه القران والبرهان
اما القران فهو تعالى ذكر الجلال والاكرام في آيتين فقال ويبقى
وجه ربك ذو الجلال والاكرام وقال تبارك اسم ربك ذي الجلال
والاكرام وفي كل واحدة منهاتين الآيتين قدم الجلال على الاكرام
واما البرهان فلان صفات الجلال عبارة عن السلوب ويكفي
في تحقق هذه السلوب الذات المخصوصة من حيث هي هي واما صفات
الاكرام فانها لايظهر الا عند وجود الممكنات وما يكفي فيه ذاته

من حيث انه هو هو متقدم فی الرتبة علی ما لا بدّ معه من غيره الجواب
ها هنا مرتبتان احديهما ان يتوسل بمعرفة غير الله الی معرفة الله وهذا
هو مقام عروج السايرين والمسافرين الی حضرة جلال الله والثانی
ان يتوسل بمعرفة ذات الله الی معرفة غير الله وهذا هو مقام نزول
خواص حضرة الله عن تلك الحضرة المقدسة الی الالتفات الی غيرها
فان اعتبرنا المرتبة الاولی فكانت صفات الاكرام مقدمة علی معرفة
صفات الجلال لانها فی هذه المرتبة يستدل بالمخلوقات علی الخالق
ثم يستدل بعدم افتقار الخالق علی خالق آخر علی كونه منزهًا عن مشابهة
المخلوقات واما اعتبرنا المرتبة الثانية وهی مرتبة النزول كان
تحقق صفات الجلال متقدمًا بالرتبة علی تحقق صفات الاكرام فان
تلك السلوب تكفی فی تحققها الذات اما الاضافات فلا تكفی فيها
الذات الواحدة بل لا بدّ فی تحققها من حصول المضافين واذا عرفت
هذا فنقول انه تعالی لما قال تبارك الذی نزل الفرقان علی عبده
ليكون للعالمين نذيرًا فكانه قيل كونه مرسلاً للرسل انما يثبت لو ثبت
كونه موجودًا فما الدليل علی وجوده وقدرته فقال الدليل عليه ملك
السموات والارض وهذا هو مرتبة التدرج من الخلق الی الخالق فلا
جرم قدم ههنا صفات الاكرام علی صفات الجلال واما قوله ويبقی
وجه ربك ذو الجلال والاكرام وقوله تبارك اسم ربك ذی الجلال
والاكرام فليس المقصود ههنا ذكر الاستدلال بل المقصود منه الاخبار
عن نعوت قدسه وعظمة كبريائه فكانت صفات الجلال
مقدمة فی هذا المقام علی صفات الاكرام فسبحان من اودع هذا الكتاب

اسرارًا تعجز العقول عن ادراكها فقد ظهر بما ذكرنا ان الترتيب
الصحيح فی هذا المقام هو انه قدم صفات الاثبات فقال الذی
له ملك السموات والارض ثم ذكر بعد ذلك صفتين من صفات
الجلال اولها نفی الولد والثانی نفی الشريك ثم ذكر بعدهما ما تركب
عن صفة الاكرام وصفة الجلال فقال وخلق كل شیء وذلك لان
قوله كل شیء يدل علی كونه خالقًا للاشياء وهو صفة الاكرام وعلی
ان غيره لا يشاركه فی هذه الصفة وهو صفة الجلال ومعلوم
ان تقديم المفرد علی المركب واجب فهذا هو الاشارة الی ترتيب
الصفات المذكورة فی هذه الآية الفائدة الثانية من اسرار هذه
الآية انها دالة علی انه سبحانه خالق اعمال العباد وذلك لان قوله
وخلق كل شیء نظير قوله الله خالق كل شیء وقد دللنا علی ان الخلق
عبارة عن الايجاد وههنا لطيفة يؤكد هذا المقصود وهو انه تعالی
نفی الشريك بقوله ولم يكن له شريك فی الملك فكان قايلا قال ههنا
اقوام يعترفون بنفی الشركاء والانداد ومع ذلك يقولون انهم
يخلقون افعالهم فذكر الله هذه الآية ليكون لهم نصًا صريحًا فی الرد
عليهم فان قيل هذه الآية لا تدل علی هذا المطلوب ويدل عليه
وجوه الاول انه تعالی صرح بكون العبد خالقًا فقال واذ تخلق
من الطين كهيئة الطير قال ويخلقون افكا وقال فتبارك الله
احسن الخالقين والثانی انه تعالی ذكر هذا فی معرض التمدح ولا يجوز
ان يتمدح بكونه فاعلا لافعال العباد مع ما فيها من القبايح الا
ترى انه تعالی تنزه عن فعل القبايح فی ساير الآيات فقال وما

خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا وقال افحسبتم انما
خلقناكم عبثا وقال وما الله يريد ظلما للعباد والثالث
انه تعالى قال وقدره تقديرا ولا يجوز ان يريد به الا الحكمة
والصواب الا ترى انه تعالى نفى التفاوت عن افعال نفسه فقال
ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فثبت بهذه الوجوه ان الآية
لا تدل على هذا المطلوب فلابد من التاويل ولو دلت لا انها
لا تدل بظاهرها على قولهم فكيف ولا دلالة فيها على قولكم لان
الخلق عبارة عن التقدير فيختص ذلك بما يقبل التقدير وهو
الجسم الذي يكون له حجم وامتداد والجواب اما الآيات الدالة
على كون العبد خالقا فنقول ههنا آيات دلت على ان العبد غير خالق
وآيات دلت على انه خالق ولا بد من التلفيق بينهما فنحمل الآيات
الدالة على نفي الخالقية على نفي كون العبد موجدا والايات الدالة على
كونه خالقا على كونه متصورا متفكرا مقدرا في ذهنه امورا
قوله لا يمكن التمدح بخلق العبث قلنا لا يمكن التمدح بخلقها من حيث
انها عبث لكن لم لا يجوز التمدح بخلقها من حيث انها اخراج الشيء
من العدم الى الوجود قوله لفظ الخلق لا يتناول الا الاجسام
قلنا لو كان كذلك لكان قوله وخلق كل شيء فقدره خطا لانه
ليس كل شيء جسما الفائدة الثالثة من اسرار هذه الاية ان كثيرا
من الناس زعموا ان الخلق هو التقدير فقط واصحابنا زعموا انه
حقيقة في الايجاد والابداع وهذه الاية دالة على قولنا اذ لو
كان الخلق عبارة عن التقدير لكان قوله وخلق كل شيء فقدره تقديرا

تكريرا من غير فائدة ونظير هذه الآية في الدلالة على هذه المسئلة
قوله تعالى سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر
فهدى ولو كان الخلق هو التقدير لكان خلق وقدر تكرارا الفائدة
الرابعة انه تعالى قال فقدره تقديرا والتقدير في حق الواحد
منا يرجع الى الظن والحسبان اما في حقه تعالى فلا معنى له الا العلم
والاخبار عنه وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة واذا عرفت
هذا فنقول مذهبنا ان الامر والارادة لا يتلازمان وذلك لانه
سبحانه لما علم في الشيء الفلاني انه لا يقع فلو وقع ذلك الشيء لزم
انقلاب علمه جهلا وانقلاب خبره الصدق كذبا وذلك محال والمفضي
الى المحال محال فاذا وقوع ذلك الشيء والمحال غير مراد ثم انه مامور
فثبت ان الامر والارادة لا يتلازمان فظهر ان السعيد من سعيد
في بطن امه والشقي من شقي في بطن امه واعلم ان عندنا الارادة
والعلم يتلازمان والارادة والامر لا يتلازمان وعند المعتزلة
الارادة والامر يتلازمان والارادة والعلم لا يتلازمان وتحقيقه
ما ذكرناه فهذا ما يتعلق بهذه الآية وبين الاية المتقدمة من وجوه
الاول انه في سورة الفرقان اثبت ولا لنفسه ملك التكليف والحكم
والامر والنهي ثم اردفه بان اثبت لنفسه ملك السموات والارض
واما في سورة الملك فانه اثبت اولا لنفسه الملك على الاطلاق
فقال الذي بيده الملك وهذا يتناول جميع اقسام الملك من ملك
التكليف وملك التخليق وملك الابقاء وملك الافناء كما قال
قل اللهم مالك الملك الاية والفرق الثاني بين الآيتين انه تعالى

في تلك الآية قال الذي له ملك السموات والارض وقال في سورة
الملك الذي بيده الملك فذكر لفظ اليد ههنا والفايدة في ذكر
هذه اللفظة انه تعالى لما اثبت لنفسه جميع انواع الملك حتى
دخل فيه ملك الاجسام من فوق العرش الى ما تحت الثرى وملك
الارواح المشار اليه بقوله وما يعلم جنود ربك الا هو فكان
سايلا قال المدبر الواحد كيف يمكنه الوفاء بتدبير كل هذه المماليك
التي لا نهاية لها ولا غاية لكميتها وكيفيتها فاجاب بان كل هذه الممالك
التي لا نهاية لاحوالها ولا غاية لكميتها في يده وفي قبضته كما قال
في آية اخرى والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات
مطويات بيمينه وذلك لان كمال القدرة على الشيء ان يكون ذلك الشيء
في يده فجعل كونه في يده مجازا عن كمال القدرة فلهذا المعنى قال
تبارك الذي بيده الملك وقال بعده وهو على كل شيء قدير والمعنى
ان بيده ملك كل الموجودات وهو قادر على خلق المعدومات
التي تكون من الممكنات فقوله بيده الملك اشارة الى ملك الموجودات
بالابقاء والاعدام قوله وهو على كل شيء قديرا اشارة الى ملك
المعدومات بالايجاد والابداع فان قيل القدير مبالغة في القادر
فلو قال وهو على كل شيء قادرا افاد ذلك كونه تعالى قادرا على كل واحد
من المقدورات التي لا نهاية لها فاذا كان القدير للمبالغة وجب
ان يفيد هذا زيادة على كونه تعالى قادرا على كل واحد من تلك المقدورات
لكن الشيء الواحد لا يقبل التفاوت ولا يتطرق اليه الزيادة والنقصان
فما معنى هذه المبالغات قلنا لو انه تعالى قال وهو على كل شيء قادرا

افاد ذلك كونه تعالى قادرا على المقدورات فلما قال وهو على
كل شيء قديرا افاد ذلك زيادة قدرته في كل واحد من المقدورات
وتلك الزيادة والمبالغة راجعة الى ما بينا فيما تقدم ان جميع
القادرين يفتقرون في الفعل والتكوين الى تقديم مادة ومدة
زمان ومكان وآلة وروية ثم قد يمتنع عليهم تكوين مقدورهم
لاجل ان يمنعهم عن ذلك مانع ومعارض وكل ذلك على الله محال فلا
جرم صدق قولنا انه قادر على كل شيء وصدق ايضا بنا المبالغة
وهو انه قدير على كل شيء ثم قال الذي خلق الموت والحيوة واعلم انه
تعالى لما ذكر اولا ان بيده ملكوت ملك الموجودات والمعدومات
وزمام التصرف في كل الكاينات والممكنات خصص بعده بالذكر
ملك الاحياء والاماتة فقال الذي خلق الموت والحيوة ونظيره
قوله كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم وانما قدم الموت
على الحيوة لوجوه الاول قال مقاتل يعني بالموت نطفة وعلقة
ومضغة وبالحيوة نفخ الروح والثاني انه لما ذكر عقيب هذه الآية
انه تعالى ابتلى الخلايق بالتكاليف فقال ليبلوكم ايكم احسن عملا
والناس انما يقدمون على محاسن الاعمال لخوف ما بعد الموت فكان
الموت اقوى تاثيرا في هذا المقصود فلا جرم قدم ذكر الموت على
الحيوة الثالث المراد بهذا الموت المذكور في هذه الآية الموت بعد
هذه الحيوة والمراد بالحيوة الحيوة الابدية في القيمة ولم يذكر الحيوة
العاجلة البتة وذلك لان هذه الحيوة حيوة بين موتين احد الموتين
من الازل الى الآن والموت الثاني من الازل الى الابد فلا جرم ترك الله تعالى

ذكر هذه الحيوة لخستها وقلتها واما الحيوة فى الدار الاخرة فهى الحيوة
الاصلية لانها حيوة ابدية ولهذا قال تعالى وان الدار الاخرة
لهى الحيوان لو كانوا يعلمون ثم قال تعالى بعد ذكر الموت والحيوة
ليبلوكم ايكم احسن عملا والابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم
انه مطيع او عاص وذلك فى حق الله تعالى محال وسيجى تمام هذه
المسئلة فى باب التكليف ان شاء الله والحاصل هو ان الابتلاء
من الله تعالى هو ان يعامل عبده معاملة يشبه عمل الممتحنين
واعلم انا ان فسرنا الموت والحيوة بالموت حال كونه نطفة وعلقة
ومضغة وبالحيوة حيوة الدنيا فوجه الابتلاء على هذا التفسير
ان يعلم العبد انه تعالى هو الذى نقله من الموت الى الحيوة وكما فعل
ذلك فلا بد وان يكون قادرا على ان ينقله من الحيوة الى الموت فيحذر
مجى الموت الذى به ينقطع استدراك ما فات واما ان فسرنا الموت
والحيوة بالموت فى الدنيا والحيوة فى القيامة فالابتلاء فيهما اتم
لان الخوف من الموت الحاصل فى الدنيا اشد منه من الخوف من الحيوة
فى القيامة واعلم ان اول سورة الفرقان مع هذه السورة متشابهات
فى المقصود وذلك لانه تارة يذكر الحكم ثم يذكر عقيبه سببه وعلته
واخرى بالعكس من ذلك وهو ان يذكر السبب والعلة اولا ثم يذكر الحكم
عقيبه واذا عرفت هذا فنقول فى سورة الفرقان ذكر انه التكلف
اولا بقوله نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا ثم ذكر العلة
والسبب بعده فقال الذى له ملك السموات والارض ولنا فى سورة
الملك فانه ذكر السبب والعلة اولا وهو انه مالك الملك على الاطلاق

ومالك

ومالك الملك فى الاحياء والاماتة ثم انه ذكر الحكم بعده وهو حسن
التكليف فقال ليبلوكم ايكم احسن عملا انظر الى هذه المناسبات العجيبة
والاسرار اللطيفة ثم ان المفسرين ذكروا فى تفسير احسن عملا وجوه
الاول المعنى ايكم ياتى بالاعمال على وجه الاخلاص والصواب لان
العمل اذا كان صوابا غير خالص لم يقبل بل المقبول ان يكون صوابا
خالصا لوجه الله تعالى والصواب هو ان يكون على وفق امر الله والخالص
هو ان ياتى به لوجه الله والثانى قال قتادة سالت رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية فقال عليه السلام اتمكم عقلا
واشدكم خوفا احسنكم فهما بما امر الله به ونهى عنه وانما جاز تفسير
حسن العمل بتمام العقل لان حسن العمل من نتايج كمال العقل فمن كان
اتم عقلا كان احسن عملا الثالث قال الحسن احسن عملا ازهدكم
فى الدنيا واشدكم تركا واعلم انه تعالى لما ذكر حديث الابتلاء قال
بعده وهو العزيز الغفور اى وهو الغالب الذى لا يعجزه من اساء
فى الاعمال الغفور لمن تاب واناب وانما قدم ذكر العزيز على الغفور
ليظهر به كمال الرحمة لان الانسان قد يغفر ذنب عبده اما لانه لا يقدر
على الانتقام فى الحال ولانه وان قدر عليه فى الحال لكن يتركه
لانه يخاف توابع ذلك الانتقام وعواقبه فههنا ذكر تعالى انه عزيز
قاهر قادر غالب لا يمتنع عليه فعل شئ من الافعال ولا يخاف عاقبة
شئ من الاشياء ثم انه مع ذلك غفور يتجاوز عن سيئات عباده
ليظهر بذلك كمال كرمه ورحمته ثم فيه دقيقة اخرى وهى ان العبد
له من الظلم ثلثة اسماء وللرب من المغفرة ثلثة اسماء احد اسماء العبد

الظالم قال فمنهم ظالم لنفسه وفي مقابلته للرب سبحانه من المغفرة
اسم الغافر قال غافر الذنب والثاني الظلوم قال انه كان ظلوما
جهولا وفي مقابلته للرب من المغفرة الغفور كما في هذه الآية
وفي قوله وربك الغفور ذو الرحمة والاسم الثالث للعبد الظلام
وفي مقابلته للرب من المغفرة الغفار فقال واني لغفار لمن تاب
وقال في نوح استغفروا ربكم انه كان غفارا فكانه لا تخف ولا
تياس فان كنت ظالما فانا غافر وان كنت ظلوما فانا الغفور وان
كنت ظلاما فانا الغفار ثم اعلم انه تعالى لما ذكر كونه عزيزا غفورا
فكونه عزيزا غفورا لا يتم الا اذا كان قادرا على كل الممكنات عالما
بكل المعلومات اما انه لا بد من القدرة فلانه لو لم يكن قادرا لا يتمكن
من ايصال جزاء كل احد اليه على سبيل الكمال والتمام سواء كان
عقابا او ثوابا واما انه لا بد من العلم بكل المعلومات فلاجل ان
يعلم ان المطيع من هو وان العاصي من هو حتى لا يقع الخطاء في ايصال
الحق الى مستحقه فثبت ان كونه عزيزا غفورا لا يمكن الاقرار بهما
الا بعد الاقرار بكونه تعالى عالما بكل المعلومات قادرا على كل
الممكنات فلهذا السبب ذكر الله تعالى عقيب هذه الآية ما يدل
على كمال القدرة وعلى كمال العلم ولما ثبت في علم الاصول ان اول
العلم بالله هو العالم بكونه قادرا لا جرم قدم دلايل القدرة
على دلايل العلم اما دليل اثبات القدرة فهو قوله الذي خلق سبع
سموات طباقا قال صاحب الكشاف في قوله طباقا ثلثة اوجه
احدها طباقا اي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل اذا خصفها

طبقا

طبقا على طبق وهذا وصف بالمصدر والثاني ان يكون التقدير ذات
طباق والثالث ان يكون التقدير طوبقت طباقا واعلم ان دلالة السموات
بطبقاتها على وجود الصانع المختار الحكيم سبحانه فقد تقدم شرح
اقسامها في هذا الكتاب فلا نعيدها واما دليل العلم فهو قوله ما ترى
في خلق الرحمن من تفاوت واعلم ان حقيقة التفاوت عدم التناسب
اذا كان بعض الشيء يفوت بعضا ولا يلايمه فيقال هذا خلق متفاوت
ونقيضه متناسب وللمفسرين فيه وجوه ثلثة قال السدي ما ترى
في خلق الرحمن من تفاوت اي من اختلاف وعيب يقول الناظر فيه لو كان
كذا لكان احسن وقال آخرون التفاوت الفطور بدليل قوله فارجع
البصر هل ترى من فطور وهو نظير قوله وما لها من فروج وقال
القفال يحتمل ان يكون المعنى ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في
الدلالة على حكم صانعها وعلمه وقدرته واعلم ان وجه الاستدلال
بهذا المعنى على كمال علم الله ان نقول الحس دل على ان هذه السموات
وقع تركيبها على وجه عجيب بديع موافق للمصلحة والحسن وكل فاعل
كان فعله كذلك فهو لا بد وان يكون في غاية العلم والحكمة فقوله
ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت اشارة الى كونها محكمة متقنة
والاحكام والاتقان عند المتكلمين يدل على علم الفاعل دلالة ضرورية
ثم قال تعالى بعده فارجع البصر هل ترى من فطور كانه تعالى قال
واملك لا يحكم بمقتضى النظر الواحد ولا تعول عليه بسبب انه قد
يقع الغلط في النظر الواحد ولكن ارجع البصر واردد النظر مرة
بعد اخرى حتى يتبين انه ليس في خلق الرحمن من تفاوت ولا عيب

ولا فطور والعجب انه تعالى قال الحمد لله فاطر السموات والارض
ثم بين في هذه الاية انه ليس فيها فطور كانه قال انا الفاطر للسموات
من غير فطور وانا المزين لها من غير عيب ولا قصور ونظير هذه الآية
قوله وما لها من فروج فليس فيها فطور وليس فيها فروج ولا فيها
تفاوت بل هي سبع شداد وسبع طباق وبناء مرفوع وسمك
مصنوع فيها آيات قاهرة وبراهين باهرة على وحدة صانعها وقدرة
مقدرها ومدبرها ثم قال ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر
خاسئا وهو حسير امره بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل
التصفح والتدبر والتتبع هل تجد فيه عيبا وخللا يعني انك وان كررت
هذا النظر مرارا واطوارا لم يرجع اليك بصرك بما يطلبه من وجدان
الخلل والعيب بل يرجع اليك خاسئا اي مبعدا وهو ماخوذ من قولك
خسات الكلب اذا بعدته قال المبرد الخاسئ البعيد المصغر المصغى
وقال ابن عباس الخاسئ الذي لا يرى ما يهوى والحسير الكليل ثم قال
تعالى ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وسنذكر تحقيق القول
في هذه الاية واسرارها في باب الاستدلال باحوال الكواكب على وجود
الصانع فهذا جملة الكلام في هذه الاية واعلم انه بقي من الصفات
المذكورة في القرآن للسموات صفاتها في قيام الساعة كقوله اذا السماء
انشقت واذا السماء كشطت ويوم تشقق السماء بالغمام ويوم نطوي
السماء كطي السجل للكتب ويكون السماء كالمهل يوم تمور السماء مورا
فكانت وردة كالدهان والكلام في شرح هذه الاحوال سيجيء في باب
كيفية القيامة ان شاء الله تعالى

الفصل السابع

في الاستدلال باحوال الارض على وجود الصانع اعلم انه سبحانه
نبه على الاستدلال باحوال الارض على وجود الصانع وقدرته
وعلمه وحكمته وجلالته في آيات منها قوله في اول سورة
البقرة الذي جعل لكم الارض فراشا واعلم انه تعالى ذكر
انواع منافعها على الشرح والتفصيل في الكتاب الكريم النوع
الاول من منافع الارض انه تعالى خلق كل ما في الارض لنا قال تعالى
هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا وقال الم تروا ان الله سخر
لكم ما في الارض واعلم ان الكلام في الاية المذكورة في سورة البقرة
لا يتم الا بتفسير ما قبلها واعلم انه تعالى ذكر في اول هذه السورة
خمس آيات في تعظيم المؤمنين وهي الى قوله واولئك هم المفلحون
ثم ذكر بعد ذلك آيتين في ذم الكفار وهما قوله ان الذين كفروا
الى قوله ولهم عذاب عظيم ثم ذكر ثلثة عشر آية في ذم
المنافقين وهي من قوله ومن الناس من يقول آمنا بالله الى قوله
يا ايها الناس اعبدوا ربكم فان قيل كفر الكافر المتظاهر بكفره
اغلظ من كفر المنافق فلم كان ذم الكافر في آيتين وذم المنافق
في هذه الايات الكثيرة قلنا لان الكافر وان كان كافرا الا انه
طبعه طبع الرجال فما يضمره يظهره اما المنافق فطبعه طبع
المخنثين يضمر شيئا ويظهر شيئا آخر فلهذا ورد ذمه اكثر ولهذا
قال ان المنافقين في الدرك الاسفل من النار ثم انه تعالى لما شرح
احوال هذه الفرق الثلثة شرع بعد ذلك في تقرير الدلايل فبدا
بذكر دلائل الصانع وذكر من الانفس دليلين ومن الافاق ثلثة

اما من الانفس فقوله تعالى اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من
قبلكم واما من الافاق فقوله الذى جعل لكم الارض فراشا والسماء
بناء وانزل من السماء ماء ثم ذكر بعده دليل نبوة محمد عليه السلام
وهو قوله وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة
من مثله ثم ذكر بعده مسالة الحشر والنشر والقيامة فقال وبشر
الذين امنوا وعملوا الصالحات ثم اورد سوالا على الدليل الذى ذكره
على نبوة محمد عليه السلام وذلك لانه استدل على نبوته بعظم حال القران
وكمال درجته وطعن الكفار فيه بان قالوا كيف يكون عظيم الدرجة
وهو مشتمل على شرح احوال الحيوانات الخسيسة كالبعوض والذباب
والنمل والعنكبوت فاجاب الله عن هذا السوال بقوله ان الله لا يستحيى
ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ثم ساق اخر هذا الجواب الى مسئلة
القضاء والقدر وهو قوله يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا الاية وعند
هذا تمت الدلايل على تقرير هذه الاصول الاربعة وهى التوحيد والنبوة
والمعاد والقدر ثم بعد تقرير هذه الاصول بالدلايل القاهرة والبراهين
الباهرة شرع فى تعديد النعم ومعلوم ان النعم منها عامة ومنها خاصة
فقدم ذكر النعم العامة ومعلوم ان اصل جميع النعم هو الحيوة فانه
لولا الحيوة لما كان الانتفاع بشئ من النعم ممكنا فلا جرم اول النعم التى
ذكرها الله تعالى هى الحيوة فقال كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا
فاحياكم الى قوله ترجعون وفى هذه الاية فوايد الفايدة الاولى ان قوله
كيف تكفرون بالله وان كان فى صورة الاستخبار الا ان المراد منه
التبكيت والتعنيف والتعيير لان عظم النعمة يقتضى عظم معصية المنعم

بيان ذلك ان الوالد لما عظمت نعمته على الولد بان رباه وعلمه
واعطاه الاموال وعرضه للامور الجسام لا جرم كانت معصية
لابيه اقبح المعاصى فقابل نعم الله عليك بنعم ابيك عليك حتى تعرف
عظم معصية الله ونهاية قبحها ثم ان اعظم المعاصى هو الكفر والشرك
ولما كانت هذه المعصية متناهية الى الغاية القصوى فى القبح
لا جرم ذكرهم الله سبحانه نعمته العظيمة عليهم ليصير ذلك تنبيها
لهم على عظم جرمهم وقبح طريقتهم فيصير ذلك زاجرا لهم عنهم فذكر
اولا امر الحيوة التى هى اصل جميع النعم ولذلك تلفظ كيف على سبيل
التعجب تنبيها على غاية هذه النعمة وغاية قبح تلك المعصية الفايدة
الثانية قالت المعتزلة هذه الاية تدل على ان الكفر من العبد لا من الله
وبيانه من وجوه الاول انه تعالى لو كان هو الخالق للكفر فيهم لما
جاز ان يقول كيف تكفرون بالله على سبيل التوبيخ كما لا يجوز ان
يقال لهم كيف تسودون وتبيضون وتسمنون لما ان ذلك انما
يحصل فيهم لان الله يخلقه فيهم والثانى انه تعالى لما خلقهم للشقاق
والنار وما خلقهم الا للكفر والضلال والبقاء فى النار فكيف يصح ان
يقول موبخا لهم كيف تكفرون والثالث انه كيف يليق بالحكيم ان يقول
لهم كيف يكفرون حال ما يخلق الكفر فيهم ويقول وما منع الناس
ان يؤمنوا حال ما منعهم عن الايمان ويقول فما لهم لا يؤمنون
فما لهم عن التذكرة معرضين وهو يخلق فيهم الاعراض ويقول انى
تؤفكون وانى تصرفون وهو يخلق الافك والصرف فيهم ومثل
هذا الكلام بان يعد من السخرية اولى من ان يذكر لالزام الحجة عليهم

والرابع انه تعالى لما قال للعباد كيف تكفرون فهل ذكر هذا الكلام
توجيها للحجة او ليس كذلك فان لم يكن لطلب توجيه الحجة كان هذا
عبثا ولا يكون في انزال القران فايدة اصلا وان كان ذلك لالزام
الحجة فللعبد ان يقول بناء على مذهب الجبر حصل في حقي امور كثيرة
موجبة للكفر مانعة عن الايمان فالاول انك علمت مني الكفر وانا
لا اقدر على ان اقلب علمك جهلا والثاني انك اردت مني الكفر وهذه
الارادة موجبة والثالث انك خلقت الكفر وانا لا اقدر على ازالة
فعلك والرابع انك اخبرت عن وجود هذا الكفر وانا لا اقدر
على جعل خبرك الصدق كذبا والخامس انك خلقت قدرة لا يصلح
الا للكفر والسادس انك خلقت ارادة جازمة للكفر والسابع
زينت الكفر والثامن انك سلطت على القلب الدين والطبع والوقر
والغشاوة والختم وكل ذلك اسباب موجبة للكفر ثم لما خلقت هذه
الاسباب الثمانية الموجبة للكفر سلبت مجموع الاسباب الثمانية
المعتبرة في حصول الايمان فقد حصل لعدم الايمان ستة عشر سببا
كل واحد منها مستقل بالمنع من الايمان ومع قيام هذه الاسباب
الكثيرة كيف يحسن التوبيخ على الكفر والترغيب في الايمان والخامس
انه تعالى قال لرسوله قل لهولاء الكفار كيف تكفرون بالله الذي انعم
عليكم بهذه النعم العظيمة اعني نعمة الحيوة وعلى قول اهل الجبر
لا نعمة له تعالى على الكافر وذلك لان عندهم كل ما فعله الله
بالكافر انما فعله ليستدرجه الى الكفر ويحرقه بالنار وعلى هذا
التقدير فاي نعمة يكون لله على العبد وهل يكون ذلك الا بمنزلة

من قدم الى غيره طبق فالوذج مسموم فانه ظاهره وان كان لذيذا
ويعد نعمة لكن لما كان باطنه مهلكا لا يعد نعمة ومعلومات
العذاب الدايم اشد ضررا من ذلك السم وعلى هذا التقدير كيف يمكن
ان يكون لله نعمة على الكافر واذا لم يكن له نعمة عليه فكيف يليق به ان
يامر رسوله بان يقول لهم كيف تكفرون عن نعم الله عليكم بهذه
النعم العظيمة والجواب عن هذه الوجوه عند البحث يرجع حاصلها
الى التمسك بطريقة المدح والذم والثواب والعقاب وهذه الطريقة
معارضة بوجهين الاول انه تعالى لما كان عالما من ابي جهل بانه لا يؤمن
والعلم بعدم الايمان مع وجود الايمان ضدان متنافيان لذاتيهما
فمع قيام احد الضدين يكون التكليف بضد الثاني تكليف ما لا يطاق
وحينئذ يلزمكم كل ما اوردتموه علينا والثاني ان قدرة العبد لما
كانت صالحة للايمان والكفر فترجح احد الطرفين على الاخر ان لم يتوقف
على مرجح لزم ترجيح الممكن من غير مرجح وهو محال فحدوث ذلك المرجح
ان لم يكن بمحدث فقد استغنى الحدوث عن المحدث وهو نفي الصانع وان
افتقر الى محدث فذلك المحدث ان كان هو العبد لزم التسلسل وان
كان هو الله تعالى فقد لزم الجبر وحينئذ يلزمكم كل ما الزمتموه علينا
واعلم ان المعتزلي اذا طول وعرض وابرق وارعد بامثال هذه
الكلمات التي حكيناها عنهم فعليك ان تعارضه بهذين الوجهين
فانه لا يمكنه ان يتكلم ان كان ذكيا فهما الفايدة الثالثة من هذه الاية
اتفقوا على ان قوله وكنتم امواتا المراد به وكنتم ترابا ونطفا لان
ابتداء خلق ادم عليه السلم من التراب وخلق ساير المكلفين من اولاده

الا عيسى عليه السلام ولكنهم اختلفوا فى اطلاق اسم الميت
على الجماد حقيقة او مجازا والاكثرون على انه مجاز لانه شبه
الموات بالميت والاقلون قالوا هو حقيقة فيه ومروى عن قتادة
قال كانوا امواتا فى اصلاب ابائهم فاحياهم الله تعالى ثم اخرجهم
الى الدنيا ثم اماتهم الموتة الاولى التى لابد منها ثم احياهم بعد
الموت فهما حيوتان وموتتان واحتجوا بقوله خلق الموت والحيوة
فالموت المقدم على الحيوة هو كونه مواتا والاقرب هو الاول
لانه يقال فى الجماد انه موات ولا يقال انه ميت يشبه ان يكون
استعمال احدهما فى الاخر على سبيل التشبيه قال القفال وهو كقوله
هل اتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا فبين سبحانه
ان الانسان كان لا شى يذكر ثم جعله الله حيا سميعا بصيرا ومجازه
من قولهم فلان ميت الذكر وهذا امر ميت وسلعة ميتة اذا لم يكن
لها طالب ولا راغب فكذا معنى الآية وكنتم امواتا اى خاملين
لا ذكر لكم لابكم ما كنتم شيئا ثم احياكم وجعلكم سميعا بصيرا
الفائدة الرابعة احتج قوم بهذه الآية على بطلان القول بعذاب القبر
قالوا لانه تعالى بين انه يحييهم مرة فى الدنيا والاخرى فى الاخرة
ولم يذكر فيه حيوة القبر الجواب ان الله تعالى ذكر حيوة القبر فى هذه
الاية لان قوله يحييكم ليس المراد منه حيوة القيامة والا لكان هذا
هو عين قوله ثم اليه ترجعون ويحصل التكرار بل قوله ثم يحييكم
اشارة الى حيوة القبر ثم اليه ترجعون اشارة الى حيوة القيامة قال
الحسن البصرى كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم يعنى بالعامة

فاما بعض الناس فقد اماتهم الله ثلث مرات نحو ما حكى فى قوله
او كالذى مر على قرية وهى خاوية الى عروشها الى قوله ثم بعثه وقوله
الم تر الى الذين خرجوا من ديارهم الاية وكذلك اعثرنا عليهم الآية
وقوله فى قصة ايوب عليه السلام واتيناه اهله ومثلهم معهم
فانه جاء فى بعض الروايات انه تعالى رد عليه اهله بعد ان اماتهم
واقول ايضا انه ان ثبت انه تعالى احيا الذر فى صلب آدم عليه السلام
وخاطبهم بقوله الست بربكم لزم ان يقال ان هؤلاء الاقوام الذين
ذكرناهم قد اماتهم الله اربع مرات الفائدة الخامسة تمسكت المجسمة
بهذه الآية وهو قوله ثم اليه ترجعون على انه سبحانه فى مكان وجهة
وهذا ضعيف والمراد الى حكمه ترجعون لانه تعالى يبعث من فى القبور
ويجمعهم فى المحشر فذلك هو الرجوع وانما وصف هذا بانه رجوع
الى الله لانه رجوع الى حيث لا يتولى الحكم فيه غير الله كقولهم رجع الحكم
الى الامير اى الى حيث لا يحكم فيه غيره الفائدة السادسة تمسك
اهل التناسخ على قدم الارواح بهذه الاية وذلك لان الرجوع الى الله
لا يصح الا بعد ان يقال كانت قبل تعلقها بالابدان فى حضرة الله واكدوا
هذه الاية بقوله ارجعى الى ربك راضية مرضية والجواب ان الارواح
لما كانت من عالم الآخرة لا جرم سميت مفارقتها عن ابدانها بالرجوع
الى الله سبحانه الفائدة السابعة هذه الاية دالة على وجود الصانع
سبحانه فان الحيوة والموت ليستا من افعال البشر فلا بد من مدبر
وتمام تقرير ما ذكره فى باب الاستدلال على وجود الصانع بتكوين
بدن الانسان الفائدة الثامنة ان هذه الاية تدل على انه لا قدرة

على الاحياء والاماتة الا الله سبحانه فبطل به قول اهل الطبايع ان
المؤثر في الحيوة والموت هو الطبايع والكواكب والاركان والمزاجات
وفيه ابطال قول من حكى الله عنهم وقالوا ان هي الا حيوتنا الدنيا
نموت ونحيى وما يهلكنا الا الدهر الفائدة التاسعة الآية دالة
على صحة الحشر ومنبهة على الدليل العقلي الدال على امكان الحشر
والنشر لانه بين ان هذه الاشياء كانت ميتة فاحياه الله فاذا
جاز الاحياء بعد الموت ففي المرة الثانية كان ذلك اولى الفائدة
العاشرة الآية دالة على التكليف والامر والنهي والترغيب والترهيب
والثواب والعقاب الفائدة الحادية عشر الآية دالة على وجود
الزهد في الدنيا لانه تعالى قال فاحياكم ثم يميتكم فبين انه لا بد بعد
هذا الموت من سوال القبر ثم ذكر بعد ذلك انه لا بد من الرجوع الى الله
ولنشير الى بيان هذه المراتب اما انه كان ميتا حين كان نطفة وعلقة
ومضغة فامر لا شك فيه واما انه تعالى احياه بعد ذلك فهو
ايضا حق وانه احياه وصوره فاحسن صوره وجعله بشرا سويا
واكمل عقله وصيره بصيرا بانواع المنافع والمضار وملكه الاموال
والاولاد والدور والقصور واما انه تعالى يميته فالامر ظاهر فيه
واذا اماته فقد زال عنه كل تلك النعم وصيره بحيث لا يملك شيئا
ولا يبقى منه في الدنيا اثر ولا خبر ويبقى مدة مديدة في اللحود قال
ومن ورائهم برزخ الى يوم يبعثون ينادي فلا يجيب ويستنطق
فلا يتكلم ثم يصير بحيث لا يزوره الاقربون وينساه الاهلون قال
يحيى بن معاذ الرازي تمر اقاربي بحذاء قبري كان اقاربي لم يعرفوني

وقال على رضي الله عنه الهي كاني بنفسي قد اضطجعت في حفرتها وانصرف
المشيعون من تشييعها وبكى الغريب لغربتها وناداها من شفير القبر
ذو مودتها ورحمها عند صرعتها ولم يخف على الناظرين عجز حيلتها فما
رجاي الا ان تقول للملائكة انظروا الى فريد قد نأى عنه الاقربون ووحيد
قد جفاه المحبون اصبح مني قريبا وفي اللحد غريبا وقد كان لي في الدنيا
محبا وداعيا ولاحساني اليه عند وصوله الى هذا البيت راجيا فاحسن
الى هناك يا قديم الاحسان وحقق رجاء فيك يا واسع الغفران
واما انه لا بد من الرجوع الى الله سبحانه فلانه سبحانه يامر بان ينفخ
في الصور وقال ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الارض
الآية وقال يخرجون من الاجداث سراعا كانهم الى نصب يوفضون
ثم يعرضون على الله كما قال وعرضوا على ربك صفا فيقومون خاشعين
خاضعين كما قال وخشعت الاصوات للرحمن قال بعضهم الهنا اذا قمنا
من ترى الاجداث مغبرة رؤسنا ومن شدة الخوف شاحبة وجوهنا
ومن هول القيامة مطرقة رؤسنا ومن طول المدة في القيامة جايعة
بطوننا وبلاية لاهل الموقف سواتنا ومن ثقل الاوزار مثقلة
ظهورنا وبقينا متحيرين في امورنا نادمين على ذنوبنا فلا تضاعف
علينا المصايب باعراض وجهك الكريم عنا ولا تمنع غفرانك ورحمتك
يا عظيم الرحمة ويا واسع المغفرة قوله هو الذي خلق لكم ما في الارض
جميعا اعلم انه تعالى لما ذكر الحيوة التي هي اصل جميع النعم اتبعه بذكر
المنتفع به وهو المنافع المخلوقة في الارض وما احسن هذا الترتيب
فان الانتفاع بالارض والسماء لا يكون الا بعد حصول الحيوة اما لفظ

الخلق فقد مر تفسيره واما قوله لكم فهو يدل على ان كل ما خلقه
فى الارض انما خلقه لمنفعة المكلفين اما فى الدنيا واما فى الدين
فبان يستدل المكلف بهذه الاشياء ويعتبر بها فى ثبات الصانع
ومعرفة قدرته وعلمه وحكمته وجمع بقوله ما فى الارض جميعا
كل ما فى الارض فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال
ومنها ما يتصل بضروب الحرف والصناعات والامور التى استنبطها
العقلاء وبين تعالى ان كل ذلك انما خلقها حتى ينتفع المكلف بها
كما قال وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض فكانه سبحانه قال
كيف تكفرون بالله الذى خلق لكم ما فى الارض جميعا ويقال كيف
تكفرون بقدرة الله على اعادتكم وقد خلق لكم ما فى الارض فكيف
يعجز عن اعادتكم ثم انه سبحانه ذكر تفاصيل هذه المنافع فى سور
مختلفة كما قال انا صببنا الماء صبا ثم شققنا الارض شقا وسنستقصى
الكلام فى شرح هذه التفاصيل فى باب الاستدلال على وجود الصانع
باحوال الحيوان والنبات ثم ههنا فوايد الفائدة الاولى اللام فى
قوله خلق لكم لام الحكمة والغرض واعلم انه تعالى ذكر هذه اللام
فى مواضع احدها وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون والثانى
ان اشرف العبادات بعد الايمان والصلوة فذكر الله تعالى هذا
اللام فيها فقال واقم الصلوة لذكرى وفى الصوم قال عليه السلام
حكاية عن الله تعالى الصوم لى وانا اجزى به ثم ان الامة مجتمعة
على انه يجب على المصلى ان يقول بقلبه اصلى لله ولو قال اصلى لطلب
الجنة او للهرب من النار لم يصح صلوته ثم كانه قال سبحانه عبدى

انك ان وفيت بموجب هذه الايات ملكتك الدنيا والاخرة بلام الملك
اما الدنيا فهو قوله خلق لكم ما فى الارض جميعا واما الاخرة فقوله
وجنة عرضها كعرض السموات والارض اعدت للمتقين والحاصل
انه سبحانه خلقك لخدمته وخلق كل ما سواك لاجلك فان صرفت
نفسك الى خدمته فهو سبحانه يصرف الدنيا والاخرة الى جهة عرضك
كما قال وامر اهلك بالصلوة الى قوله والعاقبة للمتقين النوع
الثانى من الاستدلال باحوال الارض على وجود الصانع المختار
كون الارض مقر للحيوانات ومسكنا لها والله سبحانه ذكر هذا المعنى
فى آيات فى اول سورة البقرة الذى جعل لكم الارض فراشا وقال
فى طه حكاية عن موسى حين استدل بها على وجود الصانع الذى جعل
لكم الارض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وقال فى سورة عم الم نجعل
الارض مهادا وقال فى سورة النمل امن جعل الارض قرارا وجعل
خلالها انهارا الاية وقال فى سورة الملك هو الذى جعل لكم الارض
ذلولا الاية وقال فى سورة نوح والله جعل لكم الارض بساطا وقال
وقال فى المرسلات الم نجعل الارض كفاتا الاية واعلم انه يجب علينا
ان نبحث عن هذه الصفات التى ذكرها الله سبحانه للارض الصفة الاولى
كونه فراشا واعلم انه يعتبر فى كون الارض فراشا للحيوانات شرايط
الشرط الاول كونه ساكنة وذلك لانها لو كانت متحركة الى السفل
لكان من دفع رجله عن الارض واراد بعد ذلك ان يضعها على الارض
لم يقدر على ذلك البتة لانا بينا انه اذا تحرك شيان الى سفل
واحدهما اخف من الاخر لم يصل الاخف الى الاثقل فعلى هذا التقدير

كان يصير المشي على الارض متعذرا على الحيوانات واما ان كانت
الارض متحركة على الاستدارة كان الهواء المحيط بها شديد التموج
بسبب حركتها فعند ذلك يصير الانسان وغيره من الاجسام الصغيرة
متحركة نحو جهة حركة الارض بالاضطرار ويمتنع عليها الحركة الى خلاف
تلك الجهة وعلى هذا التقدير يصير المشي متعذرا ونقل الامتعة من موضع
الى موضع متعذرا اما اذا كانت الارض واقفة ساكنة لاجرم كان
المشي ممكنا ونقل الامتعة من مكان الى مكان متيسرا على حسب المراد
والمصلحة فحينئذ يصلح كون الارض مسكنا للحيوانات ثم قد عرفت
انها ساكنة لا بسبب علاقة فوقها ولا دعامة تحتها والا لعاد
الكلام في تلك العلاقة وتلك الدعامة ولزم التسلسل واذا ثبت
انها ساكنة بلا علاقة ولا دعامة ثبت ان ممسكها هو الله سبحانه
بقدرته واختياره وهو المراد في قوله ان الله يمسك السموات والارض
ان تزولا وقد تقدم ذلك مستقصى الشرط الثاني في كون الارض
فراشا للحيوانات ان لا يكون في غاية الصلابة ولا في غاية الرخاوة
اما انه يجب ان لا يكون في غاية الصلابة فانها لو كانت كذلك كالحجر
مثلا كان النوم عليه والمشي مما يولم البدن وايضا لم تنبت منه
انواع النبات والاشجار والثمار وايضا كان يسخن شديدا في الصيف
ويبرد شديدا في الشتاء فما كان يصلح لسكنى الحيوانات وايضا كان
يتعذر اتخاذ الابنية والمساكن منه وكان يتعذر حفرها وتركيبها
كما يراد وكما يوافق المصلحة فثبت ان الارض لو كانت صلبة حجرية
لما كان يصلح لان يكون فراشا للانسان من هذه الوجوه ثم تامل ان اعز

الاشياء عند الانسان الذهب والفضة والياقوت والزمرد ولو
انا قدرنا ان الارض كانت مخلوقة من هذه الاشياء لفاتت هذه المصالح
باسرها وبطلت المنافع وبهذا يظهر انه لا نسبة للتراب في كثرة المنافع
والمصالح الى هذه الاشياء التي يظنها الانسان كونها في غاية الشرف
والنفاسة وايضا من شرائط كون الارض فراشا ان لا يكون في غاية
الرخاوة كالماء وسائر الاشياء التي يغوص الانسان فيها فثبت ان كونها
فراشا للانسان وغيره كونها بهذه الصفة التي خلقها الله تعالى عليها
الشرط الثالث في كونها فراشا ان لا يكون في غاية الشفافية واللطافة
فان الشفاف لا يستقر عليه النور وما كان كذلك فانه لا يقبل السخونة
من الشمس والكواكب فيبقى في غاية البرد فلا يصلح ان يكون مقرا
للحيوان وايضا ما جعلها في غاية الصقالة والبراقة والا لكان
يحترق من يقرب منها بسبب انعكاس اشعة الشمس عنها كما يحترق القطنة
التي تقرب من البلورة المخروطة اما لما جعل الارض كثيفة غبراء يمكن
استقرار النور على وجهها فحصل نوع من السخونة فيها ولما دنت كثيفة
لم ينعكس الاشعة منها فلاجرم صارت متوسطة في الحر والبرد فصلحت
ان يكون فراشا للحيوان الشرط الرابع ان يكون خارجا من الماء وذلك
لان الانسان وغيره من الحيوانات البرية لا يمكنه ان يعيش في الماء
والارض لا يمكن مسكنا للانسان وسائر الحيوانات الا اذا كانت
بارزة من الماء ثم ان طبع الارض يقتضي ان يكون غايصة فكان يجب
في كل الارض ان يكون البحار محيطة بها ثم انه سبحانه لكمال قدرته
ونهاية حكمته وغاية بالعباد قلب طبع الارض واخرج بعض جوانبها

من الماء كالجزيرة والبارزة حتى صلحت ان يكون فراشا لنا فهذه جملة
شرايط المعتبرة في كون الارض فراشا الصفة الثانية من الصفات
التي ذكرها الله للارض مهدا والمراد منه انه تعالى جعلها بحيث يتيسر
على العباد ان يتصرفوا فيها بالقعود والقيام والزراعة وساير
جهات المنفعة وهو قريب من الصفة الاولى لان المقصود من
تسميتها بالمهد ان الارض للخلق كالمهد للصبي وهو الذي يمهد فينوم عليه
الصفة الثالثة قوله تعالى الم نجعل الارض مهادا واعلم ان المهاد
مصدر ثم فيه وجوه الاول ان يكون المراد في هذه الآية الممهود المعنى
الم نجعل الارض ممهودا وهذا من باب تسمية المفعول بالمصدر كقولهم
هذا ضرب الامير الثاني ان يكون الارض وصفت بهذا المصدر كما
تقول زيد جود وكريم كانه لكمال في تلك الصفات صار عين تلك الصفة
والثالث ان يكون بمعنى ذات مهاد الصفة الرابعة قوله تعالى في سورة
النمل امن جعل الارض قرارا واعلم انه تعالى ذكر من منافع الارض
في هذه الآية امورا اربعة الاولى كونه قرارا وهذا ايضا قريب من كونها
فراشا وشرايط الاربعة المذكورة هناك معتبرة ايضا ههنا ونزيد
ههنا شرايط اخرى فالشرط الاول انه دحيها وسويها للاستقرار
قال سبحانه والارض بعد ذلك دحيها الى قوله متاعا لكم وقال
في حم السجدة قل اينكم لتكفرون الى قوله ايات للسايلين الشرط
الثاني انه سبحانه جعل الشمس بسبب قرب مدارها عن مدار منطقة
الفلك الاعظم بحيث يبعد تارة من سمت الراس ويقرب اخرى
وبسبب هذه القرب والبعد تختلف الفصول الاربعة وبسبب

اختلاف هذه الفصول الاربعة صلحت البقاع لان يكون مسكنا
للحيوانات على ما بينا شرح هذا المعنى في ذكر منافع الميل في تفسير
اولم ير الذين كفروا ان السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما
الشرط الثالث انه سبحانه جعل الارض كفاتا للاحياء والاموات
على ما سنذكر في تفسير الكفات ولو لم يكن الارض كذلك لما صلحت ان يكون
قرارا للحيوانات المنفعة الثانية من منافع الارض التي ذكرها الله تعالى
في هذه الآية قوله وجعل خلالها انهارا واعلم ان اقسام المياه
المنبعة من الارض اربعة الاول مياه العيون السيالة وهي تنبعث
من ابخرة كثيرة المادة قوية الاندفاع تفجر الارض بالقوة ثم لا يزال
يتبع جزء منها بعد جزء الثاني ماء العيون الراكدة وهي تحدث من ابخرة
بلغت قوتها ان اندفعت الى وجه الارض ولم يبلغ من قوتها وكثرة
مادتها ان يطرد تاليها سابقها والثالث مياه القنى والانهار وهي
ايضا متولدة من ابخرة ناقصة عن ان يشق الارض فاذا ازيل عن وجهها
ثقل التراب صادفت حينئذ تلك الابخرة منفذا يندفع اليه بادنى
حركة والرابع مياه الآبار وهي بعينها كمياه القنى الا انه لم يجعل لها
سبيل الى موضع يسيل اليه ونسبة القنى الى الابار نسبة العيون
السيالة الى العيون الراكدة فقد ظهر بمجموع ما شرحنا انه لولا صلابة
الارض لما اجتمعت تلك الابخرة في باطنها ولولا اجتماعها في باطنها
لما حدثت هذه العيون في ظاهرها المنفعة الثالثة للارض قوله
تعالى وجعل فيها رواسي والمراد منه الجبال ويقول اكثر العيون
والسحب والمعدنيات انما يتكون في الجبال وفيما يقرب منها

اما العيون فلان الارض اذا كانت رخوة نفشت الابخرة عنها
فلا يجتمع فيها قدر يعتد به فاذا هذه الابخرة لا تجتمع الا في الارض
الصلبة والجبال اصلب الاراضي فلا جرم كانت قواها على حبس
هذا البخار حتى يجتمع ما يصلح ان يكون مادة للعيون ويشبه ان يكون
مستقر الجبل مملوما ماء ويكون الجبل في حقنه الابخرة مثل الانبيق
الصلب المعد للتقطير لا يدع شيئا من البخار يتحلل ونفس الارض
تحته كالقرع والعيون كالابار والبحار كالقوابل فان اكثر العيون
انما يتفجر من الجبال واقلها من البراري وذلك الاقل لا يكون الا اذا
كانت الارض الصلبة والسحب انما يتكون في اكثر الامر في الجبال
فلاسباب ثلثة احدها ان في باطن الجبال من الندوات ما لا يكون
في بواطن الارض الرخوة والثاني ان الجبال بسبب ارتفاعها يكون
ابرد فلا جرم يبقى على ظواهرها من الانداء والبلوح ما لا يبقى على
سائر الارض والثالث ان الابخرة المتصاعدة من الجبال تكون
محبوسة بالجبال فلا تتفرق ولا تتحلل واذا ثبت ذلك ظهر ان اسباب
كثرة السحب في الجبال اكثر لان المادة فيها ظاهرا وباطنا اكثر والاحتقان
اشد والسبب المحلل وهو الحواقل فلذلك كانت السحب في الجبال اكثر
واما المعدنيات المحتاجة الى ابخرة يكون اختلاطها بالارضية
اكثر ويبقى ذلك الاختلاط مدة طويلة ثم النضج فيها فلا شيء لها تاثير
في هذه المقصود كالجبال المنفعة الرابعة للارض قوله وجعل بين
البحرين حاجزا فاعلم ان المقصود من ذلك الحاجز احد الامور
الاول ان لا يفسد العذب بسبب اختلاطه بالمالح والثاني ان ينتفع

بذلك الحاجز والثالث للمؤمن في قلبه بحران بحر الحكمة والايمان
وبحر الشهوة والطغيان والحق سبحانه بتوفيقه جعل بينهما حاجزا
لكن لا يفسد احدهما بالاخر وقال بعض الحكماء في قوله مرج البحرين
يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان قال عند عدم البغي بين البحرين
يخرج اللؤلؤ والمرجان فكذلك عند عدم البغي في القلب يخرج الدين
والايمان واعلم ان وجه الاستدلال بهذه الاحوال على اثبات الصانع
الحكيم ظاهر وذلك لانه سبحانه دبر اجزاء الارض على هذه الاحوال
المحكمة المتقنة الموافقة لمصالح العباد وذلك لا يمكن الا بمشية
نافذة وقدرة كاملة وحكمة بالغة الصفة الخامسة للارض
قوله تعالى في سورة الملك هو الذي جعل لكم الارض ذلولا واعلم
ان الذلول من كل شيء المنقاد لك الذي يذل لك ومصدره الذلة وهو
الانقياد واللين ومنه دابة ذلول وفي وصف الارض بالذلول وجوه
الاول انه تعالى لم يجعلها صخرة خشنة تمنع المشي عليها كما تمنع المشي
على وجوه الصخور الخشنة والثاني انه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن
حفرها وتبنى الابنية منها كما يراد ولو كانت حجرية صلبة لتعذر
ذلك والثالث انك ترمي عليها كل قبيح وهي تخرج كل طعام لذيذ والرابع
انها كفات للاحياء والاموات وهذه الوجوه قد شرحناها ثم قال
تعالى فامشوا في مناكبها والمفسرون ذكروا مناكب الارض وجوها
قال صاحب الكشاف المشي في مناكبها مثل لفرط التذليل لان المنكبين
وملتقاهما من الغارب ارق شيء من البعير وابعده من امكان المشي عليه
فاذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبيه فقد صار نهاية في الانقياد

والطاعة فظهران قوله فامشوا فى مناكبها كفاية عن كونها نهاية
فى الذلولية والثانى وهو قول قتادة والضحاك وابن عباس ان
مناكب الارض جبالها واكامها وسميت الجبال مناكب لان الانسان شاخص
والجبال ايضا شاخصة والمعنى انى سهلت عليكم المشى فى مناكب الارض
وهى ابعد اجزائها عن التذليل فكيف الحال فى ساير اجزائها والثالث
ان مناكبها هى الطرق والفجاج والاطراف والجوانب وهو قول
الحسن ومجاهد وقوله وكلوا من رزقه اى مما خلق الله رزقا لكم
فى الارض واليه النشور يعنى ينبغى ان يكون مكثكم فى الارض
واكلكم من رزق الله مكث من يعلم ان مرجعه الى الله واكل من يتيقن
ان مصيره الى الله والمراد التحذير من الكفر والمعاصى وطول الامل
الصفة السادسة للارض قوله تعالى فى قصة نوح والله جعل
لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا اى طرقا واسعة
واحدها فج وهو قريب مما تقدم الصفة السابعة للارض قوله
فى سورة المرسلات الم نجعل الارض كفاتا ومعنى الكفت فى اللغة
الضم والجمع ويقال كفت الشئ اى ضممته ويقال جراب كفيت اذا كان
لا يضيع شيئا مما يجمع فيه والكفات اسم لما كفت كقولهم الضمام والجماع
لما يضم ويجمع يقال هذا الباب جماع الابواب وبه انتصب احياء وامواتا
او بفعل مضمر هذا يدل عليه هذا هو اللغة ثم فى المعنى وجوه
الاول انها تكفت الاحياء على ظهرها والاموات فى بطنها والمعنى
ان الاحياء يسكنون فى بيوتهم والاموات يدفنون فى قبورهم
ولهذا المعنى كانوا يسمون الارض امّا لانها فى ضمها الناس كالام

التى تضم ولدها وتكفله ولما كانوا ينضمون ضمها اليها جعلت كأنها
تضمهم والثانى انها كفات للاحياء بمعنى انها تكفت ما ينفصل من الاحياء
من الامور المستقذرة الثالث انها كفات للاحياء بمعنى انها جامعة لما
يحتاج الانسان اليه فى حيوته من مأكل ومشرب لان كل ذلك يخرج
من الارض وايضا المساكن الجامعة للمصالح الدافعة للمضار مبنية
منها الرابع ان قوله احياء وامواتا راجع الى الارض والحى ما انبت
والميت ما لم ينبت بقى فى الآية سؤالان السؤال الاول لم قال احياء
وامواتا على التنكير وهى كفات الاحياء والاموات الجواب هو من باب
تنكير التفخيم كانه قيل تكفت احياء وامواتا لا تحصر والسؤال الثانى
هل يدل على وجوب قطع النباش الجواب نقل القفال ان ربيعة
قال دلت الآية على ان الارض كفات الميت فيكون حرزا له والسارق
اذا سرق من الحرز يجب عليه القطع الصفة الثامنة للارض قوله
منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة اخرى فهى لنا كالام
الحاضنة التى تربينا حالتى الحيوة والموت النوع الثالث من الاستدلال
باحوال الارض على وجود الصانع الحكيم سبحانه واعلم ان هذه الاحوال
يدل من وجوه الاول ان الاشياء المتولدة فيها من المعادن والنبات
والحيوانات والآثار العلوية والسفلية كثيرة لا يعلم تفاصيلها
الا الله تعالى والثانى من منافع الارض ان الماء لرقته ورطوبته
لا يحفظ الشكل والتصوير فاذا خلط بين الماء والتراب حصل فى
الماء نوع قوام واستمساك وحصل فى التراب قبول الاشكال فيصير
الطين قابلا للتشكيل والتخطيط كما قال تعالى انى خالق بشرا من طين

وقال في حق عيسى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير والثالث اختلاف
بقاع الارض فمنها رخوة وصلبة وحلوة ورمليه وسبخه وحجر
وهي المشار اليه بقوله وفي الارض قطع متجاورات وقال والبلد
الطيب يخرج نباته باذن ربه الاية والرابع اختلاف الوانها فاحمر
واسود وابيض ورمادي اللون واسمر واغبر كما قال ومن الجبال
جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود والخامس تصدعها
بالنبات كما قال والارض ذات الصدع والسادس كونها خازنة
للماء المنزل من السماء واليه الاشارة بقوله وانزلنا من السماء ماء
بقدر فاسكناه في الارض الاية وقال قل ارايتم ان اصبح ماؤكم
غورا والسابع العيون والانهار العظام والصغار التي في الارض
واليه الاشارة بقوله وجعل فيها رواسي وانهارا والثامن
ما فيها من المعادن والفلوات واليه الاشارة بقوله والارض
مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل شئ موزون ثم
بين ذلك تمام البيان فقال وان من شئ الا عندنا خزاينه وما ننزله
الا بقدر معلوم التاسع الزروع والاشجار التي تنبت من الارض
من الحب والنوى قال الله تعالى ان الله فالق الحب والنوى وقال
يخرج الخبء في السموات والارض ثم ان الارض لها طبع الكرم لانك
تدفع اليها حبة واحدة وهي تردها عليك سبعماية قال كمثل حبة
انبتت سبع سنابل في كل سنبلة ماية حبة العاشر حيوتها بعد موتها
قال اولم يروا انا نسوق الماء الى الارض الجرز فنخرج به زرعا وقال
واية لهم الارض الميتة احييناها والحادي عشر ما عليها من الدواب

المختلفة الالوان والصور والخلق واليه الاشارة بقوله وبث فيها
من كل دابة والثاني عشر ما فيها من النبات المختلف انواعه وطباعه
ومنافعه واليه الاشارة بقوله وانبتنا فيها من كل زوج بهيج
واختلاف الوانها دلالة واختلاف طعومها دلالة واختلاف روايحها
دلالة واختلاف منافعها دلالة فمنها قوت البشر ومنها قوت البهايم
كما قال كلوا وارعوا انعامكم ثم ان طعوم البشر ينقسم الى اقسام
منها الطعام ومنها الادام ومنها الدواء ومنها الفاكهة ومنها الانواع
المختلفة قال تعالى وقدر فيها اقواتها في اربعة ايام وايضا فمنها
كسوة البشر لان الكسوة اما نباتيه وهي القطن والكتان واما حيوانية
وهي الشعر والصوف والابريسم والجلود وهي من الحيوانات التي انبتها
الله من الارض فالمطعوم من الارض والملبوس من الارض والغذاء
من الارض والدواء من الارض ثم قال ويخلق ما لا تعلمون وفيه اشارة
الى منافع كثيرة لا نعلمها نحن والحق سبحانه عالم بها ثم انه تعالى جعل
الارض ساترة لقبايحك بعد موتك فقال الم نجعل الارض كفاتا
احياء وامواتا ثم انه سبحانه جمع هذه المنافع العظيمة للسماء والارض
فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض والثالث عشر
ما فيها من الاحجار المختلفة ففي صغارها ما يصلح للزينة مثل الفصوص
اللواتي تتم وفي كبارها ما تتخذ منها الابنيه وانظر الى الحجر الذي يستخرج
منه النار مع كثرته وانظر الى الياقوت الاحمر مع عزته ثم انظر
الى كثرة النفع بذلك الحقير وقلة النفع بهذا الشريف والرابع عشر
ما اودع الله فيها من المعادن الشريفة كالذهب والفضة والملح والنفط

المختلفة

ثم تامل فان البشر استخرجوا الحرف الدقيقة والصنائع الجليلة
واستخرجوا السمك من قعر البحر واستنزلوا الطير من اوج الهواء ثم
عجزوا عن اتخاذ الذهب والفضة والسبب فيه انه لا فايدة في
وجودهما الا الثمنية وهذه الفايدة لا تحصل الا عند العزة والقدرة
على اتخاذها تبطل هذه الحكمة فلذلك ضرب الله دونها بابا مسدودا
اظهارا لهذه الحكمة وابقاء لهذه النعمة واما الذي لا مضرة على
الخلق في اتخاذه فقد اقدرهم عليه مثل اتخاذ الشبه من النحاس
واتخاذ الزجاج من الرمل واذا تامل العاقل في هذه اللطايف
والعجايب اضطر الى افتقار هذه التدابير الى صانع حكيم مقدر عليم
سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا الخامس عشر كثرة
ما يوجد على الاراضي والجبال من الاشجار التي تصلح للبناء والسقف
ثم الحطب ولما اشتدت الحاجة اليه في الخبز والطبخ وقد نبه
الله تعالى على دلايل الارض ومنافعها بالفاظ لا يبلغها البلغاء ولا
يقدر عليها الفصحاء فقال وهو الذي مد الارض وجعل فيها رواسي
وانهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين النوع الرابع من مباحث
الارض اختلفوا في ان السماء افضل ام الارض قال بعضهم السماء افضل
الوجوه الاول ان السماء متعبد الملايكة وما فيها بقعة يعصى الله فيها
حتى ان ابليس لعنة الله لما اظهر الكفر اخرج من السماء وقيل له اخرج
منها فانك رجيم وآدم عليه السلام لما اتى بالزلة قال تعالى اهبطوا
منها وقال له لا يسكن في جواري من عصاني والحجة الثانية انه تعالى
وصف السماء بصفات دالة على العظمة ولم يذكر مثلها في الارض

فقال

فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وبنينا فوقكم سبعا شدادا
سبعا طباقا سقفا محفوظا هل ترى من فطور وما لها من فروج
وقوله تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا
منيرا ثم ذكر عاقبة امرها فقال واذا السماء فرجت واذا السماء
كشطت يوم نطوي السماء ويكون السماء كالمهل واما الموضع الذي
ذكر فيه حال الارض وفيه ذكر السماء بما يدل على عظم حال السماء فقال
والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه
ومعلوم ان اليمين اشرف الحجة الثالثة انه تعالى جعل الارض
موضع السجود والسموات قبلة للدعا فالايدي ترفع اليها والوجوه
تتوجه نحوها والقلوب متعلقة بها الحجة الرابعة انها منزل الانوار
ومحل الصفاء والاضواء ومصونة عن الخلل والفساد ومحل الطهارة
والعصمة والارض ليست كذلك الحجة الخامسة السموات مؤثرة
غير متاثرة والارضون متاثرة غير مؤثرة والمؤثر اشرف من القابل
ومما يدل على ان السموات مؤثرة قوله فليمدد بسبب الى السماء وقوله تعالى
حكاية عن فرعون لعلي ابلغ الاسباب اسباب السموات الحجة السادسة
ان السموات مزينة بثمانية اشياء ثلثة منها محسوسة وهي الشمس
والقمر والنجوم وخمسة منها غير محسوسة وهي العرش والكرسي
واللوح والقلم والجنة وامثال هذه الاشياء غير موجود في الارض
ولا ما يناسبها ويشاكلها الحجة السابعة انه تعالى ذكر امر
السموات والارض في كتابه وفي كل المواضع قدم ذكر السموات على
الارض وذلك يدل على المقصود وقال بعضهم بل الارض افضل

واحتجوا عليه بوجوه الحجة الاولى انه تعالى وصف بقاعا من الارض
بالبركة اولها قوله ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا
وثانيها قوله في البقعة المباركة من الشجرة وثالثها قوله سبحان
الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا
حوله ورابعها وصف ارض الشام بالبركة فقال مشارق الارض
ومغاربها التي باركنا فيها وخامسها وصف جملة الارض بالبركة فقال
اينكم لتكفرون الى قوله وجعل فيها رواسي وبارك فيها الآية فان قيل
واي بركة في الفلوات الخالية والمفاوز المهلكة قلنا انها مساكن
الوحوش ومرعاها ولولاها لاختلطت السباع بالناس في مساكنهم
ثم انها مساكن الناس اذا احتاجوا اليها وهذه الحجة ضعيفة لان الله تعالى
اثبت وصف البركة في السموات في قوله وبركات من السماء الحجة الثانية
انه تعالى خلق الانبياء المكرمين من الارض على ما قال منها خلقناكم
وفيها نعيدكم ولم يخلق من السموات شيئا لانه قال وجعلنا السماء سقفا
محفوظا الحجة الثالثة انه سبحانه اكرم نبيه بها فجعل الارض له كلها
مسجدا وجعل ترابها طهورا النوع الخامس من المباحث ما يدل على
تعظيم حال السماء والارض اعلم انه سبحانه بين صفات جلاله ونعوت
كبريائه بالاضافة الى السموات والارض وهذه الايات كثيرة في القران
اما القسم الاول الآيات الدالة على الخلق قوله الحمد لله الذي خلق
السموات والارض ثم بين ان هذا الخلق اعظم من خلق الناس فقال
لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس وقال انتم اشد خلقا
ام السماء بناها وقال وليس الذي خلق السموات والارض بقادر

على ان يخلق مثلهم بلى الآية ثم بين انه خلقها بالحق فقال خلق السموات
والارض بالحق تعالى عما يشركون ثم بين انه ما خلقها باطلا فقال وما
خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلا ثم بين ان الكل تحت تدبيره
فقال الله الذي يخرج الخبء في السموات والارض ثم بين ان في خلق
السموات والارض اسرارا عجيبة فقال في سورة البقرة ان في خلق
السموات والارض الآية وقال في سورة آل عمران ان في خلق السموات
والارض الآية ثم بين سبحانه انه ما اطلع احدا على اسرار هذا الخلق
فقال ما اشهدتهم خلق السموات والارض وما خلق انفسهم هذا ما يتعلق
بصفة الخلق القسم الثاني ما يتعلق بصفة الربوبية فقال سبحانه
حكاية عن موسى في سورة الشعراء استدلالا على فرعون رب
السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين وقال ايضا الله
نور السموات فقال قوم الله منور السموات والارض كما يقال فلان
نور هذا البلد اذا كان سببا لنظم مصالح البلد وقال بعضهم الله هادي
اهل السموات والارض وقال بعضهم الله منور السموات والارض
وقال بعضهم لله نور السموات والارض واحتج على هذه القراءة
بقوله مثل نوره ثم بين انه غير عاجز عن هذا التدبير فقال وما
كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الارض القسم الثالث
ما يتعلق بالملك فقال ولله ملك السموات والارض ثم ذكر
التفصيل فبين انه مالك الجنود فقال ولله جنود السموات والارض
وانه مالك الخزائن ولله خزائن السموات والارض وانه المالك لفتح
المغاليق فقال له مقاليد السموات والارض ثم ذكر انه المالك للكل

العقلاء فقال وله من في السموات ومن في الارض ثم اكد كيفية
هذه العبودية فقال ولله يسجد من في السموات وقال ايضا
يسجد له ما في السموات والارض ثم بين انه يجعل البعض مسخرا
للبعض بل يجعل القوى مسخرا للضعيف فقال وما خلقنا السماء
والارض وما بينهما لاعبين لو اردنا ان نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا
ثم بين فقال وسخر لكم ما في السموات وما في الارض ثم بين انه
لا يعجزه احد فقال وما انتم بمعجزين في الارض ولا في السماء
وقال فان استطعت ان تبتغي نفقا في الارض او سلما في السماء
واعلم ان الفرق بين الملك والمالك موجود على ما هو معلوم في تفسير
قوله مالك يوم الدين وملك يوم الدين ثم بين انه كما هو الملك
فهو ايضا مالك الملك فقال قل اللهم مالك الملك توتي الملك من تشاء
ثم بين بقاء الملك وكثرة بركاته فقال تبارك الذي له ملك السموات
والارض القسم الرابع ما يتعلق بالعلم وهو قوله ولله غيب السموات
والارض ثم بين انه تعالى يعلم الغيب والشهادة فقال يعلم ما في
السموات وما في الارض ثم بين احاطة علمه فقال لا يعزب عنه
مثقال ذرة في الارض ولا في السماء ثم بين جلاله في هذا العلم فقال
قل ربي يعلم القول في السماء والارض ثم بين انه لا يخفى عليه شيء البتة
فقال لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء القسم الخامس ما يتعلق
بكيفية التدبير قال يدبر الامر من السماء الى الارض القسم السادس
ما يتعلق بالتسبيح والحمد فقال سبح لله ما في السموات والارض
وقال يسبح لله ما في السموات وما في الارض وقال وله الحمد

في السموات والارض القسم السابع ما يتعلق بالكبرياء فقال
وله الكبرياء في السموات والارض وقال وله المثل الاعلى وقال
فصعق من في السموات ومن في الارض وقال وسع كرسيه السموات
والارض وقال وله اسلم من في السموات والارض وقال يسئله
من في السموات والارض وقال انا عرضنا الامانة على السموات
والارض الآية وكل ذلك يدل على نهاية الجلالة والعظمة والهيبة
وقال وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئا ونظيره من
ذا الذي يشفع عنده الا باذنه وقوله يوم يقوم الروح والملائكة
صفا الآية وقال وخشعت الاصوات للرحمن وقيل يا ارض ابلعي
ماءك ويا سماء اقلعي وقال وهو الذي في السماء اله وفي الارض
اله القسم الثامن ما يتعلق بالالهية وهو قوله سبحانه وهو الله
في السموات وفي الارض يعلم سركم وجهركم وقال وهو الذي في
السماء اله وفي الارض اله القسم التاسع ما يتعلق بالنظر والاستدلال
قال وكاين من اية في السموات والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون
وقال قل انظروا في السموات والارض وقال وما بكت عليهم السماء
والارض وما كانوا منظرين واعلم ان اكثار الله من ذكر السموات
والارض في القران يدل على عظم شانهما وعلى انه سبحانه جعل فيهما
اسرارا عجيبة وحكمة بالغة لا يصل اليها افهام الخلق ولا عقولهم
فان قيل فما الحكمة في انه سبحانه عرف صفات جلاله وقدسه وعظمته
بذكر السموات والارض قلت الحكمة فيه ان ذات الله سبحانه غير مشاهد
للخلق ابتداء بل لا سبيل الى معرفتها الا بالدلايل والبراهين وكلما كانت

الاثار اجل واعظم كان ذلك دل على عظمة المؤثرات فلما كان اعظم
الموجودات المحسوسة هو السموات والارض لاجرم عرف الله سبحانه
كمال قدرته ونهاية علمه وحكمته بذكر السموات والارض فهذا
تمام القول في هذا الموضع النوع السادس من شرح المنافع الحاصلة
من مجموع السماء والارض اعلم ان السماء والارض مع غاية بعد كل
واحد منهما عن الاخر متعاونان على تحصيل مناظم العالم ومصالحه
وبيانه من وجوه الاول ان الفوق هو الذي يلي جهة السماء والتحت
هو الذي يلي جهة الارض والجهات لا توجد الا بالفوق والتحت
والسماء والارض متعاونان على تحصيل وجود الجهات واذا كان
حصول الجهات من توابع السماء والارض وحصول الجهات من المناظم
كانت السماء والارض متعاونين على تحصيلها وكان خالق السماء والارض
منزها عن الجهات والاحياز الثاني ان السماء والارض متعاونان
على تحصيل النبات والسماء كالاب ينزل القطر من صلبه ويقع في بطن
الارض فاذا وقعت الحبة في ذلك البطن اثرت نداوة البطن في تلك
الحبة وكذلك السخونة المختفية في باطن الارض فوصلت النداوة الى باطن
الحبة واثرت وبسبب تلك السخونة انتفخت تلك الحبة وربت فعظمت
فانفلقت فلقة من فوقها وفلقة من تحتها والانفلاق الفوقاني
يخرج منه ساق الشجر والانفلاق التحتاني يخرج منه عروق الشجر
واذا عرفت هذا فنقول لو وقعت الحبة في ارض يابسة لم يحصل المقصود
اصلا ولو وقعت في الطين ولكن بحيث لا يصل اليه تاثير الهواء وشعاعات
الكواكب لم يحصل المقصود اصلا الا ترى ان الاشجار التي تكون في ظل

مانع من شروق نور الشمس والقمر عليها فانها تكون فاسدة ناقصة
والشجرة الصغيرة الواقعة في ظل شجرة كبيرة يكون ايضا فاسدة فاذا
تاملت هذا علمت ان هذا المقصود لا يحصل الا اذا وجدت كرة الارض
ووجدت كرة الماء كانا متقاربين بحيث يمتزجان ثم لا بد من وصول
الهواء اليه الا ان الهواء جرم خفيف صاعد بالطبع فلا يغوص بالطبع
في عمق الارض والطين فدبر الحكيم الرحيم لهذا تدبيرا وهو انه حرك الهواء
حتى صار ريحا ثم ان الريح يموج بقية الهواء فاذا تموجت عرض لبعضها
في اثناء ذلك التموج ان يغوص في عمق الارض واليه الاشارة بقوله
وارسلنا الرياح لواقح وانما القاحها في ايقاع الازدواج بين الارض
والماء والهواء ثم ان ذلك لا يفيد المقصود الا مع حرارة لطيفة سماوية
فعند ذلك لا بد من حرارة الربيع في الانبات ومن حرارة الصيف في الانضاج
فقد عرفت ان المقصود لا يحصل الا عند اجتماع تاثيرات العناصر الاربعة
السفلية وتاثيرات الشعاعات الفلكية ثم عند اجتماع هذه الاسباب
العلوية والسفلية لا يحصل المقصود الا بقدرته ولا يتكون المطلوب
الا بنفاذ مشيته وذلك لان من الارض الواحدة والماء الواحد والهواء
الواحد وتاثير الشمس والقمر في الكل على السوية يخرج انواع النبات
مختلفة في الطبع والطعم واللون والرايحة فدل ذلك على ان العناصر
والافلاك اسباب ظاهرة والمؤثر في الحقيقة هو القدرة الازلية
والمشية السرمدية الوجه الثالث ان النهار عبارة عن مدة ظهور
نور الشمس والليل عبارة عن مدة اختفاء نور الشمس بسبب ظل الارض
ومنافع الليل والنهار كثيرة على ما سنذكرها واذا كان السبب القريب

لحدوث الليل والنهار هو وجود السماء والارض ولهذا السبب
فانه تعالى اينما ذكر احوال الليل والنهار ففي الاكثر يكون ذلك مسبوقا
بذكر السماء والارض تنبيها على ان سبب الليل والنهار هو الارض
والسماء ثم العجب ان السماء والارض كالمتقابلين والمتضادين ثم
انهما صارا متعاونين على تحصيل اسباب مصالح هذا العالم والمتضادان
يوجبان الفساد فلما صار هذان الضدان موجبين لحصول اسباب
الصلاح علم ان ذلك بتدبير مدبر وتقدير مقدر حكيم عليم سبحانه
عما يقول الظالمون علوا كبيرا وهذا اخر الكلام في الدلايل الماخوذة
من السماء والارض **الباب الثاني** في وجوه الدلايل الماخوذة
من الشمس والقمر والنجوم وفيه فصول الفصل الاول في تقرير دليل
الخليل عليه السلام قوله لا احب الافلين قال تعالى حكاية عنه واذ
قال ابرهيم لابيه آزر الاية اعلم ان قبل الخوض في التفسير لا بد من
مقدمات المقدمة الاولى انه سبحانه كثيرا ما يحتج على مشركي العرب
باحوال ابرهيم وذلك لانه كان نبيا يعترف بفضله جميع الطوايف
والملك فالمشركون كانوا معترفين بفضله مقرين بانهم من اولاده
فاليهود والنصارى والمسلمون كلهم معظمون له معترفون بجلال
قدره فلاجرم ذكر الله تعالى حكاية حاله في معرض الاحتجاج على المشركين
واعلم ان هذا المنصب لعظيم وهو اعتراف اكثر الخلق بفضله وعلو
مرتبه لم يتفق لاحد كما اتفق للخليل عليه السلام والسبب فيه
ان بين العبد وبين الرب معاهدة كما قال واوفوا بعهدي اوف
بعهدكم وابرهيم عليه السلام اوفى بعهد العبودية والله تعالى

شهد

شهد بذلك على سبيل الاجمال تارة وعلى سبيل التفصيل اخرى اما
الاجمال ففي آيتين احديهما قوله واذ ابتلى ابرهيم ربه بكلمات فاتمهن
وهذا شهادة من الله تعالى انه اوفى بعهد العبودية والثانية قوله تعالى
اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين واما التفصيل فهو انه
ناظر في اثبات التوحيد وابطال القول الشركاء والانداد مع ابيه
وهو قوله يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا وناظر
ايضا في هذه المسئلة مع قومه وهو قوله تعالى فلما جن عليه الليل
راى كوكبا الاية وناظر مع ملك زمانه ايضا قال ربي الذي يحيي ويميت
ثم ناظر ايضا مع قومه بالفعل وهو قوله تعالى فجعلهم جذاذا الا
كبيرا لهم ثم ان القوم قالوا حرقوه وانصروا الهتكم ان كنتم فاعلين
يروى انه عليه السلام لما وضع في المنجنيق ضجت السماء والارض
وكل المخلوقات الا الثقلين وقالوا ربنا ليس في الارض احد يعبدك
ويوحدك غير ابرهيم ثم انه يحرق بالنار لاجلك ايذن لنا في نصرته
فاوحى الله سبحانه الى الارض والجبال والبحار ان استعان بكم فاعينوه
وان استنصركم فانصروه وان دعاني فانا وليه وناصره وكفى بي
وليا فلما ارادوا القاءه في النار قال يا احد يا صمد بك استعين
وعليه اتوكل حسبي الله لا اله الا هو ونعم الوكيل فجاء ملك المطر وعرض
نفسه عليه فلم يلتفت وجاء خازن الريح وقال ان اذنت امرت الريح
ان تفرق النار في شرق الارض وغربها فلم يلتفت فرمي من المنجنيق
فقبل ان يصل الى النار قال جبرئيل عليه السلام الان جاء وقتي فعرض
نفسه عليه وقال هل من حاجة فقال اما اليك فلا قال جبرئيل فلا ترفع

حاجتك الى الله قال عليه السلام حسبي من سوالي علمه بحالي فان قيل
السنتم رويتم انهم لما ارادوا القاه في النار دعا الله واستعاذ به ثم
ذكر ثم انه في هذه الحالة لم يذكر شيئا فما الفرق بين الحالتين قلنا الانسان
قبل الوقوع في البلاء لا يكون طمعه منقطعا عن النفس فيشتد عليه
البلاء فعند ذلك قد يشتغل بالدعاء اما عند الوقوع في البلاء ينقطع
طمعه عن النفس والاحجاب عن الرب الا الاشتغال بالنفس فبادراك
ذلك الحجاب تجلى في قلبه نور جلال الله تعالى فحينئذ يستنكف ان يرجع
الى الله في خلاص النفس وفي بعض الروايات انه لما قال جبرئيل عليه السلام
لم لا تستعين بالرب قال لماذا قال على النفس قال الخليل النفس معيوبة
لا خطر لها فلا اسال من علام الغيوب نجات النفس المعيوب فقال
جبرئيل ستعن على الروح قال الروح عارية والعارية مودات فقال
جبرئيل ستعن على النار قال من اوقد النار قال العدو قال ومن قضى
قال الحبيب قال الخليل فالحبيب راض بحكم الحبيب فلما انقطع نظر الخليل
عن الوسايط والاسباب فالحق سبحانه ايضا رفع الوسايط
والاسباب فقال يا نار كوني بردا وسلاما على ابرهيم ثم انه
عليه السلام بعد هذه الواقعة بذل ولده فقال اني ارى في المنام
اني اذبحك فعند ذلك صار ابرهيم من العتان لانه سلم نفسه
للعرفان ولسانه للبرهان وبدنه للنيران وولده للقربان وماله
للضيفان فكمل عهد عبوديته ثم انه سال بعد ذلك ربه فقال
واجعل لي لسان صدق في الاخرين فوجب في كرم الحق ان يحقق
مطلوبه في هذا السوال فلا جرم اجاب دعاه وقبل نداه وجعله

مقبول

مقبول جميع الفرق والطوايف الى اخر القيامة ولما كان طوايف العرب
معترفين بفضله لا جرم جعل الله مناظرته مع قومه حجة على مشركي
العرب المقدمة الثانية اعلم انه ليس في العالم احد يثبت لله شريكا
يساويه في الوجوب والقدرة والعلم والحكمة لكن الثنوية يثبتون
الهين اثنين احدهما حكيم يفعل الخير والثاني سفيه يفعل الشر اما الاشتغال
بعبادة غير الله ففي الذاهبين اليه كثرة فمنهم عبدة الكواكب وهم فريقان
منهم من يقول انه تعالى خلق هذه الكواكب وفوض تدبير العالم السفلي
اليها فهذه الكواكب مدبرات لهذا العالم قالوا فيجب علينا ان يعبد
هذه الكواكب ثم ان هذه الكواكب مشتغلة بعبودية الله وطاعته
ومنهم قوم ينكرون الصانع سبحانه ويقولون هذه الافلاك والكواكب
اجسام واجبة الوجود لذواتها ويمتنع عليها العدم وايضا هي المدبرة
لهذا العالم وهولاء هم الدهرية الخالصة وممن يعبد غير الله النصارى
الذين يعبدون المسيح ومنهم ايضا عبدة الاوثان والاصنام واعلم
ان ههنا بحثا مهما كما لا بد منه وهو انه لا يرى دين اقدم من عبدة
الاوثان وذلك لان اقدم الانبياء الذين وصل الينا تاريخهم
هو نوح عليه السلام وهو انما جاء بالرد على عبدة الاصنام
على ما اخبر الله تعالى عنه في قوله ولا تذرن ودا ولا سواعا
ولا يغوث ويعوق ونسرا فعلمنا ان دين عبدة الاصنام كانت
موجودا قبل نوح وهو باق الى الان بل اكثر سكان اطراف العالم
مستمرون عليه والمذهب الذي هذا شانه تمتنع ان يكون معلوم
البطلان بضرورة العقل لكن العلم بان هذا الحجر المنحوت في هذه الساعة

ليس هو الذي خلقني وخلق السماء والارض علم ضروري فيستحيل
اتفاق كثيرين من العقلاء عليه فظهر انه ليس دين عبدة الاوثان
كون الصنم خالقا للسماء والارض والعلماء ذكروا فيها وجوها
الاول ان الناس راوا تغيرات هذا العالم واحوالها مربوطة بتغيرات
احوال الكواكب فان بحسب قرب الشمس وبعدها عن سمت الرأس
تحدث الفصول الاربعة وبسبب حدوث الفصول الاربعة حدثت
الاحوال المختلفة في هذا العالم ثم ان الناس رصدوا احوال سائر
الكواكب فاعتقدوا ارتباط السعادات والنحوسات بكيفية
وقوعها في طوالع الناس فلما اعتقدوا ذلك غلب على ظنون اكثر
الخلق كون المقدر لاحوال هذا العالم وحوادثه اتصالات هذه
الكواكب وتاثيرتها ولما اعتقدوا ذلك بالغوا في تعظيمها ثم منهم
من اعتقد انها واجبة الوجوب لذواتها ومنهم من اعتقد حدوثها
وكونها مخلوقة للاله الاكبر الا انهم قالوا انها مخلوقة للاله الاكبر
وخالقة لاحوال هذا العالم وهؤلاء هم الذين اعتقدوا انها وسايط
بين الاله الاكبر وبين اصحاب هذا العالم على كلا التقديرين فالقوم
اشتغلوا بعبادتها وتعظيمها والخضوع لها ثم انهم لما راوا ان الكواكب
قد يستتر عن الابصار في اكثر الاوقات اتخذوا لكل كوكب صنما من
الجواهر المنسوب اليه فاتخذوا صنم الشمس من الذهب فزينوه بالاحجار
المنسوبة الى الشمس وهو الياقوت والالماس واتخذوا صنم القمر
من الفضة وعلى هذا القياس ثم قبلوا على عبادة هذه الاصنام
وغرضهم من هذه العبادة عبادة تلك الكواكب والتقرب اليها

وهذه

وهذه الاصنام عندهم كالقبلة والمعبود عندهم هو تلك الكواكب
وعند هذا البحث يرجع حاصل دين عبدة الاوثان الى عبادة الكواكب
واما الانبياء عليهم السلام فلهم ههنا مقامان احدهما اقامة الدلالة
على ان هذه الكواكب لا تفعل شيئا والثاني انه بتقدير انها يفعل
شيئا لكن دلائل الحدوث حاصلة فيها فلابد فيها من ان تكون مخلوقة
لاله قديم ازلي والاشتغال بعبادة الاصل اولى من الاشتغال بعبادة
الفرع والعبد ومما يدل على صحة ما رويناه من عبدة الاوثان انه تعالى
لما حكى عن الخليل عليه السلام انه قال لابيه آزر اتتخذ اصناما آلهة
اني اريك وقومك في ضلال مبين فافتى بهذا الكلام ان عبادة
الاصنام جهل وضلال ثم لما اشتغل بذكر الدليل قام الدليل على ان
الكواكب والشمس والقمر لا يصلح شيء منها للالهية وهذا يدل على ان دين
عبدة الاوثان يرجع حاصله الى القول بالهية الكواكب والشمس والقمر
والا لم يكن بين قوله اتتخذ اصناما آلهة وبين قوله فلما جن عليه
الليل راى كوكبا تعلق ولا مناسبة واذا عرفت هذا ظهر انه لا طريق
الى ابطال القول بعبادة الاوثان الا بابطال كون الشمس والقمر
والكواكب آلهة وهو الذي حكى الله تعالى عن ابرهيم عليه السلام
في هذه الآية الوجه الثاني في شرح حقيقة مذهب من قال من اهل
الصين والهند كانوا يقولون بالله وملائكته الا انهم كانوا يعتقدون
انه تعالى جسم وذو صورة حسنة كاحسن ما يكون من الصور وهكذا
ايضا للملائكة صور حسنة الا انهم كلهم قد احتجبوا عنا فلا جرم
اتخذوا صورا وتماثيل انيقة المنظر حسنة الرؤيا على الصور التي

كانوا يعتقدونها من صور الاله والملائكة ثم يعتكفون على
عبادتها قاصدين به طلب الزلفى الى الله سبحانه والى ملائكته
فان صح ما ذكره ابو معشر فالسبب فى عبادة الاوثان اعتقاد الجسمية
فى الله سبحانه الوجه الثالث ان اصحاب الاحكام من المنجمين كانوا
يعينون اوقاتا فى السنين المطاولة نحو الالف والالفين ويزعمون
ان من اتخذ طلسما فى ذلك الوقت على وجه خاص فانه ينتفع به فى احوال
مخصوصة نحو السعادة والخصب ودفع الآفات وكانوا اتخذوا ذلك
الطلسم عظموه لاعتقادهم انهم ينتفعون به فلما بالغوا فى ذلك
التعظيم صار ذلك كالعبادة ولما طالت الازمنة فالجهال نسوا مبدا
الامر واشتغلوا بعبادتها ومما يدل على صحة هذا التاويل قوله تعالى
فى حكاية ابرهيم عليه السلام فى آخر هذه الآية وكيف اخاف ما اشركتم
الآية وذلك لانه عليه السلام لما طعن فى الهية تلك الاصنام وحسن
عبادتها خوفوه بوصول البلاء اليه من تلك الاصنام وقال تعالى ايضا
حكاية عن قوم هود ان يقول الا اعتريك بعض آلهتنا بسوء والوجه الرابع
كلما مات منهم رجل كبير فاعتقادهم بحيث يعتقدون فيه انه مجاب
الدعوة مقبول الشهادة اتخذوا صنما على صورته يعبدونه على اعتقاد
ان ذلك الانسان يصير شفيعا لهم عند الله يوم القيامة على ما حكى الله
عنهم هذه المقالة فى قوله هؤلاء شفعاؤنا عند الله وقوله ايضا
حكاية عنهم ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى الوجه الخامس لعل
القوم اتخذوا هذه الاصنام محاريب لصلوتهم وطاعاتهم يسجدون
اليها لا لها كما انا نسجد الى القبلة لا للقبلة ولما دامت هذه الحالة

ظن

ظن الحمقى من القوم انها هى المعبود الوجه السادس لعل القوم كانوا
من المجسمة او من الحلولية فاعتقدوا جواز حلول الله فى بعض هذه الاجسام
على هذا التاويل فهذه هى الوجوه التى يمكن حمل مذهب عبدة الاوثان
عليها واذا عرفت هاتين المقدمتين فلنرجع الى تفسير الاية اما قوله
تعالى واذ قال ابرهيم لابيه آزر ففيه المسئلتان المسئلة الاولى
فى آزر قولان الاول انه والد ابرهيم عليه السلام ولهم فى ذلك
دلائل الحجة الاولى ظاهر لفظ القران فى هذه الآية يدل على ذلك
ثم ان ظاهر هذه الاية متاكد بآيات اخرى منها قوله تعالى فى سورة
مريم اذ قال لابيه يا ابت لم تعبد الآية وقال ايضا وما كان استغفار
ابرهيم لابيه الآية وكل هذه الآية يدل على ان آباء ابرهيم كان كافرا
عابد الوثن الحجة الثانية ان العرب سمعوا هذه الآية وكانوا احرص
الناس على تكذيب الرسول واعظم الناس رغبة فى براءة شجرة النسب
عن كل عيب فلو كان آزر لم يكن والد ابرهيم لتسارعوا الى تكذيبه
ولاتخذوا ذلك غنيمة عظيمة فى الطعن فيه الحجة الثالثة ان الله
تعالى ذكر قصة ابرهيم مع ابيه فى آيات كثيرة ولم يذكر اسم العم فى
القران فيتعذر حمل لفظ الاب فى هذه الآية على العم والقول الثانى
ان آزر لم يكن والد ابرهيم بل كان عمه واحتجوا بالحجج الحجة الاولى ان آباء
الانبياء ما كانوا كفارا ويدل عليه وجوه منها قوله تعالى الذى
يريك حين تقوم وتقلبك فى الساجدين قيل كان معناه انه ينتقل
روحه من ساجد الى ساجد وبهذا التفسير فالآية دالة على ان
جميع آباء محمد عليه السلام كانوا مسلمين وحينئذ يجب القطع

بان والد ابرهيم عليه السلام ما كان من الكافرين اقصى ما في الباب
ان يحمل قوله وتقلبك في الساجدين على وجوه اخرى احدها انه لما
نسخ فرض قيام الليل طاف الرسول عليه السلام تلك الليلة على البيوت
لينظر ماذا يصنعون لشدة حرصه على ما يظهر منهم من الطاعات
فوجدها كبيوت الزنابير لكثرة ما يسمع من دندنتهم بذكر الله فالمراد
من قوله تعالى وتقلبك في الساجدين طوفه صلوات الله عليه
على الساجدين في تلك الليلة ومنها ان المراد ويراك حين تقوم
للصلوة بالناس جماعة وتقلبك في الساجدين كان فيما بينهم
بقيامه وركوعه وسجوده لانه كان اماما لهم ومنها انه لا يخفى
على الله حالك كلما قمت وتقلبت مع الساجدين في الاشتغال
بامور الدنيا ومنها المراد تقلب بصره فيمن يصلي خلفه في قوله اتموا
الركوع والسجود فاني اريكم من خلفي فهذه الوجوه الاربعة وان كانت
الاية محتملة لها الا ان الوجه الذي ذكرنا الان ايضا محتمل واذا
الروايات وردت بالكل ولا منافاة بين هذه الوجوه فوجب حمل الاية
على الكل ومتى صح ذلك ثبت ان والد ابرهيم ما كان من عبدة الاوثان
ومما يدل على ان اباء محمد عليه السلام ما كان من المشركين قوله صلى الله عليه
ما ازال نقل من اصلاب الطاهرين الى ارحام الطاهرات وقال تعالى
انما المشركون نجس فوجب ان لا يكون احد من اجداده مشركا
صلى الله عليه وسلم الحجة الثانية على ان آزر لم يكن والد ابرهيم
ان هذه الاية دالة على ان ابرهيم عليه السلام شافه آزر بالغلظ
ومشافهة الاب بالغلظة لا يجوز فدل على ان آزر ما كان والد ابرهيم

انما

انما قلنا ان ابرهيم شافه آزر بالغلظة لوجهين الاول انه قرى
واذ قال ابرهيم لابيه آزر بضم آزر وهذا يكون محمولا على النداء
ومخاطبة الاب ونداه بالاسم من اعظم انواع الجفاء والثاني
انه قال لآزر اني اراك وقومك في ضلال مبين وهذا من اعظم
انواع الايذاء فثبت انه شافه آزر بالغلظة وانما قلنا ان مشافهة
الاب بالغلظة لا يجوز لوجوه الاول قوله وبالوالدين احسانا
وهذا عام في الكافر والمسلم وقال ولا يقل لهما اف ولا تنهرهما
وهذا ايضا عام والثاني انه تعالى لما بعث موسى عليه السلام
الى فرعون امره بالرفق معه فقال فقولا له قولا لينا والسبب في
ذلك ان يصير هذا رعاية لحق تربيته فههنا الوالد بالرفق اولى منه
الثالث ان الدعوة مع الرفق اكثر تاثيرا في القلب واما التغليظ
فانه ينفر المستمع عن القبول ولهذا قال لمحمد عليه السلام وجادلهم
بالتي هي احسن فكيف يليق بابرهيم هذه الخشونة مع ابيه في وقت
الدعوة والرابع انه تعالى حكى عن ابرهيم الرفق الشديد مع هذا
المسمى بالاب وهو قوله يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر الاية
ثم ذلك الانسان غلظ معه في القول وهو قوله لئن لم تنته لارجمنك
ثم ان ابرهيم ما ترك معه الرفق بل قال سلام عليك ساستغفر لك
ربي واذا كانت عادة ابرهيم في الرفق والقول الحسن هذا فكيف
يليق ان يظهر الخشونة والغلظ مع ابيه فثبت بهذه الحجة ان آزر
ما كان والد ابرهيم الحجة الثالثة ان آزر ما كان والد ابرهيم
انه جاء في كتب التاريخ ان اسم والد ابرهيم كان تارخ واما آزر فهو

عم ابرهيم ثم ان القايلين بهذا القول اجابوا عن دلايل اصحاب القول
الاول فقالوا القران وان دل على تسمية آزر بالاب الا ان هذا لا
يدل على القطع بكونه والداله وذلك لان لفظ الاب قد يطلق على
العم قال تعالى حكاية عن اولاد يعقوب نعبد الهك واله آبايك ابرهيم
واسمعيل فسمى اسمعيل ابا ليعقوب مع ان اسمعيل كان عما ليعقوب
وقال صلى الله عليه وسلم ردوا على ابى يعنى العباس وايضا يحتمل
ان آزر كان اب ام ابرهيم وقد يقال له الاب قال الله تعالى ومن
ذريته داود وسليمان الى قوله وعيسى فجعل عيسى من ذرية ابرهيم
مع ان ابرهيم كان جده من قبل الام وبهذا ظهر الجواب عن الحجة الثانية
وذلك لان تسمية العم بالاب مشهور في اللغة العربية فلهذا
السبب ما كذبوه في هذه الاية هذا تمام القول في نصرة هذا القول
واعلم ان القول الاول اولى وذلك لان ظاهر لفظ الاب يدل على الولد
اما التمسك بقوله وتقلبك في الساجدين فهو محمول على ساير الوجوه
لا نحمل على ان روحه كانت ينتقل من ساجد الى ساجد محافظة على
ظاهر الاية التي تمسكنا بها وهو قوله لابيه آزر واما الحجة الثانية
فجوابها انكم تمسكتم بعمومات دالة على انه لا يجوز اظهار خشونة
مع الاب فنقول ان قلنا بما ذكرتم سلمت تلك العمومات عن هذا
التخصيص الا انه وجب حمل لفظ الاب على المجاز وان اجرينا لفظ الاب
على حقيقته لزمنا القول بادخال التخصيص في تلك العمومات لكنا
بينا في اصول الفقه انه مهما وقع التعارض بين المجاز وبين التخصيص
كان التزام التخصيص اولى فكان الترجيح لجانبنا واذا عرفت هذه المسئلة

فقول

فنقول الذين قالوا ان آزر ما كان والد ابرهيم لهم قولان منهم من قال
انه كان عم ابرهيم وقال سعيد بن المسيب ومجاهد آزر اسم للصنم وعلى
هذا الوجه ففي الاية اقوال الاول ان ذلك الرجل انما سمى بهذا الاسم
لانه جعل نفسه مختصا بعبادته ومن بالغ في محبة محبوب فقد جعل
اسم المحبوب اسما للمحب قال تعالى يوم ندعوا كل اناس بامامهم والثاني
ان يكون المراد عابدا الى آزر فحذف المضاف واقيم المضاف اليه مقامه
المسئلة الثانية قرى آزر بالنصب وهو عطف بيان لابيه وبالضم
على النداء وسالني بعضهم فقال قرى آزر بها تين القرائتين واما قوله
واذ قال موسى لاخيه هرون اخلفني فقد قرى بالنصب لا غير فما الفرق
قلت القراءة بالضم محمولة على النداء والنداء بالاسم استخفاف بالمنادى
والاستخفاف بالمنادى لا يليق في قصة ابرهيم لانه كان كافرا مصرا
على كفره فحسن ان يخاطب بالغلظة زجرا له عن ذلك القبيح واما قصة
موسى فقد كان عليه السلام يستخلف هرون على قومه فما كان الاستخفاف
لايقا بهذا الموضع فلا جرم ما كانت القراءة بالضم جايزة اما قوله تعالى
اتتخذ اصناما الهة فالمعنى ظاهر وفيه مسايل المسئلة الاولى
اختلف الناس في تفسير لفظ الاله والاصح انه هو المعبود وهذه
الاية تدل على هذا القول لانهم ما اثبتوا للاصنام الا وصف
المعبودية وبهذا السبب قال ابرهيم اتتخذ اصناما الهة
يدل هذا على ان تفسير لفظ الاله هو المعبود المسئلة الثانية
هذه الاية تدل على ان وجوب معرفة الله والاشتغال بشكره معلوم
بالعقل وذلك لان ابرهيم عليه السلام حكم عليهم بالضلال ولولا الوجوب

العقلي لما صح ذلك وهذا الاستدلال ضعيف المسئلة الثالثة
كلام ابرهيم مشتمل في هذه الآية على الحجة العقلية على فساد مذهبهم
من وجهين الاول ان قوله تعالى اتتخذ اصناما الهة يدل على انهم
كانوا يقولون بكثرة الآلهة باطل على ما دل عليه قوله تعالى لو كان
فيهما الهة الا الله لفسدتا والثاني انه لو كان لها قدرة على الخير
والشر لكان الصنم الواحد كافيا فلما لم يكن الواحد كافيا دل على انها
وان كثرت فلا منفعة فيها البته واما قوله تعالى اني اراك وقومك
في ضلال مبين فالمعنى ظاهر واما قوله وكذلك نري ابرهيم ملكوت
السموات والارض وليكون من الموقنين ففيه مسايل المسئله الاولى
الكاف في كذلك للتشبيه وذا للاشارة الى غايب جرى ذكره والذي
جرى ذكره ههنا فيما قبل هو انه عليه السلام استقبح عبادة الاصنام
بقوله اني اراك وقومك في ضلال مبين فالمعنى ومثل ما اريناه من
قبح عبادة الاصنام نريه ملكوت السموات والارض وههنا دقيقة
عقلية وهي ان نور جلال الله سبحانه ظاهر لايح غير منقطع ولا زايل
البته والارواح البشرية لا تصير محرومة عن تلك الانوار الا لاجل
الحجاب وذلك الحجاب ليس الا الاشتغال بغير الله تعالى فاذا كان الامر
كذلك فبقدر ما يزول هذا الحجاب يحصل ذلك التجلي فقول ابرهيم
عليه السلام اتتخذ اصناما الهة اشارة الى الاشتغال بغير الله
فان كل ما سوى الله صنم ثم انه عليه السلام استقبح ذلك بقوله
اني اراك وقومك في ضلال مبين فلما زال ذلك الحجاب بالكلية لا جرم
تجلى له ملكوت الله بالتمام وقوله وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات

والارض

والارض معناه بقدر زوال تلك الظلمات حصلت هذه الانوار
فظهر ان قوله وكذلك منشأ لهذه الفايدة الشريفة الروحانية فان
قيل هذه الاراءة قد حصلت فيما تقدم من الزمان وكان الاولى ان يقال
وكذلك ارينا ابرهيم ملكوت السموات فلم عدل عن هذه اللفظة الى
قوله وكذلك نري قلنا الجواب عنه من وجوه الاول ان تقدير الاية
وكذلك كنا نري ابرهيم ملكوت السماء والارض فيكون هذا على سبيل
الحكاية على الماضي والمعنى انه تعالى لما حكى عنه انه شافه اباه بالكلام
الخشن تعصبا للدين الحق فكانه قيل وكيف بلغ ابرهيم هذا المبلغ العظيم
في قوة الدين فاجيب بانا كنا نريه ملكوت السموات والارض من وقت
طفوليته لاجل ان يصير من الموقنين زمان بلوغه والوجه الثاني
من الجواب وهو اعلى واشرف مما تقدم وهو ان نقول انه ليس المقصود
من اراءة ابرهيم عليه السلام ملكوت السموات والارض وهو مجرد
ان يرى ابرهيم هذا الملكوت بل المقصود ان يريها فيتوسل برؤيتها
الى معرفة جلال الله وقدسه وعلوه وعظمته ومعلوم ان مخلوقات
الله سبحانه وان كانت متناهية في الذات والصفات الا انها في جهات
دلالتها على الذات والصفات غير متناهية فان اهل الاصول قالوا الجوهر
الفرد يدل على قدرة الله وحكمته من جهات دلالاتها على الذات
والصفات غير متناهية وذلك لان الجوهر الفرد يمكن وقوعه
في كل واحد من الاحياز التي لا نهاية لها بدلا عن الاخر ثم كل واحد
من هذه الاحوال التقديرية دال على كمال قدرة الله وحكمته لان
كلها احوال جايزة والجايز يحتاج الى المرجح واذا كان الجوهر الفرد

والجزء الذي لا يتجزى كذلك فكيف القول بكل ملكوت الله فثبت
ان دلالة ملكوت الله على نعوت جلاله وسمات عظمته وعزته
غير متناهية وحصول العلوم التي لا نهاية لها دفعة واحدة
في العقل البشري على التفصيل محال فاذا لا طريق الى تحصيل تلك
المعارف الا بان يحصل بعضها عقيب البعض لا الى نهاية ولا الى حد
وهذا يتعلق بالمستقبل لا بالماضي فلهذا السبب والله اعلم لم يقل
وكذلك اريناه ملكوت السموات والارض بل قال وكذلك نري وهذا
هو المراد من قول المحققين السفر الى الله له نهاية اما السفر في الله
فانه لا نهاية له المسئلة الثانية الملكوت هو الملك والتاء للمبالغة
كالرغبوت من الرغبة والرهبوت من الرهبة واعلم ان في هذه الاراءة
قولان احدهما ان الله تعالى اراه الملكوت بالعين قالوا انه تعالى
شق له السموات حتى راى الى العرش والكرسي وحيث ينتهي اليه فوقية
العالم المخلوق وشق له الارض الى حيث ينتهي تحتية العالم فراى ما في
السموات من العجايب والبدايع وراى ما في بطن الارض من العجايب
والقول الثاني ان هذه الاراءة كانت بعين البصيرة والعقل لا بعين البصر
واحتج القايلون على صحة هذا القول بوجوه الحجة الاولى ان ملكوت
السموات عبارة عن ملك السموات والملك عبارة عن القدرة وقدرة
الله لا ترى وانما يعرف بالعقل وهذا لازم الا ان يقال المراد بملكوت
السموات والارض نفس السموات والارض الا انه يصير على هذا التقدير
لفظ الملكوت عديم الفايدة وانه لا يجوز الحجة الثانية انه تعالى
ذكر هذه الاراءة في اول الاية على سبيل الاجمال وهو قوله وكذلك نري

ابرهيم

ابرهيم ثم فسرها بعد ذلك بقوله فلما جن عليه الليل راى كوكبا
فجرى ذكر هذا الاستدلال كالشرح والتفسير لتلك الاراءة فوجب
القول بان تلك الاراءة عبارة عن هذا الاستدلال الحجة الثالثة
انه قال في اخر الاية وتلك حجتنا اتيناها ابرهيم على قومه والروية
بالعين لا يصير حجة على قومه لانهم كانوا غايبين عنها فكانوا يكذبون
ابرهيم فيها بل ما كان يحل لهم التصديق في تلك الدعوة بلا اية على صدق
دعواه وانما كانت الحجة عليهم استدلالا بالنجوم من الطريق الذي
نطق به القران فان تلك الدلالة ثابتة في حقهم كما كانت ثابتة في حقه
الحجة الرابعة ان اراءة جميع العالم دفعة واحدة يفيد العلم الضروري
بان للعالم الها قادرا على كل الممكنات ومثل هذه الحالة لا يصلح للانسان
عندها استحقاق المدح والتعظيم الا ترى ان الكفار في الاخرة يعرفون
الله تعالى بالضرورة وليس لهم في تلك المعرفة مدح ولا ثواب فاما
الاستدلال بالمخلوق على الصانع القادر الحكيم فذلك الذي يفيد المدح
والتعظيم الحجة الخامسة انه تعالى كما قال في حق ابرهيم وكذلك نري
ابرهيم ملكوت السموات والارض قال في حق هذه الامة سنريهم
اياتنا في الافاق وفي انفسهم ولما كانت هذه الاراءة بالقلب لا بالبصر
فان الاراءة بالبصر كانت خالصة للكفار فكذا في حق ابرهيم عليه السلام
يجب ان يكون الامر كذلك الحجة السادسة انه عليه السلام لما تمم
الاستدلال بالنجم والقمر قال بعده اني وجهت وجهي للذي فطر السموات
والارض فحكم على السموات والارضين بكونها مخلوقة لاجل الدليل الذي
ذكره في النجم والشمس وذلك الدليل لو لم يكن عاما في كل السموات والارض

لكان الحكم العام بناء على الدليل الخاص خطاء فثبت ان ذلك الدليل
كان عاما وكان ذكر الشمس والقمر والنجم كالمثال لاراءة الملكوت فوجب ان
يكون المراد من اراءة الملكوت تعريف كيفية دلالة تغيرها على حدوثها
على الافتقار الى المدبر المؤثر فيكون هذه الاراءة بالقلب لا بالعين
الحجة السابعة ان اليقين عبارة عن العلم المستفاد بالتامل اذا كان
مسبوقا بالشك وقوله وليكون من الموقنين كالعلم بذلك الاراءة فيصير
تقدير الاية نري ابرهيم ملكوت السموات والارض لاجل ان يصير
من الموقنين ولما كان اليقين هو العلم المستفاد من النظر في الدليل وجب
ان يكون تلك الاراءة عبارة عن الاستدلال الحجة الثامنة ان جميع
مخلوقات الله سبحانه دالة على وجود الصانع وقدرته باعتبار واحد
وهو انها محدثة ممكنة وكل محدث ممكن فهو محتاج الى الصانع فاذا
عرف الانسان هذا الوجه فقد كفاه ذلك في الاستدلال على وجود
الصانع وكانه بمعرفة هاتين المقدمتين فقد طالع جميع الملكوت
بعين عقله وسمع شهادتها بالاحتياج والافتقار بسمع عقله
وهذه الرؤية رؤية باقية غير زائلة البتة ثم انها غير شاغلة عن الله
بل شاغلة للقلب والروح بالله وحده اما رؤية العين فالانسان لا
يمكنه ان يرى بالعين اشياء كثيرة دفعة واحدة على سبيل الكمال الا
ترى ان من نظر الى صفحة مكتوبة فانه لا يرى من تلك الصفحة رؤية تامة
كاملة الا حرفا واحدا فان صرف نظره الى حرف اخر وشغل بصره به
صار محروما عن ادراك الحرف الاول وعن ابصاره فثبت ان رؤية
الاشياء الكثيرة دفعة واحدة غير ممكنة وبتقدير ان يمكن ذلك لان

هذه الرؤية غير باقية وبتقدير ان يكون باقية لكنها شاغلة عن الله
الا ترى انه تعالى مدح محمدا عليه السلام في تركها فقال ما زاغ البصر
وما طغى فدلت هذه الدلايل على ان حمل هذه الاراءة على رؤية القلب
اولى فان قيل فرؤية القلب بهذا التفسير حاصلة لجميع الموحدين فاي
فضيلة تحصل لابرهيم عليه السلام بسببها قلت الموحدين وجميع
المستدلين يشتركون في معرفة حدوث العالم والاستدلال به على الصانع
فاما الاستغراق في هذا الاستدلال والتامل في كيفية دلالة كل واحد
من الممكنات والمحدثات في عالم الاجسام والارواح وذرات الارضين
والسموات ثم يرى هذه الحالة في كل حين واوان وعصر وزمان على ما
هو المراد من قوله نري ابرهيم بدلا من قوله ارينا ابرهيم فهذه الحالة
لا تحصل الا لعظماء الانبياء كابرهيم وموسى وعيسى ومحمد عليهم السلام
المسئلة الثالثة اختلفوا في الواو في قوله وليكون من الموقنين
وذكروا وجوها الاول ان الواو زائدة تقدير الاية نري ابرهيم
ملكوت السموات والارض ليكون من الموقنين الثاني التقدير
نري ابرهيم ملكوت السموات ليستدل بها وليكون من الموقنين
الثالث ان يكون هذا كلاما مستانفا لبيان علة الاراءة والتقدير
ليكون من الموقنين برؤية ذلك الرابع ان الاراءة قد تحصل وتصير
سببا لمزيد الضلال كما في حق فرعون قال تعالى ولقد اريناه اياتنا
كلها فكذب وابى وقد تصير سببا لمزيد الهداية واليقين فلما احتمل
هذين الاحتمالين قال في حق ابرهيم انا اريناه هذه الايات ليراها
فيكون من الموقنين لا من الجاحدين المسئلة الرابعة اليقين عبارة

عن علم يحصل بعد زوال الشبهة بسبب التامل ولهذا المعنى لا يوصف
علم الله تعالى باليقين لان علمه غير مسبوق بالشبهة وغير مستفاد
من التفكر واعلم ان الانسان في اول ما يستدل فانه لا ينفك
عن شبهة وشك من بعض الوجوه فاذا كثرت الدلايل وتوافقت
صارت سببا لحصول اليقين وذلك لوجوه الاول انه يحصل لكل
واحد من تلك الدلايل نوع تاثير وتقوية فلا تزال تتزايد القوة حتى
ينتهي الى الجزم الثاني ان كثرة الافعال سبب لحصول الملكات فكثرة
الاستدلال بالدلايل المختلفة على المدلول الواحد جار مجرى تكرار
الدرس الواحد وكما ان كثرة التكرار يفيد الحفظ المتاكد الذي لا يزول
عن القلب فكذا ههنا الثالث ان القلب عند الاستدلال الاول كان
مظلما جدا فاذا حصل فيه الاعتقاد المستفاد بالدليل الاول
امتزج نور ذلك الاستدلال بظلمة القلب فحصل فيه حال شبيهة
بالحالة الممتزجة من النور والظلمة واذا حصل الاستدلال الثاني امتزج
نوره بالحالة الاولى فيصير الشروق اتم وكما ان الشمس اذا قربت نورها من
المشرق ظهر نورها في اول الامر وهو الصبح فكذلك الاستدلال الاول
يكون كالصبح الاول وكما ان نور الشمس لا يزال تتزايد بسبب تزايد قربها
من سمت الراس فاذا وصلت الى قرب الراس حصل النور التام فكذا العبد
كلما كان تدبره في مراتب مخلوقات الله اكثر كان شروق نور المعرفة والتوحيد
اجلى الا ان الفرق بين شمس المعرفة وشمس العالم ان لارتقاء شمس العالم
وتصاعدها حد معين ومقطع معين اما شمس المعرفة والتوحيد
فلا نهاية لتصاعدها ولا غاية لتزايدها فقوله وكذلك نري ابرهيم

ملكوت

ملكوت السموات والارض اشارة الى مراتب الدلايل والبينات وقوله
وليكون من الموقنين اشارة الى درجات انوار التجلي وشروق شمس المعرفة
والتوحيد اما قوله فلما جن عليه الليل راى كوكبا فاعلم ان الفاء في قوله
فلما جن عطف على قوله قال ابرهيم واعلم ان اكثر المفسرين ذكروا ان ملك
ذلك الزمان كان قد راى رويا عبرها المعبرون بانه يولد غلام ينازعه
في ملكه فامر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد فحبلت ام ابرهيم به وما
اظهرت حملها للناس فلما جاءها الطلق ذهبت الى كهف في جبل ووضعت ابرهيم
وسدت الباب بحجر فجاء جبريل عليه السلام ابرهيم ووضع اصبعه في فمه
فمصه فخرج منه رزقه وكان يتعهده جبريل عليه السلام وكانت الام
تاتيه احيانا وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف انه
ربا فسال الام فقال لها من ربي قالت انا قال ومن ربك قالت الاب
قال ومن رب الاب فقالت ملك البلد فعرف ابرهيم جهلها بربها فنظر
من باب ذلك الغار ليرى شيئا يستدل به على الرب فراى النجم الذي كان
اضوء النجوم في السماء فقال هذا ربي الى اخر القصة ثم القايلون بهذا
القول اختلفوا فمنهم من قال ان هذا كان بعد البلوغ وجريان القلم عليه
ومنهم من قال ان هذا كان قبل البلوغ واتفق اكثر المحققين على فساد هذا
القول واحتجوا عليه بحجج الاول ان القول بربوبية النجم كفر بالاجماع
والكفر غير جايز على الانبياء الحجة الثانية ان ابرهيم كان قد عرف
قبل هذه الواقعة ربه بالدليل والدليل على ذلك انه تعالى اخبر عنه قال
قبل هذه الواقعة لابيه ازر اني اراك وقومك في ضلال مبين الحجة
الثالثة انه تعالى حكى عنه انه دعا اباه الى التوحيد وترك عبادة الاصنام

بالرفق حيث قال يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر الاية وحكى في
هذا الموضع انه دعا اباه الى التوحيد وترك عبادة الاصنام بالكلام
الخشن واللفظ الموحش ومن المعلوم ان من دعا غيره الى الله فانه
تقدم الرفق على العنف واللين على الغلظ ولا يخوض في التعنيف والتغليظ
الا بعد المدة المديدة والياس التام فدل هذا على ان هذه الواقعة انما
وقعت بعد ان دعا اباه الى التوحيد مرارا واطوارا ولا شك انه انما
اشتغل بدعواه ابيه بعد فراغه عن مهم نفسه فثبت ان هذه الواقعة
انما وقعت بعد ما عرف الله تعالى الحجة الرابعة ان هذه الواقعة
انما وقعت بعد ان اراه الله ملكوت السموات والارض حتى راى
من فوق العرش والكرسي وما تحتهما الى ما تحت الثرى ومن كان منصبه
في الدين كذلك وعناية الله تعالى به الى هذا الحد فكيف يليق به ان
يقر بربوبية الكواكب الحجة الخامسة ان دلايل الحدوث ظاهرة في
الافلاك والكواكب من خمسة عشر وجها شرحناها في كيفية دلالة خلق
السموات على الصانع القديم ومع هذه الوجوه الظاهرة فكيف يليق
باقل العقلاء نصيبا من العقل والفهم ان يقول بربوبية الكواكب
فضلا عن اعقل العقلاء واعلم العلماء الحجة السادسة انه قال
لئن لم يهدني ربي لاكونن من القوم الضالين وقوله لاكونن عبارة
عن المستقبل وهذا يقتضي انه غير ضال في الحال والجاهل بالله لا شك
انه ضال الحجة السابعة انه تعالى قال في وصف ابرهيم عليه السلام اذ جاء
ربه بقلب سليم واقل مراتب القلب السليم ان يكون سليما عن الكفر وقال
ايضا اذ جاء ربه بقلب منيب الحجة الثامنة انه مدحه فقال ولقد

ايتنا

اتينا ابرهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اي اتيناه رشده من قبل
اي من اول زمان الكفر وكنا به عالمين اي بصفوته وطهارته كنا عالمين
ونظيره قوله تعالى الله اعلم حيث يجعل رسالته الحجة التاسعة
قال وكذلك نري ابرهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين
اي وليكون بسبب تلك الاراءة من الموقنين ثم قال بعده فلما جن
والفاء يقتضي التراخي فدلت الفاء في قوله فلما جن على ان هذه
الواقعة انما وقعت بعد ان صار ابرهيم من الموقنين العارفين بربه
الحجة العاشرة ان هذه الواقعة والقصة انما حصلت بسبب
مناظرة ابرهيم مع قومه والدليل عليه انه تعالى لما ذكر هذه القصة
قال وتلك حجتنا اتيناها ابرهيم على قومه ولم يقل على نفسه
فعلم ان هذه المباحثة انما جرت مع قومه لاجل ان يرشدهم الى
الايمان والتوحيد لا لاجل ان ابرهيم كان يطلب الدين والمعرفة
لنفسه الحجة الحادية عشر ان القوم يقولون ان ابرهيم انما اشتغل
بالنظر في الكواكب والقمر والشمس حال ما كان في الغار وهذا باطل
لانه لو كان الامر كذلك فكيف يقول يا قوم اني بريء مما تشركون مع انه
ما كان في الغار لا قوم ولا صنم الحجة الثانية عشر قال تعالى وحاجه
قومه قال اتحاجوني في الله وكيف يحاجونه وهم بعد ما راوه وهو
ما راهم وهذا يدل على انه عليه السلام انما اشتغل بالنظر في النجم
والقمر والشمس بعد ان خالط قومه وراهم يعبدون الاصنام
ودعوه الى عبادتها فذكر قوله لا احب الافلين ردا عليهم وتنبيها
على فساد قولهم الحجة الثالثة عشر انه تعالى حكى عنه انه قال للقوم

وكيف اخاف ما اشركتم ولا تخافون انكم اشركتم بالله وهذا يدل
على ان القوم كانوا يخوفونه بالاصنام كما حكى عن قوم هود انهم قالوا
له ان نقول الا اعتريك بعض الهتنا بسوء ومعلوم ان هذا الكلام
لا يليق بالغار وقبل مخالطة القوم الحجة الرابعة عشر ان تلك الليلة
كانت مسبوقة بالنهار ولا شك ان الشمس كانت طالعة ثم غربت
مكان ينبغي ان يستدل بغروبها على انها لا تصلح للالهية واذا
بطلت صلاحية الشمس للالهية فبطل اذن ذلك في النجم والقمر بطريق
الاولى هذا اذا قلنا بان هذه الواقعة كان المقصود منها تحصيل
المعرفة لنفسه اما اذا قلنا المقصود منها الزام القوم وافحامهم
فهذا السؤال غير وارد لانه انما اتفق مكالمته مع القوم حال طلوع
ذلك النجم ثم امتدت المناظرة الى ان طلع القمر وطلع الشمس وعلى
هذا التقدير فالسؤال غير وارد فثبت بهذه الدلايل الظاهرة انه
لا يجوز ان يقال ان ابرهيم قال على سبيل الحرم هذا ربى ولما بطل هذا
بقي ههنا احتمالان الاول ان يقال هذا الكلام قاله ابرهيم بعد البلوغ
ولكن ليس الغرض منه اثبات ربوبية الكواكب بل الغرض منه احد امور
الاول ان ابرهيم لم يقل هذا ربى على سبيل الاخبار بل الغرض انه
يناظر عبدة الكواكب وكان مذهبهم ان الكواكب ربهم والهتهم فذكر
ابرهيم عليه السلام ذلك القول الذي قالوه بلفظهم وعبارتهم حتى
يرجع اليه فيبطله كما ان الواحد منا اذا ناظر من يقول بقدم الجسم
فيقول الجسم قديم فان كان كذلك فلم نراه ونشاهده مركبا متغيرا
فهو انما قال الجسم قديم اعادة لكلام الخصم حتى يلزم عليه المحال

فكذا ههنا قال هذا ربى حكاية لكلامهم ثم اعقبه بما يدل على فساده
وهو قوله لا احب الافلين وهذا الوجه هو المعتمد في الجواب والدليل
عليه انه تعالى في اخر هذه الاية على هذه المناظرة بقوله وتلك حجتنا
اتيناها ابرهيم على قومه الوجه الثاني قوله هذا ربى معناه هذا
ربى على زعمكم واعتقادكم ونظيره ان يقول احد على سبيل الاستهزاء
للمجسم ان الهه جسم محدود اى في زعمه واعتقاده كما قال تعالى
وانظر الى الهك الذي ظلت عليه عاكفا وقال ويوم يناديهم فيقول
اين شركاى وكان عليه السلام يقول يا اله الالهة وتاويله ان الله
اله الالهة في زعمهم الوجه الثالث المراد منه الاستفهام على سبيل
الانكار الا انه اسقط حرف الاستفهام استغناء عنه لدلايل
القراين من الحال عليه كانه قال اهذا ربى وهذا استفهام توبيخ وتقريع
الوجه الرابع في الاية احتصار والتقدير يقولون هذا ربى ونظيره
قوله واذ يرفع ابرهيم القواعد من البيت واسمعيل ربنا والتقدير
ويقولون ربنا الوجه الخامس ان يكون ذلك على سبيل الاستهزاء
كما يقال للذليل ساد قوما هذا سيدكم على سبيل الهزء الوجه السادس
انه عليه السلام اراد ان يبطل قولهم بربوبية الكواكب الا انه عليه السلام
كان قد عرف من تقليدهم لاسلافهم وسوء طباعهم عن قبول الدلايل
انه لو صرح بالدعوة الى الله لم يقبلوه ولم يلتفتوا اليه فمال الى طريق
استدراجهم الى استماع الحجة بواسطة الفلك صادرا في الحقيقة
عن الله بخلاف الواحد منا فانه لا تاثير له في الفلك فلم يكن الاحياء
والاماتة الصادران بواسطة الفلك صادرين عن البشر فان قيل

هذا السؤال والجواب اللذين ذكرتم كيف يفهم من الاية باظهار ضرب
من المساعدة لهم في الظاهر مع طمانينة قلبه بالايمان حتى يتمكن
بعد ذلك من ابطال ما ذكروا وانما استحل ذكر هذه الكلمة لانه لم يكن له
طريق الى الدعوة غيره وكان ذلك بمنزلة المكره على كلمة الكفر فان عند
الاكراه يجوز اجراء كلمة الكفر على اللسان قال الله تعالى الا من اكره
وقلبه مطمئن بالايمان فاذا جاز كلمة الكفر لمصلحة بقاء شخص واحد
فبان يجوز اظهار كلمة الكفر لتخليص عالم من الناس عن الكفر والعقوبة
الابدية كان اولى وايضا المكره على ترك الصلوة لو صلى حتى قتل استحق
الاجر العظيم ثم اذا جاء وقت القتال مع الكفار وعلم بانه لو اشتغل بالصلوة
انهزم عسكر الاسلام فههنا يجب عليه ترك الصلوة ويجب الاشتغال
بالقتال حتى لو صلى وترك القتال اثم ولو ترك الصلوة وقاتل استحق الاجر
بل نقول ان من كان في الصلوة فراى طفلا او اعمى اشرف على غرق او حرق
وجب عليه قطع الصلوة لانقاذ ذلك الطفل والاعمى عن ذلك البلاء
فكذا ههنا ان ابرهيم عليه السلام تكلم بهذه الكلمة ليظهر من نفسه
موافقة القوم حتى اذا اورد عليهم الدليل المبطل لقولهم كان قبولهم
لذلك الدليل اتم وانتفاعهم بسماعه اكمل ومما يؤكد هذا الوجه انه حكي عنه
مثل هذا الطريق في موضع آخر وهو قوله فنظر نظرة في النجوم فقال
اني سقيم فتولوا عنه مدبرين وذلك لانهم كانوا يستدلون بعلم
النجوم على معرفة الحوادث المستقبلة فوافقهم ابرهيم عليه السلام
على التمسك بالنجوم على هذه القاعدة في الظاهر مع انه كان بريا عنه
في الباطن ومقصوده ان يتوسل به الى كسر الاصنام فاذا جازت الموافقة

في الظاهر على التمسك بعلم النجوم لغرض كسر الاصنام فلم لا يجوز اظهار
كلمة الكفر باللسان لغرض ابطاله بالدليل القاطع وايضا المتكلمون
قالوا لا يقبح من الله تعالى اظهار خوارق العادات على يد من يدعي الالهية
لان صورة هذا المدعي وشكله مكذب لدعواه فلا يحصل التلبيس بسبب
ظهور تلك الخوارق على يده ولكن لا يجوز اظهارها على يد من يدعي النبوة
لانه يفضي الى التلبيس فكذا ههنا قوله هذا ربي كلام لا يفضي الى الاضلال
لان دليل فساده جلي وفي اظهار هذه الكلمة منفعة عظيمة وهي
استدراجهم لقبول الدليل الوجه السابع في الجواب ان القوم لما دعوه
الى عبادة النجوم فكانوا في تلك المناظرة اذا طلع النجم الدري فقال ابرهيم
عليه السلام هذا ربي هذا هو الرب الذي تدعونني اليه ثم سكت زمانا
حتى افل فقال لا احب الافلين اما الاحتمال الثاني وهو ان يقال ان ابرهيم
عليه السلام انما ذكر هذا الدليل قبل البلوغ فتقديره ان الله خص ابرهيم
بالعقل الكامل والقريحة الوقادة فخطر بباله قبل بلوغه اثبات الصانع
فتفكر فراى النجم فقال هذا ربي فلما شاهد افوله قال لا يجوز ان يكون
ربا وكذا القمر والشمس ثم بلغه الله تعالى في اثناء هذا الفكر والاستدلال
حد التكليف فقال في الحال اني بريء مما تشركون فهذا احتمال ولا باس به
وان كان الاحتمال الاول اولى بالقبول لما ذكرنا من الدلايل الكثيرة على ان
هذه المناظرة انما جرت لابرهيم عليه السلام وقت اشتغاله بدعوة القوم
الى التوحيد اما قوله تعالى حكاية عن ابرهيم عليه السلام لا احب الافلين
وفيه سؤالات السؤال الاول كيف يدل الافول على انه لا يصلح للربوبية
اقصى ما في الباب ان يقال الافول عبارة عن الحركة وكل ما يصح عليه الحركة

فانه لابد وان يكون اما متحركا واما ساكنا وكل ما كان متحركا او ساكنا
فهو محدث فكل فل محدث لا انا نقول كونه محدثا لا يمنع من كونه ربا
لابرهيم وذلك لان القوم ما كانوا ينكرون وجود الله تعالى بل انهم
كانوا يقولون انه تعالى خلق الشمس والقمر ثم انه تعالى فوض تدبير هذا
العالم اليها فالبشر عبيد الكواكب ومخلوقاتها والكواكب محدثة مخلوقة
للاله سبحانه واذا كان كذلك لم يلزم من افول الكواكب صحة قوله لا
احب الافلين ولا يصح ايضا لاجل افول الكواكب صحة قوله انى وجهت
وجهى للذى فطر السموات والارض وايضا لا يصح قوله وما انا من
المشركين والجواب من وجوه الاول ان افول هذه الاجسام يدل
على حدوثها وبحدوثها يدل على انها مخلوقة لموجود قديم ازلى قادر
مختار ويجب ان يكون قادرية ذلك القادر ازلية والا لافتقر
حدوث قادريته الى قادر آخر ولزم التسلسل واذا كانت قادريته
ازلية وجب ان تكون متعلقة بجميع الممكنات واذا كان كذلك امتنع
وقوع شئ من الممكنات الا بقدرته اذ لو وقع شئ من الممكنات لا بقدرته
بل بقدرة غيره لكان ذلك الغير سببا لعجزه عن ايجاده الشئ الذى كان
مقدورا له وذلك محال لانه اقدر من غيره والاضعف لا يمكنه تعجيز
الاقدر واذا ثبت ان حدوث الاجسام يدل بهذه الوسايط على ان
جميع المحدثات يوجد بقدرته واذا كان كذلك كان المحدث والموجد
للناس والحيوان والنبات والمعادن هو الاله القديم المختار جل جلاله
فحينئذ يكون الكواكب معزولة عن ربوبية البشر وثبت عند ذلك
ان افول الكواكب يدل دلالة على صحة قوله لا احب الافلين وعلى صحة

قوله انى برئ مما تشركون انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض
واعلم ان هذا الوجه لا يتمشى الا على مذهب اهل السنة والجماعة فى
مسئلة خلق الافعال الوجه الثانى فى الجواب ان افول الكواكب يدل
على حدوثها وحدوثها يدل على افتقارها فى وجودها الى القادر المختار
ومن كان قادرا على خلق هذه الافلاك والكواكب عن غير شئ من الوسايط
اولى بالربوبية واليه الاشارة بقوله تعالى لخلق السموات والارض
اكبر من خلق الناس وبقوله اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر
على ان يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم فثبت بهذا الطريق كونه قادرا
على خلق البشر وكونه قادرا على تدبير هذا العالم السفلى بدون واسطة
الاجرام الفلكية اما كون الافلاك والانجم قادرة على الخلق والايجاد
وعالمة بمصالح اهل العالم ومفاسدها فذاك غير معلوم لان كل شئ
يسنده المنجم الى الكوكب والفلك العقل لا يتبعه ويوجب اسناده الى
اله الفلك واذا كان كذلك فحكم العقل بطرح المجهول والاخذ بالمعلوم
فيسند العقل تدبير هذا العالم السفلى الى اله الافلاك والانجم فلهذا السبب
قال عليه السلام انى برئ مما تشركون الوجه الثالث ان الافول كما دل على
حدوث الافلاك والانجم دل حدوثها على افتقارها الى الاله القديم
القدير الذى يكون علمه فى غاية الكمال وحكمته فى نهاية الجلال واذا كان
كذلك كان الاشتغال بطاعته وخدمته اولى من الاشتغال بخدمة
الافلاك والانجم لان بتقدير ان يكون مدبر هذا العالم السفلى
هو الاله الاكبر كان الاشتغال بطاعة واجبا وبتقدير ان يكون هذا
العالم والافلاك والانجم مخلوقة ومقدورة للاله الاعظم كانت

الاشتغال بطاعة الاله الاعظم اعراضا عن الضعيف وتمسكا
بالقوى الاقوى وهذا حسن في العقول ثم لو كان المدبر لهذا العالم
هو الاله الاكبر كان الاشتغال بطاعة الافلاك والانجم اعراضا عن
القوى وتمسكا بالضعيف وهذا قبيح في العقول فعلمنا ان على جميع
التقديرات صح قول ابرهيم عليه السلام لا احب الآفلين وصح ايضا
قوله اني برئ مما تشركون السؤال الثاني الافول انما يدل على
الحدوث من حيث انه حركة وعلى هذا التقدير يكون الطلوع ايضا
دليل الحدوث فلم ترك ابرهيم الاستدلال على حدوثها بالطلوع
وعول ذلك على الافول الجواب لا شك ان الطلوع والغروب
يشتركان في الدلالة على الحدوث الا ان الدليل الذي تمسك به الانبياء
عليهم السلام في معرض الدعوة لا بد وان يكون ظاهرا جليا بحيث
يشترك فيه الغبي والذكي والعاقل والغافل ودلالة الحركة على
الحدوث وان كانت دلالة يقينية الا انها دقيقة لا يعرفها الا
الاذكياء من الخلق اما دلالة الافول فانها دلالة ظاهرة يعرفها كل احد
فان الآفل يزول سلطانه وقت الافول فكانت دلالة الافول على هذا
المقصود اتم وايضا قال بعض المحققين الهوى في حضيرة الامكان افول
واحسن الكلام ما يحصل فيه حصة الخواص وحصة العوام فالخواص
يفهمون من الافول الامكان فكل ممكن محتاج والمحتاج لا يكون منقطعا
للحاجة فلا بد من الانتهاء الى ما يكون منزها عن الامكان حتى ينقطع
الحاجات بسبب وجوده على ما قال وان الى ربك المنتهى واما الاوساط
فانهم يفهمون من الافول الحركة فكل متحرك محدث وكل محدث فهو محتاج
الى القديم القادر فلا يكون الآفل الها بل الاله هو الذي احتاج اليه
ذلك الآفل واما العوام فانهم يفهمون من الافول الغروب وهم
يشاهدون ان كل كوكب يقرب من الافول والغارب يزول نوره
ويبطل ضوؤه وسلطانه ويصير كالمعزول ومن كان كذلك لم يصلح
للالهية فهذه الكلمة الواحدة اعني قوله لا احب الآفلين كلمة مشتملة
على نصيب المقربين واصحاب اليمين واصحاب الشمال فكانت اكمل
الدلائل وافضل البراهين السؤال الثالث لا شك ان تلك الليلة
كانت مسبوقة بنهار وكانت الشمس آفلة في ذلك النهار والسابق
بعد ان كانت طالعة فاذا كان الافول دليلا على انه لا تصلح للالهية
ثم اذا خرجت الشمس عن صلاحية الالهية مع كبرها وجلال ضوئها
فبان يخرج النجم والقمر عن صلاحية الالهية كان ذلك اولى لا يقال
انه عليه السلام انما بقي في ذلك الكهف وهو اول ما نظر من ذلك
الكهف الى الخارج كان ليلا فرأى الكواكب في تلك الساعة ثم بعده
رأى القمر ثم بعده رأى الشمس لانا نقول انه من البعيد ان يبقى
شخص عاقل في غار من اول طفوليته الى زمان بلوغه حد العقل
والتكليف مع انه ما نظر من ذلك الغار في تلك المدة الطويلة وما
كان يفرق بين النهار وبين الليل وما كان يدخل نور الشمس في ذلك
الغار من ثقبة هذا محال في العرف الجواب ان هذا الاشكال لازم
على من يقول انه عليه السلام انما شرع في هذه الواقعة لطلب معرفة
الله لنفسه اما على قول من يقول انه عليه السلام كان انما استدل
بهذه الوجوه حال اشتغاله بالدعوة الى التوحيد ومنع القوم عن عبادة

الكواكب فالسوال زايل لانه من المحتمل انه اتفق انه كان عليه السلام
جالسا مع اولئك الاقوام ليلة من الليالي ثم انه زجرهم عن عبادة
الكواكب وبين لهم ان ذلك ضلال وجهل فبينا هم في ذلك الكلام
اذ وقع بصرهم على كوكب مضي فوقعوا في تلك المناظرة ثم لما افل ذلك
الكوكب طلع القمر فاعاد عليهم ذلك الكلام ويقول فيه الى ان طلعت
الشمس فاعاد ابرهيم ذلك الكلام فهذا جملة ما يتعلق بتقرير دلائل
ابرهيم عليه السلام اما قوله تعالى فلما راى القمر بازغا الى قوله اني
برئ مما تشركون فلا اشكال فيه البته الا في موضع واحد وهو
ان لقايل ان يقول الاية مشعرة بان في الليلة الواحدة طلع الكوكب
ثم افل وبعده طلع القمر ثم افل وهذا غير ممكن في الليلة الواحدة
والجواب فيه قولان الاول ان الكوكب كان في الربع الغربي من الفلك
فافل ثم طلع بعده القمر ووصل الى نصف السماء وانحدر الى الربع الغربي
من الفلك فسمي توجهه الى الافول بالافول وهذه الاحوال يمكن حصولها
في الليلة الواحدة والثاني ان طلوع الكوكب وافوله كان في ليل وطلوع
القمر وافوله كان في ليلة اخرى واعلم ان القوم كانوا على مذهب
المفوضية ومعنى هذا المذهب انهم كانوا يقولون البشر عبيد الكواكب
والكواكب عبيد الله سبحانه والدليل عليه ان ابرهيم قال يا قوم اني
برئ مما تشركون وكونهم مشركين يدل على انهم كانوا مقرين باثبات
الاله وانما كانوا مشركون لانهم اثبتوا للشمس والقمر والنجوم نصيبا
في العبودية وتدبير العالم فلما ابطل ابرهيم عليه السلام هذا
المذهب تبرا منه ثم اقبل على التوحيد المحض فقال اني وجهت وجهي

الذي

للذي فطر السموات والارض الاية وكان قوله اني برئ مما تشركون
عبارة عن كلمة لا اله وقوله اني وجهت وجهي للذي فطر السموات
والارض عبارة عن كلمة الا الله وصار معنى كلمة لا اله الا الله
مكشوفا في هذا المقام وهذا اخر الكلام في هذه الاية **الفصل**
الثاني في شرح مناظرة ابرهيم مع ملك زمانه وهي قوله تعالى
الم تر الى الذي حاج ابرهيم في ربه الاية اما قوله الم تر فهي كلمة توقف
بها المخاطب على امر تعجب منه ولفظه لفظ الاستفهام ونظيره قوله
اما ترى الى فلان كيف يصنع معناه هل رايت كفلان في صنعة كذا اما
قوله الى الذي حاج ابرهيم في ربه قال نمروذ بن كنعان وهو اول من
تجبر وادعى الربوبية والمحاجة المغالبة يقال حاججته فحججته اي
غالبته فغلبته والضمير في قوله في ربه يحتمل ان يرجع الى ابرهيم
وان يرجع الى الطاعن والاول هو الاظهر بدليل قوله تعالى وحاجه
قومه قل اتحاجوني في الله والمعنى حاجه في ربه اما قوله ان اتاه الله
الملك ففيه قولان احدهما ان الهاء في اتيه عايدة الى ابرهيم والمعنى
ان الله تعالى اتى ابرهيم الملك واحتجوا على هذا القول بوجوه الحجة
الاولى فقد اتينا ال ابرهيم الكتاب والحكمة والنبوة واتيناهم
ملكا عظيما اي سلطانا بالنبوة والقيام بدين الله تعالى الحجة
الثانية انه لا يجوز ان يوتي الله الملك الكفار ومن يدعي الربوبية
لنفسه الحجة الثالثة ان عود الضمير الى اقرب المذكورين واجب واقرب
المذكورين هو ابرهيم الى هذا الضمير فوجب ان يكون هذا الضمير
عايدا اليه والقول الثاني وهو قول جمهور المفسرين ان الضمير

عايدا الى ذلك الانسان الذى حاج ابرهيم واحتجوا عليه بوجوه
الحجة الاولى ان قوله اتاه الله الملك يحتمل ثلث تاويلات وكل واحد
منها انما يصح اذا قلنا الضمير عايد الى الملك لا الى ابرهيم فاحد تلك
التاويلات ان يكون المعنى حاج ابرهيم فى ربه لاجل ان اتاه الله الملك
على ابناء الملك بطره واورثه الكبر والعتو فحاج لذلك ومعلوم ان
هذا انما يليق بالملك العاتى والتاويل الثانى ان يكون المعنى انه جعل
محاجته فى ربه شكرا على ان اتاه ربه الملك كما يقال عادانى فلان لانى
احسنت اليه بدليل انه عكس ما يجب عليه الموالات لاجل الاحسان
ونظيره قوله وتجعلون رزقكم انكم تكذبون وهذا التاويل ايضا
لا يليق الا بالكافر والتاويل الثالث انه حاج وقت ان اتيه الله الملك
وهذا غير لايق بالنبى المعصوم فانه يجب عليه اظهار المحاجة قبل
حصول الملك وبعده اما الملك العاتى فانه لا يليق به اظهار هذا
العتو الشديد الا بعد ان يحصل له الملك العظيم فثبت انه لا يستقيم
لقوله ان اتاه الله الملك معنى وتاويل الا اذا حملناه على الملك العاتى
الحجة الثانية ان المقصود من هذه الاية بيان كمال حال ابرهيم فى اظهار
الدعوة الى الدين الحق ومتى كان الكافر سلطانا مهيبا حال ما كان
ابرهيم غير ملك كان هذا المعنى اتم مما اذا كان ابرهيم ملكا وما كان
الكافر كذلك فوجب المصير الى ما ذكرناه الحجة الثالثة ما ذكره ابو بكر
الاصم وهو ان ابرهيم عليه السلام لو كان ملكا لما قدر هذا الكافر على
ان يقتل احد الرجلين ويستبقى الاخر بل كان ابرهيم عليه السلام يمنعه
منه اشد المنع وهذا الاستدلال ضعيف لان من المحتمل ان يقال ان ابرهيم

كان ملكا وسلطانا فى الدين والتمكن من اظهار المعجزات وذلك
الكافر كان قادرا على الظلم فلهذا السبب مكنه قتل احد الرجلين
وايضا فيجوز ان يقول انما قتل احد الرجلين قودا وكان الاختيار
اليه واستبقى الاخر اما لانه لا قتل عليه او بذل الدية واستبقاه
وقوله انا احيى واميت خبر ووعد ولا دليل فى القران على انه
فعله ثم القايلون بهذا القول اجابوا عن دلايل الغايبين بالقول
الاول اما الحجة الاولى التمسك بقوله فقد اتينا آل ابرهيم الكتاب
والحكمة واتيناهم ملكا عظيما فجوابه ان هذه الاية دالة على حصول
الملك لال ابرهيم وليس فيها دلالة على حصول الملك لابرهيم اما الحجة
الثانية وهو قوله لا يليق بحكمة الله ان يوتى الكفار الملك فجوابه
ان المراد من الملك التمكين والقدرة والبسطة فى الدنيا والحس يدل
على ان الله تعالى قد يعطى الكافر هذا المعنى وايضا فلم لا يجوز ان يقال
انه تعالى اعطاه الله الملك حال ما كان مومنا ثم انه بعد ذلك كفر بالله
واما الحجة الثالثة وهى قوله عود الضمير الى اقرب المذكورين واجب
فجوابه ان هذا معارض بما ذكرنا ان الروايات الكثيرة وردت بان
الملك هو الذى حاج ابرهيم والله اعلم واما قوله ربى الذى يحيى
ويميت ففيه مسايل المسئلة الاولى الظاهر ان هذا الكلام جواب
عن سوال سابق غير مذكور وذلك لان من المعلوم ان الانبياء
عليهم السلام انما بعثوا للدعوة والظاهر انه اذا ادعى الرسالة
فان المدعو يطالبه باثبات ان للعالم الها الا ترى ان موسى
قال انا رسول رب العالمين قال فرعون وما رب العالمين فاحتج

موسى عليه السلام على اثبات الصانع بقوله رب السموات والارض
فكذا ههنا الظاهر ان ابرهيم ادعى الرسالة فقال نمرود من ربك
قال ابرهيم ربي الذي يحيي ويميت الا ان هذه المقدمة جرم وقد
دلت الواقعة دلت عليها ويحتمل ان يكون ابرهيم قد ذهب اليه
ودعاه اولا الى التوحيد من غير ذكر النبوة المسئلة الثانية اعلم
ان دليل ابرهيم عليه السلام كان في غاية الصحة وذلك لانه
لا سبيل الى معرفة الله الا بواسطة افعاله التي لا يشاركه فيها احد
من القادرين من الاحياء والاماتة كذلك لان الخلق عاجزون عنها
والعلم بذلك بعد الاختيار ضروري فلا بد من موثر اخر هو غير هؤلاء
القادرين الذين نراهم ونشاهدهم حتى يكون موثرا في الاحياء والاماتة
وذلك الموثر اما ان يكون موجبا بالذات ومختارا والاول باطل لانه
يلزم من دوامه وعدم تغيره دوام الاثر وكان يجب ان لا يتبدل
الموت بالحيوة ولا بالعكس ذلك محال وايضا فانا نرى للحيوانات
اعضاء مختلفة الشكل والصفة والطبيعة والخاصية وتاثير
الموجب بالذات لا يكون كذلك فعلمنا انه لا بد في الاحياء والاماتة
من موجد قادر مختار موثر بالقدرة والاختيار وذلك هو الله سبحانه
وهذا دليل متقن في غاية القوة وذكره الله تعالى في مواضع من كتابه
كقوله تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وسنفرد
ان شاء الله تعالى لتقريره فصلا مفردا فان قيل انه تعالى قدم الموت
على الحيوة في ايات منها قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا
فاحياكم وقال الذي خلق الموت والحيوة وقال ابرهيم عليه السلام

في الثناء على الله سبحانه والذي يميتني ثم يحيين فلم قدم في هذه الاية
ذكر الحيوة على الموت قلنا لانه اذا كان المقصود من ذكر الدليل
هو الدعوة الى الله وجب ان يكون الدليل اظهر واوضح ولا شك ان
عجايب الخلقة حال الحيوة اكثر واطلاع الانسان عليها اتم فلاجرم
وجب تقديم الحيوة ههنا في الذكر واما في تلك الايات فالمقصود
فيها بيان تعديد الاحوال الماضية فلاجرم وجب فيها تقديم الموت
على الحيوة اما قوله تعالى انا احيي واميت فاعلم ان المشهور في كتب
التفسير ان ابرهيم عليه السلام لما احتج بهذه الحجة دعا ذلك الكافر
شخصين وقتل احدهما واستبقى الاخر وقال ايضا انا احيي واميت
هذا هو المنقول في الكتب وهو عندي في غاية البعد ويدل عليه
وجوه الحجة الاولى ان الظاهر من حال ابرهيم انه شرح حقيقة الاحياء
والاماتة على الوجه الملخص فان ايراد الكلام المجمل المهم عند من يكون
غرضه هو التفهيم والتعليم والزجر عن الباطل والدعوة الى الحق
لا يليق باقل الناس عقلا وعلما وفضلا عن اعقل العقلاء واعلم العلماء
ومتى لخص الانسان حقيقة الاحياء والاماتة امتنع ان يشتبه
على السائل مع هذه الاحياء والاماتة التي اوردهما الكافر في معرض
المعارضة ويبعد في الجمع العظيم ان يكونوا في الحماقة بحيث لا يعرفون
هذا القدر من الفرق الحجة الثانية ان من بلغ في الجهالة والحماقة
الى هذا الحد فاي فضيلة يحصل للانسان بسبب الزامه وافحامه
لكنه تعالى جعل افحامه سببا للفضيلة العظيمة حيث قال فبهت الذي
كفروا واعلم ان القايلين بهذا القول قالوا ان الكافر لما اورد هذا

السؤال عدل ابرهيم عن ذلك الدليل الى دليل اخر فقال ان الله ياتى
بالشمس من المشرق فات بها من المغرب فبهت الذى كفروا وهذا ايضا
فى غاية البعد ويدل عليه وجوه الحجة الاولى ان الانتقال من الدليل
الاول الى الدليل الثانى يوهم العجز والجهل وذلك يقتضى ضرورته
حقيرا فى الاعين وصيرورته بحيث لا يلتفتا الى قوله ولا يبالى بكلامه
والانبياء عليهم السلام يجب عليهم ان يصونوا انفسهم عن هذه
حتى لا يخل بما هو المقصود من تبليغهم ورسالتهم ويفضى الى ان لا
يلتفت القوم اليهم وان لا يقيموا لهم وزنا فثبت انه لا يجوز عليهم
الانتقال من دليل الى دليل الحجة الثانية ان هذا السؤال كان فى غاية
الركاكة والجواب عنه حاصل بادنى تنبيه فان كان القوم قد بلغوا
فى الحماقة والجهالة الى حيث لا ينتفعون بذكر الفرق بين هاتين الصورتين
لم ينتفعوا ايضا بذكر هذا الدليل الثانى البته وان كانوا بحيث يدركون
الفرق بين الصورتين كان التنبيه على الفرق اولى من الانتقال الى
الدليل الثانى الحجة الثالثة ان ذلك السؤال وان كان فى غاية الركاكة
الا انه لما وقع فى اسماع الحاضرين فالسكوت عن الجواب يفضى الى ابقاء
تلك الشبهة فى القلوب وذلك غير جائز لان ازالة الشبهة على من
يقدر على ازالتها فرض معين فكيف يجوز الاخلال فيه وليس لاحد
ان يقول انه عليه السلام انما ترك ذلك الجواب لانه كان خايفا عن
ذلك الملك لانا نقول لما لم يمنع الخوف من الملك عن ذكر الدليل الثانى فبان
لا يمنع من ذكر الفرق الذى هو اوضح واجلى كان اولى الحجة الرابعة
انما يحسن الانتقال من دليل الى دليل اخر لو كان الدليل الثانى اوضح واقوى

وههنا ليس الامر كذلك لان جنس الحيوة لا قدرة للخلق عليه واما جنس
تحريك الاجسام فللخلق قدرة عليه ولا يبعد فى العقد وجود ملك
عظيم الخلقة اعظم من السموات وانه هو الذى يحرك السموات والدليل
على ان هذا الاحتمال قايم قوله تعالى ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ
ثمانية والعرش اعظم من السموات بكثير فاذا لم يبعد ان يكون الملك
حاملا للعرش فاى بعد فى ان يكون محركا للسموات والشمس والقمر
فثبت ان الاحياء لا يصح الا من الله تعالى اما تحريك السموات فانه يصح
من غير الله واذا كان كذلك كان دلالة الاحياء والاماتة على وجود
الله تعالى اقوى واظهر من دلالة طلوع الشمس على وجود الله واذا ثبت
هذا فنقول انه لا يليق بالمعصوم ان يترك التمسك بالدليل القوى
ويلزم العجز والانقطاع ويتمسك بعده بدليل ركيك ضعيف لا يقبل
التمشية ويكون الداعى له الى كل ذلك سوال ركيك فى غاية السقوط
فان مثل هذا العمل لا يليق بالمبتدين الحجة الخامسة ان دلالة الاحيا
والاماتة على وجود الصانع الحكيم اقوى من دلالة طلوع الشمس على
وجود الصانع من وجه اخر وذلك لانا نشاهد فى ذات الانسان
وصفاته من التبدلات واختلاف الحالات وتعاقب الصفات ما كل
ذلك ظاهر الدلالة على وجود الصانع المختار اما الشمس فلا يرى فى
ذاتها ولا فى صفاتها ولا فى مجارى حركاتها شيئا من التبدلات بل القايلون
ان المؤثر فى وجود العالم علة بالايجاب لا فاعل بالاختيار يعظم
شبههم فى هذه الصورة فانهم يقولون نرى احوال الشمس فى الطلوع
والغروب باقية على نهج واحد وطريقة واحدة وذلك يوهم ان حركة

الشمس والقمر والكواكب بالطبع لا بتحريك القادر المختار فثبت
ان دلالة الاحياء والاماتة على وجود القادر المختار اقوى من
دلالة طلوع الشمس وغروبها عليه فكان الانتقال من الاول
الى الثاني انتقالا من الاقوى الى الاضعف وهذا لا يليق باحد من
الاذكياء فضلا عن اكمل العقلاء الحجة السادسة ان نمرود لما
بلغ في الحماقة والوقاحة الى حيث عارض الاحياء والاماتة بذلك
السؤال الركيك فكيف يؤمن منه عند استدلال ابرهيم عليه السلام
بطلوع الشمس من المشرق حصل بفعلي وان كان الاله قادر مختار
فقل له حتى يطلعها من المغرب وعند هذا التزام المحققون من
المفسرين بانه لو اورد هذا السؤال لكان يجب في حكمة الله تعالى
ان يطلع الشمس من المغرب ومعلوم ان اظهار فساد ذلك السؤال
الركيك اهون من التزام اطلاع الشمس من المغرب بكثير وايضا فعند
طلوع الشمس من مغربها يصير الاستدلال بطلوع الشمس من مشرقها
ضايعا وحينئذ يصير دليله الثاني ضايعا كما ضاع دليله الاول
ومعلوم ان التزام هذه الظلمات لاجل ذلك السؤال الركيك غير لايق
بالعقلاء الحجة السابعة ان الفاء في قوله فان الله ياتي بالشمس من
من المشرق يدل على ان هذا الكلام متعلق بالكلام الاول وعلى قول
هؤلاء المفسرين هذا دليل منقطع عن الكلام الاول غير متعلق به فلا
يبقى للفاء فائدة اصلا فظهر بهذه الوجوه اما تفسير كلام الله تعالى
بهذا الوجه الذي ذكروه ضعيف والمختار عندي في تفسير هذه الاية
ان نقول ان ابرهيم عليه السلام لما احتج على وجود الصانع بالاحياء

والاماتة قال المنكر اتدعي الاحياء والاماتة من الله ابتداء من
غير واسطة الاسباب الارضية والسماوية او تدعي صدور الاحياء
والاماتة من الله تعالى بواسطة الاسباب الارضية والسماوية
اما الاول فلا سبيل اليه واما الثاني فلا يدل على المقصود لان
الواحد منا يقدر على الاحياء والاماتة بواسطة الاسباب
الارضية والسماوية فان الجماع قد يفضي الى الولد الحي بواسطة
الاسباب الارضية والسماوية وتناول السم قد يفضي الى الموت
فلما ذكر نمروذ هذا السؤال اجاب ابرهيم عليه السلام بان قال
ان الاحياء والاماتة حصلا من الله تعالى بواسطة الاتصالات
الفلكية الا انه لا بد للاتصالات الفلكية والحركات الكوكبية
من فاعل ومدبر فاذا كان المدبر لتلك الحركات الكوكبية والاتصالات
الفلكية هو الله تعالى كان الاحياء والاماتة الحاصلان بواسطة
تلك الحركات الفلكية ايضا يكون من الله تعالى واما الاحياء والاماتة
الصادران عن البشر بواسطة الاسباب الفلكية فليست كذلك لانه
لا قدرة للبشر على الحركات الفلكية فظهر الفرق والحاصل ان الاحياء
والاماتة وان حصلا بواسطة الاسباب الفلكية الا ان مدبر
الفلك هو الله تعالى فكان الاحياء والاماتة الصادران عن الله
بخلاف الواحد منا فانه لا تاثير له في الفلك فلم يكن الاحياء والاماتة
الصادران بواسطة الفلك صادرين عن البشر فان قيل هذا السؤال
والجواب اللذان ذكرتم كيف نفهم من الاية واي مناسبة بينهما
وبين ما هو المذكور في الاية قلنا ان مدار القران على الايجاز لا على

الاطناب فقول ابرهيم ربي الذي يحيي ويميت محمول على الاحيا،
والامانة المعتادين وهما في ظاهر الامر موقوفان على الاسباب
الطبيعية السفلية والاتصالات الفلكية العلوية فقال نمرود
انا احيي واميت مثل هذه الاحياء والامانة اللذين اشرت اليهما
وهو الاحياء والامانة الحاصلان بواسطة الاسباب الفلكية
فقال ابرهيم فان الله ياتي بالشمس من المشرق اي هب ان هذه
الاحياء والامانة الحاصلين بواسطة الاسباب الفلكية انما
حصل بواسطة الشمس الا ان محرك الشمس هو الله تعالى واما
انت فلا قدرة لك على تحريك الشمس بدليل انك لا يمكنك تحريكها
من المغرب فظهر ان المذكور في الاية تنبيه على ما ذكرناه الا انه تعالى
انما ذكره على سبيل الايجاز والرمز على ما هو عادة القران واعلم انا
لما فسرنا الاية بهذا الوجه زالت تلك المطاعن باسرها وذلك لان
هذا السوال كلام لا يليق بالعقلاء فان كل من تمسك بالاحياء والامانة
فلا بد وان يورد الطبيعي والمنجم عليه هذا السوال ولا جواب عنه الا
الجواب المذكور في الاية ولا يكون فيه انتقال الى دليل آخر عن الدليل
الاول الى الدليل الثاني ويكون الكلام الثاني متعلقا بالكلام الاول
فبقي الفاء في قوله تعالى فان الله ياتي بالشمس من المشرق دلالة في
تعلق الكلام الثاني بالاول ونظير هذا التقرير في قوله تعالى في
سورة النحل هو الذي انزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر
الى قوله ان في ذلك لاية لقوم يتفكرون ومقطع الاية الثانية
بقوله يعقلون ومقطع الاية الثالثة بقوله افلا تذكرون

فجعل الله تعالى مقطع الاية الاولى من هذه الايات الثلثة بقوله
يتفكرون ومقطع الاية الثانية بقوله يذكرون وفي ترتيب
هذه المقاطع اسرار عجيبة وذلك لانه تعالى استدل في الاية الاولى
على وجود الصانع المختار بحدوث الانواع المختلفة من النبات في
الارض الواحدة والماء الواحد الا ان هذا الدليل في هذا المقام
غير تام وذلك لان لقايل ان يقول حدوث الانواع المختلفة من النبات
انما كان لتاثير الكواكب والشمس والقمر ولما كان مثل هذا السوال
مما يذكر على هذا الدليل قبل الجواب عن هذا السوال غير تام فكان
مجال التدبر والتفكر باقيا فلهذا السبب جعل مقطع هذه الاية
بقوله يتفكرون ثم انه تعالى اجاب عن هذا السوال من وجهين
الاول قوله وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ان في ذلك
لايات لقوم يعقلون وشرح هذا الجواب ان يقال هب ان حدوث
انواع مختلفة من النبات انما كان لتاثيرات الكواكب واختلاف
الفصول الا ان حركات الكواكب لا بد لها من موثر ولا يتسلسل بل لا بد
من الاعتراف بشيء هو مسبب الاسباب ومدبر الكل فيكون حدوث
النبات في الحقيقة واقعا بتدبير ذلك المدبر الاول والموثر الاول
وعند هذا يتم الاستدلال ولا يبقى للفكر مجال فلا جرم جعل مقطع
هذه الاية قوله يعقلون يعني ان كنت كامل العقل فاعترف بوجود
الاله القادر المختار في هذا المقام فان الدليل قد تم ولم يبق
بعد للفكر والنظر مجال وهذا التقرير هو بعينه التقرير المذكور
في قصة ابرهيم فان المنكر لما احال الاحياء والامانة على الاسباب

الفلكية من حيث انه شبه ذلك الاحياء والاماتة بالاحياء والاماتة
الصادرمنا فعند هذا قال ابرهيم عليه السلام فان الله يأتي
بالشمس من المشرق اى لابد لتلك الاسباب الفلكية من مدبر وهو
الله تعالى فلاجرم انقطع ذلك الكافر وسكت حتى قال تعالى في صفته
فبهت الذى كفر فالحاصل ان المراد من قوله فبهت الذى كفر هو المراد
من قوله ان في ذلك لايات لقوم يعقلون الوجه الثانى من الجواب
عن ذلك السؤال قوله وما ذرا لكم في الارض مختلفا الوانه الى قوله
لقوم يذكرون وتقرير هذا الجواب هو ان الارض والماء والهواء
والشمس والقمر لكل واحد طبيعة واحدة وتاثير واحد ونسبة هذه
هذه الاشياء باسرها الى كل واحد نسبة الغصن من اجزاء الشجر الواحدة
بل الى كل واحد من اجزاء الورقة الواحدة على غاية صغرها ونهاية دقتها
نسبة واحدة فكان ينبغى ان يكون الاثر حاصلا على السوية فلما راينا
في الشجرة الواحدة اختلافات كثيرة في اجزائها بل شاهدنا في الورقة الواحدة
اختلافا في لون وجهيها علمنا ان هذه الآثار غير مستندة الى الطبايع
والنجوم وانما جعل مقطع هذه الاية بقوله افلا تذكرون لانه
قد تقرر في بداية العقول ان الموجب لابد وان يكون تاثيره بالسوية
ولاجل هذا قالت الفلاسفة المقتضى لشكل الجسم هو الطبيعة وتاثير
الطبيعة الواحدة لابد وان يكون متشابها فلاجرم قالوا يجب
ان يكون شكل الجسم البسيط هو الكرة ثم انك تشاهد الاختلاف
العظيم في خلقة الحيوان والنبات اما النبات فانك ترى الاترج قشره
حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره يابس فهذا

شئ واحد حصلت فيه الطبايع المختلفة ويرى الرمان فيه ذلك
القشر الغليظ والشحم القابض العفص ثم ترى الحب فيه ذلك الماء اللطيف
العذب وفيه ذلك النوى الغليظ البارد واليابس القابض بل تجد الورقة
اللطيفة من الورد احد وجهيها في غاية الصفرة والوجه الاخر في غاية
الحمرة ثم ترى وسط تلك الورقة اللطيفة عرقا ممتدا من اصلها الى
طرفها ثم سترى العروق الصغيرة منشعبة من ذلك العرق المتوسط
ثم تنشعب من كل واحد من تلك الشعب شعب اخرى دقيقة وهكذا
الى ان تصير الشعبة ادق من الشعرة بمرات فاذا شاهدت هذه
الاختلافات الكثيرة في التركيب واللون والخاصية وكان قد
تقرر في عقلك ان الموجب بالذات يكون تاثيره متشابها فكيف
يجوز من عقلك ان تقول ان تولد هذه الانواع المختلفة انما كان
بسبب تاثيرات الانجم والافلاك فهذا برهان قاطع على انه لا يمكن
اسناد الحوادث الارضية الى الافلاك والانجم ولاجل هذا السر
جعل مقطع هذه الاية قوله افلا تذكرون يعنى لا تتذكرون ما كان
متقررا في عقولكم ان تاثيرات الموجب بالذات لا يكون مختلفا مع انك
شاهدت بحسك هذه الاختلافات الكثيرة فتامل ايها المسكين في هذه
الاسرار لتعلم ان القران بحر عميق لا ساحل له وان الطبيعى عن غنى جاهل
وليس المؤثر والمقدر والمدبر الا الله سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون
علوا كبيرا واعلم انا لما شرحنا هذين النوعين من المناظرات لابرهيم
عليه السلام لتعلقهما بالنجوم والشمس والقمر فلنذكر سائر مناظراته
في التوحيد وان لم يكن لها تعلق بالنجوم والشمس والقمر

الفصل الثالث

فى شرح مناظرة ابرهيم مع ابيه فى التوحيد قال تعالى فى سورة
مريم واذكر فى الكتاب ابرهيم انه كان صديقا نبيا اذ قال لابيه
يا ابت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا اعلم ان الغرض
من هذه السورة من اولها الى آخرها بيان التوحيد والنبوة والمعاد
والمنكرون للتوحيد هم الذين اثبتوا معبودا سوى الله تعالى وهم
فريقان منهم من اثبت معبودا غير الله حيا عاقلا فهما وهم
النصارى ومنهم من اثبت معبودا غير الله جمادا وهم عبدة الاوثان
والفريقان وان اشتركا فى الضلال الا ان ضلال الفريق الثانى
اعظم فلما بين الله تعالى فى هذه السورة ضلال الفريق الاول
وهم النصارى تكلم بعده فى شرح الفريق الثانى وهم عبدة الاوثان
فقال تعالى واذكر فى الكتاب ابرهيم والواو فى قوله واذكر
عطف على قوله ذكر رحمة ربك عبده زكريا كانه لما انتهت قصة
زكريا وعيسى عليهم السلام قال يا محمد قد ذكرت لهم حال زكريا
فاذكر حال ابرهيم وانما شرع فى قصة ابرهيم عليه السلام لوجوه
الاول ان ابرهيم كان ابا للعرب وهم كانوا مقرين بعلو شانه
وطهارة دينه على ما قال تعالى ملة ابيكم ابرهيم وقال ومن يرغب
عن ملة ابرهيم الا من سفه نفسه فكانه تعالى قال للعرب ان كنتم
مقلدين لابائكم على ما هو قولكم انا وجدنا اباءنا على امة
فمعلوم ان اجل ابائكم قدرا واعظمهم منزلة وشرفا وفخرا
هو ابرهيم فكونوا مقلدين له فى ترك عبادة الاوثان وان
كنتم من المستدلين فتاملوا فى هذه الدلائل التى ذكرها ابرهيم

لتعرفوا فساد عبادة الاوثان وبالجملة فاتبعوا ملة ابرهيم
اما تقليدا او استدلالا والثانى ان كثيرا من الكفار فى زمن الرسول
عليه السلام كانوا يقولون كيف نترك دين اباءنا واجدادنا فذكر
الله تعالى قصة ابرهيم وبين انه ترك دين ابيه آزر وابطل قوله بالدليل
فرجح متابعة الدليل على متابعة الاب ليعرف الكفار ان ترجيح
جانب الاب على جانب الدليل رد على الاب الاشرف الاكبر الذى هو ابرهيم
والثالث ان كثيرا من الكفار كانوا يتمسكون بالتقليد وينكرون
الاستدلال على ما قالوا انا وجدنا اباءنا لها عابدين فحكى الله تعالى
عن ابرهيم التمسك بطريق الاستدلال تنبيها لهؤلاء الجهال على
سقوط هذه الطريقة ثم انه تعالى قال فى صفة ابرهيم عليه السلام
انه كان صديقا نبيا وفى الصديق قولان احدهما انه مبالغة فى كونه
صادقا وهو الذى يكون عادته الصدق لان هذا البناء ينبئ بالمبالغة
يقال رجل خمير وسكير للمولع بهذه الافعال والثانى ان يكون
معناه كثير الصدق والتصديق بالحق حتى يصير مشهورا به والاول اولى
وذلك لان المصدق بشئ ربما يوصف بكونه صديقا اذا كان صادقا
فى ذلك التصديق فيعود الامر الى الاول فان قيل الدليل على القول الثانى
قوله تعالى والذين امنوا بالله ورسله اولئك هم الصديقون
والشهداء قلنا انما سماهم صديقين لكونهم صادقين فى ذلك
التصديق واعلم ان النبى يجب ان يكون صادقا فى كل ما اخبر لان الله
صدقه ومصدق الله صادق والا لزم الكذب فى خبر الله تعالى وهو
محال فيلزم من هذا كون الرسول صادقا فى كل ما يخبر عنه لان الرسل

شهيد الله على الناس على ما قال فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد
وجئنا بك على هؤلاء شهيدا والشهيد انما تقبل قوله اذا لم يكن كاذبا
فان قيل فما قولكم في ابرهيم عليه السلام حيث كذب ثلث كذبات
وهو قوله بل فعله كبيرهم وقوله اني سقيم وقوله هذه اختي قلنا
معاذ الله ان يكذب ابرهيم وسنجيب عن هذا الكلام في باب عصمة
الانبياء عليهم السلام فثبت ان كل نبي يجب ان يكون صديقا وظاهر
انه لا يجب ان يكون كل صديق نبيا فلهذا السبب وصفه اولا بكونه
صديقا ثم بعده وصفه بكونه نبيا واما النبي فسيجئ في باب النبوة
تفسيره وقوله تعالى كان صديقا قيل انه صادق وقيل انه وجد
صديقا نبيا اي كان من اول وجوده الى انتهايه موصوفا بالصدق
والديانة وهذا يوكد ما ذكرنا ان قوله هذا ربي كان في مقام
المناظرة ابطالا لهذا القول عليهم وما كان في معرض الاخبار اما قوله
يا ابت فالتاء عوض عن ياء الاضافة لا يقال يا ابتي لئلا يجمع بين العوض
والمعوض عنه وقد يقال يا ابتا ليكون الالف بدلا من الياء ثم اعلم
انه تعالى حكى ان ابرهيم عليه السلام كلم مع ابيه باربعة انواع
من الكلام النوع الاول قوله لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك
شيئا وصف الاوثان بصفات ثلثة كل واحد منها قادح في المعبودية
وبيانه من وجوه الاول ان العبادة غاية التعظيم فلا يليق الا لمن له
غاية الانعام وهو الذي يكون قادرا على خلق اصول النعم وفروعها
كما قررنا في تفسير قوله كيف تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم
الثاني ان بديهة العقل حاكمة بانه لا يجوز الاشتغال بشكر من لا

نعمة له عليك فاذا لم يجب الاشتغال بشكره فلان لا يجب الاشتغال
بطاعته اولى الثالث انها اذا لم يسمع ولم يبصر ولم يميز بين من
يطيعها وبين من يعصيها ومن كان كذلك فاي فايدة في عبادتها
وهذا يدل على ان الاله يجب ان يكون عالما بكل المعلومات من الكليات
والجزويات حتى يكون العبد آمنا من وقوع الغلط في الثواب والعقاب
الرابع ان الدعاء مخ العبادة فالوثن اذا لم يسمع دعاء الداعي فاي منفعة
في عبادته وان كان لا يبصر تقرب من يتقرب اليه فاي فايدة تحصل من
ذلك التقرب الخامس ان السامع المبصر الضار النافع افضل ممن كان
عاريا من هذه الصفات والانسان موصوف بهذه الصفات والصنم
عار عنها فيكون الانسان اشرف وافضل من الصنم واقدام الاشرف
الاعظم على عبودية الاخس الاذل لا يليق بالعقلاء السادس انها اذا
كانت لا تضر ولا تنفع لا تحصل اليها رغبة ولا منها رهبة فاي فايدة
في عبادتها السابع انها لا تقدر على حفظ نفسها عن اضعف الحيوانات
كما قال تعالى ان الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له
الاية بل لا يقدر على صيانة نفسها عن الكسر والاذلال وان الله تعالى
اخبر عن ابرهيم انه كسرها وجعلها جذاذا فاذا كانت لا تحفظ نفسها
للكسر والاذلال فاي رجاء للغير فيها والثامن انه تعالى نزه نفسه
عن الشرك في اول سورة النحل فقال تعالى عما يشركون ثم احتج عليه
بوجوه اولها بخلقه السموات فقال خلق السموات والارض بالحق
تعالى عما يشركون والثاني بخلقه الانسان فقال خلق الانسان
من نطفة فاذا هو خصيم مبين والثالث بخلقه الحيوانات فقال

والانعام خلقها لكم فيها دفء الاية والرابع بخلقه النبات فقال
هو الذي نزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر الاية والخامس
بخلقه البحر فقال وهو الذي سخر البحر والسادس بخلقه الارض
فقال والقى في الارض رواسي ان تميد بكم ثم ختم ذكر هذه الدلايل
باعادة المقصود وهي نفي الشركاء والانداد فقال افمن يخلق كمن
لا يخلق افلا تذكرون وكل ذلك اشارة الى ان التسوية بين النافع
والضار وبين ما لا ينفع ولا يضر في العبادة سفه والسابع ان ابرهيم
عاب الاصنام من ثلثه اوجه من حيث انها لا تسمع ولا تبصر ولا
يقدر فكانه قال العبادة لا يليق الا لربي والهي فانه يسمع بدليل
قوله اجيب دعوة الداعي ويبصر بدليل قوله اسمع وارى ويقضي
الحوايج بدليل قوله امن يجيب المضطر اذا دعاه والثامن قال
تعالى ولئن سالتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله وقال
في لقمان عقيب هذه الاية قل الحمد لله بل اكثرهم لا يعلمون فقوله
الحمد لله معناه الشكر لله على اعترافهم بذلك وقوله بل اكثرهم
لا يعلمون فمعناه انكم لما اقررتم بان المدبر هو الله فكيف تشتغلون
بعبادة غير الله فان الاقدام على هذا العمل مع الاقرار بذلك القول
لا يليق بمنزلة من له عقل وفهم ومعرفة فان قيل الستم قد ذكرتم
ان عبدة الاوثان معبودهم هو الكواكب في الحقيقة فكيف تتوجه
هذه الدلايل عليهم الجواب انا بينا في تفسير قوله تعالى لا احب الافلين
ان على كل التقديرات ان الاعراض عن مدبر الافلاك والانجم
بعبادة الافلاك والانجم وبعبادة اصنامها وتماثيلها عن الجهل

فلما دلت الدلايل على افتقار الافلاك والانجم الى الاله الخالق المدبر
وثبت ان خالق الافلاك والانجم لا بد وان يكون قادرا على خلق
الناس لان القادر على الاقوى قادر على الاضعف كما قال لخلق
السموات والارض اكبر من خلق الناس وقال اوليس الذي خلق السموات
والارض بقادر على ان يخلق مثلهم فاذا كان الامر كذلك كان
الاشتغال بخدمة رب الافلاك والانجم اولى من الاشتغال بخدمة
الافلاك والانجم وقد سبق تقرير هذا المعنى على الاستقصاء
النوع الثاني من كلام ابرهيم عليه السلام مع ابيه قوله يا ابت اني قد
جاءني من العلم ما لم ياتك فاتبعني اهدك صراطا سويا واعلم ان هذه
الاية اشارة الى ان روح النبي صلى الله عليه وسلم متميز عن ساير
الارواح بمزيد الكمال والجلال وتقريره وهو ان العالم عالمان عالم
المحسوس وعالم المعقول والمعقول لا يكون معقولا حتى يثبت له مثال
في المحسوس والا لكان متخيلا موهوما والمحسوس لا يكون محسوسا حتى
يثبت له مثال في المعقول والا لكان سرابا معدوما واذا عرفت
هذا فنقول عالم الروحانيات عالم عظيم لا يعلم عددهم واصنافهم
وانواعهم واجناسهم الا الله كما قال تعالى وما يعلم جنود ربك
الا هو ولا بد من مدبر سطاع نافذ الامر والقضية في جميع
الروحانيات وهياكل الروحانيات هي العرش والكرسي والافلاك
والكواكب ولا بد من ان يكون ذلك المدبر من جنسهم ولا بد ان يكون
كاملا بالفعل لان الاخراج من القوة الى الفعل لا يحصل الا ممن كان له
مبدا عن القوة خارجا الى الفعل من كل الوجوه واما العالم الجسماني

فلما

فهكذا يجب ان يكون فيه مدبر كامل من جميع الوجوه ويكون نافذ الامر
والقضية في جميع الجسمانيات ويكون تدبيره اخراج ما بالقوة الى
الفعل في ابناء جنسه فمدبر العالم الروحاني هو الروح الاعظم ومدبر
العالم الجسماني هو الرسول الاعظم ثم يكون بين الروح والرسول
مناسبة علوية وملاقات عقلية ويكون الروح الاعظم مصدرا
ويكون الروح الاعظم مظهرا فالروح مبداء والرسول نهاية
واول الفكر اخر العمل واذا عرفت ان الرسول مدبر للجسمانيات
باخراج ما فيها من الكمالات من القوة الى الفعل عرفت المراد من قول
ابرهيم اني قد جاءني من العلم ما لم ياتك فاتبعني اهدك صراطا
سويا وههنا اسرار عظيمة وقد نبهتنا على مشرعها النوع الثالث
من كلام ابرهيم مع ابيه قوله يا ابت لا تعبد الشيطان ان الشيطان
كان للرحمن عصيا والمعنى لا تطعه لانه عاص لله فنفره بهذا
الوصف عن القبول منه لانه اعظم الخصال المنفرة واعلم ان ابرهيم
عليه السلام كان عظيم الدرجة في الاخلاص في طاعة الله فلا جرم
لم يذكر من جنايات الشيطان الا كونه عصيا لله ولم يذكر البتة
كونه عدوا لادم عليه السلام كان النظر في عظيم حاله في معصية الله
تعالى غير فكره واطبق على ذهنه وهذا كما ان عيسى عليه السلام
اول ما تكلم ذكر بما يدل على نبوته وتنزيه الله سبحانه ولم يذكر على ما
يدل على براءة امه كان اشتغاله بتنزيه الله تعالى شغله عن الالتفات الى
حال الام وايضا فان معصية الله تعالى لا تصدر الا عن ضعيف الراى
ومن كان كذلك حقيقا بان لا يلتفت اليه فان قيل ان هذا القول يتوقف

اثباته

اثباته على امور احدها اثبات الصانع والثاني اثبات الشيطان
والثالث اثبات ان الشيطان عاص لله والرابع انه لما كان عاصيا
لله لم يجز طاعته في شيء من الاشياء والخامس ان الاعتقاد الذي
كان يعتقده والد ابرهيم مستفاد من طاعة الشيطان ومن شان
الدلالة التي يوردها الانسان على خصمه كونها مركبة من مقدمات
مسلمة معلومة ولعل والد ابرهيم كان نازعا في كل هذه المقدمات
فكيف يستحسن من ابرهيم ذكر هذا الكلام قلنا الحجة المعول عليها
في ابطال مذهب ابيه هي التي ذكرها اولا من قوله لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا فاما هذا الكلام يجري مجرى التخويف
والتحذير الذي يحمله على النظر والتامل في تلك الدلالة النوع الرابع
قوله يا ابت اني اخاف ان يمسك عذاب من الرحمن وفي قوله اخاف
قولان احدهما قال الفراء معناه اعلم والاكثرون على انه محمول
على الظاهر وحمل هذا اللفظ على العلم انما يجب لو كان ابرهيم عالما
بان اباه سيموت على الكفر وذلك لم يثبت فوجب اجراؤه على ظاهره
فانه كان يجوز في ابيه بان يؤمن فيصير من اهل الثواب ويجوز فيه
بان يموت على الكفر فيكون من اهل العقاب ومن كان بهذه الصفة
يكون خائفا لا قاطعا واعلم ان من نظر الى وصول ضرر الى غيره فانه
لا يسمى خائفا الا اذا كان خائفا بحيث يلزمه من ذلك الضرر تالم
قلبه كما يقال انا خائف على ولدي اما قوله فيكون للشيطان
وليا فذكروا في الولي وجهها الاول انه اذا استوجب عذاب الله
كان مع الشيطان في النار والولاية سبب للمعية فاطلق اسم السبب

على المسبب مجازا وانما لم يجز حمله على الولاية الحقيقية لقوله تعالى
الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين وقال ثم يوم القيامة
يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا وحكى عن الشيطان انه
يقول لهم انى كفرت بما اشركتمونى من قبل والثانى يحمل العذاب
على الخذلان تقديره انى اخاف ان يمسك خذلان الله فتصير مواليا
للشيطان فتبرا الله منك كما قال ولم يتخذ الشيطان وليا من دون الله
فقد خسر خسرانا مبينا والثالث وليا اى تاليا للشيطان يليه كما يسمى
المطر الذى ياتى تاليا وليا فان قيل قوله اخاف ان يمسك عذاب من
الرحمن الاية تقتضى ان يكون ولاية الشيطان اسوء حالا من العذاب
فما معنى ذلك الجواب ان رضوان الله اعظم واشرف من الثواب كما قال
ورضوان الله اكبر فوجب ان تكون ولاية الشيطان التى هى فى مقابلة
رضوان الله اكبر من العذاب واعظم فهذا هو الاشارة الى تفسير
هذه الكلمات الاربعة التى ذكرها ابرهيم عليه السلام لابيه واعلم
انه صلى الله عليه وسلم رتب هذا الكلام فى غاية الحسن لانه نبه
على ما يدل على المنع من عبادة الاوثان ثم امره باتباعه فى النظر
والاستدلال وترك التقليد ثم نبه على ان طاعة الشيطان غير جايزة
فى العقول ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الاشتغال بما لا ينبغى ثم
انه اورد هذا الكلام الحسن اللطيف مقرونا باللطف والرفق فان قوله
فى مقدمة كل كلام يا ابت دليله على شدة الحب والرغبة فى صونه
عن العقاب وارشاده الى الصواب وختم الكلام بقوله انى اخاف
وذلك يدل على شدة تعلق قلبه بمصالحه وانما فعل ذلك لوجوه الاول

قضاء حق الابوة كما قال وبالوالدين احسانا والارشاد الى الدين
الحق من اعظم انواع الاحسان فاذا انضاف اليه رعاية الادب
والرفق كان ذلك نورا على نور والثانى ان الهادى الى الحق لابد
وان يكون رفيقا لطيفا يورد الكلام لا على سبيل العنف لان الايراد
على سبيل العنف يصير مانعا من الاستماع والقبول والثالث ما روى
ابو هريرة قال قال عليه السلام اوحى الله الى ابرهيم يا ابرهيم انك خليلى
حسن خلقك ولو مع الكفار تدخل مداخل الابرار فان كلمتى قد سبقت
لمن حسن خلقه انى اظله تحت عرشى واسكنه حضيرة القدس وادنيه
من جوارى واما قوله اراغب انت عن الهتى يا ابرهيم اعلم ان ابرهيم
لما دعا اباه الى التوحيد وذكر الدليل على فساد اعتقاد عبدة الاوثان
واردف ذلك الدليل بالوعظ البليغ واورد كل ذلك مقرونا باللطف
والرفق قابله ابوه بجواب يضاد ذلك فقابل حجته بالتقليد فانه
لم يذكر فى مقابلة حجته الا قوله اراغب انت عن الهتى فاخبر عن الدعا
الهتها جهلا وتقليدا وقابل وعظه بالسفاهة حيث هدده بالضرب
والشتم وقابل رفقه فى قوله يا ابت بالعنف حيث لم يقل يا بنى بل
قال يا ابرهيم وانما حكى الله تعالى ذلك لمحمد عليه السلام ليخف
على قلبه ما كان يصل اليه من اذى المشركين فيعلم ان الجهال منذ كانوا
على هذه السيرة المذمومة واعلم ان قوله اراغب انت عن الهتى
ان كان المراد منه الاستفهام فهو خذلان لانه قد عرف منه بما
تكرر فيه من وعظ وتنبيه ووعد ووعيد انه راغب عن ذلك
فما فائدة هذا القول وان كان ذلك على سبيل التعجب فاى التعجب

فى الاعراض عن حجر لا يضر ولا ينفع انما التعجب كله من الاقدام على
عبادتها اما قوله لئن لم تنته لارجمنك وفى الرجم قولان الاول
انه الرجم باللسان وهو الشتم والذم ومنه قوله والذين يرمون
المحصنات اى بالشتم ومنه الرجيم اى المرمى باللعن قال مجاهد الرجم
فى القران كله بمعنى الشتم والقول الثانى الرجم باليد وعلى هذا التفسير
ففيه وجوه الاول لارجمنك باظهار امرك للناس ليرجموك فيقتلوك
والثانى لارجمنك بالحجارة لتتباعد منى والثالث قال المورج
لاقتلنك بلغة قريش والرابع قال ابو مسلم لارجمنك المراد منه
الرجم بالحجارة الا انه قد يقال ذلك فى معنى الطرد والابعاد على
سبيل الاتساع والدليل عليه انه اراد الطرد وقوله تعالى واهجرنى
مليا اما قوله واهجرنى ففيه بحثان الاول عطف واهجرنى
على معطوف عليه محذوف يدل عليه لارجمنك والتقدير لارجمنك
فاحذرنى واهجرنى والبحث الثانى فى قوله واهجرنى قولان
احدهما المراد واهجرنى فى القول والثانى واهجرنى بالمفارقة
من الدار والبلد وهو كهجرة الرسول والمؤمنين اى تباعد عنى حتى
لا اراك وهذا الثانى اقرب الى الظاهر اما قوله مليا ففيه قولان
الاول مدة بعيدة ماخوذ من قولهم اتى على فلان ملاوة من الدهر اى
زمان بعيد والثانى مليا بالذهاب عنى قبل ان اضربك فلا تقدر
ان تذهب من قوله فلان ملى بكذا اذا كان مطيقا له قادرا عليه
ثم ان ابرهيم لما سمع من ابيه هذا الجواب جاء بامرين احدهما
انه وعده التباعد منه وذلك لان اباه لما امره بالتباعد اظهر الانقياد

وبقوله سلام عليك لا نبتغى الجاهلين وقال واذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما وهذا دليل على جواز مباركة المبطل اذا ظهر منه اللجاج
وعلى انه يحسن مقابلة الاساءة بالاحسان ويجوز ايضا ان يكون قد
دعا له بالسلامة استمالة له الا ترى انه وعده الاستغفار ثم انه لما
ودعه بقوله سلام عليك ضم اليه ما دل على انه وان بعد منه الا ان
شفقته باقية عليه وهو قوله ساستغفر لك ربى واحتج من طعن
فى عصمة الانبياء عليهم السلام بهذه الآية وتقريره ان ابرهيم
استغفر لابيه وابوه كان كافرا والاستغفار للكافر غير جايز فثبت
بمجموع هذه المقدمات ان ابرهيم فعل ما لا يجوز انما قلنا انه استغفر
لابيه لقوله سلام عليك ساستغفر لك ربى وقوله ايضا واغفر
لابى انه كان من الضالين واما ان اباه كان كافرا فذلك بنص القران
واما ان الاستغفار للكافر غير جايز فيدل عليه وجهان الاول
قوله ما كان للنبى والذين امنوا ان يستغفروا للمشركين والثانى
قوله تعالى فى سورة الممتحنة قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابرهيم
الى قوله الا قول ابرهيم لابيه لاستغفرن لك فامر بالتاسى بابرهيم
الا فى هذا الفعل فدل على ان هذا الفعل معصية الجواب قوله الاستغفار
غير جايز قلنا الكلام عليه من وجوه الاول ان القطع على ان الله
يعذب الكافر لا يعلم الا بالسمع فلعل ابرهيم عليه السلام لم يجد
فى شرعه ما يدل على القطع بعذاب الكافر فلا جرم استغفر لابيه
والثانى ان الاستغفار قد يجئ بمعنى الاستبطاء قال تعالى قل
للذين امنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله والمعنى سأسال ربى

ان لا يعجل عذاب كفرك فى الدنيا والثالث انه عليه السلام انما
استغفر لابيه لانه كان يرجو منه الايمان فلما ايس من ذلك ترك
الاستغفار ولعل فى شرعه جواز الاستغفار للكافر الذى يرجى منه
الايمان والدليل على وقوع هذا الاحتمال قوله تعالى ما كان للنبى
والذين امنوا معه ان يستغفروا للمشركين ولو كانوا اولى قربى
من بعد ما تبين لهم انهم اصحاب الجحيم وقال تعالى بعد ذلك وما
كان استغفار ابرهيم لابيه الا عن موعدة وعدها اياه الاية تدل
هذه الاية على انه انما وعده بالاستغفار بشرط ان يومن فلما لم يومن
فقد الشرط فلا جرم لم يوجد المشروط فان قيل فاذا كانت القصة
كذلك فلم منعنا من التاسى به فى ذلك الجواب لان التاسى به فى ذلك
لا يدل على ان ذلك معصيه فان كثيرا من الاشياء من خواص رسول الله
صلى الله عليه وسلم فلا يجوز لنا التاسى به مع ان ذلك مباحا
للرسول والرابع لعل هذا الاستغفار كان من باب ترك الافضل
وحسنات الابرار سيئات المقربين اما قوله انه كان بى حفيا
اى لطيفا رفيقا يقال احفى فلان فى المسئلة اذا الطف فيه
وبالغ فى الرفق والمراد انه سبحانه لكثرة الطافه بى وانعامه على
وعدنى الاجابة فاذا استغفرت لك حصل المراد كانه حصل بذلك
على يقين انه ان تاب غفر الله له ذلك الوجه الثانى من الجواب قوله
واعتزلكم وما تدعون من دون الله والاعتزال عن الشئ هو التباعد عنه
والمعنى انه لا اقاربكم فى المكان ولا اقاربكم فى طريقتكم ايضا
وابعد عنكم واشتغل بعبادة ربى الذى ينفع ويضر فانكم بعبادة

الاصنام

١٤٧

الاصنام سالكون طريقة الهلاك فواجب على مجانبتكم ومعنى قوله
عسى الا اكون بدعاء ربى شقيا اى ارجو الا اكون كذلك وانما ذكر
هذا الكلام على سبيل التواضع كقوله والذى اطمع ان يغفر لى
خطيئتى يوم الدين وقوله شقيا مع ما فيه من التواضع فيه تعريض
بشقاوتهم فى دعاء الهتهم على ما قرره اولا فى قوله لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا وقوله تعالى فلما اعتزلهم الى قوله
عليا واعلم ان احدا لا يخسر على طاعة الله فان ابرهيم لما اعتزلهم
فى دينهم وبلدهم واختار عنهم الهجرة الى ربه ما ضره ذلك فى الدين
ولا فى الدنيا بل نفعه فعوضه الله تعالى اولادا انبياء ولا منصب فى
الدين اعظم من ان يجعله الله رسولا الى خلقه ويوجب عليهم
طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة فى الاخرة
فصار جعله اياهم انبياء من اعظم النعم فى الدنيا والاخرة ثم بين
انه تعالى مع ذلك وهب لهم من رحمته اى وهب لهم مع النبوة
اشياء اخر وابهم فى ذكرها ويدخل فيه المال والجاه والاتباع
والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال وجعلنا لهم لسان صدق
عليا ولسان الصدق الثناء الحسن فعبر باللسان عما يحصل باللسان
فاستجاب الله دعوته فى قوله واجعل لى لسان صدق فى الاخرين
فصيره قدوة حتى ادعى كل طايفة من اهل الاديان انهم على ملته
ودينه وقال تعالى ملة ابيكم ابرهيم وقال ثم اوحينا اليك ان اتبع
ملة ابرهيم حنيفا قال بعض العلماء ان الخليل اعتزل عن الخلق على
ما قال واعتزلكم وما تدعون من دون الله فلا جرم بارك الله فى اولاده

فقال ووهبنا له اسحق ويعقوب وتبرأ من ابيه فى الله على ما
قال فلما تبين له انه عدو لله تبرأ منه لاجرم سماه الله ابا للمؤمنين
فقال ملة ابيكم ابرهيم وتل ولده للجبين ليذبحه فى الله على ما قال
فلما اسلما وتله للجبين لاجرم فداه الله كما قال وفديناه بذبح
عظيم واسلم نفسه لله فقال اسلمت لرب العالمين فجعل الله بردا
عليه فقال يا نار كونى بردا وسلاما على ابرهيم واشفق على هذه
الامة فقال ربنا وابعث فيهم رسولا منهم لاجرم اشركه الله فى
الصلوات فانهم يقولون فى اخر التشهد كما صليت على ابرهيم
وآل ابرهيم وكان وفيا فى اداء طاعات ربه كما قال وابرهيم الذى وفى
لاجرم جعل الله موطئ قدميه مباركا فقال واتخذوا من مقام ابرهيم
مصلى وعادى كل الخلق فى الله قال فانهم عدو لى الا رب العالمين لاجرم
اتخذه الله خليلا فقال واتخذ الله ابرهيم خليلا ليعلم صحة ما ذكرنا
انه لا يخسر على الله احد

الفصل الرابع

فى شرح مناظرة ابرهيم
عليه السلام مع قومه بكسر الاصنام قال تعالى فى سورة الانبياء ولقد
اتينا ابرهيم رشده من قبل وكنا به عالمين اعلم انه قبل الشروع فى هذه
الواقعة مدح ابرهيم بقوله ولقد اتينا ابرهيم رشده من قبل وفيه
مسايل المسئلة الاولى فى الرشد قولان الاول انه النبوة واحتج من ذهب
الى هذا القول بقوله وكنا به عالمين قالوا لانه تعالى انما يخص بالنبوة
من يعلم من حاله انه فى المستقبل يقوم بحقوقها ويحترز عن كل ما لا
يليق بها ويجتنب عما نفر قومه من قبول تكاليفها ويتأكد هذا بقوله
واذ ابتلى ابرهيم ربه بكلمات فاتمهن قال انى جاعلك للناس اماما

والثانى ان الرشد هو الاهتداء لوجوه هو الصلاح فى الدين والدنيا
قال تعالى فان انستم منهم رشدا وقال اليس منكم رجل رشيد وقال انك
لانت الحليم الرشيد ومرادهم لانت السفيه الضال ذكروه على سبيل الاستهزاء
وقال وما امر فرعون برشيد وفيه قول ثالث وهو ان يدخل النبوة
والاهتداء الى كل المصالح تحت الرشد اذ لا يجوز ان يبعث الله نبيا الا وقد
عرفه ذاته وصفاته وافعاله ودله ايضا على مصالح نفسه ومصالح
قومه وكل ذلك من الرشد واعلم ان لفظ الرشد جاء فى القرآن على خمسة
اوجه احدها الحق قال تعالى فى سورة البقرة قد تبين الرشد من الغى
والثانى الاسلام قال فى سورة الاعراف وان يروا سبيل الرشد
لا يتخذوه سبيلا والثالث الهداية قال تعالى فى سورة البقرة
لعلهم يرشدون وقال فى سورة الكهف ومن يضلل فلن تجد له وليا
مرشدا وقال ايضا فى هذه السورة على ان تعلمنى مما علمت رشدا
وقال فى سورة الحجرات اولئك هم الراشدون والرابع معرفة المصالح
فى امور الدنيا قال تعالى فى سورة النساء فان انستم منهم رشدا فادفعوا
اليهم اموالهم والخامس فعل الصواب على سبيل الاطلاق قال تعالى
فى سورة الجن فمن اسلم فاولئك تحروا رشدا ويقرب منه قوله فى سورة
الكهف وهيئ لنا من امرنا رشدا فالوجوه الثلثة الاولة مختصة
بالدين والوجه الرابع مختص بالدنيا والوجه الخامس يعم الكل
ويشمل ما يتعلق بالدين وما يتعلق بالدنيا المسئلة الثانية احتج
اصحابنا على ان الايمان يحصل بخلق الله سبحانه بهذه الاية وذلك
لانا بينا ان لفظ الرشد يتناول الاهتداء الى كل مصالح الدين والدنيا

واعظم وجوه الاهتداء الى مصالح الدين هو معرفة الله فكانت
معرفة الله تعالى اعظم وجوه الرشد وقال تعالى ولقد اتينا
ابرهيم رشده فدل هذا على ان ايمان ابرهيم انما حصل بتخليق الله
وايجاده اجاب الكعبي عن هذه الحجة فان مثل هذا الكلام انما
يقال فيمن عرض عليه ما ينفعه فاذا قبله يقال ان فلانا اوتي
الرشد وهذا كمن اعطى المال لولدين فقبله احدهما وثمره ورده الآخر
اخذه ثم ضيعه فيقال فلان اغنى الله فيمن ثمر المال ولا يقال هذا
فيمن ضيع المال والجواب هذا كلام مشوش ونحن قدمنا ان لفظ
الرشد يتناول الايمان والله تعالى نص على انه اتاه رشده فكان
هذا صريحا فى ان الله تعالى اتاه ايمانه واعطاه معرفته اما قوله تعالى
من قبل ففيه وجوه الاول قال ابن عباس وابن جرير الطبري آتينا
ابرهيم نبوته او اهتداه من قبل موسى والثانى اتينا ابرهيم رشده
فى صغره قبل بلوغه حين كان فى الغار وهذا قول من حمل الرشد
على الاهتداء الى وجوه المصالح والا لزمه ان يحكم بنبوته قبل
البلوغ والثالث قال ابن عباس فى رواية الضحاك المراد حين
كان فى صلب آدم حين اخذ الله ميثاق النبيين والرابع كلام
خطر ببالى وهو اشارة الى العناية الازلية والى ان السعيد
من سعد فى بطن امه والى قوله عليه السلام جف القلم بما هو كائن
الى يوم القيامة يعنى ان جرى القضاء الازلي والحكم السرمدي
بجعله من السعداء الابرار الا انه شئ حدث اليوم وذلك لان من
مذهب اهل السنة ان من قضى تعالى سعادته فى هذا اليوم فحصلت

هذه

هذه السعادة فى هذا اليوم من نتايج ذلك القضاء الازلى فيصير
اشتغاله بالايمان موجبا على الله تعالى ان يقضى له بالسعادة
وهذا فى غاية البعد لان العقل يقتضى ان يكون صفة الخالق متصرفة
فى صفة المخلوق ولا يجوز ان يكون صفة المخلوق وفعله متصرفة
فى صفة الخالق ولهذا قال ابو بكر الواسطى لا اعبد ربا يرضيه طاعتى
ويبغضه معصيتى والمراد لا ينبغى ان يجعل طاعة العبد ومعصيته
موثرين فى رضا الرب وغضبه ولكن رضاه اوقع العبد فى الطاعة
وغضبه اوقعه فى المعصية حتى يكون الخالق متصرفا فى المخلوق لا ان
يكون المخلوق متصرفا فى الخالق اما قوله وكنا به عالمين والمراد منه
ما هو المراد من قوله الله اعلم حيث يجعل رسالاته والمعنى انه سبحانه
علم اختصاص روحه القدسية باحوال عجيبة واسرار بديعة
وهى استغراقه فى معرفة الله ومواظبته على طاعة الله واقباله
على الدعوة الى الله وبالجملة فكانت روحه فى الارواح كالشمس التى
تنور الظلمات وتزيل الضلالات والجهالات ونظير هذا الكلام
قولك فى رجل كبير انا عالم بفلان فان هذا الكلام فى الدلالة على تعظيمه
ادل مما اذا شرحت جلال كماله اما قوله اذ قال لابيه وقومه قال
صاحب الكشاف اذ اما يتعلق بقوله اتينا او برشده او بمحذوف
اى اذكر من اوقات رشده هذا الوقت قوله ما هذه التماثيل التى انتم
لها عاكفون فالتمثال اسم للشئ المصنوع مشبها بخلق من خلق الله
واصله من مثلت الشئ اذا شبهته به وذلك الممثل يسمى التمثال واعلم
ان القوم كانوا يتخذون لكل كوكب تمثالا مخصوصا على ما هو المشهور من مذهب

اصحاب الطلسمات فجعل ابرهيم هذا القول منه ابتداء كلامه لينظر
فيما عساهم يوردونه من شبهة حتى يبطله عليهم قال صاحب الكشاف
لم ينو للعاكفين مفعول بل اجراه مجرى ما لا يتعدى كقولك فاعلين
العكوف لها او واقفون لها فان قيل لم يقل عليها عاكفون كقوله
يعكفون على اصنام لهم قلنا لو قصد التعدية لعداه بصلته التي
هي على اما قوله تعالى وجدنا اباءنا لها عابدين فاعلم ان القوم
لم يذكروا في الجواب الا طريقة التقليد الذي يوجب مزيد الانكار
عليهم لانهم اذا كانوا على خطاء من امرهم لما يعصمهم من هذه
الخطاء ان اباهم ايضا سلكوا هذا الطريق واعلم ان عادة الكفار
في اكثر الامر التعويل على طريقة التقليد نظيره قوله تعالى واذا قيل
لهم تعالوا الى ما انزل الله والى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه
اباءنا الاية وقال في سورة يوسف وكاين من اية في السموات
والارض يمرون عليها وهم عنها معرضون وما يؤمن اكثرهم بالله الاية
وقال في لقمن واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله الى قوله والى الله عاقبة
الامور وقال في الزخرف بل قالوا انا وجدنا اباءنا على امة الى قوله
عاقبة المكذبين وقال في ص اجعل الالهة الها واحدا الى قوله ان
هذا الا اختلاق وقال ان كاد ليضلنا عن الهتنا لولا ان صبرنا عليها
واعلم ان الشعير يوكل ويذم فلا ترى في الدنيا انسانا الا وهو
يذم التقليد ثم اذا فتشت عن احواله تراه غرقا في التقليد من قرنه
الى قدمه والخروج عن طريقة التقليد والتعويل على الدليل نعمة
عظيمة من الله تعالى يخص بها من يشاء من عباده فلنبحث عن الاسباب

الموجبة لتسليط التقليد على اكثر الخلق فنقول ههنا وجوه الاول
يروى عن الخليل بن احمد البصري انه قال الناس على اربعة اقسام
رجل يدري ويدري انه يدري فذلك عالم فاتبعوه ورجل يدري
ولا يدري انه يدري فذلك نايم فاستيقظوه ورجل لا يدري
ويدري انه لا يدري فذلك مسترشد فارشدوه ورجل لا يدري
ولا يدري انه لا يدري فذلك شيطان فاجتنبوه وقال بعضهم الرجل
اذا سئل فقال لا ادري فذلك في المدح اعظم من قوله ادري
فاعترض بعضهم عليه فقال انما يعظم منصب الرجل بادري لا بلا
ادري فقال المجيب نعم لكن قوله لا ادري من ثم يدري لانه يدري انه
لا يدري الوجه الثاني لا ينبغي ان تنام عن المسايل الاصولية والدلايل
العقلية وذلك لان هذه العلوم والمباحث نتايج العقل فمن كرهها
فقد كره العقل ومن كره العقل فلينظر الى المجنون فانه انما قيد بالسلاسل
لانه طرحه العقل وهو في الحقيقة فيه معذور فمن رضي بالتقليد
وطرح العقل بالاختيار اولى ان يقيد بالسلاسل كما قال تعالى في
سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه الوجه الثالث آدم
عليه السلام كان في الجنة فترك النظر في مسئلة واحدة من مسايل
الفروع اخرج عن الجنة فمن ترك النظر في مسئلة واحدة من مسايل
الاصول كيف يدخل الجنة الوجه الرابع ان الرسالة اقل مرتبة من
الربوبية ثم ان الرسول عليه السلام لما لقى الصديق وقال انا رسول الله
اليك فقال الصديق ما الحجة قال ذلك السر الذي ذكرته مع اهلك
في بيتك قال سر لم يطلع عليه احد الا الله فلولا ان الله اخبرك لما عرفته

اشهد ان لا اله الا الله وان محمدا رسول الله فاذا كانت الرسالة
دون الالهية ثم انها لا يثبت بالتقليد من لسان اعدل الخلق فكيف
يحصل معرفة الربوبية من لسان الآباء والاسلاف بل ها هنا دقيقة
فاقول اقوى من كل ذلك فاقول هو انه تعالى قال لموسى انني انا الله
فقال هذه الدعوى فاين الدليل فجعل الله دليله عليه ان جعله
بحيث يسمع ذلك الكلام بجميع اعضائه حتى يدخله فحينئذ علم المقصود
فلما لم يكف كلام الحق سبحانه في معرفة الحق فكيف يكفي كلام الخلق في
معرفة الحق الوجه الخامس انصف من نفسك فان الله تعالى لا يطلب منك
الا الانصاف قال الاصوليون رجل اعتقد ان الله منزه عن الجسمية
والمكان تقليدا وبقي على ذلك تسعين سنة فهو من اهل النار ولو انه
حين قرب اجله فقال الهي بحث عن ذلك التقليد والآن لا اعلم انك
على العرش ام لا واجوز كلا الامرين واشرع في النظر والتفكر حتى اعرف
الحق ثم انه لم يجد مهلة النظر حتى مات في تلك الساعة قالوا انه من اهل
الجنة فعند اعتقاده الجازم بالتقليد هو كان من اهل النار وان كان
ذلك الاعتقاد حقا وعند التردد كان من اهل الجنة وما ذاك الا انه
انصف حتى اعترف بالتجويز الوجه السادس روي ان عليا رضي الله عنه
رجع عن بعض الغزوات فكانت حصته من الغنيمة ما ملأ بر ذيله فاتاه
سائل فجعل يختار اخف الطوارح فعلم ان ذلك من وسوسة ابليس
فاخذ الكل ودفعه الى السائل اذ هو اكبر من الجهاد الذي رجع عنه ودخل
على النبي عليه السلام مستبشرا فقال عليه السلام ما فعلت فقال
رجعت عن الجهاد وقص عليه القصة فقال ظننت ابرات صاحب شبهة

عن

عن شبهته والنكتة ان هذا يدل على انه من تعلم وعلم ثم اشتغل بالتعليم
كان هذا خيرا ممن صار غنيا واعطى وبذل المال حتى اغنى لان فائدة
اعطاء المال في الدنيا وفائدة اعطاء العلم في الآخرة ابد الاباد
ودهر الداهرين الوجه السابع واحد اراد خدمة ملك فقال الملك
اذهب فتعلم حتى يصلح لخدمتي فلما شرع في التعلم وذاق لذة العلم
بعث الملك اليه وقال امسك عن التعلم فقد صرت اهلا لخدمتي
فقال كنت اهلا لخدمتك حين لم ترني اهلا لخدمتك فحين رأيتني
اهلا لخدمتك رأيت نفسي اهلا لخدمة الله وذلك لاني كنت اظن
ان الباب بابك لجهلي فلما تعلمت علمت ان الباب باب الرب واعلم ان
القوم لما قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين اجاب ابرهيم عليه السلام
فقال لقد كنتم انتم وآباؤكم في ضلال مبين يعني ان الباطل لا يصير
حقا بكثرة المتمسكين به فعند ذلك استبعدوا منه هذا الكلام
لشدة الفهم بذلك التقليد فقالوا اجئتنا بالحق ام انت من
اللاعبين واعلم ان القوم لما اوهموا انه انما يقول ذلك على سبيل
المزاح اظهر ابرهيم في ذلك الوقت ما يعلمون به انه مجد في اظهار
ما قاله وذلك بالقول اولا ثم بالفعل ثانيا اما الطريقة القولية
فهي قوله تعالى قال بل ربكم رب السموات والارض الذي فطرهن
وانا على ذلكم من الشاهدين اما وجه دلالة السموات والارض
على اثبات الصانع القديم الحكيم فقد تقدم شرحه والمعنى ان
الخالق الذي خلق السموات والارض لمنافع العباد هو الذي يحسن ان
يعبد لان من يقدر على ذلك فهو الذي يرجى نفعه ويخاف ضرره

ورجع حاصل هذه الطريقة الى الطريقين المتقدمتين احديهما
كون السموات والارض مخلوقة محدثة كما قال لا احب الافلين
والثاني قبح عبادة الاصنام كما قال لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر
ولا يغني عنك شيئا فهذه الطريقة مشتملة على ذينك الطريقين قال
صاحب الكشاف الضمير في فطرهن للسموات والارض والتماثيل اما
قوله وانا على ذلكم من الشاهدين ففيه وجهان الاول انه المبالغة
في التاكيد والتحقيق كقول الرجل اذا بالغ في مدح انسان او ذمه
اشهد انه كريم او لئيم والثاني اني قادر على اثبات ما ادعيته بالحجة
واني لست مثلكم في ادعاء ما لا اقدر على اثباته بالحجة وذلكم انكم
ما زدتم على اثبات مذهبكم الا على قولكم انا وجدنا اباءنا على امة
وانا وجدنا اباءنا لها عابدين واما الطريقة الفعلية فهي قوله
وتالله لاكيدن اصنامكم بعد ان تولوا مدبرين واعلم ان القوم
لغاية حماقتهم لما ينتفعوا بالدلايل القولية عدل ابرهيم الى الفعل
وفي كيفية القصة وجهان الاول قال السدي كانوا اذا رجعوا
من عيدهم دخلوا على الاصنام فسجدوا لها ثم عادوا الى منازلهم
فلما كان هذا الوقت قالوا لابرهيم لو خرجت معنا فخرج معهم فلما
كان ببعض الطريق القى نفسه وقال اني سقيم اشتكي رجلي فلما مضوا
وبقي الضعفاء من الناس نادى وقال تالله لاكيدن اصنامكم واحتج
هذا القايل بقوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابرهيم والثاني
قال الكلبي كان ابرهيم عليه السلام من اهل بيت ينظرون في النجوم
وكانوا اذا خرجوا الى عيدهم لم يتركوا الا مريضا فلما هم ابرهيم

بالذي

بالذي هم به من كسر الاصنام نظر قبل يوم العيد الى السماء وقال لاصحابه
اراني اشتكي غدا فذلك قوله فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم
واصبح من الغد معصوبا راسه فخرج القوم لعيدهم ولم يتخلف احد
غيره فقال تالله لاكيدن اصنامكم فسمعه رجل منهم هذا القول
فحفظه عليه ثم ان ذلك الرجل اخبر عنه وانتشر ذلك الخبر في جماعة
فذلك قوله تعالى قالوا سمعنا فتى يذكرهم واعلم ان كلا الوجهين ممكن
وتمام القصة ان ابرهيم لما دخل بيت الاصنام وهو بيت فيه سبعون
صنما مصطفة وصنم عظيم مستقبل الباب وكان من ذهب وفي
عينيه جوهرتان تضيئان بالليل فكسر الكل بفاس في يده حتى لم
يبق الا الكبير ثم علق الفاس في عنقه اما قوله فجعلهم جذاذا
الا كبيرا فاعلم ان الجذ هو القطع وفيه سؤالان الاول لم قال فجعلهم
وهذا الجمع لا يليق الا بالعقلاء الجواب من حيث اعتقدوا فيها انها
كالناس وفي انها معظمة ومتقرب اليها ولعله كان فيهم من يزعم انها
تضر وتنفع السؤال الثاني ما معنى قوله الا كبيرا لهم قلنا يحتمل الكبير
في الخلقة والتعظم وفي الامرين جميعا واما قوله لعلهم اليه يرجعون
فيحتمل رجوعهم الى ابرهيم ويحتمل رجوعهم الى الكبير اما الاول
فتقريره من وجهين الاول ان يكون لعلهم يرجعون الى الدين الحق
والاقرار بالتوحيد ويعدلون عن الباطل وعبادة الاوثان والثاني
انه غلب في ظنه انهم لا يرجعون الا اليه لما ظهر فيهم انه هو الذي
يكيد دينهم وليسب الهتهم اما الثاني وهو ان الضمير يرجع الى الكبير
ففيه وجهان الاول لعلهم يرجعون اليه كما يرجع الى العالم الكبير

فى حل المشكلات فيقولون لذلك الكبير كيف كسر هؤلاء وبقيت انت
صحيحًا وكيف علق الفاس فى رقبتك وهذا قول الكلبى وهو بناء على
شدة حماقة القوم فلعلهم كانوا يعتقدون فيها انها بحيب والثانى
انه عليه السلام انما قال ذلك مع علمه انهم لا يرجعون اليه فى
حل المشكلات اما قوله تعالى من فعل هذا بالهتنا اى من فعل الكسر
والحطم الشديد فانه معدود فى الظلم اما لجراته على الالهة الحقيقة
بالتوقير والاعظام واما لانهم راوا فواطا فى كسرها وتماديا فى
الاستهانة بها اما قوله قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابرهيم
والمعنى انهم كانوا من قبل قد عرفوا منه وسمعوا ما يقوله فى الاصنام
فغلب على ظنهم انه الفاعل ولو لم يكن الا قوله ما هذه التماثيل لكفى
واعلم انه لا بد ههنا من الكلام فى الفتوة يقال ان ابرهيم عليه السلام
وصف بالفتوة لانه استعمل الفتوة فى كل الاشياء اعطى البدن للنيران
والقلب للرحمن والمال للضيفان والولد للقربان ويحكى ان جبرئيل
عليه السلام جاء فوقف فى وسط غنمه وكان له غنم كثير حتى قيل
انه كان عدد كلابه اثنى عشر الف كلب كل كلب مطوق بطوق وقلادة
من ذهب فقال جبرئيل عليه السلام سبوح قدوس رب الملائكة
والروح فنظر ابرهيم يمنة ويسرة فلم ير احدا فقال يا ايها العبد
الذى ذكر الله لك ثلث غنمى فاذكره ثانيا فقال مرة اخرى فاعطاه
الثلث الثالث فذكر رابعا فوهب منه الكلاب باطواقها فذكر خامسا
فوهب منه العبد الذين كانوا يحفظون الاغنام فذكر سادسا
فقال لما بقى لى ملك فاستعبدنى فاوحى الله تعالى الى جبرئيل كم تعد

خليلى فاظهر عند ذلك جبرئيل نفسه وقال حقا ان يكون لله خليلا
وهذه الاغنام والعبيد كلها مردودة عليك انا جبرئيل لا احتاج
الى شئ منها فقال يا جبرئيل هذا شئ اخرجته عن ملكى فلا اعيده
الى ملكى وقد وقفته على فقراء المسلمين ياكل كل من مر عليه وقال
بعض الحكماء راس الفتوة قوله لا اله الا الله الا ترى الى قصة اصحاب
الكهف قال انهم فتية امنوا بربهم فلما كان ابرهيم دعا العالمين
الى الله كان باسم الفتوة اولى قيل انه اجتمع ابو حفص الحداد مع
الجنيد فى بغداد فساله عن الفتوة فقال ابو حفص اذكروا
انتم فانكم اصحاب اللسان والعبارات فقال الجنيد الفتوة
اسقاط الروية وترك التشبيه بالفتيان فقال ابو حفص ما احسن
ما قلت لكن الفتوة عندى اداء الانصاف وترك المطالبة بالانصاف
فقال الجنيد قوموا يا اصحابنا فقد زاد ابو حفص على آدم و
ذريته وسال ابو حفص واحدا من العيارين نيسابور عن الفتوة
فقال يا ابا حفص تسال عن فتوتنا ام عن فتوتكم فقال ابو حفص
اجب عن الفعلين فقال اما فتوتنا معشر الشطار فكل ما نقول
باللسان وفينا به واما فتوتكم معشر العارفين فما يقولونه
بالسر مع الله تمونه فقال ابو حفص لو سالت عنه لما كنت اهتدى
اليه وقال الفضيل بن عياض سيد الفتيان يوسف الصديق
وذلك لانه تحمل المحن العظيم من اخوته ثم لما قدر عليهم ما قابلهم
البته بل قال لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وقيل الفتوة ان لا
تؤخر ولا تدخر ولا تعتذر وقيل ان لا تخاصم فى الآخرة احدا ولا

يخاصمك احد وقيل بذل المجهود والرضا بالموجود وترك طلب
المفقود وحفظ الحدود والسكون الى الموعود والقيام بخدمة
المعبود واعلم انه تعالى سمى في القران بالفتى خمسة اشخاص سمى
ابرهيم عليه السلام بالفتى في هذه الآية وسمى يوسف بر في قوله
تراود فتاها وخزنة يوسف وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم ويوشع
واذ قال موسى لفتاه واصحاب الكهف اذ اوى الفتية الى الكهف وانما
سمى يوسف بالفتى لانه كان حافظ عهد عزيز مصر وهو قوله تعالى
قال معاذ الله انه ربى احسن مثواى وسمى خزنة يوسف فتيانا لان
الخازن يكون امينا حافظ للمال وسمى يوشع فتى لانه كان حافظا
لاسرار موسى قال ارايت اذ اوينا الى الصخرة وسمى اصحاب الكهف
فتيانا لانهم كانوا يبغضون اعداء الله هؤلاء قومنا اتخذوا
من دونه الهة ويحبون الله فقالوا لن ندعوا من دونه الها وقالوا
ربنا رب السموات والارض وروى في الاخبار ان واحدا جاء
الى النبي صلى الله عليه وسلم وساله حاجته فقال عليه السلام
لعلى بن ابى طالب رضى الله عنه احسن اليه فذهب على رضى الله عنه
وجاء السايل ومعه خمسة دراهم ودينار ورغيف تام ونصف
رغيف فساله الرسول عليه السلام عن كيفية الواقعة فقال ان
هذا السايل لما سال وقع في قلبى ان اعطيت دينارا ثم قلت كيفية
نصف رغيف ثم طردت الوسوسة عن قلبى وجيت بكل هذه الاشياء
فقال النبي عليه السلام لا فتى الا على ولا سيف الا ذو الفقار واعلم
انه قيل الفتوة على اقسام احدها الفتوة باليد يروى ان عليا رض

حارب كافرا فقال الكافر اعطني سيفك فدفع على سيفه اليه
فقال له ذلك الكافر مجنون انت لم دفعت الى سلاحك وانا خصمك
واطلب قتلك فقال رضى الله عنه سالت ويقبح بالفتى ان يرد السوال
فان استعملت الفتوة معك فان انت قتلتنى كان ترك الفتوة منك
وثانيها الفتوة بالعين وكماله لمحمد عليه السلام كما قال ما زاغ البصر
وما طغى ويروى ان رجلا من الفقراء تزوج بامرأة فظهر بالمرأة
قبل الدخول بها الجدرى فقال الرجل ظهر في عينى نوع ضعف وظلمة
ثم قال عميت فزفت اليه المراة ثم ماتت بعد عشرين سنة ففتح
الرجل عينيه وقيل له في ذلك فقال ما عميت ولكن تعاميت
حذرا ان تحزن المراة فقيل له سبقت الفتيان وثالثها الفتوة بالمال
يحكى ان واحدا من الحاج نام في مسجد المدينة فتوهم ان هميانه
سرق فخرج فراى جعفر الصادق عليه السلام فتعلق به وقال
اخذت هميانى فقال كم كان فقال الف دينار فادخله داره واعطاه
الف دينار فرجع الرجل الى داره فراى هميانه في بيته فاستحيى
فخرج الى الصادق معتذرا ورد عليه الدنانير فابى ان يقبلها
وقال شىء اخرجته من يدى لا استرده فقال الرجل من هذا فقالوا
جعفر الصادق ويحكى عن الشبلى انه قال خطر ببالى انى بخيل ثم
فقلت اجرب نفسى فنويت ان كل ما آخذ في اليوم اهبه لاى شخص
اراه اولا ثم جاء في الحال خادم من دار الخليفة ووضع عندى صرة
فيها خمسون دينارا فاخذتها وخرجت من الدار فرايت حجاما
يحلق راس اعمى فدفعت الصرة الى الاعمى فقال الاعمى ادفعها

الى الحجام فقلت انها ذهب فقال الحجام احلق راس هذا الاعمى
الفقير لله تعالى ولا اخذ الذهب والحاصل ان ذلك الذهب
ما قبله الاعمى ولا الحجام ورابعها الفتوة بالنفس كما يقال ان واحدا
من الشطار ذهب اليه واحد من غلمان الملك مختفيا وطلبه السلطان منه
فانكره فضربه الف سوط وما سلمه فاتفق انه احتلم تلك الليلة
وكان البرد شديدا فلما اصبح اغتسل بالماء البارد فقيل له خاطرت
بروحك فقال استحييت من الله انا اصبر على ضرب الف سوط لاجل
مخلوق ولا اصبر على مقاساة الماء البارد لاجل امر الله وخامسها
الفتوة بالهمة كما قيل لبعض الزهاد لو ان الله اعطاك الدنيا بكليتها
ما ذا تفعل بها قال اجعلها كلها لقمة واضعها فى فم مجوسى حتى يصل
العدو الى العدو ويبقى الحبيب للحبيب وقال بعضهم انه تعالى سمى ثلث
فرق رجالا احدها الذين لا يمنعهم الدنيا عن خدمة المولى رجال
لا يلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله والثانى رجال يتطهرون عن
النجاسات رجال يحبون ان يتطهروا والثالث رجال يحبون ان يصدقوا
فى مقام العبودية رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ثم يقول بالفارسية
جوانمردان بود كه اين سه خصلت را عادت شود دارا از مشغول
بودن بغير خدا دور دارد جامهٔ دل را از لوث دنيا دور دارد
سر خود را بزينت بندگى آراسته دارد قيل سال شقيق البلخى
جعفر بن محمد الصادق ع م عن الفتوة فقال اما تقول انت فقال
شقيق ان اعطينا شكرنا وان منعنا صبرنا فقال جعفر عليه السلام
الكلاب عندنا بالمدينة كذلك تفعل فقال شقيق يا ابن رسول الله

ما الفتوة فقال ان اعطينا اثرنا وان منعنا شكرنا قوله تعالى قالوا
فاتوا به على اعين الناس لعلهم يشهدون فيه وجهان احدهما
انهم كرهوا ان ياخذوه بغير بينة فارادوا ان يجيئوا به على اعين
الناس لعلهم يشهدون عليه بما قاله فيكون ذلك حجة عليه
والثانى لعلهم يشهدون فيبصرون ما يصنع به فيكون ذلك
زاجرا لهم عن الاقدام على مثل فعله قوله تعالى قالوا انت فعلت
هذا واعلم ان فى الكلام حذفا وهو فاتوا به فقالوا له انت فعلت
طلبوا منه الاعتراف بذلك ليقدموا على ايذايه فظهر منه ما انقلب
الامر عليهم حتى تمنوا الخلاص منه قال بل فعله كبيرهم وغرضه منه
اظهار جهلهم فى عبادة الاوثان فان قيل قوله تعالى بل فعله كبيرهم
كذب الجواب للناس فيه قولان الاول انه ليس بكذب وهو قول جمهور
المحققين ووكدوا فى الاعتذار عنه وجوها الاول ان قصد ابرهيم
عليه السلام ما كان ان ينسب الفعل الى الصنم وانما قصد تقريره
لنفيه واثباته لها على اسلوب تعريض وهذا كما لو قال لك صاحبك
وقد كتبت كتابا بخط رشيق وانت مشهور بحسن الخط انت كتبت
هذا وصاحبك امى لا يحسن الخط ولا يقدر الا على خرمشه فاسد
فقلت بل كتبته انت كان قصدك بهذا الجواب تقريرك له الاستهزاء
لا نفيه عنك ولا اثباته للامى والمخرمش لان اثباتك له والامر
داير بينكما للعاجز منكما استهزاء به واثبات للقادر والثانى ان
ابرهيم عليه السلام غاظته تلك الاصنام حين ابصرها مصطفة
مرتبة وكان غيظه من كبيرها اشد لان التعظيم له كان اكثر فاسند

الفعل اليه لانه هو السبب في اقدامه على كسرها والفعل كما يسند
الى مباشرها فقد يسند ايضا الى الحاصل والثالث ان يكون ذلك
حكاية لما لم يلزم على مذهبهم كانه قال لهم ما تنكرون ان يفعل
كبيرهم فان من حق ان يعبد ويدعى الها يقدر على هذا وعلى اشد منه
والرابع انه كناية من غير مذكور اي فعله من فعله وكبيرهم ابتدا الكلام
الخامس عن الكسائي انه كان يقف عند قوله فعله ثم يبتدي فيقول
كبيرهم فسالوهم والمعنى بل فعله كبيرهم وعلى نفسه لان الانسان
اكبر من كل صنم والسادس ان يكون في الكلام تقديم وتاخير كانه
قال بل فعله كبيرهم هذا ان كانوا ينطقون فيكون اضافة الفعل
الى كبيرهم مشروطا بكونهم ناطقين فلما لم يكونوا ناطقين امتنع
كونهم فاعلين السابع قرا محمد بن السميدع فعله كبيرهم يعني
فلعله اي فلعل الفاعل كبيرهم والقول الثاني وهو قول طائفة
من اهل الحكايات ان ذلك كذب واحتجوا بوجوه بما روي عن النبي
عليه السلام انه قال لم يكذب ابرهيم الا ثلث كذبات كلها في ذات الله
قوله اني سقيم وقوله بل فعله كبيرهم وقوله اسارة هي اختي وفي
الخبر ان اهل الموقف سالوا ابرهيم الشفاعة فقال اني كذبت ثلث
كذبات وهذا القول باطل اما الخبر الذي رووه فلان يضاف الكذب
الى رواته اولى من ان يضاف الى الانبياء والدليل القاطع عليه
انه لو جاز الكذب على الانبياء لمصلحة وباذن الله تعالى فليجز
هذا الاحتمال في كل ما اخبروا به وعنه وذلك يبطل الوثوق بالشرايع
ثم ان ذلك الخبر لو صح فهو محمول على المعاريض على ما قال عليه السلام

ان في المعاريض لمندوحة عن الكذب واما قوله اني سقيم
فلعله كان به سقم او يكون ذلك محمولا على انه سيصير كذلك كقوله
تعالى انك ميت وانهم ميتون اما قوله فرجعوا الى انفسهم فقالوا
انكم انتم الظالمون ففيه وجوه الاول ان ابرهيم لما نبههم على
طريقتهم تنبهوا فعلموا ان عبادة الاصنام باطلة وانهم على
جهل وغرور الثاني قال مقاتل فرجعوا الى انفسهم فلاموها وقالوا
انتم الظالمون حيث تزعمون ان ابرهيم كسرها مع ان الفاس في رقبة
الصنم الكبير والثالث انتم الظالمون لانفسكم حيث سالتموه عن هذا
السؤال حتى انه اخذ يستهزء في الجواب اما قوله تعالى ثم نكسوا على
رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون قال صاحب الكشاف نكسته
قلبته فجعلت اسفله اعلاه وفي المعنى وجوه الاول انهم لما تفكروا
علموا انهم هم الجاهلون والظالمون ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك
الحجة فاخذوا في المجادلة بالباطل وتقديره ان هذه الاصنام
مع انها غير ناطقة فهي آلهة معبودة الثاني نقلبوا على رؤسهم
حقيقة لفرط اقدامهم على الجهالة والانكسار من كلام ابرهيم عليه
والثالث قال ابن جرير ثم نكسوا على رؤسهم معناه انهم احتجوا
على ابرهيم بما كان في الحقيقه حجة عليهم فقالوا لقد علمت ما
هؤلاء ينطقون فاقروا بهذا الكلام للحيرة التي دخلتهم والحقتهم
والمعنى نكست حجتهم واقيم الخبر عنهم مقام الخبر عن حجتهم اما قوله
افتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم اف لكم ولما
تعبدون من دون الله فالمعنى ظاهر وهو الكلام الذي ذكره ابرهيم

وقد سبق شرحه ثم يحتمل انه قال لهم وقد عرفوا صحة قوله ويحتمل
انه قال لهم ذلك وقد ظهرت الحجة وان لم يعقلوا وهذا هو الاقوى
لقوله افتعبدون من دون الله ولقوله افلا تعقلون قوله تعالى
قالوا حرقوه وانصروا الهتكم واعلم انه ليس في القران من قايل هذا
القول والمشهور انه نمرود بن كنعان بن سنحار بن نمرود بن لوش
بن حام بن نوح وقيل الذي قال حرقوه رجل اسمه هبرين فخسف
الله به الارض ثم يتجلجل فيها الى يوم القيامة واما كيفية القصة
فقال مقاتل لما جزموا القول باحراقه حبسوه في بيت وبنوا له بنيانا
وذلك قوله ابنوا له بنيانا فالقوه في الجحيم ثم جمعوا له الحطب
الكثير حتى لو ان امرأة مرضت قالت ان عافاني الله لاجمعن حطبا
لابرهيم ثم نقلوا له الحطب على الدواب اربعين يوما فلما اشتعلت
النار اشتدت وصارت بحيث لو مر الطير في الهواء في قصاه
لاحترق ثم اخذوا ابرهيم ورفعوه على راس البنيان وقيدوه
واتخذوا منجنيقا ووضعوه فيه مقيدا مغلولا فصاحت السماء
والارض ومن فيها من الملايكة الى الثقلين صيحة واحدة يا ربنا
ليس في ارضك احد يعبدك غير ابرهيم وانه يحرق فيك فاذن لنا
في نصرته فقال سبحانه ان استغاث بكم فاعينوه وان لم يستغث
الا بي فانا وليه فلما ارادوا القاءه في النار اتاه خازن الرياح فقال
ان شئت طيرت بالنار في الهواء وجاء ملك السحاب فقال
لا حاجة لي اليكم فلما وضع في المنجنيق ورمي به قال لا اله الا انت
سبحانك رب العالمين لك الملك ولك الحمد لا شريك لك فجاء جبرئيل عليه

وقال يا ابرهيم هل من حاجة قال اما اليك فلا قال فسل ربك قال
حسبي من سؤالي علمه بحالي فقال يا نار كوني بردا وسلاما على ابرهيم
قال ابن عباس لو لم يتبع بردها بسلام لمات ابرهيم من بردها ولم
يبق يومئذ نار في الدنيا الا طفئت واخذت الملايكة بعضد
ابرهيم واقعدوه في الارض فاذا عين ماء عذب وورد احمر ولم تحرق
النار منه الا وثاقه وبعث الله ملك الظل اليه فقعد الى جنبه
يونسه واتاه جبرئيل عليه السلام بقميص من حرير الجنة وقال يا ابرهيم
ان ربك يقول اما علمت ان النار لا تضر احبابي ويقال انه عليه السلام
بقي في تلك النار اربعين يوما واكثر ثم ان نمرود نظر من صرح له
واشرف على ابرهيم فراه جالسا في روضه وراى الملك قاعدا
الى جنبه فنادى نمرود وقال يا ابرهيم هل تستطيع ان تخرج منها
قال نعم قال فاخرج فقام يمشي حتى خرج منها فلما خرج منها قال له
نمرود من الرجل الذي كان معك قال ذلك ملك الظل ارسله ربي
ليونسني منها فقال اني متقرب الى ربك بالقرابين لما رايت من قدرته
فيما صنع بك واني اذبح له اربعة الاف غنم وبقرة فقال ابرهيم
لا يقبل الله منك ذلك ما دمت على دينك فقال يا ابرهيم لا استطيع
ترك ملكي ولكني اذبحها ثم ذبحها له ثم كف عن ابرهيم ثم ههنا
لطايف اللطيفة الاولى حصل هنالك ناران نار الدنيا ونار حب
المولى فظنوا ان نار الدنيا تحرقه لكن نار محبة المولى قوي فهذه
النار ابطلت نار نمرود هكذا تكون يوم القيامة فان جميع الخلق
يدخلون جهنم كما قال وان منكم الا واردها فتجتمع هنالك نار جهنم

ونار حب المولى ثم ان نار المحبة سبطل نار جهنم وتدفعها كما قال
تعالى ثم ننجي الذين اتقوا الاية الثانية ان ابرهيم عليه السلام
قال في الظاهر للشمس والقمر هذا ربي فالقاه تعالى في النار ثم
لما كان ذلك القول صورة بلا معنى لاجرم صير الله تعالى هذه النار
صورة بلا معنى وذلك تنبيه على ان كل من قال هذا القول فانه
لا يتخلص عن النار الثالثة الملائكة قالت ونحن نسبح بحمدك
ونقدس لك فصاروا معجبين بتسبيحهم فالقى الله تعالى خليله
في النار حتى يسبح الخليل من وسط النار ويقول حسبي الله ونعم الوكيل
فقال الحق سبحانه انتم تسبحون في وسط الرحمة والراحة وهو يسبح
في وسط النار ليظهر حكمة قوله اني اعلم ما لا تعلمون والرابعة
ان ابرهيم عليه السلام ابدا كان يخاف النار ويقول ابدا اوه من النار
ولهذا قال تعالى ان ابرهيم لأواه فقيض الله تعالى نمرود واوقد
نارا عظيمة والقى ابرهيم فيها حتى اجعل النار بردا وسلاما على ابرهيم
لكي يعلم ابرهيم ان الخوف ليس من النار بل من خالق النار الخامسة
من كنت معه برحمتي جعلت النار له ماء كما في حق ابرهيم ومن كنت حربا
عليه جعلت الماء له نارا كقوم فرعون اغرقوا فادخلوا نارا السادسة
ابرهيم عليه السلام لما ناظر في الملكوت قال لا احب الافلين ثم ناظر
مع الملك فقال فان الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب
ثم ناظر مع ابيه فقال لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر الاية ثم ناظر مع القوم
فقال رب السموات ثم ناظر معهم بالمعاملة فكسر الاصنام وجعلها
جذاذا ثم لما القي في النار قال حسبي الله فلما قال له جبرئيل هل لك

من حاجة قال اما اليك فلا فلما قال سل ربك قال حسبي من سؤالي
علمه بحالي فلما انتهى الى هذا الحد كانه خرج من طبع البشر بالكلية وصار
ملكا مقربا فلما جرم قال الله تعالى ان ابرهيم انسلخ من طبيعته
فيا نار وانت ايضا انسلخي من طبيعتك كوني بردا وسلاما على ابرهيم
واحدا بواحد السابعة لما القي ابرهيم في النار ظن الخلايق كلهم
ان النار تحرقه وظن ملك المطر والسحاب والرياح ذلك فعرضوا
انفسهم عليه فلم يلتفت ابرهيم اليه وكان قلبه مشغولا برحمة ربه
فقال الله تعالى علمي في الاشياء غير علمكم وانتم تنظرون الى ظاهر النار
فترون منها الاحراق والايقاد وانا اعلم ظاهرها وباطنها والان
قد انكشف لكم انكم لا تعلمون باطن ابرهيم لانه لا يلتفت الى احد
منكم وقت الحاجة وساكشف لكم انكم لا تعرفون باطن النار يا نار كوني
بردا وسلاما على ابرهيم حتى تعلموا يا ايها الملائكة انه لا عبرة بظاهر
الاشياء وان حقايقها لا يعرفها احد غيري فحينئذ يظهر لكم صدق
قولي اني اعلم ما لا تعلمون فكذلك كنتم رايتم من ظواهر بني آدم الشهوة
والفساد والقتل وكنت ارى من بواطنهم العلم والحكمة والعبودية
الثامنة كان الحق سبحانه قادرا على ان يمنع نمرود من ذلك العمل
من اول الامر لكنه تعالى اراد ان يظهر للملائكة انقطاع ابرهيم
الى الله واعراضه عن كل الوسايط والاسباب وذلك لان ابرهيم
عليه السلام ادعى هذه البراة بقوله فانهم عدو لي الا رب العالمين
وفي قوله لا احب الافلين وفي قوله وجهت وجهي للذي فطر
السموات والارض وفي قوله وما انا من المشركين وفي قوله محياي

ومما نى لله رب العالمين وفي قوله اسلمت لرب العالمين وكل
هذه الاحوال تدل على انه بلغ في مقام الرضا بقضاء الله الى الغاية
القصوى وكان الحق عالما بصدقه في هذه الدعاوى فلم يمنع نمرود
عن عمله ليظهر للملائكة صدق ابرهيم في هذه الدعاوي وتبين للخلق
انه غني عما سوى الله ولم يبق له حول ولا قوة الا بالله والتوجه
الى حضرته التاسعة قال بعضهم نار الدنيا احقر من ان تخاطبه
الله ولكنه خطاب مع نار المحبة ونار المعرفة فقال كوني بردا
وسلاما على ابرهيم والغرض ان لا يفنى ابرهيم بالكلية في باب
المعرفة والمحبة العاشرة بقي ها هنا سؤالات الاول ان ابرهيم
عليه السلام لم يخف من النار وموسى خاف من العصى حين صارت
حية قال الله تعالى فاوجس في نفسه خيفة موسى والجواب
ان انقلاب العصى حية بفعل الخالق ونار نمرود بفعل المخلوق والرسول
المعصوم يخاف الله ولا يخاف غير الله والسؤال الثاني لم لم يحصل
لمحمد عليه السلام مثل هذه الواقعة الجواب بل وقعت قال تعالى
الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم
ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله و
فضل كما انقلب الخليل بنعمة من الله واعلم ان هذه الكلمة اعني
حسبنا الله ونعم الوكيل تفيد النجاة من الهموم والغموم عن عبد الله
بن طلحة الخزاعي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم من قال
عند هم او غم عشر مرات حسبي الله لا اله الا هو عليه توكلت
وهو رب العرش العظيم اذهب الله همه ومن سلم عشرا فكانما

اعتق رقبة وكان لفتح الموصلي اربعماية درهم عند صديق يتجر فيه فارسل
الى الصديق ان احمل الي المال فقال وهل ظهرت مني خيانة قال لا
ولكن احملها الي فحملها اليه فتصدق بها على المساكين ثم جلس فريدا
وحيدا فقال لا احب ان يكون اعتمادي على شيء غير الله حسبي الله ونعم
الوكيل ولما قرب وفات ابي يزيد قال لاصحابه اتى علي ثمانون سنة اشتهي
ان اقول مرة حسبي الله ولم اقدر عليه فقالوا لو كنا نظن انه لا تمر
ساعة الا ولسانك رطب من ذكر الله فقال لم اقل ذلك لاني لو قلت
حسبي الله ثم ملت الى الدنيا والاخرة يقول الله تعالى كذبت يا ابا يزيد
لو كنت انا حسبك لما اشتغلت بغيري قوله تعالى قلنا يا نار كوني بردا
وسلاما على ابرهيم وفيه مسائل المسئلة الاولى قال ابو مسلم الاصفهاني
في تفسير هذه الاية المراد انه سبحانه جعل النار بردا وسلاما لان خطاب
الجماد لا يجوز لا ان هناك كلام كقوله كن فيكون اي يكونه لا ان هناك
امرا وكلام والاكثرون على انه حصل هذا القول ثم هؤلاء لهم قولان
احدهما وهو قول السدي ان القائل هو جبرئيل والثاني وهو قول
الاكثرين ان القائل هو الله وهو اللايق بالظاهر المسئلة الثانية
ذكروا في كيفية تلك النار وجوها الاول انه تعالى ازال عنها ما كان
فيها من الحر والاحراق ولا بقي فيها من الاضاءة والاشراق والله على كل
شيء قدير والثاني انه سبحانه خلق في جسم ابرهيم كيفية مانعة
من وصول اذى النار اليه كما يفعل بخزنة النار في جهنم يوم القيامة
والثالث انه سبحانه خلق بينه وبين النار حائلا يمنع من وصول اذى النار
اليه قال المحققون الاول اولى لان ظاهر قوله يا نار كوني بردا وسلاما

ان نفس النار صارت باردة حتى سلم ابرهيم من تاثيرها الا ان
النار بقيت كما كانت واعلم ان كثيرًا من جهال الاطباء والطبعيين
ينكرون هذه الحالة ويقولون من المستحيل زوال صفة الاحراق
عن جرم النار وهذا قول باطل ويدل عليه وجوه الاول ان الاجسام
متماثلة وكما ان جسم الماء يقبل البرد والرطوبة فكذا جسم النار
يقبلهما وكما ان جسم النار موصوف بالحر واليبس فكذا جسم الماء
قابل لهما واذا كان الامر كذلك ثبت انه يمكن انقلاب الماء نارًا
والنار ماء فيثبت ان هذا في نفسه ممكن الوجود وثبت ان للعالم
صانعًا قادرًا على جميع الممكنات فوجب القطع بكونه سبحانه قادرًا
على تبريد النار الثاني انا نشاهد ان شعلة النار اذا صعدت
انطفت ولا معنى لذلك الانطفاء الا ان الجرم اللطيف الهوائي
حين كان موصوفًا بالاحراق والاشراق كما نشاهدها فاذا تصاعدت
زال عنها صفة الاحراق والاشراق فصار هواء واذا كان كذلك
علمنا ان الجرم الموصوف بالاشراق والاحراق لا يبعد في العقل
زوال هاتين الصفتين عنه فثبت ان انقلاب جرم النار الى البرد
امر جايز ممكن الوجود الثالث انا اذا شددنا منفذ الكير والحنا
بالنفخ فانه يشتعل النار فيه وما ذلك الا ان الهواء المحتقن داخل
الكير يتسخن بسبب الحاح النفخ فيه واذا قويت التسخين اشتعل نارًا
فعلمنا ان الهواء يمكن ان ينقلب نارًا واذا امكن انقلاب الهواء نارًا
امكن ايضا انقلاب النار هواء باردًا الرابع ان اهل الطبايع يقولون
الحيوان والنبات انما يتولد من امتزاج الطبايع الاربعة واذا كان كذلك

لزمهم

لزمهم الاعتراف بان جرم النار موجود في ابدان النبات والحيوان
وما ذلك الا ان جرم النار انكسرت حرارته وحصلت فيها حرارة
معتدلة لايقة بابدان الحيوان والنبات واذا كان الامر كذلك
ثبت ان انقلاب النار بردًا وما امر ممكن الوقوع فيه الخامس ان عند
الاطباء القوة الجاذبة والقوة الهاضمة انما تقوى على فعالهما بمشاركة
الحرارة الغريزية فزعموا ان الحرارة الغريزية عبارة عن الجوهر الناري
الذي صار جزءًا من بدن الحيوان ومن المعلوم ان هذه الحرارة الغريزية
غير محرقة فعلمنا ان على قولهم النار يقبل الانكسار في الحر الحجة السادسة
انا نشاهد ان النعامة تبلغ الحديدة المحماة وان السمندر يعيش
في النار ولا يحترق بها البتة واذا كان هذا ممكن في الحيوانات
الخسيسة فاي عاقل يستبعد ذلك من قدرة الله في حق الرسول
المعصوم الحجة السابعة انا نرى النار مستولية على احراق جميع
الاحجار الا حجرًا واحدًا وهو سلطان الاحجار كلها وهو الياقوت
وجسدًا واحدًا وهو سلطان كل الاجساد وهو الذهب والسبب
في انه لا ولاية للنار على هذا الحجر وهذا الجسد هو ان هذا الحجر
والجسد من الاشياء المنسوبة الى الشمس فاذا حصل في الاجساد والاحجار
جسد وحجر لا ولاية للنار عليهما بسبب انتسابهما الى الشمس فكيف
يستبعد ان يحصل في النوع البشري شخص لا يكون للنار عليه ولاية
بسبب مزيد اختصاص له بحضرة خالق الشمس والقمر وبالجملة فكل من
حصر اسرار قدرة الله وحكمته على مقدار ما الفه وشاهده كان
عن المعقول خارجًا وفي البته والحاانما قوله وسلامًا على ابرهيم

فالمعنى ان البرد اذا افرط اهلك كما ان الحر كذلك بل لا بد في الكل
من الاعتدال ثم الى تحصيل الاعتدال في الكيفيات طرق احدها
ان يقدر الله بردها وحرها بالمقدار الذى لا يوذى ولا يفسد
وهو ان يجعل بعض اجزاء النار بردا وبعضها يتركها بحرارتها فحينئذ
يسلم من ذلك البرد الشديد بل ينتفع به ثم ههنا سوالات السوال
الاول هل صارت كل النيران في ذلك الوقت بهذه الصفة الجواب
المذكور في القران اسم الماهيات فلزم حصول هذا البرد في الماهية
ويلزم منه عمومه في كل افراد الماهية وقيل بل اختص هذا الخطاب
بتلك النار والمعجز على التقدير اعظم لان اختصاص تلك النار المضية
بهذه الحال يدل على ان المقصود رعاية حال ابرهيم عليه السلام السوال
الثانى هل يجوز ما روى انه تعالى لو لم يقل وسلاما لهلك ابرهيم
من البرد الجواب هذا بعيد لان برد النار لم يحصل منها وانما حصل
من جهة الله تعالى فهو القادر على الحر والبرد السوال الثالث هل يجوز
ان يقال انه كان في النار انعم عيشا منه في ساير احواله الجواب
لا منع من ذلك لما فيه من مزيد النعمة عليه ويجوز ايضا ان يقال
انه انما صار انعم عيشا هناك لعظم حاله ناله من السرور بخلاصه
من النار ولعظم سروره بخيبة اعداء الله وبظهور دلايل دين الله واما
قوله واراد وا به كيدا فجعلناهم الاخسرين والمعنى ارادوا ان
يغلبوه فصاروا مغلوبين غلبوه بالجدال فلقنه الله الحجة المسكتة
ثم عدلوا الى القوة فخلصه الله من عذابهم فقوله ونجيناه ولوطا
الى الارض التى باركنا فيها للعالمين وفي الاخبار ان هذه الواقعة

كانت في حدود بابل فنجاه الله من تلك البقعة الى الارض المباركة
واختلفوا فيها فقيل مكة لقوله تعالى ان اول بيت وضع
للناس للذى ببكة مباركا وقيل انها ارض الشام لقوله تعالى
الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله والسبب في بركتها ان اكثر
الانبياء عليهم السلام بعثوا منه وانتشر شرايعهم واثارهم
الدينيه منه واما في الدنيا فلانه تعالى بارك فيها بكثرة الماء
والشجر والثمر والخصب قوله تعالى ووهبنا له اسحق ويعقوب
الى قوله عابدين اعلم انه تعالى بعد ان ذكر انعامه على ابرهيم
وعلى لوط عليهما السلام بان نجاهما الى الارض المباركة اتبعه
بذكر ساير النعم التى خص ابرهيم عليه السلام بها النعمة الاولى وهو
قوله ووهبنا له اسحق ويعقوب نافلة والنافلة العطية الخاصة
وكذلك النفل سمى الرجل الكثير العطاء نوفلا وللمفسرين ههنا
قولان القول الاول قال ابن عباس وابى بن كعب ان ابرهيم عليه السلام
لما سال الله ولدا وهو قوله رب هب لى من الصالحين فاجاب الله
دعاه ووهب له اسحق واعطاه يعقوب من غير دعايه فكان ذلك
نافلة كالشىء المتطوع به من الادميين فكانه قيل ووهبنا له اسحق
اجابة لدعايه ووهبنا له يعقوب نافلة على ما لم يسال كالصلوة
النافلة التى هى زيادة على الفرض وعلى هذا القول يكون النافلة هو
يعقوب عليه السلام خاصة والقول الثانى ان النافلة ههنا مصدر
من وهبنا وهو مصدر من غير لفظ الفعل ولا فرق بين ذلك وبين
قوله وهبنا له هبة او وهبنا هما له عطية وفضلا من غير ان يكون جزا

مستحقا وهذا الوجه اقرب لانه تعالى جمع بينهما ثم قوله
نافلة ولما صلح ان يكون وصفا لهما فهو اولى والنعمة الثانية قوله
تعالى وكلا جعلنا صالحين اى وكلا من ابرهيم واسحق ويعقوب
انبياء مرسلين وقال آخرون عاملين بطاعة الله مجتنبين محارمه
وهذا الوجه اقرب لان لفظ الصلاح يتناول الكل ولانه تعالى
قال بعد هذه الآية واوحينا اليهم فعل الخيرات ولو حملنا الصلاح
على النبوة لزم التكرار واحتج اصحابنا بهذه الاية على ان افعال
العباد مخلوقة لله تعالى لان قوله وجعلناهم يدل على ان ذلك
الصلاح من جهته وقبله تعالى اجاب الجبائى بانه لو كان كذلك
لما مدحهم على كونهم صالحين وعلى كونهم ايمة وعلى كونهم عابدين
ولما اثنى عليهم بسبب هذه الخصال علمنا انها افعالهم واذا ثبت
هذا فلا بد من التاويل وهو من وجهين الاول ان يكون المراد انه
سبحانه اعطاهم من لطفه وتوفيقه ما صلحوا لاجله والثانى
المراد انه تعالى سماهم بذلك كما يقال في زيد انه فسق فلانا وضلله
وكفره اذا وصفه بذلك وكان مصدقا عند الناس وكما يقال
فى الحاكم انه زكى فلانا وعدله اذا حكم بذلك واعلم ان هذه الوجوه
مختلفة اما اعتمادهم على المدح والذم فسيجئ الجواب عنه ان
شاء الله واما الحمل على اللطف فباطل لان فعل الالطاف عام
فى المكلفين فلا بد في هذا التخصيص من مزيد فائدة وايضا فلان
قوله لاجعلنه صالحا كقولك جعلته متحركا فحمله على تحصيل شئ
سوى الصلاح ترك للظاهر واما الحمل على التسمية فهو مجاز اقضى

ما فى الباب انه قد يصار اليه عند الضرورة فى بعض المواضع وههنا
لا ضرورة فيها وايضا انه تعالى لما اخبر عنه كان وقوعه واجبا والا
لزم انقلاب خبره الصدق كذبا وانقلاب علمه جهلا وذلك
محال والمفضى الى المحال محال والنعمة الثالثة قوله تعالى وجعلناهم
ايمة يهدون بامرنا وفيه قولان احدهما جعلناهم ايمة يدعون
الناس الى دين الله والطاعة بامرنا الثانى قول ابى مسلم ان هذه
الامامة هى النبوة واحتج اصحابنا بهذه الاية بامرين احدهما فى مسئلة
خلق الافعال على ما تقدم تقريره والثانى ان الدعوة الى الحق والمنع
عن الباطل لا يجوز الا بامر الله لانه لو لم يكن الامر معتبرا لما كان في قوله
بامرنا فايدة والنعمة الرابعة قوله تعالى واوحينا اليهم
فعل الخيرات وهذا يدل على انه سبحانه خصهم بشرف النبوة
وذلك من اعظم النعم على الاب ثم انه سبحانه لما بين اصناف نعمه
عليهم بين عند ذلك اشتغالهم بعبوديته فقال وكانوا لنا عابدين
كانه سبحانه لما وفى بعهد ربوبيته فى الاحسان والانعام عليهم
فهم ايضا وفوا بعهد العبودية وهو الاشتغال بالطاعة والعبودية

الفصل الخامس فى مناظرة اخرى لابرهيم عليه السلام

فى تقرير التوحيد قال الله تعالى في سورة الشعراء واتل عليهم نبا
ابرهيم اذ قال لابيه وقومه الى قوله عاكفين اعلم انه تعالى ذكر
فى اول هذه السورة شدة حزن محمد عليه السلام بسبب كفر قومه
وهو قوله لعلك باخع نفسك الا يكونوا مومنين ثم انه تعالى
ذكر قصة موسى ليعرف محمدا عليه السلام ان مثل تلك المحنة كانت

حاصلة لموسى بهذا السبب ثم ذكر عقيبها قصة ابرهيم عليه السلام
ليعرف محمدا عليه السلام ان ابرهيم بهذا السبب كان اشد
حزنا من حزنه لان من عظم المحنة على ابرهيم ان يرى اباه وقومه
كلهم في النار وهو لا يتمكن من انقاذهم من النار فقال لهم ما تعبدون
وكان عليه السلام يعلم انهم عبدة الاوثان ولكنه سالهم ليريهم
ان ما يعبدونه ليس له من استحق العبادة في شيء كما تقول للتاجر
ما مالك وانت تعلم ان ماله الرقيق ثم تقول الرقيق جمال وليس بمال
ثم انهم اجابوا ابرهيم بقولهم نعبد اصناما فنظل لها عاكفين
والعكوف الاقامة على الشيء وانما قالوا نظل لانهم كانوا يعبدونها
بالنهار دون الليل واعلم انهم كان يكفيهم في الجواب ان يقولوا نعبد
اصناما ولكنهم ضموا اليه زيادة على الجواب وهي قولهم فنظل لها
عاكفين وانما ذكروا هذه الزيادة اظهارا للابتهاج والافتخار
بعبادة الاصنام فقال ابرهيم منبها على فساد مذهبهم هل
يسمعونكم اذ تدعون او ينفعونكم او يضرون وهذا هو الحجة
التي ذكرها في سورة مريم وشرحناها بالاستقصاء فعند هذا
قال القوم بل وجدنا اباءنا كذلك يفعلون فاجاب ابرهيم افرايتم
ما كنتم تعبدون انتم واباءكم الاقدمون فكل هذا قد تقدم تفسيره
في الفصل السابق ثم قال فانهم عدو لي الا رب العالمين واعلم انه
عليه السلام ما ذكر الاعداء الا بهذه الكلمة الواحدة ثم مدح الحق
بالفاظ كثيرة وفيه تنبيه على ان الاشتغال بعيب الاعداء اشتغال
بالاعداء وهو مانع من الله وكان تقليلها اولى وانما الاستقصاء

يجب

يجب ان يكون بالثناء على الله تعالى وفيه اسولة السؤال الاول
كيف يكون الصنم عدوا وهو جماد والجواب من وجوه الاول
قال تعالى في سورة مريم في صفة الاصنام كلا سيكفرون
بعبادتهم قيل في تفسيره ان الله يحيي ما عبدوه من الاصنام حتى
يقع منهم التوبيخ لهم والبراءة منهم وعلى هذا الوجه ستصير
هذه الاوثان اعداء لهؤلاء الكفار في الاخرة فاطلق ابرهيم عليه السلام
لفظ العداوة عليهم على هذا التاويل الوجه الثاني ان الكفار
لما عبدوها وعظموها ورجعوا اليها في طلب المنافع ودفع المضار
نزلت منزلة الاحياء العقلاء في اعتقاد الكفار ثم انها صارت
اسبابا لانقطاع الانسان عن السعادة ووصوله الى الشقاوة
فلما جرت هذه الاصنام مجرى الاحياء وجرت مجرى الدافع للمنفعة
والجالب للمضرة لا جرم جرت مجرى الاعداء والثالث ان المراد من
قوله فانهم عدو لي الا رب العالمين العابدون دون الاصنام
التي هي المعبودة السؤال الثاني لم قال فانهم عدو لي والجواب
انه عليه السلام صور المسئلة في نفسه على معنى اني فكرت في امري
فرايت عبادتي لها عبادة للعدو فاجتنبتها واراهم انها نصيحة
نصح بها نفسه فاذا تعرفوا وتفكروا قالوا ان ابرهيم ما نصحنا
الا بما نصح به نفسه فيكون ذلك ادعا الى القبول السؤال الثالث
لو لم يقل فانهم اعداء لي والجواب لفظ العدو والصديق يقع
على الواحد وعلى الجماعة قال تعالى وهم لكم عدو ثم قال ابرهيم
الذي خلقني فهو يهدين واعلم انه تعالى لما حكى عنه انه استثنى

رب العالمين حكى عنه بما وصفه بربما يستحق العبادة لاجله
وهي خمسة انواع من الصفات الصفة الاولى قوله الذي خلقني
فهو يهديني واعلم انه سبحانه اثنى على ذاته بهذين الوصفين
فقال سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى
واعلم انا نفرض مثالا واحدا ونحقق فيه معنى الخلق والهداية
فنقول الانسان مخلوق من قالب هو من عالم الخلق ومن قلب هو من
عالم الامر وتركيب البدن الذي هو من عالم الخلق يقدم على ايجاد
الروح الذي هو من عالم الامر على ما قال فاذا سويته ونفخت فيه
من روحي والتسوية اشارة الى تركيب المزاج وتعديل الاشباح
ونفخ الروح اشارة الى اللطيفة الربانية الروحانية النورانية
وتمام هذا التقرير سيجيء في تفسير قوله ولقد خلقنا الانسان
من سلالة من طين وبالجملة فالخلق اشارة الى تعديل البدن والهداية
اشارة الى ابداع القوى المدركة والمحركة فيه فثبت ان قوله الذي خلقني
فهو يهديني كلمة حاوية لجميع المنافع في الدين والدنيا ثم فيه
دقيقه وهو انه قال خلقني فذكره بلفظ الماضي وقال فهو يهدين فذكره
بلفظ المستقبل والسبب فيه ان خلق الذات لا يتجدد ساعة فساعة
بل ما حصل بقي الى الامد المعلوم واما الهداية فهي امر يتكرر كل حين واوان
سواء كانت الهداية في الدنيا وفي الدين فبين سبحانه انه هو الذي خلقه
في الماضي وانه هو الذي يهديه في المستقبل في كل حين واوان الى وجوه
المصالح بضروب الهدايات الصفة الثانية قوله والذي هو يطعمني
ويسقيني وقد دخل فيه كل ما يتصل بمنافع الرزق وذلك لانه سبحانه

اذا خلق الطعام ومكنه منه فلو لم يمكن منه ما تمكن معه من اكله
والاغتذاء به نحو الشهوة والقوة والتمييز لم تكمل هذه المنفعة
فذكر الطعام والشراب ونبه على ما عداهما وقال بعضهم يطعمني
طعام المعرفة ويسقيني شراب المحبة وقيل يطعمني طعام المناجاة
ويسقيني شراب الوصول الى الدرجات وههنا بحث وهو انه روي
الامام محمد بن علي الترمذي رحمه الله في كتاب نوادر الاصول عن
عقبة بن عامر انه عليه السلام قال لا تكرهوا مرضاكم على الطعام
فان الله يطعمهم ويسقيهم واعلم ان المرض سبب لانقطاع عشق
القلب عن البدن لتواتر الالام والاوجاع عليه وكلما كان ذلك
العشق اقل كان حب الدنيا اقل ومرض القلب ليس الا حب الدنيا
فعلى هذا كلما كان مرض البدن اتم كان عود القلب الى الصحة
اتم وكلما ازداد القلب طهارة من دون الذنوب وسقم حب الدنيا
كان شبع القلب باغذية المعرفة وريه بشراب المحبة اتم ومما يدل
على ما قلنا ان اقل الناس اكلا الانبياء ثم الاولياء وكلما كان العبد
اكثر حظا من النفس كان اكثر اكلا روي عن عامر بن عبد القيس انه
داوم شهرا لا ياكل شيئا وقال ابرهيم التيمي لقد اتى على شهر وما
اكلت طعاما ولا شرابا الا حبة عنب اكرهوني عليها وما انا بصايم
واني لاقضي حوايجي وقال عليه السلام الكافر ياكل في سبعة امعاء
والمومن ياكل في معا واحد فالمومن انه يشبعه فمعنى قوله ان الله
يطعمهم ويسقيهم انه يطهر قلوبهم من الذنوب فاذا طهرهم
من عليهم بعد ذلك باليقين فاشبعهم وارواهم واذا قوي القلب

والحج ابتهج بمعرفة ربه وصار فرحانا بخدمة ربه وبالامتثال
فى طاعة ربه وبمجالسة الملائكة المقربين صار الجسد بحيث لا
يحتاج الى الغذاء الا ترى ان الانسان اذا ناله فرح شديد يصار
بحيث ينسى الحاجة الى الطعام هذا كله كلام الشيخ محمد بن على
الحكيم الترمذى ثم قال رحمه الله وللقلوب مع الله شان لا يعرفه
الا اهل القلوب الصفة الثالثة قوله واذا مرضت فهو يشفين
قال الجنيد اذا مرضت بوحشة الخلق شفانى بانس الحق وقال الشبلى
اذا مرضت من هم الاشتياق شفانى بلذة التلاق وفيه سؤالات
وهو انه لم قال مرضت دون امرضنى الجواب من وجوه الاول ان
المرض انما يحصل باستيلاء بعض الاخلاط على بعض وذلك الاستيلاء
انما يحصل بسبب ما بينها من التنافر الطبيعى واما الصحة فانما
يحصل عند بقاء الاخلاط على اعتدالها وذلك انما يكون بسبب
قاهر يقهرها على الاجتماع وعودها على الصحة انما يكون ايضا بسبب
قاهر يقهرها والنزاع فاذا حدوث المرض انما كان بسبب طبايع الاخلاط
وحدوث الصحة انما كان بسبب ان الله تعالى قهرها على الاجتماع
والاعتدال الثانى وهو ان الشفاء من اعظم نعم الله على الانسان
والمرض ليس كذلك ومن عادة الله ان كل ما كان منفعة ولذة فانه
نصيفه الى نفسه وكل ما كان الما فانه لا نصيفه الى نفسه الا ترى
انه قال كتب ربكم على نفسه الرحمة وقال كتب فى قلوبهم الايمان
ولما آل الامر الى المشقة فما اصابها الى نفسه وقال كتب عليكم
القصاص كتب عليكم الصيام فلما كانت عادة الله جارية برعاية

هذه الدقيقة لا جرم ان ابرهيم عليه السلام اعتبر هذا المعنى
فاضاف المرض الى نفسه والشفاء الى الله وبقوله والذى يميتنى
ثم يحيين فاعلم ان الموت سبب خلاص الروح عن زحمة البدن
والاتصال بحضرة الله ورحمته فكيف يعد ذلك من المكاره ولهذا
قال عليه السلام من بشرنى بخروج الصفر فقد بشرته بدخول الجنة
والسبب فيه انه عليه السلام كان عالما بان وفاته يقع فى شهر
ربيع الاول فكان شديد الاشتياق اليه واما المرض فانه لا يخلص
الروح فيه عن البدن بل يبقى فى الزحمة والثالث ان غرض الخليل
عليه السلام فى هذا المقام اظهار لسان الشكر لا اظهار لسان
الشكوى واضافة المرض الى الله سبحانه شكاية فاضاف المرض الى نفسه
والشفاء الى الله ليكون ابلغ فى الشكر الصفة الرابعة قوله تعالى
والذى يميتنى ثم يحيين وقد شرحنا فى تفسير قوله الذى خلق الموت
والحيوة وفى تفسير قوله كيف تكفرون بالله الصفة الخامسة
قوله والذى اطمع ان يغفر لى خطيئتى وهو اشارة الى ما هو مطلوب
كل عاقل من الخلاص عن العذاب والفوز بالنجاة واعلم ان ابرهيم
عليه السلام جمع فى هذه الالفاظ جميع نعم الله تعالى من اول الخلق
الى اخر الابد فى الدار الاخرة وههنا سؤالات السؤال الاول
لم قال اطمع والطمع عبارة عن الرجا وانه عليه السلام كان قاطعا
بذلك والجواب من وجوه ثلثة الاول قلنا ان هذا الكلام لا
يستقيم على مذهبنا حيث قلنا انه لا يجب لاحد على الله شئ الثانى
لعله عليه السلام قال هذا الكلام قبل النبوة الثالث غرضه موافقة

كلام الله تعالى في قوله ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء فلما علقه
الله تعالى بالمشية وافقه الخليل عليه السلام تعلقه بالطمع
وهذا من غاية حسن الادب السوال الثاني لم اسند الخطيئة
الى نفسه مع ان الانبياء منزهون عن الخطايا والجواب لعله
ذكر هذا الكلام قبل النبوة او هو محمول على ترك الاولى السوال
الثالث لم علق مغفرة الخطيئة بيوم الدين وهو تعالى انما يغفر
في الدنيا والجواب ان اثر الغفران انما يظهر يوم الدين السؤال
الرابع ما فايدة لي في قوله ان يغفر لي خطيئتي والجواب من وجوه
الاول ان الجود افادة ما ينبغي لا لغرض وهذا هو صفة الحق
فقط اما كل ما سواه فله فيه غرض فان الاب اذا عفى عن ولده
والسيد اذا عفى عن عبده فذلك انما يكون لطلب الثواب وللخوف
عن العقاب ولطلب المدح والثناء ولوقوع الرقة الجنسية عن
القلب واذا كان كذلك لم يكن المقصود عن العفو رعاية جانب
المعفو عنه بل رعاية جانب النفس اما لتحصيل ما ينبغي او لدفع
ما لا ينبغي اما الحق سبحانه فانه كامل لذاته فيمتنع ان تحصل له صفة
كمال لم يكن او يزول عنه صفة نقصان كان واذا كان كذلك لم يكن
عفوه الا لرعاية جانب المعفو عنه فقوله والذي اطمع ان يغفر لي
يعني هو الذي اذا غفر كان غفرانه لي ولاجلي لا لاجل امر عايد اليه
البتة الثاني كان يقول الهي خلقتني لا لي ولا لاجلي لانك حين
خلقتني ما كنت موجودا واذا لم اكن موجودا استحال ان يحصل شيء
لاجلي ثم مع هذا فانت قد خلقتني اما لو عفوت كان ذلك العفو

لاجلي فلما خلقتني اولا مع اني ما كنت محتاجا الى ذلك الخلق فلان
تغفر لي لاجلي مع اني في نهاية الاحتياج الى العفو كان اليق
بفضلك ورحمتك الثالث ان ابرهيم عليه السلام كان لشدة
استغراقه في بحر المعرفة شديد الفرار عن الالتفات الى الوسايط
ولذلك لما قال له جبريل الك حاجة فاجاب وقال اما اليك
فلا فهاهنا قال اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين اي له يدين
ان يغفر لي خطيئتي بمجرد اني عبده ومحتاج اليه وخاضع بين
يدي رحمته لا ان يغفرها لي بواسطة شفاعة الشافع واعلم
ان الاحوال ثلثة اما الماضي او الحاضر والمستقبل وقد ذكر
الخليل نعم الله عليه في هذه الاحوال الثلثة اما في الماضي فهو قوله
الذي خلقني فهو يهدين واما في الحاضر فهو قوله والذي هو يطعمني
ويسقين واذا مرضت فهو يشفين واما في المستقبل فهو اما في
الدنيا واما في الاخرة اما في الدنيا فهو قوله والذي يميتني ثم يحيين
واما في الاخرة فهو قوله والذي اطمع ان يغفر لي خطيئتي يوم الدين فما
احسن هذا الترتيب قوله تعالى رب هب لي حكما الاية دعا وتقديم
الثناء على الدعاء واجب نقلا وعقلا اما النقل فكما في هذه الاية
وايضا روى النبي عن رب العزة انه قال من شغله ذكري عن مسالتي
اعطيته افضل ما اعطي السايلين واما العقل فهو ان الداعي اذا قدم
الثناء على الله استنار روحه بنور معرفة الله واتصل قلبه بعالم
الالهية وسرادقات الصمدية ومقامات الفردانية وارتفعت
الحجب وتلالات انوار الالهية في القلب فيصير القلب كالقمر اذا وقع

في مقابلة الشمس فيكمل نوره واذا كمل نوره قوى تاثيره فاذا اتبعه
بالدعاء صارت تلك القوة الحاصلة بسبب الذكر والثناء معينا
على تحصيل المطلوب فلهذا المعنى يجب تقدم الثناء على الدعاء
كما فعله الخليل عليه السلام في هذا المقام فان قيل لم يقتصر
ابرهيم على الثناء فان الدعاء اشتغال بطلب الحصة لنفسه وهو مانع
من الاستغراق لا سيما ويروى عنه انه قال حسبى من سؤالى علمه بحالى
والجواب انه في هذا المقام كان مشغولا بدعوة الخلق الى الحق بدليل
انه قال ههنا فانهم عدو لى الا رب العالمين فلا جرم ذكر الثناء اولا
ثم الدعاء ثانيا لاجل تعليم الخلق اما لما خلا بنفسه اقتصر على الثناء
وهو قوله حسبى من سؤالى علمه بحالى واعلم ان ابرهيم عليه السلام
طلب من الله تعالى انواعا من المطالب المطلوب الاول قوله رب
هب لى حكما والحقنى بالصالحين فاجابه الله تعالى حيث قال وانه
في الاخرة لمن الصالحين واعلم ان النفس الانسانية لها قوتان
قوة نظرية عاقلة وقوة عملية فاعلة فالقوة النظرية عبارة عن القوة
التى باعتبارها تقبل الجلايا القدسية عن عالم الغيب والقوة العملية
عبارة عن القوة التى باعتبارها يقوى على تدبير هذا البدن وذلك
لان كمال الانسان في ان يعرف الحق لذاته والخير لاجل العمل به
فقوله هب لى حكما اشارة الى سعادة القوة النظرية وقوله
الحقنى بالصالحين اشارة الى سعادة القوة العملية وانما قدم
سعادة القوة النظرية على سعادة القوة العملية لان القوة
النظرية مقدمة على القوة العملية بالشرف وبالذات والدليل

عليه

عليه الوجوه التى ذكرناها في الفصل الاول من هذا الكتاب في بيان
ان علم الاصول اشرف من علم الفروع وانما فسرنا معرفة الاشياء
بالحكم وذلك لانه لا يعرف الانسان حقايق الاشياء الا اذا استحضر
في ذهنه صور الماهيات ثم نسب بعضها الى بعض بالنفى والاثبات
فتلك النسبة الخارجية كانت النسبة الذهنية ممتنعة التغير
فكانت مستحكمة قوية فمثل هذا الادراك يسمى حكمة وحكما وهو
المراد من قوله عليه السلام ارنا الاشياء كما هى واما الصلاح
فهو كون القوة العملية متوسطة بين رذيلتى الافراط والتفريط
وذلك لان الافراط في احد الجانبين تفريط في الآخر وبالعكس
فالصلاح لا يحصل الا بالاعتدال ولما كان الاعتدال الحقيقى
شيئا واحدا لا يقبل القسمة البته والافكار البشرية في هذا
العالم قاصرة عن ادراك الحد على سبيل الحقيقة لاجرم لا ينفك البشر
البته عن الخروج عن ذلك الحد وان قل الا ان خروج المقربين عنه يكون
في القلة بحيث لا يحس به وخروج العصاة عنه يكون متفاحشا
جدا فقد ظهر من هذا احتياج كل احد الى ان يستعين بتوفيق الله
في تحصيل هذا الصلاح سواء كان نبيا او وليا فظهر ههنا احتياج
ابرهيم الى ان يقول والحقنى بالصالحين المطلوب الثانى في هذا الدعاء
قوله واجعل لى لسان صدق في الآخرين واعلم ان مراتب السعادات
ثلثة النفسانية والبدنية والخارجية فالنفسانية قسمان
كمال القوة النظرية وكمال القوة العملية وهو المراد بقوله هب لى
حكما والحقنى بالصالحين واما البدنية فقسمان وهو الصحة

والجمال واما الخارجية فقسمان المال والجاه فالمال اشد جسمانية
لانه ملك الاعيان والجاه اشد روحانية لانه ملك الارواح
وان ابرهيم عليه السلام طلب السعادات النفسانية بقسميها
ولم يلتفت الى السعادات البدنية بقسميها لعلمه بانها غير باقية
واما السعادات الخارجية فطلب قسما واحدا منها وهو الجاه
والثناء الحسن وهو المراد بقوله واجعل لي لسان صدق في
الآخرين وقد اعطاه الله تعالى وهو قوله وتركنا عليه في الآخرين
فان قيل واى فايدة له في ان يمدح ويثنى عليه والجواب
من وجهين الاول ان الارواح البشرية قد بينا انها مؤثرة
في الجملة الا ان بعضها قد يكون ضعيفا فيعجز عن التاثير فاذا
اجتمع منها طايفة فربما قوى مجموعها على ما عجزت الآحاد عنه
وهذا المعنى مشاهد في المؤثرات الجسمانية واذا ثبت هذا
فالانسان الواحد اذا كان بحيث عليه الجمع العظيم ويمدحونه
فربما صار انصراف همتهم اليه عند الاجتماع سببا لفيضان
زيادة كمال عليه من عالم القدس الثاني وهو ان ارواح عوام الخلق
ربما كانوا مستبعدين لقبول الانوار من عالم القدس فاذا اتصلت
هذه الارواح بالارواح القوية التي تكون للانبياء وتجلت الانوار
الالهية في تلك الانوار القوية النبوية انعكس ثم من تلك الانوار
الى هذه الارواح الضعيفة المعلقة بها بسبب شدة المحبة
فيحصل لهذه الارواح الضعيفة نوع من السعادة بسبب تلك
العلاقة ففي الوجه الاول من الجواب جعلنا الثناء والمدح سببا

لحصول مزيد سعادة الممدوح وفي الوجه الثاني جعلنا
ذلك الثناء والمدح سببا لحصول مزيد سعادة المادح والوجه
الثالث وهو كلام اهل الظاهر ان من صار ممدوحا فيما بين الناس
بسبب ما كان له من الفضايل فانه يصير ذلك المدح داعيا للمادح
الى اكتساب مثل تلك الفضايل التاويل الثاني لقوله واجعل لي
لسان صدق في الآخرين انه سال ربه ان يجعل من ذريته
في آخر الزمان من يكون داعيا الى الله وذلك هو محمد عليه السلام
فالمراد من قوله واجعل لي لسان صدق في الآخرين بعثه محمد
عليه السلام والتاويل الثالث قال بعضهم المراد اتفاق اهل
الاديان على حبه فاعطاه الله ذلك لانك لا ترى اهل دين الا
ويحبون ابرهيم المطلوب الثالث قوله واجعلني من ورثة جنة
النعيم واعلم انه لما فرغ من طلب مراتب السعادات في الدنيا طلب
بعده سعادة الآخرة وهي جنة النعيم وشبهها بما يورث وسنذكر
السبب في انه لم سمى الجنة ميراثا المطلوب الرابع قوله واغفر لابي
انه كان من الضالين والكلام فيه فيتقدم في الفصل الثالث
في تفسير قوله سلام عليك ساستغفر لك ربي المطلوب الخامس
قوله ولا تخزني يوم يبعثون وفيه سؤالات السؤال الاول انه لما قال
واجعلني من ورثة جنة النعيم امتنع الخزي لانه متى حصلت الجنة
فقد زال الخزي فكيف قال بعده ولا تخزني يوم يبعثون وايضا
قال تعالى ان الخزي اليوم فكيف قال بعده ولا تخزني يوم يبعثون
وايضا قال تعالى ان الخزي اليوم والسوء على الكافرين فما كان

نصيب الكفار فقط فكيف يخاف منه الرسول المعصوم قلنا
كما ان حسنات الابرار سيات المقربين فكذلك درجات الابرار
دركات المقربين وحرا كل احد ما يليق به السؤال الثاني قوله
يبعثون ضمير عن اي شئ الجواب انه ضمير العباد لانه معلوم وان
لم يكن مذكورا وضمير الضالين واعلم ان في الآية وجوها من النكت
الاول قيل معنى الآية لا تطالبني يوم القيامة بصدق الخلة
فلا تقل يا ابرهيم ادعيت اني خليل الله فهات صدق الدعوى
النكتة الثانية ان ابرهيم لما خاف من هذا المقام فلا تخاف ايها
المذنب ان تطالب يوم القيامة بحق الايمان والتوحيد اولى كما
قال الله تعالى ليسال الصادقين عن صدقهم الثاني الخليل عليه السلام
قال ولا تخزني يوم يبعثون لم يظهر جوابه في نص القران ثم انه
اعطى الامان لامة محمد عليه السلام فقال يوم لا يخزي الله
النبي والذين امنوا معه اما قوله الا من اتى الله بقلب سليم فاعلم
ان الله تعالى اكرمه بهذا الوصف حيث قال وان من شيعته لابرهيم
اذ جاء ربه بقلب سليم وفي تفسير القلب السليم وجوه الاول
المراد منه سلامة القلب عن الجهل والاخلاق الذميمة كما ان سلامة
البدن عبارة عن حصول ما ينبغي من المزاج والتركيب ومرضه
عبارة عن زوال تلك الامور الثاني ان السليم هو اللديغ من
خشية الله الثالث السليم هو الذي سلم واسلم وسلم وسالم
واستسلم وهذه الاحوال كانت حاصلة لابرهيم عليه السلام
كما قال اذ قال له ربه اسلم قال اسلمت لرب العالمين وقال الشبلي

القلب

القلب السليم كقلب الخليل كان يسير قلبه من جانب التحت الى الوفاء
ومن جانب الفوق الى الرضا ومن اليمين الى العطا ومن اليسار الى ترك
الهواء ومن القدام الى اللقاء ومن الخلف الى البقاء **الفصل**
السادس في تفسير استدلال نوح عليه السلام قال سبحانه حكاية
عن نوح فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم
مدرارا الآية قال مقاتل ان قوم نوح لما كذبوه زمانا طويلا حبس الله
عنهم المطر واعقم ارحام نسايهم اربعين سنة فرجعوا فيه الى نوح
فقال نوح استغفروا ربكم عن الشرك يفتح عليكم ابواب النعمة
واعلم ان الاشتغال بالايمان وساير الطاعات سبب لانفتاح
ابواب الخيرات ويدل عليه وجوه الاول ان الكفر سبب لخراب
العالم قال في صفة النصارى تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الارض وتخر الجبال هدا ان دعوا للرحمن ولدا فلما كان الكفر
سببا لخراب العالم وجب ان يكون الايمان سببا لعمارة العالم
الثاني الايات الدالة على هذا المعنى منها قوله تعالى ولو ان اهل
القرى امنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والارض
وقال ولو انهم اقاموا التورية والانجيل الآية وقال وان لو
استقاموا على الطريقة لاسقيناهم ماء غدقا الاية وقال
وامر اهلك بالصلوة واصطبر عليها الآية وقال ومن يتق الله
يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب الثالث انه تعالى
ما خلقت الجن والانس الا ليعبدون فاذا اشتغلوا بتحصيل المقصود
حصل ما يحتاجون اليه في الدنيا على سبيل التبعية الرابع انه قال

وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون بين انك مخلوق لاجل
عبادته ثم قال خلق لكم ما في الارض جميعا فبين ان جميع ما في الارض
مخلوق لك ثم قال تعالى واوفوا بعهدي اوف بعهدكم فلما
وفيت بعهد العبودية وهو المراد بقوله وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون فلابد وان نفي الرب بعهد الربوبية وهو المراد
بقوله خلق لكم ما في الارض جميعا الخامس روي ان عمر خرج يستسقي
فما زاد على الاستغفار فقيل له وما رايناك استسقيت فقال
لقد استسقيت بمجاديح السماء والمجدح ثلثة كوكب مخصوصة
ونوءها يكون عزيزا شبه عمر الاستغفار بالانواء الصادقة
التي لا تخطي السادس ان قوله يرسل السماء عليكم مدرارا
يحتمل ان يكون المراد منه انزال الغيث والمطر على ما هو ظاهر
اللفظ ويحتمل ان يكون المراد فتح ابواب السماء بامطار التوفيق
والهداية والارشاد ويجب حمل اللفظ عليهما جميعا اما الاول
فروى عن بكر بن عبد الله ان اكثر الناس ذنوبا اقلهم استغفارا
واكثرهم استغفارا اقلهم ذنوبا وتحقيقه من جهة العقل ان
الاستغفار اذا قوي على الدفع بعد الثبوت فلان يقوى على الدفع
والمنع كان اولى واما الثاني فما روي ان الحسين رضي الله عنه
جاءه رجل وشكى اليه الجدب فقال استغفر الله وشكا اليه
اخر الفقر واخر من قلة النسل واخر من ريع ارضه فامر الكل
بالاستغفار فقال له بعض القوم اياك رجال يشكون اليك
انواعا فامرت الكل بالاستغفار فتلا عليه رضي الله عنه هذه الاية

فقلت

فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا
ويمددكم باموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم انهارا فان
قيل لم قال انه كان غفارا ولم يقل الان غفار قلنا المراد منه انه
كان غفارا في حق كل من استغفر كانه تعالى قال لا تظنوا ان غفاريته
انما حدثت الان بل هو ابدا اهله فكما ان حرفتكم هذا الذنب
والمعصية فكذا عادته هو الغفارية واما قوله يرسل السماء
عليكم مدرارا اعلم ان الخلق مجبولون على محبة الخيرات العاجلة
ولذلك قال تعالى واخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب لاجرم
اعلمهم الله تعالى ان ايمانهم بالله يجمع مع الحظ الوافر في الاخرة
الخصب والغنى والمنى في الدنيا والاشياء التي وعدهم من منافع
الدنيا في هذه الدنيا خمسة اولها يرسل السماء عليكم مدرارا
وفي السماء وجوه الاول ان المطر ينزل من السماء الى السحاب ومن
السحاب الى الارض والثاني ان المراد من السماء هو السحاب والثالث
ان المراد من السماء هو المطر من قولهم اذا نزل السماء بارض قوم رعيناها
وان كانوا غضابا والمدرار الكثير الدر والمفعال مما يستوي فيه
المذكر والمونث كقولهم رجل معطار ومتفال وامراة معطار
ومتفال والنعمة الثانية قوله ويمددكم باموال وبنين وهذا
لا يختص بنوع واحد من المال بل يعم الكل والنعمة الثالثة قوله
ولا شك ان كثرة الاولاد الذكور سببا لبقاء الذكر واشتداد
الظهر والنعمة الرابعة قوله ويجعل لكم جنات اي بساتين
والنعمة الخامسة قوله ويجعل لكم انهارا فبدا بذكر هذه النعم

بانزال الماء من السماء وختمها باخراج الماء من الارض والسبب
فيه انا بينا ان تولد النعم في هذا العالم انما يكون بنزول الماء
من السماء الى الارض واعلم ان الله تعالى لما امرهم بالاستغفار وعد
على الاستغفار بهذه المنافع واكد ذلك ورغب فيه فقال ما لكم
لا ترجون لله وقارا وفيه وجوه الاول ان يكون التقدير
ما لكم لا تاملون من الله وقارا وتعظيما بفعله في حقكم كان القوم
لما قيل لهم انكم متى استغفرتم الله اعطاكم الله هذه النعم الكثيرة
فالقوم استبعدوا ذلك قالوا وكيف يعطينا هذه النعم العظيمة
بمجرد الاستغفار فاجيبوا بقوله ما لكم لا ترجون لله وقارا
اي ما لكم لا ترجون من الله ان يفعل في حقكم هذا التوقير العظيم
مع انه فعل في حقكم ما هو اجل واعظم منه وهو انه خلقكم اطوارا
الوجه الثاني ان القوم كانوا يبالغون في الاستخفاف بنوح عليه السلام
فامرهم الله بتوقيره وترك الاستخفاف به فقيل لهم انكم ان
وقرتم نوحا كان ذلك لاجل الله فما لكم لا ترجون لله وقارا
ما تاتون به لاجل الله ولاجل امره وطاعته فان كل ما ياتي به الانسان
لاجل الله فانه لا بد وان يرجو منه خيرا الوجه الثالث وهو ان يكون
المراد من الوقار الحلم وترك التعرض بتعذيبهم والمعنى ما لكم لا
تاملون ان يترك الله معاملتكم بالعذاب بحلمه ولطفه ويمهلكم
لتؤمنوا وقوله لله لبيان من ثبت له الوقار والوجه الرابع
ان الوقار هو الثبات من وقر اذا ثبت واستقر فكانه قال ما لكم
وعند هذا تم الكلام ثم قال على سبيل الاستفهام بمعنى الانكار

لا ترجون لله وقارا اي لا ترجون لله ثباتا وبقاء فانكم لو رجوتم
ثباته وبقاءه لخفتموه ولما اقدمتم على الاستخفاف برسله واوامره
والمراد من قوله ترجون اي يعتقدون لان الراجي للشيء معتقد له
ثم انه سبحانه لما امر في هذه الآية بتعظيم الله استدل على التوحيد
بوجوه من الدلائل الحجة الاولى حجة ماخوذة من الانفس وهي قوله
وقد خلقكم اطوارا وفيه وجهان الاول قال الليث الطور التارة
يعني حالا بعد حال فانه كان ترابا اولا ثم نطفة ثم علقة ثم مضغة
والثاني قال ابن الانباري الطور الحال والمعنى خلقكم اصنافا
مختلفين لا يشبه بعضكم بعضا كما قال واختلاف السنتكم والوانكم
واعلم انه سبحانه خلق البشر بحيث لا يشبه بعضهم بعضا في الصورة
والحكمة فيه انه لو حصلت المشابهة لحصل الاشتباه فما كان يتميز زوج
هذه المراة عمن لم يكن زوجا لها ولا عبد هذا عن عبد غيره وحينئذ
لم يتميز الحلال من الحرام والمستحق عن غير المستحق وذلك يفضي الى زوال
المصالح وحصول المفاسد فلهذا السبب اقتضت الحكمة الالهية
تخصيص كل واحد بصورته المخصوصة ثم انه من اعظم الدلائل على القادر
المختار لان الاب والام واحد وتاثير الطبايع والنجوم والافلاك
واحد ثم مع هذا التشابه والتساوي يكون كل واحد منهم مختصا
بصورته المخصوصة المعينة فهذا لا يكون الا بتاثير القادر المختار
وروي ان واحدا استعظم امر الشطرنج عند عمر رضي الله عنه وقال
انه رقعة مختصرة ثم انه يقع فيه انواع من اللعب غير متناهية فقال
عمر رقعة الوجه اصغر من رقعة الشطرنج ولكل عضو من اعضاء الوجه

موضع معين من الوجه لا يتغير عنه فان العين لها موضع معين
وكذلك الانف والفم ثم مع هذا يقع فيه من الاختلاف ما لا نهاية له
فانك لا ترى انسانين في المشرق والمغرب تماثل صورتاهما من كل
الوجوه وهذا يدل على كمال قدرة الله وعلمه وحكمته الحجة الثانية
على التوحيد حجة ماخوذة من الافاق وهي قوله سبحانه الم تروا
كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل
الشمس سراجا واعلم انه تعالى تارة يبدا بدليل الانفس وبعدها
بدليل الافاق كما في هذه الاية وذلك لما ذكرنا ان نفس الانسان اقرب
الاشياء اليه فلاجرم بدا بالاقرب لان الاقرب اعرف وتارة
يبدا بدلايل الافاق ثم بدلايل الانفس اما لان دلايل الافاق
اشهر واعظم ولانها اشرف واعلم ان ههنا في الحقيقة دلايل
ثلثة اولها السموات السبع الطباق وقد تقدم في الباب المتقدم
كيفية دلالتها على الصانع المختار وثانيها كون القمر نورا وثالثها
كون الشمس سراجا وانه سبحانه وصف الشمس والقمر بانواع من
الصفات الصفة الاولى ذكر كون الشمس سراجا والقمر نورا
في آيات احدها في هذه الايات وقال في يونس هو الذي جعل الشمس
ضياء والقمر نورا وقال في الفرقان تبارك الذي جعل في السماء
بروجا الاية واعلم ان الاستقراء يدل على ان احوال هذا العالم
مختلفة بحسب اختلاف انوار الشمس والقمر فلنبين ذلك في الشمس
اولا ثم في القمر ثانيا اما تاثير انوار الشمس في هذا العالم فمن وجوه
الاول التاثيرات الحاصلة بحسب اليوم والليلة وذلك لانا نرى

جميع الحيوانات في الليل كالميتة فاذا طلع نور الصبح ظهر في
اجساد الحيوانات نور الحيوة فكان طلوع الشمس نفخ في ابدان
الحيوانات قوة الحيوة وكلما كان طلوع ذلك النور اكثر كان ظهور
قوة الحيوة في ابدان الحيوانات اكمل ثم لما طلع قرص الشمس بالتمام
ترى الناس وساير الحيوانات يبتدون بالحركة والقوة والاشتداد
وما دامت الشمس صاعدة الى وسط سماها كانت حركاتهم في
القوة والزيادة فاذا مالت الشمس عن وسط السماء اخذت
حركاتهم في الضعف ولا يزال يتزايد ذلك الضعف الى زمان غيبوبة
الشمس وكلما ازدادت غيبوبة نور الشمس ازداد الضعف
والفتور والنقصان في الابدان الحيوانية وفي القوى المدركة
والمحركة ورجعت الحيوانات الى بيوتها وحجرتها ثم يقع على الارض
كالميتة المعدومة فاذا طلعت الشمس عليهم في اليوم الثاني رجعوا
الى الحالة الاولى من الحيوة وقوة الحركة الوجه الثاني في تاثيرات
الشمس بحسب حركاتها اليومية وبيانه انها لو كانت واقفة في
موضع واحد لاشتدت السخونة في ذلك الموضع واشتد البرد في
ساير المواضع لكنها تطلع في اول النهار من المشرق فيقع على ما يحاذيها
جزء من جانب المغرب ثم لا يزال يدور ويغشي جهة بعد جهة حتى
ينتهي الى طرف المغرب فتشرق حينئذ على الجوانب الشرقية وحينئذ
لا يبقى موضع مكشوف في الشرق والغرب الا ويأخذ حظا من
شعاع الشمس الوجه الثالث في تاثيرات الشمس بحسب الفصول
الاربعة وبيانه انه لو لم يكن للشمس حركة في الميل لكان تاثيرها

مخصوصا بمدار واحد ولكان ساير المدارات تخلو عن المنافع
الحاصلة منها وكان يبقى كل واحد من المدارات الجنوبية والشمالية
على كيفية واحدة فان كانت حارة افنت الرطوبات واحالتها
كلها الى النارية ولم يتكون المتولدات فيكون الموضع المحاذى
لممر الشمس على كيفية الاحتراق والبعيد عنه جدا على كيفية البرد
الشديد والمتوسط ما بينهما على كيفية متوسطة فيكون في
موضع صيف دايم يوجب الاحتراق وفي موضع شتاء دايم
يوجب الجمود والتحجر وفي موضع ربيع دايما وخريف دايم ولا
يتم فيه النضج اما اذا حصل للشمس ميل تارة الى الشمال وتارة
الى الجنوب حصل في كل صقع من نقاع الارض هذه الفصول الاربعة
التي هي معينة على النشو والنماء وحصول مصالح الحيوانات والنبات
الوجه الرابع في تاثيرات حركة الشمس من حيث انها تتم الدورة في سنة
واحدة وذلك لانا لو قدرنا ان الشمس تحرك حركة بطية لكان هذا
الميل قليل النفع وكان لنا تاثير شديد الافراط فكان يعرض قريبا
مما لو لم يكن له ميل ولو كانت حركاتها اسرع من هذه لما كملت المنافع
وما تمت فاما اذا كانت هذه الحركة لا في غاية السرعة ولا في غاية
البطو حصلت المنافع المذكورة الوجه الخامس في تاثيرات
الشمس بحسب قربها من سمت الراس وبعدها عنه اعلم ان كل
موضع تكون الشمس بعيدة جدا عن سمت روس اهله اشتد البرد
فيه وهو مثل الموضعين اللذين تحت القطبين فانه لا يتكون
هناك حيوان ولا ينبت فيه نبات من شدة البرد ويكون هناك

ستة

ستة اشهر نهارا وستة اشهر ليلا وتكون هناك رياح عاصفة
جدا والثلج متواليه ويدل عليه البحر الارمنيين فانها اقرب الى مدار
الشمس من الموضع المذكور بكثير مع انه تشتد فيه الرياح العواصف
وتشتد ظلمة حتى لا يتمكن ركوبه لشدة برده وظلمته ويستدل
عليه ايضا بحر الشام فاذا حصلت الشمس في اوايل العقرب الى ان
تحصل في اوايل الحوت بقي هذه الاشهر الاربعة لا يستطيع الناس
ركوب هذا البحر الوجه السادس في تاثيرات الشمس في احوال
الحيوانات بحسب قربها من سمت الراس وبعدها عنه اعلم ان
الاستقراء يدل على ان السبب الظاهر في اختلاف الناس في اجسامهم
والوانهم واخلاقهم وطبايعهم وسيرهم اختلاف احوال الشمس
في الحركة وذلك لان الناس ثلثة اقسام احدها الذين يسكنون
خط الاستواء الى محاذاة ممر راس السرطان وهم يسمون بالاسم
العام السودان لان الشمس تمر على سمت روسهم في السنة اما
مرة او مرتين فيحرقهم ويسود ابدانهم وشعورهم والذين مساكنهم
في غاية القرب من خط الاستواء فهم الزنج والحبشه والشمس بقوة
تاثيرها في مساكنهم تحرق شعورهم ويسودها وتجعلها جعدة
كثيفه وتجعل وجوههم قحلة وجبهتهم عظيمة واخلاقهم وحشيه
واما الذين مساكنهم في غاية القرب الى محاذاة راس السرطان فالسواد
فيهم اقل وطبايعهم اعدل واخلاقهم احسن واجسادهم اقصف
كاهل الهند واليمن وبعض المغاربة وكل العرب والقسم الثاني الذين
مساكنهم على ممر راس السرطان الى قريب من محاذاة بنات نعش الكبرى

وهم يسمون باسم العام البيضان فهولاء لاجل ان الشمس لا تسامت
روسهم وايضا لا يبعد عن مسامته روسهم بعدا كثيرا لم يعرض
لهم شدة الحر والبرد فلاجرم صارت الوانهم متوسطة ومقادير
اجسامهم معتدله واخلاقهم حسنة كاهل الصين والترك وخراسان
والعراق وفارس والشام ثم هولاء كل من كان اميل الى ناحية
الجنوب كان اتم في الذكاء والفهم لقربه من منطقه البروج وممر
الكواكب المتحيرة ومن كان منهم يميل الى ناحية المشرق فهو اقوى نفسا
واشد ذكاء لان المشرق يمين الفلك ولان الكواكب منه تطلع
والانوار من جانبه تظهر واليمين لا شك انه اقوى ومن كان الى
ناحية المغرب فهم الين نفسا واشد نسيانا واكثر كتما للامور
والقسم الثالث محاذية لبنات النعش وهم الصقالبة والروس
فانه لكثرة بعدهم عن ممر البروج وحرارة الشمس صار البرد عليهم
اغلب والرطوبة الفضليه اكثر لانه ليس هناك من الحرارة ما ينشفها
فلذلك صارت الوانهم بيضاء وشعورهم سبطة شقرا وابدانهم
عظيمة رخصة وطباعهم مايلة الى البرودة واعلم ان كل واحد
من هذين الطرفين وهما الاقليم الاول والسابع يقل العمران
فيه وينقطع بعضه عن بعض لغلبة الكيفيتين الفاعلتين ثم
لا يزال يزداد العمارة في الاقاليم الثاني والسادس والثالث
والخامس ويقل الخراب فيها واما الاقليم الرابع فانه متواصل
العمارات قليل الخراب وذلك لفضل الوسط على الاطراف باعتدال
المزاج الوجه السابع في تاثيرات الشمس بحسب قربها وبعدها

من

من الارض اعلم ان المواضع التي يسامتها حضيض الشمس فهي البراري
الجنوبية وهي محرقة نارية لا يكون فيها حيوان البتة واما البلاد
المتقاربة لتلك المواضع فسكانها كلهم سود الالوان على التفصيل
الذي ذكرناه واما المواضع التي يسامتها اوج الشمس فهي في جانب
الشمال وهي غير محرقة بل معتدلة واعلم ان التفاوت الحاصل
بسبب قرب الشمس من الارض في الحضيض وبعدها عنه في الاوج
ليس بكثير بل قليل ثم ان بسبب ذلك التفاوت القليل صار الجنوب
محرقا فعلمنا بهذا ان الشمس لو صارت الى فلك الثوابت لفسدت
الطبايع من شدة البرد ولو انها انحدرت الى فلك القمر لاحترق
هذا العالم بالكلية فلهذه الحكمة جعل الباري جل ثناؤه الشمس
وسط الكواكب السبعة لتكون حركتها المعتدلة وقربها المعتدلة
وتبقى الطبايع والمطبوعات في هذا العالم على حد الاعتدال فاما
اهل الاقليم الاول فلاجل قربهم من حضيض الشمس كانت سخونة هوائهم
شديدة فلاجرم هم اكثر سوادا لان تاثير الشمس فيهم اكثر واهل
الاقليم الثاني سمر الالوان واما الاقليم الثالث والرابع فاعدل
الاقاليم مزاجا بسبب اعتدال الهواء وايضا فغاية ارتفاع الشمس
انما يكون عند كونها في بعد بعدها عن الارض فلاجرم صار اهل
هذا الاقليم معدن الاشخاص الفاضلة والصور الجميلة واما الاقليم
الخامس فسخونة الهواء هناك اقل من الاعتدال بقدر يسير فلاجرم
صار في حيز البرد والثلوج وصارت طبايع اهلها اقل نضجا من
طبايع اهل الاقليم الرابع الا ان بعدهم عن الاعتدال قليل واما اهل

الاقليم السادس والسابع فاهلها لحول بثول ولغلبة البرد والرطوبة
عليهم اشتد بياض الوانهم وزرقة عيونهم وعظمت وجوههم واستدارت
فقد ظهر ان صور الناس واشكالهم انما اختلفت بحسب اختلاف
احوال الشمس فهذه اشارة قليلة الى كيفية تاثيرات الشمس واما القمر
فتاثيرها من وجوه الاول انا نرى بدان الحيوانات فى وقت زيادة
ضوء القمر يكون اقوى واسخن وبعد نقصانه يكون اضعف وابرد
ويكون الاخلاط التى فى بدن الانسان ما دام القمر زايدا فى
ضوئه فانها تكون ازيد ويكون ظاهر البدن اكثر رطوبة وحسنا
فاذا نقص ضوء القمر تناقصت هذه الاحوال الثانى ان التجارب
الطبية دلت على ان احوال البحرانات مربوطة بزيادة ضوء القمر
ونقصانه الثالث انه يكثر البان الحيوانات فى النصف الاول
من الشهر ويتناقص فى النصف الثانى والرابع ان الانسان اذا
نام فى ضوء القمر حدث فى بدنه نوع من الاسترخاء والكسل وهيج
عليه الزكام والصداع واذا وضعت لحوم الحيوانات مكشوفة تحت
ضوء القمر تغيرت طعومها وروايحها ولاصحاب التجارب اعتبارات
كثيرة من هذا الباب ويكفينا هذا القدر فى بيان منفعة كون الشمس
ضياء والقمر نورا فان قال قايل ظاهر كلامكم فى هذا الفصل مشعر
بان المؤثر فى احوال هذا العالم هو الشمس والقمر وكلامكم فى الفصل
المتقدم صريح فى ان المؤثر هو قدرة الله تعالى فكيف الجمع بين
القولين والجواب اليس انا نقول الخبز مشبع والماء مرو وان كنا
نعتقد ان خالق الشبع والرى هو الله سبحانه فكذا ههنا نقول

اليس

اليس انه تعالى هو الذى خلق الموت والحيوة وقال والذى يميتنى
ثم يحيينى وقال الله يتوفى الانفس حين موتها ثم قال قل يتوفيكم
ملك الموت وكل بكم ثم قال حتى اذا جاء احدكم الموت توفته رسلنا
فحصول الموت والحيوة والوفات منسوب الى الله تعالى بالتخليق
والايجاد ومنسوب الى ملك الموت بالامر بقبض الارواح ومنسوب
الى اتباع ملك الموت لاجل انهم يباشرون اعمالا اجرى الله تعالى
عادته بخلق الموت عقيبها فكذا ههنا الله تعالى اجرى عادته
بخلق الحوادث المختلفة بحسب قرب الشمس وبعدها فتلك
الحوادث منسوبة الى قدرة الله تعالى بالتخليق والايجاد ومنسوبة
الى الشمس على سبيل اجراء العادة الصفة الثانية من صفات
الشمس والقمر كونهما مسخرة قال تعالى فى سورة الاعراف
ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض الى قوله مسخرات
بامره الاية وقال فى الرعد الله الذى رفع السموات بغير عمد
ترونها ثم استوى على العرش الاية وقال فى لقمان الم تر ان الله
يولج الليل فى النهار الاية وقال فى الزمر خلق السموات والارض
يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل الاية واعلم ان هذا
التسخير من وجوه الاول انه مع غاية ثقلها بقيت فى جو السماء
وذلك لا يكون الا بتسخير الله سبحانه وحفظها فى جو الهواء
والثانى انها متحركة بالاستدارة على نهج واحد لا يقع فى تلك
الحركات اختلاف بالبطوء والسرعة ولا بالرجوع والاستقامة
ولا بالارتفاع والانخفاض بل لكل واحد منهما سير مقدر ونهج

مقدر وجهة مقدرة وذلك لا يكون الا بتسخير مسخر وتقدير
مقدر تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا واعلم ان العقول
قاصرة عن معرفة منافع ما لكل واحد من الكواكب من القرب والبعد
والحركة والجهة ولكن العقل لما دل على بعض المنافع والحكم وجب
ان يقاس الباقى عليه فنقطع باذن الله تعالى فى كل واحد منهما
حكما مختصة واسرارا مطوية لا تصل اليها عقول الخلق ولا
ينتهى الى مباديها اوهام الملائكة المقربين فضلا عن افهام البشر
ويكون الغاية القصوى لنا ان يعترف بجلال الله خالقها وكمال
حلمه مدبرها كما قال ربنا ما خلقت هذا باطلا الاية الصفة
الثالثة كون القمر آية الليل وكون الشمس اية النهار كما قال فى
سورة بنى اسرائيل وجعلنا الليل والنهار آيتين الى قوله عدد
السنين والحساب وقال فى يس والشمس تجرى لمستقر لها الى
قوله وكل فى فلك يسبحون فهذه الايات دالة على ان سيرها
وحركاتها محكمة بالغة وعلى ان هذه الحركات ينتهى بالاخرة
الى الانقطاع والسكون فغاية كل متحرك سكون ونهاية كل
متكون ان لا يكون وهذا الذى حكم بان الشمس والقمر لا يدرك
منهما واحد صاحبه انما يكون الان فاما عند انتهائهما الى
الانقطاع فهنالك يجتمعان كما قال فى سورة القيامة وجمع الشمس
والقمر يقول الانسان يومئذ اين المفر فتامل الان فى ضوء
هذه الكواكب ثم اعرف زوال الضوء عنها فى القيامة كما قال تعالى
اذا الشمس كورت واذا النجوم انكدرت وتامل الان فى حركاتها

العجيبة

العجيبة ثم اعرف انها حركاتها الى سكون كما قال يجرى الى اجل مسمى
فهذا جملة الكلام فى صفة الشمس والقمر الحجة الثالثة قوله تعالى
والله انبتكم من الارض نباتا ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا
واعلم انه تعالى رجع ههنا الى دلايل الانفس وهو كالتفسير
لقوله خلقكم اطوارا فانه تعالى بين انه خلقهم من الارض ثم يردهم
اليها ثم يخرجهم منها مرة اخرى واعلم ان كيفية خلقة الانسان
من التراب سيأتى شرحها فى باب خلقة الانسان ان شاء الله
تعالى واعلم ان فى قوله انبتكم من الارض نباتا بحثين الاول
المعنى انبتكم اى انبت الاول لكم من الارض لانه تعالى انما خلق
البشر من النطفة والنطفة متولدة من الاغذية والاغذية
متولدة من النبات والنبات من الارض البحث الثانى كان ينبغى
ان يقال انبتكم من الارض انباتا لكنه لم يقل ذلك بل انبتكم نباتا
والمعنى انبتكم من الارض فنبتم نباتا وفيه دقيقة لطيفة وذلك
لانه تعالى انما ذكر هذا ليستدل به على اثبات الصانع والانبات
صفة الله وتخليقه وصفاته غير محسوسة ولا يمكن الاستدلال
بها على وجود الصانع اما النبات فهى مشاهدة محسوسة فيمكن
الاستدلال بها على وجود الصانع فكان العدول من لفظ الانبات
الى لفظ النبات بهذه الدقيقة اللطيفة الحجة الرابعة قوله والله
جعل لكم الارض بساطا لتسلكوا منها سبلا فجاجا وقد تقدم
شرح صفات الارض فلا نعيده

الفصل السابع

فى شرح مناظرة موسى عليه السلام مع فرعون فى اثبات الصانع

المختار اعلم انا قبل الخوض في شرح تلك المناظرة يقدم مقدمات
لا بد منها المقدمة الاولى ان كتب القصص ناطقة بان فرعون
كان يدعي كونه خالقا للسموات والارض والنبات والحيوان
حتى ذكروا ان ابليس جاء الى دار فرعون وهو في المستراح فقرع
الباب فقال من انت فقال ابليس وهل يخفى على رب الخلق ما وراء
الباب فلما دخل عليه ابليس قال فرعون من اشرنا قال ابليس انت
قال لم قال لاني اطوف الشرق والغرب وكان منتهى امري في آدم
اني قلت انا خير منه واما انت فمع نقصك وتصورك تقول
انا ربكم الاعلى فكيف اكون شرا منك ثم خاف ابليس ان يرجع فرعون
عن طريقته بسبب هذه المناظرة فقال وهل تعرف شرا منا
فقال لا قال الذي يستعمل عمل الآخرة في كسب الدنيا وامثال
هذه الحكايات في كتب التذكير كثيرة واعلم انه يبعد عندي ان يقال
انه كان يدعي انه خالق السموات والارض والجبال والبحار والمعادن
والنبات والحيوان ويدل عليه وجهان الحجة الاولى ان فرعون
وقومه اما ان يقال انهم كانوا عقلاء او مجانين فان كانوا عقلاء
امتنع منه ادعاء كونه خالقا للسموات والارضين لان العلم
بفساد ذلك ضروري وما كان كذلك امتنع وقوع الخلاف فيه
بين العقلاء واما ان قلنا انهم كانوا مجانين فهذا باطل لوجوه
احدها لو كان الامر كذلك لما كان يليق بحكمة الله تعالى ارسال
الرسول اليهم ولا انزال الكتب عليهم وكيف وقال عليه السلام
رفع القلم عن ثلث عن الصبي حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق وعن

وعن النايم حتى يستيقظ والثاني وهو ان مناظرات فرعون
مع موسى يدل على انه كان في غاية الخبث والمكر والدها وهذا
لا يليق بالمجانين والثالث ان ضبط تلك الممالك وتسخير اولئك
الاقوام الكثيرين لا يتاتى من المجنون الحجة الثانية ان ملك فرعون
ما جاوز القبط ولم يبلغ الشام والدليل عليه انه لما هرب موسى
منه الى مدين قال له شعيب لا تخف نجوت من القوم الظالمين
ويقال انه ما كان بين مصر وبين مدين الا ثمانية ايام ومع هذا
القصور في ملك الدنيا كيف يجد العاقل من نفسه ان يدعي كونه
خالقا للسموات والارض فثبت بما ذكرنا فساد هذا الكلام
فان احتج القايلون بذلك القول بانه تعالى حكى عنه انه قال انا ربكم
الاعلى وحكى عنه في سورة القصص انه قال ما علمت لكم من اله غيري
فادعى الربوبية في الاية الاولى والالهية في الاية الثانية وذلك
يدل على ما قلناه والجواب انا بينا بالدلايل القاطعة ان مثل
هذا الانسان اذا كان عاقلا فانه لا يجوز ان يدعي كونه خالقا
للسموات والارضين فلا بد من تاويل لفظ الرب ولفظ الاله فنقول
الرجل لعله كان دهريا يظهر القول بانكار الصانع وكان يقول
الافلاك والكواكب واجبة الوجوب لذواتها وهي المؤثرة في
حوادث هذا العالم واذا كان كذلك فلا امر ولا نهي ولا ثواب
ولا عقاب ولا رسول ولا تكليف ثم انه يجب على ملك البلدان
تقوم بتحصيل مصالح الرعية ويجب على الرعية ان ينقادوا لاوامر
ذلك الملك فاذا كان الملك هو الذي يقوم بمصالحهم ويهتم بتدبيرهم

وتربيهم وبعثي بشانهم وتربيهم وكان ربا ومربيا لهم واذا كان
هو مربيا لهم ومنعما عليهم وجب عليهم ان يكونوا منقادين لاوامره
وتكاليفه معترفين بعبوديته وعباداته واذا كانوا كذلك كان
هو معبودا لهم والاله هو المعبود فكان مراده من ادعاء الربوبية
والالهية هذا المعنى ويحتمل ايضا ان يقال انه كان من الصابئة وهم
الذين يقولون البشر عبيد الكواكب والكواكب عبيد الاله الاكبر
للعالم فلا جرم يجب على البشر عبادة الكواكب ويجب على الكواكب
عبادة الله والقايلون بهذا القول يسمون بالمفوضة واصحاب
الوسايط وهذا القول اقرب والدليل عليه قوله تعالى حكاية
عن قوم فرعون ويذرك والهتك فاثبتوا له الهة وهي اما الكواكب
واما الاصنام وعلى هذا التقدير فقوله انا ربكم الاعلى بمعنى قوله
انتم عبيدي وخدامي وانا عبد الشمس والقمر وهما عبيد الاله
الاكبر وقوله ما علمت لكم من اله غيري معناه ان الهي والهكم هو
الشمس والقمر واله الشمس والقمر هو الاله الاكبر فيرجع حاصل الكلام
الى ان فرعون لعنه الله كان اما من الدهرية واما من الصابية
فاما ان يقال انه كان يدعي كونه خالقا للسموات والارض فهذا غير
لايق باحد من العقلاء المقدمة الثانية انه تعالى حكى عنه في
القصص ما علمت لكم من اله غيري فاوقد لي يا هامان على الطين
وقال في حم يا هامان ابن لي صرحا الاية واعلم ان كثيرا من اهل الاثر
روى انه لعنه الله لما امر ببناء هذا الصرح جمع هامان العملة حتى
اجتمع خمسون الف بناء سوى الاتباع والاجراء وامر باتخاذ الجص

وطبخ الاجر ونجر الخشب وضرب المسامير فشيدوا ذلك الصرح حتى
بلغ مبلغا لم يبلغه بنيان احد من الخلق فبعث الله جبريل عند غروب
الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلث قطع قطعة وقعت على عسكر
فرعون فقتلت الف الف رجل وقطعة في البحر وقطعة بقيت
منهدمة ولم يبق احد من عماله الا وقد هلك ويروى في هذه القصة
ان فرعون ارتقى على ذلك الصرح ورمى بنشابة الى السماء فاراد الله
ان يفتنهم فردت النشابة اليهم ملطوخة بالدم فقال فرعون عند
ذلك قتلت اله موسى فعند ذلك بعث الله جبريل حتى خرب ذلك
القصر وفرعوا على هذه الحكاية وجوها كثيرة من الكلمات واعلم
ان مثل هذا العمل لا يليق بالعقلاء ويدل عليه وجوه الاول ان فرعون
وقومه لما كانوا من العقلاء لا شك انهم كثيرا ما يكونون في اعلى
جبل يكون من اعلاه الى اسفله فرسخا او فرسخان ثم ان كل واحد يرى
السماء من اعلى ذلك الجبل ومن اسفله على قدر واحد من غير تفاوت
البته ومن المعلوم ان وضع بناء يكون مقدار ارتفاعه في السماء
فرسخين كالمتعذر وبتقدير ان يحصل ذلك فانه لا يتفاوت قدر
السماء في الحس بسبب الصعود على اعلاه ومتى كان كذلك فالعاقل
العارف بهذا الامر كيف يليق به ان يبني الصرح حتى يصعد منه
والحجة الثانية ان الذي يقال انه رمى السهم الى السماء فرجع
متلطخا فقال قتلت اله موسى ايضا من السخف الذي لا يليق بالعقلاء
فكيف يليق بالعاقل ايصال السهم الى السماء وبتقدير ان يفعل
ذلك فكيف يمكنه ان يقتل اله موسى بهذا القدر من العمل

فلعل اله موسى كان مستترا بحجاب داخل السماء لا سبيل ليه
للتهم تعالى عن هذه الاوهام الفاسدة علوا كبيرا اما هذه الكلمات
فليست من احاديث العقلاء في شئ وانما هو من سخف ارباب الطامات
الذين غرضهم تشويش قلوب الاغنياء من المستمعين وكلام الله
منزه عنه وعن امثاله ويصير امثال هذه الترهات مشرعا قويا
لمن اراد الطعن في القران بل الصواب عندنا في تفسير هذه الآية
ان هذا الكلام من تتمه قوله ما علمت لكم من اله غيري وذلك
لان الرجل كان دهريا فقال لموسى عليه السلام هذا الاله التي تدعي
وجوده غير مشاهد ولا محسوس ولا دليل ايضا على وجوده فانه
فانه يكفي لحدوث الحوادث الارضية حركات الاجرام الفلكية
واذا كان غير معلوم بالضرورة ولا بالدليل ايضا فكيف يمكن اثباته
فهذا هو مراده من قوله ما علمت لكم من اله غيري ثم قال عند هذا
الكلام على سبيل السخرية يا هامان ابن لي صرحا الاية ومثل
هذا الكلام لا يقال على سبيل التحقيق بل على سبيل الاستبعاد
وبيان انه لا سبيل ليه ونظيره قوله لمحمد عليه السلام فان
استطعت ان تبتغي نفقا في الارض او سلما في السماء فتاتيهم باية
وليس المقصود بيان انه يجب ان يفعل ذلك حتى ياتيهم باية بل الغرض
بيان انه لا سبيل الى ذلك فكذا في هذه الاية فهذا ما عندي
في تفسيرها والله اعلم بمراده المقدمة الثانية ان فرعون
وان كان من المنكرين لوجود الصانع باللسان لكن من الناس
من قال انه كان عارفا بقلبه بربه الا انه كان يظهر الانكار تكبرا

وتجبرا

وتجبرا وعنادا وحتجوا عليه بوجوه الحجة الاولى قوله تعالى
حكاية عن موسى انه قال لفرعون لقد علمت ما انزل هؤلاء الا رب
السموات والارض فمن نصب التا من علمت كان هذا خطابا لموسى
مع فرعون وهذا يدل على ان فرعون كان عارفا بربه الحجة الثانية
قوله تعالى وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلما وعلوا وهذا
صريح في المطلوب الحجة الثالثة قوله في القصص في صفة
فرعون وقومه وظنوا انهم الينا لا يرجعون وهذا يوهم
انهم كانوا مقرين بالمبدا منكرين للمعاد الحجة الرابعة انه لما قال
فرعون وما رب العالمين قال موسى رب السموات والارض
فقال فرعون ان رسولكم الذي ارسل اليكم لمجنون يعني انا اطلب
منه الماهية وهو يذكر ما يدل على الصفة الخارجة عن الماهية
فان الخلاقية صفة خارجة عن الماهية وهذا يدل على ان فرعون
ما نازع في وجود الصانع بل كان يطلب منه الماهية الحجة الخامسة
قال فمن ربكما يا موسى فاجابه موسى بقوله ربنا الذي اعطى كل شئ
خلقه ثم هدى وقال اهل اللغة كلمة الذي تقتضي وصف المعارف
بجمل معلومة وهذا يدل على انه تقرر عند فرعون ان الخلق والهداية
لا بد لهما من قادر فاعل مختار الحجة السادسة قوله في الاعراف
ولما وقع عليهم الرجز الى قوله بني اسرائيل الاية فالقوم لما قالوا لموسى
ادع لنا ربك يكشف عنا الرجز دل على انهم كانوا معترفين بوجود
الاله سبحانه الحجة السابعة انا قد دللنا على ان فرعون كان
عاقلا والا لما حسن بعثة الرسول اليه وتوجه التكليف اليه

ومتى كان من العقلاء شهد تغير احواله في نفسه وبدنه وفي ابايه
واجداده بافتقاره الى صانع حكيم مدبر ولهذا قال تعالى ولئن
سالتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله فهذا ما قيل في هذا
الباب وبالجملة كان كافرا عظيم الكفر سواء كان كفره بسبب الجهل
او بسبب العناد ولما فرغنا من هذه المقدمة فلنرجع الى المقصود
ونقول ان سوال فرعون عن موسى في بيان اثبات الصانع كان
على وجهين احدهما انه سال عن الصانع بكلمة من والثاني انه سال
عنه بكلمة ما اما السوال بكلمة من فهو قوله في طه قال فمن ربكما
يا موسى واما السوال بكلمة ما فهو قوله تعالى في سورة الشعراء
حكاية عنه وما رب العالمين وقبل الخوض في التفسير لا بد من بيان
الفرق بين السوالين فنقول المطلوب من سوال من التعين الحاصل بسبب
الصفات العرضية يقال من هذا الرجل فنقول في جوابه انه فقيه
عربي وما يجري مجرى هذه الصفات واما المطلوب بسوال ما
فهو التعين الحاصل بسبب الماهية ومقدمات الحقيقة تقول
ما هذا الشي فيكون جوابه انه جسم وجوهر او غير ذلك واذا عرفت
هذا فنقول علمنا بصفات الله من علمه وقدرته وارادته مقدم
على علمنا بحقيقة ذاته المخصوصة وكنه ماهيته وذلك لان
العلم بكنه الحقيقة اما ان لا يحصل البتة للبشر وان امكن حصوله
للبشر الا ان هذه المرتبة تكون متاخرة عن العلم بقدرته وعلمه
بل كنه حقيقته المخصوصة متقدم بالرتبة على صفاته لان الذات
موصوفة والموصوف متقدم بالمرتبة على الصفة الا ان المحكي عنه

في

في القران هو كيفية التوسل بالدلايل الى معرفة الله تعالى واذا كان
كذلك كان السوال بمن متقدم على السوال بما فلا جرم داعي الله هذا
الترتيب فذكر السوال بمن في سورة طه وذكر السوال بما في سورة
الشعراء وهذا سر عجيب ولنذكر البحث عن هذين الموضعين الموضع
الاول قوله في طه قال فمن ربكما يا موسى وفيه سوالات الاول
لم قال فمن ربكما ولم يقل فمن الهكما الجواب لانه اثبت نفسه ربا
لموسى وهو قوله الم نربك فينا وليدا فذكر ذلك التعجيز كانه قال
انا ربك فلم تدعي ربا اخر وهذا الكلام يشبه كلام نمرود وذلك
لان ابرهيم لما قال ربي الذي يحيي ويميت قال نمرود انا احيي واميت
ولم يكن الاحياء الذي ذكره شبيها بالاحياء الذي تمسك به ابرهيم
عليه السلام الا في اللفظ فكذا ههنا لما ادعى موسى عليه السلام
ربوبية الله عز وجل ذكر فرعون كونه ربا لموسى وما كان بين الربوبية
التي ذكرها موسى وبين الربوبية التي ذكرها فرعون مشابهة الا
في اللفظ السوال الثاني ان فرعون طول المناظرة في سوال ما ولم
يطول في سوال من فما الفرق الجواب الفرق ما ذكرنا ان المطلوب في
سوال من معرفة الصفات وهذا مقام واضح ليس فيه شيء من
المشابهات كما قال تعالى ولئن سالتهم من خلق السموات والارض
ليقولن الله فلا جرم ترك فرعون فيه التطويل اما المطلوب بسوال ما
فهو كنه الماهية وذلك مقام صعب فلهذا السبب طول فيه المناظرة
السوال الثالث ان فرعون قال بعد هذا الكلام فما بال القرون
الاولى واي تعلق لهذا الكلام بما قبله ثم ان موسى اجاب عنه بقوله

علمها عند ربي في كتاب الاية ثم عاد مرة اخرى الى ذكر الدلايل الدالة
على اثبات الصانع وهو قوله الذي جعل لكم الارض مهدا الاية فكيف
وقع ذلك الكلام الاجنبي في البين الجواب انا قد بينا ان الدلايل
الدالة على اثبات الصانع وقدرته وعلمه وحكمته في غاية القوة
والظهور ولا يمكن القاء شيء من الشكوك والشبهات فيه فلما طالبه
فرعون بسؤال من كان جواب موسى في غاية الظهور وعجز فرعون
عن القاء الشكوك والشبهات فيه فاراد ان يصرفه عن ذلك الكلام
ويشغله بكلام اجنبي عنه كيلا يظهر قوة كلامه فساله عن تواريخ
المتقدمين فعرف موسى عليه السلام ان غرضه تشويش ذلك
الكلام عليه فلم يلتفت اليه بل دفعه بقوله قال علمها عند ربي
في كتاب الاية يعني لا فايدة لنا في هذا السؤال والجواب ثم رجع
الى تقرير كلامه الاول فقال الذي جعل لكم الارض مهدا فتامل
ههنا في سعي المبطلين في اخفاء الحق وانظر الى قوة قلب المحققين
وعدم التفاتهم الى لغوهم وجهلهم ومن انصف علم ان كل اية
من هذا الكتاب الكريم معجز ظاهر فضلا عن كل هذا الكتاب السؤال
الرابع ما وجه دلالة قوله ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى
على وجود الصانع والجواب اعلم ان هذا هو الدليل الذي حكاه الله
تعالى عن ابرهيم في قوله الذي خلقني فهو يهدين وهو الذي ذكره
الله تعالى لمحمد عليه السلام في سبح اسم ربك الاعلى الذي خلق فسوى
والذي قدر فهدى وتقرير هذا الدليل على سبيل التفصيل ان الخلق
عبارة عن تركيب القوالب والابدان والهداية عبارة عن ابداع القوى

المدركة

المدركه والمحركة في تلك الابدان وخلق جوهر الابدان متقدم
على ابداع القوى فيها ولذلك قال تعالى فاذا سويته ونفخت فيه
من روحي فالتسوية للقالب ونفخ الروح عبارة عن ابداع القوى
فيه وقال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الى قوله
خلقا اخر فظهر ان الخلق يتقدم على الهداية فلهذا المعنى قدم الله
الخلق في الذكر على الهداية ثم اعلم ان الشروع في شرح عجايب
حكمة الله تعالى في الخلق والهداية شروع في بحر لا ساحل له ومن
اراد تصنيفا مشتملا على جميع تلك الوجوه فذلك التصنيف هو جميع
عالم الاجسام والارواح اما عالم الاجسام فخذ من اعلى سطح العرش
الى اسفل سطح الثرى وغص بفكرك في كل ذرة من ذراتها فانك تجد
تلك الذرة في دلالته على كمال قدرة الله وحكمته بحرا لا ساحل له
فمن الذي يمكنه ان يعرف كيفية تخليقه لبدن البعوضة وتركيب
اعضايها وتاليف بعضها وتاليف العظام والعروق والاعصاب
ونفخ الروح فيها وابداع الحواس الخمسة والذهن والتميز فيها واذا
عجز عقلك عن معرفة البعوضة فاين انت من معرفة حكمة الخلق
والهداية في اجزاء السموات والارضين وقال تعالى لخلق السموات
والارض اكبر من خلق الناس ثم اذا عرفت ضعف عقلك في عالم
الاجسام فانتقل منه الى عالم الارواح واعلم ان عالم الاجسام
في عالم الارواح كالقطرة في البحر فكيف يمكنك تفاصيل عالم
الارواح مع انك عاجز عن معرفة روحك حيث قال وما اوتيتم
من العلم الا قليلا فعند هذا تشاهد عجزك وقصورك عن معرفة

اقل الاشياء وعن الاحاطة با قل شاهد من شواهد جلال الله
ودلايل قدسه وعزته وهذا آخر مقام الصديقين كما قال ولو
ان ما في الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة ابحر
ما نفدت كلمات الله وان اردت امثلة هذا المعنى فتامل في الابواب
المتقدمة المشتملة على عجايب خلق السموات والارضين والحيوان
والنبات اما الموضع الثانى وهو السوال بما على ما ذكره الله تعالى
في سورة الشعراء وفيه اسرار واعلم ان هذا البحث لا يمكنه الا
بتقديم مقدمة عقلية وهي انه اذا كانت حقيقة من الحقايق
مجهولة فتعريفها اما ان يكون بنفسها او بما يكون داخلا فيها
ومقوما لها او بما يكون خارجا عنها ولاحقا بها او بما يتركب
عن القسمين اعنى الامور الداخلة والخارجة اما تعريفها بنفسها
فمحال لان المعرف معلوم قبل المعرف فتعريف الشئ بنفسه
يقتضى تقدم الشئ على نفسه وهو محال واما تعريف تلك الحقيقة
بالامور الداخلة في قوام الماهية فهذا في حق واجب الوجود محال
لوجهين الاول ان هذا انما يتاتى في الحقيقة التي تكون مركبة
من اجزاء وذلك في حق واجب الوجود محال لان كل مركب فهو محتاج
الى كل واحد من اجزايه وكل واحد من اجزايه غيره فكل مركب فهو مفتقر
الى غيره وكل مفتقر الى غيره فهو ممكن لذاته فما ليس بممكن لذاته فهو
غير مركب من الاجزاء واذا لم يكن مركبا من الاجزاء فانه يمتنع
تعريفه باجزايه والثاني انه بتقدير ان يكون واجب الوجود
مركبا من الاجزاء الا ان اجزاء ماهيته غير معلومة فيمتنع تعريفه

باجزايه ولما ثبت فساد هذين القسمين ثبت انه لا يمكن تعريف
واجب الوجود الا بلوازمه واثاره ثم ان تلك اللوازم والاثار
قد يكون خفية وقد يكون جلية ولا يجوز تعريف الحقايق
باللوازم الخفية بل لا بد من تعريفها باللوازم الجلية واظهر اثار
واجب الوجود ونتايج قدرته وحكمته هو هذا العالم المحسوس
وهو السموات والارض وما بينهما واذا عرفت هذه المقدمة
فنقول ان فرعون لما سال بسوال من في قوله فمن ربكما يا موسى
ووجد كلام موسى في غاية القوة عدل عن ذلك السوال الى سوال آخر
وهو المسؤل بما لان الجواب عن هذا السوال في غاية الصعوبة
وبه يمكن القاء الشبهات فيه فقال وما رب العالمين قال رب
السموات والارض وما بينهما ان كنتم موقنين والمعنى انكم لما
سلمتم في الجواب عن السوال الاول وهو السوال بلفظه من وجوب
انتهاء هذه المحسوسات الى موجود واجب الوجود لذاته فثبت
ان واجب الوجود لذاته فرد مطلق منزه عن الكثرة في حقيقته
وماهيته وثبت ان الفرد المطلق المنزه عن الكثرة من جميع الوجوه
لا يمكن تعريف حقيقته الا بذكر لوازمه وآثاره الظاهرة الجلية
وثبت ان اظهر آثار واجب الوجود لذاته هذا العالم المحسوس
ثبت انه لا يمكن تعريف حقيقته وذاته المخصوصة الا بذكر انه
خالق هذه السموات والارضين فقوله ان كنتم موقنين معناه
ان كنتم موقنين بحقيقة هذه المقدمات فاعلموا انه لا جواب
لسوالكم الا هذا الذي ذكرت ولما ذكر موسى عليه السلام هذا

هذا الجواب الحق قال فرعون لمن حوله الا تستمعون اظهر التعجب
من كلام موسى يعنى انا اطلب الجواب الدال على الماهية وهو يذكر
الجواب الدال على الصفة وهو جواب لسوال بمن وانا اطلبه
جواب السوال بما فاين احدهما عن الاخر وتمام الاشكال ان تعريف
الماهية بلوازمها لا يفيد الا بعد معرفة نفس تلك الماهية لانا
اذا قلنا فى تعريف شىء انه الذى يلزمه اللازم الفلانى فهذا يتوجه
عليه سوال وهو ان تلك الحقيقة هل هى معلومة ام لا فان
كانت معلومة فلا حاجة الى تعريفها بذكر هذا اللازم وان لم
تكن معلومة فكيف يعلم انها يلزمها هذا اللازم لان قولنا
يلزمها هذا اللازم تصديق والتصديق مسبوق بالتصور فلو
كان التصور مستفادا من هذا التصديق لزم الدور فثبت ان
قوله رب السموات والارض لا يصح جوابا عن قوله وما رب العالمين
فعند هذا اجاب موسى عليه السلام بقوله ربكم ورب ابائكم
الاولين فكانه عدل عن تعريف تلك الحقيقة بخالقية السماء
والارض الى تعريفها بكونه خالقا لنا ولابائنا وذلك انه لا يمتنع
ان يعتقد احد ان السموات والارض واجبة لذاتها فهى غنية
عن الخالق الموجد الى ان يظهر فساد هذا الاعتقاد بالبرهان ولكنه
لا يمكن ان يعتقد احد فى نفسه وفى ابائه واجداده كونهم واجبة
الوجود لذاتها لان المشاهدة دلت على انهم وجدوا بعد العدم
وعدموا بعد الوجود وما كان كذلك كان ممكنا محدثا فيظهر
جدا افتقاره الى المرجح والموجد فلهذا السبب عدل موسى عليه السلام

عن الكلام الاول الى هذا الكلام فعند هذا قال فرعون ان رسولكم
الذى ارسل اليكم لمجنون والمعنى انه رسالته عن الماهية فاجاب
بذكر الصفة فلما انكرت عليه هذا الجواب ذكر جوابا مثل الجواب
الاول فان المذكور فى الجوابين هو صفة الخالقية وذكر الصفة
لا يصلح جوابا عن سوال الطالب للماهية فهذا مجنون بحيث
لا يفهم السوال بعد التكرير عليه مرة بعد اخرى قال موسى رب
المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون فعدل الى طريق
آخر اوضح مما تقدم وذلك لان الجواب الاول اشارة الى دلايل
الآفاق والجواب الثانى اشارة الى دلايل الانفس وهذا الجواب
الثالث مركب من دلايل الآفاق والانفس معا لان قوله رب
المشرق والمغرب اشارة الى دلايل الآفاق وقوله وما بينهما
اشارة الى دلايل الانفس فاذا تاملت فيه علمت ان موسى عليه السلام
لم يترك فى عالم المحسوسات شيئا يدل على الله الا وقد ذكره لان
دلالة عالم المحسوسات شيئا يدل على الله الا وقد ذكره لان
دلالة عالم المحسوسات على الله تعالى اما من الآفاق ومن الانفس
او منهما معا واعلم انه اراد بالمشرق طلوع الشمس وظهور النهار
وبالمغرب غروب الشمس وظهور الليل والامر ظاهر فى ان هذا
التدبير المحكم العجيب لا يحصل الا بتدبير مدبر قاهر حكيم سبحانه
وهذا بعينه طريقة ابرهيم عليه السلام نمرود فانه قال
ربى الذى يحيى ويميت وهو الذى قاله موسى عليه السلام
فى قوله ربكم ورب ابائكم الاولين ثم لما طالب نمرود تمام الدلالة

قال ابرهيم فان الله ياتي بالشمس من المشرق فات بها من المغرب
وهو عين قول موسى عليه السلام رب المشرق والمغرب وما بينهما
واعلم ان موسى انما قال ههنا ان كنتم تعقلون لانه لما ثبت بالبرهان
القاهر انه لا يمكن تعريف الحقيقة بنفسها ولا يمكن تعريف حقيقة
واجب الوجود باجزايه ولما ثبت انه فرد صمد منزه عن التركيب ولا
يمكن ايضا تعريفه بما يتركب عن الداخل والخارج لانه يقتضي كون
تلك الماهية مركبة ولما بطلت هذه الاقسام الثلثة لم يبق طريق الى
تعريف تلك الحقيقة الا بذكر لوازمها وآثارها الظاهرة فكانه عليه السلام
قال ان كنتم من العقلاء وممن يفهم الكلام ويميز بين الحق والباطل
فاعلموا انه لا سبيل الى تعريف حقيقة الا بهذا الطريق الذي ذكرت
وهذا اخر هذه المناظرة وهو في غاية الشرف والجلالة واعلم ان من
فوايد هذه المناظرة انها تدل على انه تعالى ليس جسم ولا متحيز ولا
متشكل لانه لو كان كذلك لكان الجواب الكاشف عن الماهية ممكنا
فرعون حقا ولما كان القول بذلك باطلا علمنا انه منزه عن الجسمية
والجوهرية والحيز وبالله التوفيق ولما كان ختم هذه المناظرة على
التمسك بشروق الكواكب وغروبها فلنذكر ههنا كيفية هذه الدلالة

الفصل الثامن في شرح كيفية دلالة الشروق والغروب
على وجود الصانع الحكيم اعلم انه ذكر كيفية الشروق والغروب
في ايات احدها انه ذكر بلفظ الواحد فقال رب المشرق والمغرب
وثانيها انه ذكر بلفظ التثنية فقال رب المشرقين ورب المغربين
وثالثها ذكر بلفظ الجمع فقال رب المشارق والمغارب ومنها انه

تعا

تعالى عبر عن الشروق والغروب بعبارة اخرى فقال والليل اذا
عسعس والصبح اذا تنفس وقال في سورة الفلق قل اعوذ برب
الفلق وهو اشارة الى زمان الطلوع ثم قال ومن شر غاسق اذا وقب
وهو اشارة الى زمان الغروب ومنها انه تعالى خص اول زمان الطلوع
بالذكر فقال فالق الاصباح وجاعل الليل سكنا الاية وخص اخر زمان
الغروب بالذكر فقال والنجم اذا هوى قال ابرهيم عليه السلام
لا احب الافلين وههنا مباحث البحث الاول وهو ان الطلوع
والغروب حالتان عجيبتان يدلان على الافتقار الى الخالق المدبر
الحكيم وذلك لانا اذا نظرنا الى الكوكب اول طلوعه من افق المشرق
فانه يطلع مستنيرا ممتلا لا مثل النار وليس في نوره كدورة ولا غبرة
ولا ظلمة واذا نظرنا اليه وهو في افق المغرب نراه قد ذهب نوره
ورونقه حتى ان الشمس مع عظم جرمها وكمال نورها اذا قربت
من الغروب فانه يذهب نورها ورونقها واذا اعتبرنا هذه الاحوال
علمنا ان اول طلوع الكوكب يشبه ولادة الصبي ولذلك ان اهل
النجوم جعلوا الدرجة الطالعة من الفلك دليل الحيوة فلو كان ان
الولد ظهر في هذا العالم بعد ان كان غير ظاهر كذلك ظهرت هذه الدرجة
في تلك الساعة بعد ان كانت غير ظاهرة فلما حصلت المشابهة
بينهما من هذا الوجه حصلت تلك الدرجة دليلا على حيوته ثم ان
الكوكب بعد طلوعه يزداد كل لحظة تصاعدا وقوة ونورا واستعلا
وكمالا ولا يزال كذلك الى ان يقرب من وسط السماء والى هذا الوقت
يشبه حاله حال الادمي في زمان النشو والنماء ثم اذا قربت الشمس

من وسط السماء فهنالك تبقى زمانا على حالة واحدة لا يشاهد
فيها اثر الارتفاع ولا اثر الانحفاض وهذه الحالة من الشمس
وساير الكواكب يشبه حال الانسان في زمان الشباب ومدة
الوقوف وهي المدة التي لا يظهر فيها زيادة ولا نقصان ثم ان الشمس
والكواكب بعد ذلك يقع في الربع الغربي من الفلك ولا يزال ياخذ
الانحطاط قليلا قليلا الا انه لا يظهر بسبب ذلك الانحطاط نقصان
في نورها وقوتها وحرارتها وهذه الحالة من الكواكب يشبه حال
الانسان في سن الكهولة وآخر هذا الوقت هو اول وقت العصر
ثم من بعد صلوة العصر ياخذ قوة الشمس في النقصان الظاهر والانحطاط
البين فينتقص نوره ويقل ضوؤه ويعظم امتداد ظله ولا يزال يتزايد
هذه النقصانات الى ان وصل الكوكب الى افق المغرب وهذه الحالة
من الشمس والكواكب يشبه حالة الانسان في سن الشيخوخة واما
غروبها في افق المغرب فلا يكون الا بعد ذهاب نورها واصفرار لونها
ونقصان قوتها وارتعاش ذاتها وسقوطها في النظر على وجه الارض
ثم انها تغرب فتصير كانها قد بطلت وهذه الحالة يشبه حال الانسان
عند الموت فانه اولا يذهب نور وجهه ويبطل حسن صورته ويصفر
لونه ويضعف قواه وياخذ الارتعاش والضعف ثم يسقط
على وجه الفراش بحيث لا يمكنه ان يرفع راسه ثم انه بعد ذلك
يموت فهذه الاحوال الاربعة للشمس والقمر وساير الكواكب يشبه
الاحوال الاربعة لكل حيوان ونبات اعني سن النموء والوقوف
والكهولة والشيخوخة ثم حصول الموت بعد ذلك ثم ان الشمس

اذا غربت بقيت اثارها في افق المغرب وهو الشفق ثم بعد ذلك
يزول ذلك الشفق ولا يبقى في هذا العالم من اثار الشمس شيء البتة
وهذا يشبه ان الانسان اذا مات يبقى بعد موته ذكره واثاره
اياما قليلة ثم انه يبطل ذلك الذكر وتلك الاثار ولا يبقى في الدنيا
منه اثر ولا خبر فهذه الاحوال الخمسة للشمس يشبه الاحوال
الخمسة للانسان فلهذا السبب وجب لشارع الحكيم الصلوة
الخمسة في هذه الاوقات الخمسة فما احسن هذا الترتيب وما
اشد مطابقة الحكمة الشرعية النبوية للحكمة العرشية
الروحانية واعلم انك متى تاملت في جميع الاجرام العلوية والسفلية
والابداعية والعنصرية ظهر لكل عاقل انها عند الشروق
والتصاعد اخذت في الكمال بعد ان كانت ناقصة وعند الانحدار
من وسط السماء الى نهاية الغروب اخذت في النقصان بعد ان كانت
كاملة وتوارد هذه النقصانات بعد الكمالات والكمالات بعد
النقصانات على سبيل الدوام والاستمرار تدل على انه ليست كمالاتها
لها بذاتها ولا نقصاناتها لها من نفسها بل هي تحت تسخير مسخر
وتدبير مدبر قاهر يتصرف فيها بقدرته ويجريها على حسب ارادته
ومشيته له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين البحث الثاني
في الشروق والغروب وهو ان حال ما يأخذ ذلك الكوكب في الغروب
ترى كوكبا آخر في مقابلته من افق الشرق اخذا في الطلوع وترى
كوكبا آخر قد طلع وهو آخذ في الارتفاع والتصاعد وكوكبا آخر
قد بلغ وسط السماء وكوكبا آخر قد بلغ في الربع الغربي وقرب من الغروب

واذا اعتبرت هذه الاحوال تريها متشابهة لاحوال الخلق في
هذا العالم فانسان يموت يولد وثالث في تلك الساعة يكون
طفلا ورابع شاب وخامس كهل وسادس شيخ وكما ان كواكب
السماء مختلفة الاحوال فبعضها سعد وبعضها نحس وبعضها
قوى النور وبعضها ضعيف النور وبعضها قريب من وسط الفلك
وبعضها واقع في طرف الفلك وبعضها في الشرف وبعضها في الوبال
والهبوط والخلو عن الحظوظ فكذلك ترى اشخاص هذا العالم بعضهم
في السعادة وبعضهم في النحوسة وبعضهم في الغنى وبعضهم في الفقر
وكذا القول في الدولة والعلو والذلة والسقوط وكما ان مدبر
العالم العلوى دبر نظام تلك الكواكب مع اختلافها في الطلوع
والغروب والنورانية والضعف من غير ان يختل شيء من احوالها
دبر احوال اشخاص العالم السفلى مع اختلافهم في السعادة والشقاوة
والغنى والفقر وعند هذا يلوح لك شمة من اسرار قوله كل يوم هو
في شان وقوله لا يشغله شان عن شان وقوله يدبر الامر من السماء
الى الارض ثم يعرج اليه الآية وتمام الكلام في هذه المباحث العميقة
ما اليه الاشارة بقوله ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض
في ستة ايام ثم استوى على العرش يغشى الليل والنهار يطلبه حثيثا
والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره اشارة الى ما ذكرنا من كيفية
التسخير والتدبير وقوله الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين
فيه سر عجيب وحكمة عالية وهي انك لما شاهدت في اجزاء السموات
والارض والكواكب آثار التسخير والتدبير يقع في قلبك ان تعرف

وجه الحكمة في كل واحد منها على سبيل التفصيل فحينئذ يقال لك
قف في درجتك ولا تتعد طورك ولا يلق عقلك في بحر الاشكال
ولا تتكلف نفسك صعود جبل لا نهاية له ولا تطمع في الوصول
الى ما فوق فهمك ووهمك وعقلك وروحك فانك لست من
رجال هذه الاسرار ولا في حد قوة عقلك قوة الاطلاع على هذه
الانوار ولكن اعترف لنفسك بالعجز والذلة والقصور بخالق
هذه الموجودات على سبيل الاجمال بغاية الجلالة ونهاية الكبرياء
وقل الا له الخلق والامر والحكمة والعزة والعلو والسلطان
والكبرياء تبارك الله رب العالمين ومدبر الاجساد والارواح
والعلويات والسفليات اجمعين ثم اذا تركت الخوض في ذلك
التفصيل واعترفت بهذا التعظيم على سبيل الاجمال فعند هذه
الحالة ارجع الى نفسك واعرف بحال عجزك وقصورك واشتغل
بالدعاء والتضرع فهنا غاية درجات الصديقين ونهاية خطرات
افكار العارفين وليس وراها للعقول مطال ولا للافكار لديه مجال
واليه الاشارة بقوله تعالى في اخر هذه الآية ادعوا ربكم تضرعا
وخفية فما اجل هذه التلويحات التي اشتمل عليها القرآن العظيم
وما اشرف هذه الرموز الحاصلة في مطاوى آيات الذكر الحكيم فوالله
الذي لا اله الا هو انه لا يخطر ببال هذا المسكين الكاتب لهذا الكتاب
ولا يدور في خياله طريق احسن ولا انفع ولا اجذب للارواح
البشرية والعقول الانسانية الى حضرة القدس الاحد الصمد
من هذه البيانات الالهية والاسرار العلوية ونظير هذه الآية

قوله فی آخر آل عمران ان فی خلق السموات والارض الی قوله فقنا
عذاب النار وقوله ویتفکرون فی خلق السموات والارض اشارة
الی وقوع العقل فی هذا البحر لا ساحل له وقوله ربنا ما خلقت
هذا باطلا اشارة الی منع العقل من طلب هذه التفاصیل فیجب ان
یقتصر علی الثناء المجمل والتعظیم المجمل وقوله فقنا عذاب النار
اشارة الی الاشتغال بالدعاء والتضرع عقیب هذه الحالة البحث
الثالث فی الاستدلال بکیفیة الطلوع والغروب علی وجود الخالق
المدبر اعلم ان التعبیر عن المشرق والمغرب بلفظ الوحدان اشارة
الی مشرق الشمس ومغربها واما قوله رب المشرقین ورب المغربین
فالمراد طلوع الشمس والقمر وغروبهما واما قوله رب المشارق
والمغارب ففیه قولان الاول ان المراد منها طلوع الشمس والقمر
والنجوم والثانی المراد منها مطالع الشمس ومغاربها وذلك لان
الشمس من اول الیوم الذی یکون فی النقطة الاولی من السرطان
وهو الیوم الاول من الصیف الی ان تحصل فی النقطة الاولی من الجدی
وهو الیوم الاول من الشتاء ومجموعه ستة اشهر تطلع الشمس
کل یوم من مطلع آخر وذلك مایة وثمانون مطلعا ثم انها من اول
الشتاء الی اول الصیف وهو ایضا ستة اشهر ترجع فتطلع
من تلك المطالع باعیانها ولما کان للشمس مایة وثمانون مشرقا
ومایة وثمانون مغربا کان المراد من قوله رب المشارب و
المغارب واذا عرفت هذا فنقول الاستدلال باحوال المشارق
والمغارب علی الخالق المدبر الحکیم فی غایة الظهور وذلك لان

هذه الاجسام الفلکیة والاجرام الکوکبیة لا یمکن ان یکون
حرکاتها لنفس طبایعها ویدل علیه وجوه الاول ان الاجسام
متساویة فی الجسمیة وتمام الماهیة وحکم الاشیاء المتساویة
فی الذات وتمام الماهیة التساوی فی اللوازم والاحکام واذا کان
کذلك فکل ما صح علی واحد منها صح علی الباقی واذا کان کذلك کان
اختصاص کل فلك وکوکب بطبعه وحیزه وشکله وحرکته لا بد
وان یکون لاجل القادر المختار الحجة الثانیة ان الشیء الذی
یکون مهروبا عنه بحکم الطبیعة یمتنع ان یکون مطلوبا بمقتضی
نفس تلك الطبیعة وههنا الاجرام الفلکیة متحرکة بالاستدارة
وکل ما کان متحرکا بالاستدارة فان کل نقطة تفرض کونها مهروبا
عنها فان الهرب عنها هو نفس طلبها ونفس التوجه الیها فثبت ان هذه
الحرکات لیست بالطبیعة الحجة الثالثة لو کانت هذه الحرکات
طبیعیة لوجب ان یکون شروقها وغروبها علی نهج واحد وطریقة
واحدة لان ما یکون من توابع الطبیعة وجب بقاؤها وعدم تغیرها
لکنا بینا ان الشمس تطلع کل یوم من مشرق آخر وتغرب فی مغرب آخر فثبت
بهذه الدلایل ان حرکات هذه الافلاك لیست لها من ذواتها وطبایعها
فلا بد وان یکون بتدبیر مدبر وتقدیر مقدر وقهر قاهر یحرکها علی حسب
مشیته ومقتضی ارادته فتبارك الله رب العالمین فان قیل
لم لا یقال ان حرکاتها بسبب انها احیاء مختارة قلنا هب ان الامر
کذلك الا ان علی هذا التقدیر یکون کل واحد منها مخصوصا باختیار
خاص وارادة خاصة فیعود طلب العلة لذلك الاختصاص ولا ینقطع

الطلبات ولا تزول الحاجات الا عند الانتهاء الى القضاء الالهي
والتقدير الازلي السرمدي تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا
ومن الايات الواردة في هذا الجنس من الكلام قوله تعالى فلا اقسم
بالخنس الجوار الكنس الاية والخنس جمع خانس والخنوس الانقباض
والاستخفاء يقال خنس من بين القوم وفي الحديث الشيطان يوسوس
الى العبد فاذا ذكر الله خنس اي انقبض منه فلذلك يسمى الخناس والكنس
جمع كانس وكانسة يقال كنس اذا دخل الكناس وهو مقر الوحش يقال
كنست الظبا اذا دخلت كناسها وتكنست المراة الكنيسة اذا دخلت
هودجها تشبه بالظباء اذا دخل الكناس واذا ثبت هذا فنقول
المعتبرون من المفسرين ذكروا في الخنوس والكنوس وجهين الاول
ان ذلك اشارة الى رجوع الكواكب السبعة واستقامتها فرجوعها
هو الخنوس وكنوسها اختفاؤها تحت ضوء الشمس ولا شك ان هذه
حالة عجيبة وفيها اسرار عظيمة باهرة ولهذا المعنى اقسم الله بها والقول
الثاني ما روي عن علي رضي الله عنه واختاره مقاتل وقتادة انها
هي جميع الكواكب وخنوسها عبارة عن غيبوبتها عن البصر في النهار
وكنوسها عبارة عن ظهورها للبصر في الليل وعندي فيه وجه ثالث
وهو ان هذه الكواكب السبعة السيارة تختلف مطالعها ومغاربها
على ما فسرناه وشرحناه ولا شك ان لها مطلعا واحدا ومغربا
واحدا وهما اقرب المشارق والمغارب الى سمت رؤسنا انها تاخذ
في التباعد عن ذلك المطلع الى ساير المطالع حتى تصل الى غاية بعدها
عن سمت رؤسنا فخنوسها عبارة عن تباعدها عن هذا المطلع الذي

هو اقرب المطالع الى سمت الراس وكنوسها عبارة عن عودها اليه
فعلى التفسير الاول يكون القسم واقعا بالخمسة المتحيرة وعلى
القول الذي ذكره امير المومنين رضي الله عنه يكون القسم واقعا
بجميع الكواكب سواء كانت من السيارات ومن الثوابت واعلم
انه تعالى لما اقسم بها دل ذلك على اختصاص الكواكب باسرار عجيبة
واحوال شريفة لا تصل العقول البشرية اليها على ما حققنا الكلام
فيه في تفسير قوله الذين يذكرون الله قياما وقعودا الى قوله
فقنا عذاب النار ومما يدل انه تعالى ابتدا من اعمال الصديقين
بالذكر فقال الذين يذكرون الله قياما وقعودا ثم انهم يصلون
من الذكر الى الفكر واليه الاشارة بقوله ويتفكرون في خلق
السموات والارض وههنا اشكال وهو انه تعالى قال في الذكر
الذين يذكرون الله فجعل الذكر المعتبر اللايق بهذا المقام ذكر الله
لا ذكر غيره ثم جعل نهاية هذا الذكر الفكر فكان يجب ان يكون
هذا الفكر هو الفكر في الله لكنه لم يفعل ذلك بل جعل الفكر اللايق
بهذا المقام الفكر في خلق السموات والارض وهذا اشتغال
بغير الله فكيف يعقل ان يجعل ذكر الله اولا ومبدا والفكر في غير
الله غاية وكمالا والجواب انا بينا في مناظرة موسى مع فرعون
ان الفكر في الله ممتنع ولانه لا يمكن التوصل الى جلال الله وعظمته
الا بالنظر في مخلوقاته ومبدعاته وهذا متاكد بقوله تفكروا
في الخلق ولا تتفكروا في الخالق ولما كان اشرف مخلوقاته المحسوسة
هو عالم السموات والارض كما قال لخلق السموات والارض اكبر

من خلق الناس لاجرم جعل الغاية القصوى كنه افكار المقربين
ونهاية العظمى لغاية انظارهم ان يتفكروا فى عجايب خلق السموات
والارض ثم انا بينا فيما قبل ان الخاطر اذا وقع فى هذا الموضع
كان الاولى ردعه عنها ومنعه عن الخوض فيها والاقتصار
على الثناء المبهم والتعظيم كما فى قوله فى الاعراف والشمس والقمر
والنجوم مسخرات بامره ثم قال بعده الا له الخلق والامر تبارك الله
رب العالمين وهذا هو الثناء ثم قال بعده ادعوا ربكم تضرعا
وخفية وهذا الدعاء وقال فى آل عمران ويتفكرون فى خلق
السموات والارض ثم قال بعده ربنا ما خلقت هذا باطلا
سبحانك فهذا هو الثناء ثم قال فقنا عذاب النار وهذا هو
الدعاء فهذه الدرة التى وجدناها فى قعر بحر القران وهى اشرف
المطالب واعظم الرغايب وما ذلك الا بتوفيقه وهدايته
وما هو الا من فضل ربى ليبلونى اشكر ام اكفر فيا رب الارباب
واله الالهة زدنا من فضلك واحسانك يا ارحم الراحمين اما
قوله والليل اذا عسعس قال اهل اللغة عسعس من الاضداد
يقال عسعس الليل اذا اقبل وعسعس اذا ادبر ثم منهم من قال المراد
ههنا اقبل الليل لان على هذا التقدير يكون القسم واقعا باقبال
الليل وهو قوله والليل اذا عسعس وادبارها وهو قوله والصبح
اذا تنفس اى اشتد ضوء وتكامل فقوله والليل اذا عسعس اشارة
الى اول طلوع الشمس وقوله والصبح اذا تنفس اشارة الى تكامل طلوع
الصبح ونظيره قوله والليل اذا ادبر والصبح اذا اسفر اما قوله

والصبح

والصبح اذا تنفس اى اذا اسفر وهو كقوله والصبح اذا اسفر
ثم فى كيفية التشبيه قولان احدهما اذا اقبل الصبح اقبل باقباله
روح ونسيم فجعل ذلك نفسا له على المجاز والثانى انه شبه
الليل المظلم بالمكروب المحزون الذى جلس بحيث لا يتحرك واجتمع
الحزن فى قلبه فاذا تنفس وجد راحة فههنا لما طلع الصبح فكانه
تخلص من ذلك الحزن فعبر عنه بالتنفس واعلم ان فى طلوع
الشمس وغروبها احوالا عجيبة فالاول ان طلوع الشمس يشبه
بتكوين العالم وتخليقه فى اول وقت كن فيكون وغروبها يشبه
بتخريب العالم عند قيام القيامة وتقرير هذا التشبيه ان الظلمة
صفة عدمية فهى شديدة المناسبة للعدم الاصلى المستمر
من الازل الى وقت حدوث العالم وكما ان فى الليل تكون الظلمة
مستقرة فى جميع اقطار السموات واكناف الارض فكذلك كانت
ظلمة العدم مستقرة مستمرة من الازل الى الابد فما كان ههناك
لوح ولا قلم ولا انوار ولا ظلم ولا سماء ولا ارض ولا طول ولا عرض
ولا ذوات ولا صفات بل كان الله ولم يكن معه شئ غيره وكما ان
فى آخر الليل ينفلق بحر الظلمات بنحر النور ويكون ذلك النور محفوفا
بالظلمات التى لا حد لها فكذلك ظهر فى اخر ليل الازل نور من نور
ايجاد الله وتكوينه وهذه المخلوقات متناهية والممكنات
الباقية على العدم غير متناهية والمتناهى بالنسبة الى غير المتناهى
قليل من كثير فهذه الحالة شبيهة بظهور نور الصبح فى بحار ظلمات
الليل واذا عرفت هذا ظهر ان طلوع النور مسبوق بتراكم ظلمات العدم

وظهر ايضا ان الانوار الساطعة على الممكنات من الوجود اقل من الممكنات
الباقية فى ظلمات العدم لاجرم قدم الله تعالى ذكر الظلمات على النور
وعبر عن الظلمات بلفظ الجمع وعن النور بلفظ المفرد فقال
الحمد لله الذى خلق السموات والارض وجعل الظلمات والنور
فتامل فى هذه الاسرار فهذا حال تشبيه طلوع الصبح بطلوع
صبح الايجاد والتكوين من مشرق احسان الله وفضله واحسانه
وعنايته البحث الثانى ان غروب الشمس فى آخر النهار شديد النسبة
باماتة جميع الاحياء وقت قيام القيامة وبقاء الخلق جامدين ليس
لهم حس ولا حركة وسكونهم فى الليل يشبه بقاء الخلق فى ما بين
النفختين على العدم المحض ثم انتباه الخلق فى وقت الصبح يشبه قيام
الخلق عند النشر والبعث وتقرير هذا الكلام هو ان النفخ فى الصور
يحصل ثلث مرات اولها نفخة الفزع قال الله تعالى فى سورة النمل
ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات الاية والثانية
نفخة الصعقة والثالثة نفخة الاحياء قال الله تعالى فى الزمر
ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الارض الا من شاء الله
ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون وهذه الاحوال الثلثة
بعينها موجودة فى الشمس وذلك لان غروبها فى المغرب يشبه نفخة
الفزع فان الشمس اذا غربت فى مغربها استولى الخوف والفزع
على الحيوانات ويتوجه كل واحد منها الى ماواه ومسكنه ثم اذا
غرب الشفق بالكلية فذلك يشبه نفخة الصعق وهناك يسكن
كل حيوان وينام ويصير الكل خامدا فكانه صار ميتا وصار معدوما

الا من شاء الله من الحيوانات التى لا تنام وهذا الاستثناء المذكور
حاصل فى الاية ههنا ايضا واما طلوع الصبح فذلك يشبه نفخة
البعث والاحياء وذلك لان الشمس اذا قربت من مشرقها فكانها
ينفخ روح النور فى اموات عالم الظلمات وهكذا ايضا حال
النفخة الثالثة لاسرافيل عليه السلام فانه يصل من قوة تلك
النفخة اثر الحيوة الى جميع الاموات واعلم ان مشاهدة هذه الاحوال
الثلثة فى الشمس من اقوى الدلايل على صحة هذه الاحوال الثلثة
فى يوم البعث وزمان القيمة وذلك لان الارواح اعظم واقوى
من الاجسام فاذا لم يبعد ان يكون فى عالم الاجسام من مخلوقات
الله تعالى ملك يكون له هذه التاثيرات الثلثة وعند هذه
الاعتبارات يظهر صدق اقاويل الانبياء فيما اخبروا عنه من
معرفة المبتداء ومعرفة المعاد اما معرفة المبداء فهو ان عالم الاجسام
مع ملكها وهو الشمس وعالم الارواح مع ملكها وهو اسرافيل
كلهم مسخرون تحت سرادقات العزة وعتبات الالهية واما معرفة
المعاد فهو قياس عالم الارواح الى عالم الاجسام فكما ان كواكب السماء
مختلفة بالعظم والصغر والكمال والضعف وكان الشمس كالسلطان
لها باسرها وهى مع وحدتها مستولية على الكواكب كلها والكل
مقهورون تحت صولته مختفون تحت شروق نوره كذلك يجب ان
يكون فى عالم الارواح شئ يكون كالسلطان لجميع الارواح ويكون
الكل تحت رايته ومقهور تحت جلالته واليه الاشارة بقوله
يوم يقوم الروح والملائكة صفا وهو المستثنى بين رب العزة

في قوله والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات
بيمينه ثم قد شهدت الفطرة السليمة ان الارواح كالمبداء
والاجسام كالمظهر فكل واحد من الارواح والاجسام مفتقر
بعضها الى البعض واحتياج بعضها الى البعض من اصدق الشواهد
واظهر الدلايل على افتقار الارواح والاجسام والانوار والظلمات
بسبب زوجيتها الى الفرد الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد
ولم يكن له كفوا احد واليه الاشارة بقوله سبحانه ومن كل شيء
خلقنا زوجين فثبت بما ذكرنا ان التامل في كيفية طلوع الشمس
وغروبها مفتاح عظيم لايضاح انوار عالم القدس وتجلي اضوا
سرادقات الجلال وبالله التوفيق

الفصل التاسع

في كيفية الاستدلال باحوال اختلاف الليل والنهار على وجود
الصانع الحكيم سبحانه اعلم ان الايات الدالة على هذا النوع من البحث
نوعان احدهما الايات الدالة على تعظيم احوال الليل والنهار
والثاني الايات المشتملة على حكمة خلق الليل والنهار اما النوع
الاول فهي كثيرة في القران فاولها قوله تعالى في سورة البقرة
ان في خلق السموات والارض الى قوله لايات لقوم يعقلون
وقال في سورة آل عمران ان في خلق السموات الى قوله لايات
لاولي الالباب والمقصود من هذا الكلام في السورتين واحد
وقال في الاعراف ان ربكم الله الذي خلق السموات والارض
في ستة ايام الاية واعلم ان في نظم هذه الايات الثلثة اسرارا
عجيبة الاول انه تعالى ابتدا في هذه الايات الثلث بذكر السموات

والارض

والارض ثم ذكر عقيبها احوال الليل والنهار والسبب في هذا
الترتيب ان تخليق السطح المقعر من الفلك الاعظم ظهر المكان
وبتحريك السطح المحدب منه ظهر الزمان فالمكان اقرب الينا من
الزمان وقد علمت ان التعليم المفيد هو الذي يبتدا فيه من
الاظهر فالاظهر مترقيا الى الاخفى فالاخفى ولما كان المقصود
من هذه الايات ذكر الدلايل الدالة على جلال الله وقدسه لاجرم
وقع الابتداء فيها بذكر خلق السموات والارض فان ذلك مشعر
بالمكان ثم وقع الانتقال منها الى ذكر الليل والنهار فانه مشعر بالزمان
ونظيره قوله تعالى في سورة الانعام قل لمن ما في السموات والارض
قل لله فهذه اشارة الى ان المكان وكل ما في المكان ملكه وملكه
ثم قال وله ما سكن في الليل والنهار وهو اشارة الى ان الزمان
وكل ما في الزمان ملكه وملكه فالمكان والمكانيات والزمان
والزمانيات شاهدة معرفة دالة على كونه سبحانه منزها عن علايق
المكان ولواحق حوادث الزمان ومناسبات الحدوث والامكان
ومشابهات الافلاك والاركان ومن نظايره ايضا قوله في صفة
السماء رفع سمكها فسويها وهو اشارة الى المكان ثم قال واغطش
ليلها واخرج ضحيها وهو اشارة الى الزمان النوع الثاني من لطايف
هذه الاية انه تعالى جعل هذه الدلايل في سورة البقرة لايات
لقوم يعقلون وجعلها في آل عمران لايات لاولي الالباب
وفي سورة الاعراف انتقل من الغيبة الى الحضور وقال ان ربكم الله
الذي خلق السموات والارض والسبب في هذا الترتيب على ما خطر

بالبال والله اعلم باسرار كلامه ان درجات المحققين ثلث
اولها الذين يستدلون باحوال السموات والارض على وجود الصانع
المختار واليه الاشارة فى سورة البقرة لايات لقوم يعقلون
والثانى الذين صاروا مكاشفين بكيفية دلالة كل واحد من اجزاء
الارضين والسموات على وجود الصانع وحكمته وعدله وعلمه
وذلك لانا بينا لكل واحد من اجزاء الارضين والسموات دلالة
لا نهاية لها على كمال قدرة الله وحكمته فاذا صار الانسان مكاشفا
باحوال تلك الدلالات حتى يصير عقله غرقا فى بحار تلك الدلائل
فهذا الانسان قد ترقى شانه من ظاهر عالم العقل الى اوج عالم
الاسرار والالباب واليه الاشارة بقوله لايات لاولى
الالباب والثالث ان الانسان فى المقام الاول والثانى كان
مشغولا بمطالعة الدلايل وبعد اشتغال العقل بمطالعة
الدلايل يحصل الحرمان عن الاستغراق فى نور جلال الله فاذا
كملت درجة الانسان فى مقام الاستدلال نودى من بطنان
الصمدية وسرادقات الجلال والكبرياء اخلع نعليك فان كل
دليل فهو مركب من مقدمتين لا محالة لا تزيد ولا تنقص وهاتان
المقدمتان كالنعلين فى قدمى العقل بهما يتمكن العقل من السفر
من الخلق الى الخالق ومن الممكن الى الواجب فاذا وصل الى بيدا
الصمدية وبساط جلال الالهية يومر بخلع هذين النعلين
فاذا قال العبد لم اخلعهما قيل لانك بالوادى المقدس طوى
فمن وصل الى الوحدة كيف يلتفت الى الكثرة ومن وجد المدلول

يكف

كيف يبقى مشغولا بالدليل جون در آمد وصال را حاله
سر د شد كفت وكوى دلاله وحينئذ يرتقى من مقام الغيبة
الى الحضور والشهود فيصير مخاطبا من الحق بالحق فى الحق الى الحق
فيسمع من غير واسطة ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض
فى ستة ايام الاية وسمعت بعض المحققين ان اول الدرجات
ان يقول العبد ما رايت شيا الا ورايت الله بعده وفى وسط
السير يقول ما رايت شيئا الا ورايت الله معه وفى اخر الدرجات
يقول ما رايت شيئا الا ورايت الله قبله وذلك لانه فى المقام
الاول يستدل بغير الله على الله وفى المقام الثانى يستدل
بالله على الله وفى المقام الاخر يستدل بالله على غير الله وهذه
المراتب الثلثة مطابقة لهذه الايات الثلثة واعلم ان دلالة
الليل والنهار على وجود الصانع الحكيم من وجوه الاول كون
الليل والنهار مختلفين كما فى هذه الايات وقال فى يونس ان
فى اختلاف الليل والنهار الى قوله لايات لقوم يتقون وقال
فى الحج ذلك بان الله يولج الليل فى النهار الى قوله سميع عليم وقال
فى الفرقان وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة الاية وقال فى الزمر
يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل قال المفسرون هذه
الاختلافات يحتمل وجهين الاول انه افتعال من قولهم من خلفه يخلفه
اذا ذهب الاول وجاء الثانى فاختلاف الليل والنهار عبارة
عن تعاقبهما فى المجئ والذهاب ومنه يقال فلان يختلف الى فلان
اذا كان يذهب اليه ويجئ من عنده وكل شئ يجئ بعد شئ آخر فهو

خلفه وبهذا فسر قوله تعالى وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة
الثانى المراد اختلاف الليل والنهار فى الطول والقصر والزيادة والنقصان
وعندى فيه وجه ثالث وهو ان الليل والنهار كما يختلفان فى الطول
والقصر فى الازمنة فهما يختلفان ايضا فى الامكنة فان الاصح
ان الارض كرة فاذا كان كذلك فهذه الساعة التى اشير اليها هى
ههنا وقت الصبح وفى موضع آخر وقت طلوع الشمس وفى موضع آخر
وقت الظهر وفى موضع اخر وقت المغرب وفى موضع آخر نصف الليل
وعلى هذا القياس جميع الاحوال المختلفة فى الليل والنهار حاصلة فى
هذه الساعة الواحد بحسب كل واحد من بقاع الارض ولهذا اذا
اعتبرنا البلاد المختلفة فى الطول اما البلاد المختلفة فى العرض فكل
بلد يكون عرضه الشمالى اكثر كانت ايامه الصيفية اطول ولياليه
الصيفية اقصر وايامه ولياليه الشتوية بالضد فهذه هى الاحوال
المختلفة فى الايام والليالى بحسب اختلاف طول البلدان وعرضها
وهذا ايضا هو المراد من تكوير الليل على النهار وتكوير النهار على الليل
الوجه الثانى من وجوه دلالة الليل والنهار على وجود الصانع الحكيم
قوله تعالى فى القصص وهو الله لا اله الا هو له الحمد فى الاولى والاخرة
وله الحكم واليه ترجعون اما كلمة هو فسيجئ تفسيرها فى باب
اسماء الله تعالى واما كلمة لا اله الا الله فقد تقدم شرحها
ثم انه تعالى اردف ذلك بصفات ثلثة الصفة الاولى قوله
له الحمد فى الاولى والاخرة وفيه ابحاث ثلثة احدها بيان
حقيقة الحمد والفرق بينه وبين المدح والشكر والثانى ان قوله

له الحمد دال على غيره لا يستحق الحمد والثالث ان اهل الاخرة
مشتغلون بالحمد كما فى هذه الآية وكما فى قوله وقالوا الحمد لله
الذى اذهب عنا الحزن وآخر دعويهم ان الحمد لله رب العالمين
وتقرير الكلام فى هذه المباحث سيجئ ان شاء الله تعالى فى تفسير
سورة الفاتحة الصفة الثانية قوله وله الحكم والمعنى
انه لا حكم فى الدنيا والآخرة الا له اما فى الدنيا فلان حكم احد
سواء لا ينفذ على الغير الا بواسطة حكمه فلولا امر الله وحكمه
لما نفذ على العبد حكم سيده وعلى الزوجة حكم زوجها وعلى الولد
حكم والده وعلى الرعية حكم السلطان وعلى الامة حكم الرسول
ونظيره قوله لله الامر من قبل ومن بعد وقوله الا له الحكم وهو
اسرع الحاسبين واذا تاملت كما ينبغى علمت ان الحق هو الحاكم
فى الحقيقة واما فى الآخرة فلا شك انه تعالى له الحكم والقضاء
كما قال يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله الصفة
الثالثة قوله واليه ترجعون يعنى مرجع كل احد الى حكمه وقضائه
لا تصرف لاحد فى ذلك اليوم من البرية كما قال لا تجزى نفس عن نفس
شيئا الاية واعلم انه تعالى لما بين انه هو المستحق للحمد اتبع هذا الكلام
ببعض ما يتبين انه يستحق المدح وهو ايجاد الليل والنهار فقال قل
ارايتم ان جعل الله عليكم الليل سرمدا الآية واعلم ان وجه الاستدلال
بهذا المعنى على الصانع الحكيم من وجوه الاول انه لا بد من النهار
ليحصل فيه الضوء فيتيسر الحركة عند الابصار ولا بد من الليل
ليحصل فيه الظلمة فيحصل السكون عند ذلك للاستتار ولما

انه لابد من الحركة فلان الانسان محتاج الى تحصيل المطعوم والملبوس
واعداد المساكن وساير المصالح وكل ذلك مما لا يتهيا الا عند السعى
والجد فى التحصيل وذلك لا يتيسر الا فى ضوء النهار واما انه لابد
من السكون فلان الانسان اذا سعى وتحرك كثيرا تعب وعنى واحتاج
الى النوم والراحة ليزول ذلك الاعيا والتعب والوجه الثانى
فى كيفية الاستدلال ان بتقدير ان يسكن الله الشمس فى موضع معين
من الفلك واوقف الفلك عن الحركة فحينئذ يدوم النهار فى ذلك الجانب
من الارض وتعظم السخونة فيه ويدوم الليل فى الجانب الاخرى من
الارض ويعظم البرد فيه وحينئذ يخرج كل احد من جوانب الارض
عن صلاحية العمارة وسكنى الحيوانات الوجه الثالث ان بتقدير
تعاقب الليل والنهار فلو كان الليل اطول مما هو الان لبطلت
المنافع ايضا الا ترى ان تحت القطبين يكون نصف السنة نهارا
ونصفها ليلا الا ان هناك لا يصلح لتولد الحيوانات ولا لتولد النبات
فظهر ان المنافع لا يحصل الا بتعاقب الليل والنهار ومع التعاقب لابد
وان لا يكون الليل فى غاية الطول وان لا يكون النهار فى غاية الطول
ومتى حصل التعاقب من الليل والنهار وكان لكل واحد منهما مدة
معينة ومقدار معتدل حصلت المنافع وحصلت الامكنة والازمنة
لسكنى الحيوانات الوجه الرابع ان كل واحد من الليل والنهار يصير
بمجئ الاخر مغلوبا فلولا قهر قاهر وتدبير مدبر لامتنع ان يصير
الغالب مغلوبا والمغلوب غالبا وهذا يدل على ان لهما محدثا
وموجدا وفيه ايضا دلالة على البعث لان الليل ياتى على النهار

فتلفه

فتلفه حتى لا يبقى منه اثر ثم النهار ياتى على الليل فيتلفه حتى لا
يبقى من اثر الليل شئ ثم انهما يبقيا على هذه التعاقب ابدا فكما قدر
المدبر سبحانه على اعادة الذى ذهب وبطل دل ذلك على اعادة
ما اماته وافناه وان لم يبق له الوجه الخامس قوله يولج الليل
فى النهار ويولج النهار فى الليل دليل على فساد قول الثنوية
ان فاعل الخير غير فاعل الشر لان الامر لو كان كما ذكروا لكان الاله
الاتى بالنور غير الاله الاتى بالظلمة فاذا غلب اله النور اله الظلمة
فالغالب لا يصير مغلوبا فوجب ان لا يزول النهار ولا يحصل الليل
ولما لم يكن كذلك علمنا ان الليل والنهار والظلمة والنور بتدبير
مدبر واحد وتقدير مقدر واحد وهو الله سبحانه بقى فى الاية
سؤالات السؤال الاول ما معنى السرمد فى اللغة الجواب السرمد
هو الدايم المتصل من السرد وهو المتابعة ومنه قولهم فى الاشهر
الحرم ثلثة سرد وواحد فرد الثانى هلا قال بنهار يتصرفون فيه
كما قال بليل تسكنون فيه والجواب لان منافع الليل هو السكون والنوم
والراحة اما منافع النهار فكثيرة يطول تعديدها السؤال الثالث
لم قال فى الليل افلا تسمعون وفى النهار افلا تبصرون الجواب
لان الليل عبارة عن الظلمة وهى غير مرئية والنهار عبارة عن الضوء
وهو مرئى فلهذا قال افلا تبصرون وقال الكلبى افلا تسمعون
معناه افلا تطيعون من يفعل ذلك وقوله افلا تبصرون
افلا تتفكرون ما انتم عليه من الخطا والضلال النوع الثالث
من وجوه دلالة الليل والنهار على الصانع الحكيم فى اخر هذه الاية

ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا
من فضله ولعلكم تشكرون واعلم ان تقرير هذا الوجه ان الليل
والنهار ضدان والضدان يكون كل واحد منهما مبطلا لذات الاخر
ولمنفعته اما الليل والنهار فانه لا يحصل الانتفاع باحدهما
الا عند حصول الآخر فقلب طبيعة احد الضدين من المخالفة الى
المعاونة مما لا يقدر على ذلك احد الا الله وانما قلنا لا يحصل
المنفعة الا بتعاقبهما وذلك لانه لو دامت الظلمة دام النوم وتعذرت
الحركات فيهلك الحيوانات ولو دام الضوء دامت السخونة ولم يحصل
النوم واستولى الاعيا والتعب على الحيوانات فيموت الكل فظهر
ان الانتفاع باحدهما لا يمكن الا عند حصول تعاقبهما ومن المعلوم
ان قلب طبيعة الضدين من المعاونة الى المعاونة لا يقدر عليه
الا الله ثم انه تعالى بين في هذه الآية ازدواج الليل والنهار
لاغراض ثلثة لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضل الله في النهار و
لتشتغلوا بالشكر على هاتين المنفعتين النوع الرابع من وجوه
دلالة الليل والنهار على الصانع الحكيم قوله في سورة الفرقان
وهو الذي جعل لكم الليل لباسا والنوم سباتا وجعل النهار نشورا
وقال في سورة عم وجعلنا نومكم سباتا اما قوله وجعلنا نومكم
سباتا فقد طعن فيه بعض الملحدين لعنهم الله فقال السبات هو النوم
فيصير التقدير وجعلنا نومكم نوما والجواب عنه ان السبت في
اصل اللغة هو القطع يقال سبت الرجل راسه يسبته اذا حلق راسه
وقال ابن الاعرابي في قوله سباتا يعني قطعا وعند هذا يحتمل وجوها

الوجه

الوجه الاول ان يكون المعنى وجعلنا نومكم نوما منقطعا
لا دايما فان النوم بمقدار الحاجة من انفع الاشياء اما دوامه
فهو من اضر الاشياء فلما كان انقطاعه نعمة عظيمة لا جرم ذكره
الله تعالى في معرض الانعام والثاني ان الانسان اذا تعب ثم نام
فذلك النوم يزيل عنه التعب فسميت تلك الازالة سبتا اي قطعا
وهذا هو المراد من قول ابن قتيبة وجعلنا نومكم سباتا اي راحة
وليس غرضه منه ان السبات اسم الراحة بل المقصود ان النوم يقطع
التعب ويزيله فحينئذ تحصل الراحة الثالث قال المبرد وجعلنا
نومكم سباتا اي جعلناه نوما خفيفا يمكنكم دفعه وقطعه
يقول العرب رجل مسبوت اذا كان النوم يغالبه وهو يغالب النوم
كانه قال وجعلنا نومكم نوما لطيفا يمكنكم دفعه وما جعلناه
غشيا مستوليا عليكم فان ذلك من الامراض الشديدة اما قوله
وجعلنا الليل لباسا قال القفال اصل اللباس هو الشيء الذي يلبسه
الانسان ويتغطى به فيكون ذلك مغطيا له فلما كان الليل يغشى الناس
بظلمته فيغطيهم جعل الله لباسا لهم والمراد كون الليل ساترا لهم
واما وجه النعمة في ذلك فهو ان ظلمة الليل يستر الانسان عن العيون
اذا اراد هربا من العدو او اخفاء ما لا يحب الانسان اطلاع غيره
عليه قال المتنبي وكم لظلام الليل عندي من يد تخبر ان المانوية
تكذب وايضا فكما ان الانسان بسبب اللباس يزداد جماله وتتكامل
قوته ويندفع عنه اذى الحر والبرد فكذلك يندفع اذى التعب
الجسماني واذى الافكار الموحشة النفسانية ولهذا السبب

فان المريض اذا نام بالليل وجد خفه عظيمة واما قوله وجعلنا
النهار معاشا اعلم ان في المعاش وجهين الاول انه مصدر يقال
عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشة وعيشة وعلى هذا التقدير
لا بد فيه من اضمار والمعنى وجعلنا النهار وقت معاش والثاني
ان تكون المعاش مفعلا وظرفا للتعيش وعلى هذا لا حاجة الى الاضمار
ومعنى كون النهار معاشا ان الخلق انما يمكنهم التقلب في حوائجهم
ومكاسبهم في النهار لا في الليل النوع الخامس من وجوه دلالة
الليل والنهار على وجود الصانع قوله تعالى في يس واية لهم الليل
نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها
ذلك تقدير العزيز العليم واعلم ان قوله تعالى واية لهم الليل
نسلخ منه النهار اشارة الى الليل وقوله والشمس تجري لمستقر لها
اشارة الى النهار وفي قوله تجري لمستقر لها عدة اقوال اصحها
انها تجري وتتحرك لانتهاء امرها عند انقضاء الدنيا اي لا تزال
تجري حتى ينتهي الى الوقت الذي تنقضي الدنيا فيه وفي ذلك الوقت
تقف وتستقر وتترك الحركة ولنذكر ههنا ان النهار افضل ام
الليل وفي ترجيح كل واحد من الطرفين وجوه اما الذين يفضلون
النور على الظلمة تمسكوا بوجوه يذكر في موضعه ان شاء الله تعالى

الفصل العاشر في مباحث متفرعة في هذا الباب

النوع الاول في المباحث المتفرعة على كون القمر هلالا اعلم انه سبحانه
فرع على كون القمر هلالا ابحاث تتعلق بعلم الاصول والتوحيد
وابحاث تتعلق بعلم الفروع والتكليف اما ما يتعلق بعلم الاصول

فهو قوله في يس والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم
الى قوله يسبحون ونظيره في سورة اذا السماء انشقت فلا اقسم
بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق اعلم ان الاتساق
في اصل اللغة الاجتماع يقال وسقته فاتسق كما يقال وصلته
فاتصل اي جمعته فاجتمع ويقال امور فلان متسقة اي مجتمعة
على الصلاح كما يقال منتظمة قال ابن عباس اتسق اي استوى واجتمع
وتكامل وتم واستدار وذلك ليلة اربع عشرة واما ما يتعلق
بعلم الفروع فهو قوله في سورة البقرة يسئلونك عن الاهلة
قل هي مواقيت للناس والحج فنتكلم في شرح هذين الاصلين اما
الاية الاولى فاعلم انه سبحانه جعل الزمان مقدرا من اربعة
اوجه السنة والشهر واليوم والساعة اما السنة فهي عبارة
عن الزمان الحاصل من حركة الشمس من نقطة معينة من الفلك
بحركتها الخاصة على خلاف حركة اليومية الى ان تعود الى تلك
النقطة بعينها والقوم اصطلحوا على جعل تلك النقطة هي نقطة
الاعتدال الربيعي وهي اول الحمل واما الشهر فهو عبارة عن حركة
القمر عن نقطة معينة من الفلك الخاص به الى ان يعود الى تلك النقطة
ولما كان اشهر احوال القمر وضعه مع الشمس واشهر اوضاعه
مع الشمس هو الهلال العربي مع ان القمر في هذا الوقت يشبه
الموجود بعد العدم والمولود الخارج من الظلم لا جرم جعلوا هذا
الوقت مبدا الشهر واما اليوم بليلته فهو عبارة عن مفارقة
نقطة من دائرة معدل النهار نقطة من دائرة الافق ونقطة

من دايرة نصف النهار وعودها اليه فالزمان المقدر بهذا
المقدار عبارة عن اليوم بليلته ثم ان المنجمين اصطلحوا على
تعيين دايرة نصف النهار مبدا لليوم بليلته واما اكثر الامم
فانهم جعلوا مبادى الايام بلياليها من مفارقة الشمس افق
المشرق وعودها اليه من الغداة واحتج من نصر مذهبهم بان
الشمس عند الطلوع كالموجود بعد العدم فجعلها اولا اولى
وعلى هذا القول فزمان الليل عبارة عن مدة كون الشمس تحت
الارض وزمان النهار عبارة عن مدة كون الشمس فوق الارض
وفي شريعة الاسلام يفتتحون النهار من وقت طلوع الفجر
في وجوب الصلوة والصوم وغيرهما من الاحكام وعند المنجمين
مدة الصوم في الشرع هي زمان النهار كله مع زيادة من زمان
الليل معلومة المقدار ومحدودة المبدا واما الساعة فهي
على قسمين مستوية ومعوجة فالمستوية جزء من اربعة وعشرين
جزءا من يوم وليلة والمعوجة جزء من اثني عشر جزوا من يوم وليلة
فهذا هو الكلام المختصر في تعريف السنة والشهر واليوم والساعة
واذا عرفت هذا فنقول اما السنة فهي عبارة عن دورة للشمس
تحدث بسببها الفصول الاربعة وذلك لان الشمس اذا حصلت
في الحمل فاذا تحركت من هذا الموضع الى جانب الشمال اخذ الهواء في
جانب الشمال شيئا من السخونة لقربها من مسامتة الراس
وتتواتر الاسخان الى ان تصل الى اول السرطان وحينئذ
يشتد الحر ما دامت في السرطان والاسد لقربها من سمت الراس

ثم

ثم ينكسر قليلا الى ان تصل الى الميزان وحينئذ يطيب الهواء
ويعتدل ثم ياخذ الحر في النقصان والبرد في الزيادة ولا يزداد
يزداد البرد الى ان تصل الشمس الى اول الجدى وحينئذ يشتد
البرد ما دامت في الجدى والدلو فالبرد يكون في غاية الشدة
الى ان ينتهى الى اول الحمل فحينئذ يعتدل الهواء وعادت الشمس
الى المبدا حركاتها وتمت السنة وحصلت الفصول الاربعة
التي هي الربيع والصيف والخريف والشتاء ومنافع الاربعة
مشهورة في الكتب واما الشهر فهو عبارة عن دورة القمر
في فلكه الخاص فزعموا ان نوره مستفاد من الشمس وابدا يكون
احد نصفيه مضيا بالتمام الا انه عند الاجتماع يكون نصفه
المضئ وهو نصفه الفوقاني فلاجرم نحن لا نرى في تلك الحالة
من نوره شيئا وعند الاستقبال يكون نصفه المضئ مواجها لنا
فلاجرم نراه مستنيرا بالتمام وكلما كان القمر اقرب الى الشمس
كان المرئى من نصفه المضئ اقل وكلما كان ابعد كان المرئى من نصفه
المضئ اكثر ثم انه من وقت الاجتماع الى وقت الاستقبال يكون كل
ليلة ابعد من الشمس لاجرم ترى كل ليلة ضوءه اكثر ومن وقت الاستقبال
الى وقت الاجتماع يكون كل ليلة اقرب الى الشمس فلاجرم يرى كل ليلة
ضوءه اقل ولا يزال ينقص ويقل حتى عاد كالعرجون القديم وهذا
ما قاله اصحاب النجوم واما الاصوليون فانهم يقولون القمر
جسم والشمس جسم والاجسام كلها متماثلة في الجسمية والاشياء
المتساوية في تمام الماهية يمتنع اختلافها في اللوازم فاذا حصول

الضوء في جرم الشمس والقمر امر جايز الوجود لا يمتنع وجوده
ولا يمتنع عدمه وما كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه
الا بترجيح الفاعل المختار وكل ما كان فعلا للفاعل المختار فان
ذلك الفاعل يكون قادرا على ايجاده وعلى اعدامه وعلى هذا
التقدير فلا حاجة الى اسناد هذه الاختلافات الحاصلة في
نور القمر الى قربه وبعده من الشمس بل الحق ان حصول النور في
جرم الشمس انما كان بسبب ايجاد القادر المختار واذا كان الامر
كذلك كان الامر له وكان قادرا على ازالة النور عن جرمه فحينئذ
تكون صيرورة الشمس مظلمة في ذاتها امر جايز وحينئذ ينفتح
باب عظيم في الدين وهو الايمان بصحة كل ما جاء في صفات
الافلاك والكواكب يوم القيامة نحو قوله اذا الشمس كورت
واذا النجوم انكدرت واذا السماء انشقت واذا السماء كشطت
واذا عرفت هذا ظهرت دلالة اختلاف احوال القمر في الضوء
والنور على الفاعل المختار الحكيم سبحانه وتعالى بقي في الاية سؤالان
السؤال الاول ما معنى قوله والقمر قدرناه منازل الجواب
معناه والقمر قدرنا مسيره منازل او له منازل على حذف الجار
او ذا منازل على حذف المضاف السؤال الثاني ما العرجون الجواب
العرجون اصل العذق قال الزجاج هو فعلول من الانعراج وهو
الانعطاف واذا قدم دق وانحنى واصفر فشبه الهلال به لدقته
وانحنايه وتقوسه فهذا ما يتعلق بعلم الاصول من مباحث الهلال
اما ما يتعلق بعلم الفروع فهو ان لقائل ان يقول خالق العالم

ومدبره لم خصص جرم القمر بهذا الاختلاف فنقول العلماء
الاسلام في هذا المقام جوابان احدهما ان يقال فاعلية الله
لا يمكن تعليلها بغرض ومصلحة ويدل عليه وجوه الاول
ان من فعل فعلا لغرض فان قدر على تحصيل ذلك الغرض دون
تلك الواسطة كان فعل تلك الواسطة عبثا وان لم يقدر
فهو عاجز والثاني ان من فعل فعلا لغرض فان كان وجود ذلك
الغرض اولى لذلك الفاعل من لا وجوده كان ذلك الفاعل ناقصا
لذاته مستكملا بغيره وهو في حق الله محال وان لم يكن اولى
لم يكن غرضا والثالث انه لو كان فعله معللا بغرض فذلك
الغرض ان كان محدثا افتقر احداثه الى غرض آخر وان كان قديما
لزم من قدمه قدم الفعل وهو محال فلا جرم قالوا كل شيء صنعه
ولا علة لصنعه ولا يجوز تعليل افعال الله واحكامه البتة
فلا يسال عما يفعل وهم يسالون والجواب الثاني قول من
يقول لا بد في افعال الله واحكامه من رعاية المصالح والحكم
والقايلون بهذا القول سلموا ان العقول البشرية قاصرة في
اكثر الامر عن الوصول الى اسرار حكمة الله في ملكه وملكوته
الا ان الله تعالى اخبر عن الحكمة في اختلاف ضوء القمر في آيات منها
قوله في سورة البقرة يسئلونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس
والحج ومنها قوله في يونس هو الذي جعل الشمس ضياء الاية ومنها
قوله في بني اسرائيل وجعلنا الليل والنهار آيتين الاية وقال
في يس والقمر قدرناه منازل وشرح هذا المعنى ان نقول ان بتقدير

الزمان بالشهور وفيه منافع بعضها يتصل بالدين وبعضها يتصل
بالدنيا فاما ما يتصل بالدين فكثيرة منها الصوم قال الله تعالى
شهر رمضان الذى انزل فيه القرآن ومنها الحج قال الحج اشهر
معلومات ومنها عدة المتوفى عنها زوجها قال الله تعالى يتربصن
بانفسهن اربعة اشهر وعشرا ومنها مدة الحمل والرضاع قال
وحمله وفصاله ثلثون شهرا ومنها النذر التى يتعلق بالاوقات
ولفضايل الصوم فى ايام لا سبيل الى معرفتها الا بالاهلة واما
ما يتصل منها بالدنيا فهو كالمداينات والاجارات ومدة الحمل
والرضاع وغيرها فكل ذلك مما يسهل ضبط اوقاتها الا عند
وقوع الاختلاف فى ضوء القمر وتحقيق الكلام فيه ان المصنف
الذى يراعى الترتيب يقسم كتابه الى انواع ثم كل نوع منه الى ابواب
ثم كل باب منه الى فصول حتى يكون الاطلاع على مضمون ذلك الكتاب
ايسر واسهل وجملة هذا العالم تصنيف الله تعالى وهو يراعى التسهيل
على المكلفين فقسم جملة الزمان على السنين ثم قسم كل سنة الى اثنى
عشر شهرا كما قال فى كتاب الله ثم قسم كل شهر الى الاسبوع ثم الى
الايام ثم قسم كل يوم الى الساعات ثم قسم كل ساعة الى الانفاس
ثم قسم كل نفس الى اللمحات كما قال انا اتيك به قبل ان يرتد
اليك طرفك ثم قسم كل لمحة الى الاجزاء التى لا تتجزى والآنات
التى لا ينقسم ولما ظهر ان الاختلاف احوال القمر معونة
عظيمة فى تعيين الاوقات وتمهيدها للوجوه التى ذكرناها لا جرم
نبه على هذه النعمة بقوله قل هى مواقيت للناس والحج لان تعديد

جميع

جميع تلك المنافع يفضى الى الاطناب والاقتصار على البعض دون
البعض اهمال للبعض فلم يبق طريق الا التنبيه على الكل بطريق
الايجاز ومن منافع اختلاف ضوء القمر انه لو لم يحصل هذا
الاختلاف لتاكدت شبهة الفلاسفة فى قولهم ان الاجرام
الفلكية لا يمكن تطرق التغير الى احوالها فهو سبحانه بحكمته
القاهرة ابقى الشمس على حالة واحدة واظهر الاختلاف فى احوال
القمر من وجهين احدهما المحو الذى فى وجهه فان بعض اجزائه
مخالف للبعض فى كيفية النور والثانى ان مقدار ضوءه يختلف
فى كل يوم ثم جعل هذين النوعين من الاختلاف دليلا على كون
هذه الاجرام قابلة للاختلاف والتغير حتى يدل ذلك على افتقار
الشمس والقمر والنجوم والافلاك والعناصر الى قادر حكيم سبحانه
النوع الثانى فى المباحث المتعلقة بالبروج قال تعالى فى سورة
الحجر ولقد جعلنا فى السماء بروجا الآية وقال فى الفرقان
تبارك الذى جعل فى السماء بروجا وقال والسماء ذات البروج
واعلم انه تعالى لما ذكر البروج ذكر المنازل ايضا فقال فى سورة
يونس وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب وقال فى يس
والقمر قدرناه منازل الآية والكلام فى المباحث المتعلقة
بالبروج والمنازل طويل الا انا نذكر هاهنا من ذلك طرفا قليلا
فنقول اما البروج ففيها مباحث الاول انا بينا ان مصالح هذا
العالم لا ينتظم الا بالفصول الاربعة المتعاقبة فالحق سبحانه
وتعالى قسم الفلك باربعة اقسام الربع الاول الذى متى كانت

الشمس فيه كان الزمان ربيعًا والربع الثانى الذى متى حصل
الشمس فيه كان الزمان صيفا والربع الثالث الذى متى حصل الشمس فيه
كان الزمان خريفا والربع الرابع الذى متى حصل الشمس فيه كان
الزمان شتاء فقسم الفلك فى هذه الارباع الاربعة لتحصل الفصول
الاربعة فى الارض ثم انه سبحانه قسم كل فصل الى ثلثة اقسام
ابتداء ووسط وانتهاء والحكمة فيه ان الانتقال من احد الضدين
الى الاخر يوجب الامراض والاسقام الشديدة فلما كان الشتاء
باردًا جدًا جعل اول الربيع ضعيفا فى الحرارة حتى ينتقل الانسان
من البرد الشديد الى الحر الضعيف ولا تصير الطبيعة مقهورة ثم ان
ذلك الحر لا يزال يتزايد ويقوى حتى يبلغ الى كمال الحر اللايق بالربيع
فحينئذ يقع الانتقال منه الى الحر الشديد الذى فى الصيف
فلا تصير طبايع الامزجة والابدان مقهورة فاول الربيع ضعيف
الحرارة لانه مجاور الشتاء واخر الربيع قوى الحرارة لانه مجاو ر
الصيف وبهذا التدبير يحصل الانتقال من ضد الى ضد ولا يحصل
الامراض والاسقام بسبب ذلك فلهذا المعنى اقتضت الحكمة
الالهية ان يقسم كل ربع من ارباع الفلك ثلثة اقسام احدها
يكون مبداء لذلك الفصل والثانى يكون وسطا له والثالث
كمالا له فصار لاجل هذا الترتيب الفلك مقسومًا باثنى عشر
برجًا ثم انه تعالى سير الشمس فى هذه البروج كما قال ان عدة
الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله البحث الثانى
فى عجايب البروج اعلم ان العوالم ثلثة العالم الاصغر وهو بدن

الانسان والعالم الاوسط وهو العالم السفلى والعالم الاكبر
وهو العالم العلوى وهو عالم السموات والكواكب اما العالم
الاوسط فخلق فيه اجراما اربعة الارض والماء والهواء والنار
واثقل الاجسام هو الارض فلا جرم جعل الارض تحت جميع العناصر
الاربعة والماء اقل ثقلا منه فجعل الماء محيطا بالارض ثم الهواء
اخف فجعل الهواء محيطا بالماء ثم النار اخف الاجسام العنصرية
فجعل النار محيطة بجميع العناصر الاربعة فهذا هو الترتيب المحكم
والوصف المتقن ثم انه سبحانه قلب هذا الترتيب فى تخليق العالم الاصغر
فجعل الارض فوق الكل والنار تحت الكل والدليل عليه ان يافوخ
الانسان فوق جميع اعضايه وهو عظم والعظم بارد يابس طبعه
طبع الارض فجعل الارض فوق جميع الاعضاء ثم جعل الهواء تحت
الارض فان النفس هواء ومنفذ النفس هو الانف وهو تحت اليافوخ
ثم جعل الماء تحت الهواء لان معدن الماء هو الفم والفم تحت الانف
ثم جعل النار تحت الماء لان معدن النار والحرارة الغريزية هو
القلب والقلب تحت تلك الاعضاء وفى العالم الاوسط جعل
الارض تحت الكل والنار فوق الكل وفى العالم الاصغر قلب هذا
الترتيب فجعل الارض فوق الكل والنار تحت الكل ليظهر للعقلاء
ان السبب فى حصول هذا الترتيب تخليق القادر المختار وتكوينه
لا تاثير الطبيعة والعلة والخاصية واما فى العالم الاكبر فقد
رتب هذه الطبايع الاربع على خلاف ما وقع عليه ترتيبها فى العالم
الاصغر وفى العالم الاوسط وذلك لان الحمل برج نارى ثم يجاوره

الثور وهو ارضى ثم يجاوره الجوزاء وهو هوايى ثم يجاورن
السرطان وهو مايى فوقع الابتداء بالنارى والانتهاء
بالماى واعلم ان الحكمة فى وقوع هذه الطبايع الاربعة
فى كل واحد من هذه العوالم الثلثه على ترتيب اخر مخالف لغيره
ليكون ذلك شاهدًا بان الطبايع معزولة والخواص باطلة
ولا تاثير الا لقدرة الاحد الصمد الاعز الاجل وعن البحث الثالث
ان ترتيب العناصر الاربعة فى العالم الاسفل وقع بحيث يكون
كل متجاورين منها فانهما متشاركان فى كيفية ويتباينان باخرى
مثلا الارض والماء يشتركان فى البرد ويختلفان فى الرطوبة
واليبوسة والهواء والنار يشتركان فى الحرارة ويختلفان
فى الرطوبة واليبوسة ثم قالوا والسبب فيه ان لا يتجاور
ضدان من كل الوجوه ثم ان هذه الدقيقة صارت متروكة فى
ترتيب الطبايع فى العالم الاكبر وذلك لان هناك قد تجاورت
البروج المتضادة الا ترى ان الحوت والحمل متضادان لان الحوت
بارد رطب والحمل حار يابس وهما متجاوران وكذلك الثور والجوزاء
متضادان لان الثور بارد يابس والجوزاء حار رطب وهما
متجاوران وكذلك السرطان والاسد وكذا السنبلة والميزان
وكذا العقرب والقوس وكذا الجدى والدلو كل واحد من هذين
البرجين متضادان بكلتى الكيفيتين وهما متجاوران وهذا من اقوى
الدلايل على ان تجاور هذه البروج ليس لاجل مشاكلة طبايعها ومجانسة
ذواتها بل ذلك لايجاد القادر المختار والصانع الحكيم جل ثناؤه

وتقدست اسماؤه البحث الرابع ان الشمس فى غاية السخونة
ومذهبكم ان الحمل برج حار يابس نارى والسرطان برج بارد رطب
مايى فلو كانت هذه التاثيرات حاصلة بسبب الطبيعة لكان
اذا حصلت الشمس فى الحمل فقد حصل كوكب حار جدا فى بروج حار
جدا فوجب ان يقوى السخونة جدا واذا حصلت الشمس فى السرطان
فقد حصل كوكب حار جدا فى بروج بارد جدا فوجب ان ينكسر
حره ويضعف لكن ليس الامر كذلك فانه حين تحصل الشمس فى الحمل
يكون الحر ضعيفا وحين تحصل فى السرطان يكون الحر قويا فعلمنا
ان قوة الحر ليس لتاثير الانجم والبروج بل بتدبير مقدر وتدبير
صانع حكيم فان قيل اذا حصلت الشمس فى السرطان فهاهنا
وان حصلت الشمس فى البرج البارد الرطب الا انها على سمت الراس
فلاجرم قوى الحر بهذا السبب قلنا هذا باطل بكونه فى الاسد
لان الشمس حال كونها فى الاسد تباعدت عن سمت الراس مع ان الحر
عند كون الشمس فى الاسد اشد واقوى فهذه الاعتبارات دالة على
ان تغير احوال العالم بسبب تقدير الصانع المختار لا بسبب احوال
الانجم والافلاك البحث الخامس ان القوم لما سلموا ان هذه
البروج مختلفة فى الطبايع والماهيات فان واحدًا منها يقتضى
السخونة واليبوسة والاخر يقتضى البرودة والرطوبة فلولا
اختلافها فى الماهية والا لما اختلفت اثارها واذا كانت هذه
البروج مختلفة الطبايع والماهيات كان الفلك مركبا من اجسام
مختلفة الطبايع والحقيقة كما ان الانسان مركب من اعضاء

مختلفة واجزاء غير متساوية في الحقيقة والماهية وكل مركب
فانه ينتهي لا محالة الى الانحلال والاختلاف ومباينة كل واحد
من تلك الاجزاء المتنافرة المتباعدة عن صاحبه وهذا يقتضي
ان السموات تنشق وتخرب ولا يبقى تركيباتها وهو مطابق للقرآن
العظيم ولنكتف بهذا القدر من الكلام في البروج والمنازل
النوع الثالث في المباحث المتعلقة بالشفق قال تعالى فلا اقسم
بالشفق والليل وما وسق والقمر اذا اتسق اعلم ان تركيب
لفظ الشفق في اصل اللغة لرقة الشيء ومنه يقال شيء شفق
اذا كان رديا لضعفه ورقة وجوده واشفق عليه اذا رق قلبه
والشفقة رقة القلب ثم اتفق العلماء على انه اسم للاثر الباقي
من الشمس في الافق بعد غروبها ثم اختلفوا فذهب عامة العلماء
الى انه هو الحمرة وهو قول ابن عباس والكلبي ومقاتل ومن اهل
اللغة قول الليث والفراء والزجاج وعن ابي حنيفة في احدى
الروايتين انه البياض وروى اسد بن عمرو انه رجع عنه واحتج
الاولون على قولهم بوجوه الوجه الاول قال الفراء سمعت بعض
العرب يقول عليه ثوب مصبوغ كانه الشفق وكان ذلك الثوب
احمر فدل ذلك على ان الشفق هو الحمرة الوجه الثاني ان الامة
مجمعة على ان الشفق هو وقت العشاء الاخرة فوجب ان يكون
المعتبر هو الحمرة لا البياض لان البياض يمتد وقته ويطول
لبثه والحمرة لما كانت بقية ضوء الشمس عن الافق ذهبت الحمرة
الوجه الثالث ان اشتقاق الشفق لما كان من الرقة ولا شك

ولا شك ان ضوءه ياخذ في الرقة والضعف من عند غيبوبة الشمس
فيكون الحمرة شفقا اما من قال فهو البياض فقد احتج بوجوه
الحجة الاولى انا بينا ان اشتقاق هذه اللفظة يدل على الضعف
والبياض الباقي اثر ضعيف بقي من الشمس فوجب ان يكون مسمى
باسم الشفق الحجة الثانية صلوة الصبح وصلوة العشاء واقعتان
على الطرفين فلما كان وقت صلوة الصبح بطلوع البياض وجب
ان يكون صلوة العشاء بغروب البياض اما بغروب قوله والليل
وما وسق فقال اهل اللغة وسق اي جمع ومنه الوسق وهو
الطعام المجتمع الذي يكال ويوزن ثم صار اسما للحمل واستوسقت
الابل اذا اجتمعت وانضمت قال القفال مجموعا اقاويل المفسرين
على انهم فسروا قوله تعالى والليل وما وسق على جميع ما تجمعه
الليل من النجوم ورجوع الحيوان عن الانتشار وتحرك ما يتحرك فيه
من الهوام وهذا يحتمل ان يكون اشارة الى الاشياء كلها لاشتمال
الليل عليها فكانه قال اقسم بجميع المخلوقات كما قال فلا اقسم
بما تبصرون وما لا تبصرون وقال سعيد بن جبير قوله وما وسق
الاعمال التي عملت في الليل وقال القفال يحتمل ان يكون ذلك تهجد
العباد فقد مدح الله تعالى المستغفرين بالاسحار فجاز ايضا
ان يحلف بهم وانما قلنا ان الليل جمع هذه الاشياء كلها لان
ظلمته كانت تخلل الجبال والبحار والشجر والحيوانات فلا جرم
صح ان يقال وسق الليل جميع هذه الاشياء واما قوله والقمر اذا
اتسق فاعلم ان اصل الكلمة من الاجتماع يقال وسقته فاتسق

كما يقال وصلته فاتصل قال ابن عباس والقمر اذا اتسق اى استوى
واجتمع واستدار وتكامل وذلك ليلة الرابع عشر ثم قال
لتركبن طبقا عن طبق وفيه مسايل المسئلة الاولى قرى لتركبن
على خطاب الانسان ولتركبن بضم الباء على خلاف الجنس لان
النداء فى قوله على خطاب الانسان يا ايها الانسان انك كادح
للجنس ولتركبن بكسر الباء على خطاب النفس وليركبن بالياء على
معنى ليركبن الانسان المسئلة الثانية الطبق ما طابق غيره
يقال ما هذا بطبق كذا اى لا يطابقه ومنه قيل للغطاء طبق
واطباق الثرى ما تطابق منه ثم قيل للحالة المطابقة لغيرها
طبق ومنه قوله تعالى طبقا عن طبق اى حالا بعد حال وكل
واحدة مطابقة لاختها ولنذكر وجوه المفسرين فنقول اما
القراءة برفع الباء وهى خطاب الجمع ويحتمل وجوها الاول
ان يكون معنى لتركبن ايها الانسان امورا واحوالا امرا بعد امر
وحالا بعد حال ومنزلا بعد منزل الى ان يستقر الامر على ما يقضى به
على الانسان اوله من جنة او نار فحينئذ يحصل الدوام والخلود
اما فى الثواب او فى العقاب ويدخل فى هذه جملة احوال الناس
من حين يكون نطفة الى ان يصير شيخا ثم يموت فيكون فى القبر
ثم فى البرزخ ثم يحشر ثم ينتقل اما الى جنة او الى نار والثانى
ان يكون معنى الاية ان الناس يلقون يوم القيامة احوالا
وشدايد حالا بعد حال وشدة بعد شدة كانهم لما انكروا البعث
فاقسم الله ان البعث كاين والناس يلقون فيه الشدايد والاهوال

الى ان يفرغ من حسابهم فيصير كل احد الى ما اعد له من جنة او نار
وهو كقوله بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وقوله يوم
يكشف عن ساق وقوله يوما يجعل الولدان شيبا والثالث
ان يكون المعنى ان الناس ينتقل احوالهم فمن سعيد يشقى ومن شقى
يسعد وهو كقوله خافضة رافعة وهذا التاويل مناسب لما
قبل هذه الاية لانه تعالى لما ذكر حال من يرى كتابه وراء ظهره
انه كان فى اهله مسرورا انه ظن ان لن يحور اخبر الله تعالى
انه يحور ثم اقسم ان الناس يركبون فى الاخرة طبقا عن طبق
اى حالا بعد حال فى الدنيا الرابع ان يكون المعنى لتركبن سنة
الاولين ممن كان قبلكم فى التكذيب بالنبوة والقيامة واما
القراءة بنصب الباء فى لتركبن فان فيها اقوال الاول ان يكون
ذلك بشارة للنبى عليه السلام بالنصرة والغلبة على المشركين
المكذبين بالبعث كانه قال اقسم يا محمد لتركبن حالا بعد حال
حتى يختم لك بجميل العاقبة فلا يحزنك تكذيبهم وتماديهم
فى كفرهم ويتفرع على هذا القول احتمالان احدهما ان يكون
المعنى انه يركب حال الظفر والغلبة بعد حال الخوف والشدة والاحتمال
الثانى ان يكون المعنى ان الله تعالى يبدله بالمشركين انصارا
مسلمين ويكون مجاز ذلك من قولهم طبقات الناس والقول الثانى
ان يكون ذلك بشارة لمحمد عليه السلام لصعوده الى السموات
ليشاهد ملكوتها ويشاهد حال الملايكة والمعنى لتركبن يا محمد
السموات طبقا عن طبق قال تعالى سبع سموات طباقا وقد فعل الله

ذلك ليلة الاسراء وهذا القول مروى عن ابن عباس وابن مسعود
القول الثالث لتركبن يا محمد درجة بعد درجة ورتبة بعد رتبة
في القرب من الله تعالى والقول الرابع في هذه القراة ان هذه
الاية واردة في شرح احوال السموات والمعنى لتركبن السماء يوم
القيامة حالة بعد حالة وذلك لانها اولا تنشق كما قال
اذا السماء انشقت ثم تنفطر كما قال اذا السماء انفطرت ثم تصير
وردة كالدهان وكالمهل على ما ذكره الله هذه الاشياء في آيات
من القران وكانه تعالى لما ذكر في اول السورة انها تنشق اقسم
في آخر السورة انها تنتقل من احوال الى احوال وهذا مروى عن ابن
مسعود النوع الرابع في المباحث المتعلقة بالاظلال قال تعالى
في سورة الرعد ولله يسجد من في السموات والارض طوعا
وكرها وظلالهم بالغدو والاصال وقال في النحل اولم يروا
الى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله الاية وقال في الفرقان الم
تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس
عليه دليلا ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا ولنشرع في تفسير
هذه الآية المذكورة في سورة الفرقان فنقول انه تعالى استدل
بحال الظل في زيادته ونقصانه وتغيره من حال الى حال على وجود
الصانع الحكيم اما قوله الم تر ففيه وجهان احدهما انه من رؤية
العين والثاني انه من رؤية القلب وهو العلم فان حملناه على رؤية
العين فالمعنى الم تر الى الظل كيف مده ربك وان حملناه العلم وهو
اختيار الزجاج فالمعنى الم تعلم وهذا اولى وذلك لان الظل اذا جعلناه

من المبصرات فتاثير قدرة الله تعالى في تمديده غير مرئي بالاتفاق
ولكنه معلوم من حيث ان كل متغير ممكن وكل ممكن فله موثر فحمل
هذا اللفظ على رؤية القلب اولى من هذا الوجه المسئلة الثانية
المخاطب بهذا الخطاب وان كان هو الرسول بحسب ظاهر اللفظ
الا ان الخطاب عام في المعنى لان المقصود بالاية بيان انعام الله
تعالى بخلق الظل وجميع المكلفين يشتركون في انه يجب كونهم
متنبهين لهذه النعمة واستدلالهم بها على وجود الصانع الحكيم
سبحانه والكلام الملخص يرجع الى وجهين الاول الظل هو الامر
المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة وهو ما بين ظهور
الفجر الى طلوع الشمس وكذا الكيفيات الحاصلة داخل السقف بنيه
الجدران وهذه الحالة اطيب الاحوال لان الظلمة الحاصلة يكرهها
الطبع وينفر عنها المزاج واما الضوء الخالص وهو الكيفية
الفايضة من الشمس فهي لقوتها تبهر حس البصر ويفيد السخونة
القوية وهي موذية فاذا اطيب الاحوال هو الظل ولذلك وصف
الجنة به فقال وظل ممدود واذا ثبت هذا فنقول انه تعالى
بين ان هذا الظل من النعم العظيمة والمنافع الجليلة ثم ان الناظر في
الجسم الملون وقت الظل كانه لا يشاهد شيئا سوى الجسم وسوى
اللون ولا يعرف ان الظل امر ثالث به يكمل الانتفاع بمحسوسات
هذا العالم فاذا طلعت الشمس ووقع ضوءها على اجسام هذا العالم
زال ذلك الظل فلولا وقوع ضوء الشمس على الاجرام لما عرف ان
للظل وجودا وحقيقة لان الاشياء انما يعرف باضدادها

ولولا الظلمة لما عرف النور فكانه سبحانه لما اطلع الشمس على الارض
وزال الظل فحينئذ ظهر للعقول ان الظل كيفية زايدة على الجسم
واللون فلهذا قال سبحانه ثم جعلنا الشمس عليه دليلا اى خلقنا
الاظلال بما فيها من المنافع والخيرات ثم هدينا العقول الى معرفة
وجودها بان اطلعنا الشمس وكانت الشمس دليلا على وجود كيفية
الظل الذى هو منشاء المنافع الكثيرة ثم قبضناه اى ازلنا الظل
لا دفعة بل يسيرا يسيرا فانه كلما ازداد ارتفاع الشمس ازداد
نقصان الاظلال في جانب المغرب ولما كانت الحركات المكانية
لا توجد دفعة بل يسيرا يسيرا فكذا زوال الاظلال لا يكون
دفعة بل يسيرا يسيرا وايضا فقبض الاظلال لو حصلت دفعة
لاختلت المصالح ولكن قبضها يسيرا يسيرا يفيد رعاية مصالح
العالم والمراد بالقبض الازالة والاعدام وهذا احد التاويلين
التاويل الثانى انه سبحانه لما خلق الارض والسماء وما خلق
الشمس والقمر والكواكب وقع ظل السماء على الارض فحصلت
فى الارض ظلمة شديدة متكاثفة ثم انه خلق الشمس دليلا عليه
وذلك لان بحسب حركات الاضواء تتحرك الاظلال فانهما
متعاقبان متلازمان لا واسطة بينهما فبمقدار ما يزداد
احدهما ينتقص الاخر وكما ان المهتدى يهتدى بالهادى والدليل
ويلازمه فكذلك الاظلال كانها مهتدية بملازمة الاضواء
فهذا هو المراد من جعل الشمس دليلا عليها واما قوله تعالى
ثم قبضناه الينا قبضا يسيرا فاما ان يكون المراد منه انتهاء

الاظلال

الاظلال يسيرا يسيرا الى غاية نقصاناتها فسمى ازالة الاظلال
قبضا لها او يكون المراد من قبضها يسيرا يسيرا قبضها عند قيام
الساعة وذلك بقبض اسبابها وهى الاجرام التى يلقى الاظلال
وهو قوله يسيرا كقوله ذلك حشر علينا يسير فهذا هو التاويل
الملخص واذا عرفت هذا فنقول الاستدلال به على وجود الصانع
الحكيم سبحانه ظاهر وذلك لان حصول الظل امر نافع للاحياء
والعقلاء واما حصول الضوء الخالص والظلمة الخالصة فهو موجب
للمضار لا للمنافع وذلك لان تركيب الانسان تركيب ضعيف والحواس
الانسانية لا تطيق ادراك الكيفية القوية واعتبر ان النظر
الى النور القوى يعمى البصر وسماع الاصوات القوية يورث
الصمم وملامسة الحر القوى او البرد القوى يورث الموت
فلا بد من الاعتدال فى المدركات المحسوسات والظل كيفية
معتدلة كانها كيفية متولدة من امتزاج النور والظلمة فثبت
ان كيفية الظل من المنافع العظيمة واذا ثبت هذا فنقول هذه
الكيفية اما ان تكون من الواجبات والجايزات والاول باطل
والا لما تطرقت المتغيرات اليه فاذا هو الجايزات فلا بد لوجوده
بعد العدم ولعدمه بعد الوجود من صانع قادر محسن رحيم
يقدر هذه الاظلال فى قوتها وضعفها بالمقدار المنافع وانتقالاتها
بالمقادير النافعة وما ذاك الا لانه سبحانه خصص الشمس والقمر
والنجوم كل واحد منها بمقدار خاص من الضوء وبمقدار خاص
من قوة الاضاءة وما ذاك الا من المحسن الرحيم الحكيم فهذا هو الكلام

بالاستدلال بوجود هذه الاظلال على الصانع الحكيم واعلم ان
اظلال نواعا من الخواص العجيبة الخاصية الاولى ان الاظلال في
انفسها متحركة الا ان الحس البته لايشاهد حركتها اما انها متحركة
فان العقل قاطع بكونها متحركة وذلك لان الحس شاهد انتقال
الظل من مكان الى مكان آخر ولولا حركته والا لما حصل هذا
الانتقال واما ان الحواس لايشاهد حركاتها فالامر فيه ظاهر
النوع الخامس من المباحث المتعلقة بالنجوم اعلم انه تعالى ذكر
في القرآن انواعا من منافعها الاول كونها زينة السماء والثاني
كونها رجوما للشياطين والله تعالى ذكرها تين المنفعتين معا
في آيتين احدهما قوله في الصافات انا زينا السماء الدنيا بزينة
الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد وثانيها قال في الملك
ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين
وذكر تعالى في سورة الجن هذه المنفعة وهو كون هذه الكواكب
رجوما فقال حكاية عن الجن وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت
حرسا شديدا وشهبا فليتكلم في شرح هاتين المنفعتين اما
المنفعة الاولى وهو كون هذه النجوم زينة السماء الدنيا
ومصابيح فيها فاعلم ان هذا مشتمل على بحثين احدهما كونها زينة
ومصابيح والثاني انها في السماء الدنيا اما انها زينة فلاشك
فيه واما انه تعالى لم سماها بمصابيح في سورة الملك وذلك
لان المصابيح هي السرج والناس يزينون مساجدهم ودورهم
بالمصابيح فكانه قال ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها

بمصابيح اى بمصابيح لا ابسا وبها مصابيحكم في الاضاءة البحث
الثاني ان ظاهر هذه الاية يدل على ان هذه الكواكب مركوزة في
السماء الدنيا لكن اصحاب الهيئة والنجوم اتفقوا على ان هذه الثوابت
مركوزة في الفلك الثامن الذى هو فوق اكبر السيارات واحتجوا عليه
بان بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن فيجب ان يكون كلها هناك
وانما قلنا ان بعضها في الفلك الثامن وذلك لان الثوابت التي
يكون قريبة من المنطقة واقعة في ممر السيارات ان ينكسف بهذه
السيارات والمكسوف لابد وان يكون فوق الكاسف فهذه الثوابت
فوق اكبر السيارات الكاسفات وانما قلنا انه لما كان بعض الثوابت
في الكرة الثامنة وجب ان يكون كلها في الكرة الثامنة لانها باسرها
متحركة بحركة واحد بطيئة في كل مائة ستة درجة واحدة واعلم ان
هذه الحجة ضعيفة فانه لايلزم من تشابه الثوابت كلها في الحركات
كونها باسرها مركوزة في كرة واحدة لانه لا يمتنع في العقل وجود
كرة تحت كرة القمر تكون متشابهة في البطوء لكرة الثوابت وتكون
الكواكب التي لا تنكسف بهذه السيارات مركوزة في هذا الكرة
السفلية التي هي سماء الدنيا اذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين
بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة الا ترى ان ممثلات
جميع السيارات سوى القمر متحركة بحركة بطيئة متشابهة لحركة
فلك الثوابت وعلى هذا التقدير لا يمتنع ان يكون اكثر هذه
المصابيح مركوزة في السماء الدنيا فان قيل هب ان ما ذكرتم
يحتمل الا انكم سلمتم ان هذه الكواكب الثابتة الواقعة في ممر السيارات

المنكسفة بها مركوزة فى كرة فوق اكبر هذه السيارات السبعة
وحينيذ يعود الاشكال فى تلك الكواكب والجواب من وجهين
الاول ان قوله ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح يقتضى ان
يكون السماء الدنيا مزينة بمصابيح وليس فيه دلالة على ان كل
الكواكب فى هذه السماء واما قوله فى سورة والصافات انا زينا
السماء الدنيا بزينة الكواكب فصيغة الجمع ان كانت تفيد
الاستغراق الا ان اطلاق لفظ العموم لارادة الاكثر مجاز مشهور
فى القران الوجه الثانى فى الجواب ان قوله انا زينا السماء الدنيا
بزينة الكواكب لا يقتضى كون الكواكب موجودة فيها وذلك
لان السموات اذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت فى السماء
الدنيا او كانت فى سموات اخرى فوقها فهى لا بد وان يظهر فى السماء
الدنيا ويلوح منها فعلى هذين التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة
بهذه المصابيح المنفعة الثانية للكواكب كونها رجوما للشياطين
يروى ان الجن كانوا يصعدون الى السموات ويستمعون الاخبار
ويرجعون الى الدنيا ويلقونها الى الخلق وكان يصير ذلك سببا
لتمكن الكهنة من الاخبار عن الغيوب فلما بعث الله محمدا عليه السلام
حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منهم مسترقا للسمع
رمى من هذه الكواكب بشهاب فاحرقه فهذا هو السبب فى انقضاض
الشهب وهذا هو المراد من قوله وجعلناها رجوما للشياطين
ومن الناس من طعن فيه واحتج بوجوه الحجة الاولى ان انقضاض
الكواكب امر مذكور فى كتب قدماء الفلاسفة قالوا ان الارض

اذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس فاذا بلغ كرة النار احترق
بها فتلك الشعلة هى شهاب واذا كان الامر كذلك فكيف يمكن ان
يقال السبب فيه رمى الجن بالشعلة من النار الحجة الثانية ان
هؤلاء الجن كيف يعقل ان يشاهدوا واحدا والفا من جنسهم
كلما استرقوا السمع احترقوا ثم انهم مع ذلك يعودون الى مثل
صنيعهم فان العاقل اذا راى الهلاك فى شى مرة واحدة والف مرة
امتنع ان يعودوا له من غير فايدة الحجة الثالثة انه روى فى
الاخبار ان ثخن كل واحد من السموات مسيرة خمسماية عام
فهؤلاء الجن ان قدروا على خرق هذه السموات مع عظمها
فهذا باطل لانه تعالى نفى ان يكون فيها فطور قال هل ترى
من فطور وقال ما لها من فروج ووصفها بالشدة فقال سبعا
شدادا وان لم يقدر الجن على خرق اتصال السموات فكيف
يمكنهم ان يسمعوا اسرار الملئكة من هذا البعد العظيم ثم ان عقل
ان يسمعوا اسرار الملايكة من هذا البعد العظيم فلم لا يسمعوا
هذه الاسرار من الارض ايضا وحينيذ لا تبقى فايدة فى تبعيدهم
من السماء الحجة الرابعة ان الملايكة انما اطلعوا على الاحوال
المستقبلة اما لانهم طالعوها من اللوح المحفوظ او لانهم يلقونها
من الوحى اليهم وعلى التقديرين فلم لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا
يتمكن الشيطان من الوقوف عليها لا سيما وقد وصفهم الله
سبحانه بقوله لا يسبقونه بالقول وهم بامره يعملون فاذا لم
ياذن الله لهم فى ذلك الكلام لا يذكرونه واذا لم يذكروه

عجز الشيطان عن الوقوف عليه الحجة الخامسة ان القرآن دال
على ان الشياطين مخلوقة من النار قال تعالى وخلق الجان من مارج
من نار والنار لا تحرق النار بل تقويها فكيف يعقل ان يقال
ان الشياطين يرجم عند استراق السمع بهذه الشهب الحجة السادسة
انا قلنا ان هذا القذف كان لاجل صون المعجزات عن شبهات الكهنة
فلم دام ذلك بعد وفات الرسول الحجة السابعة انه تعالى لما
قال زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين
دل هذا على ان خلق الكواكب لها تين المنفعتين فاذا كانت احدى
المنفعتين وهي التزيين كانت موجودة قبل مبعث محمد عليه السلام
وجب ان يكون المنفعة الثانية ايضا كانت موجودة قبل مبعث
محمد عليه السلام الحجة الثامنة ان وصف هذا الانقضاض
جاء في شعر الجاهلية قال بشر بن ابي خازم والعير يرهقها الغبار
وجحشها ينقض خلفها انقضاض الكوكب وقال اوس بن حجر
وانقض كالدري يتبعه نقع بنور تخاله طنبا وقال عوف بن الخرع
يرد علينا العير من دون الفه او الثور كالدري يتبعه الدم الحجة
التاسعة روى الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال بينما
رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في نفر من الانصار اذ رمي
بنجم فاستنار فقال عليه السلام ما كنتم تقولون في مثل هذا
في الجاهلية فقالوا كنا نقول يموت عظيم ويولد عظيم قالوا فثبت
بهذه الوجوه ان هذه الشهب لا يجوز ان يكون المعنى فيها ما ذكرتم
والجواب عن الشبهة الاولى انا لا ننكر ان هذه الشهب كانت موجودة

قبل مبعث النبي عليه السلام لمنافع اخرى الا ان ذلك لا ينافي
انها بعد المبعث قد حصلت بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم
ويروى انه قيل للزهري اكان يرمى في الجاهلية قال نعم قال افرأيت
قوله تعالى وانا كنا نقعد منها مقاعد للسمع الاية قال غلظ وشدد
امرها حين بعث النبي عليه السلام والجواب عن الشبهة الثانية
انه اذا جاء القضى عمي البصر فاذا قضى الله على طايفة منها
الاحراق لطغيانها واختلالها اوقع في قلوبهم من الدواعي
المطمعة في درك المطلوب ما عندها يقدمون على العمل المفضي
الى الهلاك والبوار والجواب عن شبهة الثالثة ان البعد بين كل
سماء مسيرة خمسماية عام اما ثخن كل فلك فلعله لا يكون عظيما
والجواب عن الشبهة الرابعة ما روى الزهري عن علي بن الحسين
رض عن ابن عباس وذكر قصة الرمي بالنجم قال فقال عليه السلام
انها لا ترمى لموت احد ولا لحيوته ولكن ربنا تعالى اذا قضى الامر
في السماء سبحت حملة العرش ثم يسبح اهل كل سماء حتى ينتهي التسبيح
الى السماء الدنيا ثم يستخبر اهل كل سماء ماذا قال ربكم فيخبرونهم
ولا يزال ينتهي ذلك الخبر من سماء الى سماء الى ان ينتهي الخبر
الى السماء الدنيا فيتخطف الجن فيرمون والجواب عن الشبهة
الخامسة ما بينا ان الشهب كانت موجودة لساير المنافع انها
في زمان محمد عليه السلام شددت وغلظت لهذا الامر فعند
زوال بعض المقاصد لا يجب زوال الشهب وهذا هو الجواب
عن بقية الشبهات المنفعة الثالثة في تخليق الكواكب انه تعالى

جعلها علامات يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر قال تعالى
وعلامات وبالنجم هم يهتدون المنفعة الرابعة ان نستدل
بحركاتها التسخيرية على وجود الصانع الحكيم كما قال فى سورة
الاعراف والشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره فهذه هى المنافع
المذكورة فى القران واهل التجارب ذكروا وجوها اخرى منها انه
يحصل بسببها فى الليل قدر من الضوء ولذلك فانه اذا تكاثف
السحاب فى الليل عظمت ظلمة الليل وذلك بسبب ان السحاب
يحجب انوارها ولا يبعد ادخال هذه المنفعة تحت قوله تعالى
وعلامات وبالنجم هم يهتدون فان ذلك القدر من الاضاءة
اذا حصلت ترتب عليه الاهتداء ومنها انه يحصل بسببها
تفاوت فى احوال الفصول الاربعة وذلك لانها اجسام
عظيمة نورانية فاذا قارنت الشمس كوكبا ناريا مسخنا صار
الصيف اقوى حرا وهو مثل نار يضم الى نار اخرى فانه لاشك انه
يكون الاثر الحاصل من المجموع اقوى ومنها انه يستدل ببعض الكواكب
على معرفة القبلة ولاشك انها من المهمات واعلم انه سبحانه بين
ان فى تخليق البعوضة حكما عظيمة فقال ان الله لا يستحيى ان يضرب
مثلا ما بعوضة فما فوقها فاذا كانت خلقة البعوضة لا تنفك
عن حكمة قاهرة ودلائل باهرة فكيف يجوز انفكاك خلقة هذه
النجوم الشديدة والكواكب النورانية الدرية عن حكمة شريفة
واسرار قدسية لجميع اجزاء العالم بسمواته وكواكبه ورياحه
وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيوانه واعضاء حيوانه

لا يخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة باهرة عرفناها ولم نعرفها
فسبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا

الباب الثالث

فى الاستدلال باحوال الانسان على وجود الصانع الحكيم وفيه
فصول الفصل الاول فى الحكمة فى خلق الانسان اعلم ان هذه
المناظرة شرحها الله تعالى فى قوله واذ قال ربك للملائكة انى جاعل
فى الارض خليفة الاية اعلم انه تعالى لم يذكر فى هذه الاية وجه
الحكمة على التفصيل فى خلق الانسان ولم يزد على قوله انى اعلم
ما لا تعلمون والعلماء فى هذا المقام طريقان الطريق الاول
الطريقة الاجمالية التى ذكرها الله تعالى فى هذه الاية وتقريرها
انه تعالى قادر على جميع المقدورات منزه عن كل الحاجات عالم بكل
المعلومات واذا كان الامر كذلك كان لا محالة عالما بانه ما الذى
ينبغى فعله وما الذى ينبغى تركه وكان عالما لا محالة بكونه غنيا
عما لا ينبغى واذا كان كذلك امتنع اقدامه على فعل ما لا ينبغى و
اذا كان الامر كذلك ثبت ان كل ما يفعله الله تعالى صواب وحكمة
وانه منزه عن فعل العبث كما قال افحسبتم انما خلقناكم عبثا
ومنزه عن فعل اللعب كما قال وما خلقنا السماء والارض وما
بينهما لاعبين ومنزه عن فعل الباطل كما قال وما خلقنا السماء
والارض وما بينهما باطلا بل كل ما فعله فهو انما يفعله بالحق
كما قال وما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق واجل
مسمى وله الملك والملك بالحق كما قال ثم ردوا الى الله مولىهم
الحق ومتى علمنا ان الامر كذلك علمنا ان له فى تخليق البشر حكمة

بالغة واسرار شريفة ولكنه تعالى ما كشف تفاصيلها للبشر كما قال
ما اشهدتهم خلق السموات والارض ولا خلق انفسهم فوجب الايمان
بتلك الحكمة على سبيل الاجمال وترك الخوض في تفاصيلها الطريقة
الثانية بيان حكمة خلق الانسان على التفصيل وفيه وجوه الاول
ان المخلوقات على اربعة اقسام احدها الذى له عقل ولا شهوة له
وهم الملائكة قال تعالى لا يعصون الله ما امرهم ويفعلون ما يؤمرون
وقال يخافون ربهم من فوقهم الاية والثانى الذى له شهوة ولا عقل له
وهو كل الحيوانات ما سوى الانسان والثالث الذى له شهوة
وعقل وهو الانسان فان رجح شهوته على عقله التحق بالبهايم
بل كان اضل كما قال تعالى اولئك كالانعام بل هم اضل وان رجح
عقله على شهوته التحق بالملائكة كما قال تعالى وفضلناهم على كثير
ممن خلقنا تفضيلا والرابع الذى لا عقل له ولا شهوة وهو الجمادات
ثم انه سبحانه كان في عهد الاقدم والزمان الاسبق خلق الاقسام
الثلثة وبقى القسم الرابع وهو الذى يحصل فيه العقل والشهوة معا
فاقتضت قدرته التامة ومشيته الكاملة خلق هذا القسم الرابع
لئلا يبقى شئ من الاقسام الممكنة محروما عن جود ايجاده ونعمة
ابداعه فعند هذا قال للملائكة انى جاعل في الارض خليفة قالت
الملائكة انك اذا جمعت بين الشهوة والغضب والعقل جاءت
المنازعة فتولد الفساد من الشهوة وتولد سفك الدماء من الغضب
فقال مدبر العالم المحيط علمه بجميع الكليات والجزئيات انى اعلم
ما لا تعلمون ويحتمل والله اعلم بمراده ان يقال انه يحصل من تخليقهم

فتكوينهم

وتكوينهم كمال حكمتى ورحمتى وقدرتى ويحصل منه ايضا كمال
حالهم ودرجتهم اما كمال قدرتى فلئلا يبقى هذا القسم محروما
عن اثر الجود واما كمال حكمتى فلانه وان كان الفساد والسفك
يحصلان كثيرا الا انه لا اكثر عدمهما وحصول العبودية والتذلل
فترك الخير الكثير لاجل الشر القليل شر كثير وهو غير لايق بحكمة الله
واما كمال حالهم ودرجاتهم فهو ان العمل بمقتضى العقل عند
عدم الشهوة ليس في غاية الكمال انما الكمال هو العمل بمقتضى العقل
مع قيام منازع الشهوة كما في حق البشر فيحتمل في ظنوننا ان المراد
بقوله تعالى انى اعلم ما لا تعلمون هذا المعنى والله اعلم باسرار
كلامه التقسيم الثانى للمخلوقات اعلم ان مخلوقات الله تعالى
بحسب التقسيم العقلى على ثلثة اقسام فاما ان تكون ارواحا
قدسية نورانية ربانية بلا اجساد واما ان يكون اجسادا
بلا ارواح واما ان يكون مركبة من الارواح والاجساد
القسم الاول فهم الملائكة ولهذا السر سماهم الله تعالى
في القران روحا قال تعالى في سورة البقرة في صفة عيسى
عليه السلام وايدناه بروح القدس وقال نزل به الروح
الامين على قلبك وقال في سورة مريم ارسلنا اليها روحنا
فتمثل لها بشرا سويا وقال في عم يوم يقوم الروح والملائكة
صفا سمى اثارهم في ارواح البشر روحا فقال في النحل ينزل
الملائكة بالروح من امره وقال وكذلك اوحينا اليك روحا
من امرنا واما القسم الثانى اعنى ان يكون اجسادا بلا ارواح

فهي الحيوانات والنبات والمعادن فان قيل الحيوان له روح
فكيف ادخلته تحت القسم الذي لا روح له قلنا مرادنا من الروح
اللطيفة التي يقوى على ادراك المعقولات والمجردات وليس لساير
الحيوانات هذا الروح ولما دخل في الوجود هذان القسمان بقي
القسم الثالث وهو الموجود الذي يحصل من الازدواج بين الارواح
العلوية النورانية الربانية اللطيفة والاجسام الظلمانية
الشهوانية الكثيفة فحصل من ذلك الازدواج الانسان فجسده
من عالم الخلق وروحه من عالم الامر فلا جرم قال الا له الخلق والامر
وحصل جسده بالتسوية وروحه بالنفخ قال فاذا سويته ونفخت
فيه من روحي وكان جسده من فطرة هذا العالم وروحه من فطرة
العالم الاعلى فقال في فطرة جسده ولقد خلقنا الانسان
من سلالة من طين الى تمام المراتب الستة ثم قال في فطرة روحه
في المرتبة السابعة ثم انشاناه خلقا آخر وذكر ان جسده
من هذا العالم فقال قل انما انا بشر مثلكم وان روحه متوجه
الى ذلك العالم وهو قوله يوحى الي وبين ان طاعة الجسد هو
الاشتغال بالعبادات وان طاعة الروح هو التوكل على رب
الارضين والسموات فقال في آخر هود فاعبده وتوكل عليه
واعلم ان دلايل كمال القدرة وجلال الحكمة في تخليق هذا النوع
اتم واكمل وبيانه من وجوه الحجة الاولى ان الروح علوي
والبدن سفلي والعلو والسفل ضدان والروح نوراني والبدن
ظلماني والنور والظلمة ضدان والروح لطيف والبدن كثيف

والطافة والكثافة ضدان والروح سماوي والبدن ارضي
والسماء والارض ضدان والروح رحماني بدليل انه لا يرغب
الا في معرفة الله ولا يفرح الا بخدمة الله ولا يميل الا الى محبة
الله ولا يبتهج الا بمطالعة انوار جلال الله ولا يطمئن الا بذكر
الله ولا يستقر الا على عتبة قدس كبرياء الله واما البدن
فانه شهواني ظلماني شيطاني لانه لا يغتذي الا بدردي عالم
الجسمانيات ولا يعصي الله الا في عالم الجسمانيات ولا يفرح
ولا يقوى الجسم الا بالانغماس في الشهوانيات والظلمانيات
واذا كان الامر على هذه الجهة حصل بين الروح والجسد منافاة
عظيمة ومباينة تامة والجمع بينهما يدل على قدرة كاملة وحكمة
عالية الا له الخلق والامر تبارك الله رب العالمين الحجة الثانية
ان الشوق الى الله مقام شريف وفيه لذة عجيبة وهذا المقام
غير حاصل الا للبشر واعلم ان هذا الكلام لا يتلخص الا بتقديم حقيقة
الشوق فنقول ان الشوق لا يتصور الا الى شيء ادرك من وجه
ولم يدرك من وجه آخر اما الذي لم يدرك بوجه من الوجوه
اصلا فلا يشتاق اليه فان من لم ير شخصا ولم يسمع وصفه
لم يتصور ان يشتاق اليه وما ادرك بتمامه وكماله لا يشتاق اليه
لان الشوق طلب وطلب الحاضر محال ثم ان الشوق الى المحبوب
يقع على وجهين الاول اذا راه ثم غاب عنه بقي في خياله اثر
تلك الصورة المحسوسة فاشتاق الروح الى ان ينقل ذلك الاثر
من عالم الخيال الى عالم الحس والوجه الثاني ان يرى وجه محبوبه

ولا يرى شعره ولا سائر جسده ومحاسنه فيشتاق الى ان
ينكشف له ما لم ير قط واذا عرفت هذا فنقول هذان الوجهان
غير متصورين في حق الملائكة اما الوجه الاول فلان ذلك
انما يمكن اذا ادرك ثم غاب ويمتنع في حق الملائكة ان يغيبوا
عن شيء عرفوه فكل ما عرفوه فذلك العرفان حاضر لهم ابدا لا
يتبدل ذلك العرفان بالغفلة ولا ذلك الحضور بالغيبة وهذا
هو المراد بقوله سبحانه يسبحون الليل والنهار لا يفترون
وقوله وما منا الا له مقام معلوم وبقوله عليه السلام
من الملائكة صافون لا يركعون وراكعون لا يسجدون
وبالجملة فاحوالهم باقية ومعارفهم دائمة وهم مصونون
عن تغيرات الاحوال وتبدلات المعارف فان حصل لهم شوق
فذلك يكون من القسم الثاني اما الانسان فان هذين القسمين
لا يمكن وقوعهما له بالنسبة الى معرفة الله تعالى بل هما لازمان
لكل العارفين ضرورة اما القسم الاول فلان الذي يتجلى
للعارفين من الامور الالهية وان كان في غاية الوضوح و
الانجلاء الا انه يكون مشوبا بشوائب التخيلات فان الخيالات
لا يفتر في هذا العالم عن المحاكات والتمثيلات وهي مكدرات
للمعارف وانما تمام التجلي في الاخرة بحيث تزول الخيالات
وتبطل التمثيلات فهذا احد نوعي الشوق وهو استكمال
الوضوح فيما اتضح والقسم الثاني ان الامور الالهية لا نهاية
لها وانما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها ويكون الحاضر

متناهيا والغائب غير متناه ولو ان العارف خلق في اول وقت
حدوث العالم ثم سار واسرع سير في درجات المعارف الالهية
بل طار حول عرش الجلال اشد طيران الى آخر وقت يتخيله الخيال
ويستحضره العقل من اواخر اوقات اهل الجنة واهل النار
لكان الحاصل من طيرانه وسيره متناهيا ويكون ما لم يصل هو اليه
غير متناه واذا كان الامر كذلك فظهر ان القسم الاول من الشوق
يزول في الآخرة واما القسم الثاني من الشوق الى الله تعالى فانه البتة
لا يزول بل كلما كان السير اشد واكثر كان الشوق اتم واكمل واذا
عرفت هذه القاعدة فنقول كل من عرف بقي على حالة واحدة فان كان
تلك الحالة موجبة للذة ثم بقيت فعند بقائها واستمرارها لا يبقى
لذيذا وكذا اذا كان مولما فعند استمراره لا يبقى مولما بل اللذة والالم
لا يحصلان الا عند الانتقال من احد الجانبين الى الجانب الاخر
ولنضرب لهذا مثالا من المحسوسات فاحوال الخلق بالنسبة
الى الاغذية الطيبة والاطعمة اللذيذة ثلثة الاول حال الملوك
المتنعمين المتوسعين في اكل الاشياء اللذيذة الطيبة لا يلتذون
بها وذلك لانهم لما واظبوا على اكلها اعتادوها فلا جرم لا
يلتذون بها واما القسم الثاني الفقراء الذين لا ياكلون الا
الاطعمة الخشنة البشعة ولم يتفق لهم البتة تناول الاطعمة الطيبة
القسم الثالث الذين في اكثر الامر ياكلون الاطعمة الخشنة
البشعة وقد يتفق لهم في بعض الاحوال تناول الاطعمة الطيبة
اللذيذة فهؤلاء اذا وجدوا طعاما فيه ادنى طيب ولذة فانهم

يستلذونها فى الغاية واذا عرفت هذا فنقول الملائكة
المقربون وان كانت درجاتهم فى العرفان عالية الا ان تلك
الدرجات باقية مستمرة فهم كالملوك المتنعمين فانهم وان كانوا
مواظبين على الاغتذاء بانوار جلال الله والاستنشاق من روح
نسيم الله الا انه لم يتفق لهم فترة فى هذه الحالة ولا انتقال
عن هذه الدرجة وما وقعوا فى ظلمة المعصية وانكسار ظلمات
الذنوب واما الحيوانات فحالهم يشبه حال الفقراء المواظبين
على الفقر والضر والبوس والمسكنة والجوع والعرى ولم يتفق
لهم انتقال من هذه الحالة الى حالة طيبة فلاجرم لم يكن لهم الم
من الحالة التى هم فيها اما الانسان فتارة يقع فى ظلمات عالم
الاجسام وتارة يتخلص منها الى انوار عالم القدس وسبحات
سرادقات الجلال فينتقلون تارة من الشدة الى الرخا واخرى
من الرخا الى الشدة فاذا انتقلوا من الشدة الى الرخا ومن الابتلاء
الى النعماء عظيم التذاذهم فلاجرم يحصل هناك من اللذات والسعادات
ما لا عين رات ولا اذن سمعت واذا كانت اسباب هذه الغيبة
بعد الحضور بعد الغيبة متعاقبة على الارواح البشرية فى دار
الدنيا حصلت هناك الام ولذات متعاقبة واللذة اذا حصلت
بحيث يكون قبلها فقدان وبعدها توقع حرمان كان الالتذاذ
بها اشد واكمل فهذا النوع من السعادة والبهجة حاصلة
للانسان وغير حاصلة لا للملائكة ولا لسائر المخلوقات
فيمكن ان يكون المراد من قوله انى اعلم ما لا تعلمون هذه الحالة

واليه الاشارة بقوله وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا
فقوله وحملها الانسان اشارة الى تجلى انوار عالم القدس فى روح
الانسان وقوله انه كان ظلوما جهولا اشارة الى ظلمات النفس
الجسمانية والموانع الشهوانية النفسانية الوجه الثالث ان تخليق
الملائكة ظهرت القدرة والحكمة وذلك لان كمال قوتهم يدل على
كمال قدرة خالقهم وكمال عصمتهم يدل على كمال الحكمة خالقهم اما تخليق
البشر ظهر كمال الجود وكمال الرحمة اما كمال الجود فانه لا مناسبة بين
التراب وبين جلال رب الارباب ثم انه برحمته وكرمه جعله
مركز المحبة ومعدن المعرفة كما قال يحبهم ويحبونه واما كمال الرحمة
فانه مع كثرة معاصيه اظهر فيهم انواعا من العجايب فاودع
فى قلبه نور عرفان جلاله واجرى على لسانه ذكر توحيده وجعل
عينيه محلا لابصار دلائله واذنه محلا لسماع كلامه فالملائكة
ظهرت بهم القدرة والحكمة والبشر ظهر بهم الجود والرحمة الوجه
الرابع ان الملائكة خلقوا من الانوار اما آثار التركيب فى البشر اكثر
وذلك لانه تعالى خلقك من جوهرين الروح والبدن واظهرك
من اثنين الاب والام وركبك من شيئين المنى والدم وجعل لك
مطيتين الليل والنهار وغذاك بغذائين الطعام والشراب واعد لك
دارين الجنة والنار كل هذا ليتحقق صدق قوله ومن كل شئ خلقنا
زوجين ومن كل زوجين اثنين الوجه الخامس ان العبد يعلم
ربه بالقدس والعظمة وصفات الجلال والاكرام مع انه ابعد
الاشياء مشابهة له ومشاكلة ثم انه لا يعلم روحه ونفسه

سع انه هو هو كما قال قل الروح من امر ربى الاية ليعلم العبد ان ذلك
كله بسبب مدد التوفيق والارشاد لا بسبب الجد والاجتهاد التقسيم
الثالث ان نقول الموجودات بحسب القسمة اربعة احدها موجود
لا اول لوجوده ولا آخر وهو الحق سبحانه والثانى موجود له اول
وآخر وهو الدنيا والثالث موجود له اول ولا آخر له وهو العبد
والآخرة واما القسم الرابع وهو الذى لا اول له وله آخر فهو محال
لما ثبت فى علم الاصول ان ما ثبت قدمه استحال عدمه واذا عرفت
هذا فنقول ايها العبد لك اول ولا آخر لك وكذلك الآخرة لها
اول ولا آخر لها فانظر انك كفو الدنيا او كفو الآخرة لا يخفى
عليك انك كفو الآخرة فلما كان الامر كذلك فالحق سبحانه خلق
الملائكة للبقاء ابد الاباد فى الآخرة وخلقك ايضا للبقاء
ابد الآباد فى الآخرة لان اظهار القدرة والحكمة والرحمة
فى خلقك للبقاء اتم من اظهارها بسبب خلق الملائكة وذلك
لانها ذوات نورانية مبرات عن الآفات والاسقام والاعلال
والامراض فلعله يخطر ببال احد ان بقاءها انما كان لكونها
نورانية صافية ثم انه تعالى اذا لهذا الخيالات بان خلقك
من اكثف الاشياء واشدها ظلمة وهو التراب وجعلك محل
الاسقام والاعلال ومنزل الآفات والامراض ثم جعلك
فى البقاء الابدى كفو الملائكة المقربين ليظهر للخلق ان البقاء
لا يحصل الا بابقائه والوجود لا يحصل الا بايجاده وابداعه
واعلم انك قد عرفت ان الدنيا لها اول وآخر وهذا يقتضى

انها لا تبقى البته وكما ان من صفتها انها لا تبقى البته فكذلك من
صفتها ان الانسان كلما كان اشد قبضا للدنيا وامساكا لها
كان فوات الدنيا عنه اكثر والدليل عليه انه تعالى شبه الدنيا
بالماء فقال انما مثل الحيوة الدنيا كماء الاية والماء اذا عرفت منه
بقى فى يدك فاما اذا قبضت يدك لا يبقى من الماء فى يدك شئ
وكلما كان ذلك القبض اشد كان عدم بقاء الماء فى الكف اكمل
فكذا الدنيا مهما اخذتها لا بالحرص فربما حصلت فاما اذا قبضت
عليها بمخالب حرصك فاتت وخرجت عن يدك فان قيل فيرى
ان البخيل الذى يمسك المال يكثر ماله والسخى الذى ينفق المال
نفد ماله واختل حاله قلنا هذا خطا لان الذى تظن انه بقى عليه
ماله ليس كذلك لانه يموت ويوخذ ذلك منه بغير حمد ولا اجر
ولا يبقى عليه الا الحساب والذى ينفقه فى سبيل الله يبقى كل ذلك
فى خزائن رحمة الله كما قال ما عندكم ينفد وما عند الله باق التقسيم
الرابع للمخلوقات انها على ثلثة اقسام اما كاملة لا يتطرق
النقصان اليها وهم اصحاب العالم العلوى اجسادهم السموات
وارواحهم الملائكة واما ناقصة لا يتطرق اليه الكمالات وهى
الحيوانات والنبات والمعادن وبقى من التقسيم قسم ثالث وهم
الذين تارة يكونون كاملين وتارة يصيرون ناقصين فاذا
صاروا فى حد الكمال كانوا فوق العرش جالسين مع الملائكة المقربين
فى حضرة رب العالمين معتكفين على عتبة عزة الله مواظبين
على ذكر جلال الله متفكرين فى معارج الاء الله متوكلين على رحمة الله

مشتغلين بخدمة مستغرقين في محبة الله محترقين بنور عظمة الله
وتارة ينزلون الى حد النقصان ومقام الشهوة والغضب اما في
مقام الشهوة فتارة يكونون كخنزير اجيع ثم ارسل على النجاسات
وتارة كالذباب الذي مهما دب آب الى القاذورات واما في مقام
الغضب فتارة يكونون كالكلب العقور واخرى كالجمل الصول وتارة
كالنار المحرقة والسيول المغرقة فهو مع كونه شخصا واحدا يصدق عليه
انه ملك نوراني وشيطان ظلماني وخنزير حريص وحمار صبور و
كلب نابح وثعلب رواغ وفاسق خبيث وملك كريم ولا شك ان تركيب
شخص واحد يظهر هذه الاثار المتناقضة والاحوال المتباينة ادل
على كمال القدرة واعظم في اظهار اثار الحكمة فلهذا السبب
والله اعلم قال اني اعلم ما لا تعلمون واعلم ان الانسان الموصوف
بهذه الصفات بعث الى هذه الدنيا ليكون مسافرا قال امير المؤمنين
رضي الله عنه الناس سفر والدنيا دار ممر لا دار مقر وبطن امه
مبدا سفره والاخرة مقصده وزمان حيوته مقدار مسافته
وسنوه منازله وشهوره فراسخه وايامه امياله وانفاسه
خطاه يسار به سير السفينة براكبها فقد دعي الى دار السلام كما قال
تعالى لهم دار السلام عند ربهم وقال والله يدعوا الى دار السلام
ثم ان دار السلام اشرف البقاع واعز المواضع قال تعالى لهم جنات
تجري من تحتها الانهار وقال وجنة عرضها كعرض السموات والارض
اعدت للمتقين لكن الطريق الى دار السلام مظلم جدا فهو برحمته
يهدي اليه وبفضله يرشد اليه واحسانه يدعوا اليه وبكرمه يسهل

المشي

المشي اليه وبجوده يعفوا عن السيئات ويتجاوز عن الذنوب
فلهذا المعنى قال اني اعلم ما لا تعلمون فهذا تمام الكلام في حكمة
خلق الانسان

الفصل الثاني

في شرح فضيلة الانسان
قال الله تعالى ولقد كرمنا بني آدم الاية اعلم ان هذه الاية
مشتملة على اربعة انواع من التشريفات النوع الاول قوله تعالى
ولقد كرمنا بني آدم وفيه مباحث البحث الاول اعلم انه سبحانه
بنى بناء امرك في الاول والوسط والنهاية على الكرم واعرف
العدو بذلك ثم بين الحق نهاية كرامتك ثم شبهك في ذلك بالملائكة
المقربين اما انه بنى اول امرك على الكرم فهو قوله تعالى اقرا باسم
ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرا وربك الاكرم الذي
علم بالقلم فهذه الاية اول آية انزلها الله تعالى على محمد عليه السلام
وقوله اقرا باسم ربك اشارة الى اول وجودك فثبت ان اول
آية انزلها الله تعالى على محمد انما انزلها لبيان كرمه وجوده في
اول احوال تخليقك وايجادك وفيه دقيقة وهي انه اول امرك
غير مبني على كونه كريما بل على كونه اكرم الموجودات لانه قال اقرا وربك
الاكرم ويتاكد هذا الكلام الذي ذكرناه بما يروى ان آدم عليه السلام
لما عطس فقالت الملائكة له قل الحمد لله فقال الحمد لله فقال الله
يرحمك الله ولذلك خلقتك واما انه بنى وسط امرك على الكرم
فهو قوله تعالى ولقد كرمنا بني آدم واما انه بنى خاتمة امرك
على الكرم فهو قوله يوم القيامة عند عجزك وشدة خوفك وعدم
قدرتك على تمهيد الاعتذار يا ايها الانسان ما غرك بربك الكريم

ثم قال بعض المفسرين هذا تلقين الجواب والمقصود ان يقول
العبد يا رب غرني بك غاية كرمك واما انه بني نهاية امرك
على الكرم فهو قوله ان اكرمكم عند الله اتقيكم فلما كان اول
هذا الامر واوسطه واخره مبنيا على الكرم ظهر ان العبد لا يضيع
في بحار كرمه ولا يخيب مع كثرة نعمه واما انه اعترف العدو
بذلك فلان اعدى الاعداء هو ابليس وقد اعترف بذلك حيث
قال ارايتك هذا الذي كرمت علي الاية واما انه تعالى بين
نهاية كرامتك فهو قوله ان اكرمكم عند الله اتقيكم واما انه
شبهك بالملائكة المقربين في هذه الصفة فلانه تعالى وصف
الملائكة بالكرم فقال في صفة جبرئيل انه لقول رسول كريم
وقال في صفة يوسف عليه السلام ما هذا بشرا ان هذا الا ملك
كريم وقال في صفة الملائكة الذين كانوا ضيف ابرهيم هل اتيك
حديث ضيف ابرهيم المكرمين وقال في صفة جميع الملائكة
بل عباد مكرمون وههنا دقيقة وهو انه تعالى قال في بيان
صفة الملائكة انهم مكرمون من غير تشديد وقال في حق البشر
ولقد كرمنا بني ادم ذكره مع التشديد والمقصود من هذا
التشديد بيان تكثير الكرامات في حق البشر وقال ابو يزيد البسطامي
ان انواع نعم الله تعالى في حق البشر غير متناهية الا ترى الى قوله
وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها هذا على سبيل الاجمال واما
على سبيل التفصيل فمن وجوه منها انه كل ساعة يمطر على المتوكلين
مطر الكفاية بدليل قوله ومن يتوكل على الله فهو حسبه ومن كان مؤمنا

فهو

فهو متوكل على الله بدليل قوله تعالى فقل حسبي الله لا اله الا
هو الاية وقال حكاية عن الصحابة انهم قالوا حسبنا الله ونعم
الوكيل ثم قال فانقلبوا بنعمة من الله وفضل ومنها انه تعالى
يمطر كل ساعة على المطيعين مطر المودة قال تعالى سيجعل لهم
الرحمن ودا ومنها انه تعالى يمطر على المجتهدين مطر الهداية قال
والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ومنها انه يمطر على
المتذكرين مطر البصيرة قال ان الذين اتقوا اذا مسهم طايف
من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون ومنها انه يمطر
على الشاكرين مطر الزيادة قال لئن شكرتم لازيدنكم والاستقصا
في هذا الباب خارج عن وسع البشر وكل داخل تحت قوله ولقد
كرمنا بني ادم واعلم ان عطية الله تعالى لها اسماء كثيرة في
الوان احدها الفضل قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك
فليفرحوا اي ينبغي ان يكون مرحكم بفضل الله عليكم لا باعمالكم
وهذا هو مذهب اهل السنة والجماعة فانهم يقولون العبد
وان اطاع ربه باعظم الطاعات من اول خلق العالم الى قيام
الساعة فانه لا يدخل الجنة الا بلطفه ورحمته ولا يكون
للعبد على ربه دين ولا حق ومما يدل على صحة هذا المعنى وجوه
الاول ان هذا العبد ان اطاع فربما وجد من صحة هذا من كان
ازكى منه واكثر صدقا وعلما منه مع انه وقع في الكفر واذا كان
كذلك وكل واحد من هذين العبدين اعني المطيع والعاصي والمؤمن
والكافر والمقر والمنكر يصح ان يصدر من كل واحد منهما كل واحد من

من هذين العملين بدلا عن الثانى فهذا المطيع كما اختار الطاعة
مع انه كان يجوز منه ان يختار المعصية بدلا عن الطاعة فاما ان
يقال حصل هذا الرجحان من غير مرجح وهو يفضى الى نفى الصانع
او يتوقف على مرجح وذلك المرجح ان كان من العبد عاد الطلب
الاول ويفضى الى التسلسل وان كان من الله فحينئذ يكون صدور
تلك الطاعة من الله تعالى فى حقه نعمة واذا كان صدور الطاعة
من العبد عين نعمة الله تعالى على العبد فكيف يستحق العبد بنعمة الله
عليه فى الدنيا نعمة اخرى منه فى العقبى فهذا برهان اوضح من
ضوء الشمس على انه كل ما يحصل فانه انما يحصل بفضل الله ولهذا
قال تعالى قل بفضل الله وبرحمته الآية الحجة الثانية وهو ان
العبد الى ان يصير بحيث يقدر على ان يأتى بالطاعة ويحترز عن
المعصية فقد سبق من الله عليه نعمة عظيمة كما قال تعالى كيف
تكفرون بالله وكنتم امواتا فاحياكم الآية فهو الذى يخلقه بعد
ان كان معدوما محضا كما قال وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا
ثم خلقه من التراب كما قال منها خلقناكم الآية ثم ردده فى اطوار
الخلقة وادوار الفطرة ثم نفخ فيه الروح وخلق فيه الحيوة كما قال
ثم انشأناه خلقا آخر ثم اعطاه الله القدرة كما قال الله الذى
خلقكم من ضعف الآية ثم اعطاه العقل والعلم كما قال والله
اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا ثم اعطاه الصورة
الحسنة كما قال وصوركم فاحسن صوركم ثم اعطاه الله الاغذية
والارزاق كما قال الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم انه تعالى بعد

هذه

هذه النعمة العظيمة الدنياوية انعم عليه بالنعم العظيمة الدينية
وهو بعثة الرسل وانزال الكتب وازالة الحسد والختم والوقر والرين
والغشاوة والقساوة من قلبه واعطاء التوفيق والهداية والعصمة
ثم ان هذا العبد بعد هذه النعم العظيمة اتى بطاعات قليلة كما يليق
بقدرته القاصر وعقله المختصر لا يحكم العقل بوقوع هذه
الطاعة اليسيرة قضاء لحق تلك النعم العظيمة المتقدمة واذا وقعت
هذه الطاعات قضاء لتلك النعم السابقة امتنع صيرورتها
موجبة لنعمة اخرى واذا كان الامر كذلك علمنا ان دخول الجنة
يكون بمحض فضله ورحمته الحجة الثالثة هب انه يمكن ان يصير
عمل العبد علة لاستحقاق الثواب على الله تعالى الا ان فرح العبد
بما يعطيه الله بفضله واحسانه يجب ان يكون اعظم من فرحه
بما يجده من كسبه واجتهاده ومثاله ان من وجد من كسبه دينارا
ووجد من تشريف الملك المعظم خلعة نفيسة على سبيل الاعزاز
فان فرح كل عاقل بما حصل من تشريف الملك يكون اتم واكمل من ذلك
القليل الذى حصل بكسبه فاذا كان الامر كذلك فى السلطان
المجازى فى الملك المختصر فما ظنك بتشريف سلطان السلاطين
على سبيل الحقيقة فى اعطاء ملك لا بدى فلهذا قال سبحانه
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا الحجة الرابعة
انه تعالى جعل اشتغال العبد بالطاعة مبدأ الخيرات وجعل
اعانة الله له على تلك الطاعات غاية السعادات الابدية
الا ترى انه قال اولا اياك نعبد ثم قال واياك نستعين

وقال ولا والذين جاهدوا فينا ثم قال لنهدينهم سبلنا وفي
هذه الدلايل كثرة ومقصودنا هنا من اقامة هذه الدلايل القاطعة
على صحة قوله تعالى قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا
الاسم الثانى من اسماء عطية الله المنه قال الله تعالى بل الله
يمن عليكم ان هديكم للايمان وقال لقد من الله على المؤمنين
الاية ومن الاسماء الواردة في الحديث الحنان المنان فان
قيل اليس انه تعالى نهى رسوله عن المنة فقال ولا تمنن تستكثر
ونهى لامة فقال لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى وبين ان
المنة توجب الريا فقال كالذى ينفق ماله رياء الناس فاذا بين
ان هذه الخصلة مذمومة فكيف ارتضاها لنفسه الجواب
انه تعالى اذا انعم على العبد ثم من عليه بتلك النعمة صار العبد
مشغولا بالمنة وصار غافلا عن النعمة والمنة صفة الحق والنعمة
من جنس الخلق والاشتغال بصفة الحق اولى من الاشتغال بالخلق
الاسم الثالث من اسماء عطية الله تعالى الاحسان قال تعالى
هل جزاء الاحسان الا الاحسان وقال يوسف عليه السلام
وقد احسن بي اذ اخرجنى من السجن وقال موسى عليه السلام
لهارون واحسن كما احسن الله اليك الاسم الرابع اللطيف
قال تعالى الله لطيف بعباده ومن لطفه انه نور قلبك بالهدى
وجنبك عن الردى والهوى وجعلك من امة المصطفى ووعدك
ان يصونك عن العذاب تحت الثرى ويحشرك فى ارباب زمر التقى
ويقيك من عذاب سقر ولظى ويدخلك جنة الماوى ويعطيك

الزيادة المذكورة في قوله للذين احسنوا الحسنى الاسم الخامس
الهبة قال الله تعالى يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور الاسم
السادس الفتح قال تعالى ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك
لها وقال ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق الاسم السابع
الاكرام والتكريم كما فى قوله ولقد كرمنا بنى ادم والتكريم جعل الشيء
كريما انما يكون بحصول صفات الكمال فيه وحصول تلك الصفات
لا يكون الا بايجاد الحق وتكوينه فظهر ان التكريم لا يحصل الا باكرامه
والحسنى لا يحصل الا من جوده واحسانه البحث الثالث فى قوله ولقد
كرمنا بنى ادم واعلم انه قد اختلف المفسرون في المراد بهذا التكريم
وذكروا فيه اقوالا كثيرة وطريق ضبط القول فيها ان نقول هذا
التكريم اما ان يكون المراد منه احوالا موجودة فى جسد الانسان
او احوالا موجودة فى روحه او مجموعهما اما الاحوال الجسدانية
فيمكن حمل هذا التكريم على امور النوع الاول ان يكون المراد ولقد
كرمنا بنى ادم بالصور الحسنة من جملة نعم الله على العبد وجوه
الاول قوله تعالى وصوركم فاحسن صوركم الحجة الثانية
قوله صبغة الله ومن احسن من الله صبغة واعلم ان الصبغ ما
يلون به الثياب يقال صبغ الثوب يصبغه بفتح الباء وكسرها
وضمها ثلث لغات وصبغا وصبغا بفتح الصاد وكسرها لغتان
والصبغة فعلة من الصبغ كالجلسة من الجلس وهى الحالة التى
يقع عليها الصبغ وذكروا في المراد بصبغة الله وجوها الاول
ان المراد به تركيبه وخلقته وصورته وعلى هذا القول فالاية

تدل على كمال حسن صورة الانسان من وجهين احدهما انه تعالى
لما اضاف هذه الصبغة الى نفسه دل ذلك على كمالها كما فى قوله
بيت الله وناقة الله والثانى انه قال ومن احسن من الله صبغة وهذا
يدل على كمال هذه الصبغة والثالث ان المراد منه دين الله ثم ذكروا
فى انه لم سمى دين الله بصبغة الله ذكروا فيه وجوها الاول ان
بعض النصارى كانوا يغمسون اولادهم فى ماء اصفر يسمونه المعمودية
ويقولون هو تطهير لهم واذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قالوا
لابيه الان نصرانيا فقال تعالى اطلبوا صبغة الله وهى الدين
والاسلام لا صبغتهم فعلى هذا السبب فى اطلاق لفظ الصبغة على
الدين طريق المشاكلة ونظيره قوله تعالى فمن اعتدى عليكم فاعتدوا
عليه بمثل ما اعتدى عليكم وجزاء سيئة سيئة مثلها انما نحن
مستهزؤن الله يستهزئ بهم يخادعون الله وهو خادعهم ومكروا
ومكر الله فان تسخروا منا فانا نسخر منكم الثانى ان اليهود
تصبغ ابناها تهودا والنصارى تصبغ ابناها تنصرا بمعنى يلقنونهم
فيصبغونهم بذلك لما يشربون قلوب اولادهم حب هذه الاديان
قال ابن الانبارى يقال فلان يصبغ فلانا فى الشر اى يدخله فيه
ويلزمه اياه كما يجعل الصبغ لازما للثوب وانشد ثعلب دع الشر
وانزل بالنجاة تحرزا اذا لم يصبغك فى الشر صابغ والثالث انه سمى
الدين صبغة لان هيئته تظهر بالمشاهدة من اثر الطهارة والصلاة
وغيرهما قال تعالى سيماهم فى وجوههم من اثر السجود والرابع قال
القاضى عبد الجبار بن احمد الهمدانى صبغة الله متعلق بقوله قولوا امنا

بالله الى قوله ونحن له مسلمون فوصف هذا الايمان الصادر منهم
بانه صبغة الله ليبين ان المباينة بين هذا الدين الذى اختاره
الله وبين الدين الذى اختاره المبطل ظاهرة جلية كما تظهر المباينة
بين الالوان والاصباغ لذى الحس السليم الحجة الثالثة قوله تعالى
لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم واعلم ان التقويم
تصيير الشئ على ما ينبغى ان يكون فى التاليف والتعديل يقال
قومه تقويما فاستقام وتقوم ثم ذكروا فى هذا التقويم
وجوها الاول منها ما نقل عن يحيى بن اكثم وجماعة انه حسن الصورة
يحكى ان ملك زمانه خلا بزوجته فى ليلة مقمرة فقال لها ان لم
تكونى احسن من القمر فانت طالق فافتى الكل بالحنث الا يحيى بن
اكثم فانه قال لا يقع الطلاق فقيل له لم خالفت شيوخك فقال الفتوى
بالعلم والدين وبهذا افتى من هو اعلم منا وهو الله سبحانه حيث
يقول لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم وكان بعض الصالحين
يقول الهنا اعطيتنا فى الدنيا احسن الاشكال فاعطنا فى الاخرة
احسن الفعال وهو العفو عن الذنوب والتجاوز عن العيوب
الحجة الرابعة ان كل شخص فله حكمان احدهما من قبل جسمه وهو
منظره والاخر من قبل نفسه وهو مخبره وكثيرا ما يتلازمان
ولذلك فزع اصحاب الفراسة فى معرفة احوال النفس الى
الهيئة البدنية حتى قال بعض الحكماء قلما توجد صورة حسنة
تدبرها نفس خسيسة فنقش الخواتيم مقروء من الطين وطلاقة
الوجه عنوان ما فى النفس وقال عليه السلام اطلبوا الحوائج

من حسان الوجوه وقال عمر اذا بعثتم رسولا فاطلبوا حسن
الوجه حسن الاسم وحكى ان المامون استعرض جيشا فمر به
رجل قبيح فاستنطقه فواه لكن فامر باسقاطه وقال ان الروح
اذا وقع اثرها فى الظاهر كان صباحة واذا وقع اثرها فى الباطن
كان فصاحة وهذا الرجل لا ظاهر له ولا باطن الحجة الخامسة
فى ان كمال الجسم من الفضايل قوله تعالى وزاده بسطة فى العلم
والجسم واعلم ان حسن الصورة وان كان امرا مرغوبا فيه الا ان
حسن السيرة افضل منه ويدل عليه وجوه الاول ان حسن
الصورة من مطالب الشهوة وحسن السيرة من مطالب الحكمة
ولا شك ان الحكمة افضل من الشهوة فكان حسن السيرة افضل
من حسن الصورة وحسن السيرة ثم انه بسبب حسن الصورة وقع
فى انواع من البلاء منها ان اباه كان يحبه ازيد كما قال مخبرا
عن اخوته اذ قالوا ليوسف واخوه احب الى ابينا منا فلاجرم
قصدوا قتله كما حكى الله عنهم فقال اقتلوا يوسف الاية وثانيها
انه وقع بسبب الحسن فى اسر الرق والشرى قال وشروه بثمن بخس
والثالث انه بسبب الحسن فى مزاحمة مراودة المراة كما قال وراودته
التى هو فى بيتها عن نفسه والرابع انه وقع فى الهم قال ولقد
همت به وهم بها وخامسها وقع فى الخوف عن زوج تلك المراة
قال والفيا سيدها لدى الباب وسادسها انهم جعلوه فى
السجن بسبب هذه الواقعة وبقى هناك مدة طويلة قال تعالى
فلبث فى السجن بضع سنين فهذه هى الافات الحاصلة بسبب حسن الصورة

واما الخيرات الحاصلة له بسبب حسن السيرة فوجوه احدها انه
لما كان عالما بعلم التعبير خاطبوه بخطاب التعظيم واستفتوا منه
تعبير تلك الرؤيا قال تعالى يوسف ايها الصديق افتنا فى سبع
بقرات الاية وثانيها ان الملك لما وجد عنده هذا العلم طلبه
واخرجه من السجن قال تعالى وقال الملك ائتونى به استخلصه
لنفسى والثالث انه زالت التهمة عنه فى ذلك الوقت ببركة العلم
قالت امراة العزيز الان حصحص الحق انا راودته عن نفسه الاية
والرابع ان الملك اصطفاه لنفسه عند ذلك واثنى عليه وقال
الملك ائتونى به استخلصه لنفسى وقال انك اليوم لدينا مكين
امين ولم يقل صبيح مليح الخامس ان يوسف توسل الى ذلك
الملك بحسن السيرة لا بحسن الصورة فقال تعالى حكاية عن يوسف
اجعلنى على خزاين الارض انى حفيظ عليم فثبت بما قلنا انه وقع
فى ستة انواع من البلاء بسبب حسن الصورة ووصل الى ستة انواع
من الخيرات بسبب حسن السيرة وذلك يدل على ان حسن السيرة افضل
من حسن الصورة الحجة الثالثة ان النسوة لما راين يوسف قلن
حاش لله ما هذا بشرا ان هذا الا ملك كريم شبهن يوسف بالملك
وذلك التشبيه كان فى حسن السيرة لا فى حسن الصورة لانه عليه السلام
دخل مطرقا راسه ولم ينظر الى واحدة منهن مع انه كان فى اول
زمان الشباب واستيلاء الشهوة فلما شاهدت منه تلك السيرة
الحسنة صارت صورته فى جنب سيرته مضمحلة ذاهبة حتى ان
النسوة مع شدة شهوتهن لم يذكرن منه الصورة بل ذكرن منه السيرة

فدل على ان حسن السيرة افضل من حسن الصورة الحجة الرابعة
ان حسن الصورة من تفاخر النساء وحسن السيرة من تفاخر الرجال
الحجة الخامسة انه تعالى وان كان لا يطلق في حقه لفظ حسن
السيرة الا ان المعنى حاصل لان افعاله كلها حسنة من حيث انها
احسان وانعام واكرام ولطف وكرم وهو تعالى منزه عن الصورة
وهذا يدل على ان حسن السيرة افضل من حسن الصورة الحجة
السادسة ان حسن الصورة لا يبقى الا اياما قلايل اما حسن السيرة
فانه لا يزول اثره ولا يبطل نتيجته فدل هذا على ان حسن السيرة
افضل من حسن الصورة فهذا جملة الكلام في شرح قول من قال ان
المراد بقوله تعالى ولقد كرمنا بنى آدم حسن الصورة الوجه الثاني
ان المراد من هذا التكريم امتداد القامة وذلك لان الشئ كلما
كان اكثر ارتفاعا وامتدادا كان اعلى في جنسه فالاشجار كلما كان
اكثر ارتفاعا كانت اشرف ولهذا السبب يسمى كل ما جاوز آحاد
جنسه بصفات الشرف بانه العالى والفايق الوجه الثالث
المراد بهذا التكريم انه تعالى اكرم الانسان حيث مكنه من القيام
والقعود والاستلقاء والاضطجاع واعلم انه تعالى خلق الخلق
على اربعة اصناف في التركيب منها ما يشبه القايمين وهي الاشجار
والنبات ومنها ما يشبه الراكعين وهي البهايم ومنها ما يشبه
الساجدين وهي الحشرات التى تدب على بطونها ووجوهها
ومنها ما يشبه القاعدين وهي الجبال والتلال انه سبحانه
اقدر الانسان على جميع هذه الهيئات ومكنه من ان يذكر الله سبحانه

على جميع هذه الاحوال كما قال الذين يذكرون الله قياما وقعودا
وعلى جنوبهم ومن اتى بركعة واحدة فقد حصلت في تلك الركعة
الواحدة هذه الهيئات الاربعة وهي القيام والقعود والركوع
والسجود فحينئذ يحصل له ثواب هذه الاربعة الاصنام فاقدار
الله تعالى الانسان على جميع هذه الهيئات هو المراد بقوله ولقد
كرمنا بنى ادم الوجه الرابع في هذا التكريم انه تعالى خلق بنى ادم
من جوهر التراب وللتراب انواع من الفضايل احدها الوصلة
وذلك لانه تعالى خلق ابليس من النار كما قال خلقتني من نار وخلقته
من طين والنار سبب القطيعة والتراب سبب الوصلة والثاني
ان التراب امانة قال تعالى في كل سنبلة مائة حبة وفيه لطيفة
وهو انه تعالى خلقك من شئ فيه امانة فاجتهد حتى لا تبدل
الامانة بالخيانة ولاجل كون التراب امينا قبل ادم الامانة وهو
قوله انا عرضنا الامانة على السموات الاية والثالث ان التراب طاهر
وطهور قال تعالى صعيدا طيبا ثم قال الطيبات للطيبين والطيبون
للطيبات فلاجل هذا السر اصطفى الله تعالى ادم فقال ان الله
اصطفى ادم ثم اصطفا ابناه فقال ثم اورثنا الكتاب الذين
اصطفينا من عبادنا ثم كرمهم فقال ولقد كرمنا بنى ادم والرابع
التواضع والدليل عليه ان ادم عليه السلام لما اتى بالزلة قال
في الحال ربنا ظلمنا انفسنا ولما اتى ابليس بالمعصية قال له ربه ما
فعلت فقال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين فتكبر
على الله ورد امر الله تعالى لقضاء الله عليه والخامس الطهارة

قال عليه السلام التراب طهور المسلم والماء ايضا طهور قال الله
وانزلنا من السماء ماء طهورا ثم عجن الماء بالتراب طاهرا بطاهر
وطهور بطهور واعلم ان النار لا ينطفي الا باحد هذين الشيئين
التراب والماء فجعل هذا الطين سببا لانطفاء نار الوسوسة
في الدنيا وانطفاء نار جهنم في الاخرة الوجه الخامس في تفسير
قوله ولقد كرمنا بني ادم قال ابن عباس كرمناهم بالاكل بالاصابع
واما البهايم فانها تاكل بالفم واعلم ان وجه التكريم في هذا
المعنى من وجوه الاول ان الراس محل العقل والفكر والذهن
والاكل غذاء الشهوة والبطن ولا يليق بالحكمة ان يسجد الراس
الذي هو معدن العقل والفكر لاجل الغذاء الذي هو نصيب النفس
بل جعلت اليد خادمة للراس حتى ان اليد ترفع اللقمة الى الراس
كما يخدم العبد سيده وفيه لطيفة وهي سبحانه اغناك عن ان
تخضع راسك وتسجد لطلب الطعام فلا تختر بجهلك سجدة المخلوق
لطلب الطعام الوجه الثاني في شرح هذه النعمة ان البهيمة تاخذ
علفها بفمها ملوثة ملطخة اما الانسان فانه ينظف طعامه
باصابعه ويميز جيده من رديه وههنا دقيقة وهو ان الله
سبحانه علق رعاية مصالح البهايم بطباعها حتى انها بطباعها
تميز بين مصالحها ومفاسدها فيحترز وقت تناولها العلف عما
يوذيها ويختار ما ينفعها وهكذا يكون كل الطيور والبهايم
والحشرات من اول الامر فاما نور العقل فيه لا يميز بين النافع
والضار هذا اذا حملنا هذا التكريم على الاحوال الجسدانيه

اما حملنا هذا التكريم على الاحوال الروحانية ففيه وجوه الاول
ولقد كرمنا بني ادم بالعقل والفهم واعلم انه سبحانه عظم امر
العقل في كتابه من وجوه الاول تكثير اسمايه وسيجيء ونحن نذكرها
ههنا بعضها فالاسم الاول العقل قال موسى في مناظرته مع فرعون
رب المشرق والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون واوحى الى داود
عليه السلام اذا رايت عاقلا فكن له خادما وقال عليه السلام
اول ما خلق الله العقل قال له اقبل فاقبل ثم قال له ادبر ثم قال وعزتي
وجلالي ما خلقت خلقا اكرم علي منك بك آخذ وبك اعطي وبك
اعاقب وبك اثيب وقال عليه السلام لا دين لمن لا عقل له وقال
لا يعجبنكم اسلام امرء حتى تعرفوا كنه عقله وقالت الحكماء في
تفسير هذا الخبر من لم يكن عقله اغلب خصال الخير عليه كان حتفه
في اغلب خصال الشر عليه وايضا فالعقل قدره الانسان على القيام
بامر الله في قوله قد افلح من زكيها وقدره على تحصيل حرث الاخرة
قوله من كان يريد حرث الاخرة نزد له في حرثه قالوا ثمرة حرث الاخرة
على التفصيل سبعة اشياء بقاء بلا فناء وقدرة بلا عجز وعلم بلا
جهل وغنى بلا حاجة وامن بلا خوف وراحه بلا شغل وعز بلا ذل
وايضا فان اكثر المفسرين اتفقوا على ان معنى قوله الله نور السموات
والارض اي هادي اهل السموات والارض ومعلوم ان كمال تلك
الهداية انما يحصل بالعقل وايضا العقل نوعان غريزي وهو القوة
المهيئة للعلوم الكلية القدسية ووجود هذه القوة في الطفل
كوجود النخلة في النواة والسنبلة في الحبة ومستفاد وهو كمال

حال هذه القوة ثم هذا المستفاد ضربان ضرب يحصل للانسان
حالا فحالا بلا اختيار منه ولا يعرف كيف حصل ومن اين وضرب
يحصل باختياره ويعرف كيف حصل ومن اين حصل ولما انقسم
العقل الى الغريزى والمستفاد قال امير المؤمنين على رضى الله عنه
العقل عقلان فمطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع اذا لم يكن
مطبوع كما لا ينفع الشمس وضوء العين ممنوع والى القسم الاول
اشار النبى عليه السلام بقوله ما خلق الله خلقا اكرم عليه
من العقل والثانى اشار بقوله لعلى رضى الله عنه اذا تقرب الناس
الى خالقهم باعمالهم فتقرب انت اليه بعقلك تسبقهم بالدرجات
والزلفى عنده واعلم ان لفظ العقل فى اللغة مشتق من العقال
وهى اسم لما يقيد به البعير لئلا يشذ وسمى هذا المعنى به تشبيها
على عادتهم فى تسمية المعقولات باسم المحسوسات تنبيها على انه
هو الذى يمنع الانسان ويكون قيدا له على الاقدام على ما لا ينبغى
من الافعال الاسم الثانى اللب قال ولكم فى القصاص حيوة يا اولى
الالباب واعلم ان اللب من كل شئ هو المقصود الخالص منه وهذا
الاسم يدل على ان المقصود من الانسان العقل وكيف لا يكون
كذلك واشرف الامور الصادرة عن الانسان ان يعرف الحق
لذاته والخير لاجل العمل به ثم من الظاهر ان معرفة الحق اشرف
من عمل الخير ومعرفة الحق لا يمكن الا بالعقل فدل على ان لب الانسان
هو العقل الاسم الثالث النهى ويحتمل ان يكون جمعا لنهيه وان
يكون اسما مفردا وجعل اسما للعقل الذى ينهى عن الاشتغال

بالمحسوسات وتوجه الى عالم المعقولات فلهذا المعنى اختل
اربابه على تدبر معانى المحسوسات الى معرفة ما فيه من المعقولات
لقوله تعالى ولم يهد لهم كم اهلكنا وقال فى طه وانزلنا
من السماء ماء الى قوله لايات لاولى النهى الاسم الرابع الحجى
واصل الحجر المنع وهو ان يحجر الانسان نفسه عن فعل ما لا ينبغى
قال تعالى هل فى ذلك قسم لذى حجر الاسم الخامس الحجى من حج
الشئ اذا قطعه ومنه الاحجية فكانه سمى العقل بهذا الاسم
لكونه قاطعا بين الانسان وبين الافعال القبيحة الاسم
السادس العلم وهو ثمرة العقل ثم انه تعالى سمى العلم نورا والجهل
ظلمة فقال الله ولى الذين امنوا يخرجهم من الظلمات الى النور
وسماه ايضا روحا فى قوله وكذلك اوحينا اليك روحا من
امرنا وسماه ايضا حيوة والجهل موتا فقال او من كان ميتا
فاحييناه وقال وما يستوى الاحياء ولا الاموات وايضا
سماه ماء فى قوله وانزل من السماء ماء فاذا كان العلم نتيجة
العقل وحال النتيجة فى العلو والشرف كذلك فاعرف ان الاصل
كيف يكون النوع الثانى فى بيان فضائل العقل قوله تعالى ان
فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب اى عقل فجعل من لا عقل له
كمن لا قلب له ونظيره وقوله لا ينفع مال ولا بنون الا من اتى الله
بقلب سليم وقال من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب والمراد
بالقلب فى كل هذه الايات العقل وقد اثبت الله تعالى للعقل
ابصارا ورؤية اما الابصار ففى قوله وتريهم ينظرون اليك

وهم لا يبصرون واما الرؤية ففي قوله ما كذب الفؤاد ما راى
وقال في حق ابرهيم وكذلك نرى ابرهيم ملكوت السموات
والارض وقال الم تر الى ربك كيف مد الظل وقد سمى الله تعالى
ادراك العقل عمى في ايات منها قوله تعالى صم بكم عمى ومنها
فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ومنها
قوله الذين كانت اعينهم في غطاء عن ذكرى ولولا ان المراد هيهنا
من العين البصيرة لا البصر لما قال عن ذكرى لان الذكر لا يدرك
بحاسة البصر وكيف لا يكون فقد البصيرة اعظم ضررا
من فقد البصر وقد عرفت ان البدن بمنزلة الفرس والنفس بمنزلة
الراكب وضرر عمى الراكب اشد عليه من عمى فرسه وقال تعالى
ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون وقال
ايضا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في اصحاب السعير فان قيل اذا كان
للعقل هذه الفضائل الكثيرة فلم قال اكثر اهل الجنة البله الجواب
من وجوه الاول المراد بالبله الجاهلون بامر الدنيا العالمون بامر
الاخرة كما قال الا من اتى الله بقلب سليم الثاني ان من عبد الله للجنة
فهو ابله في جنب من عبده لكونه الها ربا مالكا الثالث قال الحسن
اكثر اهل الجنة البله اى هم احب الجنة كالعامي البله الرابع اكثر اهل
الجنة البله وهم اهل المعاصي الذين عفا الله عنهم واما العقلاء
والمطيعون فهم اهل الدرجات العلى الوجه الثاني في تفسير قوله
ولقد كرمنا بني ادم انه سبحانه خلق كل ما سواك لاجلك فقال
في الارضيات خلق لكم ما في الارض جميعا وقال في السموات

وسخر

وسخر لكم ما في السموات وما في الارض فجعل الارض فراشا لنا
فقال الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء وجعل السماء
سقفا لنا فقال وجعلنا السماء سقفا محفوظا وجعل كل ما في
الارض رزقا لنا فقال وانزل من السماء ماء فاخرج به من الثمرات
رزقا لكم وجعل الشمس موذنا لصلوتنا فقال فسبحان الله حين
تمسون وحين تصبحون وجعل القمر معرفا للاوقات صيامنا
وحجنا فقال قل هي مواقيت للناس والحج وزين السماء بالكواكب
لاجلنا فقال ولقد زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وجعل
الكواكب علامات نهتدي بها في اسفارنا فقال وعلامات وبالنجم
هم يهتدون وجعل الشمس متحركة حتى انا بحركاتها نجد القبلة
في النهار وجعل القطب ساكنا حتى انا بسكونه نجد القبلة في الليل
وخلق الانعام لغذائك وثيابك فقال والانعام خلقها لكم
فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ثم سخر لكم الخيل والبغال والحمير
لتركبوها وزينة ثم قال ويخلق ما لا يعلمون اعددت لكم في الدنيا
ما لا تعلمون تفضله ثم ذكر الرسول عليه السلام عن الله مثله
في الجنة فقال اعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رات ولا اذن
سمعت ولا خطر على قلب بشر ثم خلق النبات لاجلك فقال كلوا
وارعوا انعامكم ثم قال انا اعطيناكم هذه الاشياء بالفضل قبل
الطاعة قبل السؤال وبالكرم كما قال واتاكم من كل ما سالتموه ثم جمع
جميع النعم فقال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها وهذه الخاتمة
اعظم من كل ما تقدم من النعم وذلك لان الانسان لما لم يشتغل بالشكر

لم يشتغل بعد بد نعم الله عليه مهد برحمته عذره فى ترك ذلك
الشكر فقال انها كثيرة وعقلك لا يقدر على استحصابها على
التفصيل وكان هذا الترك للعجز فكنت معذورا فيه وهو المراد
من قوله وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ثم قال ان الله غفور
رحيم ومعنى غفور يعنى يستر عنك فى الدنيا ورحيم يتجاوز عن
تقصيرك فى الاخرة وقال فى سورة ابرهيم وان تعدوا نعمة الله
لا تحصوها ان الانسان لظلوم كفار وهذه اشارة الى ان القدر
الذى يقدر عليه من الشكر فانه يفعله ويتغافل عنه الوجه الثانى
فى تفسير قوله ولقد كرمنا بنى ادم انه سخر قلبه لمعرفته ولسانه
لشهادته وبدنه لخدمته ثم فى القيمة يعطيه كلما يتمنى ويريد الى
ان يقول الحمد لله الذى صدقنا وعده الوجه الرابع انه جعل اباهم
آدم رسولا الى الملائكة حيث قال انبئهم باسمائهم ثم جعله
مسجودا لهم حيث قال اسجدوا لادم ثم لعن ابليس لاجل مخالفته
بالخروج من الجنة فقال اخرج منها فانك رجيم ثم اباح له اكل
الجنة فقال وكلا منها رغدا حيث شئتما ثم لما وقع فى الزلة تاب
عليه قال فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ثم اكرمه بالاصطفا
فقال ان الله اصطفى ادم ثم خصه بالاجتباء من بعد العصيان
فقال وعصى ادم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى
ومعلوم ان اكرام الاب سبب لاكرام الابن الوجه الخامس
انه تعالى جعل فيهم الانبياء والرسل والابرار كما قال موسى
عليه السلام اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم انبياء وجعلكم

ملوكا الوجه السادس اكرمناهم بالخط الحسن وقيل بالخلق
الحسن قال يزيد فى الخلق ما يشاء الوجه السابع كرمنا بالفصاحة
والبلاغة قال واختلاف السنتكم والوانكم وقال عليه السلام
ان من البيان لسحرا وقالت الحكماء المرء باصغريه الوجه الثامن
اكرمنا بالاطعمة الصافية اللذيذة كالسمن والعسل اما السمن
فقال من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين واما
العسل فقال يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء
للناس وكذا الزبد والسكر ثم انه تعالى ثم اباح لكل فقال
قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق
ثم انه من كرمه اعطى هذه الاغذية اللطيفة ثم اوقع فى القلب
ايثارها على الغير عند الحاجة اليها كما قال ويؤثرون على انفسهم
ولو كان بهم خصاصة حتى يجدها يوم القيامة احسن لكمال
قال ما عندكم ينفد وما عند الله باق وعصمنا من حال فى صفة
اذهبتم طيباتكم فى حيوتكم الدنيا الوجه التاسع اكرمنا بالامر
والنهى وتشريف التكليف الا ترى انه لما كان ولد الانسان
اعز من عبده لاجرم يكون تكاليفه على ولده اكثر مما على عبده
الوجه العاشر قال امير المؤمنين على رضى الله عنه ولقد كرمنا بنى ادم
بالدعوة الى الجنة قال تعالى والله يدعوا الى دار السلام واكرمهم
بالدعوة الى الدار ووعد لقاء الملك الجبار كما قال للذين احسنوا
الحسنى وزيادة الوجه الحادى عشر انه تعالى خلق الخلق اصنافا
مختلفة ثم خص الحيوان بمزيد الفضل والشرف وذلك لانه لو خلق

العرش والسموات والارض والشمس والقمر ولم يخلق حيوانا
البته لكان الكل عبثا لانه سبحانه منزه عن النفع والضر وليس
هناك حيوان ينتفع به البتة فكان خلق هذه الاشياء خاليا عن
الحكمة اما لو خلق العرش وخلق بعوضة وقال خلقت العرش
لينتفع به هذه البعوضة خرج التخليق عن ان يكون عبثا ودخل في
ان تكون حكمة فثبت بهذا ان العرش يمكن جعله تبعا للبعوضة
ولا يمكن جعل البعوضة للعرش فلهذا المعنى قال كيف تكفرون بالله
وكنتم امواتا فاحياكم ثم فضل الادميين على كل الحيوانات كما قال
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ثم فضل الذكور على الاناث
فقال الرجال قوامون على النساء ثم فضل العلماء والمجاهدين
اما العلماء فقال يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا
العلم درجات واما المجاهدون فقالوا فضل الله المجاهدين
على القاعدين ثم فضل الانبياء فقال ان الله اصطفى ادم
ونوحا الاية ثم فضل اولى العزم فقال فاصبر كما صبر اولوا
العزم من الرسل ثم فضل اربعة منهم على الباقين وهم الخليل
والكليم والروح والحبيب فقال ولقد فضلنا بعض النبيين
على بعض ثم فضل محمدا عليه السلام على الكل فقال وكان
فضل الله عليك عظيما ثم كرمك بان جعلك مؤمنا ترابعيا
عارفا بربك مجاهدا في طاعته ثم جعلك على ملة ابرهيم ودين
محمد عليهم السلام الوجه الثاني عشر في تفسير هذا التكريم
انه كرمنا بالتقوى فقال ان اكرمكم عند الله اتقيكم والرسول

اتقى البشر لقوله تعالى وما ينطق عن الهوى ثم ابو بكر اتقى الامة
لقوله وسيجنبها الاتقى والجنة معدة للمتقين قال تعالى في صفة
الجنة اعدت للمتقين فالحمد لله الذى جعلنا من امة محمد اتقى الانبياء
وهو محمد عليه السلام ومن محبى اكرم الاتقيا وهو ابو بكر رضي الله عنه
البحث الرابع في قوله ولقد كرمنا بنى ادم فان قال قايل انكم فسرتم
هذا التكريم بهذا الوجوه الا ان فيه اشكالا وهو ان بنى ادم فيهم
المؤمنين وفيهم الكافرين وكيف يليق هذا التشريف بالكافرين
والجواب من وجوه الاول ان فيه تنبيها على دقيقة لطيفة وهي ان
من ليس بمؤمن فكانه ليس من الاحياء بل ليس من الموجودات الثاني
ولقد كرمنا بنى ادم معناه كرمنا من بنى ادم كقوله واختار
موسى قومه اى من قومه والثالث ان تفسير التكريم بالاحوال التى
يشترك فيها المؤمن والكافر وهو الصورة الحسنة والقد المستقيم
والاغذية اللطيفة ويكون جميع المخلوقات مخلوقة لنا وبعض
خواص اهل الايمان بهم وعند هذا يقول التكريم عام في حق الكل
والاصطفاء خاص الا ترى انه تعالى قال ان الله اصطفى ادم ونوحا
وآل ابرهيم وقال يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس وقال
في حق موسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى وقال
في حق الامة ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا الخ
الرابع في الجواب انه تعالى عم المؤمن والكافر في تسعة اشياء
الخلق والرزق والاقدار وارسال الرسل وانزال الكتب والامر
والنهى والترغيب والترهيب ثم خص المؤمنين بسبعة اشياء

الاول الهداية انك لا تهدى من احببت والثانى المحبة والزينة
ولكن الله حبب اليكم الايمان وزينه فى قلوبكم والثالث
التيسير فسنيسره لليسرى والرابع التوفيق ما شاء الله
لا قوة الا بالله قال وما توفيقى الا بالله والخامس كراهية
الكفر وكره اليكم الكفر والفسوق والعصيان والسادس
القبول انما يتقبل الله من المتقين والسابع المغفرة ان الله
لا يغفر ان يشرك به فهذا جملة الكلام فى تفسيره قوله ولقد
كرمنا بنى ادم النوع الثانى من التشريفات المذكورة فى هذه
الاية قوله وحملناهم فى البر والبحر والمعنى اعطيناهم المراكب
اما فى البر فهى الخيل والبغال والحمير لاجل ركوبنا وحمل اثقالنا
كما قال وتحمل اثقالكم الى بلد الاية واما فى البحر فهى السفن والزوارق
وفيه نكتة وهى ان الدنيا سجن المومن ودار البلاء ثم انه فى الدنيا
اعطى انواع المركوبات والاخرة دار الرحمة والاحسان فكيف
يترك العبد فى القيامة بغير مركوب فلهذا قال يوم نحشر
المتقين الى الرحمن وفدا اى راكبين على النجايب والنجايب وقال
الصادق رضى الله عنه البر هو النفس والبحر هو القلب فمن حمله
فى النفس فقد اكرمه بنور التدبير ومن حمله فى القلب فقد اكرمه
بنور التايد وقال بعضهم وحملناهم فى البر والبحر اى تكلفنا
تحصيل مصالحهم فى كل الاحوال النوع الثالث من التشريفات قوله
ورزقناهم من الطيبات اى اطعمناهم الاطعمة اللذيذة
كالسمن والعسل والزبد والسكر وما رزقناهم شيئا من الخبث

والادى وذلك لان الجن ياكلون العظم ودوابهم ياكلون الروث
والبهايم تعتلف التبن والعشب والطيور تلتقط الحب والسباع
ياكل الجيف اما اغذية بنى ادم فهى لطيفة نقية فيا ايها المسكين
انه ما اطعمك الا الطيبات فلا يتمنا ولسوء اختيارك اى لحم
الميتة قال تعالى ايحب احدكم ان ياكل لحم اخيه ميتا وقال بعضهم
ورزقناهم من الطيبات اى تارة مطبوخا واخرى غير مطبوخ و
اما سائر الحيوانات فغذاوها غير مطبوخ اصلا وقيل رزقناهم
من الطيبات المعرفة والمناجات كما قال عليه السلام ابيت عند ربى
يطعمنى ويسقينى النوع الرابع من التشريفات فى هذه الاية قوله
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا والكلام فى هذه الاية
يتعلق بمسئلة تفضيل الملك على البشر وسيجى على الاستقصاء قال
كعب الاحبار الخلق ثلثة اصناف الملايكة وهم عقل بلا شهوة
والبهايم ولها شهوة بلا عقل والادمى وله كلاهما فمن كانت شهوته
راجحة على عقله فهو اخس من البهايم كما قال اولئك كالانعام
بل هم اضل فعلى هذا القياس من كان عقله راجحا على شهوته وجب
ان يكون افضل من الملايكة وايضا فهذه المراتب الاربعة مجموعها
غير المذكور لاحد سوى بنى ادم وهذا يدل على انهم افضل واعلم
ان قوله ولقد كرمنا بنى ادم فيه تشريف عظيم وذلك لان التكريم
عبارة عن جعل الشئ كريما والكريم هو الذى يكون منشا الكرم
وهذا تنبيه على انه تعالى جعل بنى ادم مدبرا للحيوانات ومصلحا
لاحوالها وضابطا لامورها على الوجه الاصلح الاليق فيصير معناه

كونه خليفة الله في الارض كما قال اني جاعل في الارض خليفة
ثم قال في المرتبة الثانية وحملناهم في البر والبحر وفيه اشارة
الى علو درجاته واعظم مقاماته والتحقيق فيه هو ان الانسان
كانه جالس على الحد المشترك الذي هو اخر مراتب الارضي واول
مراتب عالم السموات فنسبته الى الارضيات بالفعل والتدبير
ونسبته الى السموات بالانفعال والقبول وقوله ولقد كرمنا
بني ادم اشارة الى كونه متصرفا في السفليات وقوله وحملناهم
في البر والبحر اشارة الى فيضان انوار عالم السموات عليه ثم قال
ورزقناهم من الطيبات اشارة الى بيان التربية الواصلة اليه
من عالم الغيب اما الى نفسه وروحه فبالعلم والحكمة والعصمة
والتسديد واما الى جسده وقالبه فبالاغذية الموافقة واما
قوله وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا فهو اشارة الى دقيقة
عجيبة وذلك ان الملائكة ارواح عقلية محضة مطهرة عن علائق
الحس والخيال والشهوة والغضب والحيوانات اجساد محضة لا خبر
عندها من عالم المعقول ومغيبات القيامة واما الانسان
فهو مستجمع المنزلتين مستحضر للدرجتين فهو مع الملائكة ملك
ومع السباع سبع ومع البهائم بهيمة ومع الشياطين شيطان
فكونه مستجمعا لكل هذه الاحوال يصلح ان يكون مرادا من قوله
وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا والله اعلم باسرار كلامه

الفصل الثالث في بيان ان اول الآباء آدم عليه السلام

اعلم ان المخلوقات على قسمين منهم من كان من جملة المكلفين ومنهم

من لم

من لم يكن كذلك واجمع العقلاء على ان المكلف افضل ممن لا يكون
مكلفا وكيف لا يكون كذلك قال تعالى وما خلقت الجن والانس
الا ليعبدون وهذا نص صريح في ان المقصود من الخلق انما هو
التكليف واذا كان كذلك فكلما بقي في الخلق من يكون قايما بعهدة
التكليف بقي عالم الخلق فاذا لم يبق احد يقوم باداء التكليف صار
عالم المخلوقات عبثا والحكيم لا يرضى بالعبث فحينئذ تخرب السموات
والارضين ويقيم القيمة فاذا تاملت هذا علمت ان قيام السموات
والارض والجبال والبحار ودوران الشمس والقمر والنجوم كلها
كالطفيلي على قيام ذلك الشخص الاشعث الاغبر الذي يرده الخلق
ولا يقبله احد من الناس باداء تكاليف الله فهو قايم باداء التكاليف
ومشتغل باداء العبودية والسموات والشمس والقمر والنجوم
والعناصر والمواليد باقية لبقائه فجملة ملوك الارض انما ياكلون
من فتات سفرته وانما يشربون من بقية ما ركوته وهذا
هو المراد من قوله عليه السلام ان لله تعالى عبادا في العالم هم
السبب الاصلي في مصالح اهل العالم فبهم يمطرون وبهم يرزقون
في كل جنس من هو اكملهم واجلهم وله اصحاب يقربون منه فذلك
الاكمل الاقوى في القيام بعهد اوامر الله تعالى وهو المسمى
بقطب الارض والذين يقربون منه ولكنهم بعد ما وصلوا
اليه فهم اصحابه واذا عرفت هذا فنقول اصناف المكلفين
اربعة الملائكة والانس والجن والشياطين اما الملائكة
فقد روي في الاخبار ان الله تعالى خلقهم من الريح وهذا الخبر

متاكد بوجوه عقلية احدها انهم قدروا على الطيران
على اسرع الوجوه وثانيها انهم قدروا على حمل العرش وذلك
لان الريح صاعدة بالطبع فيستقل بحمل هذه الاشياء والثالث
انهم سموا روحانيين واشتقاق الروحاني من الريح وروى ايضا
في بعض الاخبار انهم خلقوا من النور ثم هذه الرواية ايضا
تاكدت بوجوه عقلية احدها انهم صافية عن الكدورات
في طاعة رب الارض والسموات والثاني انها توغلت بقوة
نورانية في بحار عرفان جلال الله والثالث انهم بسبب تلك
النورانية برات عن المعاصي والذنوب وعند هذا قال
بعض العلماء الاولى ان يجمع بين الروايتين فيقول ابدانهم
من الريح وارواحهم من النور فهؤلاء سكان عالم السموات
واما الشياطين فهم كفرة اما ابليس فكفره ظاهر لانه تعالى
قال وكان من الكافرين واما ساير الشياطين فهم ايضا
كفرة بدليل قوله وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم
وان اطعتموهم انكم لمشركون ثم انهم باسرهم اعداء للبشر
بدليل قوله في صفة ابليس ففسق عن امر ربه الاية وقال تعالى
وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الانس والجن واما الجن
فمنهم كافر ومنهم مسلم قال تعالى وانا من المسلمين ومنا القاسطون
فهذا هو الكلام في تفصيل احوال هذه الاجناس الثلثة واما
الجنس الرابع وهو البشر ولا شك ان منهم مؤمنا ومنهم كافرا
واما اصلهم فهم من شخص واحد هو ول الاباء والذي يدل

على وجوب انتهاء هذه الاشخاص البشرية الى شخص هو اول الاباء
وجوه الحجة الاولى انه لو وجد انسان في الازل فكذلك الانسان
اما ان يقال انه كان مسبوقا بانسان آخر وما كان مسبوقا بانسان
آخر فالاول محال اذ يلزم ان يكون الازلي مسبوقا بالغير وهذا
محال لان الازل عبارة عن نفي المسبوقية والجمع بين المسبوقية
واللامسبوقية وهو محال وان لم يكن مسبوقا بانسان آخر فذلك
الانسان هو الانسان الاول فالاباء منتهية الى الاب الاول
وهو المطلوب الحجة الثانية ان الانسان لا ينفك عن تغير
الحالات وتبدل الصفات لكن تغير الحالات في الازل محال
وهذا يقتضي انه لم يوجد احد من البشر في الازل واذا كان كذلك
وجب القول بانتهاء الناس الى انسان اول الحجة الثالثة لو لم
يكن للاباء مبداء اول لتوقف حصول الواحد منا على انقضاء اباء
لا نهاية لهم لكن انقضاء ما لا نهاية له محال والموقوف على المحال
محال فكان ينبغي ان لا يوجد هذا الولد وحيث وجد علمنا ان الذين
انقضوا لهم اول ومبداء الحجة الرابعة لو حصل شيء من الناس
في الازل لما فني لان الازلي لا يقبل العدم الحجة الخامسة ان الذين
وجدوا فيما قبل لو لم يكن لهم مبداء لكانت اعدادهم غير متناهية
ولو كان كذلك لامتنع الانقضاء عليها لان انقضاء ما لا نهاية
له محال الحجة السادسة ان كل عدد داخل في الوجود فهو قابل
للزيادة والنقصان وكل ما كان كذلك فهو متناه فكل ما دخل
في الوجود فهو متناه الحجة السابعة ان مجموع الاباء الذين لا نهاية

لهم من الانسان الاباء الذين لهم نهاية وهذا المتناهي اكثر
عددا من مجموع كل واحد من هاتين الجملتين وحدها فيكون كل
واحد من الجملتين وهذا اقل من المجموع وما كان اقل من غيره فهو
متناه والمجموع ضعف المتناهي فيكون الكل متناهيا الحجة
الثامنة كل عدد موجود فهو اما شفع او وتر وعلى التقديرين
فهو متناه فكل عدد موجود فهو متناه فثبت بهذه البراهين
وجوب انتهاء الاباء الى الاب الاول فان قيل انا لم نشاهد
انسانا يكون الا من نطفة الاب في رحم الام فهذا يقتضي
ان يكون كل انسان مسبوقا بانسان اخر والجواب ان المحققين
من الفلاسفة اتفقوا على انه يمكن حدوث الانسان بالتولد
كما يمكن حدوثه بالتوالد واحتجوا عليه بوجوه الحجة الاولى
ان بدن الانسان انما يتولد من اجتماع العناصر الاربعة واذا
كان الامر كذلك وجب ان يكون المحدث لبدن الانسان هو الله
تعالى اما المقدمة الاولى فالدليل على صحتها ان هذه الاعضاء
الحيوانية اذا احترقت انفصل عنها ماء ورماد وبقاع على
ابخرة كثيرة عنها وذلك يدل على ان الابدان الحيوانية مؤتلفة
عن هذه العناصر وانما قلنا انه لما كان الامر كذلك كان محدثها
هو الله سبحانه وذلك لان هذه العناصر الاربعة طبايع متضادة
متنافرة موجبة للتباين مانعة من الاجتماع واذا كان الامر
كذلك فهي مع كونها متنازعة الى التباين لما اجتمعت افتقر
اجتماعها الى جامع وذلك الجامع اما ان يكون قوة حالة فيها

او شيئا

او شيئا اخر خارجا عنها والاول محال لان القوة الحالة فيها
اما ان يكون حالة في بسايطها او في الجسم المركب المتولد من امتزاجها
والاول باطل لانا بينا ان الطبايع الحالة في تلك البسايط موجبة
للتباين والتنافر فلا يكون موجبة لاجتماعها وامتزاجها والقسم
الثاني ايضا باطل لان القوة الحاصلة للجسم المتولد عن امتزاجها
تبع لتلك الامتزاجات ومتاخر عنها والمقتضي لتلك الامتزاجات
متقدمة عليها والمتاخر لا يكون نفس المتقدم فثبت ان الجامع
لهذه العناصر لا قوة حالة في بسايطها ولا قوة حالة في الجسم
المتولد من امتزاجاتها فاذن ذلك الجامع شيء مباين عنها وهو
الله سبحانه فثبت ان المحدث لهذه الابدان الحيوانية هو الله
سبحانه واذا كان كذلك كان قادرا على احداثها كيف شاء
واراد فيكون قادرا على احداثها من غير سبق الاب والام وهو
المطلوب الحجة الثانية ان الكيفية المزاجية الحاصلة في
ابدان الحيوانات انما يحدث بايجاد الله تعالى لا لاجل امتزاج
هذه العناصر ومتى كان الامر كذلك وجب ان يكون الله تعالى
قادرا على ايجاد هذه الكيفية الملايمة كيف شاء واراد من
غير واسطة الاب والام وانما قلنا ان حدوث هذه الكيفيات
ليس لاجل امتزاج هذه العناصر وذلك لان الحار والبارد اذا
اختلطا فاما ان يكون تاثير كل واحد منها في كسر الاخر معا
او على التعاقب والاول باطل لان العلة موجودة مع المعلول
وعلة انكسار كل واحد منهما هي قوة الاخرى فلو حصل الانكسار

ان لا يحصل كون كل واحد منهما قويا حال كون كل واحد منهما
منكسرا وذلك محال والثانى ايضا محال لان احدهما لما انكسر
بالثانى متنع ان يصير المغلوب بعد صيرورته مغلوبا غالبا
فعلى هذا التقدير لا يكون هذا مزاجا بل يكون كونا وفسادا
ولما بطل هذان القسمان ثبت ان حصول هذه الكيفية الملايمة
للحيوة ليس لاجل امتزاج الطبايع والعناصر بل هى كيفية يخلقها
الله تعالى ويحدثها ابتداء واذا كان الامر كذلك كان الله تعالى
قادرا على خلقها كيف شاء واراد فيكون قادرا على احداثها
فى الجسم من غير سبق الام والاب وهو المطلوب الحجة الثالثة
هب ان حدوث تلك الكيفية انما يكون بسبب امتزاج العناصر
واجتماع الطبايع لكنا نقول ان ذلك المزاج انما حدث لان
الاجزاء مخصوصة مقدرة بمقدار مخصوص اجتمعت واختلطت
فلزم من اجتماعها واختلاطها تاثر بعضها عن البعض ولزم من
ذلك التاثر حصول المزاج المخصوص الانسانى ولزم من حصول
ذلك المزاج المخصوص حدوث النفس الانسانية فاذا مهما حصلت
تلك الاجزاء المخصوصة بذلك التصغر المخصوص وحصل اختلاط
بعضها بالبعض يحدث الانسان بالتولد لكن حدوث تلك الاجزاء
المخصوصة بذلك التصغير المخصوص مع اختلاط تلك الاجزاء
بالبعض امر ممكن والمعلق بالممكن ممكن فحدوث الانسان على
سبيل التولد امر ممكن وهذه نكتة موجهة جدا على اصول
الفلاسفة الحجة الرابعة ان انقطاع النوع امر ممكن واذا كان

كذلك

كذلك وجب ان يكون الحدوث على سبيل التولد ممكنا اما ان انقطاع
النوع امر ممكن فلانه ليس بواجب ان يكون عن كل انسان انسان
واذا كان هذا الاحتمال قايما فى كل واحد كان قايما فى الكل فثبت
ان انقطاع النوع امر ممكن واذا ثبت هذا وجب ان يكون الحدوث
على سبيل التولد امرا ممكنا اذ لو لم يكن كذلك لوجب ان يقع الانقطاع
الذى لا عود له الحجة الخامسة انا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات
بالتولد فقد تخد حيات من الشعر وعقارب من التبن والباذروج
والفار متولد من المدر والضفادع متولد من المطر وجميع هذه
الاشياء كما انها تحدث بالتوالد فهى ايضا تحدث بالتولد وليس
اذا انقطع هذا التولد فلم نشاهد فى سنين كثيرة وجب ان لا يكون
له وجود فى الندرة عند شكل نادر يحصل فى الفلك لا يتكرر الى
الحين الحجة السادسة ان اكثر الناس يتعجبون من تولد الحيوانات
من الطين ولا يتعجبون من تولدها فى الرحم من الماء المهين وهذا عجب
فى الحقيقة وذلك لان الناس يقدرون على تصوير الحيوانات من الطين
ومن الخشب ومن الحديد كما هو موجود ولا يمكنهم ان يصوروا حيوانا
من الماء لان الماء جسم سيال لا يتماسك فيه الصور فيكون هذه
الحيوانات فى الارحام من الماء المهين اعجب فى الحكمة واعظم فى
القدرة من ان يكون من الطين فان قال قايل اذا كان الصانع المختار
قادرا على ان يخلق الولد من دون الابوين فلم لم يخلق هكذا ليكون
الدلالة اقوى الجواب ان الحكمة فيه من وجوه الاول ان خلق
البشر من غير هذا الوجه يبطل التعارف بالانساب وفى بطلانه

سقوط المصالح الكثيرة بين الناس في المعاملات وقد نبه الله
تعالى عليه فقال يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم
شعوبا وقبايل لتعارفوا والثاني لو لم يحصل التولد لبطلت صلة
الرحم وزال تعطف القرابات وبطل تلذذ الاباء بالابناء وتعزز
الابناء بالاباء وفيه زوال مصالح كثيرة من العالم وقد نبه الله تعالى
عليه فقال وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان
ربك قديرا فكان معناه والله اعلم جعله نسبا لما فيه من المصالح
اللطيفة وكان قادرا على ان يوجده ابتداء والثالث ان العاقل
قد امر بالتواضع والاجتناب عن الكبر ثم ان العاقل اذا علم انه
خلق من نطفة قذرة وسار في مخرج البول مرة بعد مرة ونشاء
في نجاسة تغتذي منها ونبت لحمه وعظمه منها كان ذلك كاسرا
للنخوة وقد نبه الله تعالى على هذا فقال الم نخلقكم من ماء مهين
فجعلناه في قرار مكين الى قدر معلوم فقدرنا فنعم القادرون
يعني ان من كان كذلك لم يكن له ان يتكبر بل الواجب عليه ان يذل
لخالقه ويخضع فثبت بهذا ان اصول الفلاسفة شاهدة بامكان
هذا المعنى واما شهادة الاصول الاسلامية على صحتها فلا شبهة
فيها فعلمنا ان الطعن فيها باطل واذا ثبت هذا فنقول ان القران
دل على ان ذلك الاب الاول هو آدم عليه السلام قال تعالى
يا ايها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة الاية واعلم
ان هذه الاية فيها اسرار وذلك لانه سبحانه افتتح سورتين من كتابه
بهذا اللفظ احديها سورة النساء فقال يا ايها الناس اتقوا ربكم الاية

والثانية سورة الحج فقال يا ايها الناس اتقوا ربكم ان زلزلة
الساعة شيء عظيم فاما السورة الاولى فهي الرابعة من سور
النصف الاول من القران فان اولها الفاتحة ثم البقرة ثم
آل عمران ثم النساء واما سورة الحج فهي ايضا السورة
الرابعة من النصف الثاني فان اولها مريم ثم طه ثم الانبيا
ثم الحج وفي كيفية ترتيبها بين السورتين عجايب احدها
ان السورة الاولى اشارة الى حال المبداء في كيفية التكوين
والايجاد فانه قال اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة
وخلق منها زوجها والثانية اشارة الى حال المعاد في
كيفية الافناء والاعدام فانه قال ان زلزلة الساعة شيء
عظيم ثم لاشك ان الايجاد مقدم على الافناء ولهذا قدمه
الله تعالى في الذكر وقال تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك
ممن تشاء فقدم ذكر الايتاء على ذكر الانتزاع فلهذا السبب
قدم سورة النساء على سورة الحج اللطيفة الثانية الايجاد
يشبه الرحمة والاعدام يشبه الغضب وقال تعالى سبقت
رحمتي غضبي فلاجرم قدم سورة الايجاد على سورة الافناء
اللطيفة الثالثة انه تعالى قال هناك ربكم الذي خلقكم من
نفس واحدة ولم يقل في الحج ربكم الذي قام زلزلة الساعة
ونظيره قوله كتب ربكم على نفسه الرحمة ثم قال كتب عليكم
القصاص كتب عليكم الصيام فان قيل اسم الربوبية منشاء
اللطف والرحمة والكرم فكيف يليق بهذه الكلمة التخويف

الشديد الحاصل في قوله ان زلزلة الساعة شيء عظيم قلنا
من كمال تربية الاب الرحيم المشفق ان يضرب ولده وان يهدده
حتى يزداد سبقه في طلب المكارم والمعالي وهذا هو الجواب
عن سؤال من سال عن قوله سنفرغ لكم ايه الثقلان فباي آلاء
ربكما تكذبان فانه يقال ان قوله سنفرغ لكم ايه الثقلان
غاية التهديد وقوله فباي آلاء ربكما تكذبان اشارة
الى تعديد الآلاء والنعماء فكيف يليق هذا بذاك لان القول بالتهديد
من الاب المشفق الرحيم في حق الولد الكسلان المغفل يكون من اعظم
النعم والوجه الثاني في الجواب ان المراءة ترضع ولدها سنتين
ثم انها تلطخ حلمة ثديها بالصبر والاشياء المرة ثم تضعها
في فم الصبي كانها تقول لا افطمك بهذه المرارة شحا عليك وانما
ذاك لغرض آخر وهو انه خلق لك في الدنيا نعيم لا يحصى ولا تنالها
الا بترك هذه المصة الواحدة وتجرع هذه المرارة حتى تصل الى
تلك الخيرات الكثيرة فكذا الرب سبحانه اعد لك الجنان لكنك
لا تصل اليها الا بتجرع كاس الموت في هذه الدار ثم ينقلك الى محفل
القيامة ثم ينقلك الى الجنة فكان الموت في هذه الدار وتخريب
العالم من اعظم النعم في حقك ولهذا المعنى قال اتقوا ربكم
ان زلزلة الساعة شيء عظيم ومن الايات الدالة على ان اول
الآباء آدم عليه السلام قوله في سورة الاعراف هو الذي
خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن اليها الآن
فيه اشكالا وهو ان آخر هذه الاية يدل على ان هذه النفس الواحدة

اقدمت على الشرك على ما قال فلما آتيهما صالحا جعلا له شركاء
فيما آتيهما ومعلوم ان الشرك لا يليق بآدم فلاجرم قال المحققون
المراد من هذه النفس الواحدة قصي بن كلاب والشرك الصادر
منه هو انه سمى اولاده بعبد مناف وعبد قصي وعبد الدار

الفصل الرابع في كيفية تخليق آدم عليه السلام

اعلم انه تعالى ذكر في كيفية آدم آيات احدها انه مخلوق من التراب
قوله تعالى ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب
وقال من آياته ان خلقكم من تراب ثم اذا انتم بشر تنتشرون وقال
في حق اولاد آدم عليه السلام منها خلقناكم الآية وقال في النجم
هو اعلم بكم اذ انشاكم من الارض وقال في نوح والله انبتكم
من الارض نباتا واعلم ان في قوله ان مثل عيسى عند الله الاية
وهو ان ظاهر الآية يقتضي ان قوله كن فيكون متاخر عن تخليق آدم
وهذا محال لانه لابد وان يكون قوله كن فيكون متقدما على دخول
آدم في الوجود والجواب من وجهين الاول ان نحمل خلق آدم على
خلق بدنه ونحمل قوله كن فيكون على خلق روحه والثاني ان نحمل
الخلق على التقدير وعند هذا يزول الاشكال لانه يحصل التقدير
في علم المقدر اولا ثم يحصل التكوين والتخليق مفرعا على ذلك
التقدير والاية الثانية ذكر فيها انه مخلوق من الماء قال تعالى والله
خلق كل دابة من ماء وقال الم نخلقكم من ماء مهين والاية الثالثة
ذكر فيها انه مخلوق من الطين ثم جعل نسله من ماء مهين وقال
ايضا اني خالق بشرا من طين والاية الرابعة ذكر فيها انه خلقه من سلالة

من طين قال تعالى ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين
والاية الخامسة انه مخلوق من طين لازب قال انا خلقناهم
من طين لازب والاية السادسة انه مخلوق من صلصال
كالفخار قال تعالى خلق الانسان من صلصال كالفخار والاية
السابعة انه مخلوق من صلصال من حماء مسنون قال ولقد
خلقنا الانسان من صلصال من حماء مسنون الاية الثامنة
انه مخلوق من عجل قال خلق الانسان من عجل الاية التاسعة
قوله تعالى لا اقسم بهذا البلد الى قوله لقد خلقنا الانسان
في كبد الاية العاشرة قوله الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل
من بعد ضعف قوة فهذا مجموع هذه المراتب ولنشرح واحدا
واحدا منها فنقول اما المرتبة الاولى فهي انه مخلوق من التراب
والطين واعلم ان ابليس لعنة الله طعن فيه بسبب كونه
مخلوقا من التراب وفضل نفسه عليه بسبب كونه مخلوقا من النار
فقال خلقتني من نار وخلقته من طين والعلماء ذكروا في تفضيل
التراب على النار وجوها الحجة الاولى ان التراب في غاية التواضع
والنار في غاية التكبر فلما خلق آدم من التراب ظهر منه التواضع
فقال ربنا ظلمنا انفسنا ولما خلق ابليس من النار ظهر منه التكبر
فقال انا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين وقال ارايتك
هذا الذي كرمت علي الحجة الثانية ان التراب وان كان ظلمانيا
الا انه ستار العيوب ويظهر الفضائح الحجة الثالثة التراب
تطفي النار فلهذا السبب كان وجود آدم سببا لانطفاء رونق

ابليس وايضا الشهوة والغضب والحرص مخلوقة من النار الا
ترى ان الشهوة لا تعمل في العبد الا بواسطة الحرارة واما ان الغضب
نار فظاهر لقوله عليه السلام الغضب نار والشيطان من النار
واما ان الحرص نار فكذلك وذلك لان خاصية الحرص ان الانسان
كلما وجد من الدنيا اكثر صار حرصه اعظم كالنار كلما القيت
فيها الخشب اكثر كان اشتعالها اعظم واحتياجها الى الحطب
الكثير اشد فثبت ان الشهوة والغضب والحرص كلها مخلوقة
من النار ثم انه تعالى اودع هذه الصفات في ذاتك فلا جرم
خلقك من الطين وهو تراب وماء وكل واحد منها سبب لانطفاء
النار فكان المقصود من خلق الانسان من التراب ان يطفي هذه
النيران فيبقى الانسان مصونا في الدنيا من الخذلان وفي الاخرة
عن دركات النيران الحجة الرابعة انه سبحانه انما خلق الانسان
لخلافة الارض قال اني جاعل في الارض خليفة فخلقه من الارض
فان خليفة الارض اذا كان مخلوقا من الارض كان ارحم
باهل الارض الحجة الخامسة انه تعالى اراد اظهار القدرة
فخلق الشيطان من النار التي هي في غاية الاشراق والضوء ثم
ابتلاهم بظلمات الجهالات والضلالات وخلق الملائكة من الهواء
الذي هو الطف الاشياء واعطاهم كمال القوة والقدرة
وخلق السموات من امواج البحار وابقاها معلقة في الهواء
موصوفا بكمال الشدة كما قال في صفتها وجعلنا السماء سقفا
محفوظا وقال وما لها من فروج وقال سبعا شدادا وخلق آدم

من التراب الذى هو اكثف الاشياء واشدها ظلمة واعطاه
الطاعة والمحبة والمعرفة التى هى انوار الاشياء واضوءها
والمقصود من كل ذلك اظهار الضد من الضد ليكون ذلك
برهانا باهرا وبيانا ظاهرا على انه هو الخلاق بغير احتياج
والمدبر والمقتدر بلا امزاج وعلاج الحجة السادسه ان التراب
سبب الوصلة دليله قوله انبتت سبع سنابل فى كل سنبلة
مائة حبة والنار سبب القطيعة ولما كان الامر كذلك لاجرم
حصل لادم شرف الوصلة ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى
وحصل لابليس صفة القطيعة اخرج منها فانك رجيم الحجة
السابعة التراب فيه امانة والنار فيه خيانة اما الاول
فانك اذا اديت اليه كفا من الحنطة رد اليك جوالقا من الحنطة
قال تعالى والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه واما ان فى النار
خيانة لانها تحرق الاشياء وتفنيها وايضا لما كان فى التراب
امانة لاجرم قبل الامانة كما قال وحملها الانسان وحفظها
على احسن الوجوه ولما كان فى النار خيانة لاجرم ان ابليس عبد
ربه سنين ثم خان فى تلك العبادة كما قال وكان من الكافرين
الحجة الثامنة التراب طاهر طهور قال عليه السلام التراب
طهور المسلم ولو لم يجد الماء عشر حجج والماء ايضا طاهر طهور
قال تعالى وانزلنا من السماء ماء طهورا وجناب الحق سبحانه
طيب طاهر قال عليه السلام ان الله طيب لا يقبل الا الطيب
فلما كان التراب والماء طاهرين لاجرم كان ادم لكونه مخلوقا

منها

منهما طاهرا طيبا ولما كان الامر كذلك كان مخصوصا من رحمة الله
بالمزيد كما قال الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات الحجة
التاسعة روى ان محمدا عليه السلام لما دخل المدينة طمع الاغنياء
ان ينزل فى دارهم وكانوا ياخذون بزمام الناقة ليجذبوها الى
بيوتهم فقال عليه السلام دعوها فانها مامورة ثم انها سارت
حتى وصلت الى باب دار ابى ايوب فبركت هناك وما كان السبب
لذلك الا غاية فقر ابى ايوب وشدة انكساره وهذا ايضا مايد
بقوله عليه السلام حاكيا عن ربه تعالى انا عند المنكسرة قلوبهم
لاجلى واذا عرفت هذا فنقول التراب اعظم المخلوقات انكسارا
وتذللا وتواضعا لانه تحت كل الاجسام والخلق يضعون اقدامهم
عليه ويمشون عليه فلما كان اعظم الاشياء نقصا وحقارة هو
التراب لاجرم صار محلا ومنزلا لمحبة رب الارباب قال تعالى
يحبهم ويحبونه ويويد ذلك المعنى قول الله سبحانه وتعالى واسجد
واقترب واعلم انه لا مهانة وراء وضع الوجه الذى هو اشرف
الاعضاء على التراب ولا عزة وراء الاقتراب فطهما فى شكل واحد
تطييبا لقلب كل ساجد قال عليه السلام من تواضع لله رفعه الله
واما النار فانها تدعى العلو والرفعة والنورانية وكانت صفة
النار صفة فرعون قال عز من قايل ان فرعون علا فى الارض
وكانت صفة التراب صفة لموسى عليه السلام كما قال تلك الدار
الاخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الارض ولا فسادا
فلاجرم صار التراب اعز الاشياء والنار اذلها الحجة العاشرة

النار يعلوها الدخان المظلم فنوره تحتاني وظلمته فوقانية
اما التراب فظلمته تحتاني ونوره فوقاني اليه يصعد الكلم
الطيب الاية وايضا النار حسنة المنظر قبيحة المخبر والنار
ظاهرها يغر وباطنها لا يسر والارض بالضد من هذه الصفات
فالحاصل ان باطن الارض كلها منفعة وباطن النار كلها مضرة
ونظر الحق سبحانه وتعالى الى البواطن والاسرار لا على الظواهر
فلاجرم عامله ادم بحسب باطنه وابليس على وفق باطنه
الحجة الحادية عشر ان نهاية السفل هي الارض ونهاية العلو
هي العرش والارض احد اركان عالم الاجسام واما النار فليست
كذلك فانها ليست في غاية العلو فان السموات والكرسي والعرش
فوقها ولا في غاية السفل فان الهواء والماء والارض تحتها
فما كانت النار كاملة في مقام من المقامات الحجة الثانية عشر
ان النار سريعة الاشتغال لانطفاء كثيرة الاحتياج الى الغذاء
قليلة مدة البقاء اما الارض فانها تغذي ولا تغتذي وتبقى
ولا يفنى فثبت فضل التراب على النار الحجة الثالثة عشر
من الكلمات المشهورة قولهم كل شئ يرجع الى اصله فكانه قيل
يا ابليس خلقتك من النار فيكون مردك الى النار واما آدم فهو
مخلوق من الطين وللطين خاصية التواضع والتواضع سبب
القرب من رحمة رب العالمين فلاجرم كانت عاقبة آدم هو
رحمة رب العالمين كما قال ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى
الحجة الرابعة عشر ان الارض في نفسها ليست حسنة ولا طيبة

الرايحة الا انها تخرج جميع الاشياء التي لها حسن الوجوه وطيب
الرايحة والنار حسنة الوجه الا انها سبب لحدوث الاشياء
القبيحة وهي الاحراق والدخان والرماد والفساد والعبرة
بالسيرة لا بالصورة كما حققنا في تفسير قوله ولقد كرمنا بني آدم
الحجة الخامسة عشر ان التراب والماء لا يحصل الانتفاع بهما الا
عند فقدان الريح فانه اذا وصل الريح الى التراب صار غبارا موذيا
واذا وصل الى الماء تموج وخرج عن حد النفع واذا وصل الى النار
اطفا النار فكانه قيل لادم كان في قلب ابليس نار التكبر فانطفات
ناره بذلك الريح فاياك ثم اياك احترز عن ريح التكبر لئلا يصل
التراب الذي منه خلقت غبارا والماء الذي منه خلقت موجا
مهلكا فثبت من هذه الوجوه فضل التراب على النار واما المرتبة
الثانية في خلقه آدم كونه مخلوقا من الماء قال الله تعالى والله
خلق كل دابة من ماء وقال وهو الذي خلق من الماء بشرا وقال
الم نخلقكم من ماء مهين وقال الم يك نطفة من مني يمنى وفيه
فوايد الفايدة الاولى ان يكون صافية يتجلى فيه نور جلال الله
الثانية ان يكون طاهرا في ذاته قال تعالى وانزلنا من السماء ماء
طهورا وايضا قال عليه السلام من توضا تحاتت ذنوبه كما
تتحات الورق عن الشجر زمان الخريف والنكتة ان كمال استعمال
الماء في ظاهر الاعضاء يوجب زوال الذنوب فلان يكون خلقه
اصل الاعضاء من الماء دافعا لتمكن الذنوب كان ذلك اولى
المرتبة الثالثة في تخليق كونه مخلوقا من سلالة من طين سلالة

فعالة بمعنى المسلولة لانها هي التي سلت من الطين والحكمة فيه
ان يمزج الكثيف واللطيف والمتحرك والساكن والصافي والكدر
ليكون ذلك دليلا على فردانية الصانع كما قال ومن كل شيء خلقنا
زوجين وفيه فايدة اخرى وهي ان من مشى على الطين فلو انزلق
رجله وسقط وتلوث ثوبه ولكنه لا يهلك ولا ينكسر اعضاؤه
فلما كان الانسان موصوفا بالشهوة التي هي منبع الفساد وبالغضب
الذي هو منشأ سفك الدماء علم الحق سبحانه بانه لا بد من ان تزلق
رجله في سلوك سبيل طاعة الله تعالى فاذا كان طينا تلوث بلوث
المعصية ولكن لا يهلك ولا ينكسر شيء من اعضايه بل يقوم سليما
كما قال تعالى قل يا عبادي الذين اسرفوا على انفسهم لا تقنطوا
من رحمة الله الآية المرتبة الرابعة في تخليق آدم كونه مخلوقا
من سلالة من طين والسلالة فعالة وهي بمعنى المسلول لانها
هي التي تسل من الطف اجزاء الارض واعلم انه روي في الخبر
انه عليه السلام قال ان الله تعالى خمر طينة آدم بيده اربعين
صباحا فهذه اللطافة انما حصلت لذلك الطين بسبب هذا
التشريف وقال تعالى لابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي
وهذا كمال التشريف في حق آدم عليه السلام فان قيل قال تعالى
في صفة تخليق الحيوانات اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت
ايدينا انعاما فبين انه تعالى انما خلق الانعام بالايدي وذكر
انه خلق آدم باليدين وهذا يقتضي فضل الانعام على الناس
والجواب انه تعالى ذكر دقيقة تزيل هذه الشبهة فانه قال خلقنا لهم

مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون فبين انه تعالى انما خلق
الانعام بالايدي لاجل مصالح الناس ورعاية لمهماتهم فكان هذا
التشريف ايضا عايدا الى البشر وفيه تنبيه على دقيقة كانه قال
هيات ذاتك باليدين وهيات ما تحتاج اليه بعد الحيوة من
الماكول والملبوس والمركوب بالايدي وذلك لتعلم ان عنايتي بك
بعد حيوتك اشرف من عنايته بك قبل وجودك ومن النكتة
اللطيفة ههنا مما سمعت انه كان بنيسابور امرأة من عقلاء
المجانين كان يقال لها نازنين فكانت تقول مسكين ابن آدم
جسده في يد الحق كما قال خمر طينة آدم بيده اربعين صباحا وقلبه
في اصبع الحق كما قال قلب المومن بين اصبعين من اصابع الرحمن
ثم انه مع انه لا يملك امر جسده ولا امر روحه صارت التكاليف
متوجهة اليه والاوامر الالهية لازمة عليه المرتبة الخامسة
كونه مخلوقا من طين لازب واللازب هو اللازم وانما سمي لازما
ولازبا لان اللازم واللازب هو الملتصق بالغير والانسان اكثر
الاشياء حاجة فلا جرم كان اكثر الاشياء تمسكا بذيل رحمة الله
واشد الاشياء طمعا بجناب فضله واحسانه المرتبة السادسة
كونه مخلوقا من صلصال من حمإ مسنون فاثبت له ثلثة انواع
من الصفات الصفة الاولى كونه صلصالا وهو الذي اذا تحرك
تصلصل كالخزف الذي من داخله صوت والصفة الثانية
كونه حمأ وهو الذي استقر في الماء وتغير لونه الى السواد و
الثالث المسنون وهو الذي تغير رايحته قال تعالى نظر

الى طعامك وشرابك لم يتسنه اى لم يتغير واصله لم يتسنن
قال تعالى فيها انهار من ماء غير آسن اى غير متغير واعلم انه تعالى
اشار بكونه صلصالا الى غاية ضعفه وقلة بقائه فان الطين
الذى يصير صلصالا لا ينكسر ويتفرق بادنى سبب وكونه من حماء
اشارة الى الاخلاق الظلمانية التى هى قوة الشهوة وكونه مسنونا
وهو الرائحة الموذية اشارة الى الاخلاق السبعية التى منشاها
الغضب ونظيره قول الملائكة اتجعل فيها من يفسد ويسفك
الدماء والفساد منشاة الشهوة وسفك الدماء منشاة الغضب
واما المرتبة السابعة وهو كونه صلصالا كالفخار فاعلم
ان الصلصال قبل ان يصير فخارا لم يصلح لامر من الامور فاذا
صار فخارا صلح لان يجعل فيه الماء وذلك الماء اذا استقر فيه
صار صافيا عذبا زلالا فيكون ذلك اشارة الى صيرورته
صالحا لحفظ ماء العبودية وزلال المعرفة فيه اما المرتبة
الثامنة وهى قوله خلق الانسان من عجل فاشهر الاقوال فيه
ان المراد به هو آدم عليه السلام وهو قول مجاهد وسعيد
بن جبير وعكرمة والسدى والكلبى قال مجاهد خلق الله تعالى
آدم بعد كل شىء فى آخر نهار يوم الجمعة فلما دخل الروح راسه
ولم يبلغ اسفله قال يا رب استعجل تمام خلقتى قبل غروب الشمس
قال مجاهد فذلك هو قوله خلق الانسان من عجل وعن السدى
لما نفخ فيه الروح ويمكن الروح فى راسه عطس فقالت
الملائكة قل الحمد لله فلما قال ذلك قال الله يرحمك الله ولذلك

خلقتك فلما دخل الروح عينيه نظر الى ثمار الجنة فلما دخل روحه
جوفه اشتهى الطعام فوثب الى ثمار الجنة قبل ان يبلغ الروح
الى رجليه فهذا هو الذى ورث اولاده العجلة ثم للمفسرين
اقوال فى تفسير العجل وهو قول المحققين خلق الانسان من عجل
اى خلق عجولا وذلك على المبالغة كما يقال للرجل الذكى هو نار تشتعل
والعرب تسمى المرء بما يكثر منه فيقول ما انت الا اكل ونوم وما
هو الا اقبال وادبار وهذا الوجه متاكد بقوله خلق الانسان
من عجل اى من شانه العجلة كقوله خلقكم من ضعف اى ضعيفا
الثانى قال ابو عبيد العجل الطين بلغة حمير وانشد والنخل
ينبت بين الماء والعجل الثالث قال الاخفش من عجل اى من تعجيل
من الامر وهو كقوله سبحانه كن فيكون والرابع من عجل اى من ضعف
وهو قول الحسن المرتبة التاسعة قوله تعالى لقد خلقنا
الانسان فى كبد وقيل فى الكبد وجهان الاول قال صاحب الكشاف
الكبد اصله من قولك كبد الرجل كبدا فهو اكبد اذا وجعت كبده
وانتفخت ثم اتسع فى هذا اللفظ حتى استعمل فى كل تعب ومشقة
ومنه اشتقت المكابدة وقال آخرون الكبد شدة الامر ومنه كبد
اللبن اذا غلظ واشتد ومنه الكبد كانه دم يغلظ ويشتد
والفرق بين هذين القولين ان الاول جعل اسم الكبد موضوعا
للكبد ثم اشتق منه الشدة وفى الثانى اللفظ موضوع للشدة
والغلظ ثم اشتق منه هذا العضو المخصوص والوجه الثانى
ان الكبد هو الاستواء والاستقامة والوجه الثالث ان الكبد

شدة الخلق والقوة واذا عرفت هذا فنقول اما على الوجه الاول
فيحتمل ان يكون المراد منه شدايد الدنيا فقط وان يكون المراد
منه شدايد التكاليف فقط وان يكون المراد منه شدايد الاخرة
فقط وان يكون المراد كل هذه الوجوه اما اذا حملناه على شدايد
الدنيا فيكون قوله لقد خلقنا الانسان في كبد اى خلقناه في
اطوار كلها شدة ومشقة تارة فى بطن الام ثم زمان الرضاع
ثم بعد البلوغ بتحصيل وجوه المعاش ودفع ضرر الاعداء ثم بدفع
ضرر الالام والاسقام والتصون من الآفات النازلة من السماء
والارض واما الثانى وهو حمله على شدايد الدين فهو توجه
التكاليف الشاقة عليه قال الحسن نكابد الشكر على السراء والصبر
على الضراء ونكابد المحن في اداء العبادات والرضاء بقضاء الله
عند نزول الآفات والبليات واما الثالث وهو حمله على مشاق
الآخرة فالموت ومسايلة الملك ثم ظلمة القبر ثم البعث والعرض
على الله الى ان يستقر به القرار اما فى الجنة او في النار واما الرابع
وهو ان يكون اللفظ محمولا على الكل فهو الحق عندي وعندي في الاية
وجه آخر وهو انه ليس في هذه الدنيا لذة البتة بل ذلك الذى يظن
انه لذة فهو خلاص عن الالم فان ما يتخيل من اللذة عند الاكل فهو
خلاص عن الم الجوع وما يتخيل من اللذة عند اللبس فهو خلاص
عن الم الحر والبرد فاذا تفكرت علمت انه ليس للانسان الا الالم
والخلاص عن الالم فهذا معنى قوله ولقد خلقنا الانسان في كبد
اى هو طول عمره يكون فى مكابدة الالام والاسقام ومقاسات

المعبات والموذيات وعند هذا الحرف يظهر انه لا بد في حكمة
الحكيم المدبر لهذه العالم من الحشر والنشر والبعث يوم القيامة
لان الحكيم الذى دبر خلق الانسان ان كان مطلوبه ان يولم الانسان
فهذا لا يليق بالرحمة وان كان مطلوبه ان لا يتالم ولا يكيد ففى
تركه على هذا العدم حصول لهذا المطلوب وان كان مطلوبه
ايصال اللذة والنفع اليه فقد بينا انه ليس في هذه الحيوة لذة
وانه تعالى خلق الانسان في هذه الدنيا فى كبد ومشقة ومحنة
فاذا لا بد بعد هذه الدار من دار اخرى لتكون تلك الدار دار السعادات
والخيرات والكرامات واما على الوجه الثانى وهو ان يفسر
الكبد بالاستواء قال ابن عباس في كبد اى قايما منتصبا وساير
الحيوانات تمشى منكسه فهذا امتنان على الانسان بهذه الخلقة
المرتبة العاشرة من مراتب خلق الانسان قوله تعالى الله
الذى خلقكم من ضعف واعلم ان اثار ضعف الانسان لا يخفى
كما قال بعضهم تنتنه العرقة وتولمه البقة وتقتله الشرقة وقال
هرون الرشيد لابن السماك عظنى قال ان عطشت ولم تجد شربة
من الماء الا بكل ما تملكه ماذا تعمل قال اعطى وآخذ قال فان احتبس
ذلك الماء ولم يخرج الا ببذل كل ما تملكه ماذا تعمل قال اعطى فيخرج
قال فاذا الشربة الواحدة من الماء بقيمة كل ما تملكه مرتين وايضا
فان البقة اصغر الحيوانات جثة واضعفها بنية ثم انها قتلت
نمرود اكبر ملوك بنى آدم واطغاهم واعظمهم سلطانا ويروى
ان الشافعى حضر عند بعض الملوك العظام وكان يجنبه التنوم

وكان الذباب يجلس على وجهه فيوقظه ويوذيه ثم انه كان
يلطم وجهه وخده عند طرد الذباب فقال في اثناء ذلك
ما الحكمة في خلق الذباب فقال الشافعي رضي الله عنه في الحال
ليذل به عظماء الملوك من الملوك ويظهر عجزهم عن دفعه
قال الزنبور اذا اخذ الآدمي سلاحه وسيفه ورمحه بيده
نجا واحدنا فيلسعه بحمة مثل راس ابرة فيشغله ذلك عن
كل ما هو فيه يتورم رجله ويتالم اعضاه حتى لا يمكنه ان يقبض
على سيفه وقال الذبابة اليس ان اعظمهم سلطانا واشدهم
هيبة اذا قعد على سرير ملكه مع الهيبة والعظمة فانه يجئ
احدنا من المطبخ او من الخلاء ملوث اليدين والجناحين فيقعد
على وجهه وثيابه ويوذيه ويلطخه ولا يقدر على الاحتراز
منا وقال الحشرات والهوام اليس اذا قعد احدهم في مجلسه
وسريره يجئ احدنا فيدخل بين ثيابه فيقلقه ويزعجه اذا اراد
ان يبطش منا يصفع نفسه بيده ويلطم خده بكفيه وكل ذلك
دليل عجز الانسان وتمام البيان فيه قوله تعالى يا ايها الناس
ضرب مثل فاستمعوا له الاية فهذا هو الكلام في مراتب خلق
الانسان عند تعوده وقبل هذه المراتب كلها كان العدم المحض
كما قال تعالى لزكريا وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا وقال
في اول سورة الانسان هل اتى على الانسان حين من الدهر
لم يكن شيئا مذكورا فهذه الحيوة الدنيا وان كانت معدومة
من الازل الى الآن وستصير معدومة من الآن الى الابد فانظر

الى طول مدة الازل وطول مدة الابد ثم انظر الى هذه الحيوة المحفوفة
بهذين الطرفين حتى تعرف حقارة هذه الحيوة وصغرها وقلتها
بلى ان صرفتها في الطاعات استوجبت بها الثواب الابدي و
السعادة السرمدية فحينئذ يصير هذا الحقير عظيما وهذا الصغير كبيرا

الفصل الخامس في عجايب تكون الاجنة

اعلم انه
سبحانه خلق الخلق من اشياء مختلفة فخلق السماء من الدخان قال
تعالى ثم استوى الى السماء وهي دخان وخلق الارض من زبد
البحر على ما نقل عنه عليه السلام انه قال اول ما خلق الله جوهرة
لطيفة فنظر اليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط على الماء
حرارة فارتفع منه زبد فخلق منه الارض وخلق الجنة من رحمته
والنار من غضبه قال سبحانه سبقت رحمتي غضبي وخلق الملائكة
من النور قال عليه السلام ان الله خلق الملائكة من النور وخلق الجان
من نار قال تعالى وخلق الجان من مارج من نار وخلقته من طين
وخلق آدم من التراب ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب
وخلق حوا من بعض اعضاء آدم قال تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم
الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وخلق عيسى من
الريح قال ومريم ابنت عمران التي احصنت فرجها فنفخنا فيه
من روحنا وخلق اولاد آدم من النطفة قال تعالى ولقد
خلقنا الانسان من سلالة من طين الاية وخلق ساير الحيوانات
من الماء قال تعالى والله خلق كل دابة من ماء وخلق ناقة صالح
من الصخر قال هذه ناقة الله لكم اية ثم كل هذه الاشياء مخلوقة من

من هذه المواد فهذه المواد تمتنع ان يكون مخلوقة من مواد اخرى
والا لزم التسلسل ويمتنع ان يكون هذه المواد قديمة لانها محل
الحوادث وكل ما كان محل الحوادث فهو حادث فهذه المواد محدثة
فهى مخلوقة لله سبحانه وانه تعالى خلقها عن العدم المحض والنفى
الصرف فثبت انه تعالى تارة يحدث الاشياء عن العدم المحض
والسلب الصرف وتارة يحدث بعض الاشياء عن بعض ثم ههنا
يجب ان يتامل الانسان وهو ان كل قادر سوى الله تعالى فانه
لا يمكنه التصرف الا فى نوع واحد فالخياط يتصرف فى الثياب
والحداد يتصرف فى الحديد واما الحق سبحانه فهو المتصرف
فى المعدومات والموجودات على وفق الحكمة ومطابقة المصلحة
فمن ههنا يظهر كمال قدرة الله تعالى ثم ههنا دقيقة اخرى وهى
انه تعالى اذا خلق شيئا من شئ جعل مرجعه اليه الا ترى ان الملائكة
لما كان اصلهم من النور فهم لما طعنوا فى البشر حيث قالوا اتجعل
فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء لكنهم ما بقوا على ذلك الطعن
مستمرين بل رجعوا الى مقتضى اصلهم وهو النورانية وعادوا
الى الصلح والاستغفار فقال تعالى حكاية ويستغفرون للذين
امنوا ربنا الاية وعيسى عليه السلام لما كان اصله من نفخة جبريل
عليه السلام لا جرم عاد بالاخرة الى عالم الافلاك فقال تعالى انى
متوفيك ورافعك الى وقال بل رفعه الله اليه وكذا البشر لما كان
اصله من التراب لا جرم بالاخرة يرجعون اليه يصيرون ترابا كما
قال منها خلقناكم وفيها نعيدكم الاية واذا علم العبد ان مصيره
الى التراب والفناء زالت محبة الدنيا عن قلبه واعرض عن الدنيا
وعلم انه يجب عليه الاهتمام بعمارة الاخرة والاقبال على طاعة الله
واذا عرفت هذه المقدمة فنقول انه تعالى ذكر فى القران
كيفية الخلقة فقال فى سورة الحج يا ايها الناس ان كنتم فى ريب
من البعث فانا خلقناكم من تراب الى قوله قدير وقال فى سورة
القيامة الم يك نطفة من منى يمنى ثم كان علقة فخلق فسوى وقال
فى المرسلات الم نخلقكم من ماء مهين الا ان اكثرها شرفا وتفصيلا
هو المذكور فى اول سورة قد افلح المؤمنون وهو قوله ولقد
خلقنا الانسان من سلالة من طين الاية واعلم انه تعالى ذكر فى
هذه الايات سبع مراتب فى تخليق الاجنة وقبل هذه الاية افتتح
هذه السورة بذكر سبعة انواع من خصال الخيرات والطاعات
اولها الايمان وهو قوله قد افلح المؤمنون والكلام فى حقيقة
الايمان سياتى فى باب مفرد ان شاء الله تعالى والثانى الصلوة
وهى قوله الذين هم فى صلوتهم خاشعون واختلفوا فى الخشوع
فمنهم من جعله من افعال القلوب كالخوف والرهبة ومنهم من جعله
من افعال الجوارح كالسكون وترك الالتفات ومنهم من قال
هو عبارة عن مجموع الامرين وهو الاولى فالخاشع فى صلوته
لا بد وان يحصل له من قسم افعال القلوب نهاية الخضوع والتذلل
للمعبود ومن قسم التروك ان لا يكون مشتغل القلب بشئ سوى
تعظيم خالقه ومن افعال الجوارح ان يكون ساكنا مطرقا ناظرا
الى موضع سجوده ومن التروك ان لا يلتفت يمينا ولا شمالا

والخشوع عبارة عن مجموع هذه الاشياء الا ان الخشوع الذي
يرى على الانسان ليس الا بما يتعلق بالجوارح فان الذي يتعلق بالقلب
لا يرى وتمام هذا الكلام في هذا المعنى فسيأتي ان شاء الله في كتاب
الصلوة الصفة الثالثة قوله والذين هم عن اللغو معرضون
في اللغو اقوال احدها ان يدخل كل ما كان حراما او مكروها
او مباحا ولكن لا يكون بالانسان ضرورة ولا حاجة اليه
والثاني انه عبارة عن كل ما كان حراما وهذا التفسير اخص من
الاول والثالث انه عبارة عن المعصية في القول وهذا اخص
من الثاني والرابع انه المباح الذي لا حاجة اليه واحتج هذا
القائل بقوله لا يؤاخذكم الله باللغو في ايمانكم فكيف يحمل اللغو
على المعاصي مع ان المواخذة فيها غير حاصلة واحتج الاولون
بان اللغو انما سمي لغوا لانه يلغى في كل ما يقتضي الدين الغاه كان
مسمى باللغو ثم اللغو قد يكون كفرا لقوله لا تسمعوا لهذا القران
والغوا فيه وقد يكون كذبا لقوله لا تسمع فيها لاغية وقوله
لا يسمعون فيها لغوا ولا تاثيما واذا عرفت اللغو فنقول انه سبحانه
مدحهم بانهم معرضون عن اللغو والاعراض عنه بان لا يفعل
ولا يرضى به ولا يخالط من يقدم عليه قال واذا مروا باللغو
مروا كراما واعلم انه سبحانه لما وصفهم بالخشوع في الصلوة
اتبعه بوصفهم بالاعراض عن اللغو حتى يحصل لهم الفعل والترك
فالفعل هو الصلوة والترك هو الاعراض عن اللغو الصفة الرابعة
قوله والذين هم للزكوة فاعلون والقول في تفسير اسم الزكوة

وفي منافعه سيأتي في باب الزكوة ان شاء الله تعالى الصفة
الخامسة قوله والذين هم لفروجهم حافظون والكلام فيه
سيأتي في باب النكاح الصفة السادسة والذين هم لاماناتهم
وعهدهم راعون واعلم انه يسمى الشيء المؤتمن عليه والمعاهد
عليه امانة وعهدا ومنه قوله ان الله يأمركم ان تؤدوا الامانات
الى اهلها وقال وتخونوا اماناتكم وانما تؤدى الاجسام لا
المعاني وانما يقع الخيانة في المؤتمن عليه لا في نفس الامانة والعهد
ما عقده الانسان على نفسه فيما يقربه الى ربه ويقع ايضا هذه
اللفظة على ما امر الله به كقوله الذين قالوا ان الله عهد الينا الا نؤمن
والراعي هو القايم على الشيء بالحفظ والاصلاح كراعي الغنم وراعي
الرعية واعلم ان الامانة والخيانة متقابلان قال تعالى
يا ايها الذين امنوا لا تخونوا الله والرسول الآية فكل ما خرج من
احدهما دخل في الاخر فكل العبادات داخلة في الامانات بدليل
قوله انا عرضنا الامانة الآية ثم تمام الكشف فيه ان العبادات
قد يكون مخفية كالصوم وغسل الجنابة واسباغ الوضوء وقد
تكون بحيث يخفى كيفية الاتيان بها قال عليه السلام اكثر الناس
خيانة من لم يتم صلوته ومن جملة ذلك ما يلزمه الاتيان بفعل
او قول فيلزمه الوفاء به كالودايع والعقود وما يتصل بهما
ومن ذلك الاقوال التي يحرم بها التصرف في العبيد لانه مؤتمن
في ذلك واما العهد فانه يدخل فيه الايمان والعقود والنذور
فبين سبحانه ان مراعات هذه الامور والقيام بها معتبرة في حق

حصول الفلاح الصفة السابعة قوله تعالى والذين هم
على صلوتهم يحافظون فاعلم انه تعالى فرق بين الخشوع وبين
المحافظة فان الخشوع صفة القلب على ما ذكرنا والمحافظة
عبارة عن تحصيل شروطها في رعاية الوقت والطهارة والستر
لادائها وترك التوانى فيه فهذه امور سبعة قدمها الله سبحانه
ذكرها ثم قال بعدها اولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس
فههنا سؤالات السؤال الاول لم سمى الجنة ميراثا مع انه سبحانه
حكم بان الجنة حقهم في قوله ان الله اشترى من المؤمنين انفسهم
واموالهم بان لهم الجنة والجواب من وجوه الاول انه روي
عن النبي عليه السلام انه قال لا مكلف الا وقد اعد الله له في
النار ما يستحقه ان عصى وفي الجنة ما يستحقه ان اطاع وجعل
لذلك علامة فاذا آمن البعض ولم يؤمن البعض صارت منازل
من لم يؤمن منقوله الى الذين امنوا فلما كان حرمانهم عن تلك
الدرجات ودخولهم في النار شبيها بالموت فلا جرم سمي ذلك
ميراثا لهذا الوجه وقد قال الفقهاء انه كما يورث عن الميت
ما كان مملوكا له كذلك يورث عنه ما يقدر فيه كونه مملوكا له
وان لم يدخل في ملكه كالدية فانها موروثة مع انها لم يدخل
في ملك المقتول البتة الثاني انه لما حصلت الجنة لهم مع انهم
كانوا عارفين في الدنيا بكمية منافعها اشبه ذلك بانتقال
المال الى الوارث الثالث ان الجنة لما كانت مسكن الاب الاول
آدم عليه السلام فاذا انتقلت الى اولاده كان ذلك شبيها

بالميراث

بالميراث السؤال الثاني كيف حكم على المؤمنين بالصفات السبعة
بالفلاح مع انه تعالى ما تمم ذكر الواجبات كالصوم والحج والجواب
ان قوله والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون يأتي على كل الواجبات
من الافعال والتروك السؤال الثالث فهذه الآية تدل على ان
هؤلاء هم الوارثون للجنة فاما من لم يأت بالطاعات واتي
بالمعاصي ثم مات عقيب توبته من غير شيء من الطاعات وجب
ان لا يدخل الجنة وهو على خلاف الآيات الدالة على ان التائب
من اهل الجنة والجواب ظاهر الآية وان كان يفيد الحصر الا انه
يجب حمل الظاهر على ان الكاملين من اهل الجنة هم الموصوفون بهذه
الصفات بدليل ان المجانين والصبيان يدخلونها وكذلك الفساق
من اهل الصلوة لقوله ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون
ذلك لمن يشاء ونظير حمل هذا الحصر على حالة الكمال قوله تعالى
انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ومن الناس
من قال الفردوس عبارة عن اشرف موضع في الجنة وعلى هذا التقدير
يزول السؤال قال عليه السلام الفردوس مقصورة الرحمن وعن
ابي امامة عن النبي صلى الله عليه وسلم انه قال تمنوا الفردوس فانها
سرة الجنة واعلم انه سبحانه لما شرح في اول هذه السورة هذه
المراتب السبعة في العبادات اردفها بما يدل على وجود الصانع
وقدرته وعلمه وحكمته وهو ذكر المراتب السبعة في خلقة الانسان
اولها قوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وثانيها
قوله ثم جعلناه نطفة في قرار مكين وثالثها قوله ثم خلقنا النطفة

علقة ورابعها فخلقنا العلقة مضغة وخامسها فخلقنا
المضغة عظاما وسادسها فكسونا العظام لحما وسابعها
ثم انشأناه خلقا آخر فتبارك الله احسن الخالقين فلنشرح
احوال هذه المراتب السبعة بعون الله تعالى اما المرتبة الاولى
وهي قوله ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ففيه سؤال
مشكل وهو ان المراد من الانسان ان كان هو آدم فكيف يستقيم
قوله ثم جعلناه نطفة في قرار مكين فان آدم عليه السلام
ما كان كذلك وان كان هو اولاد آدم فكيف يستقيم قوله خلقنا
الانسان من سلالة من طين فانهم ليسوا مخلوقين من الطين
والجواب من وجوه الاول ان لفظ الانسان شامل لآدم واولاده
ثم قوله من سلالة من طين ينصرف الى آدم وقوله ثم جعلناه
نطفة ينصرف الى اولاده والثاني ان المراد من الانسان في
هذه الآية اولاد آدم عليه السلام والطين ههنا اسم آدم
والسلالة هي الاجزاء الطينية المبثوثة في اعضائه وهي التي
لما اجتمعت وحصلت في اوعية المني صار منيا وهذا التفسير
مطابق لقوله وبدأ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من
سلالة من ماء مهين والثالث وهو الذي ذكرت فقلت المراد
من الانسان ههنا اولاد آدم لان المقصود من ذكر هذه الآية
البتة ما يدل على وجود الصانع وهذا لا يحصل الا بالامر المشاهد
وهو تولد اولاد آدم لا تولد ذات آدم فثبت ان المراد من الانسان
اولاد آدم بقي ان يقال فما المراد من قوله ولقد خلقنا الانسان

من سلالة من طين مع ان اولاد آدم ليسوا كذلك وجوابه
ان الانسان انما يتولد من النطفة والنطفة انما يتولد من الاغذية
والاغذية اما حيوانية واما نباتية والحيوانية ينتهي الى
النباتية والنباتي انما يتولد من صفو الطين فالانسان بالحقيقة
انما يتولد من سلالة من طين اقصى ما في الباب ان تلك السلالة
من طين تواردت عليها اطوار الخلقة وادوار الفطرة حتى
صارت منيا وبذلك لا يبطل كون الانسان متولدا من سلالة
من طين كما انه تولد عن المني بعد تعاقب الاطوار والادوار عليه
ولم يكن ذلك قادحا في كونه متولدا من المني وهذا التأويل
الذي ذكرته مطابق للفظ ولا تحتاج معه الى شيء من التكلفات
والله اعلم بمراده المرتبة الثانية قوله تعالى ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين فاعلم ان الاطباء يقولون ان الانسان
اذا اكل طعامه فانه ينطبخ ذلك الطعام في معدته لا بحرارة
المعدة وحدها بل بحرارة ما يطيف بها اما من اليمين بالكبد
واما من اليسار بالطحال واما من قدام بالترب الشحمي القابل
للحرارة سريعا واما من فوق بالقلب بتوسط تسخينه للحجاب
فما يكون منه صافيا يدخل في عروق صلاب دقاق في الكبد
والذي كالثفل ينزل الى الامعاء ثم ينطبخ ذلك المصفى مرة
اخرى في الكبد ويحصل عند ذلك الانطباخ رغوة وهي الصفراء
ثم تذهب الى المرارة ورسوب وهو السوداء ويذهب الى الطحال
وتنفصل المائية الفضلية وتذهب الى الكليتين ومنهما الى المثانة

ومنها الى الاحليل وتخرج ثم انه تعالى خلق مجرى بين الطحال وبين فم
المعدة ومجرى آخر بين المرارة والامعاء ثم ان تلك السوداء ينصب
شئ منها الى فم المعدة فيحصل في المعدة دغدغة الجوع ولو انسد
للانسان هذا المجرى لم يحصل للانسان شعور بالحاجة الى الطعام
وايضا تنصب من المرارة شئ من الصفراء على الامعاء حتى ينغسل
الامعاء عن الفضلات وليحصل للانسان شعور بالحاجة
الى اخراج الفضلة ولو انسد ذلك المجرى لم تنصب تلك الصفراء
على الامعاء فيبقى الثفل فيها ويتولد القولنج ثم انه يحصل بعد
هذين الطبخين طبخ ثالث وهو ان ذلك الدم الصافي يخرج من الكبد
ويتوزع في العروق وينطبخ مرة ثالثة في العروق ثم يحصل طبخ
رابع وهو ان تلك الدماء المتوزعة في العروق تنصب على جواهر
الاعضاء ويتكيف بكيفية تلك الاعضاء فبعضها يصير متكيفا
بكيفية العظم وبعضها بكيفية اللحم وبعضها بكيفية العصب فهذه
اربعة مراتب في الطبخ واذا عرفت هذا فنقول انه اذا صارت
الشهوة مستولية على الانسان تولدت من تلك الشهوة سخونة
منتشرة في جميع الاخلاط والاعضاء ثم لسبب تلك السخونة يرتفع
بخار لطيف ورغوة لطيفة من جميع الاخلاط والاعضاء ومجموع
ذلك البخار والرغوة انما يرتفع مما حصل عند الهضم الرابع فيتولد
من العظم جوهر شبيه في الطبع بالعظم ومن اللحم والعروق والاعضاء
كذلك ثم انه لما حصل في تلك الرغوة قوى وطبايع متشابهة
لتلك الاعضاء البسيطة فكذلك يحصل فيها قوى وطبايع متشابهة

لقوى الاعضاء المركبة فيحصل فيها اجزاء من الدماغ واجزاء
من العين واجزاء من اليد واجزاء من الرجل ولهذا المعنى لما سال
اليهودي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبب مشابهة الولد
تارة اباه وتارة امه فقال عليه السلام ان كان الغالب هو ماء
الرجل حصلت المشابهة بالاب وان كان الغالب هو ماء المرأة
حصلت المشابهة بالام ثم ان هذه الرغوة المختلسة من جميع
الاعضاء والابعاض يصعد في العرقين السارين بامر الحكيم
الخبير الى الدماغ وذلك لان الدماغ هو اشرف اعضاء الانسان
وهو مسكن القوة المفكرة والحافظة والذاكرة فاقتضت الحكمة
الالهية ان يحصل من خواص الدماغ الذي هو اشرف اعضاء
بدن الانسان في تلك الرغوة اثر وكيفية ثم انه سبحانه يخلط
بتلك الاجزاء شيئا كثيرا من اجزاء الدماغ ولذلك قيل من باشر
كثيرا ظهر اثره على العين في الفتور والكلال والانكسار ثم انه
سبحانه ينزل تلك الاجزاء من الدماغ الى صلب الرجل وترائب المرأة
ثم تنزل بعد الوقاع من الصلب والترائب الى مستقر الرحم فهذا
هو المراد من قوله سبحانه ثم جعلناه نطفة في قرار مكين واعلم
انا قد ذكرنا ان هذه النطفة تجرى مجرى رغوة تنفصل من
الاعضاء بسبب ذوبان يعتريها عند استيلاء حرارة الشهوة
فيكون بعض تلك الاجزاء من ذوبان العظم وبعضها من ذوبان
اللحم ولما كان البدن الانساني مخلوقا من الطبايع الاربعة كان
ذوبانها ايضا كذلك فيكون المني جسما مركبا من ارضية ومائية

وهوائية ونارية والهوائية والنارية غالبة عليها وتدل
عليه ان بياض الرطوبة انما يكون بسبب الاخلاط الهوائية بها
كما يكون في الزبد والاجزاء الكثيفة التي هي في المني هو مواد
الاعضاء والاجزاء اللطيفة التي هي فيها الارواح وتلك الاجزاء
اللطيفة والكثيفة يكون مختلطا بعضها ببعض في اول الامر
ثم ان الجنسية علة الضم فتنضم الاجزاء اللطيفة بعضها الى
بعض والاجزاء الكثيفة بعضها الى بعض ولما كان اللطيف
سريع التحليل والتلاشي اقتضت الرحمة الالهية جعل الاجزاء
اللطيفة في الوسط وجعل الاجزاء الكثيفة كالصوان لها
فيصير الكل كالكرة المستديرة ويكون باطنها مملوا من الاجزاء
الروحانية اللطيفة ويكون ظاهرها من الاجسام الكثيفة
وذلك الموضع الذي هو مجمع الارواح والاجزاء اللطيفة هو
الموضع الذي ذا استحكم وكمل كان قلبا فلهذا المعنى قال اهل العلم
اول الاعضاء الانسانية الذي يتكون هو القلب وآخرها موتا
هو القلب وعند هذا يظهر ان قطرة النطفة يصير كالكرة
ويكون مجمع الارواح في باطن تلك الكرة هو القلب وحينئذ
تحصل ههنا احوال عجيبة الاول ان العالم الاصغر الذي هو
الانسان كرة كما ان العالم الاكبر ايضا كرة الثاني ان كرة العالم
الاصغر تبقى معلقة في جو الرحم بحفظ الخالق الحكيم كما ان كرة
العالم الاكبر بقيت معلقة في الخلاء الذي لا نهاية له بحفظ
الخالق الحكيم كما قال ان الله يمسك السموات والارض الاية

والثالث ان كرة العالم الاصغر يكون الكثيف محيطا واللطيف
محاطا به على ما شرحناه والعالم الاكبر بخلاف ذلك لان ما
في العالم الاكبر اللطيف محيط وهو السموات والمحاط به هو
الكثيف وهو الارض والرابع انه تعالى قال خلق السموات في ستة
ايام واما العالم الاصغر فقال اهل التجارب ان هذه الكرة
المتولدة من هذه النطفة تبقى ستة ايام على حالتها الاولى
لا يتغير منها صفة ولا تزول منها حالة والخامس روي انه
تعالى لما اراد خلق آدم امر الملائكة حتى اخذوا من كل ناحية
من نواحي الارض قبضة فبعض تلك الاجزاء احمر وبعضها اسود
وبعضها ابيض وبعضها حرة وبعضها سبخة وبعضها عذبة
وبعضها مرة فلا جرم جاءت اولاد آدم على صفات مختلفة
بعضهم احمر وبعضهم ابيض وبعضهم اسود وبعضهم حر كريم
وبعضهم بدل سفيه فكذا ههنا لما اراد تخليق ولد آدم امر
الملائكة الموكلين بابدان البشر حتى اخذوا من كل طرف من اطراف
ابدان الاب والام جزءا آخر على خاصية اخرى فاخذوا من
سواد الحدقة والشعر جزءا اسود ومن بياض الملتحمة والسن
والجلد جزءا ابيض ومن الدم جزءا احمر ومن الدماغ الاجزاء
الباردة ومن القلب الاجزاء الحارة ومن الكبد الاجزاء الرطبة
ومن العظام الاجزاء اليابسة وبالجملة اخذوا من كل طرف
من ابدان الابوين جزءا مناسبا له في الطبيعة مشاكلة له في
الخاصية ثم انه سبحانه كما اخبر عن طينة آدم انه خمرها بيده

اربعين صباحًا فكذا ههنا خمر هذه الاجزاء بعضها ببعض
اربعين صباحًا وكما انه سبحانه بحكمته راعى في تخمير طينة
آدم دقايق لا تصل اليها العقول والافكار فكذا في تخمير
هذه الاجزاء بعضها ببعض راعى اسرار لا يطلع عليها اوهام
الخلق فيقدر لكل شخص في ذلك التخمير نسبة خاصة في المقدار
والكيفية ومناسبة مقدرة في الحسن والقبح والسعادة و
الشقاوة والغنى والفقر والعلم والجهل لا يعرفها احد الا الله
ولا يقف على كنه اسرارها احد الا هو له الخلق والامر تبارك الله
رب العالمين واعلم انه تعالى ذكر في آيات كثيرة تولد الانسان
عن النطفة فقال في اول سورة النحل خلق الانسان من نطفة
فاذا هو خصيم وقال في آخر يس اولم ير الانسان انا خلقناه
من نطفة فاذا هو خصيم وقال في الواقعة افرايتم ما تمنون
ءانتم تخلقونه ام نحن الخالقون وقال في الانسان انا خلقنا
الانسان من نطفة امشاج نبتليه وقال في عبس قتل الانسان
ما اكفره من اى شئ خلقه من نطفة خلقه الاية وفي امثال
هذه الايات كثيرة واعلم انه تعالى ذكر في القرآن للمنى صفات كثيرة
منها قوله في الطارق خلق من ماء دافق وهذه الآية
مشتملة على ذكر صفتين الصفة الاولى كونه ماء دافقا فلنذكر
تفسير الدافق بحسب اللغة ثم ما يتعلق بكونه دافقا من وجوه
المصلحة اما اللغة فاعلم ان الدفق صب الماء يقال دفقت الماء
اى صببته وهو مدفوق اى مصبوب ولما كان هذا الماء مدفوقا

اختلفوا في انه لم وصف بانه دافق وذكروا فيه وجوها الاول
قال الزجاج معناه ذو اندفاق كما يقال دارع وفارس ونابل وتامر
اى ذو درع وفرس ونبل وتمر والثاني قال الفراء انهم يسمون
المفعول باسم الفاعل كقولهم سر كاتم وهم ناصب وليل نائم
قال تعالى في عيشة راضية اى مرضية الثالث قال الخليل في
كتاب العين دفق الماء دفقا ودفوقا اذا انصب بمرة الرابع ان
الدافق هو صاحب الماء فاطلق هذا الوصف على الماء على سبيل
المجاز واما وجه الحكمة في كون هذا الماء مندفقا فاعلم ان وجه
الحكمة فيه التنبيه على انه ليس المقصود من المباشرة تحصيل اللذة
بل تحصيل الولد لان كون الماء مندفقا يمنع من دوام اللذة
وذلك لان السيلان المستمر اقوى في ايجاد اللذة واكثر دواما
لها بل الحكمة في الدفق بالقوة ان يكون للمنى قوة في الوصول الى
مستقر الرحم وهو الذى سماه الله تعالى مكينا في قوله قرار مكين
والصفة الثانية كون المنى خارجا من بين الصلب والترايب
وترايب المراة عظام صدرها حيث تكون القلادة وكل واحد
من تلك العظام فهى تريبة وقد اختلف المفسرون فمنهم من قال
الولد مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل وترايبه ومنهم
ومنهم من قال الولد مخلوق من الماء الذى يخرج من صلب الرجل
وترايب المراة واحتج الاولون بانه تعالى بين ان الانسان مخلوق
من ماء دافق والذى يوصف بهذا الوصف هو ماء الرجل ثم
عطف عليه بان وصفه بانه يخرج من بين الصلب والترايب

وذلك تقتضى كون هذه الصفة صفة لماء الرجل واذا كان كذلك
ثبت ان الولد مخلوق من ماء الرجل واحتج اصحاب القول الثاني
بقوله عليه السلام اذا غلب ماء الرجل يكون الولد ذكرا ويعود
شبهه الى الاب والى اقاربه واذا غلب ماء المرأة فبالضد وهذا
صريح في ان الولد مخلوق من ماء الرجل وماء المرأة والله اعلم
بحقايق مخلوقاته الصفة الثالثة قوله تعالى في سورة والنجم
وانه خلق الزوجين الذكر والانثى من نطفة اذا تمنى وقال
في القيامة الم يك نطفة من مني يمنى ولقايل ان يقول
ما الفايدة في قوله من مني يمنى مع ان كل مني يمنى والجواب فيه
ان فيه تنبيها على حقارة حال الادمى والتقدير انه مخلوق
من المنى الذى جرى على مخرج النجاسة فلا يليق بمثل هذا الشئ
ان يتمرد عن طاعة الله الا انه سبحانه عبر عن هذا المقصود
على سبيل الرمز والكناية نظيره قوله تعالى في عيسى ومريم
كانا ياكلان الطعام والمراد منه قضاء الحاجة الا انه تعالى
عبر عن هذا المعنى بقوله كانا ياكلان الطعام وكان الحسن البصري
يقول كيف يليق التكبر والتجبر بمن مر على مجرى البول مرتين
الصفة الرابعة قوله تعالى الم نخلقكم من ماء مهين وايضا
قال وبدا خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة
من ماء مهين والمراد بكونه مهينا وجوه الاول قال مالك انه
نجس رطبا ويابسا وقال الشافعي انه طاهر رطبا ويابسا
وقال ابو حنيفة انه نجس رطبا طاهر يابسا وحجة الشافعي

من وجهين الحجة الاولى انه تعالى من علينا بخلقنا منها حيث
قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين ولو كان نجسا لما حسن هذا الامتنان
فان الزموا العلقة والمضغة قلنا جوابه من وجهين الاول
انا لا ندري ما حالها حين ما يكون في الرحم والثاني ان المنى
انما يصير علقة ومضغة بسبب انه يمتزج به دم الطمث
والدم نجس فلهذا العارض حكمنا بالنجاسة الا ان اصل
الامتنان بالتخليق منه يقتضى كونه طاهرا الحجة الثانية انه
تعالى من علينا بان جعل اللبن طاهرا لاجل انه غذاء ومن المعلوم
ان الحاجة الى طهارة الذات اعظم من الحاجة الى طهارة الغذاء
فلما من علينا بجعل اللبن الذي هو الغذاء طاهرا فبان يمن
بطهارة المنى الذى هو الاصل كان اولى واعلم انا وان حكمنا
بطهارته الا ان العلماء لما اختلفوا في طهارته ونجاسته
كان ذلك دليلا على حقارته ونهاية مهانته والثاني ان
مهانته لاجل كونه مستقذرا والثالث ان مهانته لاجل
مروره على ممر النجاسة الصفة الخامسة انه تعالى اخبر عن الرحم
الذى هو موضعه انه قرار مكين وهو قوله تعالى ثم جعلناه
نطفة في قرار مكين وفيه فوايد الفايدة الاولى ان من
ملأ كوزا من الماء ثم قلبه انصب ذلك الماء ثم انه سبحانه
اودع النطفة في قعر الرحم ثم خلق الرحم منكسا ثم حفظ
فيه تلك النطفة بقدرته وحكمته وهذا وان كان عجيبا

بالنظر الى قدرتنا الا انه غير عجيب بالنظر الى قدرته وذلك لان
اجرام السموات والارض والجبال والبحار اثقل بكثير من
تلك القطرة كما قال لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس
فلما امسك السموات والارض بقدرته من غير علاقة
فوقها ولا دعامة تحتها كما قال ان الله يمسك السموات والارض
ان تزولا الاية فبان يقدر على امساك النطفة في قعر الرحم
بقدرته كان ذلك اولى واحرى الفايدة الثانية انه تعالى
سمى الرحم قرارا مكينا ومعلوم ان النطفة في الرحم ليست
مستقرة بل بقيت معلقة في الهواء فكيف يجوز تسمية الرحم
بالقرار المكين وجوابه كانه قال انا امسك النطفة في هواء الرحم
بقدرتي كما يمسك الواحد منكم الشيء الثقيل في مستقر الارض
والمراد منه اظهار كمال القدرة ونظيره انه تعالى سمى تخليق
السماء بناء فقال الذي جعل لكم الارض فراشا والسماء بناء
والشيء المعلق في الهواء لا يسمى بناء انما الشيء المستقر على القرار
يسمى بناء الا ان الجواب عنه كانه قال انا امسكت بقدرتي
السماء في جو الهواء وكان ذلك السكون جاريا مجرى الشيء
الذي يكون مستقرا على الارض ويبنى عليه البناء وتسمية
السماء بالبناء انما كان لاجل التنبيه على احكام خلقته والمقصود
منه التنبيه على كمال قدرة الصانع سبحانه فكذا ها هنا
سمى الرحم بالقرار المكين لتقرير هذا المعنى والفايدة الثالثة
وهو ان استقرار النطفة في الرحم انما كان بسبب انه سبحانه

بقدرته

بقدرته وحكمته يحفظها في الرحم فلما كان المستقر هو القدرة
الازلية ولا شك ان القدرة الازلية مبراة عن الخلل
والعجز والنقصان لا جرم سمى السماء بناء والرحم قرارا
ونظيره قوله تعالى الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها
يعني لها عمد غير مرئي وهو قدرة الله وحكمته وحفظه الفايدة
السادسة للنطفة قوله تعالى في الانسان خلقنا الانسان
من نطفة امشاج والمشج في اللغة الخلط والامشاج الاخلاط
قال صاحب الكشاف الامشاج لفظ مفرد وليس بجمع بدليل
انه وقع صفة للمفرد وهو قوله نطفة امشاج ويقال ايضا
نطفة مشيج ولا يصح ان يكون امشاج جمعا للمشيج بل هما مثلان
في الافراد ونظيره برمة اعشار اي قطع منكسرة وثوب اخلاق
وارض سباسب واختلفوا في معنى كونه مختلطا على وجوه الاول
انه اختلاط نطفة الرجل بنطفة المراة قال ابن عباس ماء
الرجل ابيض غليظ وماء المراة اصفر رقيق فيختلطان ويخلق
الولد منهما فما كان من عصب وعرق وعظم فمن نطفة الرجل
وما كان من لحم ودم فمن ماء المراة وقال الحسن من نطفة مشجت
بالدم وهو دم الحيضة فان المراة اذا بلغ ماء الرجل وحبلت
امسك حيضها فاختلطت النطفة بالدم وقال قتادة الامشاج
هو انه يختلط الماء والدم اولا ثم يصير علقة ثم يصير مضغة
وبالجملة فهو عبارة عن انتقال ذلك الجسم من صفة الى صفة
ومن حال الى حال وقال آخرون الامشاج عبارة عن كون النطفة

مختلطة من الامهات الاربعة والتقدير من نطفة ذات
امشاج وهذا دال على قدرة الله لان الطبايع المتنافرة لا
تجتمع الا بقهر ثم ان كل واحد من تلك الطبايع منافية للحيوة
فبناء امر الحيوة عليها يكون اظهارا للضد من الضد فيكون دل
على كمال القدرة ونظيره قوله في آخر يس الذى جعل لكم من الشجر
الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون ويحتمل ايضا ان يكون
المراد ما ذكرنا من كون النطفة متولدة بعد الهضم الرابع فبعضها
يكون فيه خاصية العظم وبعضها فيه خاصية اللحم وخاصية
العرق وتلك الاجزاء المخلوطة بعضها ببعض فيكون امشاجا
بهذا التاويل المرتبة الثالثة من مراتب خلق الانسان
صيرورة النطفة علقة وزعم اصحاب التجارب ان المنى في اول
الامر يصير كرة مستديرة ويبقى على لونه الابيض في الرحم ستة
ايام كما شرحناه ثم انه يظهر بعد ذلك في الباطن اعنى مركز هذه
الكرة نقطة دموية وذلك الموضع هو الذى ذكرنا انه مجمع
الارواح وهو الذى اذا تمت خلقته كان قلبا فلهذا المعنى
قالوا ان اول عضو يتكون من البدن هو القلب ثم يحصل بعد
ذلك ايضا نقطتان دمويتان احدهما فوق النقطة الاولى
وهي التي اذا استحكمت خلقته كان دماغا والنقطة الثانية
تحصل عن يمين النقطة الاولى وهي التي اذا استحكمت خلقتها
كان كبدا ثم ان هذه النقطة الثالثة تمتد في الصفات الاولى
امتدادا تاما وهذه الاحوال تحصل بعد ثلثة ايام اخرى ويكون

ذلك تسعة ايام من الابتداء وقد يتقدم يوما ويتاخر يوما
ثم ان بعد ستة ايام اخرى وهو الخامس عشر من العلوق تنفذ
الدموية في الجميع فيصير علقة فربما يتقدم يوما او يومين او
يتاخر يوما او يومين فهذا شرح حال العلقة ثم ههنا اسرار
وفوايد الحكمة الاولى ان كل من ينقش نقشا على شئ فانه يحتاج
الى امور احدها ان يكون محل النقش جسما صلبا كثيفا وها هنا
الحق سبحانه وضع النقش على الماء المهين والثاني يجب ان يكون
المكان الذى ينقش فيه واسعا ويكون الموضع مضيا وههنا
الحق سبحانه ينقش هذا النقش العجيب في الرحم وهو موضع ضيق
فقال هو الذى يصوركم في الارحام كيف يشاء واستدل
بهذا على الهيبة ووحدانيته فقال لا اله الا هو العزيز الحكيم
وايضا نقش هذا النقش في ظلمات الارحام فقال في الزمر
يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلث الاية
فما اعظم درجة الانسان وما اعجب خلقته وذلك لانه انما
ذكرها الا من احوال التخليقه ذكر عقيبه اما التهليل كما في هاتين
الايتين واما التعظيم والتقديس كما في قوله فتبارك الله احسن
الخالقين الحكمة الثانية ان كل كاتب ونقاش اراد ان يكتب
شيئا على جسم فانه يكتب ولا ذلك النقش على ظاهر ذلك الجسم
ثم انه يصل الاثر من الظاهر الى الباطن وههنا الحق سبحانه اظهر
آثار كتابته ونقشه وتصويره اولا في الباطن وهو ظهور النقط
الثلثة الدموية في الباطن اولا ثم سريانها من الباطن الى الظاهر

وهذا ليعلم انه كما ان ذاته وصفاته لا تشبه الذوات والصفات
فكذلك لا يشبه فعله افعال ساير الفاعلين وان اشتبه هذا
عليك في مبدا الخلقة والفطرة فله مثال حاضر في الحال وذلك
لان الاعضاء الظاهرة لا تتحرك ولا تسكن الا اذا حدثت في القلب
داعية وارادة لذلك الفعل ومحدث تلك الدواعي والارادات
في القلوب هو الله وهو المراد بقوله كتب في قلوبهم الايمان
وبقول رسوله قلوب العباد بيد الله وقلب المؤمن بين اصبعين
من اصابع الرحمن فالحق سبحانه يكتب في القلب تلك الدواعي
والارادات ثم يتولد منها فنون الافعال والحركات في ظاهر
البدن فظهر ان تاثير قدرة الله يظهر الان في القلوب والضماير
اولا ثم تسري تلك التاثيرات من البواطن والضماير الى الظواهر
ولما عرفت هذا المعنى في الحال فاعرف مثله في تخليق البدن في الابتداء
الحكمة الثالثة ان كل نقاش ابدع نقشا حسنا لطيفا فانه يبالغ
في صون نقشه عن اربعة اشياء عن التراب فان الغبار يبطل
رونق النقش ويزيل طراوته وعن الماء فانه يغسله ويزيله وعن
الرياح فانها يكدر النقوش وتبطلها وعن النار فانها تحرق
وتفني الاثر ثم انه سبحانه عكس هذه القضية فاظهر نقش خلقه
البشر من التراب فقال ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه
من تراب واظهر نقش خلقه الدواب من الماء فقال والله خلق
كل دابة من ماء واظهر خلقة عيسى من الهواء قال فنفخنا فيه من
روحنا وايضا جعل نفخة سببا لتخليق الحيوانات فقال واذ تخلق

من الطين كهيئة الطير باذني فتنفخ فيها فتكون طيرا باذني والجن
خلقه من النار فقال والجان خلقناه من قبل من نار السموم و
ذلك يدل على ان فعله لا يشبه فعل احد من الفاعلين الحكمة
الرابعة انه سبحانه خلق القلب اولا وذلك لانه سرير الروح ومدرسة
المعرفة وخانقاه الصفوة ومنزل المحبة فالنور الفايض من خطاب
انه لا اله الا الله لا يتجلى الا فيه والكرامة الحاصلة من تشريف
يحبهم ويحبونه لا تظهر الا فيه والاستقرار المتولد من وعد
الا بذكر الله تطمئن القلوب لا يحصل الا فيه فلما كان هو المقصود
في الثواب والعقاب والخطاب والعتاب والوعد والوعيد
والترغيب والترهيب والتحذير لاجرم كان هو المخلوق الاول
ثم انه تعالى خلق الدماغ فوقه والكبد تحته لان الدماغ منشاء
العقل الذي هو الواسطة بين القلب وبين العالم العلوي والكبد
منشا الغذاء وهي الواسطة بين القلب وبين العالم السفلي فجعل
العلوي في العلوي والسفلي في السفلي تنبيها على هذه الدرجات الحكمة
الخامسة ان القلب سلطان البدن وليست سلطنته بسبب كبر
الجثه والا لوجب ان يكون الفخذ اولى بهذه السلطنة ولا بسبب
الحرارة والا لكانت المرارة اولى بها ولا بسبب القوة والا لكانت
العظام اقوى بها ولا بسبب الحدة والقطاعية والا لكانت
الاسنان بها ولا بسبب كثرة الذخيرة والا لكانت المعدة
اولى بها ولما بطلت كل الوجوه ولم يبق للقلب خاصية سوى
كونه معدنا للعلم والحكمة والفهم والادراك فعلمنا انه انما كان

سلطان القلب لكونه موصوفا بالعلم والحكمة فكل من كان
عالما حكيما كان سلطانا بالحق ونائبا للحق بالحق وكل من كان
محروما عن العلم والحكمة كانت سلطنته فى التلبيس نيابة ابليس
الحكمة السادسة ان الروح سلطان الجسد وسرير الروح هو
القلب لاجرم كان القلب هو اول الاعضاء الحادثة فى البدن
فنقول لما كان الروح محتاجا الى سرير جسمانى كان ذلك السرير
اول الاعضاء المتكونة فى البدن فالحق سبحانه سلطان الموجودات
فلو كان محتاجا الى سرير جسمانى هو العرش لوجب على هذا القياس
ان يكون العرش اول المحدثات واول المكونات لكن الامر ليس
كذلك بنص القران والخبر اما القران فهو قوله ان ربكم الله
الذى خلق السموات والارض فى ستة ايام ثم استوى على العرش
بين تعالى ان الاستواء على العرش متاخر عن تخليق السموات
والارض واما الخبر فما روى انه عليه السلام انه قال اول
ما خلق الله القلم وفى رواية ثانية اول ما خلق الله العقل
وفى رواية ثالثة اول ما خلق الله تعالى نورى وفى رواية
رابعة اول ما خلق الله تعالى جوهرة ثم نظر اليها بعين الهيبة
فصارت ماء وجميع هذه الروايات مطابقة على ان العرش ليس
هو المخلوق الاول وذلك يدل على كونه منزها عن العرش والكرسى
والمكان والجهة الحكمة السابعة ان القلب سلطان الجسد
وكان اشرف اعضاء الجسد هو القلب ثم ان المجسمة يقولون
كل موجود هو اشرف من غيره وجب ان يكون فى مكان اعلى من جميع

الموجودات

الموجودات ولما كان الحق سبحانه اشرف الموجودات يجب ان
يكون فى مكان اعلى من جميع الموجودات فههنا القلب سلطان
البدن واشرف الاعضاء مع انه ليس فى اعلى موضع من مملكة
البدن بل هو مستقر فى الوسط فظهر بهذا فساد قول المجسمة
ان الاشرف يكون اعلى فى المكان والجهة بل ههنا دقيقة اخرى
وهو ان اخس اعضاء البدن انما هو الشعر والجلد والعظم
واعلى شىء من البدن هو هذه الثلثة فعلمنا ان العلو لا يقتضى
الشرف والتسفل لا يقتضى الخسة الحكمة الثامنة ان كل طباخ
وضع اللحم الاحمر فى قدر وطبخه فانه تزول تلك الحمرة ويحدث
البياض وههنا الحق سبحانه وضع منى الابيض فى قدر الرحم
وطبخه بنار الطبيعة فانقلب الابيض احمر وايضا كل احد
يسلط الحرارة على جسم لطيف فان بسبب تلك الحرارة تزداد
الدقة والرخاوة والحق سبحانه قلب هذه القضية ههنا
فسلط الحرارة على النطفة الرطبة فصيرها منعقدة كثيفة
قوية فان قيل انما حصلت الكثافة والانعقاد لان الحرارة لما
عملت فى تلك الرطوبة بحركتها فبقى الباقى صلبا يابسا فنقول
ان كان الامر كذلك وجب ان تؤثر تلك الحرارة القائمة برحم
المرأة وسائر اعضائها فى تخفيف تلك الاعضاء فان تاثير
تلك الحرارة فى محلها اولى من تاثيرها فى الجسم الاجنبى عنها المباين
لها فلما لم يؤثر تلك الحرارة فى تخفيف اعضاء الام واثرت
فى تخفيف جوهر النطفة علمنا ان تاثيرها فى احد المحلين وعدم

تاثيرها في المحل الثاني بتدبير مدبر المخلوقات وتقدير مقدر
الكائنات فالطبايع معزولة والخواص باطلة والافلاك معطلة
والكواكب مسخرة ولا تاثير الا للقدرة الازلية ولا انقاد الا
للمشية السرمدية تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا المرتبة
الرابعة وهي صيرورة العلقة مضغة والمعنى انه ينقلب ذلك
الدم الجامد مضغة اي قطعة لحم كانها مقدار ما يمضغ كالعرفة
اسم لما يعرف واعلم انا بينا انها تصير علقة في مدة خمسة عشر
يوما انه بعد ذلك باثني عشر يوما تصير مضغة وتتميز الاعضاء
الثلثة بعضها عن بعض وامتدت رطوبة النخاع وربما تقدم
ذلك وتاخر بيومين او بثلثة ثم بعد تسعة ايام ينفصل
الراس عن المنكبين والاطراف عن الضلوع والبطن تتميز الحس
في البعض ويخفى في البعض ويحس بذلك بعد تمام الاربعين
في الاكثر وفي الاية ابحاث الاول وهو ان المضغة اسم للقطعة
من اللحم فقوله ثم خلقنا المضغة عظاما يقتضي تقدم تخليق
اللحم الذي هو المضغة على تخليق العظام وقوله ثم كسونا
العظام لحما يقتضي تقدم العظام على اللحم وذلك متناقض والجواب
ان المضغة اسم للقطعة الممزوقة من اللحم فهذا الجسم
المسمى بالمضغة لا يكون لحما البته ولا يكون املس السطح وذلك
لانه مركب من اجسام مختلفة الصور فبعضها يكون اذا استحكمت
خلقته كان عظما وبعضها يكون اذا استحكمت خلقته كان عصبا
وبعضها اذا استحكمت خلقتها كان عروقا ثم ان هذه الاجسام

بعد ما استحكمت خلقتها ولم تتميز بعضها عن بعض تمام التميز
ولم يظهر منها صلابة ولا كثافة بل هي باقية على الرخاوة فهي
من حيث كونها لينة رخوة يشبه اللحم ومن حيث انه لم يبق على
كونها وملاستها بل صارت اجساما مختلفة الطبايع صار
كاللحم الممضوغ فلهذا السبب سمى الله تعالى هذا الجسم في هذا الوقت
مضغة البحث الثاني انه سبحانه وصف المضغة في سورة الحج
فقال ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة الاية والمخلقة
المسواة الملساء من النقصان والعيب يقال خلق السواك والعود
اذا سواه وملسه من قولهم صخرة خلقاء اذا كانت ملساء ثم
للمفسرين في معناه اقوال الاول ان يكون المراد من تمت فيه
احوال الخلق ومن لم يتم كانه سبحانه قسم المضغة الى قسمين احدهما
تامة الحواس والصورة والتخطيط والثاني ناقصة في هذه
الامور فبين انه سبحانه بعد ان صيره مضغة فمنها ما نخلقه
انسانا تاما بلا نقص ومنها ما ليس كذلك وهذا قول قتادة
والضحاك فكانه تعالى يخلق المضغ متفاوتة منها ما هو تام خال
عن العيوب ومنها ما يكون معيوبه ويتبع هذه التفاوت
تفاوت الناس في خلقتهم وصورهم وطولهم وقصرهم وتمامهم
ونقصانهم والقول الثاني المخلقة الولد الذي يخرج حيا
وغير المخلقة السقط وهو قول مجاهد والثالث المخلقة المصورة
وغير المخلقة اي غير المصورة وهو الذي يبقى لحما من غير تخطيط
وشكل واحتج اصحاب هذا القول بما روي عن علقمة عن عبد الله

انه قال اذا وقعت النطفة فى الرحم بعث الله ملكا وقال يارب
مخلقة اوغير مخلقة فان قال غير مخلقة جعلها فى الارحام دمًا
وان قال مخلقة قال يارب فما صفتها اذكرام انثى ما رزقها
ما اجلها اشقى ام سعيد فيقول الله سبحانه انطلق الى ام الكتاب
فاستنسخ منه صفة هذه النطفة فينطلق الملك فينسخها ولا
تزال النسخة معه حتى يأتى على آخر صفتها الرابع قال القفال التخليق
ماخوذ من الخلق فما تتابع عليه الخلق بعد الخلق حتى يتم فهو المخلوق
وما لم يتم فهو غير المخلوق لانه لم يتوارد عليه التخليقات واعلم
ان القول الاول اقرب لانه تعالى قال فى اول الاية فانا خلقناكم
واشار الى الناس فيجب ان نحمل مخلقة عليه وغير مخلقة على من
سيصير انسانا وذلك يتصور فى السقط لانه قد يكون سقطا
ولم يتكامل فى الخلقه فان قيل هلا حملتم ذلك على السقط لاجل
قوله ونقر فى الارحام ما نشاء وذلك كالدلالة على انه فيه
ما لا يقره فى الرحم وهو السقط قلنا ان هذا لا يمنع من صحة ما
ذكرنا فى كون المضغة مخلقة وغير مخلقة لانه تعالى بعد ان تمم
خلقه البعض ونقص خلقه البعض لا يجب ان يكمل ذلك فيه بل فيه
ما نقره الله تعالى فى الرحم وفيه ما لا يقره وان كان قد اظهر فيه
خلقه الانسان فيكون من هذا الوجه قد دخل فيه السقط اما
قوله تعالى لنبين لكم ففيه وجهان الاول ليبين لكم ان انقسام
المضغة الى المخلقة وغير المخلقة يدل على ان المتولى لهذا التدبير
ليس هو الطبع بل هو الصانع المختار والثانى ان اول هذه الآية

هو قوله يا ايها الناس ان كنتم فى ريب من البعث الآية فيكون
المعنى انا اخبرنا كم انا خلقناكم من كذا وكذا لنبين لكم ما يزيل
عنكم ذلك الريب فى امر بعثكم فان القادر على هذه الاشياء
كيف يعجز عن الاعادة واما قوله ونقر فى الارحام ما نشاء
الى اجل مسمى فالمراد منه ان من انقسام هذه المضغة من يبلغه
الله حد الولادة والاجل المسمى هو الوقت المضروب للولادة
وهو آخر ستة اشهر او تسعة او سنتين او اربع كما شاء الله
وقدره انه تعالى لما اثبت ذلك الوقت المعين فى اللوح المحفوظ
صار ذلك اصلا البحث الثالث من مباحث هذا الموضع انا قد ذكرنا
ان اصحاب التجارب زعموا ان مدة اربعين يوما يصير الحال بحيث
يتميز بعض الاعضاء عن البعض ففيه اشكال وذلك لانه روى
فى الصحيحين عن الاعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق
الصدوق ان احدكم يجمع فى بطن امه اربعين يومًا نطفة
ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة كذلك ثم يرسل
الله اليه ملكا ينفخ فيه الروح فيؤمر باربع كلمات فيكتب رزقه
واجله وعمله وشقى وسعيد فو الذى لا اله غيره ان احدكم
ليعمل عمل اهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع
فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل النار فيدخلها وان احدكم
ليعمل بعمل اهل النار حتى ما يكون بينه وبينها الا ذراع فيسبق
عليه الكتاب فيختم له بعمل اهل الجنة فيدخلها فهذا الحديث

يدل على انه يبقى اربعين يوما نطفة ثم يبقى علقة مثل هذه المدة
وذلك على خلاف ما ذكرتم عن اهل التجارب والجواب انه وان
انخلقت اعضاؤه في مدة الاربعين الا ان صورة العلقة
والمضغة انما يتم عند انقضاء الاربعينات الثلثة فلا منافات
بين التجربة وبين كلام صاحب الشرع اما المرتبة الخامسة
فهي صيرورة المضغة عظاما واعلم ان بدن الانسان مركب
من الاعضاء والاعضاء ينقسم الى قسمين الى اعضاء بسيطة
والى اعضاء مركبة فالاعضاء المركبة هو الذي لا يكون جزء
المحسوس مساويا لكله في الاسم والحقيقة كاليد فان كل جزء من
اجزاء اليد لا يكون مساويا لكل اليد في الاسم والحقيقة والاعضا
البسيطة هي التي يكون جزؤه المحسوس مساويا لكله في الاسم
والحقيقة كالعظم فان كل جزء من اجزاء المحسوسة يكون مساويا
لكله في الاسم والحقيقة واعلم ان الاعضاء المركبة انما يتركب
من الاعضاء البسيطة فلهذا السبب لم يذكر الله تعالى في هذا المقام
شيئا من الاعضاء المركبة واما الاعضاء البسيطة فهي العظام
والاعصاب والرباطات والاوتار والاوردة والشراين
والاغشية واللحم والشحم والجلد الا ان اصل البدن واساسه
هو العظام فلهذا السبب خص الله سبحانه العظام بالذكر في
هذا الموضع واعلم ان العظام يمكن تقسيمها على وجهين
الاول ان العظام بحسب منافعها على اقسام احدها ما قياسه
من البدن قياس الاساس وعليه مبناه مثل فقار الصلب فانه

اساس البدن وعليه يبنى كما تبنى السفينة على الخشبة التي تضب
فيها اولا وثانيها ما قياسه من البدن قياس المجن والوقاية كعظم
اليافوخ وثالثها ما قياسه قياس الالات التي بها تتم الاعمال
وهي عظام اصابع اليدين والرجلين ثم ما كان من هذه العظام
انما يحتاج اليه للدعامة او للوقاية ولا يحتاج اليه لتحريك
الاعضاء فانه خلق مصمتا وما كان منها يحتاج اليه لاجل الحركة
فقد زيد في مقدار تجويفه وجعل تجويفه في الوسط واحدا
ليكون جرمه صلبا ولا يصير رخوا بسبب كثرة المنافذ ثم جعل
المخ في وسطه ليرطبه ويمنعه من اليبس المفتت ففائدة زيادة
التجويف ان يكون اخف وفائدة توحيد التجويف ان يبقى جرمه
اصلب وفائدة صلابة جرمه ان لا ينكسر عند الحركات العنيفة
القسم الثاني للعظام انها بحسب مجاورتها على اقسام فاحدها
ما يتجاور تجاور موضع سلس وهو الذي لاحد عظميه ان يتحرك
حركة سهلا من غير ان يتحرك معه العظم الاخير كعظام الاصابع
مع الكف ومفصل الرسغ مع الساعد وثانيها ما يتجاور تجاور
مفصل غير موثوق وهو كعظام فقرات الظهر في النصف الاعلى
من الظهر ولولا ذلك لما قدر الانسان تارة على ان ينتصب
انتصابا تاما وقت القيام وتارة تصير منحنيا كما في وقت الركوع فاما
النصف الاسفل من الظهر فاصل عظامه موثوقة محكمة وثالثها
ان يكون المفصل موثقا ليس لاحد عظميه ان يتحرك وحده البتة
مثل مفصل عظام القص ورابعها المركوز وهو ما يوجد لاحد

العظمين زيادة والثانى نقرة تركز فيها تلك الزيادة ان كان لا
يتحرك فيها مثل الاسنان وخامسها المدروز وهو الذى يكون
لكل واحد من العظمين اسنان كما للمنشار ويكون اسنان كل
واحد منهما منهدمة فى تحازيز الاخر كما يركب الصفارون صفايح
النحاس كالمفاصل والقحف وسادسها ان يكون العظام متلاصقة
فمنها ما هى متلاصقة طولا مثل مفصل ما بين عظمى الساعد ومنه
ما هو ملتزق عرضا مثل مفصل الفقرات السفلى من فقار الصلب
واعلم ان عظام البدن جملتها ماتان وثمانية واربعون عظما
واما عظام الراس فخمسة وخمسون سبعة هى عظام اليافوخ
واربعة عشر عظام اللحى الاعلى واثنان هما اللحيان الاسفلان
واثنان وثلثون سنا فالمجموع خمسة وخمسون واما الخرزات
من الظهر فتسعة وعشرون سبعة فى العنق واحدى عشر
يتصل بها الاضلاع وخمسة هى القطن وثلثة للعجز وثلثة
للعصعص واما الاضلاع فاربعة وعشرون من كل جانب
اثنا عشر والعنق مولفة من عظام سبعة الترقوتان عظمان
موضوعان على كل واحد من جانبى العنق والكتفان معلومان
وكل واحد من اليدين مولف من احد وثلثين عظما العضد وطرفه
الساعد وهما عظمان ملتصقان بالطول والكف اثنا عشر
الرسغ وهو صفان فى كل صف اربعة والمشط اربعة اخرى
والاصابع خمسة عشر فالمجموع احد وثلثون ومجموع عظام
اليدين اثنان وستون وعند العانة عظمان ويحدان طرفاهما

والوصفتان وعظام القدم سبعة وعشرون فهذا هو مجموع
عظام البدن والكلام فيها وفى منافعها طويل والنكتة الظاهرة
فى كيفية الاستدلال بهذه الحالة على الصانع المختار ان العظام
اجسام صلبه قوية فكيف تولدت من النطفة السخيفة الرقيقة
وايضا فهذه العظام مختلفة فمنها صغير ومنها كبير وطويل
ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق واللايق بكل موضع
من مواضع البدن عظم مخصوص لو حصل فى ذلك المكان عظم
آخر لاختلت المصالح فالطبيعة التى لا شعور لها ولا ادراك كيف
يمكن اسناد تخليق هذه الاعضاء اليها وكيف يعقل ان يقال ان هذه
الطبيعة رتبت هذه الاعضاء بهذا الترتيب المراعى للمصلحة وهذا مما
لا يقبله العقل بل الفطرة السليمة الطباع المستقيمة تشهد بان تخليق
هذه الاعضاء وترتيبها لم يصدر الا عن الصانع الحكيم المدبر المرتبة
السادسة وهى قوله تعالى ثم كسونا العظام لحما فاعلم ان اهل
التشريح ذكروا فى ان جميع عضل البدن خمسماية وتسعة وعشرون
عضله واعلم ان الخالق سبحانه لما اقتضت حكمته ان يجعل منبع
قوة الحس والحركة هو الدماغ وتكون الاله الحاصلة لها تين القوتين
من الدماغ هو العصب ثم كانت العصب لا تحتمل اتصالها بالعظام
التى هى بالحقيقة اصول للاعضاء المتحركة اذا كانت العظام صلبة
والعصب لطيفة فانبت الخالق بحكمته من العظام شيئا شبيها
بالعصب يسمى رباطا فجمعه مع العصب وشبكه به كشئ واحد الا ان
هذا الجرم الملتئم من العصب ومن الرباط كان ايضا دقيقا فدبر الخالق

والوصفتان

سبحانه في ذلك بان جعل ذلك الجرم منفوشا وملا خلله لحما
وغشاه غشا دقيقا صلبا وجعل في وسطه شيئا كالمحور عن جملة
العصب فهذا العضو هو العضلة وفيه فوايد كثيرة منها انه يكون
حشوا للخلل والفرج الحاصلة بين العظام ومنها ان اللحم متولد من
الدم الذي هو حار رطب فيكون اللحم سببا لزيادة السخونة في
الاعضاء مثل حشو الجبة ومنها ان يكون حايلا بين عظام البدن
وبين الاجسام الصلبة الخارجة عن البدن ويكون ذلك اللحم
شبيها بالمضربة اللينة التي يجلس الانسان عليها فلا يتالم
بسبب المصاكة الحاصلة بين عظام البدن وبين الاجسام
الصلبة الموجودة من الخارج والفايدة الثانية ان هذه
العضلات بسبب ما فيها من شظايا العصبية تجري فيها قوة
الحس والحركة ويتمكن الانسان بسببها من الحركة الارادية
والافعال الاختيارية والفايدة الثالثة ان هذه العضلات
بسبب ما فيها من شظايا الرباط وبسبب كونها مجللة بهذه الاغشية
الصلبة تكون صلبة قوية لا يعرض لها الانهتاك والانقطاع
سريعا فهذه اشارة مختصرة الى منافع هذه العضلات فان
قيل انه تعالى ذكر في جميع المراتب المتقدمة لفظ الخلق فقال
لقد خلقنا الانسان من سلالة من طين الاية وفي هذه المرتبة
لم يذكر لفظ الخلق بل قال فكسونا العظام لحما فما السبب فيه
قلنا السبب فيه ان العظام والاعصاب والعروق اعضاء
اصلية متولدة من النطفة ولذلك فان شيئا منها اذا بطل

لا

لا يعود اما اللحم فانه ليس من الاعضاء الاصلية ولذلك
فانه اذا ذهب بالهزال عاد بالسمن مرة اخرى وهو انما يتولد
من دم الطمث لا من المني فلما كان الامر كذلك لا جرم اللحم
كالكسوة للاعضاء الاصلية وايضا فقد ذكرنا ان فايدة
اللحم افادة السخونة للاعضاء الاصلية وان يكون كالمضربة
اللينة التي اذا جلس الانسان عليها لم يتالم بسبب المصاكة
الحاصلة بين عظامه وبين الاجسام الصلبة الخارجة حسب
ما ذكرنا وهذه الفوايد والمنافع شبيهة بالفوايد المطلوبة
من الثياب الملبوسة فلهذا السبب ذكر في هذه المرتبة لفظ
الكسوة فسبحان من له تحت كل كلمة من كلمات هذا الكتاب الكريم
سر شريف ونكتة روحانية واما المرتبة السابعة وهي
قوله ثم انشاناه خلقا آخر فاعلم ان المراد بقوله خلقا آخر
قولين الاول المراد منه نفخ الروح وزعموا ان الروح ليس من
جنس البدن فلهذا المعنى جعل هذه المرتبة نوعا آخر من الخلق
مغايرا للمراتب المتقدمة واحتجوا عليه بوجوه من المنقول والمعقول
الحجة الاولى ان المراتب المذكورة لا يكمل الانتفاع بها الا بنفخ
الروح فوجب في الحكمة ذكر الروح عقيب تلك المراتب والمذكور
عقيب تلك المراتب هو قوله ثم انشاناه خلقا آخر فدل على
ان المراد منه نفخ الروح فلما عبر عن نفخ الروح بانه خلق آخر
علم ان الروح ليس من جنس البدن الحجة الثانية قوله فاذا سويته
ونفخت فيه من روحي فالتسوية عبارة عن تخليق الابعاض والاعضا

ونفخ الروح فيه اشارة الى تعليق الروح بالبدن ثم لما اضاف
الروح الى نفسه علم انه متميز في ذاته لمزيد شرف لا يحصل مثله
للاجسام الحجة الثالثة انه تعالى ميز بين عالم الارواح وعالم
الاجسام فقال الا له الخلق فحصل التباين بين هذين النوعين
ثم انه تعالى حكم بان الروح من عالم الامر فقال قل الروح من
امر ربي ثم بين انه لا سبيل للبشر الى معرفته فقال وما اوتيتم
من العلم الا قليلا ولو كان من جملة الاجسام لما صحت هذه الاحوال
الحجة الرابعة انه تعالى اضاف الافعال الى النفس فقال ان النفس
لامارة بالسوء وقال ولا اقسم بالنفس اللوامة وقال
يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية
ومعلوم ان جميع اجزاء البدن ليس مبدا للافعال فعلمنا ان
النفس شيء يدبر البدن وهو غير البدن الحجة الخامسة قوله تعالى
اخرجوا انفسكم فهذا صريح في ان النفس شيء مغاير للبدن
تارة يدخل البدن وتارة يخرج منه الحجة السادسة قال تعالى
ولا تكونوا كالذين نسوا الله فانسيهم انفسهم وكل احد فانه
لا ينسى هذا البدن الذي يشاهده بحواسه فدل هذا على ان
تلك النفس التي ينساها الانسان عند فرط جهله شيء اخر غير
هذا البدن الحجة السابعة قوله تعالى ونفس وما سواها
فالهمها فجورها وتقويها وهذا صريح في ان ههنا نفسا
هي محل الالهامات ومحل الفجور والتقوى ومعلوم ان كل
واحد من اجزاء البدن وابعاضه ليس كذلك فهذه النفس شيء

مغاير

مغاير لهذه الاعضاء الحجة الثامنة القران دل على ان الشيء المشار
اليه بانه هو الانسان المخصوص باق بعد الموت قال تعالى في صفة
الشهداء قال تعالى ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا
بل احياء عند ربهم الاية وقال تعالى في صفة المعذبين النار
يعرضون عليها غدوا وعشيا وقال تعالى اغرقوا فادخلوا نارا
وقال عليه السلام انبياء الله لا يموتون ولكنهم ينقلون من
دار الى دار فثبت ان الشيء المشار اليه بانه هو الانسان المخصوص
باق بعد موت البدن حتى يدرك الالام واللذات واما ان هذا
البدن المشار اليه ليس حيا بعد الموت فهو معلوم بالضرورة
ولو جوزنا كونه حيا لجاز مثله في جميع الجمادات وهو سفسطة
واذا لاحت المقدمتان علمنا ان المشار اليه بقولنا هذا الانسان
ليس هو هذا البدن الحجة التاسعة قوله عليه السلام من عرف
نفسه فقد عرف ربه وكان في كتب الله المنزلة اعرف نفسك
تعرف ربك ولو كان المراد من النفس هو هذا الجسد المشار اليه
لما امرنا بمعرفته لان معرفته حاصلة بالضرورة والحاصل لا يمكن
تحصيله الحجة العاشرة انا نجد من نفسنا انا نضيف كل واحد
من هذه الاعضاء الى نفسنا فنقول يدي ورجلي وقلبي ودماغي
والمضاف غير المضاف اليه فعلمنا ان النفس غير هذه الاعضاء
فان قالوا انا قد نقول نفسي وذاتي وهذا يقتضي ان يكون نفس
الشيء مغايرا لنفسه وهو محال وجوابه انا اذا اضفنا النفس
والذات الينا كان المراد من النفس والذات هو البدن وهو المغاير

لذلك الشیء المشار الیه بانه هو الانسان فهذه الاستدلالات
سمعية على اثبات النفس ولمن انكر النفس ان يجيب عن الكل بجواب
واحد وهو انه لا نزاع ان النفس شیء لهذا البدن المحسوس وكيف
لا نقول ذلك والانسان قد يمرض فيذبل في غاية الذبول ثم
يبرأ فيسمن بعد ذلك في غاية السمن فالانسان واحد في الحالتين
مع ان الاجزاء البدنية متبدلة لكن لم لا يجوز ان يقال البدن
ينقسم الى قسمين احدهما اجزاء اصلية باقية من اول الخلقة
الى آخرها والثانی اجزاء متبدلة عرضية تطوى وتزول فالانسان
عبارة عن تلك الاجزاء الاصلية فهذا ما في هذا البحث واذا
عرفت هذا فنقول اذا حملنا قوله تعالى ثم انشاناه خلقا آخر
على الروح فههنا لطايف النكتة الاولى قال بعضهم انه سبحانه
خلق الارواح من انوار عالم الجلال والجمال فالقوة النظرية
مع ما فيها من نتيجة المعرفة والمحبة من عالم الجمال والقوة العملية
المدبرة للبدن من عالم الجلال ولولا ان انوار الارواح مستورة
بظلمات الاجساد والا يسجد لها كل كافر النكتة الثانية قال
بعضهم انه تعالى خلق الارواح من النور والطيب والبقاء والعلم
والعلو والحيوة اما النور فلانه ما دام الروح في الجسد يكون
مصونا عن الفساد والتفرق والانحلال والدليل على انه من جوهر
العلو انه ما دام الروح في الجسد يكون الجسد نورانيا فالعينان
تبصران والاذنان تسمعان واللسان يتكلم والقلب يفهم
والدماغ يتفكر فههنا يدل على ان الروح من عالم الانوار والدليل

على انه من جوهر الطيب انه ما دام الروح في عالم البدن يكون الجسد
طيب الرايحة مصونا عن العفونة والفساد والانحلال والدليل
على انه من جوهر البقاء والعلو انه ما دام الروح في البدن يكون البدن
مرتفعا عن الارض غير ملتصق بها وكلما ازداد الروح قوة ازداد
الارتفاع الا ترى ان الانسان عند استيلاء انوار عالم الروحانيات
على روحه يأخذ في الرقص والسبب فيه ان قوته روحانية
فصارت تلك القوة الروحانية جاذبة له من الارض الى عالم
السموات والانبياء لما كملت هذه الاحوال فيهم صعدوا الى السموات
فقال في حق ادريس ورفعناه مكانا عليا وقال في عيسى اني
رافعك الي وقال في محمد فكان قاب قوسين او ادنى والدليل
على انه من جوهر العلم ان محل العلم هو الروح وذلك لان العلوم
نقوش علوية غيبية طاهرة مقدسة فلا يكون محله الا الجوهر
القدسي العلوي والدليل على انه من جوهر الحيوة انه متى انقطع
اثر الروح القدسي العلوي عن كل البدن صار كله ميتا وان
انقطع اثره عن جزء من اجزاء البدن صار ذلك الجزء ميتا كما في
المفلوج وان تعلق بكل البدن صار كله حيا وبالجملة فالروح
كالشمس والحيوة الفايضة عن الروح كالانوار الفايضة عن الشمس
فكل جسم وصل اليه نور الشمس انقلبت احواله من الظلمة الى
الضياء كذلك كل عضو يصل اليه نور الروح انقلبت حالته
من الموت الى الحيوة النكتة الثالثة دلالة ارتباط تدبير هذا
البدن بالروح على افتقار كل العالم الى الصانع في غاية الظهور وذلك

لان هذا البدن مملكة صغيرة جدًا فاذا كانت هذه المملكة
الصغيرة لا تعقل استغناؤها عن ملك مطاع فيه فكل العالم
الذي هو المملكة الكبيرة كيف يمكن استغناؤها عن مدبر يدبرها
ومتصرف يتصرف فيها وكما ان المدبر في هذه المملكة الصغرى
واحد ولا يمكن حصول روحين في بدن واحد كذلك المملكة
الكبرى يجب ان يكون مدبرها واحد النكتة الرابعة ان
المؤمن بذاته علوى وكذا بصفاته اما ذاته فلقوله وانتم الاعلون
وقال يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات
وايضا اقواله وافعاله فعلوية قال الله تعالى اليه يصعد الكلم
الطيب والعمل الصالح يرفعه وكتابه علوى قال تعالى كلا ان كتاب
الابرار لفي عليين كما ان كلمة الله هي العليا واما الكافر فكله
سفلي قال تعالى فجعلناهم الاسفلين وافعاله سفلية ان الذين
كذبوا باياتنا واستكبروا عنها لا يفتح لهم ابواب السماء
وكتابه سفلي كلا ان كتاب الفجار لفي سجين فايها المؤمن العلوى
لا تجعل روحك سفليا بالمعصية ويايها النوراني لا تجعل
نفسك ظلما باعراضك عن الله ثم انه تعالى بين من خلقك
ان العلوى اشرف من السفلي والروحاني افضل من الجسماني
وذلك لانه خلق فيك اعضاء علوية واعضاء سفلية اما
العلوية فالقلب والعين واللسان واما السفلية فالبطن
والمخرجان فمن استعمل العين في العبرة واللسان في الحكمة
والقلب في المعرفة صار علويا شريفا ومن استعمل البطن في اكل

الحرام

الحرام والفرج في الزنا والحرام صار سفليا خبيثا خسيسا ثم اكد
هذه الدلالة بان جعل الدية التي هي معدن النفس الصاعد فوقانيا
والمعدن التي هي معدن الهابط سفليا لتعلم ان كل من كان علويا
سماويا فهو الشريف وما كان ارضيا سفليا فهو الخسيس النكتة
الخامسة الروح محل العلم ويجب ان تعلم ان الموجودات على ثلثه
اقسام موجود لا يجوز ان لا يعلم وهو الله سبحانه وموجود
لا يجوز ان يعلم وهو الجماد وموجود يجوز ان يعلم وان لا يعلم
وهو انت فان صرت تعلم شيئا فقد تخلقت باخلاق الله وان
صرت لا تعلم فقد صرت مشابها للجمادات فامتيازك عن الجمادات
والتحاقك بزمرة الملائكة المقربين وملازمتك لعتبة رب العالمين
انما حصل بسبب اتصال الروح بالبدن وعند هذا تظهر منفعة
الروح وفضيلته القول الثاني ان المراد من قوله ثم انشأناه
خلقا اخر تخليق الاعضاء الجسمانية واعلم ان تمام الكلام
في شرح قدرة الله تعالى وحكمته في خلق الانسان قد ذكرناه
في علم التشريح في الطب الكبير الذي صنفناه ولنذكرها هنا نكتة
قليلة من المنافع الظاهرة الجلية التي يصل اليها فهم كل احد فنقول
انظر الى النطفة وهي قطرة قذرة من الماء لو تركت ساعة في الهواء
لضربها الهواء بطلت وفسدت كيف اخرجها رب الارباب
من بين الصلب والترائب وذلك لانه سبحانه اوقع الالفة
والمحبة في قلوبهم ثم قادهم بسلسلة الشهوة والمحبة الى
الاجتماع ثم استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع واستخرج

دم الحيض من اعماق العروق وجمعها فى الرحم ثم خلق المولود من
النطفة وسقاه بماء الحيض حتى نمى وربى وكيف جعل النطفة
وهى بيضاء مشرقة علقة حمراء ثم كيف جعلها مضغة ثم كيف
قسم اجزاء المضغة الى العظام والاعصاب والعروق والاوتار
واللحم فى داخل الرحم فى الظلمات الثلثة ولو انكشف الغطاء
والغشاء لكنت ترى التخطيط والتصوير وتظهر فى النطفة
شيئا فشيئا ولا ترى المصور ولا قلمه ولا التة فهل رايت مصورا
او فاعلا لا يمس التة مصنوعة فسبحانه ما اعظم شانه
ونشير ههنا الى قليل من الاعضاء اما الراس فتامل انه سبحانه
دوّرها وشق سمعها وبصرها وانفها وفمها وانه تعالى ركب
كرة الراس فى بطن الام من ثلثة وعشرين عظما وخلق تلك
العظام على كيفيات مختلفة فكيف تولد العظام الصلبة
من النطفة السخيفة الرقيقة ثم انه سبحانه قدر لكل واحد
من تلك العظام شكلا مخصوصا ومقدارا مخصوصا ووضعا
مخصوصا لو وقع بخلاف ذلك لبطلت المنفعة وفات الغرض
ثم ركب بعضها مع بعض بحيث يحصل من مجموعها كرة الراس
على هذه الخلقة المخصوصة واعلم انه سبحانه انما اظهر الاحتياط
فى عظم الراس لاجل ان الدماغ اشرف اعضاء الانسان فانه
محل الفكر والعقل ولما كان فى غاية الشرف صانه بسبعة
انواع من الصوانات وذلك لان الدماغ يحيط به غشاء رقيق
يقال لها الغشاء المشيمى وفوق ذلك الغشاء غشاء اخر صلب

وهو

وهو ملتزق بمقعر عظم اليافوخ ثم فوقها عظم اليافوخ
ثم خلق خارج العظم غشاء آخر يقال له السمحاق وفوق
هذه الغشاء طبقة لحمية وفوق تلك الطبقة اللحمية
الجلد وفوق الجلد الشعر فتامل انه سبحانه خلق فوق دماغك
سبع طبقات جارية مجرى السموات السبعة والمقصود
من تخليقها الاحتياط فى صون دماغك عن الافات
والمقصود من تخليق دماغك ان تكون من المتفكرين فى
دلايل الله المتاملين فى مخلوقاته لتستدل بها على جلالة
خالقها وحكمته ولنذكر الآن بعض صفات الدماغ فنقول
انه تعالى قسمه فى طوله الى ثلثة اقسام وجعل القسم
المقدم محل الحفظ والتخيل والبطن المتوسط محل التامل
والتفكر وجعل البطن المؤخر محل الاسترجاع والتذكر
وكل واحد من هذه الاحوال الثلثة امور مهمة للانسان
لا يحصل الانتفاع بالانسانية الا معها فاما الحفظ
والتخيل فامر لا بد منه فى الانسانية ويدل عليه وجوه
الاول ان الانسان محتاج الى التفهيم والتفهيم بالكلام
والكلام مركب من الحروف وهذه الحروف لا توجد مجتمعة
البتة بل متعاقبة فلو لم يكن الانسان حافظا لصور
المحسوسات بعد غيبوبتها فكان الانسان اذا سمع حرفا
ثم انقضى ذلك الحرف الاول ووجد الحرف الثانى فعند حصول
الحرف الثانى لا يكون الحرف الاول كان موجودا فى الخارج

ولا يكون اثره ايضا باقيا فى الحفظ فحينئذ لا يكون المسموع
ابدا الا حرفا واحدا والحرف الواحد لا يفيد المعنى البته
فثبت انه لولا الحفظ ما كان يحصل التفهيم والتفهم بالكلام
فكانت هذه المصلحة العظيمة تختل وتبطل والثانى ان
الانسان اذا راى شيئا ثم غاب عنه بقيت صورته فى الحفظ
فلما راه مرة ثانية صارت هذه الامور المحسوسة ثابتة
منطبعة على تلك الصورة المحفوظة فى الخيال فيحصل الشعور
بان هذا الذى راه الآن هو الذى راه قبل ذلك فلولا القوة
الحافظة لما حصل هذا المعنى ولو لم يحصل هذا المعنى لاختل
نظام العالم فما كان يعرف الزوج زوجته والسيد عبده
ولاحتاج كل احد الى ان يعرف حال كل شخص فى كل مرة يراه
الثالث ان خاصية الانسان ان يتوسل بالفكر الى ان يصير
المجهول معلوما والفكر عبارة عن تركيب الاشياء الحاضرة
فى الذهن ليتوسل بتركيبها الى ان يصير فى القوة الحافظة والقوة
الحافظة فى دماغك جارية مجرى اللوح المحفوظ فى عالم السموات
وبقاء صور المحسوسات يشبه بقاء كتبه احوال المخلوقات
فى اللوح المحفوظ فثبت بما ذكرنا ان القوة الحافظة من اعظم
نعم الله على الانسان وذلك لان هذه الصورة التى نتخيلها
ونشاهدها حال ما نستحضرها اما ان يقال انها موجودة
او يقال انها معدومة والقول بكونها معدوما باطل
لانا نميز بين كل واحد منها وبين غيرها بل كانا نشاهدها

ونبصر اليها فى خيالنا فانا اذا نظرنا قرص الشمس ثم غمضنا العين
فانا نشاهد قرص الشمس حاضرا فى خيالنا كانا ننظر اليه فثبت انها
موجود ثم قال قوم ان محل هذه الصور الخيالية لمقدم دماغنا
وقال آخرون بل مقدم الدماغ آلة فى هذا العمل ومحل هذه الصورة
جوهر الروح والروح ليس بجسم ولا جسمانى وكل واحد من القولين
عجيب جدا اما الاول فهو ان مقدم الدماغ جسم صغير جدا
فكيف ارتسم فى ذلك الجسم الصغير صور السموات والارضين
والشمس والقمر وصور البلدان والمسالك والممالك لان الانسان ايضا
ربما يحفظ كتبا كثيرة فكيف اتسع ذلك الجسم الصغير لهذه الصور
العظيمة وقد يحفظ الكلمات التى سمعها من اول عمره مع كثرتها
فكيف ارتسمت هذه الصور الكثيرة فى هذا الجسم الصغير من غير
ان يختلط شئ من هذه النقوش بعضها ببعض ولا شك ان هذا
من العجايب التى لا يعرفها الا المدبر الخالق سبحانه واما القول
الثانى وهو ان محل هذه الصور جوهر الروح والروح ليس بجسم
ولا جسمانى فهذا اعجب لان هذه الصور لها اطوال وعروض
وامتداد فى الجهات والاحياز فكيف يعقل حلولها فى شئ
ليس له طول ولا عرض ولا امتداد فى الجهات وبالجملة فنحن
نعلم بالضرورة انا نحفظ صور هذه المحسوسات واذا اردنا
ان نعلم انا كيف نحفظها عجزنا عن ذلك فسبحان الخالق الحكيم
ومن جملة نعم الله علينا فى كيفية هذا الحفظ انه جعل الحافظة
لصور المحسوسات الخمسة شيئا واحدا والفائدة فيه انا

اذا سمعها صوتا علمنا ذلك الشخص لان القوة الحافظة تعلم
ان الذى له هذا الصوت هو ذلك الشخص فحينئذ يفيد السمع
فايدة البصر ويقوم كل واحد من الحواس الخمس مقام الاخر واما
البطن الاوسط من الدماغ فهو محل الفكر ومعنى الفكر هو ان
يركب القوة المفكرة بشيين من الاشياء الحاضرة عند القوة
الحافظة فيصير ذلك التركيب سببا لاستحداث صورة جديدة
عند العقل وجميع التركيبات التى استحدثها اهل الدنيا فى بناء
المساكن واستخراج الحرف والصناعات فهو من اعمال القوة
الفكرية والقوة المفكرة يستخرج تلك الصور بهذا الطريق
ثم ان القوة العملية تنقل تلك الصور من الافكار الى الخارج
ومن المعلوم انه لولا الفكر لما اهتدا الانسان الى تحصيل المصالح
ودفع الافات وهما اعظم النعمة تخلق القوة المفكرة ومن
اراد ان يعرف قدر هذه النعمة فلينظر الى البهايم والمجانين
واعلم ان القوة المفكرة كالقلم والقوة الحافظة كاللوح فان
القوة المفكرة اذا استنبطت صور جديدة ارتسمت تلك
الصورة فى لوح الخيال فكان المثبت هو المفكرة والقابل هو
الخيال فكانت المفكرة قلما والحافظة لوحا واعلم انا وان
كنا نعلم بالضرورة انا نتفكر الا انا اذا اردنا ان نعلم ان هذا
الفكر ما هو صعب ذلك علينا فان هذا الذى طلبناه هل
نعلمه ام لا فان علمناه فكيف بطل العلم به وان لم نعلمه
فكيف يمكننا طلب شيء لم يخطر ذلك الشيء ببالنا واما البطن الاخر

من الدماغ فهو للتذكر ومعنى التذكر ان من حضر فى ذهنه امر
من الامور ثم غاب عنه فانه يستعيده بعد غيبوبته وهذه
الحالة حاصلة للانسان فانه ليس كلما رآه الانسان وسمعه
فى مدة عمره فانه يكون حاضرا فى خياله بل اكثر هذه الصور فى
اكثر الاحوال غير حاضرة فى الذهن ولكنها وان كانت غايبة
الا ان الانسان متى اراد استحضارها قدر عليها فهذا الاستحضار
هو التذكر ولا شك ان خلق هذه القوة نعمة عظيمة من الله تعالى
على الانسان واعلم ان ههنا ايضا حالة عجيبة يعجز
العقول البشرية عن معرفة كيفيتها وذلك لان هذه الصور
اذا كانت غير حاضرة فتذكرها عبارة عن طلب رجوعها فهذا
الطلب اما ان يكون طلبا لتلك الصور بعينها او يكون طلبا
لصورة ما مبهمة اية صورة كانت فان كان الاول فهو محال
لانها غير معلومة بعينها اذ لو كانت معلومة بعينها لكانت
حاضرة فما كان الانسان يحتاج الى طلبها واذا لم تكن معلومة
بعينها امتنع طلبها بعينها والثانى ايضا محال لان المطلوب
اذا كانت صورة ما لا هذه الصورة فلم حصلت هذه الصورة
بعينها دون ساير الصور ولم اذا حصلت هذه الصور بعينها
حكم العقل بانه مطلوبى كانه هو هذه الصورة فهذا اشكال
عظيم وبالجملة فكل احد يجد من نفسه بالضرورة انه يحفظ
الاشياء ويتفكر فيها ويستعيدها بعد غيبوبتها ثم العقول
متحيرة فى هذا الحفظ والفكر والذكر فسبحانه ما اعظم شانه

وابهر برهانه في اصنافه ملكه وملكوته فهذا هو الاشارة
المختصرة الى خلقه الدماغ ثم تامل احوال العين فانها مركبة
من سبع طبقات وثلث رطوبات وفي الحقيقة فهي مركبة
من عشر طبقات وثلث رطوبات فالطبقة السفلانية هي
الطبقة الصلبة وفوقها المشيمية وفوقها الطبقة العنكبوتية
وفوقها الرطوبة البيضية وفوق الطبقة العنبية الطبقة
القرنيه والطبقة القرنية بعدها اهل الظاهر طبقة واحدة
لكنها في الحقيقة اربع طبقات ثم يحتط بهذا المجموع الطبقة
الملتحمة فاذا عرفت هذا علمت ان طبقات العين ثلثة عشر
طبقة على عدد طبقات العالم الاكبر فان اعلى طبقات العالم
الاكبر العرش وتحته الكرسي وتحته السموات السبع وتحته
الطبقات الاربع العناصر فمجموع طبقات العالم الاكبر ثلثة
عشر ومجموع طبقات العين ثلثة عشر ثم انه تعالى خص
كل واحد من هذه الطبقات والرطوبات بشكل مخصوص ولون
مخصوص وترتيب مخصوص ومقدار مخصوص ولو لم يوجد
على هذا الوجه بل على وجه آخر لاختلت المصلحة ثم تامل في
احوال العين من وجوه احدها انه سبحانه جعل موضع
الابصار مقدار عدسة واحدة ثم اظهر في تلك العدسة
صورة السماء والعالم مع اتساع اطرافها وتباعد اكنافها
والثاني ان البياض مناسب للنور والسواد مناسب للظلمة
فجعل البياض سببا للعمى والسواد معدنا للقوة الباصرة

ليعلم ان سبب حصول هذه النعمة هو فضل الله وكرمه لا الطبع
والخاصية والثالث انه سبحانه جعل الحدقة مصونة بالاجفان
ليسترها ويحفظها ويصقلها ويدفع الاقذاء عنها والرابع
انه سبحانه جعل الاجفان سوداء ليكون سوادها سببا لاجتماع
النور الذي يعين على الابصار ويكون مانعا عن تفرق ذلك النور
والخامس انه سبحانه خلق لتحريك الحدقة اربعة وعشرين عضلة
لو نقصت واحدة من جملتها اختل امر العين السادس ان العين
يشبه المرآة ومعلوم ان المرآة انما ينتفع بها حالة كونها
في غاية الصقالة والصفاء لاجرم خلق الحق سبحانه هذه الاجفان
متحركة الى الانطباق ابدا من غير اختيار الانسان حتى تبقى الحدقة
نقية صافية عن جميع الكدورات واما الذبابة فلما لم يخلق
لعينها الاجفان لاجرم الهمها حتى انها بيديها ينظف عينيها
عن آثار الغبار والكدورات السابع انه تعالى جعل العين
هاديا لصاحبها الى ادراك الاشياء وسببا لاطلاع غيره
بواسطته على ما في قلب صاحبه وذلك لان القلب في داخل البدن
والعينان كالزجاجتين الموضوعتين في جدار البيت فكيف
ما كان الشمع في داخل البيت وقع ضوؤه على تينك الزجاجتين
فكذلك يستدل باحوال العين على احوال القلب في الرضا والغضب
والرغبة والنفرة فسبحان من جعل العين هاديا لصاحب العين
الى معرفة العين والعين الى معرفة احوال قلب صاحب العين
الثامن وهو ان من الطف اعضاء البدن هو العين ثم جميع الاعضا

يتأثر من الحر والبرد فوق ما يتأثر منهما العين وكان ينبغي ان يكون
الامر بخلاف ذلك لان الالطف اسرع تأثرا لكنا نرى ان الرجل
على صلابة جلدها يتأثر من الحر والبرد فوق ما يتأثر العين منهما
وما ذلك الا ليعلم الانسان ان حصول هذه المصالح ليس بالطبع
والخاصية بل بحفظ الرحيم العليم اما احوال الاذن فاعلم انه
تعالى شق الاذنين واودعهما ماء مرا ليكون ذلك معينا على
ادراك السمع وليمنع الهوام من الدخول فيه ثم راعى فيه انواعا
من المصالح الاول انه تعالى حوطها بصدفة الاذن ليجمع الصوت
فيردها الى الصماخ الثاني انه جعل في ثقبة الاذن انحرافات
وانعراجات حتى تصير المسافة لهذا السبب طويلة فلو دخل
تلك الثقبة شيء من الحشرات والهوام فحينئذ تكثر حركاته
بسبب طول المسافة فينتبه الانسان ويسعى في اخراجها
عن الاذن والثالث انه سبحانه خلق العينين مقدمتين
والاذنين موخرتين لان العينين تدركان الاجسام والاعراض
وهي ادلة وجود الصانع والاذنان يسمعان الكلام والدلايل
السمعية فلاجرم قدم البصر على السمع والرابع خلق العينين
مع الغطاء والاذنين بلا غطاء لان متعلق العين اجسام
واعراض باقية فلولا الغطاء فيهما لحصلت الملالة واما مدرك
الاذن فهو الاصوات وهي غير باقية فلو كان الغطاء فربما
زال الصوت قبل ارتفاع الغطاء فلا يحصل الانتفاع بالسمع
الخامس روي ان كعب الاحبار قال دخلت على عايشة فقلت

الانسان عيناه هاديان واذناه صاحب اخباره ولسانه
ترجمان ورجلاه بريد والقلب ملك فاذا طاب الملك
طاب جنوده فقالت هكذا سمعت رسول الله صلى الله
عليه وسلم واما الانف فانه سبحانه رفعه من وسط الوجه
واحسن شكله وفتح منخريه واودع فيهما حاسة الشم وفيه
منافع الاول ان يستدل باستنشاق الروايح على الاغذية
والمطاعم المستورة الثاني ليستنشق بمنفذ المنخرين الهواء البارد
الرطب فيستغني بالمنخرين عن فتح الفم ابدا الثالث انه
جعل تجويفه واسعا حتى يحصر فيه هواء كثير فينكسر برده
قبل النفوذ الى الدماغ فان الهواء المستنشق وان كان
ينفذ اكثره الى الرية فان شطرا صالحا المقدار ينفذ الى الدماغ
ايضا وكذلك فان المزكوم يضره استنشاق الهواء البارد
والرابع انه بتجويفه الواسع يجذب الى نفسه هواء اكثر حتى
يحصل امامه آلة الشم فيكون ادراك الشم اسهل ولذلك
من بالغ في التشمم جذب الهواء بخيشومه اكثر والخامس
انه يعين في تقطيع الحروف وتسهيل اخراجها ولذلك فان من
قبض على انفه عسر عليه التكلم باكثر الحروف والسادس
ان يكون للفضول المندفعة من الراس سترا ووقاية عن الابصار
واعلم ان منفعة التنفس عظيمة فانه لو انقطع عن الانسان
لحظة واحدة لمات ثم تامل ان الهواء المستنشق يدخل اولا
من المنخرين فينكسر برده هناك ثم يصل الى الحلقوم فيعتدل

مزاجه هناك ثم يصل الى الرية ويستصفى فيها ثم يصل الى القلب
وروح عنه الحرارة الغريزية وينفذ من القلب الى العروق المتحركة
ويبلغ الى اقاصى اطراف البدن ثم اذا تسخن جدا وخرج عن حد
الانتفاع عاد من تلك المواضع الى القلب ثم الى الحلقوم ثم الى
المنخرين ثم يخرج ويعود مثله فمجموع هذه الافعال هو النفس الواحد
ويقال ان الانسان يتنفس في كل يوم وليلة اربعة وعشرين
الف نفسا فاعرف بمقدار النفس الواحد في المنفعة فانه لو انقطع
لحصل الموت ثم انظر الى كثرة الانفاس لتعرف عظيم نعمة الله عليك
كما قال وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها واما الفم فانه سبحانه
جعله آلة لتحصيل مصالح الروح ولتحصيل مصالح البدن اما
مصالح الروح فانه اودع فيه اللسان الناطق المعرب عما في
القلب واعلم انه سبحانه خلق القلب مدبر البدن ومعدنا للحرارة
الغريزية فاحتاج القلب الى تعديل تلك الحرارة القوية بالنسيم
البارد المعتدل فاذا استدخل الهواء البارد ووصل الى القلب
واعتدلت حرارة القلب به وبقي ذلك الهواء هناك ساعة فيتسخن
واحترق فاحتاج القلب الى اخراجه وذلك باخراج النفس
فجعل المدبر الحكيم اخراج ذلك النفس سببا لحدوث الصوت ثم
جعل في الحنجرة وفي اللسان وفي الحنك وفي الاسنان وفي
الشفتين مقاطع ومخارج لحروف مختلفة فحصلت الحروف
بهذا الطريق ثم جعل تلك الحروف عند تأليفها وتركيبها مردية
للمعانى فانظر الى كمال الحكمة فان المقصود الاصلى من النفس

هو اتصال النسيم البارد الى القلب ثم انه سبحانه صرف هذا
المعنى الى رعاية مصلحة اخرى وهو انه جعلها مادة الحروف
والاصوات والكلام ثم انه سبحانه خلق الحناجر مختلفة الاشكال
فى الضيق والسعة والخشونة والملاسة حتى اختلفت الاصوات
لاجل اختلاف هذه الاحوال فكما لا يتشابه صورتان لا يتشابه
صوتان وكما يحصل الامتياز بين الاشخاص بالقوة الباصرة فكذلك
يحصل الامتياز بينهم بسبب القوة السامعة فيحصل في الظلمة
هذا التمييز ويحصل للاعمى ايضا واما ما يتعلق بتحصيل مصالح
البدن فهو اعظم الاشياء المحتاج اليها فى مصلحة البدن
هو الاكل وهو سبحانه اعد في الفم اسباب الاكل وذلك من وجوه
الاول انه تعالى في الفم الاسنان ولها منافع الاولى ما ذكرنا
انها مقاطع للاصوات فتحدث الحروف المختلفة بسببها الثانية
انها تكون آلة للقطع والكسر والطحن ثم انظر الى الحكمة وذلك
ان الاسنان في اول ما يتناول الغذاء يحتاج الى القطع فجعل
الاسنان المقدمة حادة عريضة الراس جارية مجرى السكين
وجعل الانياب مستديرة حادة الروس للكسر وجعل الاخرين
مسطحة الروس خشنة الروس كالرحى لاجل الطحن ولو قدمنا كون
الاضراس مقدمة وكون الرباعيات موخرة لبطلت المصالح و
المنافع باسرها والثالث لتكون زينة للوجوه ولذلك زين
سبحانه الفم بالاسنان فبيض الوانها ورتب صفوفها وجعلها
متناسبة متناسقة كانها الدر المنظوم ثم انه سبحانه خلق

الشفتين وحسن لونهما وشكلهما لينطبقا على الفم ويسد
لنفذها وليتم بها مخارج الحروف ومن لطيف الحكم انه تعالى
جعل الاذن بلا حجاب ولا باب وخلق وراء اللسان بابين
احدهما الاسنان والثاني الشفتان وفيه تنبيه على انه يجب
ان يكون استماع الكلام اكثر من الاشتغال بالكلام فان استماع
الكلام يجري مجرى الدواء والاشتغال بالكلام كالداء النوع الثاني
ما حصل في الفم من اسباب الاكل وذلك لانه تعالى جعله
معدنا للرطوبة العذبة اللعابية فان الانسان اذا وضع
الطعام في الفم وطحنه باسنانه وامتزج المطحون باللعاب
الذي في الفم ووصلت آثار تلك الطعوم اللذيذة بواسطة
ذلك اللعاب في الفم الى اللسان فيصير ذلك الطعام سببا
للذة في الحال كما انه يصير سببا لقوة البدن في الاستقبال
ثم ههنا انواع من العجايب الاول ان كل من اراد ادارة الرحى
بسبب انصباب الماء اليه وضع الرحى في موضع يكون اسفل
من مجرى الماء حتى ينصب الماء من الاعلى الى الاسفل فحينئذ
يقوى على ادارة الرحى والله سبحانه ادار رحى الفم بالماء
الذي يصعد اليه من اسفل المعدة ليعلم الخلق ان ذلك بسبب
الحكمة والقدرة لا بسبب الطبع والخاصية والثاني ان
الانسان قبل ان يضع الطعام في الفم لا يجتمع في فمه
من تلك الرطوبات شيء كثير ولو اجتمع كان في عناء بسبب
اجتماعها وكما وضع الطعام في الفم اجتمعت في الفم

من تلك الرطوبات بقدر ما يبتل به ذلك الطعام ولو لم يجتمع
تلك الرطوبات في الفم في هذا الوقت لتعذر على الانسان
مضغ ذلك الطعام ولا يعسر عليه ابتلاعه فانظر الى كمال
الحكمة في الوقتين الثالث ان الانسان لما احتاج الى طحن
الطعام ومضغه بالاضراس فقد ينقلب اجزاء الطعام فيما
بين تلك الاضراس فجعل اللسان متحركا في ذلك الوقت حتى ان
اللسان بحركاته المختلفة يرمي الطعام الى ما بين الاضراس
حتى ينطحن على سبيل الكمال والتمام فسبحان من له الحكمة القاهرة
والدلايل الباهرة فهذا اشارة مختصرة الى احوال الراس وشرح
احوال هذه الحواس ثم ههنا انواع آخر من الحكم والفوائد
في الراس الاول تامل في موضع الحواس وقوة الحفظ والفكر
والذكر في الراس وذلك لانها جعلت في الراس كالمصابيح
فوق المنارة ليتمكن الانسان بسبب ارتفاع هذه الحواس من
ادراك الاشياء البعيدة فما احسن قول الحكماء الراس صومعة
الحواس الثاني كان بعضهم يقول عند عمر رضي الله عنه ما اعجب
امر الشطرنج فان تلك الرقعة على غاية صغرها يشتمل على
انواع لا نهاية لها من اللعب فقال عمر بل ههنا ما هو اعجب منه
واغرب وذلك لان رقعة الوجه اصغر بكثير من رقعة
الشطرنج ثم كل عضو من اعضاء الوجه لا يتغير عن مكانه
فالعينان ابدا تكونان في ذلك الموضع المعين وكذلك الانف
والفم ثم مع ذلك فانه يحصل فيه من التفاوت فانك لا ترى

شخصين في الشرق والغرب يتشابهان من كل الوجوه فسبحانه
ما اعظم شانه واعلم ان التفاوت فى الصورة ظاهر قوى فيما بين
الادميين وبعده فالتفاوت حاصل بين صور الحيوانات
الاهلية الا ان التفاوت فيما بين الادميين اكثر واما الحيوانات
البرية فالتفاوت فيما بين صورها قليل جدا والسبب فيه
انا قد ذكرنا انه لولا اختلاف صور الناس لما تميز الزوج عن
الاجنبى والسيد عن عبده ومالك الدار والمتاع عن غيره فكان
ذلك مفضى الى المفاسد العظيمة فلهذا المعنى اقتضت الحكمة
الالهية اظهار التفاوت فى صور الادميين واما الحيوانات
الالهية فقد يتعلق بعض الاغراض باعيانها من بعض الوجوه
الا ان اشتداد الحاجة الى معرفتها باعيانها واشخاصها ليس
كالحاجة الى معرفة الناس باشخاصها واعيانها فلاجرم اظهر
الله المخالفة بينهما فى الصور الا ان تلك المخالفة اقل من المخالفة
الحاصلة بين اشخاص الناس واما الحيوانات البرية فلا يتعلق
مصلحة البتة بمعرفة اعيانها واشخاصها فلاجرم لم تظهر
المخالفة بين صورها واشكالها الا فى القليل فسبحان من له
فى كل شئ حكمة مرعية واسرار مخفية الثالث قوله تعالى
مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان وان تعجب من
هذه الحالة فانظر الى وجهك على صغره فانه سبحانه وضع فيه
اربعة من البحار مختلفة الطبايع والصفات فجعل بحر الاذن
مملوا من الماء المر وبحر العين مملوا من الماء المالح وبحر الفم مملوا

من الماء

من الماء العذب وبحر الانف مملوا من الماء العفن المتغير وجعل
بين كل واحد من هذه البحار مانعا وحاجزا وابقى كل واحد منها على
صفته وخاصيته بحكمة بالغة اما مرارة الاذن فليلا يدخله
شئ من الحشرات واما ملوحة ماء العين فليلا يتطرق العفونة
الى ذلك الشحم واما عذوبة بحر الفم فلاجل ان يجد الطعام فى غاية
اللذة واما عفونة ماء الانف فلاجل انه جعل مصبا لفضلات
الدماغ فسبحانه ما اعظم شانه الرابع قال الباقر رضى الله عنه
كلما خلق الله فى العالم الاكبر خلق نظيره فى العالم الاصغر ولهذا
قال وفى انفسكم افلا تبصرون يعنى ان عجزت عن مطالعة العالم
الاكبر فانظر الى العالم الاصغر وذلك لانى خلقت فى العالم
الاكبر شمسا وقمرا ونجوما وخلقت فى العالم الاصغر مثلها
فشمس العالم الاصغر هى الروح لان الروح يضئ جسدك كما ان
الشمس تضئ العالم واذا خرج الروح من جسدك صار جسدك
مظلما كما ان الشمس اذا غربت صار العالم مظلما والعقل كالقمر
فكما ان القمر يستمد النور من الشمس فكذلك العقل يستمد النور
من الروح كما ان القمر يزيد ضوءه تارة وينتقص اخرى فكذلك
العقل يزداد قوته تارة وينتقص اخرى واما النجوم الخمسة
السيارة الباقية فنظيرها فى البدن الحواس الخمسة ونظير
الجبال عظامك ونظير البحار العروق الكبار فى البدن ونظير
الاودية والانهار العروق الصغار المنشعبة عن تلك العروق
الكبار وكما انه يحصل فى البحار رياح مضطربة فكذلك ترى

فی بحر فمك لسانك مضطربا بذكر الحكمة وفی بحر مقلتك ترى
حدقتك مضطربة بمطالعة العبرة وكما انك ترى بعض اجزاء
بدنك شعورا وفی بعضها ليس كذلك فاختصاص كل عضو بصفة
خاصة وحلية خاصة لا بد وان يكون بقدرة العزيز العليم
الخامس انه سبحانه جمع اكثر المحاسن فی الوجه فجعل ربعة
اشياء من الوجه ملونا بلون السواد جعل موضع النور من الحدقة
ملونا بلون السواد وجعل الاهداب سوداء والحاجبين
اسودين والشعر اسود وجعل ربعة منه ابيض جعل
الملتحمة من الحدقة ملونه بلون البياض وجعل الاسنان
بيضا وجعل الجبهة كالسطح المتخذ من الفضة النقية وجعل
الذقن كالكرة المتخذة من الفضة ثم جعل الخدين على لون حمرة
الورد والشفتين على لون حمرة الياقوت ثم جعل الوجه دايرة
تامة على شكل القمر والجبهة نصف دايرة والحاجبين خطين
مقوسين وامتدادا الانف كالخط المستقيم فتامل فی رقعة
الوجه وانظر الى هذه الاصناع المختلفة وتامل فی تركيب
الحدقة من السواد والبياض فهما لونان فی غاية المضادة
والمنافرة فجعل النور فی وسط الحدقة ثم جعل السواد
محيطا بالنور ثم جعل البياض محيطا بالسواد ثم جعل
الاهداب السود مرة اخرى محيطة بذلك البياض ثم جعل
بياض الجبهة مرة اخرى محيطا بذلك السواد ثم جعل سواد
الشعر مرة اخرى محيطا بذلك البياض فتامل فی هذه الاصناع

العجيبة والتركيبات البديعة واشهد عقلك وحسك وروحك
وقلبك وفكرك وذكرك وجميع ذوات اجزايك وابعاضك
على جلال قدرة الله وكمال حكمته تعالى الله عما يقول الظالمون
علوا كبيرا السادس قال عليه السلام اطلبوا الحوايج عند حسان
الوجوه فجعل حسن الصورة الظاهرة دليلا على حسن السيرة
الباطنة فی الاعم الاكثر ومنهم من ذكر فيه وجوها اخرى
اولها انه عليه السلام قال من حسن الله خلقه وجب عليه
ان يجعل شكر هذه النعمة حسن الفعل والثانی انه اراد بحسن
الوجه الدين وذلك لان العبد انما يتوجه الى ربه بدينه
والدين عند الله الاسلام فاذا رفع المحتاج حاجته الى من
حسن دينه لم يرض من دينه ان يرده غير مقضی الحاجة الا اذا
كان عاجزا عن قضايها والثالث انه اراد بحسان الوجوه
المتهجدين بالليل بدليل قوله عليه السلام من كثرت صلوته بالليل
حسن وجهه بالنهار السابع روی انه عليه السلام كان يقول
فی سجوده سجد وجهی للذی خلقه وشق سمعه وبصره بحوله وقوته
وايضا قد يعبر بالوجه عن الذات قال تعالى ويبقى وجه ربك
ذو الجلال والاكرام وقال كل شیء هالك الا وجهه وقال
عليه السلام وجه دينكم الصلوة ويقال للعرب وجه العرب
ويقال للطريق المفضی الى حصول المطلوب هذا وجه هذا الامر
وقال الخليل وجهت وجهی للذی فطر السموات والارض وكل
هذه الاستعمالات تدل على انهم يجعلون الوجه اسما لكل ذلك

الشي تارة واسماء لاشرف اجزايه اخرى وهذا يدل على ان اشرف اجزاء
بدن الانسان انما هو الوجه والامر في الحقيقة كذلك وذلك
لان العين المبصرة للاعتبار فيه والاذن السامعة للاسرار فيه
واللسان الناطق بذكر الملك الجبار فيه ولهذا قال امير المومنين
علي رضي الله عنه سبحان من بصر بشحم واسمع بعظم وانطق بلحم
ولاشك ان مصالح هذا العالم لايتم الا بهذه الحواس واما
مصالح العالم الروحاني والعتبات القدسية فلايتم الا بالفكر
والذكر وهما لايتمان الا بالدماغ واللوح والقلم هناك والانوار
والظلم هناك فلهذا السبب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
لاياكل الثوم لانه مضر بالدماغ وكان يحب الطيب لانه يقوي
الدماغ وكل مناصبه العالية ودرجاته الشريفة كان مبنيا
على مصالح الدماغ ولنكتف بهذا القدر من آثار حكمة الله تعالى
في خلقه الحواس في الراس والله اعلم واما ما يتعلق بالقلب
فانا نفرد له فصلا الثاني في شرح آثار حكمة الله تعالى في خلق
الانسان وفيه وجوه الاول ان نقول تفكروا في خلق الجنين في الرحم
فانه لاحيلة له في طلب الغذاء فصرف الله تعالى اليه من دم امه
ما يكفيه ثم لايزال ذلك غذاء له الى ان يستحكم بدنه ويقوي
جلده على مباشرة الهواء وحينئذ يهيج الطلق بالام وينفصل
الولد عن الام فبعد ذلك يصرف الله تعالى ذلك الدم الى ثدي
الام ويحصل له صنف اخر من الغذاء اوفق له مما كان وهو اللبن
الخالص ثم ههنا لطيفتان اللطيفة الاولى انه سبحانه لما غذاك

جنينا وكنت في بطن امك بالدم لاجرم ما اوصل اليك هذا الغذاء
من طريق الفم بل من طريق السرة والحكمة فيه ان الفم موضع
الذكر والتسبيح والتهليل والدم نجس ولايليق بالحكمة تلطيخ
الفم الذي هو موضع ذكر الله بالدم النجس والاشارة فيه ان
الفم الذي لم يصر بعد محل الذكر بل ليس الا مجرد صلاحية ان يصير
محل الذكر فالله تعالى نزهه عن التلطخ بالدم فالان وقد صار
هذا الفم محل التسبيح والتهليل منذ خمسين سنة فلا يجوز ان
يلطخه باكل الميتة وهو الغيبة والنميمة واكل الحرام اللطيفة
الثانية فرغ خاطرك عن طلب الرزق وتيقن انه تعالى اذا سد
عليك طريقا فتح عليك طريقا اجود من الاول فانظر الى الجنين
فانه كان يابته غذاؤه وهو الدم من طريق واحد وهو السرة
فلما خرج من بطن الام وانقطع ذلك الطريق فتح الله له طريقين
اخرين وهو الثديان واخرج منهما غذاء طاهرا لطيفا وهو اللبن
الذي من بين فرث ودم ليعلم انه مهما انسد طريق واحد فتح الله تعالى
طريقين احسن وانفع من الاول ثم اذا تم الحولان وتمت من الرضاع
انقطع هذان الطريقان ولكن انفتح طرق اربعة طعامان وشرابان
اما الطعامان فالنبات والحيوان واما الشربان فالمياه والالبان
ثم اذا مات الانسان انقطعت هذه الطرق الاربعة ولكنه
تعالى بفضله ورحمته يفتح عليك الابواب الثمانية من الجنة
لتدخل الجنة من ايها شيت بفضله ورحمته الوجه الثاني
في بيان الحكمة انه سبحانه خلقك في احسن تقويم وذلك لانه تعالى

خلق الخلق في عالم الاجسام على اربعة اصناف قايم كالاشجار
وراكع كالبهايم وساجد كالحيات والحيتان وجالس كالجبال
ثم انه تعالى خلق الادمي بحيث يكون تارة قايما وتارة راكعا
وتارة ساجدا وتارة قاعدا ثم انه تعالى مكنك على ان يذكر الله
في جميع هذه الاحوال قال الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى
جنوبهم ثم انه ضم الفكر الى هذا الذكر فقال ويتفكرون في خلق
السموات والارض فما اعظم هذه الحالة واجل هذه الدرجة
وقد نذكر هذه الحكمة على وجه آخر فنقال النبات رؤسها
في عمق الارض وارجلها صاعدة في السماء فهي منكسة كانها
وضعت قمة راسها على الارض واما الانسان فانه بالعكس
من ذلك فرجلاه على الارض وراسه في السماء والحيوانات
متوسطة بين هاتين الحالتين لا منكوسة كالنبات ولا منتصبة
كالانسان والسبب فيه عند اهل الطبايع ان النبات جسماني
محض فلا جرم كانت رؤسها نحو الارض والانسان روحاني
محض بالنسبة الى سكان الارض فلا جرم كانت رؤسها الى عالم
الروحانيات وهو عالم السموات ومساكن الملايكة واما
الحيوانات فهي متوسطة في هاتين في الجسمانية والروحانية
فلا جرم كانت متوسطة بين الانتصاب والتنكس واعلم ان هذا
الكلام يوهم ان السبب لهذه الاحوال انما هو الطبع والخاصية
الا انه سبحانه ابطل هذا الوهم وازال هذا الخيال فقال
ايها الانسان ما دامت راسك منتصبا كنت في مقام التكبر

وفي متابعة ابليس حيث قال ابى واستكبر وكان من الكافرين
فاذا وضعت راسك على الارض فهناك يقرب من الحضرة
الصمدية كما قال واسجد واقترب لتعرف ان هذا ليس بالطبع
بل بفضل الله ورحمته الوجه الثالث اعلم ان بدنك يشبه
الدار الكاملة التي بنيت واكملت بيوتها وخزانتها وفتحت
ابوابها واعد فيها كل ما يحتاج اليه صاحب المنزل فالراس
كالغرفة في اعلى الدار والثقب التي في الراس كالروازن في غرفة
الدار ووسط دماغك كالايوان في الدار والفم كباب الدار
والشفتان كمصراعي الباب والانف كالطاق الذي فوق
باب الدار والاسنان كالبوابين واللسان كالحاجب والظهر
كالجدار القوي الذي هو حصن الدار والوجه وصدر الدار
والرية التي هي الحاوية للنفس البارد كالبيت الصيفي وجريان
النفس فيها كالهواء الذي يجري في البيت الصيفي والقلب مع
حرارته الغريزية كالبيت الشتوي والمعدة ونضج الغذاء
فيها كالمطبخ والكبد وحصول الدم فيها كبيت الشراب والعروق
التي يجري فيها الدم كمسالك الدار والطحال بما فيه من السوداء
كالخوابي التي يقتبت فيها الدرديات والمرارة بما فيها من الصفراء
الحادة كبيت السلاح والامعاء بما فيها من ثقل الطعام كبيت
الخلاء والمثانة بما فيها من البول كبيت البير والسيلان في اسفل
البدن كالمواضع التي تخرج منها القاذورات من الدار والرجلان
كالمركوب المطيع والعظام التي بنا الجسد عليها كالخشب التي عليها

بناء الدار واللحم فی خلال العظام كالطین والعصب الذی یربط
بها بعض العظام ببعض كالرسن الذی یربط به الاشیاء بعضها
ببعض والتجویفات فی جوف العظام كالصنادیق فی الدار
والمخ فیها كالجواهر والامتعة المخزونة فی الصنادیق فسبحان
من هیا فی بیت بدنك لمسافر روحك هذه المصالح العجیبة
والاسرار الغریبة فهذا ما یتعلق ببیوت هذه الدار ثم ان
الروح فی هذه الدار كالملك المتصرف فیبصر بالعینین ویسمع
بالاذنین ویشم بالمنخرین ویذوق باللسان وینطق بالفم ویمس
بالیدین ویعمل الصنایع بالاصابع ویمشی بالرجلین ویبرك
علی الركبتین ویقعد علی الالیتین وینام علی الجنبین ویستند
بالظهر ویحمل الاثقال علی الكتفین ویتخیل بمقدم الدماغ و
یتفكر بوسط الدماغ ویتذكر بموخر الدماغ ویصوت بالحنجرة
ویستنشق الهواء بالخیشوم ویمضغ بالاسنان ویبلع بالمری
والمقصود من كل هذه الاحوال ان یكون فی حضرة الربوبیة
مشتغلا بالعبودیة كما قال تعالی وما خلقت الجن والانس
الا لیعبدون ثم انه تعالی فوض تدبیر هذه المملكة الی ثلثة
من الرؤسا احدیها الشهوة ومسكنها فی الكبد وجریانها مع الدم
فی العروق الساكنة ولهذا المعنی قال علیه السلام الشیطان
لیجری من ابن آدم مجری الدم وذلك لان القوة الشهوانیة لاتسری
الا من الكبد مع الدم فی العروق وثانیها القوة الغضبیة ومسكنها
القلب وهی تجری فی العروق المتحركة الی جمیع اطراف البدن

وثالثها

وثالثها القوة النفسانیة المدبرة ومسكنها الدماغ وهی تجری
فی الاعصاب الی جمیع اطراف البدن ثم هولا الروسا الثلثة
لیسوا اشیاء متباینة مستقلة بانفسها بل هی الفروع المتفرعة
من اصل واحد وكالاغصان النابته من شجرة واحدة وكالمنبع
الذی تنشق منه ثلثة انهار وكالاب الذی یتولد منه اولاد
كثیرون وكرجل یعمل اعمالا ثلثة فیسمی بثلثة اسماء كالحداد
والصانع والبناء مثلا فهولاء الثلثة كملوك الاطراف الذین
ولاهم الملك الاعظم فالشهوة یشبه افعالها افعال النساء
والصبیان والحمقی من الناس اذا لم یودبهم اباؤهم وازواجهم
والغضب یشبه افعاله افعال العیارین والقتالین اذا لم یودبهم
الملوك والقوة المدبرة تشبه افعالها افعال الحكماء والفقهاء
واهل الخیر والصلاح الوجه الرابع كانه سبحانه یقول عبدی
اردت ان اخرجك الی الدنیا واعرضك علی والدیك وعلی اهل
الدنیا فلما اردت ذلك زینتك كما تزین الام المشفقة ولدها
حین ترید عرضه علی الناس فجعلت جبهتك كالسطح المتخذ من الفضة
النقیة لیكون محل السجود واظهرت فی رقعة وجهك انواع
النقوش العجیبة واعطیتك الحاجب المقوس والعین الملوزة
والخد المورد وجعلت وجهك كالقمر ثم جعلت العینین للاهتداء
والاذنین للاصغاء والفم للاغتذاء والمعدة للهضم والكبد
للاتمام والعروق لیكون كالانهار والمنافذ لدفع الفضول والیدین
للاعمال والرجلین للمشی وانما فعلت بك كل هذه الاعمال لتكون عند

خروجك الى الدنيا متبرا عن النقصان فاذا برانك عن النقصان
عندما اخرجتك الى الدنيا مع انها سجن ودار محنة وموضع
ممر لا مسكن مقر فاعرف انه كيف تكون عنايتي بك وتحسين
احوالك اذا اخرجتك من القبر الى محفل القيمة الوجه الخامس
انه سبحانه خلق اليدين الة للطلب والرجلين آلة للهرب ثم انه تعالى
خلق اليد مركبة من اربعة مفاصل محسوسة العضد والساعد
والكف والاصابع فان راد الانسان جعل هذه العظام الاربعة
بمنزلة العظم الواحد قدر عليه فيمد اليد ويجعلها كالرمح وان
اراد ان ياخذ جسما مستديرا تحته ابطه جعل اليد كالدايرة
المحيطة بذلك الشئ لاجل انه حصل في اليد هذه المفاصل ثم انه
سبحانه جعل الاصابع خمسا وقسم كل اصبع بثلث انامل ووضع
الاربع في جانب والابهام في جانب اخر ولهذا الترتيب صلحت
اليد للاعمال كثيرة فان بسطها كانت كالطبق تضع عليها ما يريد
وان جمعها يكون الة للضرب وان ضمها ضما غير تام كانت مغرفة له
وان ضم احد الكفين الى الآخر صار المجموع كالقدح الكبير ثم خلق
الاظفار على روسها زينة للانامل وعمادا لها من ورائها
حتى يمكنه ان يلتقط باصابعه الاشياء الدقيقة وليمكنه
ان يحك بها بدنه عند الحاجة ثم تامل في هذا المقام فان
الظفر الذي هو اخس الاعضاء لو لم يحصل للانسان لصار
اعجز الخلق عند الحاجة الى الحك فان احد لا يقوم مقامه
في حك بدنه ثم من عجايب هذا الباب انه اذا احتاج الى حك

موضع

موضع معين من بدنه فانه لا يخطي فيه البته ولو في وقت النوم
والغفلة ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك الا بعد
تعب طويل ولنذكر منافع اليد من وجه آخر فنقول من المعلوم
ان مصالح الانسان ينقسم الى قسمين الى روحانية والى جسمانية
واما المصالح الروحانية فاليد فيها اعظم انواع المعونة
وذلك لان عقل الانسان الواحد لا يستقل باستنباط جميع
العلوم المحتاج اليها اذ لا بد من استعانة بعض العقول ببعض
وذلك لا يتم الا بان يكتب المتقدم ما حصله من العلوم حتى
يصل ذلك المكتوب الى المتاخر فيكتبه وينتفع به ومن المعلوم
ان الكتبه لا تحصل الا باليد واما المصالح الجسمانية فهي
قسمان جلب المنافع ودفع المضار اما جلب النفع فلليد فيه
اعظم انواع النفع والمعونة وذلك لان الانسان يتخذ
بيده آلات يصيد بها ما في البر والبحر والهواء من الحيوانات
ويعمل السفن فيقطع بها البحار والمسافات البعيدة ويتخذ
الآلات يخرج منها اصوات لذيذة نافعة للبدن والروح ويبني
بيديه المساكن الحسنة وينسج الثياب الحسنة ويتخذ الاطعمة
الطيبة اللذيذة ومعلوم ان كل هذه الاعمال لا يتهيا الا باليدين
فتارة تنسج الثياب المنقوشة بعجايب النقوش وصنوف
الالوان والاصباغ فيصير لونه احسن من لون الطاوس ويجعل
لنفسه من الذوايب ما تتشبه به بذوات الاعراف وتارة
وتارة يعمل لنفسه من اصناف الحلي ما يصير به احسن من ذات

الاطواق واما دفع الضرر فهو على قسمين تارة بالمجاهدة
وتارة بالتحرز فاما المجاهدة فانها تكون بالسلاح فهو يمسك
بيديه ما هو اعظم وابلغ من القرون كالرمح وما هو اقطع
من الانياب كالسيف وما هو ابلغ في التخنيق من المخالب كالخنجر
وما هو اشد رضا من الحافر كالتراب والاحجار فاذا تاملت
علمت ان اليد مع الرمح قرن ومع السيف ناب ومع الابرة حمة
ومع الخنجر مخلب واما التحرز فاما ان تكون بالهرب وبالتحصن
اما الهرب فانه يذلل الفرس بيديه فيعديه حتى يصير سرعة ركض
الفرس له فيدرك به اذا طلب ويعجز طالبه اذا هرب واما
التحصن فانه يعمل بيديه ما هو افضل مما حصلت للحيوانات
من الجلود الغليظة والاظلاف والاصداف وذلك مثل الترس
والدروع وانواع السلاح ويتخذ بيديه القلاع والحصون
احصن مما لساير الحيوانات وكل هذه الاعمال انما يتاتى باليدين
ثم انهما يخدمان كل البدن خدمة عظيمة فيبعدان انواع
الآفات والقاذورات من كل البدن ويجران جميع المنافع اليها
ولو غاصت العقول ادوارا واعصارا في معرفة آثار حكمة الله
تعالى في خلق الانسان لاعترف بعد التوغل التام بالعجز والقصور
واعلم ان الاستقصاء في بيان آثار حكمة الله في خلق الانسان
مما لا يمكن في هذا الكتاب ونعم ما قال الشيخ ابو حامد حجة
الاسلام الغزالي في كتاب الاحيا فقال العجب كل العجب ممن يرى
صورة انسان على حايط فاستحسنه ويصرف جميع همته

الى النقاش فانه كيف نقشه وكيف قدر عليه مع انه يعلم ان
ذلك النقش انما تم وكمل بالصبغ والقلم والحايط واليد والقدرة
والعلم والارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا من خلقه
بل كل ذلك من خلق الله تعالى وانما غاية فعل هذا النقاش الجمع
بين الصبغ وبين الحايط على ترتيب مخصوص فاذا كان هذا القدر
من العمل سببا للاعتراف لذلك النقاش بالعلم والحكمة فان يبدل
بظهور تركيب الانسان وتخلقه على جلال علم الخالق ونهاية
قدرته وحكمته كان اولى الوجه السادس نظر مع كمال قدرته
الى تمام حكمته وذلك لان الجنين حين ما يكون في الرحم يكون
بعض اعضائه مضموما الى البعض ويكون مجموعه كالكرة الموضوعة
في كيس الرحم وذلك لانه يكون قد ضم فخذيه الى صدره ووضع
راحتيه على ركبتيه ووضع راسه على ركبتيه فيكون عيناه
على ظهري كفيه ويكون انفه بين الركبتين ويكون جالسا على رجليه
ومعتمدا على عقبيه كالشخص المتفكر المغموم المهموم المنتظر
لورود الامر عليه ويكون وجهه الى ظهر امه حماية للقلب
وهذه الجلسة ايضا اوفق للانقلاب ثم اذا صار الجنين كبيرا
وضاق عليه الموضع فانه سبحانه يلهمه الكيفية الخروج فينكس
ويعين على الانقلاب ثقل الاعالي في الجنين ثم في ذلك الوقت
ينفتح الرحم الانفتاح الذي لا يمكن ان يتخيل في مثله ولا بد
من انفصال بعض المفاصل العظيمة ومدد وعناية من الله في ذلك
الوقت يعجز عن كيفية معرفتها عقول البشرية ثم هنا احوال عجايب

الاول ان الجنين كان في البطن ايده الحق سبحانه بالالهام حتى عرف
ان مصلحته عند الخروج في ان ينقلب وينتكس ثم بعد الانفصال
من البطن والخروج الى الدنيا لا يهتدي البتة الى شيء من المصالح وذلك
لانه عند كونه في البطن ليس هناك شيء يعينه على شيء من مصالحه فلما
كمل عجزه هناك هدى الى رعاية مصلحته ولما خرج الى الدنيا فههنا
من يعينه على رعاية مصالحه فلاجرم انقطعت تلك الهداية وهذا
يدل على ان الانسان كلما كان اشد عجزا وقصورا كانت عناية الله
به اتم ولاشك ان عجز الخلق في موقف القيامة اشد واكمل
فنرجوا من فضل الله تعالى ان تكون عنايته بنا في ذلك الوقت
اتم واشد الثاني ان البيضة اذا تفقأت عن الدجاجة خرج
الفرخ عنها وعدت والتقطت من الحب ما ينفعها واحترزت
عما يوذيها وفرقت بين امها المشفقة وبين الهرة الطالبة
لايذايها واما الانسان فانه حال انفصاله عن الام لا يميز
بين النافع والضار والصديق والعدو فكان في هذا الوقت
اكثر جهالة من الفرخ عند خروجه عن قشر البيضة ثم ان الامر
لو كان مستمرا على قانون الطبيعة والخاصية وجب ان لا يكون
الفرخ لما كان اذكى واكثر تمييزا في مبدا الامر ان يكون اكثر
تمييزا من الانسان عند المنتهى والكمال لكنه تعالى قلب هذه
القضيه فجعل من كان كثير التمييز في اول الامر قليل التمييز عند الكمال
والغاية وجعل الانسان الذي هو اقل الحيوانات تمييزا في اول الامر
اكثرها معرفة وهداية وعقلا ليعرف ان كل ذلك بحسب القدرة

والحكمة

والحكمة والعناية لا بحسب الطبع والعلة والخاصية والثالث
ان الصبي بعد الخروج من بطن الام لما احتاج الى الغذاء فانظر كيف
هداه الله الى التقام الثدي ولما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الاغذية
الكثيفة فانظر كيف دبر له في اللبن اللطيف ثم خلق الثدي وجمع
فيهما اللبن اللطيف وانبت على راس الثديين حلمتين على قدر ما
ينطبق عليه فم الصبي ثم جعل في تلك الحلمة ثقبا ضيقا جدا
حتى لا يخرج اللبن منه الا بعد المص والا على سبيل التدريج فان
الطفل لا يطيق من اللبن القليل ثم انظر انه تعالى كيف هداه الى
الامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة
الجوع على سبيل الرفق ثم انه سبحانه اخر خلق الاسنان الى تمام
الحولين لانه في الحولين لا يتغذى الا باللبن فيستغني عن السن
واذا صار كبيرا ولم يوافقه اللبن واحتاج الى الطعام الغليظ
فيحتاج حينئذ الى المضغ والطحن فلاجرم انبت الاسنان عند
حدوث الحاجة لا قبلها ولا بعدها فتبارك الله احسن الخالقين

الفصل الخامس في شرح احوال الانسان من وقت

الولادة الى وقت الموت وفي عجايب القلب ذهب اكثر العقلاء
الى ان اشرف اعضاء البدن هو القلب وهو الرئيس المطلق لساير
الاعضاء وهو المخاطب في الحقيقة وهو موضع التمييز والاعتبار
واما ساير الاعضاء فمسخرة له والدليل عليه القران والاخبار
والمعقول اما القران فايات اما الحجة الاولى فقال تعالى في
سورة البقرة قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك

وقال في سورة الشعرا نزل به الروح الامين على قلبك فهاتان
الايتان دلتا بصريحهما على ان التنزيل والوحي كان على القلب
فوجب ان يكون المخاطب والمكلف هو القلب الحجة
الثانية قوله تعالى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب الاية
دالة بصريحها على ان الذكرى والفهم انما يحصل بالقلب
وتاويل القاء السمع الجد في الاستماع حتى يصير سمعه كالشيء
الذي القي الى الكلام بلا اضطراب فيه ومن الناس من قال
او في هذه الاية بمعنى الواو وذلك لان الذكرى لا بد فيه
من مجموع الامرين فلا بد فيه من حضور القلب ولا بد فيه
من القاء السمع لان القلب عبارة عن محل ادراك الحقايق
والقاء السمع عبارة عن الجد والاجتهاد في تحصيل تلك
الادراكات ومن المعلوم انه لا بد من الامرين معا فكان
او ههنا بمعنى الواو والجواب ان ما ذكرتم يحتمل ولكن يمكن
ايضا اجراء الاية على ظاهرها وذلك لان القوى العقلية
قسمان منهما ما يكون في غاية الكمال والصفاء ويكون مخالفا
لساير العقول بالكمية والكيفية اما الكمية فلان حصول
المقدمات البديهية والحسية والتجربية لها اكثر واما
بالكيفية فلانها تركيب تلك المقدمات على وجه ينساق
الى النتايج الخفية ومثل هذه القوة العقلية يستغني
في معرفة حقايق الاشياء عن التعلم والاستعانة بالغير
الا ان مثل هذا يكون في غاية الندرة واما القسم الثاني

وهو

وهو الذي لا يكون كذلك فهو يحتاج في اكتساب العلوم النظرية
الى التعلم والاستعانة بالغير والتمسك بالقانون الصناعي الذي
يعصمه عن الخلل والزلل اذا عرفت هذا فقوله تعالى ان في ذلك
لذكرى لمن كان له قلب اشارة الى القسم الاول وانما ذكر
القلب بلفظ التنكير ليدل ذلك على الكمال التام بدليل قوله تعالى
ولتجدنهم احرص الناس على حيوة اي على حيوة عظيمة طويلة
المدة فكذا ههنا قوله لمن كان له قلب اي قلب كامل في قوة الادراك
عظيم القوة في الاستعداد بمعرفة الحقايق اما قوله او القى السمع
وهو شهيد فهو اشارة الى القسم الثاني الذي يفتقر الى الكسب
والاستعانة وهذا من الاسرار التي عليها بناء اصل علم المنطق
وقد لاح بتوفيق الله في هذه الاية ولما كان القسم الاول
نادرا جدا وكان الغالب هو القسم الثاني لا جرم امر الكل في اكثر
الايات بالطلب والاكتساب فقال افلم يسيروا في الارض
فيكون لهم قلوب يعقلون بها او اذان يسمعون بها فان قوله
اولم يسيروا في الارض حث على الطلب والجهد في الكسب وقال
صاحب المنطق ان القسم الاول وان كان غنيا عن الاستعانة
بالمنطق الا انه نادر جدا والغلبة للقسم الثاني وكلهم محتاجون
الى المنطق فانظر الى هذه الاسرار العميقة كيف تجدها مدرجة
في الالفاظ القرانية الحجة الثالثة الايات الدالة على ان
استحقاق الجزاء ليس الا على ما في القلب من المساعي قال تعالى
لا يواخذكم الله باللغو في ايمانكم ولكن يواخذكم بما كسبت قلوبكم

وقوله لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم
ثم بين تعالى في آية اخرى ان التقوى للقلب فقال اولئك الذين
امتحن الله قلوبهم للتقوى وقال وحصل ما في الصدور
الحجة الرابعة قوله تعالى حكاية عن اهل النار وقالوا لو كنا نسمع
او نعقل ما كنا في اصحاب السعير ستعرف ان العقل في القلب
وان السمع منفذ اليه الحجة الخامسة قوله تعالى ان السمع
والبصر والفواد كل اولئك كان عنه مسؤلا ومعلوم ان السمع
والبصر لا فائدة فيهما الا ما يؤديانه الى القلب فكان السؤال
عنهما في الحقيقة سؤالا عن القلب ونظيره قوله تعالى يعلم خائنة
الاعين وما تخفي الصدور ومعلوم ان خيانة الاعين لا تكون
الا بما تضمره القلوب عند التحديق والنظر الحجة السادسة
قوله تعالى وجعل لكم السمع والابصار والافئدة قليلا
ما تشكرون خص هذه الثلثة بالزام الحجة منها واستدعاء
للشكر عليها وقد قلنا انه لا طائل في السمع والبصر الا ما يؤديان
الى القلب هو القاضي فيه والحاكم عليه الحجة السابعة قوله تعالى
ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا
وافئدة فما اغنى عنهم سمعهم ولا ابصارهم ولا افئدتهم من شيء
فجعل هذه الثلثة تمام ما الزمهم من حجته والمقصود من ذلك
هو الفواد القاضي فيما يؤدي اليه السمع والبصر الحجة الثامنة
قوله تعالى ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم فجعل
العذاب لازما لهذه الثلثة ونظيره قوله تعالى لهم قلوب

لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم اذان لا يسمعون
بها ووجه الاستدلال بهذه الاية ان المقصود من هذه
الاية بيان انه لا علم لهم اصلا ولو ثبت العلم في غير القلب لم يتم
الغرض الحجة التاسعة انه تعالى كلما ذكر الايمان في القران
اضافه الى القلب فقال تعالى قالوا امنا بافواههم ولم تؤمن
قلوبهم وقوله الا من اكره وقلبه مطمئن بالايمان وقال
كتب في قلوبهم الايمان وقال ولما يدخل الايمان في قلوبكم
فثبت ان محل هذه المعارف هو القلب واذا كان كذلك كان
محل الارادات هو القلب لان الارادة مشروطة بالعلم واذا كان
محل العلم والارادة هو القلب كان الفاعل هو القلب الحجة العاشرة
محل العقل هو القلب لقوله اولم يسيروا في الارض فتكون لهم
قلوب يعقلون بها وقوله ولهم قلوب لا يفقهون بها وقوله
ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب اي عقل اطلق على العقل اسم
القلب لان القلب محل العقل وايضا انه تعالى اضاف اضداد
العلم الى القلب فقال في قلوبهم مرض وقال ختم الله على قلوبهم
وقال بل طبع الله عليها بكفرهم وقال بل ران على قلوبهم وقال
يحذر المنافقون ان تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم
وقال افلا يتدبرون القران ام على قلوب اقفالها وقال فانها
لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور فدلت
هذه الايات على ان موضع الجهل والغفلة هو القلب فوجب
ان يكون ايضا موضع العقل والفهم هو القلب واما الخبر فما روي

النعمن بن بشير قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول
الا وان في الجسد لمضغه اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت
فسد الجسد كله الا وهي القلب وهذا تصريح بان الفاعل
هو القلب وباقي الاعضاء تبع له وروي ان اسامة لما قتل
الكافر الذي قال لا اله الا الله فقال عليه السلام لم قتلته
قال لانه قال هذه الكلمة عن الخوف فقال عليه السلام هلا
شققت عن قلبه وهذا يدل على ان محل المعرفة هو القلب وكان
عليه السلام يقول يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك وهذا
يدل على المقصود واما المعقول فاعلم ان هذه المسئلة مما
عظم اختلاف الفلاسفة فيها فزعم ارسطاطاليس ان النفس
واحدة ولها افعال ثلثة الفكر والغضب والشهوة فهذه صفات
ثلثة لجوهر واحد هو النفس والمتعلق الاول للنفس هو القلب
ومنه يتعدى القوى النفسانية الى سائر الاعضاء وزعم
بقراط وافلاطون وجالينوس انها نفوس ثلثة كل واحد منها
مستقل بنفسه ولكل واحد منها عضو على حدة فمعدن النفس
المفكرة هو الدماغ ومعدن النفس الغضبية هو القلب ومعدن
النفس الشهوانية هو الكبد واعلم ان القران والحديث مطابقان
لقول ارسطاطاليس ونحن نورد في هذا المقام هذه المسئلة
على الاستقصاء فنقول اثبات صحة ما ذهب اليه ارسطاطاليس
يتوقف على اثبات مقامين احدهما بيان ان النفس واحدة
والثاني بيان ان العضو الرئيس على الاطلاق واحد وهو القلب

اما

اما المقام الاول وهو بيان ان النفس واحدة فنحن ههنا بين مقامين
اما ان ندعي البديهية واما ان ندعي الاستدلال فاما دعوى
البديهية فهو ان المراد من النفس ما يشير اليه كل واحد الى ذاته
الخاصة بقولهم انا وكل واحد يعلم بالضرورة انه اذا اشار الى
ذاته الخاصة بقولهم انا فان ذلك المشار اليه شئ واحد غير
متعدد فان قيل لم لا يجوز ان يكون المشار اليه لكل واحد
بقوله انا وان كان واحدا الا ان ذلك الواحد يكون مركبا من ثلثة
اشياء وهي القوة المفكرة والغضبية والشهوانية والجواب
هذا باطل وذلك لان البديهة العقلية حاكمة باني اذا قلت
انا اشتهي انا اغضب انا اتفكر فالموضوع في هذه القضايا الثلثة
واحد والتعدد انما وقع في المحمول كما اني اذا قلت هذا الجسم
حار واسود ويابس فالموضوع واحد والتعدد واقع في المحمولات
واذا كان هذا معلوما بالضرورة علمنا ان الجوهر واحد في الذات
متعدد بالصفات اما طريق الاستدلال فيدل على صحة قولنا
وجوه الاول ان الغضب حالة نفسانية تحدث عند دفع المنافي
والشهوة حالة نفسانية تتولد عند طلب الملايم مشروط بالشعور
بكون الشئ ملايما ومنافيا فالقوة الغضبية التي هي دافعة
للمنافي وان لم يكن لها شعور بكونه منافيا امتنع كونها دافعة
للمنافي على سبيل الاختيار والقصد لان القصد الى دفع او جذب
مشروط لا محالة بالشعور بالشئ فالمحكوم عليه بكونه دافعا
للمنافي على سبيل الاجمال لا بد وان يكون له شعور بكونه منافيا

فالادراك والغضب صفتان من صفات شئ واحد وكذا القول
فى الشهوة فيثبت بهذا البرهان القاطع ان التفكر والغضب
والشهوة صفات ثلثة لذات واحدة لانها صفات متباينة
الحجة الثانية انا لو فرضنا مبداين يكون كل واحد منهما
مستقل بفعله الخاص امتنع ان يكون اشتغال واحد بفعله
الخاص فيه مانعا للاخر من الاشتغال بفعله الخاص بذلك
الاخر واذا ثبت هذا فلو كانت القوة الفكرية مبدا مستقلا
بنفسها وكذا القوة الشهوانية والغضبية من الاشتغال
بفعلها ولا بالعكس لكن الثانى باطل فان اشتغال الانسان
بالشهوة وانصبابه اليها يمنعه من الاشتغال بالغضب و
الانصباب اليه فعلمنا ان هذه الامور الثلثة ليست مبادى
مستقل بانفسها بل هى صفات لجوهر واحد فلاجرم كان اشتغال
ذلك الجوهر باحد هذه الافعال مانعا له عن الاشتغال بالفعل
الآخر الحجة الثالثة انا ادركنا شيئا فقد يكون الادراك
سببا لحصول الشهوة وقد يكون سببا لحصول الغضب ولو
كان الجوهر المدرك مغايرا للجوهر الذى يغضب وللجوهر الذى
يشتهى فحين ما ادرك صاحب الادراك لم يكن من هذا الادراك
اثر ولا خبر عند صاحب الشهوة ولا عند صاحب الغضب وحيث
حصل هنا علمنا ان صاحب الادراك بعينه هو صاحب الشهوة
وهو صاحب الغضب فهذا جملة ما يحتج به على وحدة النفس
واحتجوا على تعدد هذه النفوس فقالوا راينا النفس الشهوانية

حاصلة فى النبات بدون النفس الغضبية ورابنا النفس
الغضبية حاصلة فى الحيوان بدون النفس ثم راينا هذه الاثار
الثلثة حاصلة فى الانسان فعلمنا ان كل واحد من هذه الثلثة
جوهر مستقل بنفسه منفرد بذاته والجواب ثبت فى اصول
المعقولات ان الماهيات المختلفة يجوز اشتراكها فى اثار متساوية
واذا ثبت هذا فنقول من الجايز ان يكون النفس الانسانية
مساوية للنفس البهيمية فى فعل الغضب وان كانا مختلفين
فى الماهية ولهذا يكون جوهر النفس الانسانية واحدا بالذات
الا انها مبدا للافعال الثلثة احدها النطق ولا يشاركه فيها
النفوس وثانيها الغضب ويشاركها فيه البهيمة فقط والثالث
الشهوة ويشاركها فيه البهايم والنبات فان قالوا فالنفس
الواحدة كيف يكون مصدرا للافعال المختلفة قلنا لم لا يجوز
ذلك لاسيما عند حصول الالات المختلفة فهذا هو البيان
الملخص فى وحدة النفس وهو اقوى مما كتب جالينوس فيه المجلدات
وبالله التوفيق واما المقام الثانى فى بيان ان العضو الرئيس
على الاطلاق وهو القلب فنقول انا قد بينا فيما تقدم ان المنى
اذا وقع فى الرحم صار كالكرة ويجتمع الاجزاء النارية والهوائية
ويصير مادة الارواح ويجتمع الاجزاء المائية والارضية
ويحيط بتلك الارواح ليكون صوانا لها ومانعا لها من التحلل
وذلك الموضع المتوسط الذى فيه اجتمعت الاجزاء اللطيفة
وهو الموضع الذى اذا تمت خلقته كان قلبا وبهذا الطريق

حاصلة

عرفنا ان اول عضو يتكون هو القلب فاذا كانت النفس واحدة
كان تعلقها الاول بالقلب وبواسطة القلب يسرى اثرها
الى ساير الاعضاء فثبت ان العضو الرئيس على الاطلاق هو
القلب هذا هو الكلام المعول عليه فى اثبات هذا المطلوب
وها هنا وجوه اخرى اقناعية ونحن نذكرها الحجة الاولى
ان العقلاء يجدون الفهم والادراك والعلم من ناحية القلب
فعلمنا ان القلب محل العلم قال جالينوس مسلم ان القلب محل
الغضب فاما انه محل العلم فممنوع وجوابه ان الغضب دفع المنافى
ودافع المنافى له شعور بكونه منافيا فوجب ان يكون القلب
محل العلم والشعور الحجة الثانية ان النفس هى الحساسة المتحركة
بالارادة فاذا تعلقت النفس بالقلب فلابد وان يفيض الحس
والحركة والارادة فيكون القلب منبعا للحس والحركة والارادة
الحجة الثالثة ان الحس والحركة الارادية انما يحصلان بالحرارة
اما البرودة فمانعة عنهما والقلب منبع الحرارة والدماغ منبع
البرودة فجعل القلب مبدا للحس والحركة الارادية اولى من جعل
الدماغ مبدا لهما الحجة الرابعة كل واحد اذا قال انا فانه يشير
بقوله انا الى صدره وناحية قلبه وايضا اذا قال الرجل العاقل
انا فعلت كذا وانا اقول كذا يضع يده على ناحيته وهذا يدل
على ان كل احد يعلم بالضرورة ان المشار اليه بقوله انا موجود
فى القلب لا فى الدماغ الحجة الخامسة اظهر آثار النفس الناطقة
فوجب ان يكون معدن النفس الناطقة هو الموضع الذى منه ينبعث

النطق لكن النطق والكلام انما ينبعث من القلب لان النطق
انما يتولد من اخراج النفس وادخال النفس واخراجه فعل القلب
والمقصود من اخراجه دفع الفضلة المحترقة واذا كان ادخال
النفس واخراجه مقصودا للقلب بالذات كان اسناد هذا الفعل
الى القلب اولى من اسناده الى الدماغ الذى لا حاجة به البتة
الى النفس فثبت ان اخراج النفس فعل القلب والصوت انما يحدث
من اخراج النفس فثبت ان فاعل الصوت هو القلب وقال جالينوس
الصوت لا ينبعث من القلب بل من الدماغ ويدل عليه وجوه
الاول ان الآلة الاولى للصوت هو الحنجرة بدليل انك اذا احرقت
قصبة الرية اسفل من الحنجرة لم يسمع لذلك الحيوان بعد الحالة
صوتا فثبت ان آلة الصوت هى الحنجرة والحنجرة مولفة من ثلثة
غضاريف وهذه الغضاريف يحرك بعضلات كثيرة وتلك
العضلات انما تحرك بالاعصاب والاعصاب نابتة من
الدماغ فثبت ان فاعل الصوت هو الدماغ والثانى انا نرى
عضل الدماغ يتمدد عند التصويت بالصوت العنيف واما
القلب فانه لا يناله التعب عند التصويت والثالث ان القلب
اذا كشف عنه ثم قبض عليه لم يبطل من الحيوان صوته وان كشف
عن الدماغ ثم ضغط بطل فى الحال صوت ذلك الحيوان فثبت
ان مبدا الصوت هو الدماغ لا القلب والجواب انا بينا بالحجة
القوية ان مبدا الصوت هو القلب اقصى ما فى الباب ان الدماغ
يعين على ذلك الا ان هذا لا يقدح فى قولنا الحجة السادسة

ان القلب موضوع في موضع يقرب ان يكون وسطا من البدن
والعضو الرئيس يليق به ذلك حتى يكون ما ينبعث منه من القوى
يصل الى جميع اطراف البدن على القسمة العادلة والدماغ موضوع
في اعلى البدن وذلك ينافي هذا المقصود الحجة السابعة ان
الناس يصفون القلب بالذكاء فيقولون قلب ذكي وقلب بليد
وقال جالينوس الناس اذا وصفوا انسانا بانه له قلبا قويا
فمرادهم منه الشجاعة فاذا قالوا فلان لا قلب له فالمراد هو الجبن
والجواب ان هذا يدل على ان القلب موضع القوة وهذا لا ينافي
ان يكون القلب ايضا موضع العلم والفهم واحتج جالينوس
على ان معدن الادراك هو الدماغ بوجوه الاول وهي ان
الدماغ منبت العصب والعصب آلة الادراك وما كان منبتا
لآلة الادراك وجب ان يكون معدنا لقوة الادراك فهذه
مقدمات ثلثة اما المقدمة الاولى وهو ان الدماغ منبت
العصب فالدليل عليه ان الاعصاب الكثيرة انما توجد في
الدماغ وان القلب فلا يوجد فيه الا عصبة صغيرة واذا كان
كذلك وجب ان يكون الدماغ منبتا للاعصاب واما المقدمة
الثانية وهي ان الاعصاب آلات الحس والحركة فالدليل عليه
انك اذا كشفت عن عصبة وشددتها وجدت ما كان اسفل من
موضع الشد فانه يبطل عنه الحس والحركة وما كان اعلى منه مما
يلي جانب الدماغ لا يبطل عنه الحس والحركة وهذا يدل على ان
آلة الحس والحركة هو العصب واما المقدمة الثالثة وهي انه

لما كان الدماغ منبتا لآلة الحس والحركة وجب ان يكون
معدنا لهما فالدليل عليه انه اذا كان فيه الحس والحركة
انما يصلان من الدماغ الى جميع اطراف البدن بواسطة
هذه الاعصاب النابتة من الدماغ ثبت ان المنبت والمعدن
لهذه القوة هو الدماغ واعلم ان اصحاب ارسطاطاليس
اجابوا عن هذه الحجة من وجهين الاول قالوا لا نسلم ان
الدماغ منبت العصب اما دليل جالينوس على ذلك وهو ان
الاعصاب كثيرة وقوية عند الدماغ وقليلة وصغيرة عند
القلب فقد اجابوا عنه من وجهين الاول ان هذه المقدمة
الواحدة غير منتجة للمقصود بل لا بد من ضم مقدمة اخرى اليها
وهي ان القوة والكثرة انما يكون عند المبدا والصغر والقلة انما
يكون عند غير المبدا الا ان هذه المقدمة غير برهانية بل هي منقوضة
من وجوه الاول ان العصبة المجوفة يكون دقيقة عند المنبت
فاذا خلت الموضع الذي يكون الحدقة فيه تغلظ تلك العصبة
وتتسع وهذا نقض على هذه المقدمة الثاني ان الحبة التي يتولد
منها ساق الشجرة يكون اصغر بكثير من ساق الشجرة فلم لا يجوز
ان يكون العصبة الصغيرة التي في القلب تكون كالحبة
التي منها انشعبت الاعصاب الكثيرة في الدماغ الثالث
لو صح دليل جالينوس لوجب ان يقال مبدا العروق
الضوارب هي الشبكة الشبيهة بالشبكة التي في الدماغ
لا القلب لان في تلك الشبكة من العروق الضوارب عدد

ما لا يحصى وهو في غاية المشابهة لعروق الشجرة الوجه
الثاني في الجواب سلمنا ان الكثرة والقوة لا تحصل الا عند
المبدا لكن لا نزاع ان القلب منبت للشرايين ثم ان اجرام
الشرايين من جنس اجرام الاعصاب فيمكن ان ينبت الاعصاب
منها انما قلنا ان العروق من جنس الاعصاب وذلك لان
اجرام العروق ينقسم الى الشظايا اللينة التي لا حس لها وهي
بيض لدنة عديمة الدم صلبة غير حساسة في نفسها والاعصاب
كذلك في جميع الصفات والدليل على ان الاعصاب غير حساسة
في نفسها انك اذا شددت العصبة برباط شدا قويا صار ما
هو اسفل من موضع الشد عديم الحس وذلك يدل على ان
العصب غير حساس في نفسه وانما يجري اليه الحس من
موضع اخر فثبت ان العروق والاعصاب متشاركة في هذه
الصفات والاحوال فعلمنا ان العروق والاعصاب من جوهر
واحد واذا ثبت هذا فنقول لم لا يجوز ان يقال ان هذه
العروق الضوارب لما انقسمت وتشعبت ودقت وصغرت
ونفذت في الدماغ التفت بعضها وانضمت اجزايها واتصلت
فصار على شكل الاعصاب وتحقيق القول فيه ان هذه الشرايين
حين ما انفصلت عن القلب كان يحتاج اليها ليكون حاملة
للدم والروح الى جوهر الدماغ فلما صغرت ونفذت في جوهر
الدماغ وحصل هذا المقصود حصل الاستغناء عنها فلا جرم
صرفت الى موضع آخر وهو ان زيل عنها وصف التجويف وانضمت

تلك الشظايا بعضها الى بعض وصارت على شكل الاعصاب
فبهذا الطريق صارت العروق اعصابا ولما كان منبت العروق
وهو القلب لا جرم كان منبت الاعصاب ايضا هو القلب بهذا
الطريق اجاب جالينوس عن هذا الكلام من وجهين الاول
قال الدليل على ان الاعصاب ليست من جنس العروق وجوه الاول
ان الشرايين نابضة والاعصاب ليست بنابضة الثاني ان
مجوفة والاعصاب ليست مجوفة الا القليل والثالث ان الشرايين
محسوسة على الدم بدليل انها اذا نفثت غلب ذلك النفث على
صاحبه من انفجار الدم امرا صعبا والعصب كله لا دم له الرابع
ان الشرايين مولفة من الطبقتين احدهما ينحل الى اجزاء ذاهبة
في العرض على الاستدارة والاخر ينحل الى اجزاء تذهب على الاستقامة
في الطول واما العصبة فانها تنحل الى ليف ابيض عديم الدم
ذاهب على الاستقامة في الطول الخامس انك اذا شددت
العصبة بطل عنه الحس والحركة الارادية ولا تبطل منه حركة
النبض وان شددت الشريان بطل النبض ولم تبطل الحس والحركة
وذلك ان العصب قد يمسك عن فعله كثيرا والشريان فعلها دايم
فثبت بهذا الوجوه ان الشرايين ليست من جنس الاعصاب
والوجه الثاني من الجواب عن هذا الكلام قال ان اصل الشريان
المتولد من القلب ينقسم الى قسمين قسم يصعد الى جانب الراس
وقسم ينزل الى اسفل البدن والقسم النازل الى الاسفل
لا شك انه ينقسم ويتفرق الى العروق الدقاق ثم انها بعد دقتها

ماصارت اعصابا فوجب ان يكون الحال كذلك فى الشرايين
الداخلة فى الدماغ اجاب اصحاب ارسطاطاليس فقالوا
اما الجواب الاول فضعيف لان الصفات المذكورة للشرايين
انما تكون باقية قبل نفوذها فى جوهر الدماغ اما بعد نفوذها
فى جوهر الدماغ لم قلتم ان هذه الصفات تبقى وما الذى يدل
على ان الروح الدماغى لاشك انه كان متولدا فى القلب ثم انه
تصاعد من القلب وهى فى الشبكة المتولدة تحت الدماغ مدة
ثم انه ينفذ فى الدماغ فتحدث له حالة كونه فى الدماغ احوال
وصفات ما كانت حاصلة حين كان فى القلب فلم لا يجوز ان
يكون الحال فى الشرايين كذلك وهو ان الصفات المذكورة
للشرايين كانت حاصلة لها قبل نفوذها فى جرم الدماغ اما
بعد نفوذها فى جرم الدماغ وتقسمها وتصغرها فى الغاية
اثر فيها جرم الدماغ وقلبها على طبايعها فصارت فى الخلقة
والصورة شيئا آخر فهذا الاحتمال لا يبطل بما ذكره جالينوس
اما جوابه الثانى فهو ايضا ضعيف وذلك لان الروح القلبى
كما صعد الى الراس فى الشرايين الصغيرة صعد الى سفل البدن
فى الشرايين الصغيرة ثم ان الجزء الصاعد الى الراس تغير عن
حالته بسبب اختلاطه بجزء من الدماغ والجزء النازل الى
الاسفل لم يتغير عن حالته البتة فلم لا يجوز ان تكون الحال
فى اجرام الشرايين كذلك فهذا تمام الكلام على حجة جالينوس
على ان الدماغ منبت العصب واحتج ارسطو على ان منبت العصب

هو القلب فقال الحركة الارادية لا بد وان يكون بالة صلبة
قوية والدماغ ليس بجرمه شئ من الصلابة والقوة واما القلب
ففيه انواع من الصلابة منها ان لحمه قوى شديد صلب اصلب
من سائر اللحوم ومنها ان فيه من الرباطات العصبية مقدارا
كثيرا ومنها انه بسبب كثرة حركته لا بد وان يكون اقوى جرما
واذا كان كذلك كان جعل القلب منبتا للاعصاب التى هى
الالات للحركات القوية اولى من جعل الدماغ منبتا لها
اجاب جالينوس عنه من وجهين الاول انه بنى كلامه على
المقدمة القياسية والحس دل على ان المنبت هو الدماغ
والقياس المعارض للحس لا يلتفت اليه والثانى ان المتولى
لتحريك الاعضاء ليس هو العصب فقط بل العضل والعضلات
مركبات من الاعصاب والرباطات والاغشية واللحوم
وهى مستندة الى الاعضاء والاعصاب تفيدها الحس والقوة
على الحركة واما ما يختلط بها من الرباطات والاغشية
فيفيدها القوة والشدة والامن من الانقطاع وعلى هذا
التقدير لا يمتنع كون الدماغ منبتا للاعصاب اجاب اصحاب
ارسطو عن الاول بان الحس والحركة لم يدل على كثرة الاعصاب
وقوتها عند الدماغ وقد بينا ان هذا القدر لا يدل على
كون الدماغ منبتا للاعصاب واما الثانى فضعيف ايضا
لان جالينوس استدل بغلظ العصب وكثرته على تولده منه
وارسطو عارض هذا فقال ان كان هذا الوجه يدل

على قولكم لكن كون الدماغ لينا والعصب قويا لبنا غليظا
يمنع من تولده فيه بل كون العصب قويا صلبا مع كون القلب
قويا صلبا يدل على كون العصب نابتا من الدماغ فيسقط
كلام جالينوس بالكلية النوع الثانى من الجواب عن شبهة
جالينوس سلمنا ان الدماغ منبت للعصب الذى هو آلة الحس
والحركة لكن لم قلتم انه يلزم من هذا كون الدماغ معدنا لقوة
الحس والحركة بيانه انه لا يبعد ان يكون قوة الحس والحركة
الا ان الدماغ معدن لقوة يرسل الى القلب الة نابتة منه
ليستفيد بتلك الالة قوة الحس والحركة من القلب واذا كان
هذا الاحتمال قائما يسقط كلام جالينوس بالكلية الحجة
الثالثة لجالينوس على ان معدن القوة المدركة هو القلب
وهذه الحجة احسن دلايله انه لو كان قوة الحس والحركة الارادية
ينفذ من القلب الى الدماغ لكنا اذا شددنا على العصبة
المحيط شدا قويا وجب ان تبقى الحس والحركة فى الجانب الذى
يلى القلب وان ربطنا من الجانب الذى يلى الراس لكن الامر
بالضد فعلمنا ان قوة الحس والحركة يجرى من الدماغ الى القلب
ولا يجرى من القلب الى الدماغ وهذه الحجة لا يحتاج فيها
الى المقدمات الكثيرة المذكورة فى الحجة الاولى والجواب
لم لا يجوز ان يقال الروح والقلب يكونان فى غاية الحرارة
فاذا كان بينه وبين الدماغ منفذ مفتوح وصل تبريد الدماغ
اليه فاعتدل واستعد لقبول قوة الحس والحركة فاما اذا اشتد

المنفذ انقطع عنه تبريد الدماغ فلا جرم لم يبق مستعد
القبول الحس والحركة فبطلت هذه القوة من الجانب الذى يلى
القلب وانما لم يبطل من الجانب الذى يلى الراس لان الشرايين
فى الدماغ كثيرة جدا وكلها مودية اليه قوة الحس والحركة
الحجة الثالثة لجالينوس قال الحكماء والاطباء اتفقوا على ان
الحامل لقوة الحس والحركة جسم لطيف نافذ فى الاعضاء و
هو الروح واذا كان كذلك فالدماغ لكونه مبدا لهذا الروح
اولى من القلب وذلك لانا نجد فى الدماغ مواضع خالية واما
القلب فليس كذلك واما التجويف الايمن فمملو دما انما الشبهة
فى التجويف الايسر فانه يعتقد فيه انه مملو من الروح قال جالينوس
وليس الامر كذلك لان القلب اذا كشف عنه وابرز من غيران يثقب
ويخرق اغشيته لم يمت الحيوان بسبب ذلك حتى انه يمكنك
ان تلبث مدة طويلة تلمسه بيدك وتنظر اليه بعينك وهو
مكشوف فتعين كيف تنبض وتعلم ان نبضه عند ذلك لما لم
يزل ينبض قبل ان يكشف عنه ولكن بشرط ان يقع هذا التشريح
فى موضع لا يكون هواؤه باردا تبرد القلب فانه لو برد صار النبض
حينئذ ضعيفا بطيئا متفاوتا واذا عرفت هذا فنقول اذا ثقبنا
التجويف الايسر فى هذه الحالة سال فى الحال دم ولو كان هذا
التجويف مملوا روحا لوجب ان لا يسيل منه دم البته ولو كان
هذا التجويف فى بعضه روح وفى بعضه دم لوجب ان يخرج
الروح اولا ثم يسيل الدم بعده فكان يجب ان لا يسيل الدم

فى الحال على هذا التقدير فلما سال الدم فى الحال علمنا ان التجويف
الايسر مملو من الدم وايضا الحيوان الذى مات نجد فى التجويف
الايسر من تجويفى قلبه علق الدم واما الدماغ فان جرمه مزرد
فلا يمتنع ان تحصل فى ذلك العضو اجزاء الروح والجواب ان هذه
الحجة فى غاية الضعف وذلك لان هذا الكلام ان صح فهو يقتضى
ان لا يكون فى القلب روح اصلا وجالينوس لا ينازع فى كون
القلب معدنا للارواح الحيوانية ونسلم ان الروح الحيوانية
يصعد من القلب الى الدماغ ويصير هناك روحا نفسانيا الحجة
الرابعة لجالينوس ان العقل اشرف القوى فيكون مكانه اشرف
واشرف الامكنة اعلاها فوجب ان يكون مكان العقل هو الدماغ
وهو بمنزلة الملك العظيم الذى يسكن القصر العالى وايضا الحواس
محيطة بالراس كانها خدم الدماغ واقفة حولها على مراتبها وايضا
محل الراس من البدن محل السماء من العالم وكما ان السماء منزل
الروحانيات فكذا الدماغ وجب ان يكون مسكنا للعقل والجواب
ان ما ذكرناه من البراهين لا يعارضه هذه الاقناعيات فهذا
اخر الكلام فى هذه المسئلة وقد كنت طالعت كتابا لبقراط
وافلاطون وهو كتاب طويل والمقصود منه هذه المسئلة
فتعبت فى انتخابه وضممت اليه اشياء كثيرة من المعقولات
ثم خفت من ان تضيع ذلك منى فكتبته فى هذا المكان لئلا تضيع
المسئلة الثانية فى شرح احوال القلب والذى يدل على شرف
القلب وجوه الحجة الاولى ان المقصود من خلق الانسان اشتغاله

بمعرفة الله تعالى وخدمته وذلك لانه تعالى قال وما
خلقت الجن والانس الا ليعبدون فبين ان المقصود من الخلق
هو العبادة ثم قال فى اية اخرى المقصود من العبادة هو المعرفة
فلقوله تعالى وما امروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين فظهر
ان لب اللب ومقصود المقصود انما هو معرفة الله تعالى
ثم انك قد عرفت ان محل هذه المعرفة هو القلب فحينئذ ظهر ان
المقصود من خلق العالم الاصغر هو القلب الحجة الثانية انه
ثبت فى الروايات ان اول ما خلق الله تعالى جوهرة ثم نظر اليها
بعين الهيبة فصارت ماء ثم سلط الحرارة عليها فارتفع زبد
وعلا دخان فخلق الارض من الزبد والسموات من الدخان
فنقول انه تعالى خلق تلك الجوهر شيئا واحدا وسله من العدم
الى الوجود فكل ما وجد من المخلوقات فهو سلالة المعدومات
ثم سل من ذلك المخلوق الارض لانه قال كانتا رتقا ففتقناهما
وهذا هو السلالة الثالثة ثم سل من الارض قبضة آدم عليه السلام
كما قال ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين وهذا هو السلالة
الرابعة ثم سل من جسد ادم قلبه فكان هذا هو السلالة الخامسة
ثم جعل القلب سرير المعرفة فظهر بذلك الحكمة المطلوبة فى خامس
السلالات لتعلم ان الشئ المعظم من جميع المخلوقات هو القلب
وعند هذا ظهر ان جسم الانسان منقسم الى قسمين الى
الهيكل الظاهر والى المضغة الباطنة وهى القلب الذى هو
سرير معرفة الله فالقلب تبع الهيكل الظاهر فى الصورة والهيكل

الظاهر تبع القلب فى المعنى ولما جعل الهيكل الظاهر تبعا للمضغة
الباطنة علم انك ما خلقت لاجل هذا الظاهر بل لاجل ان تطلب
من هذا الظاهر باطنا ومن هذا الشاهد غايبا ومن هذا المحسوس
معقولا فظهر مما قلنا ان المقصود الاصلى هو القلب وحصنه هو
كل البدن وحصن البدن كل الارض وحصن الارض هو كل
السموات وحصن السموات عالم الممكنات والكل مسخرة فى
قبضة قدرته ونفاذ الهيه واذا عرفت هذا فنقول القلب له
فى القران اسمان احدهما القلب والثانى الفواد قال تعالى
كتب فى قلوبهم الايمان وقال لهم قلوب لا يفقهون بها وقال
ان السمع والبصر والفواد وقال نار الله الموقدة التى تطلع على الافئدة
ثم نقول يحتمل ان يكون الفواد اسما لجميع هذه المضغة والقلب
يكون اسما لجزء مخصوص منه لنسبته الى كل هذه المضغة كنسبة العين
الى الهيكل الظاهر ويكون اسما للشئ الذى نسبته الى هذه المضغة
كنسبة النقطة الظاهرة الى العين وتلك النقطة هى المسماة
سويداء القلب وهذه السويداء بالنسبة الى العين الباطنة
كسواد العين بالنسبة الى العين الظاهرة والسبب فى ان الابصار
الظاهر تحصل بالسواد والبصيرة الباطنة تحصل بالسويداء
وجهان الاول وهو ان الابصار يجرى مجرى النور والسواد جنس
الظلمة فالسواد والابصار كالمتضادين واظهار احد الضدين
من الاخر ادل على القدرة والحكمة الثانى ان يكون الانتهاء
على وفق الابتداء فكما ان فى الابتداء ظهر نور الوجود من ظلمات

العدم بايجاد الحق سبحانه فكذلك فى الانتهاء ظهر نور البصر
والبصيرة من ظلمات سواد العين وسويداء القلب ليكون المبدأ
والغاية دالتين بقراين الاحوال وشواهد المقال على تحقيق
قوله تعالى فالق الاصباح وعند هذا ظهر ترتيب عجيب للظاهر
والباطن اما الظاهر فالاول الهيكل الظاهر ثم العين ثم النقطة
الناظرة ثم النور الباصر الموجود فى النقطة الناظرة واما
الباطن فالفواد هو اسم لتمام هذه المضغة ثم القلب ثم النقطة
الناظرة وهى سويداء القلب ثم نور البصيرة واذا عرفت هذا
فنقول ان الابصار فى عالم الظاهر يتوقف على شرايط وتلك
الشرايط معتبرة بعينها فى ادراك البصيرة الشرط الاول
للابصار ان لا يكون المبصر فى غاية الجلاء ولا فى غاية الخفاء
اما الذى فى غاية الجلاء فكالشمس الذى تحير العين فيها ولا
يقدر على ابصارها بالتمام والكمال واما الذى فى غاية
الخفاء فكالذرة فكذا للعقل مدركات هى فى غاية الجلاء
والعظمة ومدركات هى فى غاية الخفاء والصغر واما الاشياء
التى هى فى غاية الجلاء والعظمة والاشراق فهو جلال الله تعالى
وكبرياؤه وعظمته ويليه عظمة الارواح العالية المقدسة
فنور سويداء القلب محترق فى هذه الحضرة فلا يصل اليها واليه
الاشارة بقول من قال سبحان من احتجب عن العقول لشدة ظهوره
واختفى عنها بكمال نوره واما الذى فى غاية الخفاء فكيفا صيل
الاحوال وحدثان المحدثات اما تفاصيل الاحوال فكقوله

وينشئكم فيما لا تعلمون فان النطفة من حين ما يقع فى الرحم
الى ان ينفصل الجنين لها فى كل حالة ولمحة حالة وفى كل لحظة
صفة الا ان لتفاوت بين كل لحظتين مما لا يصل اليه
عقول البشر واما حدثان المحدثات فهو انه تعالى لما ذكر
من الحيوانات الانعام فقال والانعام خلقها الاية ثم قال
والخيل والبغال الاية والمعنى انه لا يمكنكم ان يحيطوا علما
بتفاصيل احوال جميع الحيوانات لكثرتها واختلاف احوالها
وبالجملة فالعقول قاصرة عن معرفة الاوائل والاواخر ونظيره
ان العقول متحيرة فى مبدا الخلق والايجاد ومنتهى الاعدام
والافناء بل العقول لا سبيل لها الى معرفة الازل والابد فان
الانسان كلما استحضره فى ذهنه يكون متوسطا بين الازل
وبين الابد ولو انه بقى الى قيام القيامة يتقدم الى ما قبل
ويتاخر الى ما بعد لم ير نفسه الا فى المتوسط بين الازل
والابد ونرى حقيقة الازل والابد منزهة عن لواحق الانظار
فى علايق الافكار وتمام هذا الكلام سياتى فى باب الصفات
فى تفسير القدم والبقاء وشرح كونه اولا واخرا الشرط
الثانى ان المبصر اذا كان حاضرا فما لم يحرك الانسان حدقته
من جانب الى جانب تحريكات كثيرة فانه لا يرى المبصر فكذا
الفواد ما لم يحرك عينه من معقول الى معقول لا يتمكن من
ابصار المطلوب وتلك التحريكات هى المسماة بالفكر والروية
والنظر وكما ان نظر العين عبارة عن تقليب الحدقة من جهة

الى جهة طلبا لروية المرئ فكذلك نظر القلب عبارة عن تقليب
حدقة القلب من جانب الى جانب طلبا لادراك المعقول والشرط
الثالث ان القوة الباصرة لا يمكنها ادراك المبصرات الا عند
صيرورة الهواء مضيئا بسبب طلوع الاشياء النيرة فكذا
العقل لا يقدر على الابصار الا عند طلوع الاشياء النيرة
ثم نيرات العالم الجسمانى اربعة الشمس والقمر والكواكب
والنار واعظمها الشمس ثم القمر ثم الكواكب ثم النار فكذا
نيرات العالم الروحانى اربعة اولها نور جلال الله تعالى
كما قال واشرقت الارض بنور ربها وهى بمنزلة الشمس وكما لا
يستطيع ابصار الخفافيش مطالعة قرص الشمس فكذا لا يستطيع
ابصار الارواح البشرية مطالعة نور الجلال وهذه المرتبة
بمنزلة الشمس المرتبة الثانية انوار الارواح العلوية الروحانية
والكروبية كما قال ينزل الملائكة بالروح من امره على من يشاء
من عباده وقال نزل به الروح الامين على قلبك واكابر
الانبياء والصديقين هم الذين تطيقون مطالعة هذه
الانوار وقال فى النجم وانه هو رب الشعرى وقال فى واقعة
الخليل فلما جن عليه الليل راى كوكبا وهذه المرتبة بمنزلة
القمر فكما ان القمر تارة يكون بدرا يضئ العالم اضاءة كاملة
وتارة يكون هلالا دقيقا يظهر قليلا ثم يختفى فكذا الارواح
العلوية قد يكون عظيمة الاضاءة والانارة كقوله ومن عنده
لا يستكبرون عن عبادته الاية وقوله ويستغفرون للذين

امنوا وتارة تكون كالهلال الضعيف وهو قوله وكم من ملك
فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا المرتبة الثالثة انوار
الارواح السفلية وهم الصديقون الملازمون لعتبة
جلال الله المعتكفون فى حظاير قدس الله استنارت ارواحهم
فانارو ارواح غيرهم وهذه المرتبة بمنزلة الكواكب وكما ان
الكواكب قد يكون فى العظم الاول درية متلالية كما قال
كانها كوكب درى توقد الاية وقد يكون ضعيفة جدا كالسهى
وامثاله فكذا الارواح السفلية منها ما يكون قوية ومراتبها
اربعة اولها الذين يكونون فى العظم الاول وهو روح الخليل
والكليم والروح الحبيب فان ارواح الخلق يهتدى بانوار هذه
الارواح السفلية لانها ارواح قدسة قريبة الدرجة من
الارواح العلوية ولهذا قال الله تعالى يا ايها الناس قد جاءكم
برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا وقال قد جاءكم
من الله نور وكما ان الفايدة فى الكواكب هى قوله وعلامات
وبالنجم هم يهتدون فكذا دعوة الانبياء اعلام نورانية
يهتدى بها فى ظلمات بر السموات وبحر الضلالات والشبهات
قال تعالى وانك لتهدى الى صراط مستقيم صراط الله الاية
وثانيها الذين يكونون فى العظم الثانى وهى ارواح اولى العزم
كما قال فاصبر كما صبر اولوا العزم من الرسل وثالثها ارواح
المرسلين وهم ثلثماية وثلثة عشر وهولاء هم الذين يكونون
فى العظم الثالث من الكواكب ورابعها ارواح جملة الانبياء

وهم

وهم كما يقال ماية الف واربعة وعشرون الفا وهولاء هم
الذين يكونون فى مرتبة العظم الرابع من الكواكب ثم بعد
هذا مراتب المومنين وهم ثلثة السابقون والمقتصدون
والظالمون كما قال فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم
سابق بالخيرات باذن الله فالسابقون هم الاولياء كما قال
الا ان اولياء الله لا خوف عليهم الاية والمقتصدون هم
العلماء قال لعلمه الذين يستنبطونه منهم والظالمون هم العوام
ولكل واحد من هذه الارواح اثر ونور فاذا اتصلت صارت
كالمرايا المتحاذية المتقابلة فينعكس نوار بعضها الى البعض
فيصير كل واحد منها مكملة للاخر من وجه ومستكملة من وجه
ولهذا السبب كان اجدمقامات لصديقين الحب لله المرتبة
الرابعة من نيرات العالم الروحانى العقل ومرتبته مرتبة النار
فى عالم الجسمانيات واعلم ان نور العقل له عيوب كثيرة فالاول
ان نور النار ممزوج بدخان كثير السواد يسود الثوب ويجفف
الدماغ فكذا نور العقل ممزوج بدخان الشبهات وذلك الدخان
تارة يسود ثوب العبودية بلطخة التشبيه والتعطيل واخرى
يجفف دماغ البشرية فلقى صاحبه فى وهم الحلول والاتحاد
والثانى نور السراج فيه اشراق واحراق فكذا نور العقل فيه
اشراق وفيه احراق اما اشراقه فهو التفكر فى غير الله ليستدل
به على جلال عظمة الله واما الاحراق فهو التفكر فى جلال الله
فلهذا السبب قال عليه السلام تفكروا فى الخلق ولا تتفكروا

فی الخالق الثالث ان نور السراج ینطفی بادنی ریح فکذا نور سراج
العقل ینطفی بادنی شبهة فلهذا السبب قال تعالی لمحمد علیه السلام
ولولا ان ثبتناك لقد كدت تركن الیهم شیئا قلیلا وقال
الخلیل ربنا واجعلنا مسلمین لك وقال یوسف توفنی مسلما
والحقنی بالصالحین وقال سلیمان وادخلنی برحمتك فی عبادك
الصالحین وقال الكلیم رب اشرح لی صدری وقال عیسی
ربنا انزل علینا مائدة من السماء وهی مائدة الهدایة والمعرفة
الرابع ان السراج انما یضیء اذا وضع فی بیت صغیر فاما اذا وضع
فی الصحراء الواسعة فانه یقل ضوءه فكذا سراج العقل انما یظهر
نوره اذا وضع فی بیت البدن قال تعالی وفی انفسكم افلا تبصرون
فان هذا البدن بیت صغیر مختصر الا تری ان سراج العقل لما وضع
فی میدان الارواح انطفی ولم یظهر له لمعان وشروق كما قال
ویسئلونك عن الروح الآیة فاذا كان حاله فی میدان الارواح
كذلك فاعرف ما یكون حاله فی صحراء جلال الانوار الصمدیة
وفضاء اسرار كمال الالهیة التی تقدست عن ان یكون لها بدایة
ونهایة او مقطع وغایة الخامس ظهور نور السراج مشروط
بان یكون بینه وبین قرص الشمس حایل اما اذا وقع فی مقابلة
قرص الشمس انطفی فكذلك العقل انما یضیء فیما وراء حجب
الغیب وعالم انوار الصمدیة فاما اذا ازیل الحجاب وتجلب
الانوار انطفی نور العقل ولهذا قال لموسی اخلع نعلیك
انك بالواد المقدس طوی الآیة فقوله اخلع نعلیك اشارة

الی تجلی لمعان انوار العظمة والكبریاء السادس نور السراج
وان طال بقاؤه لكنه بالاخر ینطفی وان استمر لكنه تطلع الشمس
فیبطل ضوءه لا محالة فكذا نور سراج العقل اما ان ینطفی لطیران
الغفلات والشهوات او ان تبقی الی اخر الامر لكنه اذا انقضی
لیل الحیوة الدنیاویة وتجلی نهار عالم الاخرة وانكشفت
السرایر وتجلت الضمایر لم یبق لسراج العقل نور ولا قوة البتة
فهذا هو شرح نیرات العالم الروحانیات الشرط الرابع
لابصار القلب انه كما ان انتفاع البصر بنیرات عالم الجسمانیات
یتوقف علی امور فكذلك انتفاع البصیرة بنیرات عالم
الروحانیات یتوقف علی مثل ذلك الامور وبیانه ان
ابصار الاشیاء ورؤیتها یختلف بالكمال والنقصان فتارة
یری الانسان شیئا رؤیة تامة وتارة یراه رؤیة ناقصة
وسبب هذا التفاوت اما ان یكون عایدا الی ذات قوة الباصرة
او الی امور خارجة عنها فكذا ادراكات البصیرة قد یختلف
بالكمال والنقصان وذلك التفاوت قد یكون بسبب عاید
الی ذات البصیرة وقد یكون بسبب امور خارجة عنها اما
العاید الی ذات البصیرة فهی علی وجهین الاول اختلاف
جواهر الارواح قال الله تعالی ان الله اصطفی ادم ونوحا
الآیة وهذا یدل علی ان الارواح هذه السبعة من معشر
البشر وجنس الانس مخصوص بمزید القوة والجلالة والرفعة
فتارة یظهر اثار تلك القوة بالنبوة وتارة بالخلافة وقال

وصفة عيسى فنفخنا فيه روحنا وقال في صفة محمد عليه السلام
علمه شديد القوى ثم ترقى من تعليم الملك الى تعليم الملك
فقال الرحمن علم القران ثم انتقل من خطاب الغيبة
الى خطاب الحضور فقال وعلمك ما لم تكن تعلم وقال تعالى
في حق جميع الانبيا على العموم الله اعلم حيث يجعل رسالاته
وقال عليه السلام الارواح جنود مجندة وقال عليه السلام
الايمة من قريش وهو اشارة الى اختصاص هذه الشعبة
بمزيد قوة نفسانية روحانية فلما لم يظهر اثر تلك القوة
بالنبوة بعد محمد عليه السلام فلا بد من ظهور اثرها بقوة الخلافة
والرياسة وكل ذلك يدل على اختلاف الارواح في ماهياتها
فمنها ما يكون في غاية الجلالة والقوة ومنها ما يكون في غاية
النذالة والدناة ومثاله في عالم الجسمانيات الابصار فمنها
ما يكون في غاية القوة كزرقا اليمامة ومنها ما يكون في غاية
الضعف وهو الاستعداد الذاتي لا سبيل البتة الى تبديله
والثاني اختلاف جواهر الارواح بسبب صفات عرضية وهي
التي يقبل العلاج ومثاله في الجسمانيات انه قد يكون بصر اضعف
من بصر لا لاجل الخلقة الاصلية بل بسبب رمد عرض له فاورث
ضعفه او بسبب انه استعمل كحلا قويا فافاده ذلك الكحل في تلك
الساعة زيادة قوة فكذا الارواح ربما يعرض لها عارض فيحصل
فيه نوع من الكلال بسبب ذلك العارض واليه الاشارة
بقوله انه ليغان على قلبي حتى استغفر الله في اليوم سبعين مرة

وهذا

وهذا النوع من التفاوت قد يطرء ويزول واما التفاوت الحاصلة
بسبب الامور الخارجية فهو انواع السبب الاول الاشتغال بغير الله
ومثاله في عالم المحسوسات ان من شغل حدقته بالنظر الى شيء يكون
نظر اليه ما نعا له من ابصار غيره ثم كلما كان التحديق الى الاول
اشد واكمل كان الحرمان عن ابصار الثاني اشد واكمل فكذا عالم
الروحانيات على هذا القياس كلما كان اشتغال القلب بغير الله اشد
واكمل كان حرمانه عن الاطلاع على انوار جلال الله اشد واكمل
ولهذا المعنى حكم تعالى بوقوع المنافاة بين الامرين فقال كلا
بل تحبون العاجلة وتذرون الاخرة وقال وتحبون المال حبا
جما وقال وانه لحب الخير لشديد وقال زين للناس حب الشهوات
وقال عليه السلام حب الدنيا راس كل خطيئة ثم انا اذا
انصفنا علمنا انا كالمعذورين في حب الدنيا وكيف لا نحبها
وانا خلقنا منها وانما ارتضعنا من شرابها وطعامها وتربينا
على ظهرها وانما الفنا مع نعيمها وشاهدنا احوالها ولو اتفق
لبعض الخلق على سبيل الندرة اطلاع على شيء من الروحانيات
فذلك انما يكون بعد استحكام ذلك الالف بالدنيا فمع هذه
الاسباب القوية كيف ينفك بر قلب الانسان عن محبة الدنيا
اليس انه عليه السلام قال جبلت القلوب على حب من احسن اليها
وبغض من اساء اليها فانظر الى الدنيا كيف تنعمنا بشرابها
وطعامها وانهارها واشجارها ولذاتها وطيباتها واذا
كان كذلك فلا محالة تكون مجبولون على حبها واذا عرفت هذا

فنقول كل من احب شيئا نظر اليه بكل عينيه ومن نظر الى شئ بكل
عينيه لم ير غيره وايضا اذا كنت محبا لشئ عميت عن روية معايبه
وصرت مشتغلا بروية محاسنه وفضايله وايضا استحكمت
تلك المحبة امتلا القلب منها والظرف اذا امتلاء من شئ لم يتسع
لغيره فهذه قلوب لا تدخل فيها محبة الله واليه الاشارة بقوله
كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وقال صم بكم عمى الاية
وذلك لانه كانت قلوبهم مملوة من حب الدنيا فما كانوا ينتفعون
بما يرون ويسمعون ويتكلمون ثم ان هذه المحبة كلما كان
دوامها اكثر كان استحكامها اشد وهو مرض القلب كما قال
في قلوبهم مرض والمرض ما لم يكن مستحكما فانه يرجى علاجه فاذا
استحكم وصار بحيث لا يقبل العلاج قرب من الموت واليه الاشارة
بقوله انك لا تهدى من احببت وبقوله ان الذين كفروا سواء
عليهم اانذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون وعند هذا يظهر
ان الكل منه وان الخير والشر بقضائه وقدره وههنا سؤالات
السؤال الاول اذا استحكم مرض الجسم بحيث لا يرجى علاجه
سقط الخطاب فاذا استحكم مرض القلب فلم لا يسقط الخطاب
الجواب عدم سقوط الخطاب في هذه الحالة حتى يعلم الانسان قبل
انتهائه الى هذه الحالة انه لو لم يشتغل بالعلاج قبل الانتهاء الى هذه
الحالة ثم ان المرتبة لما لم تكن محدودة وكان هذا القول حاصلا
عند الاقدام على كل ما كان ذنبا فكانت اليق به حاصلة عن جميع
الذنوب السؤال الثاني انكم ذكرتم انا مجبولون على حب الدنيا

وذكرتم ان حب الدنيا يورث الاعراض عن الاخرة فكيف
يجتمع هذا مع قوله لا يكلف الله نفسا الا وسعها والجواب
يظهر منه ان العبد لا قدرة له على الوفاء بهذه الطاعة
الا بفضل المولى واعانته والايمان بجذبه من التوغل في
حب الدنيا الى حب المولى فلهذا السبب امر الله تعالى ان
يقول كل يوم اياك نعبد واياك نستعين وجاء في الاخبار
المتواترة بفضل قول لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم
السؤال الثالث اليس ان الدنيا ام حاضنة فما السبب في ان
واجب الوجود سبحانه اوجب بغضها والجواب ان حبها
مانع عن حب الله تعالى وهذا كما انه فرض بغض الابوين
الكافرين وعصيانهما عند دعوتهما الى الكفر قال وان
جاهداك على ان تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما
السؤال الرابع ما علامة رجحان حب المولى على حب الدنيا
الجواب ترجيح المحبة على المحبة انما يظهر باحد امرين احدهما
قلة الحزن عند الفراق والثاني قلة السرور عند الوجدان
واعلم ان قلبا لم يترجح فيه حب الله على حب الدنيا فلا ايمان له
واذا حصل الرجحان فلا يطيب الايمان الا عند زوال المعارض
من كل وجه وعلامة ذلك ان لا تخطر الدنيا بباله الا
عند الحاجة اليها كانها شربة ماء او مدرة استنجاء السبب
الثاني لحصول التفاوت في هذه الانوار الروحانية طيب
الغذاء وخبثه قال تعالى يا ايها الرسل كلوا من الطيبات

واعملوا صالحا وقال ويحرم عليهم الخبايث والسبب فيه ان
الغذاء يصير جزا من البدن ومن القلب ولا شك ان الذي
يصير جزا من الشئ يختلف حال ذلك الشئ باختلاف حال هذا الذي
يصير جزاء له فالبيت ان طينته بالطين الكدر جا كدرا وان
طينته بالجص الابيض جاء صافيا نورانيا واذا اختلف حال
البدن باختلاف احوال الاغذية لاجرم يختلف احوال تلك
الانوار بسبب اختلاف حال البدن الا ترى ان الماء الصافي
يتلون لونه بلون الظرف والقارودة فثبت ان طيب الغذاء
وخبثه سبب لاختلاف احوال الانوار الروحانية السبب
الثالث الامكنة والازمنة اما الامكنة فكقوله تعالى
ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وقال الى المسجد
الاقصى الذي باركنا حوله واما الازمنة فقال في ايام
نحسات وهذا يدل على انه اذا كان ايام رحمة كانت متصفة
بالسعود ومن كلام اهل التصوف الوقت سيف قاطع لارباب
القلوب في هذه الكلمة كلمات والذي اليه يميل قلبي ان الله
تعالى في كل وقت يجاد محدث فصار ذلك الوقت مربوطا بذلك
الحادث برابط المشية الازلية الذي لا يمكن دفعه وابطاله
فاذا جاء ذلك الوقت جا معه ذلك الحادث فكما ان السيف
قاطع فالوقت بما قضاه الحق وقدره غالب فاذا كان الوقت
الذي فيه يفتح الله رحمته متاخرا فلا ينفع الجد والجهد في الزمان
المتقدم وسمعت بعض المشايخ قال بعث الشيخ ابو سعيد بن ابي الخير رحمه الله

واحدا الى النهر ليجيئه بماء يتوضا به فكان يبطي في الرجوع فقال
الشيخ ابو سعيد ذلك الماء الذي يمكننا ان يتوضا به بعد ما لم يخرج
من النهر السبب الرابع وهو الاقوى الجذبة الالهية العلوية
ولا يتم جميع الاسباب الا بهذا المعنى قال تعالى الله يجتبي اليه
من يشاء ويهدي اليه من ينيب وقال والذين جاهدوا فينا
لنهدينهم سبلنا وقال افمن شرح الله صدره للاسلام فهذه
الاحوال اشارة الى مبدا هذه الدرجة واما وسطها فهو قوله
ففروا الى الله ونهايتها قوله قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون
وايضا الى اوله الاشارة بقوله ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به
والى وسطه الاشارة بقوله واعف عنا والى آخره الاشارة
بقوله انت مولينا ثم اذا وصل القلب الى هذه الحالة صار القلب
في عالم القلوب كالشمس في عالم الافلاك فعند هذا يبقى مسخرا في
انوار عالم الجلال كما ان الشمس والقمر والنجوم مسخرات بامره
ثم صارت هذه الروح ينبوعا لفيض الانوار على اسرار الارواح
كما قال واما ان كان من اصحاب اليمين وبعد هذا درجات لا يصل
اليه الحال ولا يعبر عنها المقال ومن اراد فليكن من الواصلين الى العين
لا من السامعين للاثر الشرط للاتصال علم ان الجنين حين ما يكون
في رحم الام في اول ما يخلق الله عينيه يكون الجفنان منه ملتصقين
ثم بعد زمان يفصل الله احد الجفنين عن الاخر الا ان الجفنين
يكونان مطبقين فاذا انفصل عن بطن الام يفتح العين في بعض
الاوقات الا انه في اكثر الاوقات يغمضها ويكون نايما وعند فتح

العين يكون جاهلا بامه والام مع ذلك تراعي مصالحه
وتعذره لعلمها بانه ما جاء او ان قدرته على التميز بين المحسن
والمسئ ثم لا يزال الطفل ينظر اليها الى ان يميز بين الام وغيرها
ثم اذا واظب على النظر الف النظر والابصار حتى يصير بحيث
لا يمكنه ان لا ينظر الى شئ واذا عرفت هذه المراتب في العين
الظاهرة فاعرف مثلها في العين الباطنة ففي اول الامر يكون
عين القلب مطبقا ثم ينفتح ولكنه لا يقدر على التميز بين الخير
والشر ثم لا يزال ينظر بعين عقله بحيث يصير يدرك الفرق
بين المحسن وبين المسئ فيعرف ان المحسن هو الحق وان ما سواه
فهو سبب للضرر ثم اذا واظب على هذا النظر صار بحيث
لا يمكنه ان يصير عن نظر العقل وكما ان الام تعذر الطفل
في اول عمره عن التميز بينها وبين غيرها فكذا الحق ههنا يعذر
الانسان في اول عمره في ان لا يعرف ربه وذلك سن ما قبل
البلوغ ثم اذا واظب على النظر في افعال الله وآثار حكمته
في مخلوقاته حصل له عشق ومحبة مع هذا النظر فلا يرى شيئا
بعقله الا وينتقل منه الى مبدايه وغايته اما المبدا فهو قدرة
الحق واما الغاية فهو حكمة الحق فيصير بحيث لا يرى شيئا الا ويرى
الله بعده وحينئذ يسير كما يسير القمر لمقابلة الشمس والقلب
في هذا المقام قد استلذ النظر والفه فلا جرم ابدا يقلب الفواد
والقلب حدقته من منظور الى منظور وقد كان للقلب عين واحدة
فاما الان فقد صار كل ذرة من ذرات المبدعات والكائنات

عينا للقلب وذلك لان العالم كله يصير مرآة للقلب ومرآة
العين بمنزلته يصير زايدا فانه يرى بها كل ما لا يرى بدونها
فعند ذلك تصير كل ذرة من ذرات الممكنات عينا له والعين ينبوع
النور فيصير كل العالم ينبوع النور في حقه واذا اتصلت انوار
العالم به صار كله بصرا قال تعالى في صفة هؤلا يسعى نورهم
بين ايديهم وبايمانهم وفي الحديث ان اهل الجنة ليرون اهل
عليين كما ترون الكوكب الدري في السموات وان ابا بكر وعمر
منهم وانعما

الفصل الرابع

في الاستدلال باحوال
الحيوانات على وجود الصانع الحكيم وفيه فصول الفصل الاول
في الاستدلال الكلي على وجود الصانع باحوال الحيوانات وقبل
الخوض في المقصود لا بد من الاشارة الى تقسيم الحيوانات فنقول
اعلم ان الحيوانات التي تطير في الهواء قسمان احدهما الطيور والثاني
الحشرات والفرق بين القسمين ان كل حيوان صغير الجثه ليس له عظم
وريش فهو من الطيور واذا عرفت هذا فنقول اقسام الحيوانات
خمسة قسمان منها من حيوانات الهواء والقسم الثالث من حيوانات
الماء والقسم الرابع حيوانات وجه الارض كالبهايم والسباع
والقسم الخامس حيوانات تحت الارض وهي الحشرات كالحية
والخنافس والديدان واشباهها واعلم ان حيوانات الماء اعظم
الحيوانات وهي ايضا اصغرها والمراد انه يوجد في حيوانات الماء
ما يكون في العظم فوق جميع الحيوانات ويوجد فيه ايضا ما يكون
اصغر من جميع الحيوانات واما حيوانات وجه الارض فهي دون حيوانات

الماء فی العظم و بعد حیوانات وجه الارض حیوانات الهواء
فانها اصغر جثة من حیوانات وجه الارض واخر المراتب فی الصغر
الحیوانات المتولدة فی داخل الارض فهذا ضبط هذه الاقسام
ثم اعلم انه تعالی استدل بخلقه الحیوانات علی وجود الصانع
الحکیم تارة مجملا وتارة مفصلا اما المفصل فسیاتی شرحه فی
الفصول الاتیة واما المجمل فقال فی سورة البقرة والهکم اله
واحد لا اله الا هو الرحمن الرحیم ثم ذکره عقیب ما یدل علی وجود
الصانع الحکیم ثمانیة انواع من الدلایل فقال ان فی خلق السموات
والارض وهما دلیلان ثم قال واختلاف اللیل والنهار وهو
الدلیل الثالث والرابع ثم قال وما انزل الله من السماء من ماء
فاحیا به الارض بعد موتها وهو الدلیل الخامس ثم قال وبث
فیها من کل دابة وهو الدلیل السادس ثم قال وتصریف الریاح
وهو الدلیل السابع ثم قال والسحاب المسخر بین السماء والارض
وهو الدلیل الثامن ثم لما ذکر هذه الدلایل الثمانیة فدم المتفکرین
والمتاملین فیها فقال لایات لقوم یعقلون والمقصود انه
سبحانه احتج بخلقه الحیوانات المختلفة علی وجود الصانع
الحکیم وهو قوله وبث فیها من کل دابة ولما کان الامر کذلک
وجب علینا ان نبحث وجوه دلالة هذا الدلیل فنقول الاختلاف
فی ابدان الحیوانات وفی صفاتها ظاهر ونحن نشیر الی بعضها
ثم نستدل بها علی وجود الصانع الحکیم واعلم ان الاختلاف بین
الحیوانات حاصل من وجوه ولا یحیط بها علم البشر الا انا نشیر

الی بعض تلک الوجوه فالاول الاختلاف الحاصل فی صورها
واشکالها فاحدها الاختلاف الحاصل فی الجلدة الظاهرة
وذلک لان بعضها کالسلحفاة یحیط به صدف وبعضها کالسمک
علی جلده فلوس وبعضها علی جلده شوک کالقنفذ وبعضها
یکون عاریا عن کل ذلک کالانسان وثانیها الاختلاف فی
الالوان والاشکال فمنه ما یکون متلونا بلون واحد وهو
الانسان ومنه ما یکون متلونا بلونین کالفرس الابلق ومنه
ما یکون متلونا بالوان کثیرة عجیبة حسنة کالطاوس وثالثها
الاختلاف فی الاصوات فمنه ما هو مصوت ومنه ما لا صوت له
والمصوت ما هو طیب الصوت کالعندلیب ومنه ما هو
قبیح الصوت کالحمار قال سبحانه ان انکر الاصوات لصوت الحمیر
ورابعها قد یکون صغیر الجثة عظیم العین کالبوم وقد یکون
کبیر الجثة صغیر العین کالعقاب وخامسها ما یمشی علی بطنه
کالحیة ومنها ما له رجل اما رجلان کالطیر والادمی واما
کالبهایم والسباع واما ارجل کثیرة ستة او ثمانیة وکل طیر
ذو جناح فانه یمشی علی رجلیه ومن جملة ذلک ما یکون المشی
علیه صعبا کالخطاف الاسود الکبیر والخفاش وسادسها
ثدی الفیل والانسان یکون عند الصدر وثدی البقر والغنم
عند السرة وسابعها اذن الفیل صالح للذب مع کونه اله للسمع
وانفه صالح للقبض مع کونه الة للشم فهذه اختلافات
الحیوانات فی الخلقة الظاهرة النوع الثانی اختلاف احوالها

فی المسکن والماوی فمنها مایية ومنها ارضية ومنها ما یکون
مائیا وارضیا معا اما الحیوانات المائیه فمنها ما یکون غذاؤه
مائیا وله بدن النفس المسمى بنشق ما من فهو یقبل الماء الی باطنه
ثم یرده ولا یعیش اذا فارقه والسمك کله کذلك ومنه ما مکانه
وغذاؤه مای ولکن یتنفس من الهواء کالسلحفاة المائیة ومنه
ما مکانه وغذاؤه مائی ولا یتنفس ولا یستنشق مثل اصناف
من الصدف لا یظهر البته للهواء ولا یستدخل الماء الی باطنها
وایضا الحیوانات المائیة بعضها ماواها الانهار الجاریة وبعضها
میاه البطایح مثل الصفادع وبعضها ماواها میاه البحار
وایضا الحیوانات المنتقل فی الماء منه ما یعتمد فی السباحة
علی رجله کالضفدع ومنه ما یمشی فی قعر الماء کالسرطان
ومنه ما یزحف مثل ضروب السمك وکالدودة واما الحیوانات
البریة فمنها ما یتنفس من طریق واحد کالخیشوم ومنها ما لا یتنفس
لا علی وجه بل من مسامه مثل الزنبور والنحل وایضا الحیوانات
الارضیة منها ما له ماوی معلوم ومنها ما ماواه کیف اتفق
الا ان یلد فیقیم للحضانة واللواتی لها ماوی معلوم فبعضها یتعایش
معا کالکراکی وبعضها یختار التفرد کالعقاب وجمیع الجوارح الذی
ینازع علی الماکول یتفرد لاجل احتیاجها الی الاحتیال فی الصید
ومنافستها فیه ومنها ما یکون ما یتعایش زوجا ویکون معا
کالقطا ومنها ما یجتمع تارة ینفر اخری والحیوانات المتفردة قد
تکون مائیة وقد تکون بریة صرفة وقد تکون بستانیة ولا انسان

من

من بین الحیوان هو الذی لا یمکنه ان یعیش وحده فان اسباب
حیوته لا یتم الا بالمشارکة المدینة والنحل والنمل وبعض الغرانیق
یشارك الانسان فی ذلك لکن النحل والکراکی یطبع رئیسا
واحدا والنمل له اجماع لکن لا رئیس له واما الحیوانات التی
تکون تارة مائیة واخری تکون ارضیة فیقول انه حیوان یکون
فی البحر ویعیش فیه ثم انه یبرز الی البر ویبقی فیه النوع الثالث
اختلاف احوالها بحسب الاختلاف فاعلم ان الحیوان ما هو
انسی بالطبع کالانسان ومنه ما هو انسی بالمولد کالهرة والفرس
ومنه ما هو انسی بالقهر کالفهد ومنه ما لا یانس کالنمر والذی
یستانس بالقهر منه ما یحصل استیناسه سریعا ثم یبقی مستانسا
کالفیل ومنه ما یکون ذلك بطیئا کالاسد ویشبه ان یکون من کل
من کل نوع صنف انسی وصنف وحشی وایضا بعضها یکون
ساکن الطبع قلیل الغضب کالبقر وبعضها ردیء الحرکات کالحیة
ومنها مکار ردیء الحرکات کالثعلب ومنها غضوب شدید الغضب
سفیه الا انه متودد کالکلب وبعضها شدید الذکاء کالفیل والقرد
والفرس وبعضها حسود مباه بجماله کالطاوس وبعضها بلید الحفظ
کالجمل والحمار وایضا احوالها فی التناسل مختلفة فبعضها تلد
لنتاه حیوانا وبعضها تضع انثاه بیضا وبعضها تلد انثاه
دودا کالنحل والعنکبوت ثم تلك الدود یستکمل اعضاوها بعد
ذلك ویقال انه اذا ظهرت السخونة وقت الربیع طلب الجراد ارضا
طیبة الترية رخوة الجسم وطرحت فی تلك الارض بیضها وطارت

بعد ذلك وعاشت اياما وماتت واكلتها الطيور فاذا دار
الحول وجاء الربيع مرة اخرى فطاب الهواء خرجت من تلك البيض
المدفونة في تلك الارض امثال الديدان الصغار ودبت على وجه
الارض واكلت العشب والكلاء وخرجت لها اجنحة وطارت
واكلت من ورق الشجر وسمنت ثم باضت كما في العام الاول
وهذه عادتها بتقدير العزيز العليم واما دود القز التي يكون على
رؤس الاشجار في الجبال فانها اذا شبعت من الرعي في ايام الربيع
وسمنت اخذت تنسج على نفسها من لعابها شبيه العش والكن ثم
ينام فيها اياما معلومة فاذا اشتدت طرحت البيض فيها في
داخل ذلك الكن الذي نسجت على نفسها ثم تنقب ويخرج منها
وسدت ذلك النقب ثم يخرج لها اجنحة فيطير فياكلها الطيور
واما يموت من الحر والبرد والثلج والمطر وبقي ذلك البيض في تلك
الاكنان محرزة ايام الصيف والخريف والشتاء الى ان يحول الحول
ويجئ ايام الربيع فيصير من ذلك الوقت البيض ديدانا صغارا ويخرج
من تلك النقب ويدب على ورق الاشجار اياما معلومة فاذا قويت
اخذت تنسج على نفسها من لعابها كما في العام الاول وهذا دابها
وعادتها بتقدير الحكيم العليم فسبحان من هدى كل واحد من هذه
الحيوانات الى هذه الاعمال واعلم ان الاستدلال باحوال هذه
الحيوانات مختلفة الصور متفقة بعضها كثيرة الالات
والادوات وبعضها قليلة الالات فكما اعطى الفيل الجثة
العظيمة والبنية القوية الشديدة حتى تدفع عن نفسه المكارة

فكذلك اعطى البقة على صغر جثتها جناحين لطيفين حتى قدرت
بهما على سرعة الطيران وبتناول الغذاء بخرطومها فصار
الصغير والكبير في هبة الواهب متساوية وفي جذب المنافع
والاحتراز عن المضار متشاكلة بل ههنا لطيفة عجيبة
وهي انك ترى ما كان منها اصغر جثة واقل حيلة كان اكثر راحة
واطيب نفسا واقل اضطرابا في جذب المنافع والاحتراز
عن المضار مما هو اعظم جثة واقوى قوة بيانه ان منها ما كان
القوة كامل البنية يدفع عن نفسه المكارة بالقهر والغلبة
كالاسد والفيل ومنها ما يدفع عن نفسه المكارة بالفرار
وسرعة العدو كالغزلان والارانب ومنها ما يدفع المكارة
عن نفسه بالطيران في الجو كالطيور ومنها بالغوص في الماء
ومنها بالاختفاء في النقب والاجحرة كالفار والنمل كما قال
يا ايها النمل ادخلوا مساكنكم واما طلبها المنافع فتارة بقوة
البصر وتارة بقوة الشم وتارة بقوة السمع كالنسر فاما هذه
الحيوانات الصغار الجثة الضعاف القوى والبنية ليس لها
شيء من الادوات والالات والاحساسات كالديدان الصغار
وما اشبهها فانها خلقت في اماكن كثيرة ومواضع حريرة اما
في النبات وحب النبات او في جوف الحيوانات او في الطين
او في السرقين وجعل غذاؤها محيطا بها وجعل في جميع اجزاء
فمها قوى جاذبة بمص الرطوبات المغذية لها المقوية لابدانها
ولم يحوجها الى الطلب ولا الى الهرب فسبحان الخالق العظيم الذي

اعطى كل شئ مصلحة ويروى ان الليلة التى اوحى فيها الى موسى
كان قلب موسى كلفا باحوال زوجته فاوحى الله تعالى اليه
فقال اضرب بعصاك على ذلك الحجر ضرب فخرج منه حجر آخر
ثم ضرب العصا فخرج منه حجر آخر فضرب العصا فخرجت منه
دودة فى غاية الصغر وفى فمها مقدار درة من ورق الشجر
فرفع الحجاب عن سمع موسى فكانت تقول سبحان من رانى وسمع
كلامى ويذكرنى ولا ينسانى الوجه الثانى فى الاستدلال
باحوال هذه الحيوانات كثيرة جدا يقال ان حيوانات البحر
ستماية نوع وحيوانات البر خمسماية واحدها هو البشر
واذا كان كذلك فكيف يمكن الاطلاع على احوالها وعجايب
صفاتها الآن وجه الاستدلال بها على وجود الصانع الحكيم
ظاهر وذلك لانه لو كان السبب لوجودها هو تركيب الطبايع
وتاثيرا الافلاك والكواكب فذاك بالنسبة الى الكل على السوية
بل صريح العقل يشهد بان اختصاص كل واحد منها بما له من
الاعضاء والقوى والصفات والاشكال لا بد وان يكون
بتدبير مدبر قادر حكيم يخلق الاشياء بقدرته ويدبرها
بحكمته وقد نبه الله تعالى فى القران على عجز البشر عن معرفة
احوال الحيوانات فى سورة النحل فى قوله والانعام خلقها لكم
فيها دفء الى قوله ويخلق ما لا تعلمون والمعنى انا شرحنا لكم بعض
الحيوانات فاما شرح احوال الكل فذلك ما لا يليق بعقولكم بل
يجب تفويض معرفتها الى خالقها فلهذا ختم الكلام فى شرح احوال

الحيوانات

الحيوانات بقوله ويخلق ما لا تعلمون وثانيها قال فى النور
الم تر ان الله يسبح له من فى السموات والارض والطير صافات
كل قد علم صلوته وتسبيحه الاية ثم قال بعده ولله ملك السموات
والارض والى الله المصير وفيه فايدتان الفايدة الاولى انه
مع وجازته دل على تمام معرفة المبداء والمعاد قوله ولله ملك
السموات والارض تنبيه على ان الكل منه لان كل ما سواه ممكن
ومحدث والممكن والمحدث لا يوجدا الا عند الانتهاء الى قدرة
الواجب فى وجوده الازلى فى ثبوته ثم ان حدوث هذه الحيوانات
دال على قدرة الصانع ووقوع حدوثها على جهة الاحكام والاتقان
دال على علم الصانع وحكمته فكان حدوث هذه الحيوانات من
ادل الدلايل على كونه سبحانه ملكا بالحق مالكا بالصدق فلهذا قال
ولله ملك السموات ثم قوله والى الله المصير دال على ان المعاد حق
وان الحشر والنشر والبعث حق حتى يظهر فى ذلك اليوم تباع افعال
هذا اليوم والفايدة الثانية انه شرح احوال بعض الحيوانات
على سبيل التفصيل وهو قوله والطير صافات كل قد علم صلوته
وتسبيحه ثم ذكر بعد ذلك تفصيل هذا الكلام المجمل وهو قوله ولله
ملك السموات والارض كان ذكر هذا المجمل بعد ذلك المفصل بينهما
دليلا على انه لا سبيل للقوى البشرية على الوقوف على تمام تلك
التفاصيل وثالثها قال تعالى ايضا فى هذه السورة والله خلق
كل دابة من ماء الى قوله فمنهم من يمشى على اربع ثم قال بعد ذلك
يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شئ قدير وذلك لانه تعالى ذكر

انقسام الحيوان الى هذه الانقسام وهو كلام تفصيلى ثم انه تعالى
اردفه بالكلام المجمل وهو قوله تخلق الله ما يشاء والمقصود
التنبيه على انه لا سبيل للبشر الى معرفة هذه التفاصيل
وقد ذكرنا فى الفصول المتقدمة انه فى شرح احوال الافلاك
جرى على هذا المنهاج فقال فى آل عمران ويتفكرون
فى خلق السموات والارض اى يطلبون معرفة الحكمة فى كل
واحد منها ثم عدل الى التعظيم الاجمالى وهو قوله ربنا ما
خلقت هذا باطلا وقال فى الاعراف والشمس والقمر والنجوم
مسخرات بامره ثم عدل عنه الى التعظيم المجمل فقال الا له الخلق
والامر تبارك الله رب العالمين والمقصود من هذه الآيات
التنبيه على انه لا سبيل للعقول البشرية الى الاطلاع على تمام
الحكمة الالهية فى تدبير العالم العلوى والسفلى بل الواجب
تفويض اسرارها الى علمه المحيط بالعيوب المقدس عن النقصانات
والعيوب كما قال وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها الا هو وههنا
سوالات السوال الاول قال تعالى فى سورة الانعام وما من دابة
فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكم فظاهر
هذه الاية توهم مذهب التناسخ من وجوه الاول ان قوله
الا امم امثالكم يقتضى حصول المماثلة بينها وبينها فى الروح
والعقل والادراك والتكليف والثانى انه ثبت بهذه الاية
ان كل نوع من انواع هذه الحيوانات امة واذا ثبت هذا وجب
ان يحصل فى كل واحد منها رسول ونذير لقوله تعالى وان من امة

الا خلا فيها نذير والانذار لا يتحقق الا فى حق العقلاء المكلفين
وهذا يقتضى كون هذه الحيوانات عارفة بربها مكلفة
بالطاعات والثالث انه ما روى عن ابى الدرداء انه قال
ابهمت عقول البهائم عن كل شئ الا عن معرفة اربعة اشياء
معرفة الرب والسعى فى طلب الرزق ومعرفة الذكر والانثى
واهتمام كل واحد منها بامر صاحبه والجواب ان لفظ المثل لا
يقتضى حصول المماثلة فى كل الامور فاذا حملنا الاية على المثلية
ولو فى شئ واحد فقد وفينا بمقتضى اللفظ ثم اختلف المفسرون
فى معنى المثلية على وجوه الاول انها امثالكم فى كونها امما وجماعات
فكان المراد من هذا كونها انواعا مختلفة واقساما متباينة
فى الخلق والخلق والطبيعة والشكل والثانى ان المراد انها امثالكم
فى كونها مخلوقة لله تعالى وفى انه سبحانه تكفل بارزاقها كما
قال وما من دابة فى الارض الا على الله رزقها والثالث
انها امثالكم فى ان مقادير اعمالها معلومة لله مع انها خالية
عن التكليف وخوف العقاب فاحذروا ايها البشر المكلفون
فانكم باحصاء الله اعمالكم اولى الرابع انها امثالكم فى انها محشورة
يوم القيامة والله يقضى بينهم بالحق كما يقضى للانسان دليله ما
روى فى الحديث انه تعالى يقتص للجما من القرنا الخامس انه لا يبعد
حمل الآية على جميع ما ذكرنا من الوجوه لانه لا مخصص ولان على
هذا التقدير يكون الفائدة اكثر والجواب اما التمسك بقوله
تعالى وان من امة الا خلا فيها نذير فالجواب انه مخصوص

بالامة الموصوفة بالعقل بالدلايل العقلية وبالجماع الامة
السوال الثاني ما الحكمة في خلق الحيوانات الموذية كالحيات
والعقارب والذئب والاسد والوجه المعتمد عندنا في الجواب
انه تعالى مالك الملك والمالك له ان يفعل ما يشاء ويحكم
ما يريد الا انا نذكرها هنا وجوها اخر فالاول انه تعالى رغب
المكلفين في الطاعات بان وعدهم عليها بالثواب وزجرهم
عن المعاصي بان اوعدهم عليها بالعقاب فلا بد وان يشاهدوا
في الحال شيئا يشبه الثواب وشيئا يشبه العقاب حتى تتكامل
رغبتهم في طلب الثواب ونفرتهم عن الهرب من العقاب فلاجرم
ما ظهر في الدنيا انواع اللذات وانواع المحن والآفات ليكون
ذلك كالمعرف لاحوال الثواب والعقاب وقد نبه الله تعالى
على ذلك في قوله افرايتم النار التي تورون اانتم انشاتم
شجرتها الاية الى قوله للمقوين اي جعلنا النار سببا للمنافع
في الدنيا وجعلناها ايضا تذكرة للعذاب في الآخرة الثاني
انه تعالى خلق الذئب بحيث يفترس الغنم ثم ان الانسان يبالغ
في صون غنمه عن الذئب فاذا بالغ في هذا الحفظ مع ان هذه
المضرة قليلة فبان يبالغ في صون طاعته عن الشبهات والشهوات
مع ان نتايج تلك المضرة عظيمة كان ذلك اولى الثالث
الانسان اذا احترز عن سم الحية الافعى فلان يحترز عن سم
الكفر والبدعة والفواحش والذنوب مع شدة الالام الحاصلة
منها وطول مدتها كان ذلك اولى

الفصل الثاني

في الاستدلال باحوال الطيور على وجود الصانع الحكيم سبحانه
وتعالى اعلم انه تعالى ذكر الاستدلال بوقوف الطير في الهواء
على وجود الصانع المختار في مواضع من القران احدها قال
في النحل الم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن
الا الله وثانيها قال في النور الم تر ان الله يسبح له من في
السموات والارض والطير صافات وثالثها قال في سورة
الملك اولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن اما الاية
الاولى فنقول قرا ابن عامر وحمزة والكسائي ولم تروا على
سبيل المخاطبة والباقون بالياء على الحكاية لمن تقدم ذكره
حجة من قراها على المخاطبة ان ما قبل هذه الاية وما بعدها
ايضا مخاطبة اما ان ما قبلها مخاطبة فهو قوله تعالى والله
اخرجكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئا واما ان ما بعدها
مخاطبة ايضا فهو قوله تعالى والله جعل لكم من بيوتكم سكنا
واذا ثبت ان ما قبل هذه الاية وما بعدها جا على سبيل المخاطبة
وجب مجي هذه الاية ايضا على سبيل المخاطبة حتى يكون النسق
واحدا في الكل وحجة القراة الثانية ان الغرض من هذه الاية
الارشاد الى الدليل والارشاد انما يحتاج اليه الجاهل
لا العالم فوجب ان نحمل هذا على لفظ المغايبة صرفا له الى
الكفار والمنكرين قلنا نحن لا ننكر احتمال ما ذكرتم الا ان
ما قلناه ايضا يحتمل لان الدليل كما يذكر للمنكر حتى يصير معترفا
فكذلك قد يذكر للمعترف حتى يزداد ايماننا على الايمان وعرفاننا

على العرفان وهذه السورة مشتملة على دلايل كثيرة ولا شك
ان المقصود منها هو التاكيد بسبب تكثير الدلايل واذا عرفت
هذا فنقول قوله تعالى اولم يروا معناه اولم يعلموا والدليل
عليه انه سبحانه عدى الرؤية في هذه الاية الى شيئين احدهما
كون الطير مسخرة في جو السماء ومن المعلوم ان كونها مسخرة يعلم
ولا يرى والثانى قوله ما يمسكهن الا الله والمراد من كونها
مسخرة انها فى نفسها اجرام ثقيلة والجرم الثقيل يكون هاويا
بالطبع الا ان قدرة الله غالبة على جميع الطبايع والخواص فهو
بقدرته يشيل الثقيل الى فوق وينزل الخفيف الى تحت من غير ان
يشق عليه هذا الفعل ومن غير ان تعب بسببه وكيف والسموات
السبعة مع ما فيها من الشمس والقمر التى لا يعلم مقادير ثقلها
الا الله والارض ما فيها من البحار والجبال والحيوان والنبات
هو تعالى يمسكها بقدرته ويسكنها بقدرته كما قال تعالى الله
الذى رفع السموات بغير عمد ترونها فاذا قدر على تسكين هذه
الاجسام العظيمة من غير تعب ولا مشقة فكيف لا يقدر على
امساك اجرام الطيور في الهواء كما قال واذ نتقنا الجبل فوقهم
كانه ظلة فههنا قدرته على امساك الطير في الهواء اولى واذا عرفت
هذا فنقول ظهر الفرق بين كون الطير مسخرة فى جو السماء وبين
كونها واقفة هناك بامساكه وتسكينه فهذا هو الكلام في
هذه الاية واما الاية المذكورة فى سورة النور وهى قوله الم تر
ان الله يسبح له من في السموات والارض فظاهر قوله الم تر

خطاب

خطاب مع الرسول فلا جرم اشتملت هذه الاية على فوايد
زايدة على ما فى الاية الاولى اولها قوله يسبح له من في السموات
وفي هذا التسبيح ثلثة اقوال وذلك لان التسبيح المذكور
ههنا اما ان يكون المراد منه دلالة هذه الاشياء على قدرة
وقدسه وعزته وعظمته واما ان يكون المراد منه
دلالة هذه الاشياء على انها تنطق بالتسبيح واما ان يكون
المراد منه حصول هذه الدلالة فى حق البعض وحصول هذا
النطق في حق الباقين والقسم الاول اقرب اما القسم
الثانى ففيه اشكال لان بعضا من سكان الارض ليسوا بمكلفين
وهم الاطفال والمجانين وهؤلاء لا يسبحون باللسان واما
المكلفون ممن في الارض ففيهم من لا يسبح لهذا التفسير وهم
الكفار واما تفسير بكون هذه الاشياء دالة على السبوحية
والعظمة فهذا عام فى حق كل الممكنات وهو المراد ايضا من قوله
وان من شئ الا يسبح بحمده فان قيل التسبيح بهذا المعنى حاصل
فى كل المحدثات والممكنات فما وجب تخصيصه فى هذه الاية بالعقلاء
الجواب لان خلقه العقلاء اكثر دلالة على وجود الصانع سبحانه
لان العجايب والغرايب فى خلقهم اكثر وهى العقل والنطق
وثانيها قوله تعالى والطير صافات فلقائل ان يقول ما وجه
اتصال هذا بما قبله والجواب انه سبحانه لما ذكر ان اهل
السموات يسبحون واهل الارض وهى الطيور فهى ايضا مسبحة
لله تعالى وذلك لان ابدان هذه الطيور اجرام ثقيلة ثم انه سبحانه

اعطاها قوى تقوى بها على الوقوف في جو السماء صافة باسطة
اجنحتها وذلك من اعظم الدلائل على كمال قدرة الصانع ونهاية
علمه وحكمته واعلم ان هذا الوصف قد وصف الله الملائكة
فقال والصافات صفا وترى الملائكة حافين وايضا
وصفوا انفسهم بهذا الوصف فقالوا وانا لنحن الصافون
وانا لنحن المسبحون وبالجملة فهذا يشعر بكون الصافين واقفين
في موقف الهيبة ومقام العظمة مشتغلين بتسبيح جلال الله
وعظمته وكبريائه على وجه الخشوع والخضوع وثالثها قوله
تعالى كل قد علم صلوته وتسبيحه وهذا قول جماعة من اصحاب
الاخبار قال ابو ثابت كنت جالسا عند ابي جعفر الباقر رضي الله عنه
فقال اتدري ما تقول هذه العصافير عند طلوع الشمس
وبعد طلوع الشمس قلت لا قال انها تقدس ربها وتسأله
قوت يومها ورابعها ان يكون معنى الاية كل مسبح قد علم صلوته
وتسبيحه الذي كلفه الله بها فهذا تاويل لفظ الاية والكلام
الذي لا بد من البحث عنه في الاية انه هل يحتمل ان يكون
الطيور والبهايم عارفة بربها ام لا فاكثر ارباب الاثار
والاخبار جوزوا ذلك واحتجوا عليه بان كون هذه الطيور
عارفة بربها مشتغلة بتسبيح ربها امر جايز في العقول
والنصوص وردت بوقوعها فوجب الاعتراف بذلك اما
الجواز العقلي فيدل عليه وجهان احدهما الاجمال والثاني
التفصيل اما الاجمال فهو ان حصول العلم والفهم في ذوات

هذه الحيوانات من جملة الممكنات والله تعالى قادر على كل الممكنات
واذا لاحت المقدمتان وجب القطع بهذا الجواز واما التفصيل
فهو انا نشاهد من هذه الحيوانات افعالا لا تحصل الا من العقلاء
وذلك يدل على كونها مماثلة ومتى كان الامر كذلك ثبت جواز
كونها عارفة بربها وبيان ما ذكرنا وجوه الاول ان الفارة
تدخل ذنبها في قارورة الدهن ثم تلحسه وهذا الفعل لا يصدر
عنها الا لعلمها بقياس مركب من مقدمات وهي انها محتاجة
الى الدهن وان راسها لا يدخل في القارورة وذنبها يدخل
والمقصود حاصل بهذا الطريق فوجب الاقدام عليه الثاني
ان النحل يبني البيوت المسدسة ولم تفعل الا لعلمها بانها محتاجة
الى ان تبني بيوتا من اشكال موصوفة بصفتين احديهما ان لا يكون
زواياها مضيقة حتى لا تبقى المواضع المضيقة معطلة والثاني
ان تلك البيوت متشكلة بشكل متى انضم بعضها الى بعض امتلأت
العرصة منها ولا تبقى شيئا من ذلك ضايعا ثم انها علمت ان
الشكل الموصوف بهاتين الصفتين هو المسدس فقط وذلك
لان المثلثات والمربعات وان كان يمكن ان يملأ العرصة
بل يبقى فيها فرجة خالية ضايعة واما المسدس فهو موصوف
بهاتين الصفتين فاقدامها على تسديس بيوتها مبني على علمها
بانه لا بد وان يكون موصوفا بهاتين الصفتين فلا جرم علمت
ان البيت الموافق له هو المسدس ثم انه تعالى اعطاه من الذكاء
ما قدرته على بناء البيوت المسدسة واصحاب العقل من البشر لا

تقدرون على بناء البيوت المسدسة الابعد التعليم وحصول
الالات كثيرة فظهر ان علم النحل بهذه الحقايق وقدرته على بناء
هذا البيت ازيد من عقل البشر وقدرته والثالث ان النمل يسعى في
تحصيل الذخيرة وكان ذلك لعلمه بانها تحتاج في الازمنة
المستقبلة الى الغذاء ولا يكون قادرا على تحصيله في تلك
الاوقات فوجب السعي في تحصيله في هذا الوقت الذي حصلت
فيه القدرة للادخار والرابع ان العنكبوت تبني بيوتها على وجه
عجيب وانها ما نسجت الشبكة التي في مصيدتها الا بعد ان
تفكرت كيف يمكنها اصطياد الذباب فهذه افعال فكرية ليست
اقل من الافعال الفكرية الانسانية فوجب الاقرار بثبوت
العقل لها الخامس ان الجمل والحمار اذا ذهبا في طريق ليلة ظلماء
ففي المرة الثانية يقدران على سلوك ذلك الطريق من غير ارشاد
مرشد حتى ان الناس اذا ضلوا في ذلك الطريق قدموا الحمار
والجمل وتبعوه وجدوا الطريق المستقيم عند متابعته وايضا
ان الانسان لا يمكنه المشي من بلد الى بلد مشيا سويا من غير غلط
ولا خطاء والكركي ينتقل من طرف العالم الى طرف اخر من غير
ان يضل لطلب الهواء الموافق فهذا فعل يعجز عنه العقل البشري
وهي قادرة عليه السادس ان الدب اذا اراد ان يفترس الثور
لا يمكنه ان يقصده ظاهرا فيقال انه يستلقي ولا يزال ينهس
ما بين ذراعيه حتى يحيه والثاني انه ياخذ العصا ويضرب
الانسان حتى يتوهم انه مات فيتركه وربما عاد فيحس نفسه

وايضا يصعد الشجر اخف صعود ويهشم الجوز بين كيفية
تعريضا بالواحدة ويصدمها بالاخرى ثم ينفخ فيذر قشره
وياكل لبه السابع يقال الفرس كل واحد منه يعرف صوت
الفرس الذي قابله والكلاب تعالج بالعنة المعروفة بها والفهد
اذا سقي الدواء المعروف بخانق الفهد طلب زبل الانسان فياكله
والتماسيح يفتح افواهها الطاير يقع عليها كالعقعق حتى ينظف
ذلك الطاير ما بين اسنانها على ذلك الطير شيء كالشوك فاذا هم
التمساح بالتقام ذلك الطاير تاذى من تلك الشوك ففتح فاه
فخرج الطير والسلحفاة يتناول بعد اكل الحية سعترا جبليا
ثم يعود وحكى بعض الثقات المجربين للصيد انه شاهد الحبارى
تقاتل الافعى وينهزم عنه الى بقلة يتناول منها ثم يعود ولا يزال
ذلك فعله وذلك الشيخ قاعدا في كن غار كما يفعله الصيادون
وكانت البقلة قريبة من ذلك الموضع فلما اشتغل الحبارى
بالافعى الى الرجل البقلة فعاد الحبارى الى منبتها فاخذت
تدور حول منبتها دورا تاما متتابعا حتى خرجت ميتة فعلم
الرجل انها كانت يتعالج باكلها من لسعة الافعى وتلك البقلة
هي الخس البري واما ابن عرس فيستظهر في اكل الحية باكل السذاب
مما ينفر عنه الافعى والكلاب اذا ترود بطونها اكلت
سنبل الحنطة واذا جرحت اللقالق بعضها بعضا داوت
تلك الجراحات بالسعتر الجبلي فانظر من ابن حصل لهذه الحيوانات
هذا الطلب وهذا العلاج الثامن ان القنافذ قد تحس من الريح

الشمال والجنوب قبل الهبوب فيفر المدخل الى حجراتها حتى انه
كان بالقسطنطية رجل قد اثرى بسبب انه كان ينذر
بالرياح قبل هبوبها وينتفع الناس بانذاره وكان السبب
فيه انه كان في داره قنفد يفعل الفعل المذكور التاسع
ان الخطاف صناع حسن في اتخاذ العش لنفسه من الطين
وفلقه الخشب فان اعوزه الطين ابتل وتمرغ فى التراب
لتحمل جناحاه قدرا من الطين فاذا فرخ بالغ فى تعهد الفراخ
وياخذ رزقها بمنقارها ويرميها عن العش ثم يعلمها القاء
الرزق بخوطرف العش العاشر اذا دنا الصايد من مكان
فراخ القبحه ظهرت له القبحه وقربت منه مطمعة له لاجل
ان يتبعها ثم يذهب الى جانب اخر سوى جانب فراخها الحادى عشر
ناقر الخشب فلما يجلس على وجه الارض بل يجلس على الشجر وينقب
الخشب الذى يعلم ان فيه الدود الثانى عشر الغرانيق يصعد
فى الجو جدا عند الطيران فان حجب بعضها عن بعض حجاب
كضباب وسحاب احدثت عن اجنحتها حفيفا مسموعا يلزم
بسبب ذلك الصوت بعضها بعضا واذا نامت نامت على
فرد رجل قد اصطفت الروس الى القايد فانه ينام مكشوف
الراس فيسرع انتباهه فاذا سمع صوتا او احس صاح
الثالث عشر ان النعامة اذا اجمعت لها من بيضها عشرون
قسمتها ثلثة اقسام ثلثا تدفنها فى التراب وثلثا بتركها
فى الشمس وثلثا تحضنه فاذا خرجت فراخها كسر منها كان

فى الشمس وسقت فراخها ما فيها من تلك الرطوبات التى ذوبتها
الشمس واذا اشتدت فراخها وقويت اخرجت المدفون فى
الارض وفتحت لها نقبا وقد اجتمع فيها الذبان والحشرات
ثم يطعمه لفراخها فاذا تناولت ذلك قويت وقدرت على الرعى
فقل لى اى العاقل اى امراة اهدت فى تربية اولادها الى مثل
هذه الحيلة واعلم ان الاستقصاء فى هذا الباب مذكور فى
كتاب طبايع الحيوان وهذا القدر يدل على ان هذه الحيوانات
قد تاتى بافعال تعجز عنها اكثر الاذكياء والعقلاء ولولا كونها
عاقلة لما صح منها شئ من ذلك واذا ثبت كونها مهندسة
عارفة بهذه الدقايق فاى بعد فى كونها عارفة بربها مسبحة
لمالكها فثبت بمجموع ما ذكرنا ان الامكان حاصل واما النصوص
الدالة على فصول هذه المعرفة فكثيرة الحجة الاولى قوله تعالى
حكاية عن سليمان يا ايها الناس علمنا منطق الطير الحجة الثانية
قوله تعالى حتى اذا اتوا على وادى النمل الاية الحجة الثالثة
قوله تعالى وتفقد الطير الاية الى قوله بسلطان مبين وهذا
التهديد والوعيد لا يحسن الا مع الفاهم العاقل الحجة الرابعة
قوله تعالى حكاية عن الهدهد فقال احطت بما لم تحط به الى
قوله لا يهتدون وهذا الترتيب فى ايراد الكلام لا يحسن ولا
يتاتى الا من العاقل الذى يكون فى غاية الذكاء وذلك لان
اشد الاشياء اخذا للقلوب الرجال امر النساء ولهذا السبب
بدا تعالى بذكر النساء فى قوله زين للناس حب الشهوات من النساء الاية

فلما لم يلتفت سليمان عليه السلام الى ذكر المراة ثنى الهدهد
بذكر المال فقال واوتيت من كل شئ فلم يلتفت ايضا سليمان
فثلث بذكر الجاه والملك العظيم فقال ولها عرش عظيم فلما
لم يلتفت سليمان الى شئ من امور الدنيا ربع الهدهد بما يتعلق
من امر الدين فقال وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون
الله ومعلوم ان هذا الترتيب لا يتاتى الا مع الذكاء العظيم
الحجة الخامسة ظاهر الاية التى نحن في تفسيرها وهو قوله
كل قد علم صلوته وتسبيحه فانه يدل على ان كل الطير التى هى
صافات فى السماء قد علم صلوته وتسبيحه الحجة السادسة
قوله تعالى في قصة داود يا جبال اوبى معه والطير والتكليف
لا يتوجه الا على العاقل الحجة السابعة قصة قابيل وهو
وهابيل وهو قوله فبعث الله غرابا يبحث فى الارض ليريه الاية
فثبت بما ذكرنا ان التجارب دلت على امكان كونها عارفة
بربها وثبت بهذه النصوص كونها عاقلة بربها فوجب الاعتراف
بذلك هذا تمام حجة القائلين بانها عارفة بربها واحتج من انكر
كونها عاقلة عارفة بانها لو كانت عاقلة لكان اثار العقل
ظاهرا في حقها لان ايجاد العقل لها مع انه لا يظهر اثره فى حقها
عبث وذلك لا يليق بحكمة الحكيم ولكنا نرى اثار العقل حاصلة
فى شئ منها لانها لا يحترز عن الافعال القبيحة ولا يميز بين
ما ينفعها ويضرها فوجب القطع بانها غير عاقلة اجاب
الاولون بان المتكلمين لما استدلوا بدليل الاحكام والاتقان

على كونه تعالى عالما اوردوا على انفسهم اشكالا وهو انا نرى
فى العالم افعالا خالية عن الاحكام والاتقان فوجب ان يدل
ذلك على جهل الفاعل فاجابوا عن ذلك لان الاحكام والاتقان
يدل على علم الفاعل اما عدم الاحكام والاتقان لا يدلت
على الجهل لان الجاهل لا يمكنه الفعل المحكم اما العالم فيمكنه
الفعل الخالى عن الاحكام قلنا ههنا نشاهد صدور الفعل
المحكم عن هذه الحيوانات ونشاهد ايضا صدور افعال غير
محكمة عنها فيكون افعالها المحكمة دالة على عقلها اما الافعال
التى ليست محكمة لا يدل على عدم عقلها فهذا تمام الكلام فى
هذا الموضع والاية الثالثة فى هذا الباب قوله تعالى فى سورة
الملك اولم يروا الى الطير فوقهم صافات ويقبضن ما يمسكهن
الا الرحمن فقوله صافات اى باسطات اجنحتهن فى الجو عند
طيرانها ويقبضن اى ويضممنها اذا ضربن بها جنوبهن السؤال
الاول لم قال ويقبضن ولم يقل قابضات حتى يكون مطابقا
لقوله صافات والجواب لان الطيران فى الهواء يشبه السباحة
فى الماء والاصل فى السباحة مد الاطراف وبسطها واما
القبض فطارى على البسط للاستظهار به على الحركة والاسم
يدل على الثبات والاستقرار والفعل يدل على التجدد فعبر
عن البسط بقوله صافات ليدل لفظ الاسم على ان هذا هو
الاصل وعبر عن القبض بلفظ الفعل ليدل على ان هذا القبض
تبع وعلى انه يصدر القبض من الطير تارة بعد تارة كما يكون

من السالح نظيره ما يقال فلان رجل مناظر ويشعر فهذا يدل
على ان حرفته هي المناظرة ثم انه قد يشعر في بعض الاوقات
وكذا ههنا ثم قال ما يمسكهن الا الرحمن وذلك لانها مع ثقلها
وضخامة اجسامها وضعف ادمغتها وقلة اهتدائها الى
الفرق بين المصلحة والمفسدة لا يمكنها البقاء في جو الهواء الا
بامساك الله تعالى السؤال الثاني انه تعالى قال في سورة النحل
اولم يروا الى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن الا الله
وقال ههنا ما يمسكهن الا الرحمن فما الفرق والجواب ذكر في
النحل ان الطير مسخرات في جو السماء فلا جرم كان امساكها
هناك بمحض الالهية وذكر ههنا انها صافات وقابضات
فكان الهامها الى التصفيف والقبض على الوجه المطابق للمصلحة
والمنفعة من كمال رحمته ثم قال انه بكل شيء بصير فالمراد من البصير
كونه تعالى عالما بالاشياء الدقيقة وحاصل الامر ان امساكها
في جو السماء فعل على خلاف الطبايع وهو موافق للمصلحة فدل
كونها على خلاف الطبيعة على وجود مدبر قادر قاهر قلب
الطبايع وابطل الخواص ودل كون هذا الفعل محكما متقنا
مطابقا للمصلحة على كون ذلك المدبر القادر عالما بجميع
المعلومات لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في
السماء فهذا ما يتعلق بهذا البحث يروى ان الشبلي راى طوطيا
في القفص وكان يقول سبحان من صورني وفي الهوا طيرني
وفي القفص صيرني سكون ما قضى سخط العبد امرضى فاشتراه

الشبلي بثمن كثير واخرجه من القفص وخلصه وقال استحيي
ان اترك من يسبح الله مسجونا الهنا ان الشبلي خلص ذلك الطير
لانه يسبحك فنحن المساكين يسبحك منا ول عمرنا من صميم قلبنا
فخلصنا من اليم عقابك يا حنان يا منان **الفصل الثالث**
في البحث عن احوال اربعة انواع من الطيور الخفاش والطاوس
والطوطي والعندليب ولامير المومنين رضي الله عنه تعالى
خطبتان جليلتان في خلقة الخفاش والطاوس فنقول اما
الخفاش فقد خلقه الله تعالى معجزة لعيسى عليه السلام قال
تعالى اني اخلق لكم من الطين كهيئة الطير يروى ان عيسى عليه السلام
لما ادعى النبوة واظهر المعجزات اخذوا يتعنتون عليه فطالبوه
بخلقة خفاش فاخذ طينا وصوره ثم نفخ فيه فاذا هو يطير
بين السماء والارض قال وهب كان يطير ما دام الناس ينظرون
اليه فاذا غاب عن اعينهم سقط ميتا ثم اختلف الناس
فقال قوم انه عليه السلام لم يخلق غير الخفاش ولاجله
قرا نافع فيكون طايرا باذن الله على الواحد وقال الآخرون
انه خلق انواعا من الطير فلهذا قرا الباقون فيكون طيرا لانه
اسم جنس يقع على الواحد والجمع وانما قال باذن الله اشارة
الى تكوينه وتخليقه كقوله وما كان لنفس ان تموت الا باذن
الله وقال وهو الذي خلق الموت والحيوة وانما ذكر عيسى عليه السلام
هذا القيد لازالة الشبهة وتنبيها على ان الذي عمله انما هو
التصوير فاما خلق الحيوة فهو من الله على سبيل اظهار المعجز

الفصل الرابع فی البعوضة قال تعالی فی اول البقرة

ان الله لا یستحیی ان یضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها الآیة
وفیه ابحاث البحث الاول ذکروا فی سبب نزول هذه الایة
اقوالا الاول قال ابن عباس لما نزل قوله یا ایها الناس ضرب
مثل فاستمعوا له وطعن فی الاصنام ثم شبه عبادتها
ببیت العنکبوت قالت الیهود وای قدر للعنکبوت والذباب
حتی یضرب الله المثل بهما فنزلت هذه الایة والقول الثانی
ان المنافقین طعنوا فی ضرب المثل بالنار والظلمات والرعد
والبرق فی قوله مثلهم کمثل الذی استوقد نارا فنزلت
هذه الایة والقول الثالث ان هذا الطعن کان من المشرکین قال
القفال والاقوال الثلثة کلها محتملة ههنا اما الیهود فلانه
تعالی قال فی آخر الایة وما یضل به الا الفاسقین الذین الایة
وهذه صفة الیهود لانه تعالی قال بعد هذه الایة یا بنی اسرائیل
اذکروا نعمتی الایة واما الکفار والمنافقون قال فی المدثر
ولیقول الذین فی قلوبهم مرض الایة وهم المنافقون واما
الذین کفروا فیحتمل ان یکون هم المشرکون لان السورة مکیة
فثبت ان الکل محتمل البحث الثانی الحیا تغیر وانکسار یحصل
فی مزاج الانسان من خوف ما یعاب به ویذم الا تری انه یقال
هلك فلان حیا من کذا ومات حیا وذات حیا ورایت الهلاك
فی وجهه من شدة الحیا واذا ثبت هذا کان الحیا من صفات
الاجسام والله تعالی لیس بجسم فکان الحیا محالا فی حقه

الا انه ورد فی القرآن والاخبار اما فی القرآن ففی هذه الآیة
وذلك لان ما لا یجوز ثبوته فی حق الله لا یجوز اطلاقه فی حق الله
علی طریقة النفی وانما الواجب ان یقال انه تعالی لا یوصف
فاما ان یقال لا یستحیی فغیر جائز لانه یتوهم نفی ما یجوز
علیه وما ذکره فی کتابه تعالی فی قوله لا تاخذه سنة ولا
نوم وقوله لم یلد ولم یولد فهو وان کان فی صورة
النفی الا انه لیس بنفی علی الحقیقة وکذا قوله تعالی ما اتخذ الله
من ولد وقوله وهو یطعم ولا یطعم ولیس کل ما ورد فی القرآن
اطلاقه جاز ان یطلقه الواحد منا فلا یجوز اطلاق هذه
الالفاظ الا مع بیان ان ذلك محال ولقایل ان یقول هذه
الصفات لما کانت منفیة عن الله تعالی مع وجوب کونها
منتفیة کان الاخبار عن انتفائها صدقا فوجب ان یجوز اطلاقه
نفی ان یقال الاخبار عن انتفائها یوهم صحتها فنقول
هذه الدلالة ممنوعة لفظا لان تخصیص هذا النفی بالذکر لا
یدل علی ثبوت صحته بل لو قرن باللفظ ما یدل علی انتفاء الصحة
کان ذلك احسن من حیث انه یکون مبالغة فی البیان ولیس
اذا کان غیره احسن لزم ان یکون ترکه قبیحا واما الخبر فما روی
سلمان عن رسول الله صلی الله علیه وسلم ان الله تعالی
حیی کریم یستحیی اذا رفع العبد یدیه الیه ان یردهما صفرا
حتی یضع فیهما خیرا وقال ابن عباس فی تفسیر قوله تعالی
او لامستم النساء ان الله حیی کریم یکنی عن القبیح بالحسن وان

مما كنى ان قال ولامستم النساء واعلم انه لما ثبت بالدليل انه
لا يمكن اجزاء لفظ الحياء في حق الله تعالى على ظاهره وجب تاويله
وفيه وجهان الاول وهو القانون في امثال هذه الالفاظ
ان كل صفة يثبت للعبد مما يختص بالاجسام فاذا وصف الله
تعالى به فذلك محمول على نهايات الاغراض لا على بدايات الاغراض
مثاله ان الحياء حالة تحصل للانسان انكسارا وتغيرا في المزاج
فهذه الحالة لها مبدا وغاية اما المبداء فهو ذلك التغير
المزاجي واما النهاية فهو ان يترك الانسان ذلك الفعل فاذا
ورد الحياء في حق الله تعالى فليس المراد منه ذلك الانكسار
الذي هو المبدأ بل المراد منه ترك الفعل الذي هو الغاية
وكذا الغضب له مقدمة وهو غليان دم القلب وشهوة
الانتقام وله غاية وهو انزال العذاب بالمغضوب عليه
واذا وصفنا الله بالغضب فليس المراد ذلك المبداء الذي
هو غليان دم القلب بل المراد تلك النهاية وهو انزال العقاب
فهذا هو القانون الكلي في هذا الباب والوجه الثاني ان تقع
هذه العبارة في كلام الكفرة فيقولون اما يستحيي رب محمد
ان يضرب المثل بالذباب والعنكبوت فجاء هذا الكلام على
سبيل اطباق الجواب على لفظ السوال وهذا فن مشهور من
الكلام البحث الثالث هو ان شبهة هؤلاء الكفار اما ان
يقال انها وقعت من حيث انهم استبعدوا من الله ضرب المثل
او من حيث استبعدوا من الله ضرب المثل بالذباب والعنكبوت

وامثالها اما الاول فباطل لان ضرب المثل لتعريف المعاني
امر مستحسن في العرف والشرع والعقل اما في العرف فلان امثال
العرب كثيرة وايضا كتاب كليلة ودمنه اكثره امثال واما في
الشرع فلانه ضربت الامثال في الانجيل بالاشياء الحقيرة وقال
شبه ملكوت السماء رجلا اخذ حبة خردل وهي اصغر الحبوب
وزرعها في قريته فلما نبتت عظمت حتى صارت اعظم شجرة من
البقول وجاء طير السماء فعشش في فروعها فكذلك الهدى من دعا
اليه ضاعف الله اجره وعظمه ونجا من اهتدى قال ايضا
لا يكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق والطيب ويمسك النخالة كذلك
انتم تخرج الحكمة من افواهكم ويبقى الغل في صدوركم وقال ايضا
قلوبكم كالحصاة التي لا ينضجها النار ولا يلينها الماء وقال
لا تدخروا ذخايركم حيث السوس والارضة فيفسدها ولا في
البرية حيث السموم واللصوص فيحرقها السموم ويسرقها اللصوص
ولكن ادخروا ذخايركم عند الله وقال ايضا يحفر الارض فتجد
دواب عليها لباسها وهناك رزقها وهنا لا يغزلن ولا يستحصن
ومنه ما هو في جوف الحجر الاصم وفي جوف العود من راهن لباسهن
واذا قهن الا الله افلا تعقلون وقال لا تثيروا الزنابير فيلدغنكم
كذلك لا تخاطبوا السفهاء فيشتمونكم فثبت ان الله تعالى ضرب
الامثال بهذه الاشياء الحقيرة واما ان ضرب الامثال مستحسن
في العقول فلان من طبع الخيال حب المحاكاة والتشبيه فاذا ذكر
المعنى وحده ادركه العقل ولكن مع منازعة الخيال واذا ذكر معه

التشبيه ادركه العقل معا ونا الخيال ولا شك ان الثاني
يكون اكمل وايضا فنحن نرى الانسان يذكر معنى ولا يلوح
كما نحن فاذا ذكر المثال اتضح وصار مبينا مكشوفا واذا كان
التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح كان ذكره مفيدا نافعا
واما ان قيل ان موضع الشبهة للقوم هو انهم استبعدوا
ان يضرب الله الامثال بهذه الاشياء الحقيرة فاعلم ان هذا
جهل لانه تعالى هو الذى خلق الكبير والصغير وحكمته فى كل
ما خلق وبرأ عام لانه قد احكم جميعه وليس الصغير اسهل عليه
من العظيم ولا العظيم اصعب من الصغير واذا كان الكل بمنزلة واحدة
كان ضرب المثل بالكل جايزا حسنا بل المعين ما يليق بالقصة
واذا كان اللايق بها ضرب المثل بالبعوض والذباب فكان
الضرب فيها بالفيل والجمل غير جايز وههنا المقصود تقبيح
عبادة الاصنام فكان ضرب المثل بالذباب والعنكبوت اولى
ويدل عليه وجوه الاول انه تعالى خلق عباده ضعفا فقال
وخلق الانسان ضعيفا وقال الله الذى خلقكم من ضعف
فلاجرم ضرب لهم المثل بالاشياء الضعيفة لان الجنس
اقرب الى الجنس قال عليه السلام امرت ان اكلم الناس على قدر
عقولهم الثانى انه تعالى لم يستحيى من خلقها ورزقها فاولى
ان لا يستحيى من ذكرها وضرب المثل بها وكيف يستحيى من ذكر
شئ لو اجتمع الخلايق على ان يخلقوا مثله ما قدروا عليه
قال ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له

والثالث

والثالث ان البعوضة تحيى اذا جاعت فاذا مصت الدم انشق
بطنها وماتت وهذا تنبيه للانسان على انه اذا تم امر الانسان
فقد قرب اجله كما قيل اذا تم امر دنا نقصه توقع زوالا اذا قيل تم
واعلم ان المفسرين اختلفوا فى لفظه ما فى قوله ما بعوضة
فقال بعضهم انها دخلت زايدة كقوله فبما رحمة من الله لنت
لهم وقال ابو مسلم معاذ الله ان يكون فى القرآن زيادة ولغو
لان الله تعالى وصف القران بكونه هدى وبيانا وكونه لغوا
ينافى ذلك وفى بعوضة قراتان احدهما النصب وعلى هذه
القراة فلفظه ما ابهامية والمعنى مثلا اى مثل كان واما على
قراة الرفع ففيه وجهان الاول انها موصوله صلتها الجملة
والتقدير الذى هو بعوضة الا انه حذف المبتداء كما حذف فى قوله
تماما على الذى احسن وتفصيلا اى الذى هو احسن والثانى
ان يكون استفهامية فانه لما قال تعالى ان الله لا يستحيى ان يضرب
مثلا كانه قال بعده ما بعوضة فما فوقها حتى لا يضرب المثل به
بل له تعالى ان يتمثل بما هو اقل منه اى من البعوضة كما يقال فلان
لا يبالى بما وهب دينارا ودينارين اى يهب ما هو اكثر منه واما
لفظه البعوض ففى اشتقاقه قولان الاول انه من البعض وهو
القطع بالبضع والعصب يقال بعضه البعوض ومنه بعض الشئ
لانه قطعة منه والبعوض فى اصله صفة على فعول كالقطوع
فقلبت والقول الثانى ان اشتقاقه من بعض الشئ سمى لقلة
جرمه وصغره لان بعض الشئ قليل بالقياس الى كله اما قوله فما فوقها

ففيه قولان الاول فما هو اعظم منها فى الجثة كالذباب
والعنكبوت والكلب والحمار وذلك لان القوم استبعدوا
تمثيل الله تعالى بكل هذه الاشياء والقول الثانى وهو اختيار
المحققين ان المراد فما فوقها فى الصغر اى مما هو اصغر منها واحتجوا
على هذا القول بوجوه الحجة الاولى ان المقصود فى هذا التمثيل
تحقير الاوثان وكلما كان المشبه به اشد حقارة كان المقصود
فى هذا الباب الحجة الثانية ان المقصود من هذا الكلام بيان ان الله
تعالى لا يترك التمثيل بالشئ الحقير واذا كان الامر كذلك كان
المذكور ثانيا بحسب ان يكون اشد حقارة من الاول يقال ان فلانا
يحتمل الذل فى اكتساب الدينار بل فى اكتساب ما فوقه والمراد
ما فوقه فى القلة الحجة الثالثة ان الشئ كلما كان اصغر كان
الاطلاع على اسراره اصعب فاذا كان فى غاية الصغر لم يحط به
الا علم الله تعالى وكان التمثيل به اقوى واكمل فى الدلالة على الحكمة
من التمثيل بالشئ الكبير البحث الرابع فى شرح عجايب حكمة الله تعالى
فى خلقه البعوض وبيانه من وجوه الاول ان اكثر الناس يتعجبون
من خلقه الفيل ثم الفيل مع كبر جثته ليس له الا اربعة ارجل
خرطوم وذنب والبعوضة لها هذه الاعضاء مع يدين زايدتين
واربعة اجنحة ثم انها يشارك الفيل فى جميع ذلك الحلقوم
والجوف واعضاء آخر لا يدركها ابصار الخلق ولا يحيط بها
الا علم الخالق سبحانه والثانى ان هذا البعوض مع غاية صغره
مسلط على الفيل والاسد بالايذاء ولا قدرة لهما على البعوض

وهذا يدل على ان الاستيلاء على الغير ليس بالقوة والشدة
وكثرة العدد بل بنصرة الله وتاييده كما قال كم من فئة قليلة غلبت
فئة كثيرة باذن الله وقال ان ينصركم الله فلا غالب لكم اليس
ان نمرود كان اكبر ملوك بنى آدم واطغاهم واعظمهم سلطانا
واشدهم صولة ثم ان بعوضة طارت الى دماغه وكانت
تؤذيه وتوقع دغدغة فى دماغه فكان اكثر الناس محبة اليه
وشفقة عليه من يضرب على دماغه صعه بالشدة
والقوة او اكثر حتى يسكن تلك الدغدغة بل ان كنت ما شاهدت
نمرود ولا احواله فاعتبر بنفسك فانه اذا وقعت بعوضة
على راسك ووجهك فربما صفعت راسك ولطمت خدك
مرات وكرات يريد ان يصلها ثم انها تطير ولا يصيبها منك
آفة البتة ويبقى ضرر اللطم والصفع على خدك وراسك
الثالث ان الصانع البشرى يقدر ان يصور فيلا من الخشب
او من الحديد ولا يقدر احد من الصناع ان يصور بعوضة
من الخشب ولا من الحديد فعلى هذا تكوين البعوضة اشرف
من الفيل من هذا الوجه وذلك لان الفيل والبعوضة يشتركان
فى دلالة اجزاء كل واحد منهما على قدرة الصانع وحكمته
ثم ان كل ما حصل فى الفيل من وجوه الدلائل فهو حاصل فى
البعوضة وقد حصلت وجوه من الدلايل فى البعوض فانا
بينا ان الصانع البشرى يمكنه تصوير الفيل من هذا الوجه
ولا يمكنه تصوير البعوض فكانت البعوضة اشرف من الفيل

بهذا الوجه فتامل انك اذا اعتبرت الاعضاء الظاهرة فالبعوض
ازيد فيها من الفيل واذا اعتبرت الاستيلاء والقهر فالبعوض
مستول على الفيل والفيل لا قدرة له على البعوض واذا اعتبرت
الدلالة على قدرة الله وحكمته فالبعوض ازيد من الفيل بالوجه
الذى ذكرنا لتعلم انه لا عبرة بالصور الظاهرة انما العبرة
باعانة الله وتاييده الرابع اعتبر قوة حواس البعوضة وكمال
معرفتها بمصالحها اما حس البصر فلان البعوض اذا جلس على عضو
من اعضاء الانسان فانه لا يزال يدير خرطومه من جانب
الى جانب حتى تجد الموضع المثقب من جلد الانسان فيه مسام
كثيرة يخرج منها النفس والعرق فهو يماس خرطومه يطلب
تلك الثقب واذا وجدها غوص خرطومه فيها فمن الذى هداه
الى مقصوده من جذب الدم ومن الذى عرفه ان بدن الانسان فيه
منافذ ومسام وان ادخال الخرطوم في تلك المنافذ الموجودة اسهل
من احداث منفذ فى الجلدة اما حس السمع فلان البعوضة فى الليلة
الظلماء اذا وقعت على عضو الانسان فاذا حاول الانسان
تقريب اليد منها ليضربها احست بحركة اليد فطارت ولو بالغ
الانسان في اخفاء حركة اليد فانها لابد وان تحس بتلك
فمن الذى عطاه هذه القوة السامعة بهذا الكمال ثم ههنا شيء آخر
وهو انها علمت ان مص الدم من الجلد جناية عليه وايذاء له
وان الانسان لابد وان يقابل تلك الجناية ان يقصد قتلها
وايذاءها فالبعوضة لعلمها بهذا المعنى بقيت مستعدة للفرار

والحذر

والحذر فانظر انه سبحانه كيف هداها الى تحصيل الغذاء
الموافق له ثم اودع في خيالها انه لابد من الحذر فكلما قرب
الانسان اليد طارت وتخلصت ولا تاتى مثل هذا التدبير
الا من الاله الذى خلق فسوى والحكيم الذى قدر فهدى
الخامس تامل في صغر جثة البعوضة ولا شك ان خرطومه
اصغر منه بكثير ثم ان ذلك الخرطوم مع غاية صغره مجوف
ولولا ذلك التجويف لما قدر على امتصاص الدم منه فانظر
الى ذلك الخرطوم مع كونه مجوفا كيف يكون غاية دقته ثم تامل
انها مع غاية دقتها كيف قوتها وشدتها فانها يغوص ذلك
الخرطوم في جلد الجاموس والفيل على شدته وثخانته ويستخرج
الدم منه كما يضرب الرجل اصبعه فى الخبيص السادس انه
سبحانه خلق في خرطوم البعوضة عضونا كثيرة كما فى خرطوم
الفيل فتارة يمدها ويطولها وذلك عندما يغوص الخرطوم
فى الجلد وتارة يقبضه الى نفسه وذلك عند الاخراج فتامل
فى كل واحد من اجزاء ذلك العضون وذلك لانه على قياس خرطوم
الفيل لابد وان يكون اصله غليظا ويكون راسه مستدقا
ولابد ان يتدرج من الغلظ الى الدقة على تناسب مخصوص وصفة
مخصوصة ولابد وان يكون قد اختص كل واحد من تلك الاجزاء
بشكل مخصوص وصفة مخصوصة ولا يقدر على ذلك التشكيل
والتصوير الا القادر على جميع الممكنات العالم بجميع المعلومات
السابع تامل في جسد البعوضة فانه في غاية الصغر وخرطومه

نقلها فبقيت هناك ويصل اليدايها ويموت وهذا تنبيه
عظيم للانسان على احوال دنياه واخراه اما الدنيا فلان الاستكثار
من اللذات والشهوات سبب للوقوع فى المحن والافات واما
الآخرة فلان الانسان اذا كان خفيفا قليل العلايق فاذا وصل
اليه ندا، قوله ارجعى الى ربك طار من وكركرة الدنيا الى عش
عيش الاخرة اما اذا كان ثقيلا من حب الدنيا عجز عن الطيران
فبقى فى هاوية الجسمانيات وظلمات الخيالات كما قال تعالى
فى صفتهم ناكسوا رؤسهم الاية العاشر تامل فى راس البعوضة
ووجهها فانها مع غاية صغرها قد جعلها الله تعالى منقسما
الى اقسام كثيرة واودع فى كل قسم من تلك الاقسام خاصية
معينة وقوة معينه وذلك لانه تعالى خلق فى راس البعوض
عينين واودع فيهما قوة باصرة اكمل مما للانسان ويدل عليه
وجهان احدهما انها تبصر فى الظلمة الشديدة الموضع الذي
منه يمكنها مص الدم والثانى انها ترى بصرها مسام جلد
الانسان ولذلك فانها اذا وجدتها غوص خرطومه فيها
والانسان لايرى ذلك البته وايضا انه تعالى خلق فى راسها
اذنين واودع فيهما قوة سامعة اقوى مما للانسان ولذلك
فانها يسمع فى الظلمة حفيف ليدمع ان الانسان البته لايسمعها
والثالث انه خلق فى راسها قوة الشم ولذلك فانها تحس
بوقوع الجيف من المكان البعيد ولولا الشم لما عرفت ذلك
والرابع خلق فى راسها الفم واودع فيها القوة الذايقة ولذلك

فان البعوض يرغب فى بعض الطعوم دون البعض ولولا الذايقة
والا لما كان الامر كذلك والخامس انه تعالى خلق فى بدنها قوة لامسة
ولذلك فانها تفر من الحر الشديد والبرد الشديد والسادس
انه تعالى خلق فى راسها قوة الحفظ ولولاها لما عرفت وجوب
الفرار عند مجئ اليد وخلق فيها قوة الذكر ولولا ذلك لما ميزت
بين المعانى النافعة والضارة فانظر الان الى راس البعوضة
كم يكون مقدار ذلك الجرم ثم انه تعالى قسم ذلك الجرم
الصغير الى اجزاء كثيرة واودع فى كل واحد من تلك الاقسام
خاصية معينة فهذا عيناه وهذا اذناه وهذا انفه وهذا
فمه وهذا مقدم دماغ الذى فيه قوة الحفظ وهذا
وسط دماغ الذى فيه قوة الفكر وهذا موخر دماغ
الذى فيه قوة الفكر ثم لاشك انه تعالى خلق منفذ الغذاء
ومخرج الفضلة ومتى كان الامر كذلك فقد خلق له جوفا
وامعاء وعروقا وعظاما فيخطر ببال العاقل السليم العقل
ان يسند هذه التاثيرات العجيبة والتصرفات البديعة
الى الطبيعة مع انها قوة لاشعور لها بشئ من الاشياء ولا
تمييز لها فى حال من الاحوال هذا مما لايقوله عاقل بل شواهد
الفطرة وصرايح الافكار وبداية العقول تنادى باعلى صوتها
على انها انما حدثت بتقدير من لايعزب عن قدرته وعلمه
وحكمته ذرة من الارضين والسموات الا له الخلق والامر
تبارك الله رب العالمين رحم الله من قال شعر

فان

يا من يرى مد البعوض جناحه • فى ظلمة الليل البهيم الاليل
ويرى عروق نياطه فى نحره • والمخ فى تلك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته • ما كان منه فى الزمان الاول

الفصل الرابع

فى الذباب قال تعالى فى سورة الحج يا ايها الناس ضرب مثل فاستمعوا له قوله ان الله لقوى عزيز وفى الاية ابحاث البحث الاول اعلم ان هذه الاية من جملة الايات التى اقر بفصاحتها الصديق والزنديق والموافق والمخالف يحكى انه اجتمع اربعة من الزنادقة بمكة ابن المقفع وابن ابى العوجاء وابو شاكر الديصانى وعبد الملك البصرى وقالوا تعالوا نعارض القران كل واحد منا ربعه فتواعدوا وتفرقوا على ان يجتمعوا فى السنة المستقبلة فلما رجعوا قال ابن المقفع انى عجزت عن معارضة قوله وقيل يا ارض ابلعى ماءك وقال ابن ابى العوجا عجزت عن معارضة قوله لو كان فيهما الهة الا الله لفسدتا وقال عبد الملك البصرى انى عجزت عن معارضة قوله يا ايها الناس ضرب مثل الاية وقال ابو شاكر الديصانى انى عجزت عن معارضة قوله فلما استيأسوا منه خلصوا نجيا فهولاء الزنادقة كانوا من اكابر فصحاء العالم وقد عجزوا عن معارضة هذه الآيات وذلك لجزالة الالفاظ وقوة معانيها وعذوبة سياقها وفى هذه القصة نكتة اخرى عجيبة وذلك لان الاعراب لما طعنوا فى فصاحة القران وقالوا كيف يليق بالله ذكر الذباب والعنكبوت فاجاب الله تعالى عنه بان حقارة هذه الحيوانات

لا يقدح فى فصاحة القران اذ كان المقصود بذكرها التنبيه على الحكمة البالغة والمعانى الدقيقة الشريفة ثم ان اشد الزنادقة عداوة واكثرهم علما بوجوه البلاغة والفصاحة اعترفوا بالعجز عن معارضة هذه الاية المشتملة على ذكر الذباب فكان ذلك جاريا مجرى معجزة اخرى لمحمد عليه السلام وفى الاية سؤالات السؤال الاول ان الذى ذكره الله تعالى فى هذه الاية ليس بمثل فكيف سماه مثلا والجواب لما كان المثل فى الاكثر نكتة عجيبة غريبة جاز ان يسمى كل ما كان كذلك مثلا السؤال الثانى قوله ضرب مثل يفيد ان هذا الكلام المذكور ليس كلام الله تعالى بل هو كلام لبعض المتقدمين وذلك يجر الى القران اعظم وجوه الطعن والجواب لما كان الكلام المذكور فى هذه الاية فى غاية القوة والبعد عن الشبهة كان ذلك كالامر المعلوم من قبل لا جرم كان ذكره بمنزلة اعادة امر قد تقدم اما قوله تعالى فاستمعوا له اى تدبروا حق التدبر لان نفس السماع لا ينفع انما النافع هو التدبر والتامل ثم انه تعالى احتج بامر الذباب على ابطال مذهب عبدة الاوثان فقال ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له والمعنى ان هذه الاصنام لو اجتمعت باسرها عن تخليق ذباب لما قدرت على خلق الذبابة فكيف يليق بالعاقل الاشتغال بعبادة مثل هذا الشئ وقوله تعالى ولو اجتمعوا له نصب على الحال كانه تعالى قال مستحيل ان يخلقوا الذباب حال اجتماعهم فكيف حال انفرادهم

ثم قال وان يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه
والمعنى كانه سبحانه قال اترك حديث الخلق والايجاد واذكر
ما هو اسهل منه فان الذباب ان سلب شيئا منهم لا يقدرون
على استنقاذ ذلك الشيء من الذباب واعلم ان المقصود
من هذه الاستدلال لا يظهر الا من وجوه الحجة الاولى ان
فعل العاقل لابد وان يشتمل على فائدة وتعظيم هذه
الاصنام لا فائدة فيه لانها جمادات لا تضر ولا تنفع
والاشتغال بالعبث محظور عند العقول الحجة الثانية
ان العبادة غاية التعظيم والانسان اشرف من الجمادات
واقدام الاشرف على غاية التواضع للاخس خلاف العقل
الحجة الثالثة انهم لما عظموا الاوثان غاية التعظيم لم يقدروا
على تعظيم الخالق سبحانه تعظيما اشد من ذلك فحينئذ يلزم حصول
التسوية في التعظيم بين مدبر السموات والارض وبين مدبر
تلك الاحجار والجمادات وذلك غاية السفاهة اما قوله
تعالى ضعف الطالب والمطلوب ففيه اقوال احدها المراد
منه الصنم والذباب فالصنم كالطالب من حيث لو طلب
ان يلحقه او يستنقذ منه ما يسلبه منه يعجز عنه والذباب
بمنزلة المطلوب والثاني ان الطالب عابد الصنم والمطلوب
نفس الصنم وهذا اقرب لان كون الصنم طالبا ليس على الحقيقة
بل على سبيل التقدير اما ههنا فعلى سبيل التحقيق والقول الثالث
ان يكون معنى قوله ضعف لا من حيث القوة لكن الظهور قبح هذا

المذهب

المذهب كما يقال للرجل عند المناظرة ما اضعف هذا المذهب
وما اضعف هذا الوجه اما قوله ما قدروا الله فالمعنى
ما عظموا الله حق تعظيمه حيث جعلوا هذه الاصنام على نهاية
خساستها شريكة لخالق السموات والارض في المعبودية
واعلم ان منشأ جميع الشبهات هو القول بالتشبيه والتشبيه
بالذات باطل كما تقوله المجسمة والتشبيه في الصفات باطل
كما تقوله الكرامية والتشبيه في الافعال باطل كما تقوله
المعتزلة قال الامام ابو القسم الانصاري انه سبحانه جبار
النعت عزيز الصفات فالاوهام لا تصوره والافكار لا تقدره
والعقول لا تمثله والازمنة لا تدركه والجهات لا تحويه
ولا تحده صمدي الذات سرمدي الصفات اما قوله تعالى
ان الله لقوي عزيز فاعلم انه تعالى ذم الاصنام باشياء ثم اثنى
على نفسه باضدادها فالاول انه لما قال في هذه الاية للاصنام
ضعف الطالب والمطلوب فوصفها بالضعف ووصف نفسه
بالقوة فقال ان الله لقوي عزيز والثاني قال في حقها
ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم وقال
لنفسه وان يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو الاية
والثالث انه تعالى قال لها فادعوهم فليستجيبوا لكم وقال
لنفسه ادعوني استجب لكم الرابع قال في حقها لبئس المولى
ولبئس العشير وقال لنفسه نعم المولى ونعم النصير الخامس
قال في حقها وتراهم ينظرون اليك وهم لا يبصرون وقال

لنفسه لا تدركه الابصار الاية والسادس قوله في حقهم ان
الذين تدعون من دون الله عباد امثالكم وقال لنفسه
ليس كمثله شيء البحث الثاني في اثار حكمة الله تعالى في خلق
الذباب اعلم ان اكثر الاحوال المذكورة في البعوضة عائدة
في الذباب ثم انا نخصه بمزيد وجوه فالاول ان في الذباب
ثلثة انواع من المنافع الدينية فالاول انه يدل على التوحيد
من وجهين الاول انه من جملة من يسبح الله تعالى قوله وان
من شيء الا يسبح بحمده فهو يسبح الله بخلقه ولا يعصيه
بعمله واما الكافر فهو وان كان يسبح الله بخلقه لكن ينكره
بلسانه ويعصيه باعماله فكان الذباب مع غاية حقارته
خير من الكافر والثاني انه تعالى جعل الذباب حجة على بطلان
مذهب عبدة الاوثان فقال وان يسلبهم الذباب شيئا الاية
نمعبوداتكم لا يقدرون على خلق الذباب ولا على دفعها عن انفسهم
ولا على استرجاع شيء سلبه الذباب عنهم ومتى كان في الضعف
والعجز هكذا كيف يستحق ان تعبدوا واما الثاني فهو ان الذباب
يدل على النبوة فلانه صح في الاخبار انه ما كان يقع البعوضة
ولا الذباب على جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم واله
فانه كان اعز على الله من ان يكون جلده مركبا للبعوض والذباب
او دمه شرابا لهما فيكون هذان الحيوانان مسلطين على كل الخلق
مع كونهما ممنوعين عنه على التعيين من اقوى البينات واظهر
المعجزات واما الثالث فهو ان الذبات يدل على طهارة الصحابة

دوى

روي ان المنافقين لما طعنوا في عايشة ونسبوها الى
الفاحشة حصل الغم العظيم في قلب رسول الله صلى الله
عليه السلام فدخل عليه عمر فقال الرسول عليه السلام
يا عمر ما قولك في هذه الواقعة فقال يا رسول الله
انا قاطع بكذب المنافقين فقال وما الدليل عليه فقال عمر
الدليل عليه ان الله تعالى عصمك من وقوع الذباب على
جلدك فلما تفكرت فيه علمت ان السبب فيه انها تجلس على
النجاسات فيتلطخ ارجلها فالله سبحانه عصم جلدك عن ذلك
القدر من القاذورات فكيف لا يعصمك عن كل من يكون
ملطخا بالفواحش والسيئات فاستحسن الرسول ذلك ثم دخل
عليه عثمان فساله عن هذه الواقعة فقطع بكذب المنافقين
فطالبه بالدليل قال عثمان الدليل عليه ان الله تعالى ظلك
على الارض ثم تفكرت فعلمت ان السبب فيه انه لو وقع
ظلك على الارض فربما وضع انسان قدمه على ذلك الظل
فانه سبحانه لم يمكن احدا من وضع القدم على ظلك فكيف يمكن
الاجنبي من تلويث عرض زوجتك ثم دخل علي فساله عن الواقعة
فقطع بكذب المنافقين فطالبه بالدليل فقال الدليل عليه
انا كنا نصلي خلفك فنزعت في اثناء الصلوة رجلك عن
نعلك فنزعنا ايضا ارجلنا عن نعالنا فلما تمت الصلوة
قلت لنا لم نزعتم ارجلكم عن نعالكم قلنا فعلت ذلك
فوافقناك فقلت انما فعلت ذلك لان جبريل اخبرني ان

عليه قذرا فلما امرك الله باخراج ذلك النعل عن رجلك
بسبب ما التصق به من القذارة فكيف يليق بهذه العناية
ان لا يامرك باخراجها بتقدير ان تكون ملطخة بشيء من الفواحش
فطاب قلب النبي عليه السلام عند سماع هذه الدلايل ثم انزل
الله تعالى الايات الدالة على طهارتها وبراتها من الفواحش
والمقصود من رواية هذا الخبر ان الذبابة وان كانت ملطخة ملوثة
الا انها دلت على براة عايشه عن كل لوث فهذا تقتضي كون
الذبابة اشرف واعلى وارفع درجة من اولئك لمنافقين فصارت
الذبابة دالة على قدرة الله تعالى وحكمته ووحدانيته ودالة
على ابطال القول بعبادة الاوثان ودالة على نبوة سيد الانبيا
عليه السلام ودالة على طهارة عايشه فصارت على حقارتها
مستجمعة للدلالة على صحة اصول الاسلام الوجه الثاني
انه تعالى اظهر بخلق الذباب قبايح الكفار وفضايح الفساق
والفجار اما قبايح الكفار فلانه اذا وضعت قصعة
من المرقة الحارة تبادرت الذباب اليها والانسان يدبها
عن تلك المرقة الحارة بكل طريق ثم انها تلقي نفسها في تلك المرقة
ثم تموت فيها وهذا يشبه طريقة الكفار فان الانبيا صلوات
الله عليهم يذبونهم عن نار جهنم باقصى ما يقدرون ثم انهم
يلقون انفسهم في نار جهنم الا ان عاقبة الذباب احسن
من عاقبة الكفار لان الذبابة لما ماتت تخلصت من الالام والكافر
لما مات بقي في العذاب ابد الاباد قال تعالى اغرقوا فادخلوا نارا

واما فضايح الفساق فلان في الذباب خساسة عظيمة وهو
انه لا تميز بين الخبيث والطيب فتارة يقع على السكر واخرى
على القاذورات فكذا الفاسق قد وضعت له مائدة الجنة
واعدت له جميع النعم الطيبة فهو تارة يقدم على تلك الماكل
الطيبة واخرى يجلس على مائدة المعاصي والمنكرات وهي
من جنس القاذورات والنجاسات فمن اراد ان يصون نفسه
عن خساسة الذباب وجب ان لا يدور حول الخبايث والمنكرات
والمنكرات الوجه الثالث انه تعالى اظهر بخلق الذباب ذل
المتكبرين حكي عن سعيد بن جبير انه توارى عن الحجاج وكان
مع ذلك لا يترك الصلوة بالجماعة فقيل له اياك والخروج
من الدار فان عليك من الحجاج عيونا فقال كيف تخلف عن
الجماعة والموذن ينادي بحي على الفلاح ثم اخذه اعوان
الحجاج في طريق المسجد واتوا به فقال الحجاج يا ابن الجبير ما الحكمة
في خلق الذباب وكان قد تاذى به لكثرة ما كان يقع عليه
ويذبها ويعاود فقال انما خلق الله الذباب ليذل به الجبابرة
وذلك لانه يقع على النجاسات ثم يقع على وجوه الجبابرة فيظهر
بذلك ذلهم حيث عجزوا عن دفع اضعف المخلوقات واحقرها
عن انفسهم الوجه الرابع قال اهل الحكمة ان في الذباب
منفعة عظيمة وهي ثلثة اوجه وذلك لان الذباب لا يظهر
الا في مواضع العفونة والاماكن المستقذرة ثم انه يخلق
من بعض اجزاء تلك العفونات ذات الذباب وجعل بقيته

تلك العفونات غذاء لها ثم انها بكثرة طيرانها بحرك الهواء
سبب لازالة العفونات عن الهواء فصارت الذباب سببًا
لازالة العفونات عن الهواء من هذه الوجوه الثلثة والذبابة
اذا طارت وجلست على وجه الانسان واذنه فذلك في الحقيقة
انعام عظيم في حق الانسان فانه لولا وجوده وطيرانه
لاستولت العفونات على الهواء وتاذى ذلك الى حصول
المضار العظيمة فكما ان الصبي تاذى من الفصد والحجامة والعاقل
تعلم انه من اعظم وجوه الانعام في حق ذلك الصبي فكذا وقوع
الذبابة على وجه الانسان وان تاذى منه الجاهل الا ان
العاقل تعلم انه من النعم العظيمة في حقه من حيث انه سبب
لازالة العفونات عن الهواء الذي هو مادة الحيوة من الحيوانات
فان قيل خالق العفونات هو الله سبحانه فكان ينبغي ان لا يخلقها
حتى لا يحتاج في دفعها الى خلق الذباب قلنا هذا السؤال غير
مختص بالذباب فانا اذا قلنا انه سبحانه خلق الخبز والماء واصناف
الفواكه ليلتذ الانسان باكلها فيقول السايل خالق اللذات
هو الله سبحانه فكان ينبغي ان يخلقها ابتداء حتى لا يحتاج
الى خلق الماء والخبز ولما كان هذا ردًا على كل القران علمنا سقوط
هذا السؤال والتحقيق ان الدنيا دار الاسباب فربط الله
كل شيء لشيء حتى انه كما ظهرت قدرته بايجاد الاشياء فكذا
تظهر حكمته بجعل الاشياء اسبابًا لساير الاشياء الوجه
الخامس من امثال العرب اجرء من الذباب واطيش من الذباب

ولج من الذباب واشبه من الذباب بالذباب اما شدة
جراته فظاهر لان الانسان كلما دفعه عاد اليه وقيل
انما سمي ذبابا لانه كلما ذب آب والحكمة في وصفه بالجراة
انه لما كان المقصود من خلقه افناء العفونات تارة بالاغتذاء
بها وتارة بتحريك الهواء وتلطيفه فسبب الطيران اوجب
كونها موصوفة بالجراة حتى انها متى ذبت لم تمتنع عن الحركة
فيحصل هذا المقصود وكذا طيشها ولجاجتها من الامور
المعينة على هذا المقصود اما كون بعضها مشتبها بالبعض
ففيه حكمة عجيبة وذلك لانا قد بينا انه لو حصلت
المشابهة بين الاشخاص الانسانية اختلت مصالح العالم
فان على هذا التقدير ما كان تميز زوج هذه المراة
عن غيره وما كان تميز مالك هذه الدار عن غيره وذلك
يفضي الى وقوع المفاسد العظيمة في العالم فلاجل رعاية
هذه المصلحة ميز الله تعالى كل انسان عن غيره في الشكل
والصورة والصوت واما الحيوانات الاهلية فهي غير
مكلفة فما كانت مصالحها تختل عند حصول هذه فما
كانت مصالحها المشابهة في الصورة والخاصية الا ان
الانسان ربما انتفع بفرد معين منها ولم ينتفع بفرد آخر
منها مثل ان كان هذا الفرس احسن ركضًا واشد عدوًا
من ساير الافراس فلاجل هذا المعنى اظهر الله المخالفة بين صورها
الا ان المخالفة ههنا اقل من المخالفة التي بين صور الانسان

واما الحيوانات البرية فان حاجة الانسان اليها قليلة
وانتفاعها بواحد معين منها دون غيره نادر فلاجرم كانت
المخالفة بينها في الصور والاشكال اقل من المخالفة الحاصلة
بين صور الحيوانات الاهلية واما هذه الحيوانات الخسيسة
التي لا يتعلق حاجة الانسان بها البتة فلم يحصل المخالفة
بين صورها البتة وصارت في المشابهة بحيث لا يمكن
تميز بعضها عن البعض وهذا الترتيب الذي ذكرنا في تخليق
الحيوانات يدل على انها باسرها مخلوقة لمنفعة الانسان
حتى انها صارت مخلوقة على وفق مصلحة الانسان واذا
عرفت هذا فنقول ان امتياز الانسان عن سائر الحيوانات
مخلوقة لهذه الحكمة كما قال وما خلقت الجن والانس الا
ليعبدون ودل ايضا على ان خالق هذه الحيوانات ليس هو
الطبيعة ولا العلة والخاصية بل المؤثر فيها هو قدرة الصانع
المختار حتى انه سبحانه حيث تعلقت المصلحة باظهار هذه
المخالفة لم يظهرها فسبحان من لم يخل ذرة من ذرات الارض
والسماء عن دلايل ظاهرة وبراهين باهرة على كمال قدرته وغاية
حكمته الوجه السادس في عجايب خلقة الذباب انا بينا
ان كثرة طيرانها من الامور المطلوبة في الحكمة من حيث
ان طيرانها سبب لزوال العفونة عن الهواء فنقول ان كثرة
طيرانها في العفونات يصير سببا لوقوع تلك العفونات عن
اجنحتها ومتى اجتمعت على اجنحتها تلك العفونات ثقلت

وعجزت

وعجزت عن الطيران فدبر القادر الخالق ان قدر ان ينظف
جناحيها برجليها عن كل ما التصق بهما من العفونات ثم كما
انها ينظف جناحيها برجليها فكذلك خلق في مقدم بدنها
يدين زايدتين ينظف ابدا بهما عينيها وذلك لان العين
لا يكمل الانتفاع بها الا اذا كانت صافية صقيلة و
الحيوانات الكثيرة خلق الله على وجه احداقها اجفانها وهي
تكون مطرقة ابدا حتى ان الاطرافات الكثيرة لتلك الاجفان
ينظف سطح الحدقة في كل لحظة واوان عن انواع البخار
والغبار فبقي صقيله صافية ابدا فيبقى القوة الباصرة كاملة
فاما الذبابة فان راسها صغير ولا تحمل اعينها الاجفان التي
تصقل عنها لاجرم دبر الحكيم الرحيم في ذلك ان خلق في مقدم
بدنها هاتين اليدين الزايدتين واقدرها على ان ينظف بهاتين
اليدين الزايدتين عينها حتى تبقى صقيله صافية ابدا فسبحان
من خلق كل شيء على احسن الوجوه وهدى كل شيء الى رعاية مصلحة
على اقصى الوجوه الوجه السابع في عجايب خلقة الذباب قوله
عليه السلام اذا وقع الذباب في اناء احدكم فامقلوه فان
في احد جناحيه داء وفي الاخر دواء واعلم ان هذه الخاصية
اطلع عليها الرسول بنور النبوة والرسالة وهذا ايضا من
عجايب الخلقة فان كون احد الجناحين داء والاخر دواء مخصوص
بالذباب ولا يوجد في غيره الوجه الثامن انه تعالى جعل حالتي
الذباب بحسب الصيف والشتاء دليلا على اختلاف حالتي الانسان

بحسب الموت والبعث كما ان الذباب يغيب في الشتاء ثم يظهر
في الصيف فكذا الانسان يغيب في اللحد بالموت ويظهر في القيامة
بالبعث **الفصل الخامس** في الكلام في بقية الحيوانات
المذكورة في القران اما العنكبوت فقال تعالى مثل الذين
اتخذوا من دون الله اولياء كمثل العنكبوت الاية وفي تشبيه
عبادة الاصنام ببيت العنكبوت وجوه الاول ان بيت العنكبوت
لا يصون عن الحر والبرد فكذا عبادة الاصنام لا تجلب النفع
ولا يصون عن الضرر الثاني ان بيت العنكبوت ينهدم بادنى سبب
فكذا مذهب عبدة الاوثان يبطل بادنى حجة الثالث ان الشيء
انما يعرف بضده فلما كان الاشتغال بغير الله كبيت العنكبوت
في الضعف لزم ان يكون الاشتغال بطاعة الله سبحانه وعبوديته
اعظم واقوى من السموات السبع ثم في الاية لطايف دالة
على شرف المومن الاولى انه قال مثل الذين اتخذوا من دون الله اولياء
سمى الاصنام اولياء للكافرين ثم وصف نفسه بكونه وليا
للمؤمنين فقال الله ولي الذين امنوا فالصنم ولي الكافر
وجبار السموات والارض ولي المؤمن الثانية انه تعالى
خلق البعوضة والعنكبوت فجعل البعوضة سببا لهلاك
اشد الناس طغيانا وكفرا وهو نمرود وذلك لان البعوضة
التي اهلكت نمرود قالوا كانت سالمة نصف بدنها اما النصف
الثاني فكان مفلوجا فاسدا واما العنكبوت فانه تعالى
جعله سببا لنجاة محمد عليه السلام عن شر الكفرة وذلك لانه

لما دخل الغار نسج العنكبوت على باب الغار والحكمة في الكل
اظهار العظمة ليعلم الخلق ان الامر بيده وانه يفعل ما يشاء
ويحكم ما يريد ومن عجايب احوال العنكبوت انه اذا اراد
ان يبني بيته طلب زاوية يحيط بها ضلعان ثم يبتدي فيلقي
اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ثم يعدو الى
الجانب الاخر فيلصق الطرف الاخر من الخيط ثم لا يزال يذهب
ويجيء ثانيا وثالثا على تناسب مخصوص ثم اذا احكم
الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ونصف البعض الى البعض
على تناسب هندسية ثم يهيء شبكة يقع فيها البق والذباب
ثم يقعد في الزاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فاذا وقع
الصيد فيها بادر الى اخذه فان عجز عن الصيد بهذا الطريق طلب
لنفسه زاوية من حايط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم
علق نفسه منها بخيط اخر وبقي متنكسا في الهواء ينتظر
ذبابة فاذا طارت الذبابة رمى بنفسه عليها فاخذها ولف
خيطين على رجليها واحكمها ثم ما من حيوان صغير ولا كبير
الا وفيه من هذه العجايب ما لا يحصى افترى انه تعلم هذه الصنعة
من نفسه او تعلم من ادمي بل هذا من الالهامات الربانية
والهدايات الرحمانية واما النمل فقال في سورة النمل في
قصة سليمان عليه السلام حتى اذا اتوا على وادي النمل الاية
قال المفسرون وادي النمل واد بالشام كثير النمل فان قيل
لم عدى اتوا بعلى قلت لوجهين الاول انه لما كان من فوق

فاتوا حرف الاستعلاء والثانى ان يراد قطع الوادى وبلوغ
آخره من قولهم اتى على الشئ اذا بلغ اخره كانهم ارادوا ان
ينزلوا عند مقطع الوادى اما قوله قالت نمله فالمعنى انها
تكلمت بذلك وهذا غير مستبعد فان حصول العلم والنطق
لها ممكن في نفسه والله تعالى قادر على كل الممكنات
وعن قتادة انه دخل كوفة فالتفت عليه الناس فقال سلونى
عما شئتم وكان ابو حنيفة حاضرا وهو شاب حدث السن
فقال سلوه عن نمله سليمان اكانت ذكرا ام انثى فسالوه فافحم
فقال ابو حنيفة كانت انثى فقيل له عرفت فقال من كتاب الله
وهو قوله قالت نملة لو كان ذكرا لقال قال نمله وذلك
لان النملة مثل الحمامه والشاة فى وقوعها على الذكر والانثى
ثم تميز بينهما بعلامة كقولهم حمامه ذكر وحمامه انثى اما
قوله ادخلوا مساكنكم فاعلم ان النملة لما قاربت محل العقل
لاجرم خوطبت بما يخاطب به العقلاء فلهذا قالت ادخلوا
مساكنكم واما قوله لا يحطمنكم سليمان ففيه وجهان
احدها التقدير ادخلوا مساكنكم لئلا يحطمنكم والثانى
التقدير لا تكونوا بحيث انتم فيحطمكم على طريقة لا اراينك
ههنا وفى هذه الاية تنبيه على امور احدها ان من يسير في
الطريق لا يلزمها التحرز وانما يلزم في الطريق التحرز وثانيها
ان النمله قالت وهم لا يشعرون كانها عرفت ان النبى
معصوما والمعصوم لا يقع منه قتل هذه الحيوانات الا على سبيل

السهو ثم انها لما اثبتت هذه العصمة لاصحاب سليمان حيث
لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون كانت اكثر عقلا
من الحشوية الذين يجوزون المعصية على الانبياء عليهم السلام
ومن الروافض الذين يطعنون في اصحاب محمد عليه السلام فان
النملة ما طعنت فى صحابه سليمان عليه السلام وهؤلاء الروافض
يطعنون فى صحابة محمد عليه السلام وثالثها رايت فى بعض
الكتب ان تلك النملة انما امرت رعيتها بالدخول في مساكنها
لئلا يرى تلك النعم فلا يقع في كفران نعم الله وهذا تنبيه
على ان مجالسة ارباب الدنيا محذورة ويروى ان سليمان قال
لتلك النملة لم قلت للنمل ادخلوا مساكنكم اخفت مني
عليهم ظلما قال لا ولكنى خشيت ان يتعجبوا بما يرون من
ملكك فيشغلهم ذلك عن طاعة ربهم قال بعض اهل التذكير
ان النملة تكلمت فى هذه بعشرة اجناس من الكلام نادت ونبهت
وسمت وامرت ونصت وحذرت وخصت وعمت واشارت
وعذرت اما الندا فيا واما التنبيه فقولها ها واما
التسمية فقولها النمل واما الامر فقولها ادخلوا واما
النص فقولها مساكنكم واما التحذير فقولها لا يحطمنكم
واما التخصيص فقولها سليمان واما التعميم فقولها جنوده
واما الاشارة فقولها وهم واما العذر فقولها لا يشعرون
وايضا ان هذه النملة قامت باداء خمسة من الحقوق اولها
حق الله فانه تعالى جعلها ملك النمل فاحتاطت في رعاية الرعية

وثانيها حق سليمان فانها نبهته على الاحتراز من قتل البرى
عن الجرم وثالثها حق النمل فانها نصحت النمل حتى دخلت مساكنها
فتخلصت عن البلاء ورابعها حق جنود سليمان فانها حذرتهم
عن الاقدام على ايذاء الحيوانات من غير قصد وخامسها حق
جميع الخلق فانها بهذا الكلام اعلمت جميع الخلق والاجتهاد
في ايصال الاحسان الى الخلق والمبالغة في كف الاذى عن الخلق
كما قال عليه السلام كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته
فهذا ما يتعلق بهذه الاية على سبيل الاختصار واما الحكمة في خلق
النمل وفي عجايب احوالها فمن وجوه الاول انه تعالى اشار بخلق
النمل في الدنيا على كيفية حال المتكبرين في القيامة من الذلة و
الحقارة قال عليه السلام يحشر المتكبرون يوم القيامة
امثال الذر يطاهم الناس باقدامهم والثاني ان النمل يجمع في
الصيف للشتاء وفي وقت الوجدان لوقت الفقدان فينبغي ان
يكون العبد كذلك يشتغل بالطاعة في الدنيا ليجد الثواب في العقبى
قال عليه السلام في خطبة له فليأخذ العبد من نفسه لنفسه
ومن دنياه لاخرته ومن الشبيبة قبل الكبر ومن الحيوة قبل الموت
فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب وما بعد الدنيا من
دار الا الجنة او النار الثالث ان النمل قد يتكلف حمل نوى التمر
ويتحمل العنا والمشقة العظيمة في ذلك ثم انها لا ينتفع بتلك
النواة ان ينظر اليها ولا ان ينتفع قط ان عرب فيكون نصيبها
من تلك النواة محض المحنة والمشقة فهكذا الحريص تحمل المشقة

في

في جميع الدنيا ثم يموت ولا ينتفع بها ولا يكون له منها حظ
الا التعب الرابع النملة تحمل اضعاف وزن بدنها فكذا العبد
ينبغي ان يحمل اضعاف قوته من المشقة في طاعة الله الخامس
من عجايب احوالها انها تتخذ تحت الارض منازل وبيوتا
ويملاها حبوبا وذخاير قوتا لاجل الشتاء ثم يجعل بعض
بيوتها منعرجا عن البعض لئلا يجري اليها ماء المطر وربما
اتخذت بيتا فوق بيت لئلا يسيل اليها ماء المطر واذا ابتل
من تلك الحبوب شيء اخرجتها الى الشمس ايام الضحى ليجف ثم انها
تقطع الحبة بنصفين خوفا من ان ينبت وكذلك تقشر الشعير
والباقلي والعدس لاجل ان لا ينبت واذا خرجت من جحرها
يوما يذهب يمنة يوم الاخر تذهب يسرة ثم انها في الذهاب
والمجي كانها قوافل لا ينحرف عن الطريق ثم اذا ذهبت
واحدة منها فوجدت شيئا لا يقدر على حملها اخذت منها قدرا
ورجعت واخبرت الباقين بذلك وربما اجتمع على الشيء الواحد
عدد منها يحملونه ويذهبون به الى الجحر ويحملون العنا والشدة فيه
واذا علمت بان واحدة توانت في الحمل وتكاسلت في الاعانة
اجتمعت على قتلها ورمت بها عبرة لغيرها قال امير المؤمنين
رضي الله عنه في خطبته انظروا الى النملة في صغر جثتها ولطافة
هيئتها كيف دبت على ارضها وصبت على رزقها تنقل الحبة
الى جحرها وتعدها في مستقرها تجمع لبردها في حرها وفي
ورودها لصدرها مكفولة برزقها مرزوقة بوفقها لا يغفلها

الديان ولا يحرمها المنان ولو في الصفا اليابس والحجر
الحامس واما الارضة فقد قال تعالى في سبا في قصة سليمان
فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته الا دابة الارض
تاكل منساته الاية قيل انه عليه السلام قال اللهم اعم
على الجن موتي ليعلم الانس انهم لا يعلمون الغيب ودخل في محرابه
وقام متكئا على عصاه فمات وبقي قايما سنة حتى تم بناء مسجد
بيت المقدس ثم سلط الله الارضة على منساته فلما خر فعرف
الجن موته وكانوا يحسبونه حيا لكثرة ما شاهدوا من طول
قيامه وقرا نافع وابو عمرو منساته بغير همزة وقرا ابن عامر
بهمزة ساكنة والباقون بهمزة مفتوحة وكلها لغات صحيحة
واصله الهمز لانه من نسات الشيء اي طردته اما قوله تبينت الجن
فيه قولان احدهما تبينت حال الجن للانس ان الجن لا يعلمون الغيب
الثاني عرفت عوام الجن ان روساهم لا يعلمون الغيب فانهم
كانوا يوهمون انهم يعلمون الغيب والعذاب المهين هو
تلك الاعمال الشاقة في ومن عجايب احوال هذا الحيوان
امور ثلثة الاول انه تعالى اعطاها مشفرين يشبه السواطير
تقرض بهما الخشب ونوى التمر وتنقب بهما الحجر ونوى التمر
والاجر وهذا من العجايب فان ذلك الحيوان على صغر جرمه وخلوه
بدنه كيف حصل المشفرية هذه القوة العظيمة والثاني انها اذا
ثقبت الخشبة من داخلها حتت هناك على نفسها بنيانا من الطين
الصرف يشبه الازج والاروقة فمن ان وجدت هناك التراب

والماء حتى جعلها طينا وبنت لنفسها من ذلك الطين بيتا
والثالث ان الطير المسمى نقار الخشب لا ينقر الا على الموضع
الذي يكون تحته هذا الحيوان فتامل ان هذا الطير باي
علامة عرف ان تحت ذلك الموضع هذه الارضة وكيف
تميز عنده ذلك الموضع من الشجرة عن ساير المواضع ومن انصف
علم ان علوم الخلايق لا تصل الى هذه الاسرار واقر بجلاله
علم خالق العالم وكمال قدرته وحكمته واما الفراش في قوله
تعالى يوم يكون الناس كالفراش المبثوث اعلم انه تعالى
وصف يوم القيامة بامرين الاول كون الناس فيه كالفراش
المبثوث قال الزجاج الفراش هو الحيوان الذي يتهافت
في النار وسمي فراشا لتفرشه وانتشاره ثم انه تعالى شبه
الخلق في هذه الاية وقت البعث بالفراش وفي آية اخرى
بالجراد المنتشر اما وجه التشبيه بالفراش فلان الفراش
اذا اراد الطيران لم يتجه بجهة واحدة بل كل واحد منها
يذهب الى غير جهة الاخر وهذا يدل على ان الخلق اذا بعثوا
فزعوا فاختلفوا في المشي الى جهات مختلفة غير مضبوطة
والمبثوث المفرق يقال بثه اذا فرقه واما وجه التشبيه
بالجراد فهو في الكثرة قال الفراء كغوغا الجراد يركب
بعضه بعضا وبالجملة فالله سبحانه شبه الناس في وقت
البعث بالجراد المنتشر وبالفراش المبثوث لانهم لما بعثوا
يموج بعضهم في بعض كالفراش والجراد ويتاكد بما ذكرناه

بقوله تعالى فتاتون افواجا وقوله يوم يقوم الناس لرب
العالمين وقوله وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض
فان قيل الجراد بالنسبة الى الفراش كبار فكيف شبه الواحد
بالصغر والكبر قلنا شبه الشئ الواحد بالصغر والكبر
لكن في الموضعين اما التشبه بالفراش فلاجل ذهاب كل واحد
الى غير جهة الاخر واما بالجراد فلاجل الكثرة والتتابع
ويحتمل ايضا ان تكون كبارا اولا ثم يصير صغارا كالفراش
بسبب احتراقهم بحر الشمس وذكروا بالنسبة بالفراش وجوها
اخر الاول ما روي انه عليه السلام قال الناس عالم ومتعلم
وساير الناس همج ورعاع فجعلهم الله في الاخرة كذلك
جزاء وفاقا والثاني انه تعالى انما قال كالفراش لانهم
يكونون في ذلك اليوم اقل من الفراش لان الفراش لا يعذب
وهؤلاء يعذبون ونظيره قوله تعالى اولئك كالانعام
بل هم والثالث ان الفراش كلما منع عن ان يلقي نفسه في النار
فانه يعود فكذا هؤلاء الكفار كانوا يمنعون عن نار جهنم
وهم كانوا يلقون انفسهم فيها الصفة الثانية من صفات
ذلك اليوم قوله ويكون الجبال كالعهن المنفوش والعهن
الصوف ذوات الالوان والنفش هو جعل الصوف بحيث
ينفش بعضه عن بعض واعلم انه تعالى اخبر ان الجبال مختلفة
الالوان كما قال ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها
وغرابيب سود ثم انه سبحانه يفرق اجزاءها ويزيل التاليف

والتركيب

والتركيب عنها فيصير ذلك مشابها للصوف الملون بالالوان
المختلفة اذا جعل منفوشا وانما ضم تعالى بين حال الناس
وبين حال الجبال كانه قال ان تاثير تلك القرعة في الجبال
هو انها تصير كالعهن المنفوش فكيف يكون حال الانسان عند
سماعها بل قال لو تم الويل لابن آدم ان لم يتداركه رحمة من ربه
ويحتمل ان يكون المراد ان الجبال النار تصير كالعهن لشدة حمرتها
وانما لم يقل يوم يكون الناس كالفراش المبثوث والجبال كالعهن
المنفوش لان التكرير في مثل هذا المقام ابلغ في التحذير
واعلم ان حال هذا الحيوان عجيب فانه كما يقال انه يحب النور و
يبغض الظلمة جدا فاذا احس بالسراج ظن انه منفذ الى عالم النور
فيلقي بنفسه على السراج لطلب ان يتخلص من عالم الظلمات الى عالم
النور ومنهم من قال انه يحب شكل النار وصورتها فلفرط
حبه النار جعل نفسه فداء للنار وعلى التقديرين فهو اما
ان يكون محبا للنور او للنار وكيف ما كان فانه جعل نفسه
فداء المحبوب واذا كان الامر كذلك فالانسان اولى بان
يجعل نفسه فداء لنور محبة الله ولنار محبته فان اهل الهند
يحرقون انفسهم على نار الله فالمومن اولى ان يحرق قلبه في حب
الله فان قيل قال تعالى ومن الناس من يتخذ من دون الله اندادا
يحبونهم كحب الله والذين امنوا اشد حبا لله ثم ان الهند
يحرقون انفسهم والمؤمن لا يفعل والجواب من وجوه الاول
ان معبود الكافر لا رحمة له عليه ومعبود المؤمن رحيم وكذلك

معبود الكافر لا علم له بشيء ومعبود المؤمن عليم فما بدا الصنم
اذا احرق نفسه لاجله فالصنم ما علمه ولا رحمه واما الحق
تعالى فانه عليم باحوال عبيده رحيم بهم فلهذا منعهم
عن ذلك العمل والثاني ان الكافر يحرق نفسه وهو يرى
معبوده بعينه والمؤمن يعرض نفسه للقتل ولا يرى معبوده
فكان هذا اعظم الثالث ان قليل الحقيقة خير من كثير المجاز
وفعل المؤمن حقيقه وفعل الكافر مجاز والرابع قال الجنيد
اهل الهند يحرقون انفسهم لاجل الصنم فاذا كان القيامة
حشروا مع اصنامهم الى باب جهنم فيقال لهم ادخلوا النار
مع اصنامكم كما دخلتم النار في الدنيا فيابون فيقول
الله للمؤمنين ادخلوا النار فيقولون سمعنا واطعنا ويتسارعون
الى النار فكذلك هو قوله تعالى والذين آمنوا اشد حبا لله

الفصل السادس في حيوانات الماء

قال الله تعالى والله
خلق كل دابة من ماء الاية ذكروا انه في الربع المعمور اربعة عشر
بحرا كبارا منها بحر الروم وبحر القلزم وبحر فارس وبحر الهند
وبحر الصين وبحر ياجوج وماجوج وبحر الحبشه وبحر الاخضر
وبحر الشرق وبحر المغرب وبحر الشمال وبحر الجنوب وبحر طبرستان
وثمانية انهار طوال مثل جيحون وسيحون ودجلة والفرات
ونيل مصر و   الرس وهي منذ طول واحد منها مائة فرسخ
الى الف فرسخ وقريبا من خمسماية انهار صغار واما الآجام
والغدران والانهار الصغار فلا تعد ولا تحصى فهذا مجموع

ما في الربع المعمور واما الارباع الثلثة من الارض فانها مغمورة
في البحر واذا عرفت هذا فتامل في الحيوانات الموجودة في بحار
الربع المسكون واوديتها وآجامها ثم تامل فيما حصل في
البحر المحيط حتى تعلم ان حيوانات البحر لا نسبة لها في الكثرة
وعجايب الخلقة والصفة الى حيوانات البر ثم انه سبحانه
يحفظها ويرعاها ولا يخفى عليه خافية من امورها ويعلم
مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين ذكروا
ان ملك حيوانات البحر هو الثعبان وجنوده التماسيح والكواسج
والسرطانات واصناف من الحيوانات البحرية لا يحصي عددها
وانواعها الا الله قالوا وهذا الحيوان هايل المنظر مهيب المخبر
تخاف كل حيوانات البحر لشدته وقوته وعظم صولته واذا
تحرك تموج البحر من شدة ساحته براق العين واسع الجوف
والفم كبير الاسنان يبتلع في كل يوم من حيوانات البحر
عددا لا يحصى فاذا امتلا جوفه نفوس والتوى واعتمد على راسه
وذنبه فيرفع وسطه خارجا من الماء مرتفعا في الهواء مثل
قوس قزح ومقصوده ان يوثر فيه حر الشمس فيستمري ما في
جوفه وربما عرض له في تلك الحالة مثل الغشي والسكر ويبقى
كذلك اياما ثم ينعقد السحاب من تحته ثم يرفعه الرياح
الشديدة وترميه الى البر فيموت وياكل من جيفته السباع
مدة مديدة ويرمى الى ياجوج وماجوج ما وراء السد فيصير
غذاء لها ثم ان هذا الحيوان على عظمته لا يتاذى من شيء الا

من حيوان صغير في البحر يلسعه وهو لا يقدر عليه فنفذت سمه
في جسم هذا الحيوان فيموت ويصير غذاء للحيوانات وهكذا حكم
كل الحيوانات وذلك لان الجراد والنمل والذباب والبق وما
شاكلها غذاء للعصافير والقنابر والخطاطيف ثم هذا العصافير
والقنابر والخطاطيف غذاء للبواشيق والشواهين ثم هذه
الحيوانات اغذية للنسور والعقبان ثم انها اذا ماتت اكلتها
الحيوانات الصغيرة من النمل والذباب والدود وهكذا حال بني
آدم فانهم ياكلون الطيور ثم ان الطيور ياكل الذباب والبق
ثم اذا مات ابن آدم اكلتهم في قبورهم الديدان والحشرات
فتارة ياكل صغار الحيوانات كبارها وتارة ياكل صغارها
كبارها ليحصل العدل فان بالعدل قامت السموات والارضون
ومن عجايب البحر صدفة الدرة ويقال ان لها وقتا معينا في
السنة تصعد من قعر البحر الى ظاهر سطح الماء في يوم المطير
فيفتح اذنين لها شبه السفطين فيقطر فيها من ماء المطر
حبات فاذا احست بذلك ضمت السفطين ضما شديدا حتى
لا يقع فيه شيء من الماء المالح الذي في البحر ثم ينزل برفق الى قطر
البحر وتمكث هناك منضمة على الصدفين الى ان ينعقد الدر
في الصدف

الفصل التابع في احوال الانعام

اعلم انه سبحانه
استدل على وجود الصانع وقدرته وحكمته باحوال البهايم
وذكر ذلك في آيات كثيرة واجمعها ما جمعها في سورة النمل
فقال والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون

واعلم ان هذه الحيوانات مخلوقة لمصلحة المكلفين فكل حيوان
كان انتفاع المكلفين اكثر كان اشرف ومعلوم ان انتفاع
المكلفين بالانعام اكثر من انتفاعهم بغيرها وذلك
لان الانعام منتفع بها في الاكل وذلك باكل لحومها وفي الشرب
وذلك بشرب البانها وفي اللبس وذلك باتخاد الملابس
من اصوافها واوبارها وبالركوب وذلك بركوبها وبالحمل وذلك
بان يحمل امتعتهم في الاسفار وفي كثرة المال وذلك بسبب
درها ونسلها وفي التجمل بها وذلك لانها من الاموال الظاهرة
فيحصل التجمل بها ولما كان انتفاع الناس بالانعام اكثر من انتفاعهم
بساير الحيوانات لاجرم كانت الانعام اشرف انواع الحيوانات
فلهذا السبب قدمها الله تعالى في الذكر على ساير الحيوانات فقال
والانعام خلقها لكم فيها دفء ثم انه تعالى فصل القول في
بيان منفعتها فالمنفعة الاولى قوله لكم فيها دفء والمراد من
الدفء هو اللباس وذلك لان اللباس سبب الدفء فيسمى اللباس
باسم الدفء وتحقيق الكلام ان روح الانسان اشرف الارواح
السفلية والسبب في هذا الشرف العظيم كونها مشرفة بتشريف
الاضافة المذكورة في قوله ونفخت فيه من روحي ولما كانت
الروح الانسانية اشرف الارواح السفلية وجب ان تكون
البدن الانساني اشرف الابدان السفلية واشدها اعتدالا
وابعدها عن الكثافة والصلابة ولما كان بدنه في غاية
الاعتدال لاجرم لم ينبت على جلدة الشعور الكثيرة فلاجرم

بقي عاريًا عن الوطء والدثار الذي هو حاصل لسائر الحيوانات
واذا كان كذلك فلطافة مزاجه يحوجه الى التصون عن الحر
والبرد وكيفيات الاهوية ورطوبات الامطار وكذلك
عراة جلدة عن الشعر يحوجه ايضا الى ذلك فلاجرم احتاج الانسان
الى الملبوس المنفعة الثانية قوله في هذه الآية ومنافع واعلم
ان ما قبل هذه الكلمة ذكر الدفء ولفظة المنافع مبهمة محتملة
فلما قدم ذكر الدفء يحتمل ان يكون المراد من هذه المنافع
هو المسكن ولما ذكر بعد هذه الكلمة الاكل يحتمل ان يكون المراد
من هذه المنافع الشرب اما الاحتمال الاول فيقول الانسان
كما هو محتاج الى الملبس فكذلك هو محتاج الى المسكن وسبب
الاحتياج من وجوه الاول ان كل احد من الناس قد يقدم
على ما لا يستحق اطلاع الغير عليه فلاجرم يحتاج الى المسكن
المفرد والثاني ان الانسان لا يمكنه الجلوس في الحر الشديد
من الشمس وفي الهواء البارد جدا ولا يمكنه ان يجلس في الرياح
الشديدة والامطار القوية فلاجرم يحتاج الى المسكن و
الثالث ان الانسان يحتاج الى ادخار الاموال والمطعومات
والملبوسات ولا يمكن حفظها الا بالدار والرابع ان الانسان
يحتاج الى ان يحترز من ضرر الاعداء السباع وذلك لا يمكن
الا بالدار فلاجل هذه الوجوه يحتاج الانسان الى التفرد
بالمسكن واعلم ان المسكن يجري مجرى الثوب في كونه ساتر البدن
ومانعا من فضول الموذيات من الحر والبرد والرياح اليه ولما ذكر

الله الملبوس قال بعده ومنافع اي منافع من جنس منفعة الملبوس
وهي منفعة المسكن واعلم انه تعالى شرح امر هذه السورة في آية
اخرى فقال والله جعل لكم من بيوتكم سكنا اي تسكنون
فيه هوا اما يتخذ من الحجر والمدر وكل ذلك مخلوق لله تعالى ولكنه
ذكر بحسب تمكن المقيمين اتخاذ الابنية منها ثم قال وجعل
لكم من جلود الانعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم
يعني الخيام والقباب والفساطيط المتخذة من النطاع والجلود
للسفر والحضر ثم قال ومن اصوافها واوبارها واشعارها
اثاثا ومتاعا الى حين فالاثاث ما يحتاج اليه في البيت
والمتاع ما يتنعم ويتجمل به ثم قال الى حين اي الى الموت والمعنى
ان الانتفاع بالدنيا يكون الى مدة ولا يدوم فينبغي للعاقل
ان يختار الاخرة واما الاحتمال الثاني وهو ان يحمل المنافع
المذكورة في هذه الاية على المشروب واعلم انه تعالى جعل
البانها مشروبا لطيفا طاهرا وذكر هذه النعمة في آيات
احدها قال تعالى في النحل وان لكم في الانعام لعبرة نسقيكم
مما في بطونه الاية والثاني قال في سورة قد افلح وان لكم
في الانعام لعبرة الاية المنفعة الثالثة من المنافع المطلوبة
من الانعام ومنها تاكلون واعلم انه تعالى ذكر منفعة الاكل
في المرتبة الثالثة وههنا ابحاث البحث الاول في سبب
احتياج الناس الى اكل اللحم واعلم ان السبب فيه ان الانسان
مركب من العظم واللحم ومن شان الغذاء ان يكون شبيها

بالمغتذى فلهذا السبب كان اكمل الاغذية للانسان
هو اللحم البحث الثانى ان قوله ومنها تاكلون يفيد الحصر
والمعنى منها تاكلون لا من غيرها وظاهر هذه الاية يقتضى
حرمة اكل غيرها الا ما خصه الدليل فلما قال بعده
والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ذكر هذه الحيوانات
وخصها بانها مخلوقة للركوب مع ان الاية المتقدمة دالة
على حصر منفعة الاكل في جنس الانعام كان مجموعها دالا
على حرمة اكل لحم الخيل كما يقوله ابو حنيفة رضى الله عنه
المنفعة الرابعة قوله تعالى ولكم فيها جمال حين تريحون وحين
تسرحون الاراحة رد الماشية بالعشى من مراعيها الى مباركها
وسرح الماشية اطلاقها وانما قدم فى الذكر مع انها متاخرة
فى الوجود لان وقت الاراحة يكون وقت شبع وامتلاء ابدانها
من اللبن بخلاف وقت التسريح ولا شك ان التجمل في ذلك الوقت
اكمل المنفعة الخامسة قوله تعالى وتحمل اثقالكم الى بلد
لم تكونوا بالغيه الا بشق الانفس والشق المشقة والتحقيق
ان الشق نصف الشئ والمعنى لم تكونوا بالغيه الا بذهاب بعض
قواكم واعلم انه تعالى ذكر هذه المنفعة فى آيات كثيرة منها
قوله ومن الانعام حمولة وفرشا ومنها قوله فى يس اولم يروا
انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما فهم لها مالكون الايات
وقال فى المؤمن الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها
ومنها تاكلون ومنها قوله فى الزخرف وجعل لكم من الفلك

والانعام ما تركبون لتستووا على ظهوره الاية والنكتة
فيه ان الابل اقوى من سائقه وكذلك الخيل والفيل فذلك
الانقياد لا يتيسر الا بتسخير الله تعالى كما قال سبحانه
سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وما الغرض منه
الا التنبيه كانه تعالى يقول انما الذى جعلت القوى
منقادا للضعيف فاعلم انى قادر عليك ومستولى عليك
فينبغى ان تكون خائفا منى منقادا لحكمى
والا كسرت رقبتك في محل القهر

تم هذا الكتاب بعون الملك الوهاب على يدى اضعف العباد
الراجى الى رحمة ربه يوم المعاد بخط العبد الضعيف المحتاج
الى رحمة ربه الكريم ابراهيم بن صالح بن حسن احسن الله وجههم
فى يوم الحشر والقرار في نصف ليلة الجمعة في يوم السابع والعشرين
من شهر رجب المرجب المبارك من شهور سنه
ثلث وثمانين والف بعد الهجرة النبوية
حامدا لله تعالى ومصليا على رسوله محمد وآله
اجمعين غفر الله له ولوالديه
ولجميع المسلمين والمسلمات
والمومنين والمؤمنات
الاحياء منهم والاموات
برحمتك يا ارحم
الراحمين